

# الأمم المتحدة

Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثالث

## أقاصي الأرض

THE ENDS OF THE EARTH



فاليريو ماسيمو مانفريدي  
VALERIO MASSIMO MANFREDI



الاسكندر

Alexandros

رواية مستقلة/الكتاب الثالث

أقاصي الأرض

THE ENDS OF THE EARTH





# الأسفلت

Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثالث

## أقاصي الأرض

THE ENDS OF THE EARTH

تأليف

فاليريو ماسيمو مانفريدي

Valerio Massimo Manfredi

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحريير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة كتاب

**Alexandros, Vol 3: Le Sabbie di Amon**

by Valerio Massimo Manfredi

**Alexander: The Ends Of The Earth**

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 1998 Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano

All rights reserved

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0135-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية  
بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر  
أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

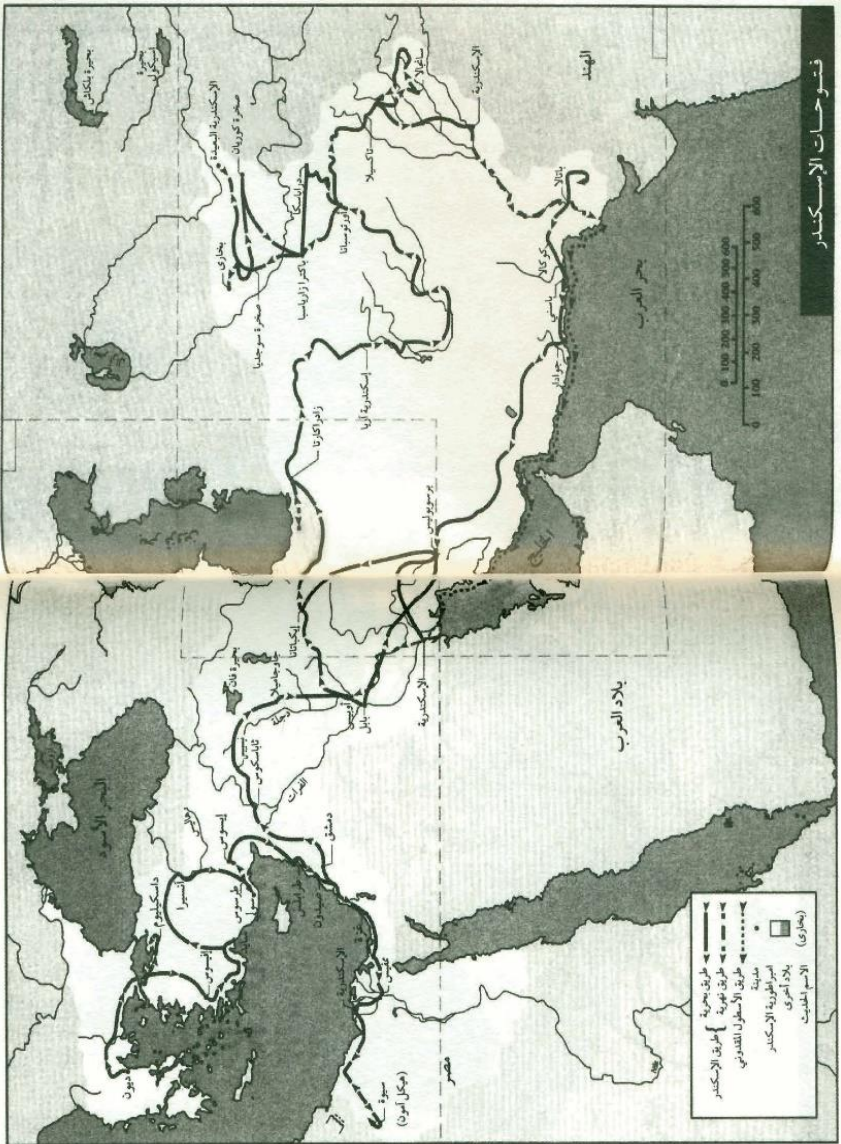
إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

التنظيف وفرز الألوان: أوجد جرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

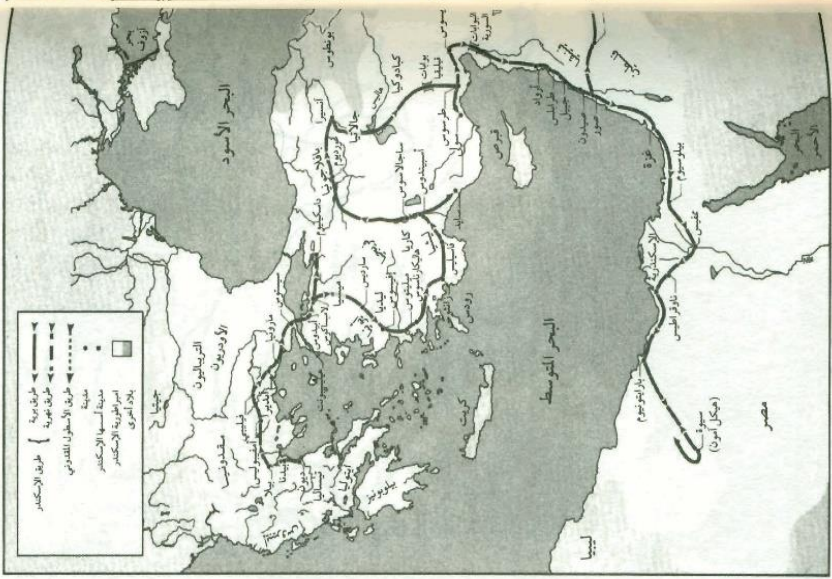
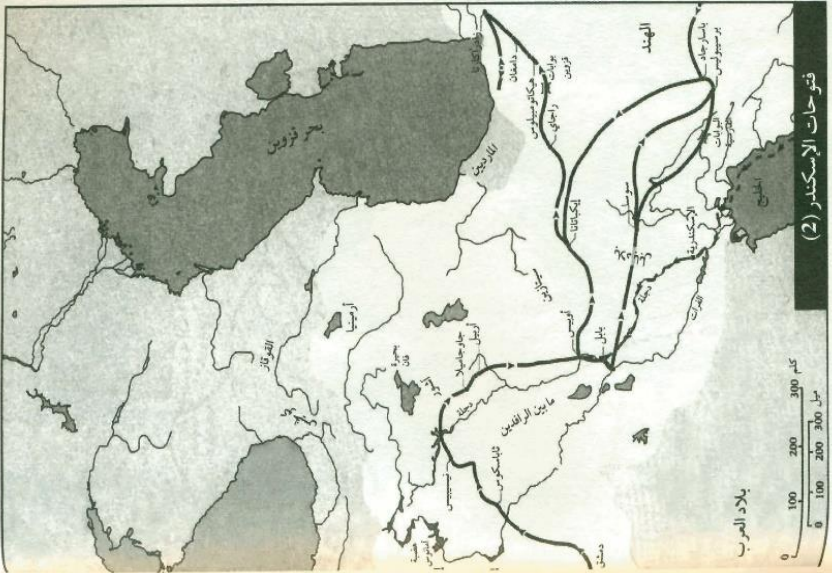
إلى كريستين

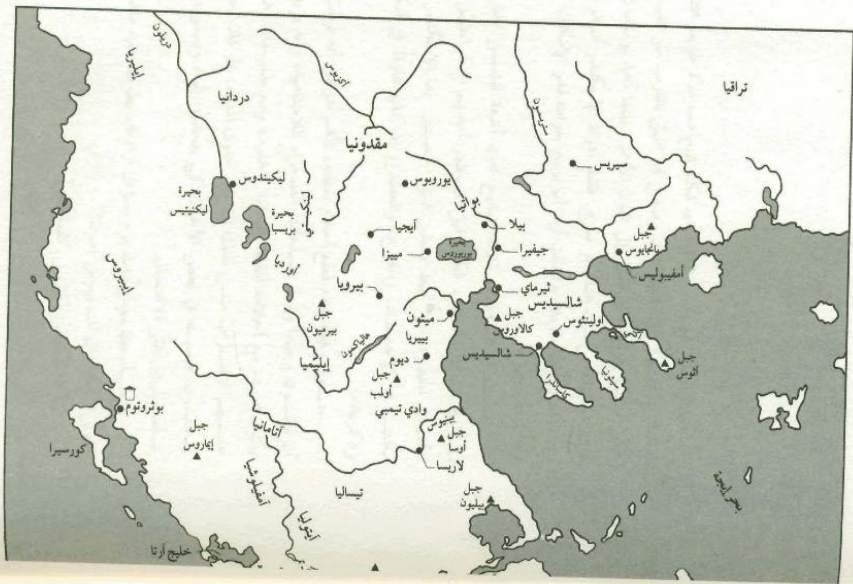
# تطور الإسكندرية



- طريق بحرية
- طريق الإسكندرية
- طريق نهرية
- طريق الأسطول القديم
- مدينة
- المنطقة الإسكندرية
- بلاد أخرى
- الاسم الحديث

فتوحات الإسكندر (2)





اليونان القديمة





# 1

انطلق الملك مجدداً عبر الصحراء، لكنّه اتبع هذه المرّة طريقاً مختلفة تصل مباشرةً بين واحة آمون وضيقي نهر النيل بالقرب من ممفيس. امتطى صهوة جواده البني المائل إلى اللون الأحمر، بينما أخذ بوسيفالاس يجري بمحاذاته من دون عنان أو سرج. فلقد أدرك الإسكندر أن الرحلة ستستغرق وقتاً طويلاً، ولذلك أراد أن يريح جواده قدر الإمكان كي يوفر قوته وحيويته.

استغرق الزحف ثلاثة أسابيع تحت أشعة الشمس الحارقة، لذلك عانى الجنود الكثير قبل أن يظهر أمامهم الخط الضيق من الأشجار الخضراء التي تحيط بضيقي النيل الخصبتين. بدا الإسكندر غير مكترث بالإجهاد، والجوع، والعطش، إذ كان غارقاً في أفكاره وذاكرياته.

حاول رفاقه عدم قطع أحلام يقظته، لأنهم أدركوا أنه يرغب في أن يكون وحيداً وسط مساحات الصحراء اللامتناهية، وأنه يريد أن يكون بمفرده مع أحلامه المقلقة المتعلقة بالخلود، ومع طموحاته. صعب عليهم الاقتراب من الملك إلا عند حلول المساء. إذ كان بعضهم يدخلون خيمته في بعض الأحيان كي يتحدثوا إليه، ويسلّوه، فيما تساعد ليبتين على الاغتسال.

فاجأه بطليموس ذات يوم بسؤالٍ أراد أن يطرّحه عليه منذ زمنٍ طويل: "ماذا قال لك زيوس آمون؟".

ردّ الإسكندر: "قال لي كلمة/بني".

تناول بطليموس الإسفنجة التي وقعت من يد لبيتين وناولها إياها.  
"وماذا سألته؟".

"سألته إن كان قد بقي أحد من قتلة والدي على قيد الحياة؟".

لم يقل بطليموس أي شيء، بل انتظر حتى خرج الملك من حوض الاستحمام، فوضع منشفةً من الكتان النظيف على كتفيه، ثم بدأ بتجفيفه. استدار الإسكندر، فنظر صديقه إلى عينيه بثبات وسأله: "إذاً، هل ما زلت تحب والدك فيليب الآن وقد أصبحت ابناً لآمون؟".

تنهّد الإسكندر وقال: "لو لم تكن هنا أمامي في هذه اللحظة لكنت افترضت أن كاليستين هو الذي طرح هذا السؤال، أو كلايتوس الأسود... أعطني سيفك". نظر إليه بطليموس بدهشة، ولكنه لم يجرؤ على الرد، بل استل سيفه من غمده، وقدمه إلى الملك، وما لبث الإسكندر أن أخذ السلاح منه، وجرح ذراعه بحد السيف المعدني، فسال الدم غزيراً.

"ما هذا يا بطليموس، إذا لم يكن دمًا؟".

"إنه دم بالفعل".

"تماماً، لأنه ليس اليعصور الذي يُقال إنه يجري في عروق آمون".  
وتابع مستشهداً بقول لوميروس: "لذلك حاول أن تفهمني يا صديقي. فإذا كنت تحبني، فإنني أريدك أن تضع حدًا لهذه الأقوال التي لا أساس لها من الصحة".

فهم بطليموس، واعتذر إليه لأنه تكلم بهذه الطريقة، بينما راحت لبيتين تغسل ذراع الملك بالشراب قبل أن تضع ضمادة حول جرحه.  
لاحظ الإسكندر أن صديقه آسفٌ بالفعل، فدعاه إلى البقاء كي يتناول العشاء معه، بالرغم من عدم وجود الكثير من الطعام. إذ كان هناك فقط خبز يابس، وبعض التمر، وبعض شراب التمر الذي يتميز بالحدة.

سأل بطليموس: "ماذا سنفعل الآن؟".

"أعتزم العودة إلى صور".

"وماذا بعد ذلك؟".

"لا أعرف. أعتقد أن أنيبياتر سيرسل إليّ من بخبرني بما يحصل في اليونان، كما أن مخبرينا سيعلمونا بما يعتزم داريوس أن يفعله. سأؤجل القرار إلى أن تصلنا الأخبار".

"أعلم أن إيومينيس قد أبلغك بعض الأخبار المحزنة المتعلقة بصهرك إسكندر إيبيروس".

"أجل، لقد فعل ذلك. إن شقيقي بمفردها الآن، وهي غارقة في الحزن، وكذلك والدتي لأنها تحب شقيقها كثيراً".

"لكنني متأكد من أن الحزن الأكبر من نصيبك. أليس كذلك؟".

"أجل. أعتقد أنك محق".

"ما الذي قرّب بينكما، عدا عن روابط القرى الأسرية التي جمعتكما؟".

"تشاركنا حلماً عظيماً. والآن، أصبح تحقيق الحلم بكامله يقع على عاتقي. سنغزو إيطاليا معاً يا بطليموس في يومٍ من الأيام، وسنقضي على البرابرة الذين قتلوه".

سكب بعض الشراب لصديقه ثم قال: "أتود سماع بعض أبيات الشعر؟ لقد دعوت تيسالوس كي يسليني".

"أحب ذلك حقاً. لكن، أي الأشعار اخترت؟".

"اخترتُ أعمالاً لمجموعة من الشعراء. إن هذه الرمال اللامتناهية التي تحيط بنا تذكّرني بمساحة البحر العظيمة، كما يجعلني كل هذا الجفاف أتوق إليه".

ما إن انتهت لبيتين من رفع الأطباق عن الطاولتين الصغيرتين، حتى دخل الممثل الذي ارتدى ثياب التمثيل، ووضع بعض مساحيق التجميل على وجهه. إذ كحل عينيه، وخطط فمه بالصبغ الأحمر كي يوحي بتعبير يدل على المرارة، أي أنه استخدم ما يماثل أقنعة مسرحيات التراجيديا. داعب تيسالوس بعض أوتار قيثارته التي أصدرت أنغاماً حزينة:

أيها النسيم، نسيم البحر،  
الذي يهب فوق السفن السريعة، والجياد التي تجتاز المحيط،  
والذي يحرك الأمواج المتلاطمة!  
أين ستحملني الآن، يا رفيقي الحزين؟<sup>(\*)</sup>

أصغى الإسكندر إلى أبيات الشعر التي ينشدها الممثل وسط صمت الليل المخيم. وبدا مفتوناً بذلك الصوت القادر على التعبير عن كل المشاعر الإنسانية وعن كل العواطف، والقادر على تقليد الأصوات؛ حتى صوت صفير الريح وقصف الرعد.

مكثا حتى ساعة متأخرة من الليل وهما يستمعان إلى صوت ذلك الممثل الذي يحاول التعبير عن شتى أنواع المشاعر، والذي تمكن من النحيب كالنساء الثكالي، ومن السمو فخراً عندما قلّد أصوات الأبطال. وعندما انتهى، عانقه الإسكندر وقال له والعبرات تملأ عينيه: "شكراً لك. لقد استحضرت الأحلام التي سأبصرها هذه الليلة. اذهب الآن كي تستريح، لأن مسيرة طويلة تنتظرنا غداً".

أما بطليموس فمكث قليلاً كي يتناول بعض الشراب مع الإسكندر.

(\*) يوريبديدس، هيكابا (الأسطر 444-445) ترجمة إي. بي. كولردج (1938)

سأله فجأة: "ألا تفكر في بيلا أبداً؟ ألا تفكر في والدتك ووالدك، وفي تلك الأيام التي كنا فيها أولاداً، وكنا نركض فوق تلال مقدونيا؟ ألا تفكر في مياه أنهرنا وبحيرتنا المتألثة".

فكّر الإسكندر في السؤال للحظة قبل أن يجيب: "إنني أفكر في تلك الأمور كثيراً، ولكن باعتبارها بعيدة. إن حياتنا مضغوطة بحيث تبدو كل ساعة وكأنها سنة".

"إذاً، يعني ذلك أننا سنهرم قبل أواننا. أليس كذلك؟".

"الاحتمال وارد. إن المشعل الذي يضيء الغرفة أكثر هو المشعل الذي ينطفئ قبل غيره، لكن كل الموجودين سيتذكرون كم كان ضوءه جميلاً في ذروة اشتعاله".

جرّ باب الخيمة جانباً، ورافق بطليموس إلى الخارج. كانت السماء فوق الصحراء مليئة بمجموعات لا تعد ولا تُحصى من النجوم، وما لبث الرجلان أن نظرا إلى الأعلى كي يشاهداها.

"لعل ذلك هو مصير النجوم التي تلمع أكثر من غيرها في السماء. طابت ليلتك، نم هانئاً يا صديقي".

فردّ بطليموس وهو يتحرك نحو خيمته الواقعة في طرف المخيم: "وأنت أيضاً".

بعد مسيرة خمسة أيام، وصل الجيش إلى ضفتي نهر النيل في ممفيس حيث كان بارمينيون ونيرخوس في انتظاره. رأى الإسكندر بارسين مجدداً في تلك الليلة. كانت تمكث في بناء فحم كان يعود لأحد الفراعنة في ما مضى، وخصّص طابقه العلويان لها. في ذلك اليوم، جلبت الرياح الشمالية الانتعاش معها، كما حرّكت الستائر الكتانية الزرقاء التي كانت كأجنحة الفراشات خفة ودقة.

انتظرته بارسين جالسةً على مقعدٍ ذي ذراعين مزخرفتين بنقوش



ذهبية لامعة. وكانت ترتدي رداءً خفيفاً ذا طراز أيوني، فيما انسدل شعرها الأسود الذي تتخلله خصلات بنفسجية على كتفيها. وبدا أنها استخدمت مقداراً قليلاً من مساحيق التجميل على الطريقة المصرية.

تمازج ضوء القمر مع أضواء المشاعل المخبأة وراء فواصل من المرمر في جوٍّ عابقٍ بعطور العنبر والصابار. وانعكست هذه الأضواء على أوعية الأونيكس المليئة بالمياه، والتي كانت أزهار اللوتس وتويجات الأزهار تطفو على سطحها. تناهت إلى الأسماع من خلال فروع العاج والطيور المنزلة موسيقى النايات والقيثارات الهادئة واللطيفة. كانت الجدران بكاملها مزينة بصور مصرية قديمة تمثل خادמות يرقصن على أنغام العود والدف أمام الملك والملكة الجالسَيْن على عرشيهما. أما في الزاوية، فكان هناك سرير كبير مزود بستارة زرقاء تحملها أربعة أعمدة خشبية مزينة بأحرف على شكل أزهار اللوتس.

دخل الإسكندر الغرفة، ونظر إلى بارسين بلهفة. كانت عيناه ممتلئتين بضوء الصحراء المبهر، أما أذناه فكانت تتردد فيهما الكلمات التي سمعها في هيكَل آمون، فيما بدا جسده وكأنه محاط بهالة وضآء. كانت خصلات شعره الذهبية منسدلة على كتفيه، بينما حمل صدره مشدود العضلات ندوباً كثيرة، أما عيناه فقد تغيّر لونهما، فيما برزت من يديه النحيلتين والقويتين العروق الزرقاء. لم يستر جسده العاري سوى بعباءة قصيرة فضفاضة، مثبتة فوق كتفه اليسرى بمشبك فضي قديم كان قد ورثه منذ زمن عن سلالة الأرعادين، كما وضع عصا ذهبية حول جبهته.

وقفت بارسين، وما لبثت أن شعرت بأنها مشوشة الأفكار تحت أنظاره. جذبها نحو ذراعيه، وقبل شفثيها الممتلئتين والرطبتين مثل ثمري تمر. قالت: "إسكندر...".

شعر الملك فجأة ببرودة اجتاحت جسمها، بينما تصلبت أطرافها تحت يديه. انتشر جوٌّ من التهديد في أنحاء الغرفة، الأمر الذي حرّك فيه إحساس المقاتل؛ وهو الإحساس الذي يُنذر بالخطر. استدار بسرعة كي يواجه الخطر الوشيك فلاحظ جسماً يركض نحوه ويهاجمه من ناحية الرأس. رأى يداً ترتفع وهي تلوّح بخنجر، كما سمع صرخة شديدة وشرسة ترددت أصداؤها في أنحاء غرفة السرير، وما لبث أن سمع صوت بكاء بارسين الحزين والمتألم.

تمكّن الإسكندر بسرعة من تثبيت المعتدي على الأرض، ولوى له ذراعه مما أجبره على التخلي عن سلاحه بسرعة. كان بإمكان الإسكندر أن يقتل المعتدي على الفور وفي مكانه، وذلك باستخدام حامل مشعل ثقيلٍ أمسكه بشكلٍ فطري، لكنه عرف هوية الشاب الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره، وكان إتيوكل الابن الأكبر لممنون وبارسين. قاوم ذلك الشاب، واستدار مثل شبل أسدٍ صغير وقع في مصيدة، وراح يصرخ بكل أنواع الشتائم والإهانات، كما أخذ يعضّ ويخدش بعد أن صار أعزل من السلاح.

دخل الحراس مسرعين، وذلك بعد أن سمعوا أصوات العراك، وأمسكوا بالمعتدي. فهم الضابط المسؤول فوراً حقيقة ما جرى فصرخ قائلاً: "إنّها محاولة لاغتيال الملك! خذوه إلى الأسفل، وعذبوه قبل إعدامه".

لكن بارسين ارتمت على قدمي الإسكندر وهي تبكي: "أنقذه يا سيدي. أنقذ حياة ابني. أتوسّل إليك!".

نظر إتسيوكل نحوها بازدراء واضح على وجهه، ثم التفت نحو الإسكندر وقال: "إن أفضل شيء تُقدم عليه هو أن تأمر بقتلي، لأنني سأحاول قتلك مرةً بعد مرة... سأفعل ذلك ألف مرة حتى أُنجح في

الانتقام لأبى ولشرفه". كان لا يزال يرتعش بسبب الإثارة والانفعال الناتجين عن الشجار، وكذلك بسبب نار الكراهية التي كانت تضطرم في قلبه. أشار الملك إلى الحراس طالباً إليهم المغادرة.  
ردّ الضابط معترضاً: "لكن، يا مولاي...".

قال الإسكندر: "اخرج! ألا ترى أنه مجرد ولد صغير؟". أطاع الرجل أمر الملك. فالتفت الإسكندر نحو إتيوكل مجدداً وقال له: "إن شرف والدك لم يمسّ قطّ، لأنه مات بسبب مرض مستعص".  
قال الولد صارخاً: "ليس ذلك بصحيح، لأنك أمرت بتسميمه. إنك رجلٌ مفتقد إلى أي حسّ بالشرف!".

تحرك الإسكندر مقترباً من الولد، وقال له بصوت حازم: "لطالما أعجبت بوالدك واعتبرته الوحيد الذي يستحق أن يكون خصماً لي، وكنت أحلم بمبارزته في يومٍ من الأيام، لذلك يستحيل أن أفكر في تسميمه. إنني أواجه أعدائي وجهاً لوجه بالسيف والرمح؛ وذلك عندما أقرر أن أتعامل معهم. أما بالنسبة إلى والدتك فقد جعلتني ضحيةً لها لأنني أفكر فيها في كل لحظة من لحظات صحوي. إنني أتعذب من جراء تفكيري فيها، والحب الذي أشعر به تجاهها يسيطر عليّ، كما أنه لا يُقاوم ولا يُقهر، ولا يعرف المرء كيفية تجنبه أو الفرار منه، مثلما لا يستطيع الرجل تجنب الشمس، والمطر، والولادة، والموت".

راحت بارسين تنتحب في إحدى زوايا السرير، وقد خبأت وجهها بين يديها.

سأل الملك: "ألا تريد أن تقول شيئاً لوالدتك؟".

"لم تعد والدي منذ اللحظة التي وضعتَ فيها يدك عليها. إنها لا شيء بالنسبة إليّ. اقتلني. إنني أريدك أن تقتلني، لأن في ذلك خيراً

لكما. أما إذا لم تفعل ذلك، فإنني سأقتلكما وسأقدم دماء جسديكما إلى روح والدي، وذلك كي يرتاح حيث هو".

التفت الإسكندر نحو بارسين قائلاً: "ماذا تريدن منّي أن أفعل؟". جففت بارسين دموعها، واستعادت شيئاً من هدوئها: "أتوسل إليك أن تدعه يذهب في سبيله. أعطه حصاناً ومؤناً ودعه يذهب. هل ستفعل ذلك من أجلي؟".

قال السولد مجدداً: "إنني أحذرك، إذا تركتني أذهب في سبيلي، فسأقصد الملك العظيم، وسأطلب منه أن يعطيني درعاً وسيفاً، وذلك كي أحارب مع جيشه ضدك".

أجاب الإسكندر: "إذا أردت ذلك، فلك ما تريده". نادى الملك الحراس، وأصدر الأمر بأن يُعطى الصبي حصاناً ومؤناً قبل إطلاق سراحه.

عندها، توجه إتيوكل نحو الباب ساعياً إلى إخفاء عواطفه المتأججة التي سيطرت عليه بينما كانت والدته تناديه. لم يتوقف لحظة واحدة، بل أدار ظهره إليها، وعبر عتبة الباب قبل أن ينطلق نحو الممر. نادته بارسين مجدداً: "انتظر، أرجوك!". وتوجهت إلى صندوقها، وما لبثت أن أخذت منه سلاحاً لامعاً مع غمده، ثم اندفعت نحو الممر وناولته إلى ابنها: "إنه سيف والدك".

تناول الشاب السيف، وقرّبه من صدره، فيما انهمرت الدموع سخية من عينيه، وتركت آثارها على خديّه.

قالت بارسين بصوت مرتعش: "وداعاً يا ولدي. ليحكّم أهورا مازدا، كما أطلب من أسياد والدك أن تحميك بدورها".

عبر إتيوكل الممر راكضاً، ثم نزل الدرج حتى وصل إلى باحة القصر حيث وضع الحراس عنان حصان في يديه. لكنه رأى شبح

شخص يظهر من باب جانبي صغير، وذلك في اللحظة ذاتها التي كان يستعد فيها لامتطاء الحصان. كان ذلك شقيقه فرآت.

"أتوسّل إليك خذني معك. لا أريد أن أبقى هنا سجيناً عند هذا اليوناني". تردّد إتيوكل بينما تابع شقيقه التوسّل إليه: "خذني معك. أتوسّل إليك. أتوسّل إليك! إنني لا أزن كثيراً، ويستطيع هذا الحصان أن يحملنا نحن الاثنين إلى أن نعثر على حصان آخر".

ردّ إتيوكل: "لا أستطيع. إنك صغير جداً، ثم... يجب أن يبقى أحدنا مع والدي. وداعاً يا فرآت. سنرى بعضنا مجدداً ما إن تنتهي هذه الحرب، وعندها سأحررك". وبعد ذلك، عانق شقيقه الأصغر الذي ملأّت الدموع عينيه عناقاً طويلاً، ثم ما لبث أن امتطى صهوة حصانه، واختفى بعيداً.

شاهدت بارسين هذا المنظر من نافذة غرفة نومها، وشعرت بأنّها تكاد تذوي عند رؤيتها ابنها ذي الخمسة عشر ربيعاً وهو يسرع بحصانه، ويختفي في ظلمة الليل كي يواجه المجهول بمفرده. بكت بشدة، وراحت تفكّر في المصير المرير الذي يُمكن أن ينتظر البشر. سبق لها أن شعرت قبل وقت قصير أنّها واحدة من أسياذ جبل الأولمب التي رسمها الفنانون اليونانيون العظام. لكنها الآن ستشعر بغبطة كبيرة لو كانت مكان أتس عبدٍ من العبيد.

## 2

أمر الإسكندر ببناء جسرين عاثمين كي يستطيع جيشه العبور إلى ضفة نهر النيل الشرقية. وهناك، التقى بعض الجنود والضباط الذين كان قد تركهم كي يجرسوا المنطقة. تأكد الإسكندر من أنهم تصرفوا بطريقة مناسبة، ثم تبتهم في مناصبهم، ووزع الصلاحيات بينهم؛ بحيث لا تكون السلطة في هذه البلاد التي تُعتبر من أغنى البلاد محصورة بين يدي رجلٍ واحد.

رحّبت به مصر لدى عودته من هيكل آمون، وأغدق عليه رجالها أوسمة الشرف، كما توجه فرعوناً. لكن القدر شاء أن تتخلل هذه الأيام المليئة بالمجد بعض الأحداث المحزنة. إذ لم يستطع الإسكندر إلا أن يرى يأس بارسين ماثلاً أمام عينيه كل يوم. لكن مأساة أكبر كانت في طريقها إليه من دون إبطاء. كان لدى بارمينيون ابنان آخران غير فيلوتاس. وهما نيكاتور الذي كان ضابطاً في سرية فرسان الهيتايروي، وهكتور الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، وكان والده يحبه كثيراً. كان الشاب الأصغر سنناً مأخوذاً بمنظر الجيش الذي يعبر النيل، ولذلك استقل قارباً مصرياً مصنوعاً من شجر البردي كي يستمتع بالمنظر من منتصف النهر. ودفعت حماسة الشباب هكتور إلى ارتداء درع ثقيلة، كما ارتدى عباءة مبهرجة جداً. ووقف فخوراً بنفسه، ومنتصب القامة في الجزء الخلفي من القارب وذلك كي يتمكن الجميع من الإعجاب به.

فجأة، اصطدم القارب بشيء ما، ولعله كان أحد أفراس النهر الذي أحب أن يطفو على سطح المياه في تلك اللحظة، وكاد القارب



أن ينقلب. عندها، فقد هكتور توازنه ووقع في الماء، واختفى على الفور. إذ إن ثقل درعه وعباءته المبللة دفعاه نحو الأسفل.

لم يتأخر المجدفون في القارب عن الغطس، وهو ما فعله بعض الشبان المقدونيين كذلك، ونيكانور شقيق هكتور أيضاً. واجه هؤلاء تيار النهر، وفكوك التماسيح التي كانت متواجدة بكثرة في المكان، لكن جهودهم ذهبت هباءً. في تلك الأثناء، كان بارمينيون واقفاً على الضفة الشرقية وهو يراقب العبور المنظم للحيش، لكنه نظر إلى النهر يائساً عندما عرف المأساة.

وصلت هذه الأخبار إلى الإسكندر بعد وقت قصير، فأسرع إلى إعطاء البحارة الفينيقيين والقبارصة أوامره كي يحاولوا استعادة جثة الشاب على الأقل. لكن كل تلك الجهود كانت من دون جدوى. في ذلك المساء بالذات، وبعد ساعات وساعات من البحث اليائس الذي شارك فيه الإسكندر شخصياً، توجه هذا الأخير إلى خيمة القائد العجوز المثقل بالحزن.

سأل الإسكندر فيلوتاس الذي كان واقفاً خارج الخيمة، وكأنه يحرس عزلة والده: "كيف هو؟". فهزّ صديقه رأسه بأسى.

كان بارمينيون جالساً بسكون على الأرض وسط الظلمة، وكان شعر رأسه الأشيب يوحى بالغم. شعر الإسكندر بوهن في ركبتيه، وكان حزيناً جداً بسبب ما أصاب هذا الرجل الشجاع والمخلص الذي أقلقه مرات عديدة في الماضي بنصائحه كي يكون حذراً، بالإضافة إلى مرات كثيرة ذكره فيها بمدى عظمة والده فيليب. بدا بارمينيون مثل جذع سنديانة عتيقة، سبق لها أن قاومت على مرّ السنين الكثير من العواصف والأعاصير، ولكنها ما لبثت أن أصيبت بصاعقة.

بدأ الإسكندر بالكلام بصوت مرتعشٍ قليلاً: "إنها حقاً أصعب زيارة أقوم بها أيها القائد. فصدري مثقل بالحزن". تطلع نحو بارمينيون فتذكر أغنية اعتاد أن يغنيها عندما كان صغيراً كلما كان يراه قادماً كي يحضر مجلس الحرب الذي كان يعقده والده. كان أشيب الشعر حتى في تلك الأعوام البعيدة:

انطلق الجندي العجوز المسكين إلى الحرب  
ووقع على الأرض، وقع على الأرض!

هَبَّ بارمينيون واقفاً على الفور ما إن سمع صوت الملك، فقال له بصوت مرتعش: "شكراً لك على مجيئك يا مولاي".  
"بذلنا كل ما في وسعنا أيها القائد كي نستعيد جثة ابنك. كنت سأسبغ عليه أعلى درجات الشرف. كنت... كنت سأفعل أي شيء فقط لو...".

أجاب بارمينيون: "أعرف. يفيد المثل أن الأبناء يدفنون آباءهم في غير أوقات الحرب، بينما في أوقات الحرب يقوم الآباء بدفن أولادهم. لكنني كنت آمل على الدوام لو أتجنب هذا الأمر الحزن. وتمنيت دائماً أن يكون أول سهم، أو أول ضربة سيف، من نصيبي أنا. لكن، وبدلاً من ذلك...".

قال الإسكندر: "إنها خسارة رهيبة أيها القائد". وكانت عيناه قد اعتادت في هذه الأثناء على العتمة المنتشرة داخل الخيمة فاستطاع أن يميز ملامح بارمينيون، ويلاحظ الألم الشديد الذي لا بد من أنه يشعر به. بدا وكأنه كبير عشر سنين في غضون لحظات. فلقد احمرّت عيناه، وتجمّدت جلده الجاف، بينما كان شعره أشعث. لم يسبق له أن رأى بارمينيون يمثل هذه الحالة، حتى في أشرس المعارك.

قال بارمينيون: "لو أنه سقط... لو أنه سقط في ساحة المعركة وهو يقاتل ملوحاً بسيفه، فعندها كان موته سيحمل معنى بالنسبة إليّ، لأننا جنودٌ في النهاية. لكن، أن يموت بهذه الطريقة... وفي هذه المياه الموحلة، وأن تقطعه تلك الوحوش إرباً إرباً وتلتهمه!". وغطى وجهه بيديه، وما لبث أن أجهش ببكاء طويل وكئيب يقطع نياط القلب بالفعل.

لم يتمكن الإسكندر من العثور على كلمات إزاء كل هذه المعاناة، ولكنه استطاع أن يتمتم: "أنا آسف... أنا آسف". غادر الملك بعد أن ودّع فيلوتاس بنظرة مليئة بالألم. أما نيكانور، الشقيق الآخر فقد وصل في تلك اللحظة بالذات، وقد بان عليه الحزن الشديد والتعب، وبدا مسبلاً من قمة رأسه حتى أخص قدميه، فيما غطاه الوحل.

في اليوم التالي، أمر الملك ببناء نصب تذكاري تخليداً لذكرى ذلك الشاب، وشارك بنفسه في شعائر جنازته. اصطف جميع الجنود هاتفين باسم هكتور عشر مرات، وذلك كي لا تضيع ذكراه، لكن هذه المرة كانت مختلفة عن المرات التي كانوا يصرخون فيها بأسماء رفاقهم الذين سقطوا في ساحات المعارك في جبال تراقيا وإيليريا وسط القمم المكلفة بالثلوج، وتحت قبة السماء الياقوتية. ففي هذا الجو الكئيب، ابتلع الصمت اسم هكتور على الفور بالقرب من المياه الموحلة.

\*

في تلك الأمسية بالذات، عاد الملك لزيارة بارسين، فوجدها ممددةً على سريرها وهي تبكي. أخبرته خادمتها أنها بالكاد تناولت طعاماً طيلة اليوم.

قال لها الإسكندر: "لا أريدك أن تيأسي هكذا، لن يحدث أي شيء لابنك، لأنني أرسلت رجلين كي يتبعاه ويتأكدوا من أنه بخير". عندها، نهضت بارسين، وجلست على حافة السرير، وقالت: "شكراً لك لأنك خففت عني كثيراً... بالرغم من أن العار سيبقى. فلقد انتهى ولداي من محاکمتي وأصدرا حكمهما علي".

أجاب الإسكندر: "أنت مخطئة في هذا. أتعرفين ماذا قال ابنك لشقيقه الأصغر عند مغادرته؟ أخبرني الحراس عما دار بينهما. قال له: يجب عليك أن تبقى مع والدتنا. وهذا يعني أنه يجبك، وأنه فعل ما فعله لأنه يشعر أن هذا هو واجبه بالضبط. يتعين عليك أن تكوني فخورة به".

جففت بارسين دموعها: "أنا آسفة على كل ما حدث. أردت أن أكون مصدر هجة لك، وأردت أن أكون بالقرب منك في لحظات انتصارك. لكن، ها أنا عاجزة عن فعل أي شيء غير البكاء".

ردّ الإسكندر: "أرى دموعاً تليها دموع أخرى. فهذا هو بارمينيون قد فقد ابنه الأصغر. إن الجيش بأكمله في حالة حداد الآن، ولم أستطع فعل أي شيء كي أحول دون حدوث ما حصل. ولم تنفعني صلتني بأمون. أرجوك الآن أن تجلسي وتأكلي معي. يتعين علينا أن نتعاون لنستعيد تلك السعادة التي تحسدنا عليها الأقدار، ولذلك فهي تحاول أن تحرمنا إياها".

\*

تلقي القائد نيرخوس الأوامر للإبحار نحو فينيقيا، بينما يعود الجيش براً عبر الطريق التي تمتد بين البحر والصحراء. وما إن وصل الجيش إلى غزة، حتى هرع أحد الجنود إلى الإسكندر حاملاً معه بعض الأخبار السيئة من صيدون. وقال بعد أن ترجل عن جواده من دون أن ينتظر

حتى التقاط أنفاسه: "مولاي، أقدم السامريون على تعذيب القائد أندروماخوس، حاكمك في سوريا".

غضب الإسكندر الذي أثقلته الأحزان، وسأله: "ومن هم هؤلاء السامريون؟ ألا يعرفون شيئاً عن الإسكندر؟".

أجاب لايسيماخوس: "بل لعلهم يعرفون، ولكنهم لا يكثرثون. أو ربما يعتقدون أنهم يستطيعون المخاطرة بإغضابك".

أجاب الملك: "في هذه الحالة، يتعين علينا أن نعلمهم شيئاً جديداً عن الإسكندر". أعطى الملك أوامره بمعاودة الزحف مجدداً، فتقدم الجيش من دون توقف، وما لبث أن تابع الزحف شرقاً نحو المناطق الداخلية. استعد الفرسان الترياليون والأغريانيون المسلحون تسليحاً خفيفاً، وبمشاركة فرقة الطليعة، للمعركة استعداداً تاماً. وكان الملك يقود هذه الفرقة شخصياً يرافقه أصدقائه، بينما ظل المشاة المسلحون تسليحاً ثقيلاً، وقوات الاحتياط من الهيتايروي عند الساحل بقيادة بارمينيون.

ومع حلول المساء وصل الجنود ولم يكن وصولهم متوقعاً على الإطلاق. وفي واقع الأمر، كان السامريون من الرعاة، لذلك كانوا منتشرين على التلال مع قطعانهم التي تملأ المراعي. أُحرقت كل القرى على مدى ثلاثة أيام بما في ذلك عاصمتهم التي سوّيت أرضاً، والتي لم تكن في الواقع أكثر من قرية كبيرة محاطة بالأسوار. أما هيكلهم الذي كان عبارة عن معبد متواضع لم يضمّ أي تمثال أو صورة من أي نوع كان، فلم يلبث أن تحوّل إلى كومة من رماد.

استمرت هذه الأعمال حتى مساء اليوم الثالث. عندها، قرّر الملك إقامة مخيم لرجاله المنتشرين في الجبال، وأن ينتظر حتى اليوم التالي قبل الشروع برحلة العودة إلى الساحل. وضع الإسكندر حراسة مضاعفة

عند كل مفارق الطرقات المحيطة بالمنطقة، وذلك من أجل تجنّب الهجمات المفاجئة، وكذلك أُوقِدَت النيران من أجل إضاءة مراكز الحرس، فمرّت الليلة بسلام. وقبل انبلاج خيوط الفجر الأولى، قام أحد الضباط المكلفين بآخر نوبة حراسة، وهو تيسالي من لاريسا، ويدعى يوريالوس، بإيقاظ الملك قائلاً: "مولاي، تعال. هناك شيء يجب أن تراه".

سأل الإسكندر ما إن هبّ واقفاً على قدميه: "وما هو؟".  
"هناك مجموعة من الناس قادمة من جهة الجنوب. يبدو أنها بعثة ما".

"بعثة؟ ومن أين جاءوا؟".  
"لا أعرف".

فقال إيومينيس الذي كان مستيقظاً منذ بعض الوقت، وقام بجولة تفتيشية: "هناك مدينة واحدة في ذلك الاتجاه؛ إنها القدس".  
"وما هي مدينة القدس هذه؟".

"إنها عاصمة مملكة صغيرة من دون ملك. تجثم هذه المملكة على قمة جبل، كما أنها محاطة بالمنحدرات".

وصلت المجموعة إلى أول مركز حراسة، بينما كان إيومينيس لا يزال يتكلم، فطلبت الإذن بالمرور.

قال الإسكندر آمراً: "دعوهم يأتون. سأستقبلهم قرب خيمتي".  
وغطى كتفيه بعباءته، وجلس على مقعده الميداني.

في هذه الأثناء، تقدم أحد أعضاء الوفد، والذي كان يتكلم اللغة الإغريقية، وتبادل كلمات قليلة مع يوريالوس سائلاً إياه ما إذا كان ذلك الشاب الجالس قرب خيمته، والذي يضع عباءة حمراء على كتفيه هو الملك الإسكندر. وحين جاء الرد إيجاباً، تقدم الرجل إلى الأمام



بينما تبعه سائر أعضاء الوفد. بدا على الفور أنه كان أهمّ شخصية بين أفراد مجموعته. كان رجلاً كبيراً في السن، معتدل الطول، ذا لحية طويلة ومشذبة جيداً. وكان يعتمر قبعة ويرتدي صدرية مزينة باثني عشر حجراً من مختلف الألوان. كان هذا الرجل هو أول من تحدث إلى الإسكندر بلغته، وإن كان صوته أجش، ولهجته قريبة من اللهجة الفينيقية".

جاءت كلمات المترجم على الشكل التالي: "ليحرسك الله أيها الملك العظيم".

جرت محادثة بين الرجل والملك عن طريق المترجم، وكان محورها شكر الملك على تدميره مدينة السامريين التي كانت بنظره مدينة كافرة. أنهى الرجل العجوز شكره الإسكندر، وطلب الإذن للانصراف من حضرة الملك.

وحين أذن له الملك، استدار وعاد من حيث أتى.

تقدّم الجيش في زحفه عبر الجزء الأخير من فلسطين، وما لبث أن دخل فينيقيا. عانى الجنود كثيراً نتيجة الألم الذي أحسّوا به بعد موت هكتور الشاب، واعتبروا موته بمثابة نذير شؤم. وعندما وصل الملك إلى صور، قدّم - لهذا السبب - أضحية إلى ملكارت، وذلك في محاولة منه لإزالة ذلك الإحساس بالكآبة عن طريق طقس ديني رصين.

كانت مظاهر الدمار الذي حلّ بالمدينة في العام السابق لا تزال ظاهرةً في أحيائها، ومع ذلك عادت مؤشرات الحياة للظهور مجدداً. فلقد عمل السكان الناجون، بجهد كبير، على إعادة تعمير منازلهم، وعلى نقل موادّ البناء من البر بواسطة قواربهم. وركّز قسمٌ من السكان على صيد الأسماك، بينما انشغل القسم الآخر في المشاغل التي كانت تُنتج الصباغ الأرجواني الأغلى ثمناً والأكثر شهرةً في العالم، والذي كانوا يستخرجونه من الأصداف. وكان قد جاء مستوطنون جدد من قبرص وصيدون من أجل إعادة استيطان المدينة القديمة، وسرعان ما بدأ ذلك الإحساس بالعزلة يتلاشى تدريجياً مع تقدّم الأعمال، ومع اجتماع شمل العائلات، بينما استعادت الحياة اليومية زخمها المعتاد.

استقبل الإسكندر في صور وفوداً عديدة زارته من مختلف مدن اليونان ومن مختلف الجزر. وحمل له بعضها رسائل من القائد أنتيباتر أبقته على علمٍ بأنشطة تجنيد الرجال في الجيش، والتي كانت تجري في الأقاليم الشمالية. كما تلقى الإسكندر رسالةً من والدته، وهي رسالة تركت في نفسه انطباعاً عميقاً:

من أولمبيا إلى الإسكندر، ابني الحبيب، تحياتي!  
سمعت أخبار زيارتك هيكل زيوس الذي يقع وسط رمال  
الصحراء، وعلمت بما حدث معك هناك، فغمزني سيل من  
المشاعر العميقة. تذكرت المرة الأولى التي أحسست فيها أنك  
تتحرك في بطني. وكان ذلك في اليوم الذي استشرت فيه  
الضالع في هيكل زيوس في دودونا، إيبيروس، وهو البلد الذي  
ولدت فيه.

هبت في ذلك اليوم رياح مفاجئة جلبت معها رمال الصحراء  
إلى الهيكل. حينها أخبرني الكهنة أن قدرك العظيم سيتحقق  
عندما تصل إلى الهيكل الكبير الآخر؛ وهو الهيكل الذي يقع  
وسط رمال صحراء ليبيا. لا أعتقد يا بني أن فيليب هو والدك.  
إذ أظن أنك من نسل آمون. أيمكنك أن تفسر انتصاراتك  
المدوية بغير هذه الطريقة؟ وكيف تفسر تراجع مياه البحر من  
أمامك، والأمطار العجائبية التي هطلت على رمال الصحراء  
الحارقة؟

ركّز أفكارك على آمون، وانسَ أمر فيليب. إن الدماء التي  
تجري في عروقك ليست دماءه.

أدرك الإسكندر أن والدته على علم بكل تفاصيل حملته، وأنها  
تسعى إلى تنفيذ خطتها المفصلة التي وضعتها بنفسها. فلقد خطّطت  
أولمبيا لمحو الماضي كلياً، وذلك كي تفسح في المجال أمام الإسكندر  
ليكون مختلفاً كلياً عن ذلك الرجل الذي تصوره فيليب، ومعلمه  
أرسطو. ولم تكن ترغب في أيّ ذكر لفيليب لدى تحقيق الإسكندر  
انتصاراته. وضع الإسكندر الرسالة على الطاولة في اللحظة التي دخل  
فيها إيومينيس حاملاً معه أوراقاً تنتظر القراءة والتوقيع.

سأل الأمين العام عندما لاحظ مظاهر الصدمة التي ارتسمت على  
وجه الملك: "أهي أخبار سيئة؟".

"كلا. ففي واقع الأمر، يتعيّن عليّ أن أشعر بالسعادة لأنّ والدتي كذلك تخبرني بأنني على صلة بزيوس آمون".  
"لكنك لا تبدو أمامي رجلاً سعيداً".  
"وهل ستكون سعيداً لو كنت مكاني؟".

"أنت تعرف جيداً أنه لا توجد طريقة أخرى لحكم مصر، ولقبول كهنة ممفيس بك، غير أن تكون ابناً لآمون ومن ثمّ فرعوناً. يُضاف إلى ذلك أن الإغريق الذين يعيشون في ليبيا يقدمون مراسم التبجيل إلى آمون بصفته زيوس، بالإضافة إلى جميع القادمين من ناوكراتيس وسيرينيا. وكذلك لن يتأخر الأمر بسكان الإسكندرية حتى يفعلوا الأمر ذاته، ما إن تمتلئ المدينة بالسكان. إن ذلك أمرٌ محتم. لأنك إذا أصبحت ابناً لآمون، فإن الناس سيعترفون بك ابناً لزيوس".

ناوله الإسكندر الرسالة التي تلقاها من أوليميا حتى قبل أن يُنهي كلامه. فقال له إيومينيس بعد أن أنهى قراءة الرسالة: "إن الملكة الوالدة تحاول مساعدتك كي تعتاد على وضعك الجديد".

"إنك مخطئ. لأن تفكير والدتي يتأرجح دائماً بين الحلم والواقع. وهي تقوم في بعض الأحيان باستبدال الحلم بالواقع، وكذلك الواقع بالحلم. يُضاف إلى ذلك..."، وتوقف عند هذه النقطة، وكأنه تردّد بشأن كشفه أحد الأسرار، ثم تابع: "... يُضاف إلى ذلك أن والدتي تمتلك القدرة على إضفاء الواقعية على أحلامها، وتقوم بعد ذلك بإقناع الآخرين بها".

قال إيومينيس: "لم أفهم قصدك".  
"أتذكر ذلك اليوم الذي هربتُ فيه من بيلا، أي ذلك اليوم الذي أراد فيه والدي أن يقتلني؟".

"أتذكر بالطبع، لأنني كنت هناك".

"هربت مع والدتي وقصدنا إيبيروس. وتوقفنا كي ننام في غابة مليئة بأشجار السنديان، وتبعد نحو ثلاثين ستاديا إلى الغرب من بيرويا. وفي منتصف الليل، رأيتها فجأة تنهض وتمشي وسط الظلمة. سارت وكأنها كانت تطوف فوق الأرض، وتوجهت إلى مكان تتواجد فيه صورة ديونيسيوس التي تغطيها أوراق أشجار اللبلاب. رأيتها هناك مثلما أراك الآن. استدعت ثعباناً ضخماً من تحت الأرض، وسرعان ما رأيتها وهي تخاطب مجموعة من الساطير والنساء المنتميات إلى طائفة ديونيسيوس، ثم عزفت على نايها وكانت في حالة نورانية تامة...".

نظر إليه إيومينيس وهو يشعر بالقلق، وعجز عن تصديق ما تسمعه أذناه: "يحتمل أنك حلمت بهذا الأمر كله".

"ليس هناك أدنى احتمال بحصول ذلك. شعرت فجأة بيد علي كنتفي، وكانت هي. هل فهمت؟ لكنني كنت قد رأيتها قبل لحظة واحدة فقط وهي تعزف على الناي، بينما يلتف ثعبان عملاق حولها. كنت هناك، أي أنني لم أكن مستلقياً فوق سريري البديل. عدنا معاً إلى مخيمنا ومشينا مسافة على الطريق. قل لي، كيف تفسر كل هذا؟".

"لا أعرف، لكنني أعرف أن هناك أشخاصاً يسرون خلال نومهم. ويقولون كذلك إن هناك أشخاصاً يتركون أجسادهم خلال نومهم ويسافرون لمسافات بعيدة ثم يظهرون أمام أناس آخرين. هذا ما يُدعى *إيكستاسيس* (السفر عبر الفضاء). إن أوليمبيا بالتأكيد ليست امرأة عادية".

"ما من شك في ذلك. يعاني أنتيياتر صعوبات متزايدة كي يُيقها ضمن حدود المنطق. تريد والدتي أن تحكم، وأن تمارس السلطة، لذلك، فإن منعها من القيام بذلك ليس أمراً سهلاً. إنني أتساءل عن رأي أرسطو في هذه المسألة".

"يمكنك أن تعرف رأيه بسهولة. إذ إن الأمر لا يتطلب سوى سؤال كاليستين".

"يغضبني كاليستين في بعض الأحيان".

"إن هذا أمر واضح، ولا بد من أن هذه الحقيقة تؤلمه".

"لكنه لا يفعل شيئاً كي يوقف تصرفاته هذه".

"ليس ذلك هو ما يجري بالضبط. إن لدى كاليستين مبادئه، كما أن حاله علمه عدم تقديم تنازلات في هذا الاتجاه. أعني أنه يتعين عليك أن تفهمه...". غير إيومينيس موضوع الحديث عند هذه النقطة، فقال: "ما هي خططك للمستقبل القريب؟".

"أريد تنظيم مسابقات مسرحية ورياضية".

"مسابقات... ومسرحيات؟".

"هذا صحيح".

"لكن، لماذا؟".

"لأن الرجال يحتاجون إلى نوع من التسلية".

"يحتاج الرجال إلى أن يشهروا سيوفهم مجدداً. لم يقاتل الجنود منذ ما يزيد على السنة، وإذا تمكّن الفرس من اللحاق بنا في الوقت الحاضر، فإنني غير واثق من أننا...".

"لن يظهر الفرس أمامنا في الوقت الحاضر لأن داريوس مشغول الآن بجمع أكبر جيش ممكن كي يلحق بنا الهزيمة".

"هل ستسمح له بأن يفعل ذلك بكل بساطة؟ وهل تفضل أن تنظم مسرحيات وألعاباً رياضية؟". وهزّ الأمين العام رأسه وكأنه يتحدث عن جنون مطلق، لكن الإسكندر نهض، ووضع يده على كتفه.

"اسمعي جيداً. لا نستطيع في الوقت الحاضر أن ننظّم حملة مضنية تهدف إلى تدمير مدن وقلاع الإمبراطورية الفارسية الواحدة تلو

الأخرى. رأيتَ بنفسك كم كلفنا احتلال ميليتوس وهاليكارناسوس،  
وصور...".

"أجل، ولكن...".

"لذلك أرغب في إعطاء داريوس كل الوقت الذي يحتاج إليه من  
أجل تجنيد ما يستطيع تجنيده من جنود، وسأهزمه بعد ذلك، أي أنني  
سأحسم الأمور في المواجهة النهائية".

"لكن... يُحتمل أن نخسر".

حدّق إليه الإسكندر بتركيز وكان صديقه قد نطق بسخافةٍ ما.

"نخسر؟ إن هذا غير ممكن".

نظر إيومينيس إلى الأسفل بعدما أدرك أن رسالة أوليميا قد أقنعت  
الإسكندر بأمرٍ سبق له أن اقتنع به في لاوعيه، وهو أنه لا يُقهر. إن هذا  
الاعتقاد الذي يوحى بالفعل بوجود نوعٍ من التبجيل ليس مهماً بالنظر إلى  
الأوضاع. ولكن، هل يشارك الجيش ورفاق الإسكندر ملكهم اعتقاده  
وتصميمه؟ وماذا سيحدث عندما يجدون أنفسهم في أحد السهول مترامية  
الأطراف، وهم يواجهون أكبر جيش جُمع في كل الأزمنة؟".

سأله الإسكندر: "فيم تفكر؟".

"لا أفكر في شيء. ولكن، خطر في ذهني مقطع من مسيرة

**الآلاف العشرة.** جاء في هذا المقطع...".

قال الملك مقاطعاً: "أعرف. أعرف ما تفكر فيه". بدأ الملك

يقول: "حل وقت الظهيرة، ولم يظهر أي أثر للعدو. لكنّ عاصفةً  
رملية شديدة هبّت عند العصر، وبدت مثل سحابة بيضاء، فغطت  
السهل بأكمله ولمسافة طويلة. تمكنا بعد فترة قصيرة من رؤية لمعان  
الأسلحة المعدنية والرماح. وفجأة، تمكنا من رؤية صفوف  
الجنود...".

"كانت معركة كوناكزا. وكان جيش الملك العظيم الذي لا يعد ولا يُحصى يظهر مثل شبح وسط غبار الصحراء... ربح الإغريق المعركة بالرغم من ذلك. لكنهم لو هاجموا الوسط فوراً بدلاً من مهاجمة ميسرة جيش العدو، لكانوا تمكنوا من قتل الملك الفارسي وقهروا إمبراطوريته بأكملها. لكن، ها أنت الآن يا صديقي تكتفي بتنظيم ألعاب رياضية وبعض المسرحيات..."

هزّ إيومينيس رأسه مجدداً، وتوجّه نحو الباب.

أوقفه الإسكندر عند عتبة الباب وقال له: "هناك أمرٌ أخير. تأكد من اختيارك الأعمال التي تناسب صوت تيسالوس وطريقة أدائه، مثل أوديب ريكس على سبيل المثال، وبعد ذلك..."

أراد الأمين العام أن يريح باله: "لا تقلق. أنت تعرف مقدرتي في هذه الأمور".

"إيومينيس؟"

"نعم".

"كيف هي حال القائد؟"

"أتعني بارمينيون؟ لا بد من أنه يعاني كثيراً. لكنه لا يدعنا نلاحظ ذلك".

"أعتقد أنه سيكون جاهزاً عندما تحين اللحظة المناسبة؟"

أجاب إيومينيس قبل مغادرته: "أعتقد ذلك. وأعتقد أنه لا يوجد رجال كثيرون من هذا الطراز".

\*

احتفل الإسكندر بافتتاح الألعاب الرياضية والمسابقات المسرحية بطريقة فخمة. فدعا كل أصدقائه وأبرز ضباطه إلى المأدبة. حضر الجميع باستثناء بارمينيون الذي أرسل خطاباً مع أحد الجنود كي يعتذر



عن الحضور: "من بارمينيون إلى الملك الإسكندر. تحياتي! أرجو أن تعذري على عدم حضور المأدبة. فأنا أشعر بتوعلك، كما أن حضوري لا يشرف طاولتك".

اتضح على الفور أن هذه المأدبة ستكون مناسبة لتبادل الأحاديث، لأنه لن يتواجد فيها راقصون، كما خفف الإسكندر ذاته تركيز الشراب عندما أضاف أربعة أجزاء من الماء إلى الإناء، وذلك بصفته رئيس الحفل. كان من الواضح كذلك أنه يريد مناقشة موضوعات فلسفية وأدبية بدلاً من التباحث في أمور الحرب، وذلك لأنه خصص المقعدين المجاورين لمقعه لبارسين وتيسالوس. اصطحب كاليستين معه عدداً من الفلاسفة السفسطائيين الذين كانوا من ضمن وفد قدم من أثينا. كان هيفاستيون، وإيومينيس، وسلوقس قرييين من الملك وبصحبة رفيقائهم، وبدا أن بعضهن غريبات أكثر من الأخريات. بينما جلس عدد من الأصدقاء الآخرين في القسم الآخر من القاعة.

بدأ الطقس يسوء في الخارج، بالرغم من أن الصيف كان في منتصفه، فجمعت غيوم سوداء محملة بالمطر فوق المدينة. كان الطهاة يقدمون الحصص الأولى من الطعام، والتي كانت عبارة عن أجزاء من لحم الحملان المشوية، والفاصولياء الخضراء، عندما دوى في الأجواء قصف رعد شديد، وهو ما جعل جدران القاعة تهتز؛ الأمر الذي تسبب بحدوث تموج في أكواب الشراب.

نظر كل الحاضرين بصمت إلى وجوه بعضهم بعضاً بضع لحظات، بينما بدأ الرعد والبرق يسلكان مساراً مختلفاً نحو سفوح جبل لبنان. عاود الطهاة تقديم قطع اللحم مجدداً، لكن كاليستين التفت نحو الإسكندر بابتسامة ساخرة وهازلة، وسأله: "بما أنك ابن زيوس، ألا تستطيع أن تقول لنا شيئاً عما حدث؟".

أطرق الملك مفكراً للحظة، فظنّ عددً من الضيوف الموجودين في الغرفة أنه على وشك أن ينفجر في نوبة من الغضب. وبدا كاليستين ذاته، فجأة، نادماً على دعابته هذه. لاحظ سلوقس أن المؤرخ قد شُحِبَ لونه فهمس في أذن بطليموس: "إنه خائف جداً هذه المرة".

لكن الإسكندر رفع رأسه كي يرى الجميع وجهه الذي تعلوه الابتسامة، ولم يكن غاضباً البتة: "كلا، لن أقدم على شيء كهذا لأنني لا أريد إخافة ضيوقي".

شرع جميع الحاضرين بالضحك، ومرّت العاصفة على الأقل في ذلك الوقت.

سار إتيوكل على صهوة جواده أياماً عديدة، لم يذق خلالها طعم النوم سوى لساعات قليلة كل ليلة بالقرب من جواده. كان يستفيق عدة مرات مرعوباً من صرخات الحيوانات، وعواء بنات آوى. قلق الشباب من أن يضلّ طريقه، أو من احتمال تعرضه للهجوم وسرقة جواده ومؤنه منه. أما خوفه الأكبر فكان من احتمال إقدام قطاع الطرق على أسرهِ وبيعه عبداً في أحد الأماكن البعيدة بحيث لن يستطيع أحد إيجاده أو تحريره مجدداً. ولم يكن الفتى قد تعرّض طيلة حياته لقلقٍ من هذا النوع، ولم يضطر يوماً إلى مواجهة الأخطار وحده، لكن وجود سيف والده معه رفع من معنوياته. جعلته بنيته المتينة بالنسبة إلى عمره يشعر بأنه رجل بالغ أكثر مما هو في حقيقة الأمر.

لم يكن يعرف مطلقاً أن سلامته تعتمد على الرجلين اللذين يتبعانه، واللذين أرسلهما عدوّه الذي يكرهه، وهو الرجل الذي جلب العار لوالده وقهر والدته جسداً وروحاً.

سار كل شيء على ما يرام بينما كان إتيوكل يعبر المناطق الآهلة بالسكان في فلسطين وسوريا حيث كان من السهل نسبياً على مرافقيه التخفي، أو الاختلاط مع القوافل التي كانت تنتقل من قرية إلى أخرى حاملة معها سلعاً مختلفة. لكنّ رجلي الهيتايروي اللذين يتبعانه اضطررا إلى مناقشة الأمور، واتخاذ قرارٍ عندما وصلا إلى الصحراء مترامية الأطراف. كانا جنديين مقدونيين من الحرس الملكي، ومن بين أشجع

جنود الإسكندر وأكثرهم ذكاء، وكانا يعرفان قائدهما جيداً، ويدركان  
أهما إذا أخفقا في مهمتهما، وحدث أي مكروه لهذا الشاب، فلن  
يسامحهما الملك أبداً.

قال أحدهما: "إذا أبقيناه تحت المراقبة في هذه الصحراء فسيرانا،  
لأنه لا يوجد أيّ مكان نستطيع الاختباء فيه. أما إذا ابتعدنا عنه  
فسنخاطر بإمكانية فقدان أثره".

ردّ رفيقه: "لا نمتلك خياراً آخر في هذه المسألة. يتعيّن على أحدنا  
أن يتقدم منه، وأن يحوز على ثقته. لا توجد أمامنا طريقة أخرى  
لحمايته".

وضع الجنديان خطة للعمل وفقاً لها. انطلق الشاب مجدداً فجر  
اليوم التالي في رحلته، لكنه بدا متعباً بعد أن أمضى الليل نصف  
مستيقظ، وما لبث أن رأى من بعيد رجلاً وحيداً على صهوة جواده  
يتقدّم في الاتجاه الذي يقصده. توقف الشاب، وراح يتساءل عما إذا  
كان من الأفضل له أن يقترب بجواده من ذلك المسافر الوحيد فيكسب  
بذلك رفقةً لما تبقى له من رحلته.

وبعد أن فكّر قليلاً، قرّر أن الاقتراب ليس بتلك الفكرة الصائبة.  
خاصة وأنه سيضطر إلى مواجهة ظروف أصعب بكثير في المستقبل  
القريب. استجمع الشاب شجاعته، ونحس جواده بقدميه، وانطلق عبر  
تلك الطريق المهجورة، وسرعان ما بدأ الرجل بالاقتراب منه. تغلب  
إتيوكل على خجله، وتحدث إليه بالفارسية: "ليحكم أهورا ما زدا أيها  
الغريب. أيّ جهة تقصد؟".

أدرك الرجل أن ذلك الشاب سيفهم لغته، فخاطبه بالإغريقية:  
"أنا لا أتكلم لغتك يا بني، لكنني صانع ذهب من جزيرة كريت، وأنا  
في طريقي إلى بابل كي أعمل في قصر الملك العظيم".

تنفس إتيوكل الصعداء وقال: "وأنا أيضاً في طريقي إلى بابل. آمل ألا تمنع إذا ترافقنا".

"كلا، على الإطلاق، بل سأسرّ بذلك كثيراً. لأن سفري وحيداً في هذه الطرقات المهجورة يرعيني".

"ولماذا تسافر وحيداً؟ ألم يكن من الأفضل لك أن تنضم إلى إحدى القوافل؟".

"أنت على حق، لكنني سمعت قصصاً عديدة عن التجار الذين يسرون مع القوافل... وسمعت أنهم يزيدون مداخيلهم عن طريق بيع المسافرين الوحيدين الذين يلتقونهم في الطرقات كعبيد، وذلك عندما تسنح لهم الظروف بذلك، لذلك قلت في نفسي إنه من الأفضل أن أكون وحيداً، بدلاً من أن أكون برفقة أناس سيئين. أستطيع، على الأقل، أن أتطلع إلى الأفق، كما توجد علامات واضحة على الطريق، لذلك لا يصعب على المرء أن يعرف الاتجاه الذي يسير فيه. إن كل ما عليك فعله هو أن تحافظ على المسير باتجاه مشرق الشمس، وسرعان ما ستصل في نهاية المطاف إلى ضفاف نهر الفرات. تسهل الأمور عند تلك النقطة، لأن كل ما يحتاج إليه المرء هو قارب جيد، وهذا هو كل شيء. يمكنك أن تسترخي إلى أن تصل إلى بابل. لكنك تبدو صغيراً جداً على السفر بمفردك. أليس لديك والدان أو أشقاء؟".

لم يردّ إتيوكل، وكان كل ما سمعه في تلك اللحظات هو وقع حوافر الحصانين على الطريق الصحراوية، وتحت السماء الفارغة. تكلم الرجل مجدداً: "آسف. ما كان يجدر بي أن أتطفل على أمورك الشخصية".

راح إتيوكل يحدّق إلى الأفق المنبسط مثل بحر ساكن، ثم قال: "أعتقد أن الوقت سيطول قبل أن نصل إلى الفرات؟".

أجاب الرجل: "كلا. وإذا حافظنا على وتيرة السير هذه، فلا بد من أن نصل عند مساء الغد".

سار الرجلان حتى المساء، ثم نصبا خيمة عند أحد المنحدرات. بقي إتيوكل مستيقظاً إلى أقصى مدة ممكنة، وذلك كي يراقب رفيقه الجديد، لكن الإجهاد نال منه في نهاية الأمر فاستسلم لنوم عميق. عندها، نهض الرجل من رقادته، وسار في الاتجاه الذي سلكه مع رفيقه الجديد. تابع السير إلى أن تمكن من تمييز خيالي جواد ورجلٍ مستلقٍ إلى جانبه. كان كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة، ولذلك عاد إلى خيمته، واستلقى على الأرض مجدداً، وخلد إلى النوم.

استيقظ الشاب في الصباح فلاحظ أن الرجل قد وضع أمامه حفنة من ثمار التمر مع خبز يابس بالإضافة إلى كوب ماء ملاء من كيس الماء المعلق في عباته. تناولا الطعام بسكون ثم انطلقا مجدداً تحت أشعة الشمس الحارقة، ووسط الهواء الراكد والساكن.

تبين لهما عند حلول وقت الظهيرة أن الحصانين منهكان جداً، لذلك ترجلا وتابعا طريقهما سيراً على الأقدام بعد أن قادا الحصانين وهما يمسكان بلجاميهما.

وصلا إلى نهر الفرات في وقت متأخر من ذلك المساء، وعرفا أنهما وصلا إليه لدى سماعهما صوت مياهه، وذلك قبل أن يريا بالفعل المياه المتألئة تحت ضوء القمر. لاحظا وجود مكان تندفع فيه المياه فوق طبقة ضحلة من الحصى، وهو الأمر الذي أنتج شريطاً من الزبد يمتد من ضفة إلى أخرى. كان ذلك المعبر مناسباً. اقترب الجندي من المكان، وسار بحصانه ببطء حتى وصل إلى وسط النهر، وهو يختبر متانة المعبر، وما لبث أن قفل راجعاً.

قال بعد أن التفت نحو إتيوكل: "إن المعبر آمن. يمكنك أن تعبر إذا أردت".

سأله الصبي: "ماذا تعني؟ ألن تأتي بدورك؟".  
هزّ الجندي رأسه قائلاً: "كلا، لقد انتهت مهمتي، ويتعيّن عليّ أن أعود الآن".

ازداد ذهول الشاب وقال: "انتهت مهمّتك؟".  
"هذا صحيح. أمرنا الإسكندر أن نرافقك حتى الحدود، وذلك كي نضمن عدم تعرضك إلى أيّ حادث. كان أحد رفاقي يتبعنا من البعيد".

طأطأ إتيوكل رأسه، وقد شعر بالإهانة بسبب ما قام به الإسكندر. ثم قال للجندي: "عد إلى سيّدك، وقل له إن هذا لن يمّنعني من قتله إذا التقيته ذات يوم في ميدان المعركة". قال ذلك وقاد حصانه فوق المعبر.

جلس الجندي منتصباً فوق صهوة حصانه وهو يراقب الشاب الذي عبّر إلى الضفة الأخرى قبل أن ينطلق عبر السهل نحو الأراضي الفارسية. بعد ذلك، استدار الجندي، وذهب لملاقة رفيقه الذي كان يسير خلفه. كان ضوء القمر ساطعاً فأضاء كل شيء. لكن، لم يكن هناك أثر يدل على وجود رفيقه. وفي اليوم التالي، لم يظهر أي أثر يدل عليه، وكذلك في اليوم الذي يليه. وبدا أن الصحراء قد ابتلعتة.

## 5

قال الإسكندر عندما دخل غرفة بارسين: "عَبَّرَ ابْنُكَ إِيْتِيوْكَلِ الحدود إلى بلاد فارس. لكنَّ أحدَ الرجلين اللذين أرسلتهما كي يتبعاه لم يعد بعد".

ردّت بارسين: "أنا آسفة. أعرف كم أنت قريبٌ من رجالك".  
"إنهم مثل أولادي، لكنه الثمن الذي دفعته لقاء راحة بالك. كيف حال ابنك الأصغر؟".

"إنه يلازمني على الدوام، وهو يحبني، ولعله يفهمني. تساعد الطبيعة على حماية الصغار، لكنهم سرعان ما ينسون، لأن النسيان أسهل بالنسبة إليهم".  
"وأنت؟ كيف حالك؟".

"إنني ممتنة لكل ما فعلته من أجلي. لكن حياتي لم تعد كما كانت. إن الأم لا يمكنها أن تكون حبيبة حقيقية، لأن قلبها ينحذب على الدوام في اتجاه يعاكس مشاعرها الأخرى".

"أتحاولين أن تقولي لي إنك لم تعودي راغبة في رؤيتي؟".  
أخفضت بارسين رأسها بعد أن شعرت ببعض الكدر، وقالت:  
"أرجوك لا تصعب الأمور عليّ. تعرف جيداً أنني أحب أن أراك كل يوم، وفي كل لحظة. وتعرف كذلك أن بعدك عني، وبرود مشاعرك تجاهي يؤذياني كثيراً. أرجو أن تمنحني بعض الوقت كي أتعافى، وكي أكوّن لذكرياتك ملاذاً صغيراً في قلبي. وبعد ذلك... سأعرف كيف أحبك كما ترغب".



هُضمت، واقتربت منه، وغمرته بجمالها وعطرها. أحاط الإسكندر وجهها بيديه وقبلها.

"لا تيأسي. سترين ابنك مجدداً، ولعلنا سنتمكن في مستقبل ليس ببعيد من العيش معاً بسلام". ثم عانقها قبل أن يغادر المكان. التقى سلوقس على الدرج. وكان هذا الأخير يبحث عنه. "وصلت سفينة من قبل القائد أنتياتر، وهي تحمل رسالة مستعجلة منه. إليك الرسالة".

فتح الإسكندر الرسالة، وقرأ فيها:

من أنتياتر الوصي علي عرش المملكة، إلى الإسكندر. تحياتي!  
جمع الإسبارطيون جيشاً، وبدأوا بالزحف باتجاه حامياتنا وحلفائنا في جزر البيلوبونيز، لكنهم لا يزالون بمفردهم في هذا الوقت. أعتقد أنه من المهم جداً بالنسبة إلينا أن يظلوا من دون حلفاء. افعل ما تراه مناسباً كي تضمن عدم تغير الوضع، وهكذا لن أحتاج إلى طلب المساعدة. إن والدتك وشقيقتك بخير، ولعله ينبغي لك أن تعثر على زوج آخر لكليوباترا. أعلمك أن سيسين، ذلك الرجل المصري الذي طلبت إلي أن أتحرى عنه، قد أصبح خادماً لوالدتك موثقاً به بعد مقتل والدك.

اعتن بنفسك.

قال سلوقس: "أمل أن يكون ذلك الرجل العجوز قد بعث إليك أخباراً حسنة".

"ليس تماماً. يتحرك الإسبارطيون الآن، ويحضرون لهجوم ضدنا. يتعين علينا أن نذكر الأثينيين بالتزاماتهم. متى يحين موعد اجتماعي مع وفد حكومتهم".

"إنه هذا المساء. سبق لهم أن سلّموا إيومينيس رسالةً يطالبون فيها بعودة السحناء الأثينيين الذين أُسروا في غرانيكوس".

"إنهم لا يضيعون وقتاً. لكنني أخشى أنني سأخيب ظنهم. هل هناك أي شيء آخر؟".

"يشرف طبيبك فيليب على زوجة داريوس خلال فترة حملها. لكنه قلقٌ جداً، وطلب إليّ أن أعلمك بالوضع".

"حسناً. قل للأثينيين إنني سأستقبلهم بعد انتهاء العروض المسرحية. واطلب من بارسين أن تقصد الملكة في جناحها. فيحتمل أن تتمكن من تقديم مساعدة معينة".

وما إن أهدى الإسكندر كلامه، حتى نزل الدرج، والتقى فيليب الذي كان يغادر غرفته للتو، ورأى خادمين يتبعانه وهما يحملان أدوية من كل الأنواع.

سأل الإسكندر: "كيف هي حال الملكة".

"حالتها مستقرة، لكنها في وضعٍ حرجٍ جداً".

"وما هي مشكلتها؟".

"استدار الجنين، بحسب فهمي للحالة، لذلك فهي عاجزة عن وضعه".

تابع الإسكندر طريقه برفقة فيليب، وتوجّها إلى المبنى الذي تسكن فيه زوجات داريوس مع جواريهن.

"ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟".

"يُحتمل أنني أستطيع فعل شيء. لكنني أخشى أنها لن تسمح لرجلٍ بأن يفحصها. إنني أحاول تدريب قابلتها، لكنني لست متأكداً من أنها مفيدة. إذ تنتمي تلك المرأة إلى قبيلة الملكة ذاتها، ولكن يبدو لي أنها خبيرة بالشعوذة أكثر مما هي خبيرة بالطب".

"انتظر قليلاً. ستأتي بارسين، وربما ستنجح في إقناعها".

بدا أن فيليب يشك في ذلك، لكنه قال: "آمل ذلك".

وصل الإسكندر وفيليب إلى المبنى الذي خصص كي يكون مقر زوجات الملك. ولاحظا أن بارسين قد سبقتهما إليه، وأنها تنتظرهما أمام الباب. استقبلهم أحد المخضمين وتقدّمهم إلى الباحة الداخلية، وتناهى إلى أسمعهم صوت أنين مكتوم.

قال فيليب: "حتى إنها لا تبكي عندما تشعر بآلام المخاض، لأن أنفثها تمنعها من ذلك".

أشار إليهم المخصي بكل احترام أن يتبعوه إلى الطابق العلوي حيث التقوا القابلة وهي تغادر الغرفة في تلك اللحظة بالذات.

قال الطبيب لبارسين: "أرجوك، ترجمي لي. يتعين عليّ أن أقنعها، أتفهمين؟". أوامات بارسين، ودخلت جناح الملكة. في هذا الوقت، قاد المخصي الإسكندر إلى عتبة باب آخر، وما لبث أن قرعه.

فتحت امرأة فارسية ترتدي ملابس أنيقة الباب، ورافقتها إلى غرفة الانتظار، وتوجهت بهما بعد ذلك إلى غرفة كانت تجلس فيها سيسيفامبيس، الملكة الأم. كانت الملكة جاثية على ركبتها قرب النافذة فوق لفافة من ورق البردى. احتوت اللفافة على كتابات كثيرة، وكانت الملكة الأم تهمس بتعويذة معينة. أشار المخصي إلى الإسكندر وشرح له أنها تقوم بواجب ديني. عندها، وقف الملك بكل احترام قرب الباب، لكن سيسيفامبيس أدركت وجوده على الفور، فوقفت بسرعة واقتربت منه، وحيّته بالفارسية بكل حرارة. بدا الاهتمام والتوتر، وحتى الألم على وجهها بكل وضوح، لكن من دون وجود أي علامة تنم عن القلق.

قال المترجم: "إن الملكة الأم تحييكي، وهي ترجوك أن تقبل ضيافتها".

"اشكرها بالنيابة عني، وقل لها إنني لا أنوي أن أزعجها. أتيت فقط كي أحاول تقديم المساعدة إلى زوجة داريوس التي تمرّ بوقتٍ

عصيب الآن". نظر الإسكندر إلى عينيها مباشرة، وتابع كلامه: "يقول طبيبي إنه يستطيع المساعدة إذا تمكنت زوجة داريوس من التغلب على خجلها ووافقت على أن يفحصها".

فكّرت سيسيجامبيس بعمق، وما لبثت أن نظرت إلى عيني الإسكندر بوجه يفيض بالتأثر الذي شعرت به، وشعر كلاهما بمدى عمق مشاعرهما، ومدى بعد هذه المشاعر عن لغة المترجم. في تلك اللحظة، قطع الأئين المكتوم الصادر عن الملكة التي توشك أن تصبح أمًّا حبل الصمت، وكان من الواضح أنها تحاول مواجهة مخبتها بمفردها بكل كبرياء. جفلت الملكة الوالدة لدى سماعها ذلك الصوت، وما لبثت عيناها أن فاضتا بالدموع.

"أشك في أن يكون طبيبك قادراً على المساعدة، حتى لو سمحت له بفحصها".

"لكن لماذا، أيتها الوالدة العظيمة؟ طبيبي ذو خبرة واسعة..."، غير أنه امتنع عن متابعة كلامه حين أدرك من التعابير التي ارتسمت على وجهها أن أفكارها كانت في مكان آخر.

قالت سيسيجامبيس: "في واقع الأمر، أعتقد أن زوجة ابني لا ترغب في أن تلد".

"لم أفهم أيتها الوالدة العظيمة. يعتقد طبيبي فيليب أنه يُحتمل أن يكون الطفل في وضع غير صحيح وغير مناسب للولادة...".

فاضت دمعتان ببطء فوق خدي الملكة الوالدة، كما ظهرت علامات التقدم في السن والألم على وجهها، وما لبثت الكلمات أن انسابت من فمها بتأن، وكأنها كانت تستعد للنطق بحكم ما: "لا تريد زوجة ابني أن تلد سجيناً، ولا يستطيع أي طبيب أن يغيّر قرارها. إنها تحتفظ بالطفل في داخلها، وذلك كي تتمكن من الموت معه".

ظهرت الحيرة الحقيقية على وجه الإسكندر، وعجز عن الكلام، فأخفض رأسه.

تابعت سيسيجامبيس كلامها بصوت متهدج يفيض بالعاطفة: "ليست تلك غلطتك يا بني. فلقد جاءت بك الأقدار كي تدمر إمبراطورية أنشأها سيروس. إنك مثل الرياح التي تهب بقسوة فوق سطح الأرض. وبعد مرورها، لا يعود شيء إلى ما كان عليه من قبل. لكن الرجال يقون متعلقين بذكرياتهم مثلما يتمسك النمل بأوراق العشب التي تعصف بها الرياح".

سُمت في تلك اللحظة صرخة أعلى، تبعثها أصوات النواح. قالت سيسيجامبيس: "انتهى الأمر. مات آخر ملك الملوك قبل أن يولد". وبعد قليل، دخلت خادمتان، ووضعتا نقاباً أسود اللون على وجه الملكة وكتفيها، وذلك كي تتمكن من التعبير عن حزنها من دون أن يراها أحد.

أحب الإسكندر أن يقول شيئاً، لكنها بدت أمامه كتمثال فلم يجرؤ على الكلام. لذا، أخفض رأسه، ثم غادر الغرفة ومرّ عبر الرواق وهو يسمع أصوات بكاء نساء داريوس ونواجهن.

أما فيليب فخرج من غرفة الانتظار التابعة للملكة الراحلة مصدوماً وشاحب اللون.

\*

في اليوم التالي، أعطى الإسكندر الأوامر لتنظيم مراسم الجنازة، وأمر أن تُدفن الملكة بطريقة تليق بها، وأن تنال التكريم الذي يُناسب مركزها، وأمر كذلك بأن تُقام رابية ترايبية كبيرة فوق مكان دفنها جرياً على عادة قبيلتها الأصلية. وعند وضعها تحت التراب، عجز الملك عن كبح دموعه، وهو يفكر في جمالها ورقفتها، وفي طفلها الذي لم يرَ النور.

في ذلك المساء بالذات، هرب المخصي وسار بحصانه أياماً عدة حتى وصل إلى أول المراكز الفارسية التي تقع بالقرب من نهر دجلة. وهناك، طلب أن يؤخذ إلى معسكر الملك داريوس الذي كان في الجانب الآخر من النهر. رافقه عدد من الفرسان الميدين عبر الصحراء مسافة عشرة فراسخ، وعند غروب شمس اليوم التالي كان يقف في حضرة الملك العظيم.

كان داريوس يعقد اجتماعاً مع قادته، وكان يرتدي سروالاً كتانياً خشناً، وسترة مصنوعة من جلد غزال؛ وهي ملابس بسيطة يرتديها الجنود عادة. أمّا الشيء الوحيد الذي كان يشير إلى مركزه الملكي فكان ذلك التاج الثقيل الذي وضعه فوق رأسه، والخنجر المصنوع من الذهب الخالص، والأكيناكي اللامع الذي يتدلى إلى جانبه.

رمى المخصي نفسه على الأرض، وعقر جبهته بالتراب، وراح يقص على الملك ما حدث في صور وسط نشيجه، وروى له ما جرى مع الملكة، وأخبره عن ألمها، وموتها، وجنازتها، ولم ينسَ ذكر الدموع التي ذرفها الإسكندر.

بدا داريوس مصدوماً بهذه الأخبار، وأمر المخصي بأن يتبعه إلى القسم الداخلي من الخيمة الملكية.

"سامحني أيها الملك العظيم لأنني حملت إليك هذه الأخبار المحزنة. سامحني...". ومضى المخصي بالاعتذار هكذا من خلال دموعه.

فقال له داريوس كي يخفف عنه: "لا تبك لأنك قمتَ بواجبك، وأنا ممتن لك على ذلك. هل عانت زوجتي كثيراً؟".

"تعذبت كثيراً يا صاحب الجلالة. لكنها تعذبت بكبرياء وقوة تتناسبان مع كونها ملكة فارسية".

نظر داريوس حوله من دون أن يقول أي شيء. ولكن، اتضح من التعضنات العميقة على جبهته، ومن شرود نظرتة أن قلبه وعقله مليان بعاطفتين متناقضتين.

سأله بعد برهة من الصمت: "هل أنت متأكد من أن الإسكندر بكى بالفعل؟".

"أجل. كنت قريباً منه بما يكفي كي أرى الدموع التي تسيل على خديه".

تنهد داريوس، وجلس متاقلاً على صندوق، وقال: "لكن ذلك يعني... يعني أن شيئاً ما كان يجري بينهما. تنزل الدموع عندما يفقد المرء شخصاً عزيزاً عليه".

"يا صاحب الجلالة، إنني لا أعتقد...".

"يُحتمل أن يكون الطفل طفله...".

قال المخصي معترضاً: "كلا، كلا!".

صاح داريوس: "اصمت! هل تتجرأ على معارضي؟".

جثا المخصي على ركبتيه، وراح يرتعش ويكي مجدداً، ثم قال:

"يا صاحب الجلالة، أتوسل إليك دعني أتكلم!".

"قلت لي الكثير، فما الذي تبقى عندك كي تضيفه

الآن؟".

"لم يلمس الإسكندر زوجتك قط، ولم يزرها من دون أن يطلب

الإذن، وكان ذلك يحصل بحضور جواربيها. وأظهر الإسكندر الاحترام

ذاته، إن لم يكن أكثر، تجاه والدتك".

"هل أنت تكذب علي؟".

"أنا لا أكذب عليك أبداً أيها الملك العظيم. إن كل ما أخبرتك

إياه هو الحقيقة بعينها. أقسم بأهورا مازدا".

تمتم داريوس: "أهورا مازدا...". ووقف بعد ذلك، وتقدم نحو باب الخيمة، وسحب الستارة جانباً، ثم نظر إلى السماء. كانت القبة السماوية فوق الصحراء تعجّ بالنجوم، بينما امتدت مجرة درب التبانة من أفق إلى آخر بضوئها الشفاف. كان المعسكر مليئاً بالمشاعل الصغيرة المنتشرة في أرجائه. راح يتمتم: "أهورا مازدا، اجعلني منتصراً، ودعني أحافظ على مملكة أسلافي. إنني أعد بأنني إذا انتصرت، فسأعامل خصمي بكل رافة واحترام، لأنه لو لم تضعنا الحرب في هذا الموقف لكنت طلبت، ومن كل قلبي، أن نكون صديقين ودودين".

غادر المخصي الخيمة كي يترك الملك بمفرده مع أفكاره. لكنه ما إن فعل ذلك حتى سمع ضجيجاً صادراً عن أحد مداخل المعسكر فتوقف في مكانه. رأى جماعة من الفرسان الأشوريين يقتربون منه، ولاحظ أنهم يرافقون شاباً في غاية الوسامة. ولدى مروره أمامه خيّل إليه أنه يعرفه. مشى المخصي وراء الجماعة خطوات عدة، وهو غير مصدق ما يراه. في هذا الوقت، وصل الموكب الصغير إلى الخيمة الملكية. وعندما انعكس نور أحد المشاعل المضاءة أمام المدخل على وجه الصبي تأكّدت ظنونه. كان ذاك الشاب إتيوكل، ابن ممنون!



## 6

كان أداء تيسالوس في أوديب ريكس مثالياً، وعندما وصل إلى المشهد الذي يقتلع فيه البطل عينيه بدبوس مشبك عباءته، رأى الجمهور خطين من الدماء ينزلان من قناع الممثل. عندها، تصاعدت أصوات تحسّر طويلة من الجمهور الذي اصطف على الشرفات، بينما تناهى إلى أسماعهم التفجع الإيقاعي لأوديب ذاته من المسرح.

صَفَّق الإسكندر الذي كان يجلس على مقعد الشرف طويلاً وبحماسة. وبعد ذلك مباشرة، أدّى آلسيسيتيس. انفعل الجمهور بدرجة أكبر في ذروة المسرحية. وحرص إيومينيس على أن يقوم دياديس بتصميم آلات المسرح، وهو المهندس ذاته الذي بنى أبراج المهجوم التي تسببت بتدمير أسوار صور.

همس الأمين العام في أذن الإسكندر: "قلت لك إنه سيبلي بلاءً حسناً. انظر إلى الجمهور كيف يتفاعل مع هذا الأداء".

"قمت بعمل رائع. تأكد من تسلّم الجميع جوائزهم، وعلى الأخص ذلك المهندس الذي صمّم الآلات. لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا".

"يعود الفضل في ذلك إلى رعاة هذه المسابقات، مثل ملك قبرص الذي لم يوفر أي مبلغ في تمويل التجهيزات و... هناك أمرٌ أخير. وردت أخبارٌ جديدة من الجبهة الفارسية. سأعلمك بكل شيء هذا المساء بعد انتهاء العروض". وغادر بعد ذلك كي ينظّم حفل توزيع الجوائز.

انسحب الحكام الذين كان من بينهم بعض الضيوف الأثينيين الذين عُيّنوا من باب اللياقة، إلى غرفة اجتماعات، وذلك للتشاور قبل التوصل إلى قراراتهم. خصّص الحكام الجائزة الأولى لأفضل التجهيزات المسرحية لأليسيستيس، بينما كانت جائزة أفضل ممثل من نصيب أثينودوروس بسبب قيامه بدور ملكة آرغوس مستخدماً قناع امرأة، وصوتاً ذا طبقة عالية.

شعر الملك ببعض الإحباط، لكنه سعى إلى إخفاء هذه الحقيقة، وصفق للفائز من باب اللياقة.

قال إيومينيس: "لا تحق بسبب ما جرى، فلقد أعطوه الجائزة من أجل صوته العذب".

همس بطليموس في أذن سلوقس: "إن كنت أعرف الإسكندر جيداً، فإن ما جرى على خشبة المسرح الآن لن يساعد الوفد عند تقديمه التماسات الحكومة الأثينية هذا المساء".

"كلا. لكن حتى من دون قرارهم هذا، فإن أملهم كان ضئيلاً في واقع الأمر، لأن ملك إسبارطة آجيس يقوم بمهاجمة حامياتنا. ولذلك أرى أنه من الأفضل أن نقضي على أي أمل قد يدغدغ الأثينيين".

فهم سلوقس الوضع جيداً عندما حانت لحظة لقاء الملك الموفدين الأثينيين، وأصغى بعناية إلى طلباتهم.

بدأ رئيس الوفد الذي كان ذا خبرة سنوات عدة في المجلس التمثيلي الكلام: "كانت مدينتنا موالية لكم، كما دعمناك خلال حملتك على أيونيا، وقمنا بتنظيف البحر من القراصنة كي نضمن بقاء مواصلاتك مع مقدونيا مفتوحة. ولأجل كل ذلك، إننا نطلب إليك أن تطلق سراح الأسرى الأثينيين الذين وقعوا في أيديكم خلال معركة غرانيكوس. فعائلات الأسرى تتلهف لاستقبالهم مجدداً، كما تستعد

المدينة للترحيب بهم. نحن نسلم بأن هؤلاء قد تصرفوا برعونة، لكنهم فعلوا ذلك بنية طيبة، فدفعوا ثمن خطأهم غالياً.

تبادل الملك نظرات سريعة مع سلوقس وبطليموس، ثم ردّ بالقول: "أرغب من كل قلبي في أن أُلبي طلبكم هذا. لكن، لم يحن الوقت المناسب بعد لوضع الماضي جانباً. سأطلق سراح خمسمئة رجل عن طريق القرعة، أو مَنْ تختارونهم أنتم. أما الآخرون فسيبقون سجناء عندي لبعض الوقت".

لم يحاول رئيس الوفد الأثيني المجادلة في هذه المسألة، لأنه كان يعرف طبيعة الإسكندر تمام المعرفة، ولذلك ابتلع ريقه بمرارة خلال مغادرته الغرفة. كان يعرف أن الملك لا يتراجع أبداً عن قراراته، وعلى الأخص تلك المتعلقة بالسياسة والاستراتيجية.

ما إن غادر أعضاء الوفد حتى هبّ كل أعضاء المجلس واقفين وغادروا بدورهم، في ما عدا إيومينيس.

سأله الإسكندر: "حسناً، إذا؟ ما هي الأخبار التي ذكرتها لي؟".  
"ستعرفها كلها بعد وقت قصير. هناك شخصٌ يطلب رؤيتك".  
فتح إيومينيس باباً جانبياً، وأدخل منه شخصاً غريباً إلى الغرفة. كانت لحية الرجل مشدبة بإتقان، ومن الواضح أنها مصبوغة باللون الأسود. أمّا شعره فكان مسرّحاً بترتيب. وكان يرتدي ملابس سورية مبهرجة. ووجد الإسكندر صعوبة في التعرف إليه.

"أنت إيمولبوس من سولوي! لكن، ماذا حدث لك؟".  
قال الرجل: "لقد غيرت هويتي، لذلك فإن اسمي الآن هو بعلا دجار. وأنا أتحرّك الآن ضمن المجتمعات السورية حيث أتمتع بسمعة طيبة بصفتي ضالعاً ومشعوذاً. لكن، كيف ينبغي لي أن أحاطب سيداً شاباً هو سيّد النيل والفرات، والذي تهتزّ كل مناطق

آسيا خوفاً من مجرد ذكر اسمه؟ ثم لديّ سؤال آخر، هل الكلب موجود هنا؟".

أجاب إيومينيس: "كلا، الكلب ليس هنا. هل أنت ضالع أعمى؟".

سأل الإسكندر: "إذاً، ما هي الأخبار التي جلبتها لي؟".

نفض إيمولبوس الغبار عن كرسيه بطرف عبائه، ثم جلس بعد أن دُعي للجلوس. بدأ الرجل كلامه: "أعتقد هذه المرة أنني جلبت لك معلومات لم تستلم مثيلاً لها من قبل. يتلخص الوضع على الشكل التالي: يجمع الملك العظيم جيشاً كبيراً هو على وجه التأكيد أكبر من ذلك الذي واجهته في إيسوس. يُضاف إلى ذلك أنه يُخطّط لاستخدام العربات المصممة حديثاً والمزودة بآلات قاطعة، وهي أجهزة رهيبة مليئة بشفرات قاطعة مثل السيوف. سيتواجد معسكره الرئيس إلى الشمال من بابل، وهو سينتظر كي يعرف الاتجاه الذي ستسلكه. وعندها سيختار موقع المعركة. سيكون موقع المعركة وسط سهلٍ فسيحٍ حيث يستطيع أن يستفيد من تفوّقه العددي إلى أقصى حد، وحيث يستطيع عرباته التحرك بكل حرية. إنه واثق جداً من أن النصر سيكون حليفه".

"وما الذي جعله يغيّر رأيه بهذه السرعة؟".

"الجمود الذي تظهره. إذ إنّ عدم تحركك من الساحل أبقعه بأنّ لديه الوقت الكافي كي يجمع كل الجنود الذين يحتاج إليهم لإلحاق الهزيمة بك".

التفت الإسكندر إلى إيومينيس قائلاً: "أرأيت؟ لقد كنتُ مصيباً. إنّها الطريقة الوحيدة للتوصل إلى حلّ حاسم. سأنتصر، وستكون آسيا بأكملها لي".

التفت إيومينيس مجدداً نحو إيمولبوس: "ألديك فكرة عن المكان الذي اختاره داريوس لمقاتلتنا؟ هل هو في جهة الشمال؟ أم في جهة الجنوب؟".

"لا أعرف. لكنّ هناك شيئاً واحداً أعرفه. سينتظر الملك العظيم في أيّ طريق مفتوحة ومنبسطة أمامك".

فكّر الإسكندر بصمت قليلاً بينما كان يمولبوس يراقب نخلسةً، ثم قال: "سنبدأ بالتحرك في بداية الخريف، وسنعب نهر الفرات عند تابساكوس. انتظرنا هناك، فرمما ستحمل إلينا أخباراً جديدة".

غادر المخبر وسط سلسلةٍ من الحركات المصطنعة، لكن إيومينيس بقي كي يتحدث إلى الملك.

"إذا عبرت النهر عند تابساكوس فإن ذلك يعني أنك تريد التحرك مع نهر الفرات جنوباً، أي كما فعل العشرة آلاف الذين تحدث عنهم زينوفون... هل أنا محقّ؟".

"يُحتمل ذلك. لكن، لا شيء مؤكد حتى الآن، لأنني سأخذ قراراً عندما أفق على ضفة النهر اليسرى. أما الآن، فأنا أريد أن تستمر الألعاب الرياضية. أريد أن يستمتع الرجال، وأن يجدوا نوعاً من التسلية، لأنهم لن يجدوا وقتاً لهذه التسلية بعد ذلك. فسنكون تحت ضغط شديد أشهراً عدّة، وربما لسنوات. من سيمثلنا في الملاكمة؟".

"ليوناتوس".

"بالطبع، ومن سيمثلنا في المصارعة؟".

"ليوناتوس".

"فهمت. أرجوك، ابحث عن هيفاستيون، ثم أرسله إليّ".

غادر إيومينيس، وبدأ عملية البحث عن صديق الملك. فوجده يتدرب على المصارعة مع ليوناتوس. رآه يسقط مرات عدة قبل أن يتمكن من الاستحواذ على انتباهه. انتظر حتى سقط هيفاستيون على الأرض للمرة الثالثة ثم قال: "يريد الإسكندر أن يراك. أسرع".

سأل ليوناتوس: "أريد أن يراني أنا أيضاً؟".

"كلا، لا يريد رؤيتك. ابقَ هنا وتابع تمارينك لأنني لن أحسدك أبداً إذا لم تتمكن من هزيمة الشخص الأثيني الذي سيتحداك".  
قال ليوناتوس شيئاً كي يعبر عن تدمره، بينما أشار إلى جندي آخر كي يتقدم نحوه. اغتسل هيفاستيون على وجه السرعة، ومثل أمام الإسكندر وشعره ملىء بالرمال.  
"هل أرسلت في طلبتي؟".

"أجل. أريد تكليفك بمهمة خاصة. اختر بنفسك وحدتين من فرقة الطليعة إذا أردت، وفريقين من نجاري الفينيقيين البحريين. خذ نيرخوس معك، وتوجهوا إلى تابساكوس الواقعة عند نهر الفرات. أمن له التغطية خلال بنائه جسرين عائمين، فسنعبر النهر من هناك".  
"كم لدينا من الوقت؟".

"لديكم شهرٌ واحد على الأكثر. سأوافيكم إلى هناك مع سائر الجيش".

"إذاً، أخيراً ستتحرك".

"أجل، سنبدأ تحركنا. ودّع البحر يا هيفاستيون، لأنك لن ترى المياه المالحة إلى أن نصل إلى شواطئ المحيط الذي لا نهاية له".

استغرق الأمر أربعة أيام لتجميع الفرسان والنجارين وموادّ البناء. أشرف نيرخوس على تفكيك السفينتين، وعلى ترقيم الألواح وتحميلها على عربات تجرها البغال، وهكذا استعدت القافلة الطويلة لمغادرة الساحل. توجّه هيفاستيون في الليلة التي سبقت مغادرته إلى خيمة الإسكندر ليودّعه. وعندما عاد، رأى ظليّن لشخصين يسيران خلف خيمته قبل أن يقتربا منه بحذر.

كان علي وشك أن يستلّ سيفه عندما همس صوتٌ مألوفٌ لديه: "نحن هنا".

سأل هيفاستيون إيومينيس: "هل تعبتما من العيش؟".  
"ضع ذلك السيف جانبا لأننا يجب أن نتكلم".

ألقي هيفاستيون نظرةً حذرةً على الشخص الآخر، فتعرّف إلى وجه إيمولبوس من سولوي. قال ضاحكاً: "حسناً، لم أتخيّل مطلقاً أن أرى الرجل الذي أنقذ نفسه من قصبةٍ فارسية وهو يترك وراءه جيشاً بكامله".

رد المخبر على الفور: "انتبه مما تقوله أيها الشاب، وأصغِ إليّ كي تنقذ حياتك وحياة المحيطين بك".

أدخلهما هيفاستيون إلى خيمته وهو مندهش من هذه السرية، ثم سكب بعض الشراب في كوبين. ارتشف إيومينيس رشفة من الشراب، ثم بدأ بالكلام: "لم يُخبر إيمولبوس الإسكندر بكل شيء".

"لا أعرف السبب، لكنني تخيّلت هذا بطريقةٍ ما".

"لقد فعل الشيء الصائب! يريد الإسكندر خفض قرونه والهجوم مثل ثور من دون أن يحسب حساباً لقواته، أو لقوات العدو."  
"هذا هو النهج الصائب، وهو ما مكّنا من الانتصار في غرانيكوس وإيسوس".

"كانت قوانا في غرانيكوس متماثلة بطريقة أو بأخرى، أما في إيسوس فقد نجونا بمساعدة الحظ. إننا نتحدث هنا عن نحو مليون رجل. أتفهم هذا؟ مليون رجل. إنهم بالمئات ولا حصر لهم. يمكنك أن تعدّهم؟ لا أتصوّر أنك تستطيع ذلك. لقد أحصيتُ عددهم بنفسي على كل حال. وإذا افترضنا أنهم يقفون بستة صفوف فهم سيحيطون بنا من جهة اليمين ومن جهة الشمال على عمق يزيد على ثلاثة ستاديا. وماذا بشأن تلك العربات ذات المحاور المستنّة؟ كيف سيردّ رجالنا عندما يجدون أنفسهم في مواجهة تلك الآلات المرعبة؟"  
"وأين موقعي في كل هذا؟".

قال إيمولبوس: "سأقول لك على الفور. سيرسل الملك العظيم حامية بقيادة مازايوس، مرزبان بابل، إلى معبر تابساكوس. إن مازايوس هو اليد اليمنى للملك، وهو ثعلبٌ عجوز يعرف كل زاوية من زوايا البلاد الواقعة بين هذا المكان ومصب نهر السند، كما يعمل لديه آلاف عدة من المرتزقة اليونانيين، وكلهم متمرسون بأمر القتال، وهم من نوع الرجال الذين يستطيعون أن يبصقوا دماً عندما يضطرون إلى ذلك. أتعرف أمراً آخر؟ لا يجد مازايوس صعوبة في التواصل مع هؤلاء الشبان لأنه يتكلم اللغة اليونانية بطريقة أفضل مما تتكلمها أنت."  
"لم أفهم حتى الآن ما ترمي إليه".

"فلق مازايوس كثيراً منذ بعض الوقت، بسبب اعتقاده أن إمبراطورية سيروس العظيم وداريوس قد وصلت إلى مرحلة الزوال".



"إن هذا لمصلحتنا، وماذا بعد؟".

"وَمَا أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي سَرَبَ إِلَيَّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ قَرِيبٌ جَدًّا مِنْ مَازَايُوسَ، فَيُمْكِنُنَا أَنْ نَتَفَهَمَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْعَجُوزَ. هَلْ أَدْرَكْتَ مَا أَعْنِيهِ؟".

"نعم ولا".

قال إيومينيس: "تحدّث إليه إذا كانت لديك فرصة للاجتماع به. سيعرفه نيرخوس لأنه رآه مرة في قبرص".  
"سأحاول. وماذا بعد؟".

"هناك احتمال بأننا قد نخسر معركتنا ضد مليون رجل، ولذلك سنستفيد كثيراً من بعض المساعدة".  
"أتريدني أن أقنعه بخيانة داريوس".

قال إيمولبوس: "شيء من هذا القبيل".  
"سأتحدّث إلى الإسكندر في هذا الشأن".

قال إيومينيس: "هل فقدت رشذك؟".  
"لن يحدث شيء بغير هذه الطريقة".

هزّ إيمولبوس رأسه: "يا للشبان الحمقى الذين لا يريدون الإصغاء إلى الذين يعرفون أكثر منهم... إذاً، افعل ما تريده. اذهب كي يفتحوا لك رأسك". خرج المخبر، وما لبث إيومينيس أن تبعه، لكن الإسكندر سبقهما كي ينزّه بيريتاس على الشاطئ. وما إن رآهما الكلب حتى بدأ بالنباح على الفور. نظر إيومينيس أولاً إلى بيريتاس، ثم إلى المخبر قبل أن يسأله: "مِمَّ صُنِعَ شعرك المستعار؟".

\*

استغرق جيش هيفاستيون سبعة أيام كي يصل إلى ضفتي نهر الفرات عند ثابساكوس، وهي مدينة تعجّ بالتجار والمسافرين والماشية

والسلع من مختلف الأنواع. ازدهرت ثابساكوس لأنها نقطة العبور الوحيدة على النهر.

ترجع أصول هذه المدينة إلى الفينيقيين، بالرغم من تواجدها في الداخل، كما أن اسمها يعني بالفعل "معبراً"، أو "ممرأ". لا يوجد أي شيء جذاب بشكل خاص في هذه المدينة من الناحية الجمالية. فليس فيها نُصُب تذكارية أو هياكل، أو حتى ساحات، أو أروقة معمدة، أو تماثيل... ومع ذلك، تُعتبر هذه المدينة مبهجة. وذلك بفضل أنشطة الناس وحركتهم فيها. فالتجار ينادون على سلعهم، أما بائعات الهوى فيتجمعن وهن يحملن أغراضهن، ويرافقن سائقي البغال والجمال الذين يعملون على طول ضفتي النهر العظيم. واللغة التي يتحدث بها الناس في ثابساكوس خليط غريب من الآشورية، والفينيقية، والآرامية مع استخدام بعض الكلمات اليونانية بين الحين والآخر.

أكمل هيفاستيون أول جولة استكشافية له في المدينة، فأدرك على الفور استحالة عبور النهر في ذلك الوقت، فقد بدأ المطر بالهطول في الجبال، وامتلأت ضفتا النهر بالمياه. كانت الطريقة الوحيدة للعبور تكمن في بناء جسر، وهكذا بدأ النجارون الفينيقيون بالعمل تحت إمرة نيرخوس. كانت جميع الألواح تحمل علامات حمراء تشير إلى أحرفٍ من الأبجدية الفينيقية وذلك من أجل تحديد طريقة وصلها ببعضها.

بدأ الجنود بتجميع الجسر عندما صارت المراكب جاهزة، وأحضر البحارة دعائم الجسر الخشبية ووضعوها في أماكنها، ثم ثبتوها في قاع النهر، وربطوا كل دعامة بإحكام مع الدعامة التي تليها، ثم وضعوا عليها الألواح الخشبية وبعد ذلك رفعوا الحاجز. ما إن انتهى العمل حتى ظهر جنود مازايوس، الذين كانوا خليطاً من الفرسان الآشوريين والعرب بالإضافة إلى المشاة اليونانيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً. بدأ

هؤلاء على الفور بأعمال معرقة، وأمطروا وسط النهر بأسهمهم الملتهبة، كما دفعوا قوارب محملة بالزيت المشتعل إلى وسط النهر، فصارت كرات من اللهب تضرب منشآت نيرخوس وتحرقها.

مرت الأيام هكذا من دون تسجيل أي تقدم، واقتربت لحظة وصول جيش الإسكندر بجياده البالغ عددها عشرة آلاف، وعرباته البالغ عددها ألفين والمليئة بكل أنواع المؤن والعتاد، والجاهزة لعبور نهر الفرات. كره هيفاستيون فكرة كونه متأخراً عن الموعد، ولذلك تحدث إلى نيرخوس عليهما يتوصلان إلى حلّ ما. وفي إحدى الليالي، بينما كان هيفاستيون ونيرخوس جالسين على ضفة النهر، وهما يتناقشان حول ما يُمكن عمله، ربّت نيرخوس فجأة على ظهر هيفاستيون وقال له: "انظر".

"إلام أنظر؟".

"انظر إلى ذلك الرجل".

نظر هيفاستيون إلى الضفة الأخرى، إلى حيث أشار نيرخوس، فرأى رجلاً يجلس وحيداً على صهوة جواده، وكان يحمل مشعلاً مضاءً.

"ومن عساه يكون؟".

"لا يهمّ. ما يهمّ هو أنّه يريد التحدث إلينا".

"وماذا عسانا نفعل؟".

"أعتقد أنّه يتعيّن عليك أن تذهب إلى هناك. خذ قارباً، واعبر بنفسك إلى الضفة الأخرى، واستمع إلى ما سيقوله. سأحاول تغطيتك من هنا إذا استدعى الأمر ذلك".

وافق هيفاستيون، وعبر النهر إلى الضفة الأخرى، ووقف هناك أمام ذلك الفارس الغامض.

بادره الفارس بلغة يونانية ممتازة: "تحياي!".  
أجابه هيفاستيون: "تحياي لك أيضاً. من أنت؟".  
"اسمي نابونيد".

"وماذا تريد مني؟".

"لا أريد شيئاً. سندمر جسركم غداً. لكنني أريد أن أعطيك هذا الغرض قبل بدء المعركة الأخيرة، وأريدك أن تسلمه إلى بعلا دجار إذا التقيته".

راح هيفاستيون يفكر بسرّه في أنه يعني إيمولبوس من سولوي. ونظر في تلك الأثناء إلى ذلك التمثال الطيني الصغير الذي يمسكه الرجل في يده، وهو التمثال الذي تزين قاعدته شخصيات على شكل وتد.  
"لماذا؟".

"لقد شفاني ذات مرة من مرضٍ قاتل، ووعدته حينها بأنني سأكافئه بغرضٍ أغرمت به كثيراً. هذا هو".

راح هيفاستيون يفكر في كيفية إعطاء المصدقية لذلك الرجل الذي اعتبره آخر النصاين.

ردّ عليه: "حسناً. سأعطيه إياه. ألدك شيء آخر ترغب في أن تبلغني إياه؟".

قال ذلك الشخص الغريب: "كلا". وابتعد الرجل على صهوة جواده وهو يمسك بالمشعل في يده. فعاد هيفاستيون إلى حيث كان نيرخوس ينتظره فوق الدعامة الأخيرة التي بقيت سليمة.

سأل نيرخوس هيفاستيون ما إن رآه يقترب من مكان رسو القارب: "أتعرف هوية ذلك الرجل".

"كلا... لماذا؟".

"إنه مازايوس، مرزبان بابل، هذا إن لم أكن مخطئاً".

"بحق هرقل! لكن، ماذا...".

"ماذا قال لك؟".

"قال لي إنه سيمزقنا إرباً إرباً، وقال إنه مدين لبعلا دجار، أو إموليوس من سولوي. وطلب مني أن أعطيه هذا...". ثم عرض هيفاستيون التمثال على نيرخوس.

"يعني ذلك أنه رجلٌ يحترم التزاماته. أما بالنسبة إلى تقطيعه لنا إرباً إرباً، فإن لديّ فكرةً بهذا الشأن، وفي غضون يومين سأقدم إليه مفاجأة لطيفة".

"وما هي تلك الفكرة؟".

"أمرت بأن تُنقل كل الدعائم التي لم تُجمَع بعد إلى أعلى النهر".

"أتعني كل الدعائم التي نمتلكها".

"بالضبط. أريد أن تُجمع هذه الدعائم في الغابة حيث لن يرانا أحد، وسنقوم بتحميلها بالاستعانة بثلاثمئة فارس. وبعد ذلك، سننقلها إلى أعلى النهر كي نهاجم معسكر مازايوس في منتصف الليل، حيث سنُطلق العنان للحجيم. وما إن يصبح الفرسان على الضفة الأخرى حتى تعوم الدعائم نزولاً مع تيار المياه، وسيقوم النجارون التابعون لنا بتجميعها معاً. وفي هذه المرحلة، ستعبر النهر مع رجالك من فرقة الطليعة لتقدم الدعم. سنبطح هذه المعركة، وهم سيخسرونها، وهكذا، سيُصبح معبر تابساكوس تحت سيطرتنا. وستنتهي اللعبة عند هذا الحد".

حدّق إليه هيفاستيون عن قرب، وراح يفكر في أن هذا الرجل القادم من كريت ذا الشعر الأجدع والبشرة الداكنة يعرف بالتأكيد كيفية التعامل مع القوارب. سأله: "ومتى سنبدا؟".

ردّ نيرخوس: "لقد بدأنا بالفعل، فما إن تأتي الفكرة حتى يصبح  
من غير المجدي تضييع الوقت. انطلق بعض رجالي بالفعل للعمل كفريقي  
متقدم".

بعد مرور يومين، وُضعت مناورة نيرخوس موضع التنفيذ وذلك بعد منتصف الليل بقليل. نُقل الفرسان إلى الضفة اليسرى من النهر، وسرعان ما بدأوا يتقدمون جنوباً، فيما وقف عدد قليل من البحارة فوق الدعائم التي أصبحت فارغة الآن ليمنحوا الفرسان وقتاً كافياً للهجوم قبل إطلاق هذه الدعائم مع تيار المياه المتجهة جنوباً.

وعندما اقترب الفرسان من المعسكر، تمكن البحارة من سماع صيحات الفُرس الذين تعرضوا لهجوم من قبل المقدونيين. وعلى الفور، أعطى نيرخوس أوامره من أجل بدء عملية التجميع، فصفت الدعائم الواحدة تلو الأخرى، ثم رُبطت بإحكام. وتمكن نيرخوس من الوصول إلى الضفة اليسرى، ومن ربط آخر الدعائم بينما كانت المعركة محتدمة في معسكر الأعداء.

لاقى الفرسان المهاجمون صعوبات حمة، لكن هيفاستيون الذي كان على رأس فرقة الطليعة، عبّر الجسر بسرعة على صهوة جواده من أجل مساعدة رجاله المتعبين. احتدمت المعركة مجدداً، ولكن بشراسة أكبر هذه المرة. كان المرتزقة اليونانيون متمركزين وسط خطوط الفُرس، فأبدوا مقاومة شرسة لكل الهجمات التي تعرضوا لها، كما تجمعوا في تشكيل يتخذ شكل مربع ليحموا بعضهم بعضاً بدروعهم الثقيلة.

فجأة، وبشكل غير متوقع، بدا أن الفرس يستجيبون إلى إشارة ما فبدأوا بالتراجع جنوباً. أما اليونانيون، الذين حوصروا من كل الجهات،

فقد تُركوا من دون مساندة مهما كانت، ولذلك اضطروا إلى الاستسلام. عندها، غرز هيفاستيون العلم الأحمر الذي يحمل النجمة الأركادية في وسط معسكر العدو الذي يقع على الضفة اليسرى من الفرات، وسرعان ما ذهب إليه نيرخوس بعد وقت قصير.

سأله: "هل يجري كل شيء على ما يرام".

"أجل أيها القائد. لكنني أتساءل عن شعورك وأنت تلعب بهذه القوارب الصغيرة، وأنت المعتاد على قيادة أسطول من السفن الكبيرة".  
أجاب نيرخوس: "يتعود المرء على كل ما تقع عليه يده يا هيفاستيون. لكن الأمر المهم هو تحقيق النصر".

أعطى الضباط من مختلف الفرق الأوامر ب نصب خيم المعسكر، ثم أرسلوا فرق استطلاع إلى المناطق الريفية المحيطة بالمكان. سعدت إحدى الفرق إلى قمة تلة صغيرة تتيح لها أن تشاهد بوضوح المناطق الممتدة إلى جنوبها، وما لبث الرجال أن رأوا ألسنة اللهب المتراقصة في الأفق البعيد.

فجأة، صاح قائد الفرقة: "إنه حريق! لنذهب بسرعة ولنلق نظرة!".

صاح فارس آخر: "هناك حريق آخر في الأسفل".

وبعد ذلك، تردد صوت أحد رفاقهم: "وهناك أيضاً! عند ضفة

النهر!". كانت ألسنة اللهب منتشرة في كل مكان.

"ما سبب كل هذه الحرائق؟".

نظر قائدهم إلى الوهج الصّادر عن النيران التي أضاءت في هذا الوقت معظم مساحة السماء، ثم أجاب: "إنهم الفُرس. إنهم يحرقون كل شيء كي لا نعثر على ما يفيدنا خلال زحفنا في أراضيهم. إنهم يريدون أن نموت جوعاً وإهاكاً. دعونا نعود ونتفحص الوضع". نحس القائد جواده وأتجه به نحو الحرائق.



تقدّم الرجال إلى الأمام، وجعلوا النهر إلى يمينهم. ولكن، سرعان ما تأكدت مخاوفهم. إذ كانت الحرائق تشتعل في كل قرية من القرى المنتشرة في ذلك السهل الفسيح المنتشر على طول ضفتي الفرات. كانت بعض القرى مبنية فوق تلال صغيرة، وكان بإمكان الجنود رؤية المنازل المشيدة فيها من الوحل الجاف بوضوح كبير لدى اشتعال النار فيها، وكانت أعمدة الدخان ترتفع عالياً في السماء. كان الرجال فوق صهوات أحصنتهم يسلكون كل الاتجاهات، وهم يحملون المشاعل والغصون المحترقة، فبدأ المنظر رهيباً.

قال القائد أمراً: "دعونا نعود، لأننا رأينا ما يكفي". ثم شدّ عنان حصانه واتجه نحو المعسكر. وبعد وقت قصير، انضمّ إلى نيرخوس وهيفاستيون وأبلغهما بما حدث، لكن الضوء الناتج عن الحرائق المنتشرة في السهل كان قوياً بما يكفي بحيث كان بالإمكان رؤيته من المعسكر. كان الأفق مناراً باللون الأحمر، فبدأ المنظر كما لو أنّ الشمس تغرب. صاح هيفاستيون: "كانت المحاصيل مخزّنة في المستودعات، ولذلك لم تسبق حبة حنطة واحدة من ذلك المكان وحتى بابل. يجب أن نعلم الإسكندر بما حصل على الفور!". ثم نادى أحد المبعوثين وأرسله على الفور باتجاه صور.

\*

في هذا الوقت، كان رجال الإسكندر قد انتهوا من جمع المؤن والعتاد، كما حضّروا قافلة من العربات التي كانت على أهبة الاستعداد للانطلاق نحو معبر تابساكوس. انتشرت أخبار المغادرة الوشيكة في أنحاء المدينة. وكالمعتاد، تأهّب عدد كبير من الناس لمرافقة الجيش، وهم الذين اعتادوا التحميم قرب الجنود خلال توقفهم. تكوّنت هذه الجماعة من التجار الذين يعرضون بإلحاح كل أنواع البضائع، ومن مجموعة من

بائعات الهوى، كما ضمت المجموعة كذلك عدداً من الفتيات المتحدرات من أسر فقيرة، واللواتي تركن منازلهن وأقمن علاقات طويلة الأمد مع الجنود. كان عدد منهن حوامل، بينما أنجبت أخريات أطفالاً وُسَماء ذوي بشرة داكنة وعيون زرقاء، أو شعر أشقر.

عند المساء، رست سفينة مقدونية في صور، وأفرغت حمولتها من الأخشاب التي تصلح لصنع مقابض الرماح، بالإضافة إلى صناديق مليئة بالدروع، وقطع غيار لآلات الحرب. فذهب أحد البحارة على الفور إلى المدينة القديمة، وراح يسأل عن مكان إقامة كاليستين.

حمل الرجل كيساً فوق كتفه، وعندما وصل إلى الباب الذي أرشدوه إليه، راح يطرقه بلطف.

فتناهى إلى سماعه صوت كاليستين من الداخل: "من الطارق؟". فطرق الرجل الباب مجدداً من دون أن يجيب، وما لبث المؤرخ أن فتح الباب. رأى كاليستين أمامه رجلاً قوي البنية ذا لحية كثة سوداء، وشعر أشعث. حيّاه الرجل بانحناءة.

"اسمي هيرموقراط، وأنا جندي في حرس أنتيباتر. أرسلني أرسطو".

بدا القلق على محيّا كاليستين، لكنه قال: "ادخل". دخل الرجل ونظر حوله، ثم تحرك بطريقة مترنحة مألوفة لدى الأشخاص الذين أمضوا وقتاً طويلاً في البحر، ثم طلب أن يُسمح له بالجلوس. فقال له كاليستين إن بإمكانه الاستراحة. وضع هيرموقراط الكيس برفقٍ على الطاولة قبل أن يجلس.

قال الرجل وهو يتناول علبة معدنيةً من الكيس: "طلب مني أرسطو أن أعطيك هذه، وكذلك هذه الرسالة". أخذ المؤرخ الرسالة، وتابع تفحص العلبة باهتمامٍ متزايد.

"لماذا تأخرت هكذا؟ كان يجب أن تصل هذه العلبة منذ وقتٍ طويل. لا أعرف إذا كنتُ الآن...".

ثم توقف عن متابعة كلامه، وبدأ بقراءة الرسالة. كانت من أرسطو بالتأكيد، لكنها كانت مرمزة ولا تحمل عنواناً. جاء في الرسالة:

يسبب هذا الدواء الموت في غضون عشرة أيام. وعوارضه شبيهة بتلك التي ترافق مرضاً خطيراً. أتلفه بعد أن تفرغ من استخدامه. وأتلفه على كل حال، حتى لو لم تستخدمه. لا تلمسه لأي سبب كان، ولا تشم رائحته.

قال كاليستين وهو يتناول العلبة بحذر: "كان هذا سيكون نافعاً لو جاءت العلبة قبل سنة من الزمن".

"آسف. فلقد واجهت بعض المشاكل في رحلتي. ضربت عاصفة شمالية قوية سفيني، فأنحرفت عن مسارها، ثم غرقت في نهاية الأمر عند الساحل الليبي. سرت أنا ورفاقي الذين نجوا من تحطم السفينة لأشهر، وأكلنا الأسماك والسرطانات البحرية حتى وصلنا إلى حدود مصر. وهناك علمت ببحر زحف الملك نحو معبد آمون. تابعنا من هناك سيرنا على الأقدام حتى وصلنا إلى ميناء في الدلتا، وهناك وجدت سفينة جرفتها الرياح الشمالية عن مسارها. قال لي بحارها إن السفينة كانت متوجهة إلى صور حيث ينتظرهم الملك وجيشه ورفاقه، وهكذا سمحوا لي بالصعود على متن السفينة".

قال كاليستين وهو يتناول كيس نقوده: "أنت رجل شجاع ومخلص. اسمح لي أن أكافئك".

أجاب هيرموقراط: "لا أريد أيّ مكافأة. ولكن، سأقبل منك بعض المال، لأنني لا أمتلك أي نقود كي أعود إلى مقدونيا".

"أترغب في أن تأكل أو تشرب شيئاً؟".

"أرغب بسرور في أن أتناول شيئاً من الطعام، لأن الطعام الذي قدموه إلينا في السفينة كان مريعاً جداً".

وضع كاليستين العلبه التي تسلّمها في صندوقه الشخصي، وثمّ أقفله بواسطة مفتاح. وغسل يديه في حوض الغسيل، ثم ما لبث أن وضع على الطاولة بعض الخبز، والجبن، وبعض السمك المشوي بالإضافة إلى الزيت والملح.

"كيف حال خالي العجوز؟".

قضم الرجل قطعة خبز بعد أن غمسها بالزيت والملح: "إنه بحالٍ جيدة".

"ماذا كان ينوي أن يفعل في آخر مرة رأيته فيها؟".

"كان يستعدّ لمغادرة مييزا متوجّهاً نحو آيجيا. لكن الطقس كان يتغيّر نحو الأسوأ".

قال كاليستين، وكأنه يتحدث بينه وبين نفسه: "إذا، ستستمر تحقيقاته".

"ماذا قلت؟".

قال كاليستين وهو يهزّ رأسه: "لا شيء... لا شيء". وجلس للحظة وهو يتفحص ضيفه الذي كان يمضغ طعامه، ثم سأل: "هل من أخبار جديدة بشأن اغتيال الملك فيليب؟ أعني هل هناك شائعات في مقدونيا؟".

توقف هيرموقراط عن تناول الطعام، وابتلع ما كان في فمه، ثم جلس بصمت بعد أن طأطأ رأسه.

طمأنه كاليستين بالقول: "يمكنك أن تثق بي. إن أي شيء تقوله لي لن يتخطى هذه الجدران".

"يقولون إن بوزانياس هو الفاعل، وإنه تصرف من تلقاء نفسه".  
اتضح لكاليستين أن الرجل لا يريد أن يتكلم، وفهم كذلك أن  
السؤال أقلقه بعض الشيء.

"سأعطيك رسالة إلى الخال أرسطو. متى ستبحر مجدداً؟".  
"سأسافر في أول سفينة أجدها".  
"جيد. سأغادر أنا مع الملك غداً. يمكنك أن تبقى في هذا المنزل  
حتى تعثر على سفينة مناسبة".  
تناول كاليستين قصبة، وبدأ بالكتابة:

من كاليستين إلى أرسطو، تحياتي!  
اليوم فقط، في الثامن والعشرين من شهر بودروميون من السنة  
الأولى بعد الأولمبياد المئة والثلاثين عشر، تسلمت الشيء الذي  
طلبت منك إرساله إلى ثيوفراستوس. لم أعد بحاجة إليه، ولذلك  
سأقوم بإتلافه كي لا تخاطر بأمر لا لزوم لها. دعني أعرف في  
أول فرصة ممكنة إذا كنت قد اكتشفت أي شيء يتعلق باغتيال  
الملك فيليب، لأنه ليس هناك أحد يريد توضيح هذه المسألة،  
ولا حتى زيوس آمون. إننا نغادر الآن الشاطئ كي نرحف  
نحو المناطق الداخلية، لذلك لا أعرف إذا كان يتعين عليّ توديع  
البحر للمرة الأخيرة. أتمنى أن تكون بخير.

أضف بعض الرماد إلى ورقة البردى ثم لفها، وناولها إلى هيرموقراط.  
"سأغادر فجر غد، ولذلك سأودعك الآن. أتمنى لك رحلة جيدة وآمنة،  
وأرجو أن تُبلغ خالي أنني أشتاق إلى نصائحه وإلى حكمته كثيراً".  
أجاب الرجل: "سأفعل ذلك".

\*

في اليوم التالي، انطلق الجيش ولحقت به القافلة الملكية التي تضم  
نساء داريوس، والملكة الأم، والجواري مع أولادهن. سافرت بارسين

مع القافلة، وحاولت مساعدة سيسيفامبيس قدر استطاعتها، والتي أصبحت الآن امرأة مسنةً جداً.

التقى مبعوث هيفاستيون الجيش شرق وادي نهر العاصي، أي قبل أن تصل القافلة إلى نهر الفرات. وطلب أن يؤخذ إلى الإسكندر على الفور.

قال المبعوث: "مولاي، لقد انتهينا من بناء الجسر العائم، كما تمكنا من احتلال الضفة الشرقية للفرات، لكن الفرس أخذوا يجرقون كل القرى الواقعة على الطريق المؤدية إلى بابل".  
"هل أنت متأكد؟".

"رأيت ذلك بأم عيني، وكانت الحرائق ممتدة على مدّ النظر. حتى إن النباتات الجديدة في الحقول قد احترقت. بدا السهل بكامله وكأنه بحرٌ من ألسنة اللهب".

قال الملك: "إذاً، يجب أن ننطلق. إنني متحمسٌ كي أرى ما يحدث". اصطحب الملك سريتي فرسان، وانطلق مسرعاً مع رفاقه متوجهاً نحو معبر تابساكوس.

## 9

وفي صباح اليوم التالي، وقبل انتصاف النهار، عبر الإسكندر الجسر العائم وتبعه رفاقه، بالإضافة إلى فرسانه. فحضر هيفاستيون ونيرخوس للقاء الملك.

"هل تحدثت إلى مبعوثنا؟"

"أجل. هل الوضع خطيرٌ للغاية فعلاً؟"

أجاب نيرخوس وهو يشير إلى أعمدة الدخان المتصاعد من كل الأمكنة التي تحيط بهم: "يمكنك أن تحكم بنفسك".  
"وكيف الوضع شرقاً؟"

"أتعني في ذلك الاتجاه؟ لم يحدث أي شيء هناك حسب علمنا، فليس هناك دمار أو أراضٍ محروقة".

"إذاً، داريوس ينتظرنا عند نهر دجلة. إن هذه الحرائق أبلغ من أيّ رسالة مكتوبة. إن الطريق الجنوبية هي الطريق ذاتها التي سلكها العشرة آلاف الذين تحدث عنهم زينوفون قبل سبعين سنة، ولاقوا حينها صعوبات جمّة في إيجاد المؤن. أما الآن، ومع تدمير القرى والمحاصيل، فإن الأمر سيكون مستحيلًا تمامًا. لا خيار أمامنا سوى سلوك الطريق الأخرى، وهي الطريق التي توصل إلى المعبر عبر دجلة وطريق الملك.

"سينتظرنا داريوس هناك حيث ستدور المعركة الأخيرة. ساعدنا الملك بأن نظّف لنا الطريق، وسمح لنا بالتزوّد بالمؤن من القرى الواقعة على سفوح تلال جبال طوروس".

سأل بيرديكاس وهو يتقدم إلى الأمام: "ونحن سنقبل دعوته، أليس كذلك أيها الإسكندر؟".

"أجل يا صديقي. يتعين علينا الآن أن نجهّز أنفسنا، لأننا سنستأنف تقدمنا في الغد، وفي غضون ستة أيام سنصل إلى نقطة لقائنا مع أعظم الجيوش في كل الأزمنة".

وقف بارمينيون كي يراقب أعمدة الدخان الأسود المتصاعدة، لكنه لم يقل شيئاً، وما لبث أن تحرك مبتعداً بصمت. راقبه بطليموس وهو يتعد، ثم قال: "لا يبدو القائد متحمساً جداً، أليس كذلك؟".

قال كراتيروس: "إنه يتقدم في السنّ في هذه الأثناء. يجدر به أن يعود إلى الوطن".

كان فيلوتاس قريباً منهما، وسمع التعليقات، فقال: "ربما يكون والدي قد تقدم في السنّ، ولكنه يساويكما معاً في القيمة!".

قال سلوقس: "توقف عن هذا. اهدأ. إن كراتيروس يمزح فقط".

"حسناً، يمكنه أن يمزح في أمور أخرى. أما في المرة القادمة...".

أراد هيفاستيون تغيير الموضوع، فقال: "هل رأى أحدكم إيمولبوس من سولوي؟".

أجاب سلوقس: "أعتقد أنه وراءنا مع قافلة النساء. لماذا تسأل، وماذا تريد منه؟".

"لا شيء. أردت فقط أن أسلمه هدية. سأراكم في وقت قريب". ثم امتطى صهوة حصانه، وانطلق إلى حيث نُصبت خيم النساء. وجد هيفاستيون إيمولبوس جالساً خارج الخيمة المخصّصة له، وكان بصحبته اثنتان من المخصيين: كان أحدهما يحرك الهواء بمروحة، بينما أهدمك الآخر بتقدم وجبة طعام على طاولة صغيرة جيدة الإعداد.



قال المخبر ما إن رأى هيفاستيون يترجل عن صهوة حصانه: "لا أريد أن أسمع أيّ تلميحات غبيّة عن الأحداث المتعلقة بحبسي".  
"لا تقلق، أتيت كي أسلمك هدية".  
"هدية؟".

"أجل، إنها هدية من العدو. لقد فكّرت في أن أعلم الإسكندر بشأها. ولكنني أعتقد أنني إذا ضغطت عليك قليلاً فقد أتمكن من الحصول على بعض الروايات المثيرة منك".  
"اسكت أيها الشاب المتهور، ودعني أعرف عما تتحدث".  
ناوله هيفاستيون التمثال الصغير، فأسرع إيمولبوس إلى تفحصه بعناية: "أقلت إنه هدية من عدو؟ ومن هو هذا العدو يا ترى؟".  
"إنه مازايوس مرزبان بابل. إنه شخص نافذ ومهم، إذا لم أكن مخطئاً".

لم يقل إيمولبوس شيئاً بل تابع تفحصه للتمثال. وفجأة، رفعه فوق رأسه ورماه بكل قوة على حافة طاولته فتحطم التمثال إلى قطع متناثرة، وظهرت على الأرض قطعة صغيرة من ورق البردى. كانت لفافة البردى هذه تحمل كتابات بأحرف مسمارية مترابطة.  
"إنه تعامل مع العدو. لا يبدو أن الأمور تعمل لصالحك يا إيمولبوس".

أعاد إيمولبوس لفّ ورقة البردى ونهض واقفاً، وما لبث أن سار نحو معسكر الجيش.

"قف يا هذا! إلى أين تذهب؟".

"أنا أبحث عن شخص قادر على التفكير".

صاح هيفاستيون: "إذاً، تجنّب أن تتعرّض مؤخرتك

للعض... فبيريتاس موجود في مكان ما هنا!". لم يكثر المخبر بما قاله

له هيفاستيون، لكن يده اليمنى تحركت بطريقة لاشعورية كي يحمي المنطقة المذكورة.

عشر إيمولبوس على إيومينيس الذي كان منشغلاً بوضع جردة بالتجهيزات، والأسلحة، والمواد الأخرى، فأشار إليه بأنه يريد التحدث إليه، وسرعان ما ترك إيومينيس السجلات في عهدة أحد مساعديه.

"ما الجديد؟".

"تلقيت رسالةً من مازايوس".

"بحق زيوس إنها من مرزبان بابل!".

"وهو كذلك اليد اليمنى للملك العظيم".

"وماذا يقول في رسالته".

"إنه مستعد... لمساعدتنا في ميدان المعركة شرط أن يعاد تثبيته في مركز حاكم بابل".

"ألديك وسيلة للرد عليه؟".

"أجل".

"إذاً، قل له إننا نوافق على عرضه".

"لكنه سيطلب نوعاً من الضمانة".

"عن أي نوعٍ من الضمانة تتحدث؟".

"لا أعرف... ربما يريد رسالة من الملك".

"يمكننا أن نتدبر هذا الأمر. سبق لي في الماضي أن كتبت رسائل بخط الإسكندر وختمتها بختمه. يمكنك أن تحضر إلى خيمتي هذه الليلة، وسأعطيك كل شيء تطلبه. لكن حباً بزيوس، انزع هذا الشعر المستعار، إذا كنت تريد المحافظة على مؤخرتك سليمة من الأذى. فييريتاس هنا مع الإسكندر".

نزع إيمولبوس شعره المستعار الذي يُثقل رأسه، ولكن بأسف شديد، ووضعه في حقيبة، ثم قال: "سبق لي أن تلقيت تحذيراً بهذا الشأن. مضع هذا الكلب مسبقاً قبعتي المصنوعة من الفرو. كانت تساوي مبلغاً محترماً من المال. أما إذا هاجمني هذه المرة، فسأرمي له الحقيبة بأكملها".

سار مبتعداً، وبعد قليل لم يعد يظهر منه سوى رأسه الأصلع الذي كان يلمع تحت أشعة الشمس.

\*

في اليوم التالي، بدأ الجيش بالتحرك شرقاً. وكانت جبال أرمينيا إلى يساره، فيما الصحراء إلى يمينه. وتمكّن الضباط الذين يقودون الزحف من تجنيد بعض المرشدين المحليين، وذلك بسبب عدم امتلاكهم خرائط للمنطقة، وعدم معرفتهم بالطرق التي ينبغي للجيش أن يسلكها خلال عبوره هذه البلاد. وقام الضباط باستخدام أدواتهم الخاصة، ولوحات رسوماتهم المحمولة لرسم خرائط دقيقة قدر الإمكان.

تحرك الجيش على ست مراحل، بحيث اشتملت كل مرحلة على خمسة فراسخ، وهكذا عبر الجيش الهضاب السورية في غضون يومين، ثم تابع المسير في المناطق شبه الصحراوية ذات الحرارة اللاهبة. وكان الجنود يرون أحياناً قطعاناً من الحمير البرية، والغزلان، والظباء التي كانت ترعى في بقع متناثرة بين الشجيرات ذات الأشواك. وسمع الجنود، مرات عديدة، زئير أسد يتردد عبر المساحات الفارغة مترامية الأطراف.

راحت الأحصنة تنن متدمرة من حمولاتها، وبدأت بالرفس، وحاولت أن تحرر نفسها. وعلى نحو مفاجئ، استيقظ بيريتاس من نومه، وراح ينبح بشراسة بعد أن شم رائحة حيوان ما، ثم حاول أن يركض باتجاه تلك الرائحة.

هدأه الإسكندر بالقول: "على مهلك، على مهلك، أيها المخلوق الطيب. لا وقت لدينا الآن للصيد. هيا إلى النوم الآن... نم الآن". وراح الإسكندر يداعبه، ويحك له المنطقة خلف أذنه.

وفي اليوم التالي، رأى الجنود بعض النعامات. حتى إنهم عثروا على بعض أعشاشها التي تحتوي على بيضٍ داخلها. كان بعضها بيض نعام، فيما بعضها الآخر يعود إلى طيور أخرى. أمسكها الطاهي تحت ضوء الشمس فتأكد من أنها طازجة. وبعد ذلك، جمع الطاهي البيض كله ليقدمه عند العشاء في ذلك المساء. فطلب إليه الإسكندر أن يُقي بعض البيض سليماً، وذلك كي يرسله إلى أرسطو الذي سيضيفه إلى مجموعته.

أما هيفاستيون، فكان يبحث عن طيور كي يأكل لحمها الطازج، ولذلك نظّم مجموعةً لصيد النعام، وذهب برفقة ليوناتوس وبيرديكاس، واصطحبوا معهم نحو عشرين جندياً من الجنود الأغريانيين والترياليين الذين تسلحوا بالأقواس والسهام والرماح. لكنهم سرعان ما أدركوا أن مهمتهم لن تكون سهلة. فلقد كانت هذه الطيور التي تبدو حمقاء للوهلة الأولى تركض بسرعات مذهلة، وكانت تُبقي أجنحتها مشرعةً نحو الأعلى مستخدمةً إياها مثل الأشرعة لاستغلال قوة الرياح، وهكذا لم يستطع أي جواد اللحاق بها.

وبعد مضيّ الوقت، عاد الصيادون منهكين وبخفي حنين، وهم يشعرون بالإهانة نتيجة إخفاقهم. استقبلهم الإسكندر وهزّ رأسه.

قال هيفاستيون غاضباً: "هيا، هات ما عندك؟".

"لو قرأتم **مسيرة العشرة آلاف** مثلما فعلت، لكنتم عرفتم بالضبط كيف يتمكن المرء من اصطياد نعامه. كان زينوفون صياداً ماهراً في أيامه. لا تنسوا هذه الحقيقة".

"وما هي الطريقة التي كان يستخدمها بالضبط؟".

"كان يصطاد على مراحل. إذ تلاحق إحدى المجموعات الطيور وتدفعها نحو منطقة معينة، بينما تكون مجموعات متعاقبة من الفرسان في انتظار هذه الطيور. تتسلم المجموعة الثانية المهمة بعد أن تتعب المجموعة الأولى، وبعد ذلك المجموعة الثالثة، وهكذا دواليك إلى أن تتعب طيور النعام، فتبطئ سيرها. وعندها يقوم الصيادون بتطويقها ويتمكنون من الإمساك بها بكل سهولة".

ردّ هيفاستيون: "سنقوم غداً بمحاولة أخرى".

قال الإسكندر: "يمكنكم في هذا الوقت أن تعوضوا عن فشلكم في صيدها بتناول بيضها. يبدو أنها رائحة سواء أكانت مقلية أو مشوية، بعد أن يُضاف إليها بعض الملح والزيت".

أضاف بيرديكاس: "لا تنسَ الريش كذلك. سيبدو رائعاً فوق خوذتي. انظر إلى هذه الريشة! هناك الكثير من الريش المبعثر في أنحاء الصحراء، وهذا يعني أن فصل التبدليل قد حل".

لم تظهر طيور النعام في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليه. وبدا الأمر وكأن أحداً قد أُنذرها بأن الصيادين قد توصلوا إلى طريقة جديدة لاصطيادها.

انطلق الجيش في طريقه مجدداً من دون أن يصادف أي إنسان. وفي مساء اليوم الخامس، ظهرت قافلتان قادمتان من بلاد العرب، وكانتا تحملان البخور، وخيّمتا على بُعد مسافة كبيرة من الجنود. فطلب أريستاندر من الملك أن يشتري أكبر قدر ممكن من البخور للقيام بمراسم التبرك، وذلك نظراً إلى اقتراب المعركة الحاسمة.

وفي مساء اليوم السادس، قاد الإسكندر بوسيفالاس إلى نهر دجلة كي يشرب من مياهه المتدفقة بسرعة.

## 10

نشر الغسق ظلّاله في الأفق، وبدا واضحاً أنه لا يوجد أحد في الجهة المقابلة للنهر. لم يظهر أي إنسان على مدى البصر، كما لم يظهر أي أثر يدل على اشتعال الحرائق، أو على تواجد البشر في تلك المنطقة. كان الهواء ساكناً بالكامل، لكن مجموعة من طيور مالك الحزين راحت تنهدى فوق ضفتي النهر بحثاً عن أسماك وفضادع طازجة.

سمح الإسكندر لبيريتاس وبوسيفالاس بالشرب، لكنه راح بين الفينة والأخرى يشدّ عنان الجواد كي يمنعه عن ملء معدته كثيراً. جمع الإسكندر كميةً من المياه في راحتي يديه ورمها على بطن الجواد وقوائمه كي يُنعشه قليلاً. ولم يطل الأمر قبل أن تتوقف كل سرايا الفرسان عند المعبر، وقاد كل فارس مطيته كي تشرب من مياه النهر. قال سلوقس عندما اقترب ونظر إلى الجهة الأخرى: "لا أفهم ما يجري".

أضاف لايسيمachus وهو ينزع خوذته، ويفكّ درع صدره: "ظننت أنهم سيصطفون على الضفة الأخرى مستعدّين لقتالنا". نزع بطليموس خوذته بدوره، وملاًها من مياه النهر، ثم راح يُفرغ محتوياتها على رأسه مستمتعاً بالمياه الباردة وقال: "آه! يا للروعة!".

صاح لسيوناتوس بينما كان يستعد لملء خوذته كي يرمي المياه المتجمعة فيها على بطليموس، "حسناً... بما أنك أحببت ذلك كثيراً... إذاً، خذ!". لكنه توقف فجأة وقال: "توقفوا! توقفوا! ها قد أتى السيد الأمين العام. أريد أن ينتظر الجميع إشارتي. هل اتفقنا؟".

اقترب إيومينيس في تلك اللحظة بالذات بملابسه العسكرية الكاملة، بينما كانت خوذته مزينةً بريش النعام.

بدأ إيومينيس كلامه: "اسمعي جيداً أيها الإسكندر. لقد وصلتني أخبار تفيد أن...".

ولم يتمكن من إنهاء جملته لأن ليوناتوس بدأ بالصياح بأعلى صوته: "كمين! كمين!". وأسرع جميع الحاضرين برمي ما تحتويه خوذاتهم من المياه عليه، وهكذا تبلل من قمة رأسه حتى أخصص قدميه. قال الإسكندر وهو يحاول جاهداً أن يخفي ابتسامته: "أنا أسف يا حضرة الأمين العام، لكن ذلك كان كميناً فاجأنا جميعاً إلى درجة أنني لم أتمكن من منعه".

كان إيومينيس مبللاً بالكامل، وبدا ريش قبعته بحالة مزرية. تدمر الأمين العام بكدرٍ وهو ينزع خوذته ويتأمل ما بقي فيها من ريش، ثم قال: "يا لها من دعاية محببة من قبل مجموعة من الحمقى، والمشردين، والأغبياء...".

سعى الإسكندر إلى تهدئته قليلاً فقال: "يتعين عليك أن تسامحهم أيها الأمين العام. إنهم مجموعة من الفتيان. لكن، كنت على وشك أن تقول لي شيئاً، أليس كذلك؟".

قال إيومينيس: "الأمر ليس مهماً جداً. سأخبرك إياه في وقتٍ لاحق".

"هيا إيومينيس. لا تحقد هكذا. سألقاك في خيمي. وسأراكم أتم أيضاً يا أصدقائي. هيفاستيون، انطلق واجمع فرقة استطلاع وأرسلها إلى الجهة الأخرى. أريد أن أعرف مكان تواجدهم قبل حلول موعد العشاء". وانطلق الإسكندر متبوعاً ببيريتاس إلى حيث كان رجاله ينصبون الخيمة الملكية، وهم كانوا يطرقون على الأوتاد بالمطارق.

ذات المحاور المسننة. أمر الملك العظيم بملء كل الحفر، وبإزالة كل الأحجار بحيث تتمكن العربات من بلوغ أقصى سرعاتها.  
"إن ما تقوله ممكنٌ جداً، لكن لم يزعج تقدمنا أحدٌ، ولم نجد صعوبة في الحصول على المؤن في القرى، وها نحن الآن على وشك أن نعبّر دجلة بسهولة".

"لكن، لا تنسَ أن تيار المياه قويٌّ، ولا شك في أن الأمطار قد هطلت في الجبال مما يجعل السير صعباً".

في هذه اللحظة، وصل الأصدقاء الآخرون، وكان نيرخوس من ضمنهم.

قال ليوناتوس ما إن دخل: "أرى أن السيد الأمين العام قد أصبح في حالة لائقة مجدداً. يا لهذا التحول، وهو الذي كان منذ لحظات قليلة مثل الجرد الغريق!".

قال الإسكندر: "كفى! اجلس. لدينا أمور مهمة تنتظر المناقشة".  
جلس الجميع، حتى إن بيريتاس اتخذ مركزه عند قدمي الملك، وراح يمضغ له نعليه مثلما تعود أن يفعل منذ أن كان جرواً.  
"يبدو أن الملك العظيم ينتظرنا فوق أرضٍ مستوية، وهي تبعد مسيرة يومٍ عن هذا المكان".

صاح بيرديكاس: "جيد! إذاً، هيا بنا، لا أحب أن يملّ من الانتظار".

"إن الأخبار التي وصلتنا عن طريق إيمولبوس من سولوي قد عرفها من مصادر فارسية، لذلك لا نستبعد أن تكون هذه مجرد مصيدة نُصبت لنا".

علّق ليوناتوس بأسى: "أنت على حق! دعونا لا ننسى إيسوس".  
"كاد ذلك اللعين يبيعنا كي يُنقذ نفسه!".



أسكنه بيرديكاس بالقول: "توقف عن الحديث في هذا الموضوع. إنني أتساءل ماذا كنت ستفعل لو كنت مكانه؟ ثم ما هي دوافع إيمولبوس حتى يخوننا؟ إنني أثق به".

قال الإسكندر: "وأنا أيضاً. لكن ذلك لا يعني أننا مضطرون إلى تصديق المعلومات. يُحتمل أن تكون هذه المعلومات قد أرسلت بهدف جذبنا إلى حليف أعمى".

سكب لأيسيماخوس بعض الشراب في أكواب رفاقه، وسأل: "إذاً، ماذا تنوي أن تفعل؟".

"سيخبرنا هيفاستيون هذه الليلة إذا كانوا بعيدين عن النهر بالفعل. سنعبّر النهر غداً، وسنتقدم باتجاه جيش العدو. وبعد أن نسير مسافة فرسخين أو ثلاثة سنرسل فرقة من جنود الاستطلاع كي تعرف حقيقة الوضع. سنعقد مجلس حرب في تلك المرحلة؛ أي قبل أن نشنّ هجومنا".

سأل بطليموس: "وماذا بشأن العربات ذات المحاور القاطعة؟".  
"سنعطلها، ثم سندفع بكل شيء نحو الوسط، أي كما فعلنا في إيسوس".

أبدى نيرخوس رأيه باختصار: "نحن سنربح، وهم سيخسرون. ستكون آسيا كلها تحت سيطرتنا".

قال سلوقس: "كم يسهل التلفظ بهذا الكلام. لكن، حاول أن تتصور كيف ستكون الأمور عندما يُطلقون العربات عبر ذلك السهل. تخيل الغبار، وضجيج العجلات، والمحاور القاطعة التي تلمع تحت ضوء الشمس خلال دوراتها بأقصى سرعة. أعتقد أنهم سيسعون إلى التغلب على وحدتنا الموجودة في الوسط بينما يهاجم الفرسان جناحي جيشنا".

قال الإسكندر: "إن سلوقس على حق. ولكن، لا فائدة من وضع خطة المعركة الآن قبل أن نعرف المعطيات، أما بالنسبة إلى العربات، فإننا سنطبق بالضبط ما فعله العشرة آلاف في كوناكرا. أتذكرون؟ فتح المشاة المسلحون تسليحاً ثقيلاً ممرات تستطيع العربات المرور من خلالها من دون أن تتسبب بأيّ أضرار، وما لبث رماة السهام أن استداروا وهاجموا السائقين، وراكبي المركبات من الخلف. لكنني قلقٌ جداً من الغبار، فإذا لم تمب الرياح، وبدأت المعركة، فستكون طبقة كثيفة من الغبار، والتي ستمنعنا من رؤية ما وراء أنوفنا. وعندها، سنضطر إلى استخدام الأبواق كي تبقى فرقنا على اتصال في ما بينها. لكن، دعونا نأكل ونستمع الآن، فلا سبب يدعونا للقلق بهذه الطريقة. فلقد انتصرنا على الدوام، وسنفعل ذلك هذه المرة أيضاً".

سأل ليوناتوس بقلق ظاهر: "أعتقد حقاً أنه سيتواجد مليون رجل بانتظارنا هناك؟ لا أستطيع أن أتخيل هذا! أتدركون معنى أن يكون هناك مليون رجل؟".

قال إيومينيس: "سأقول لك. يعني ذلك أنه يتعين على كل واحد منا أن يقتل عشرين رجلاً منهم كي نربح. ومع ذلك، سيبقى لديهم بعض الرجال".

قال الإسكندر: "لا أصدّق ذلك. إن إطعام مليون رجل أمرٌ مستحيلٌ تقريباً، هذا إذا لم نذكر كميات المياه اللازمة للأحصنة وما إلى ذلك. أعتقد... أعتقد أنه سيتواجد نحو نصف ذلك العدد تقريباً، أي ما يزيد قليلاً على العدد الذي واجهناه في إيسوس. سننتظر على كل حال، كما سبق أن قلتُ لكم، وسرى كيف ستكون الأمور عندما نواجه العدو مباشرة".

بدأ الخدم بتقديم الطعام، وكان الإسكندر قد استضاف بعض الرفقة الممتعين الذين أتوا من اليونان حديثاً، وذلك لتسلية أصدقائه قليلاً. وكانت من بينهم فتاة أثينية ذات جمالٍ فاتنٍ بالفعل، وشعرٍ داكنٍ وعينين متوهجتين.

صاح الإسكندر ما إن ظهرت الفتاة: "انظروا! أليست رائعة؟ اسمها تاييس، وقد انتُخبت هذه السنة كالبيجيا (ملكة جمال)".

قال ليوناتوس ضاحكاً: "إنها تملك أروع جسمٍ في المدينة بأكملها. لكن، أتعقدون أننا نملك فرصة رؤيته؟".

قالت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة خبيثة: "يأتي كل شيء في حينه أيها الشاب المثير".

التفت ليوناتوس إلى إيومينيس، بينما ارتسمت نظرة مرتبكة على وجهه: "لم يسبق لأي امرأة أن نادتني بالشباب المثير. لا أدري إذا كنت سأعتبر ذلك إطراء أم إهانة".

أجاب إيومينيس: "لا تهدر طاقتك كثيراً في هذا التفكير، لأنك ستؤذي نفسك. وعلى كل حال، إن وصفها لك بالشباب المثير لا يبدو سيئاً بالنسبة إليّ. أعتقد أنك أصبتَ الهدف".

وبعد قليل، دخلت فتيات أخريات، وجميعهن من الفتيات الجذابات، واستلقين قرب الرجال، بينما اهتمك الخدم بتقديم العشاء. قرّر بطليموس بصفته صاحب الحفل أن الشراب يجب أن يخفف بنسبة واحد إلى واحد، وهو قرار لقي موافقةً عامة من الحاضرين.

انتهى الجميع من تناول الطعام، وشعروا بالمرح، فبدأت تاييس بالرقص. تناولت الفتاة نايماً عن إحدى الطاولات بشكلٍ مفاجئ، وبدأت بالعزف على الآلة بشكل يتناسق مع رقصها، وبدأ أن الموسيقى تغلف جسدها الذي استمر في الدوران والتموج بسرعة أكبر من ذي

قبل، ثم توقّف مع سلسلة لا نهاية لها من النغمات الحادة والعالية. عندها، جثمت تاييس على الأرض، وكأها حيوان شرس على وشك الانقضاض على فريسته، تقطعت أنفاسها والتمع جسدها من فرط التعرق، ثم عاودت العزف مجدداً. وتجاوز عزفها الخيمة حتى وصل إلى نهاية المعسكر، وكذلك إلى أسماع الحراس الذين كانوا يقفون بسكون في نوبة حراستهم. وترافقت أحلى النغمات مع حركاتها الناعمة واللطيفة والتموّجة، وراحت تُصدر إيماءات وإشارات.

توقف الرجال عن الضحك والمزاح، وبدا الملك أيضاً مأخوذاً بحركاتها التي تسارعت مع وقع الموسيقى، حتى اكتسبت إيقاعاً معيناً واستمرارية أكثر إلى أن وصلت إلى ذروتها. بدت تلك المساحة الصغيرة في الخيمة ممتلئة بالكامل بحضور تاييس الذي تعزّز بعطر بشرتها، ولمعان شعرها المتألق. بدا الأمر وكأن رقصاتها قد أطلقت عند الرجال طاقة لا تقاوم. تذكر الإسكندر في لحظة خاطفة لحظة أخرى في حياته. تذكر نغمات الناي التي عزفها والدته أوليمبيا في عمق غابة يوردايا، والتي ترافقت مع رقصات طقوسية أدّتها في منتصف الليل، وهي رقصات الديونيسوسية.

سقطت تاييس على الأرض مجهدّة ومتقطعة الأنفاس. وكانت عيون الجميع تلتهمها، وعينا كل واحد منهم تعبران عن دافع لا يقاوم. ولكن، لم يجرؤ أحد على التقدم، لأنهم انتظروا أن يقوم الملك باستخدام امتيازهِ. كسر سهيل أحد الأحصنة، وأصوات حوافره المتقدمة، الصمت والتوتر المخيمين على المكان. وسرعان ما اندفع هيفاستيون إلى داخل الخيمة. كانت تغطيه طبقة من الغبار والعرق، وقال وهو يحاول جاهداً التنفّس بشكل جيّد: "جيش داريوس على بعد مسيرة نصف يوم من هذا المكان، وهناك مئات الآلاف منهم. تشتعل نيرانهم في الليل مثل

أنجمٍ في السماء، ويتدّد نفيّر أبواقهم الحربي من طرف السهل إلى طرفه الآخر".

وقف الإسكندر، ونظر حوله وكأنه يستيقظ من حلم، وقال:  
"اذهبوا الآن وارتاحوا. سنعبّر النهر في الغد حيث سنعقد مجلساً حربياً  
عند مغيب الشمس، وعلى مرأى من الجيش الفارسي".

كان نهر دجلة يجري بسرعة كبيرة حتى عند المعبر، وكان المشاة أول من حاولوا العبور، لكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم في مأزق، لأن الماء غمرهم حتى صدورهم بعد أن وصلوا إلى وسط النهر تماماً. كما أن دروعهم سببت لهم المشاكل. فإذا أبقوها في الماء أصبحت ثقيلة الوزن، وانفصلت عن باقي أسلحتهم. أما إذا رفعوها عالياً في الهواء، فكانوا يفقدون توازنهم، ويجرفهم التيار مع دروعهم.

لذا، أمر بارمينيون بربط حبلين بين ضفتي النهر، ووقف وسط النهر صفان مزدوجان من الجنود مع التيار من دون دروعهم، وذلك كي يسيروا عبر النهر، ويلتقطوا أولئك الرجال الذين يسقطون في المياه وينجرفون مع التيار. وأمر القائد أن يعبر سائر المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلًا عبر الممر الآمن الذي يوفره هذا الحاجز البشري. وكان الفرسان آخر من عبر النهر، ثم تبعتهم العربات المحملة بالمؤن، والسلع، والنساء والأولاد. كانت بشائر المساء قد حلت عندما بدأت أولى الآلات الحربية تظهر أمام مواقع العدو، لكن أطراف هذه الآلات كانت لا تزال على الضفة نهر دجلة، واستغرق الأمر ما تبقى من ذلك اليوم كي تنضم إلى بقية الجيش.

عقد الملك مجلساً حريباً كما كان مخططاً، وذلك بعد غروب الشمس مباشرة. وكان الجيشان قريين جداً من بعضهما حيث تمكن الحراس المقدونيون المتمركزون في السهل من سماع نداءات الحراس الفرس.

حلّ الظلام، وحن وقت نوبة الحراسة الأولى. أُنيرت خيمة الإسكندر بالمشاعل، ووصل الرفاق مع كبار القادة: كيونوس، وسيمياس، وميليجر، وبولييرشون، وتقدمهم بارمينيون وكلايتوس الأسود. حياً الجميع الملك، وقبلوه على خده، ثم تحلقوا معاً حول طاولة سبق للضباط أن رسموا فوقها خريطة لميدان المعركة. تمثلت مجموعات المشاة وسرايا الفرسان ببيادق ذات ألوان مختلفة أخذت من مجموعات ألعاب الملك.

بدأ الإسكندر الكلام: "سيرسل داريوس - على وجه التأكيد تقريباً - عرباته الحربية كي يهاجمنا. تقضي خطتهم أن يتغلبوا على صفوف جنودنا، وأن يعثروا صفوف الفالانج، لكننا سنتقدم بخطّ مائل نحو خطّ الأعداء الأمامي، والذي لا بدّ من أنه سيكون كثيفاً بسبب تفوقهم العددي الكاسح. سنحاول بعد ذلك أن نتحرك إلى الجهة الأخرى من الميدان، وهي الجهة التي مهّدها الملك العظيم لعرباته الهجومية. أريدكم أن تعطوا الرجال إشارة كي يُحدثوا أكبر قدر ممكن من الضجيج ما إن تروهم يتحركون، وأن تطلبوا إليهم أن يقرعوا بسيوفهم على دروعهم، وكذلك أن يصرخوا من أجل إخافة الجياد. أما عندما يصبحون ضمن مرمى أسلحتكم، فسيتمّ على رماة السهام والقاذفين التصويب على سائقي العربات من أجل تعطيل حركتها. سيتكفل هذا بالقضاء على عدد كبير منهم، لكن العربات التي ستستمر في الحركة، يمكن أن تسبّب الكثير من الدمار. وعندها، سيقوم قادة السرايا بالإشارة إلى رجالهم لفتح ثغرات في خطوطهم القتالية؛ وذلك باستخدام الأبواق. أريدكم أن تسمحوا لهذه المركبات بالمرور بينكم قبل مهاجمتها من الخلف.

عندما نوقف هجوم المركبات سيتقدم جنود الفالانج نحو الوسط، وسيتقدمهم المشاة المسلحون تسليحاً ثقيلاً والهيثايروي، بالإضافة إلى

جنود الهجوم الأغرانيين والتراقين، وسأقوم أنا بقيادة فرقة الطليعة عبر خطوط داريوس. يتعين علينا أن نكسر ميسرتهم ونعزلها بالكامل. وبعد ذلك، سنلتقي في الوسط كي ندفع بداريوس وفرقة الخالدين نحو الفالانج. أما الكتائب التي يقودها كراتيروس وبيريديكاس فسيتمتعن عليها مقاومة الصدمة، وتنفيذ هجوم معاكس. سيبقى القائد بارمينيون مع جنود الاحتياط أسفل ميسرة جيشنا بالإضافة إلى ثلاث كتائب من البيزيتايروي، والفرسان التيسالين، وسيكونون مستعدين لتنفيذ الضربة الأخيرة. أما يمينة صفوفنا فستألف من حلفائنا اليونانيين والمرترقة، وهي التي سيقوم الأسود بتنسيق عملها، وستكون مهمتها التعامل مع مناورات التطويق التي ستقوم بها ميسرة الفرس، وذلك من أجل إعطاء فرقة الطليعة الوقت الكافي كي تضرب وسط خطوط العدو. أليدكم أسئلة؟".

قال سلوقس: "لديّ سؤال واحد. لماذا وافقنا على القتال في أرضٍ اختارها أعداؤنا؟".

بدا الإسكندر متردداً بشأن اضطراره إلى الإجابة عن ذلك السؤال. لكنه تحرّك مقترباً من سلوقس، وحدّق إلى عينيه، وقال له: "أتعلم كم عدد الحصون المنتشرة في أنحاء إمبراطورية داريوس، أعني من هذا المكان وحتى جبال باروبامسيوس؟ أليدك أي فكرة عن عدد الممرات المحصنة، وعن عدد المعامل والمدن المسورة التي يمتلكونها؟ فإذا اخترنا مكاناً غير هذا، فإن ذلك يعني أن يشيخ المرء من دون فائدة في مشروع يتسم بالعنف، وسنخسر كل قواتنا بموت بطيء، وسنحرم أمتنا من شريان حياتها، ونجردها من شبابها، أي أننا سنحكم عليها بفترة من الانحطاط المؤكد. كان داريوس حاذقاً جداً في استدراجي إلى هذا المكان. لكنني تعبت من هذه اللعبة، وهو لا يدرك أنني أتيت إلى هذا المكان بملء إرادتي، وأني سأهزمه في نهاية الأمر".



ظلّ سلوقس ينظر إلى عيني الإسكندر، ثمّ وجّه إليه سؤالاً ثانياً:  
"وبماذا هزمته؟".

أجاب الإسكندر: "سترى بنفسك فجر غد. أما الآن، فلم يعد لديّ ما أقوله. اذهبوا كي ترتاحوا، لأنني أريدكم أن تقاتلوا يوم غد حتى آخر قطرة دم في عروقكم، وحتى تستنفدوا طاقاتكم. ليكن الحظ إلى جانبكم".

حيّوه جميعاً، وتحركوا مبتعدين. ورافقهم الإسكندر حتى الباب. وما إن غادر الجميع حتى توجه نحو بوسيفالاس كي يُطعمه ويسقيه. وما إن أدخل الجواد أنفه في الكيس المليء بالشوفان، حتى تكلم الإسكندر وراح يمسّد له عرقه، وقال له: "يا بوسيفالاس الرائع، ويا صديقي المخلص... أعدك بأن المعركة التي ستحوضها يوم غد ستكون الأخيرة. أما بعد غد، فلن تظهر إلا في الاستعراضات، وستحملني عندما ندخل منتصرين إلى بعض المدن، أو عندما تنتزّه بمفردنا أنت وأنا في تلال ميديا، أو بمحاذاة ضفتي دجلة، أو آراكس. لكن يتعيّن عليك أولاً أن تقودني إلى النصر في الغد يا بوسيفالاس. أريدك أن تحمليني بسرعة تفوق سرعة الرياح، وأسرع من سهام الفرس، لأن لا شيء سيقف في طريق سرعتك".

رفع الحيوان رأسه بعنفوان، وصهل قليلاً محرّكاً عرقه.

"هل فهمت يا بوسيفالاس؟ ستسحق بجوافرك الفرسان الميدين والكايسانين، والهيراكانيين والخوارزميين، وستقذف نيراناً من منخريك مثل مخلوق خيالي، وستقود كل الجياد بحماسة شديدة في هجومها الشرس، كما أن جياد فرقة الطليعة الخمسمئة ستهمز الأرض خلفك".

راح الجواد يخدش الأرض بحافره، ثم وقف على قائمته الخلفيتين بشكلٍ مفاجئ، وراح يسهل وكأنه يواجه تحدياً ما. بعد ذلك، بدا

وكأنه هدأ قليلاً، وحرّك كمامته نحو صدر سيده منتظراً أن يداعبه. كان يحاول أن يقول إنه مستعد، وإنه لا يوجد شيء في هذا العالم يستطيع أن يوقف تقدمه.

قبّله الإسكندر، وغادر المكان، وتحرك مبتعداً نحو خيمة سيسيفامبيس، الملكة الأم، وهي الخيمة التي نُصبت تحت مجموعة من أشجار الحمّيز عند طرف المعسكر. أعلن الإسكندر عن قدومه بواسطة أحد المخصّيين الذي تقدمه إلى داخل خيمتها، فاستقبلته وهي جالسة على عرشها.

انتظر الإسكندر حتى تعطيه الإذن بالجلوس كما جرت العادة في بلاط الملك، ثم بدأ بالكلام:

"أيتها السوادة العظيمة. أتيت كي أخبرك بأننا على وشك أن نواجه داريوس في معركة حاسمة، وأكاد أجزم بأنها المعركة الأخيرة. سيبقى واحد منا فقط حياً عند غروب شمس يوم غد، وسأفعل كل شيء كي أضمن بأن النصر حليفي".

أجابت سيسيفامبيس: "أعرف ذلك".

"يُحتمل أن يعني ذلك أن ابنك سيموت".

أومأت الملكة برأسها بحزن ظاهر.

"أو سأكون أنا من يموت".

نظرت سيسيفامبيس إليه بعينيها اللتين فاضتا بالدموع وتنهدت، ثم قالت: "سيكون يوماً حزيناً على كل حال، وكيفما تقلبت الأمور، وكيفما كانت نتائج هذه المعركة. فإذا انتصرت فسأخسر ابني وبلادتي. أما إذا خسرت، أو قُلت، فسأخسر عندها إنساناً تعلّمت أن أحبه. عاملتني وكأني أمك، كما احترمت كل أفراد أسرتي، وهو الأمر الذي لم يكن ليفعله أيّ فاتحٍ آخر. بني، لقد كسبتَ بسموّ أخلاقك،

"كلا، لكن...".

"دعيني أراه".

تقدمته لبيتين إلى حيث يتناول الطعام، وعرضت عليه طبقاً وُضع فوق الطاولة الملكية. ابتسم الإسكندر وهزّ رأسه: "إنه دج<sup>(\*)</sup> مشوي". لمسه بعد ذلك وأضاف: "ما زال ساخناً. أين هو الرجل؟".

"لقد ذهب، لكنه ترك لك هذه". وعرضت عليه لفافة صغيرة من ورق البردي. فتحها الإسكندر وقرأها بسرعة، ثم غادر على الفور، ونادى حامل دروعه قائلاً له: "جهّزوا لي الجواد السارماشي، وبسرعة".

ركض حامل الدروع نحو الحظيرة، وعاد على الفور مصطحباً الجواد الملجوم والجاهز. امتطى الملك صهوة الجواد، وانطلق مسرعاً بشكلٍ لم يستطع معه الحراس إدراك ما يحصل. وكان الملك قد اختفى في ليل الصحراء قبل أن يتمكنوا من تحضير أنفسهم للحاق به.

---

(\*) نوع من الطيور يدعى أيضاً السمنة.

وصل الإسكندر إلى قرية صغيرة تتألف من بضعة منازل مشيدة بأحجار من الطين والقار. تقع هذه القرية في منتصف المسافة بين معسكره والنهر الذي عبّره في ذلك الصباح بالذات. توجه الإسكندر نحو البئر الموجودة وسط مجموعة من أشجار النخيل، ثم ترجل عن صهوة جواده وانتظر.

لم يتأخر القمر عن الظهور من وراء سلسلة من التلال المنخفضة والتي تعتبر بمثابة حدود للجزء الشرقي من السهل. نشر القمر أنواره على الشجيرات النابتة التي تحيط بالقرية مثل خاتم ذهبي، وما لبث أن نشر هذه الأنوار فوق الصحراء التي تمتد إلى ما وراء المنطقة المزروعة والضيقة التي تنتشر في كل الاتجاهات. ترك الإسكندر جواده كي يرعى الأعشاب المتناثرة والتي تبت هنا وهناك بين أشجار النخيل. وانتظر تحت ظلال أشجار النخيل حتى شاهد خيالاً يتمايل في طريقه التي كانت أوسع قليلاً من ممر ضيق، وهي التي تبدأ من جهة الجنوب. كان إيمولبوس من سولوي يتقدم على ظهر جمل.

لاحظ الإسكندر مدى اضطراب المخير فقال له: "يمكنك أن ترجل. تركت بيريتاس ورائي في المعسكر".  
بدأ المخير الكلام: "تحياي أيها الملك العظيم، وسيد آسيا..."،  
كان وقت الإسكندر ضيقاً، فقاطعه بالقول: "هل تمكنت من معرفة معلومات جديدة منذ أن كتبت تلك الرسالة؟".

"يتعین علیّ أن أقول لك الحقيقة. كنت أعلم أن مازايوس كان واهماً جداً، وكان متأكداً من أن النهاية قريبة بالنسبة إلى إمبراطورية سيروس العظيم. وسبق لي أن طلبت إلى هيفاستيون أن يجلبه إلى جانبنا إذا صدف أن قابله عند معبر نهر الفرات في تابساكوس. ولكن هيفاستيون رفض أن يفعل ذلك، ولعله شعر أن محاولة دفع الخصم إلى الخيانة تصرف يتسم بالعار".

"إنني أمتلك الموقف ذاته".

"دعنا نقول إنه يتخذ الموقف الذي تراه مناسباً".

"حسناً، إذا كنت تفضّل هذا".

"حسناً. لكن سيدة الحظ انحازت إلى جهتنا. يبدو أن لديها نقطة ضعف تجاهك يا مليكي. يُحتمل أنك ستستصعب تصديق فكرة أن هيفاستيون كان - لكن من دون علمه - بالفعل صلة الوصل بيننا وبين مازايوس. أعطاه ذلك الفارسي تمثالاً صغيراً، وطلب إليه أن يعطيني إياه كهدية. أعطاني هيفاستيون التمثال عندما كنت قرب تابساكوس بينما كنت أقوم ببعض الأعمال. وكان قد كتب بالأحرف البربرية التي نُقشت على القاعدة العبارة التالية: *اكسر هذا التمثال الصغير*، وهو الأمر الذي نفذته على الفور. فوجدت رسالة من مازايوس، وسرعان ما كلّفت أحد المبعوثين بنقلها إليك عندما كنت تقترب مع جيشك من المعبر عند نهر دجلة. ومع ذلك، أردت أن أحضر شخصياً إلى هنا كي أتأكد من أن الرسالة قد وصلت".

"أجل، لقد وصلت. رأيت ذلك الدجّ المشوي الذي أرسلته".

"كانت تلك فكرة جيدة. ألا تعتقد ذلك؟ اصطاد رجالي عدداً محترماً منها هذا الصباح بواسطة شباكهم، لذلك خطر في بالي أن أعطيك كلمة سري بهذه الطريقة المبتكرة".

"لقد نجحتَ بالتأكيد".

"إذاً، ماذا قال لك ذلك المبعوث بالضبط؟".

"يعرض علينا مازايوس مساعدته في ميدان المعركة، لكنه يطلب في المقابل أن نثبته في مركز مرزبان بابل. وقال إنه سيكون في يمينة جيش داريوس. وهكذا سأتمكن من تخفيف عدد الجنود في جناحي الأيسر من أجل تركيز كل قواي على الجهة الأخرى، حيث نواجه خطر الإحاطة بنا. هل هذا صحيح؟".

"هذا صحيح تماماً. ألا تعتقد أنه عرضٌ صادق؟".

"وهل تثق بخائن؟".

"أجل، هذا إذا كانت عروض ذلك الخائن تعمل لصالح الجانين، ويبدو لي أن هذه هي الحال مع هذا العرض. إن مازايوس متأكد من أن داريوس لن يتمكن من إلحاق الهزيمة بك، وهو يعتقد أنك ستخرج منتصراً، ولذلك يقدم إليك أمراً مقابل حصوله على أمرٍ آخر. إنك تمتلك الورقة الراجعة، وهو ما يعتمد عليه هو الآخر".

"تصوّر للحظة أنه يكذب علينا. فأنا إن كنت سأصدقك فهذا يعني أنني سأترك ميسرة الجيش من دون حماية، وذلك من أجل تعزيز الجناح الأيمن، وذلك على ضوء احتمال تنفيذ مناورة حصارٍ من قبل الفرسان الفرس. سيقود مازايوس، بدلاً من ذلك، هجوماً على ميسرة جيشي وسيضربني من الخلف، بينما أكون أنا على وشك تنفيذ هجوم مع رفاقي من فرقة الطليعة. وعندها، ستحصل كارثة، وستكون نهايتنا".

"هذا صحيح. لكن، إذا لم تخاطر بقبول عرض مازايوس، فقد تخسر على كل حال، لأن أعداد جيشهم تفوق بكثير أعداد جيشك".

يُضاف إلى ذلك أنك قبلت خوض المعركة على أرضٍ من اختيارهم.  
إنه مازقٌ حقيقيّ".

"لكنني سأعود إلى خيمتي وسأنام نوماً هنيئاً".

سعى إيمولبوس إلى تفحص ملامح الإسكندر، وذلك على ضوء القمر الذي لم يعد كافياً في هذا الوقت، لكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء يُمكنه أن يشير إلى نوايا الملك الحقيقية. سأله: "بِمَ أجب ما مازايوس هذه الليلة؟ إنني أتخفى، كما ترى، بزيّ تاجر، وسرعان ما سأكون معه كي أعطيه جوابك".

أمسك الإسكندر عنان جواده، ثم قفز فوق صهوته. وقال ما إن تجهّز للانطلاق: "قل له إنني أقبل عرضه".

أوقفه إيمولبوس قائلاً: "انتظر! هناك أمرٌ أخير أود أن أخبرك إياه. ابن بارسين في معسكر داريوس، وهو ينوي المشاركة في المعركة يوم غد".

جلس الإسكندر ساكناً هنيئاً فوق صهوة جواده، وبدأ وكأن هذا الخير قد أصابه بالشلل، ثم صحا فجأة ونحس الجواد كي يتقدم، وسرعان ما اختفى وسط سحابةٍ من الغبار. هزّ إيمولبوس رأسه، وفكّر للحظة في المحادثة التي دارت بينه وبين الإسكندر، ثم جعل جملة المتردد يجثو وصعد على ظهره، وقال له شيئاً، فأسرع الحيوان إلى رفع الجزء الخلفي منه أولاً، وهو الأمر الذي كاد أن يُسقط الرجل إلى الأمام، ثم رفع قائمته الأماميتين بعد ذلك فكاد الرجل أن يهوي إلى الورا. استعاد الحيوان توازنه، وبدأ بالتقدم نحو المعسكر الفارسي مدفوعاً بركلات راحبه.

رأى الإسكندر دوريةً من جنود الهيتايروي التابعين للحرس الملكي وهي تتقدم نحوه بسرعةٍ كبيرة بقيادة هيفاستيون. وحين توقفت الدورية سأل الملك: "إلى أين أنتم ذاهبون؟".

قال هيفاستيون غاضباً: "إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف يمكنك أن تسأل هذا السؤال؟ خرجنا كي نبحث عنك! انطلقت من دون أن تقول لنا شيئاً، ودلفت في ظلمة الليل عبر أراضٍ تعجّ بدوريات الأعداء. وفعلت هذا عشية وقوع المعركة التي ستقرر مصيرنا. لحسن الحظ، رآك أحد الحرس فأبلغ قائده. كدنا نموت من شدة الخوف عليك و...".

أسكنه الإسكندر بإيماءة بسيطة: "كان لديّ أمر اضطررت إلى معالجته بمفردي، لكن وجودكم هنا أمرٌ حسن. من هو قائد هذه الفرقة؟".

تقدم شاب من أراضى لينسيسيس الجبلية وقال: "أنا يا مولاي. اسمي يوفرانور".

"اسمعي جيداً يا يوفرانور. أريدك أن تذهب أنت ورجالك إلى قرية تقع على بعد عشرة ستاديا أو نحو ذلك على هذه الطريق. وأريدك أن تترك نصف عدد رجالك فيها كحامية، ولتكن بقيادة شخصٍ تثق به. أمّا النصف الباقي فستاخذة إلى ضفتي دجلة، وستنتظر هناك حتى تسمع أحدهم ينادي من الجهة الأخرى: أين هي طريق بابل؟ وعندها ستجيب بدورك: ها هي الطريق من هنا! وبعد ذلك، سترافق الجماعة إلى المعسكر وتودعهم لدى كراتيروس".

"أما من شيءٍ آخر يا مولاي؟".

"لا شيءٍ آخر يا يوفرانور. نفذ هذه الأوامر التي أعطيتك إياها جيداً، لأن سلامة جيشنا تعتمد عليها".

"يمكنك الاعتماد علينا يا مولاي. سنبقى متيقظين، ولن يمر أحد بين المعبر والقرية من دون الحصول على إذنٍ منا. هكذا يجب أن تكون الأمور. أليس كذلك؟".



"هكذا يجب أن تكون بالضبط. اذهب الآن".

سأل هيفاستيون الإسكندر ما إن استدار بجواده في اتجاه المعسكر:  
"ومن ننتظر؟".

"سترى في ما بعد. سنعود الآن، لأنه ليس أمامنا الكثير من الوقت  
قبل انبلاج خيوط الفجر الأولى".

قفلوا عائدين إلى المعسكر، لكنهم سلكوا طرقاً شتى. توجه  
هيفاستيون إلى فرقته، أي فرقة الطليعة. أما الإسكندر فتوجه إلى خيمة  
بارسين. تقدمت منه بارسين وقبلته، ثم قالت له: "سمعت أنك ذهبت  
بمفردك. قلقت عليك كثيراً".

قرّبها الإسكندر منه من دون أن يقول أي شيء.  
"ستقود فرسانك في الغد، أليس كذلك؟".  
"أجل، سأفعل ذلك".

"لماذا تعرّض نفسك لهذا الخطر؟ إذا حصل لك أي مكروه،  
فسيبقى رجالك من دون قائد".

"يتمتع الملك بامتيازات محددة. لكن، يجب عليه كذلك أن يستعد  
ليكون أول من يموت في كل مرة يواجه فيه شعبه خطراً داهماً. اسمعيني  
جيداً يا بارسين: على بعد ثمانية أو تسعة ستاديا في ذلك الاتجاه، يقع  
المعسكر الفارسي حيث يتواجد والدك آرتابازوس... ولدك كذلك".  
فجأة، فاضت عينا بارسين بالدموع لكنه تابع كلامه: "إذا أردت أن  
تنضمي إليهما، فسأرتّب مرافقة لك ولابنك فرأت كي تصلا إلى أول  
موقع حراسة فارسي".

سألت بارسين: "هل هذا ما تريده؟".

"كلا. أنا أريدك أنت، لكنني أدرك أن قلبك ممزق، ولهذا لن  
تكوني سعيدة أبداً".

مسدت بارسين وجهه، وشعره ثم قالت له: "إنني امرأتك، لذلك أريد أن أبقى هنا".

"أريدك إذا كنت امرأتى أن تجعليني أنسى كل شيء عشية هذه المعركة. أحببني كما لم تحبني أي إنسان من قبل. يُحتمل ألا يبقى مني بعد معركة الغد غير حفنة من تراب".

وبعد مرور وقت طويل، قالت له بارسين: "ابق معي هنا. أتوسل إليك".

"لا أستطيع. يتعين على رجالي أن يجدوني غداً في عزلي التي تسبق ذلك التحدي الأكبر. ويتعين على حراس آخر نوبة أن يعرفوا أنهم حرسوا الملك الذي كان بمفرده. وداعاً يا بارسين. إذا مت غداً في المعركة فلا تبكي لأجلي. إن الموت في ميدان القتال امتياز كبير يجنب صاحبه التقدم في السن، والهبوط في مستوى نشاط العقل والجسم، والانطفاء البطيء والحتمي للنور في عيني المرء. عودي إلى أهلك وولدك، وعيشي معهم بسعادة، واعرفي أنك تلقيت من الحب ما لم تتلقه امرأة أخرى في هذا العالم".

قبلته بارسين للمرة الأخيرة قبل أن يختفي من خلال الباب، لكنها لم تستجمع ما يكفي من شجاعتها كي تقول له إنها تحمل طفله.

كان القائد بارمينيون هو الذي أيقظ الملك بعد أن دخل خيمته بنفسه: "مولاي، حان الوقت". كان مرتدياً دروعه العسكرية الكاملة، ويقف منتصب القامة وصلباً مثل شجرة سنديان، فنظر إليه الإسكندر بالإعجاب ذاته الذي كان يحسّه تجاهه على الدوام. وقف الملك عارياً، وسرعان ما ابتلع ما أعدّته له لبيتين، ثم ساعده خادمان على ارتداء ملابسه ودروعه، بينما أحضر خادم آخر خوذته اللامعة التي كانت على شكل رأس أسد فاغر فاه.

بدأ القائد كلامه: "أيها القائد، سيكون هذا اليوم يوم حيرة عظيمة، وخاصة بالنسبة إلى جناحنا الأيسر. لهذا السبب، قررت أن أعطيك قيادة تلك الجهة من خطوطنا. أما الأسود فسيتولى قيادة الجناح الأيمن من جيشنا.

ستتحرك قُدماً بعد أن نضمّ جناحينا حيث يكادان أن يلامسا جهتي الجيش؛ حيث يصبح الجيش مثل صقرٍ ينقضّ على فريسته. سنتقدم حتى يقرروا إيقافنا بعد إرسال جناحهم الأيمن. بعد ذلك، سأقود الهجوم، وسأشق جبهتهم إلى اثنتين. ولكن، بينما أندفع أنا إلى وسط العدو، ستقوم أنت بالالتفاف مع جنودك إلى جهة اليسار. أعرف أنك ستثبت مع رجالك، وأنكم لن تستسلموا لأي سبب كان".

"أنا لن أستسلم يا مولاي".

هزّ الإسكندر رأسه: "إنك تتصرف بطريقة رسمية على الدوام. ومع ذلك، فقد سبق لك أن وضعتني على ركبتك عندما كنت صغيراً".

أوماً بارمينيون: "أنا لن أستسلم يا ولدي حتى الرّمق الأخير".  
ما إن غادر الملك حتى رأى أريستاندر وهو يحرق أضحية في  
وسط المعسكر. تصاعد الدخان ببطء، وراح يتلوى مثل الأفعى محاولاً  
شق طريقه نحو السماء.

"وماذا تشمل نذكورك أيها الضالع؟".

التفت أريستاندر نحوه بحركته المميزة التي تذكره كثيراً بوالده  
فيليب، وقال له: "سيكون هذا اليوم أصعب أيام حياتك أيها  
الإسكندر، ولكنك ستنتصر".

أجاب الملك وهو يتناول عنان بوسيفالاس من سائسه: "أتمنى أن  
يكون ما قلته هو الحقيقة". كان المعسكر يعجّ بالحركة، وكانت الأوامر  
تتردد في كل مكان، وكانت سرايا الفرسان تأخذ مراكزها، أما فرق  
المشاة فكانت تصطف في التشكيلات المناسبة للزحف. امتطى الإسكندر  
صهوة جواده ونحسه حتى وصل به إلى مقدمة فرقة الطليعة التي أنهت  
اصطفافها بشكل تام. اتخذ هيفاستيون موقعه إلى جانبه، فيما وقف  
ليوناتوس وراهما تماماً وقد ارتدى دروعه المعدنية بالكامل، وحمل ساطوره  
الكبير بيده بكل إحكام، بينما وقف بطليموس إلى جانبه. ووقف وراءهم  
لايسيمachus، وسلوقس، وفيلوتاس الذين كانوا يقفون قبل بقية السرية  
وفرق الهيتايروي الأخرى. وكان التراقيون والأغريانيون في الجهة اليسرى  
يركضون، بينما اصطفت خلفهم كتائب الفالانج، ثم جنود فرقة الصدم  
مع قياداتها: كوينوس الذي كان في المقدمة تماماً، ثم بيرديكاس، وميليجر،  
وسيمياس وبوليبرشون. وأخيراً، جاء كراتيروس الذي كان على رأس  
التيساليين. كانت ثماني كتائب من الحلفاء اليونانيين قد بدأت بالزحف،  
وكان يتبعها خط طويل من جنود المشاة من التراقيين والترياليين، وكان  
هذا الخط يمتد إلى الخلف حتى يصل إلى الخيم والمؤن الملكية.

رفع الملك يده، فنفخ الجنود في الأبواق إشارة الانطلاق، وبدأ جنود فرقة الطليعة سيرهم وراء الإسكندر الذي قادهم نحو آخر الميدان. بعد ذلك، سُمعت أبواق الحرب، وسرعان ما ظهر جيش الملك العظيم. كان جيشاً لا يحده البصر، وتتقدمه مئات الأعلام والرايات. كانت الشمس تشرق في تلك اللحظة بالذات، وسط سحابة من الغبار الناتج عن الزحف، فيما ومضت الأسلحة المعدنية فبدت مثل ومضات البرق الآتية من أعماق السحابة الداكنة والعاصفة.

رأى ليوناتوس صفوف الجنود الطويلة، والتي تمتد من جانب الميدان وحتى الجانب الآخر، وما لبث أن همس لنفسه: "ما هذا!؟". لكن الملك لم يُظهر أي علامة تدل على اندهائه من هذا المنظر المهيّب، وتابع سيره البطيء ممسكاً بعنان جواده قريباً من صدره، بينما قوّس الجواد عنقه اللامع والقوي وراح يصهل ويعضّ لجامه.

بدأ الجيش بأكمله يظهر ورائه، سريةً خلف سرية، وكتيبةً خلف كتيبة، على أصوات قرع الطبول الإيقاعية، والأصوات العالية الناتجة عن زحف الجنود، وتلك الأصوات القوية الصادرة عن اصطدام حوافر الأحصنة بالأرض. انفتحت مساحة الميدان المستوية إلى يسارهم، وكانت تلك آخر ما يفصل الجنود عن الخط الأمامي للجيش الفارسي الذي تابع زحفه العنيد إلى الأمام.

في هذا الوقت، بدأ الإسكندر بالانعطاف نحو اليمين، وذلك كي يصل إلى أرض أكثر وعورة، لكن العدو أدرك هدفه على الفور. وسرعان ما تعالَى في الأجواء مجدداً نفير الأبواق بنغماته المطولة، وما لبث جناح الجيش الفارسي الأيسر بأكمله، والذي يتألف حصرياً من اللسكاثيين والباكتريين أن بدأ بتنفيذ مناورة مضادة. أعطى الإسكندر إشارة فأسرع الرماة الأغرانيون الذين كانوا على صهوات جيادهم نحو

العدو، وأطلقوا لدى اقتراحهم وابلأ من السهام. بعد ذلك، أرسل الإسكندر سرية من فرسان الهيتايروي من أجل إبطاء هجوم العدو، بينما استمر هو في زحفه البطيء على رأس فرقة الطليعة، وبدا هادئاً تماماً. لم يتمكن غير أولئك الذين قرّبه من رؤيته وهو يرمش بعينه بشكلٍ غير منتظم، وذلك بين حينٍ وآخر، بالإضافة إلى رؤيتهم العرق المتصبب من جبهته.

نحس جنود الهيتايروي جيادهم، وسرعان ما ملأوا المساحة التي كانت تفصلهم عن موجات الفرسان الآسيويين المتقدمين بسرعة. كان الاصطدام رهيباً بالفعل. تدرجت مئات الجياد على الأرض، وسقط معها مئات الفرسان من الجانبين، وما لبث هؤلاء أن بدأوا قتالاً مميّناً وجهاً لوجه بين حوافر الجياد، وذلك بالرغم من الجروح التي أصيبوا بها، ووسط ذلك الجحيم من الغبار المتطاير، ووسط صهيل الجياد وصياح الجنود الذي أحاط بهم من كل جانب. ارتفعت سحابة كثيفة من الغبار، وغطت الميدان بأكمله تقريباً، لذلك صُعب على المرء أن يميّز ما يجري، وما يُمكن أن تكون عليه نتائج أول صدام بين الجيشين. نفذت السهام من بعض الجنود الأغريانيين فما كان منهم إلا أن استلوا سكاكينهم ورموا بأنفسهم وسط الجنود المتقاتلين. تحرك هؤلاء بدافع من غضبهم البربري، وانطلقوا في قتال شرس مع فرسان العدو الذين كانوا يظهرون كالأشباح وسط سُحب الغبار الكثيفة.

ترددت أصوات الأبواق الملحّة من جهة اليسار، وما لبث لليوناتوس أن لمس كتف الإسكندر وقال له: "... انظر! إنها العربات! إنها العربات ذات المحاور القاطعة!". لكن الملك لم يكثر له مطلقاً. تحركت من وسط خطوط الفرس الآلات الرهيبة إلى الأمام منطلقاً نحو الجناح الأيسر للمقدونيين. شاهد بيرديكاس هذه الآلات

على الفور، فبدأ بالصياح: "استعدوا يا رجال! انتبهوا الآن! استعدوا!!".

في هذه الأثناء، ظهرت مجموعة من فرسان العدو التي انطلقت بشكل مستعرض عبر ميدان المعركة. جرّت هذه المجموعة وراءها حزمات من أغصان الأشجار، وهو الأمر الذي تسبب بتكوين ستارة من الغبار أمام جناح المقدونيين، وهو ما أخفى العربات عن الأنظار. لم يتمكن المقدونيون من رؤية أي شيء غير لمعان المحاور القاطعة بين الحين والآخر بينما كانت تدور بسرعة رهيبية في مراكز العجلات، أو عندما تقطع الهواء في أماكن بروزها من العربات، وشاهدوا كذلك جوانب العربات التي يجرّ الواحدة منها أربعة جياد.

أمر بيرديكاس والقادة الآخرون بنفخ أبواق الإنذار حيث يتمكن الجنود المشاة الزاحفون من تحضير أنفسهم لإفساح المجال أمام العربات لدى ظهورها من بين سحابة الغبار. ولكن، عند ظهور هذه العربات كان الجنود على بعد أقل من ستاديا واحد، ولذلك لم يتمكن كل الجنود من الاستجابة لإشارات الإنذار المتمثلة بالأعلام المثلثة التي رفعها قادة الوحدات. تشكلت عند بعض النقاط الممرات المطلوبة، فمرت العربات من دون أن تحدث أضراراً، لكنها نجحت في الهجوم بزخمها الأقصى في الصفوف الوسطى، فحصدت الجنود مثلما يحصد القمح، وتدحرجت الرؤوس، وقد قطعت عند الأعناق بينما كانت عيون أصحابها لا تزال جاحظةً من فرط الدهشة. أصابت قواطع العربات أرجل عدد كبير من الجنود فقطعتها بشكلٍ مرعب، كما أصابت الجياد أرجل جنود آخرين فداستها بجوافرها، وقطعتها مثلما فعلت المسامير البارزة من أسفل العربات إلى أجزاء متناثرة، لكن الجيش تابع تقدمه خلف الإسكندر محافظاً على خط تقدمه المائل. في هذا الوقت، قطع

الجيش ما يزيد على ثلث المساحة الواسعة التي مهّدها داريوس كي يضمن سير عرباته وجياده من دون عوائق. فيما تابع الجيش سيره المنتظم على وقع الطبول من دون انقطاع.

انطلق بعض جنود الفرقة الثانية من الرماة الأغرانيين مثل البرق نحو العربات فقتلوا سائقها، بينما لاحق آخرون من الذين كانوا فوق صهوات جيادهم أولئك الذين تغلغلوا في صفوفهم كي يهاجمهم بالحراب من الخلف. تمكّن الفرسان السكاثيون والباكتريون المسلحون تسليحاً ثقيلاً وكانوا بقيادة بيسوس، وهم الذين كانوا في أكثر النقاط تقدماً في هذا الوقت، من دفع سرايا الهيتايروي إلى الوراء مستفيدين من تفوقهم العددي، وبدأوا بالانتشار نحو أقصى اليمين، وذلك في مناورة واسعة من قبلهم لفرض حصار، أي حيث كان الحلفاء اليونانيون يتقدمون. ما إن رأى اليونانيون فرسان البرابرة يتقدمون نحوهم بسرعة كبيرة حتى صاحوا: آلالاي! وتقدموا كي يضمّوا صفوفهم إلى بعضها، ويضيقوا المساحات التي تفصل بينهم، وكذلك من أجل تكوين حاجز من الدروع والرماح. دفع الإسكندر بوسيفلاس قُدماً، ولكن بسرعة أكبر وسط هذه الفوضى من صباح الجنود وصهيل الجياد، فكاد يجري فوق السهل. وإلى جانبه سار جندي وهو يحمل علم الأرغادين بلونه الأحمر المتوهج ونجمته الذهبية الملمعة تحت أشعة الشمس التي كانت قد ارتفعت في كبد السماء.

نفخ آخرون أبواقهم، وأتوا من ناحية اليسار، فانطلق الفرسان البارثيون، والهيراكانيون، والميديون إلى الأمام بكامل زخمهم كي يوصلوا كتائب بيرديكاس وميليجر المتقدمة عن الكتائب التي يقودها سيمياس وبارمينيون الموجودة في الخلف. كان هؤلاء الفرسان بقيادة مازايوس. اندفعوا بين صفوف المشاة، وانطلقوا مثل مياه نهر جارفة نحو



المعسكر المقدوني. صاح بارمينيون بكراتيروس: "أوقفهم! أطلق التيساليين في إثرهم!". فأطاع كراتيروس هذا الأمر، وأشار إلى نافخي الأبواق الذين سارعوا إلى نفخ إشارة الهجوم لسريتي فرسان من التيساليين الذين كانوا يتقدمون إلى الأمام من أقصى اليسار، والذين كانوا آخر جنود الاحتياط. تمكّن التيساليون من عزل قوات مازايوس وشغلوها بمعركة شرسة، في حين أقدم بارمينيون على إرسال وحدة من حاملي الدروع وجنود الصدم بهدف المساندة.

صاح بارمينيون: "إنهم يحاولون تحرير الأسرة المالكة! أوقفوهم مهما كان الثمن!". في هذا الوقت، تحوّل أقصى يسار الجناح الأيمن إلى خليط من المشاة والخيالة، وانشغل الجميع في معركة شرسة. حاول كل طرف أن يُنزل أكبر قدر من الخسائر بالطرف الآخر، فقاتل الجنود بشراسة فوق كل شبر من الأرض.

سمع الإسكندر الأصوات اليائسة الصادرة عن الأبواق، لكنه لم يستدر بجنوده، بل نظر إلى حامل العلم وأشار إليه بأن يرفع الراية حتّى يتمكن الجميع من رؤيتها. بعد ذلك، أطلق صرخة الحرب التي كانت من القوة والحدة بحيث احترقت ضحيج المعركة، وترددت أصداؤها في كل مكان. راح بوسيفالاس يضرب الأرض بحوافره ويصهل، وما لبثت صرخة الملك أن أثارتَه إلى درجة أنه انطلق في هجومٍ شرس، وراح يضرب الأرض بحوافره البرونزية، ويشخر مثل حيوانٍ بري. أسرع جنود فرقة الطليعة ورائه في هجومٍ قوي. وانطلقت ورائهم خمس سرايا تابعة للهيتايروي وتقدّمت على شكل وتد، وراحت تحتاز المساحة التي تؤدي إلى وسط خطوط الفرسان حيث عُزلت هذه المنطقة عن جناحها الأيمن الذي كان منشغلاً بمناورة حصارٍ واسعة.

صاح الإسكندر: "إلى الأمام! إلى الأمام!". واستل سيفه من غمده، وراح يهاجم جنود فرقة الخالدين الذين كانوا يدافعون عن العربة الملكية. حافظ كل الفرسان المقدونيين على مراكزهم إلى جانبه، فقضوا على كل شخص حاول الوقوف في طريقهم. كان بوسيفلاس ثقيلًا جدًا وسريعًا جدًا بحيث إن أي جندي لمسه ولو لمسة عرضية كان يُطرح أرضاً على الفور بفعل زخم الجواد العملاق، وجسمه الذي كانت تحميه قطع من الجلد والبرونز. نفذت فرقة الطليعة بقيادة الملك دورة في هذا الوقت، ثم اصطفت لتشكّل جبهة عريضة من أربعة صفوف، وهي جبهة أحاطت بها سرايا الهيتايروي من اليمين ومن اليسار. وسرعان ما انطلق الجميع نحو جناحي الوسط الفارسي وخلفيته مثل سيلٍ حديديّ.

في هذا الوقت، بدأ المعسكر المقدوني وكأنه سقط تقريباً، وراح فرسان مازايوس من الكيسيين والميديين يسرحون في كل مكان. أشعل هؤلاء النيران، ودمروا وخربوا كل شيء وقع في طريقهم، بينما انطلقت مجموعة أخرى نحو جناح النساء. حارب التيساليون مثل السباع، لكنهم بدأوا بالتراجع بسبب قلة أعدادهم مقارنة بعدد أعدائهم الهيراكانيين والتجهيزات التي يمتلكونها. لم يتمكن بارمينيون من تحديد سير المعركة، لكنه انطلق يحارب بنفسه بشراسة مستعملاً سيفه ودرعه، وكأنه رجلٌ في ذروة شبابه. رأى جندياً على نحو مفاجئ، فصرخ به: "أسرع! أسرع إلى الإسكندر وقل له إننا لا نستطيع الصمود... إننا بحاجة إلى مساعدة! الآن! اذهب! أسرع!". انطلق الرجل مسرعاً بجواده الذي راح يقفز فوق العربات المقلوبة والرماح المحترقة، ومرّ بجانب المحاربين الذين كانوا منشغلين بالقتال. وصل إلى المنطقة الوسطى، والتي كانت لا تزال فارغة نسبياً، ودفع جواده قُدماً

إلى حيث يستطيع تمييز مكان وجود العلم الأرغادي الذي يلوح وسط المعمة.

كان عدد كبير من المرتزقة اليونانيين يساندون حرس داريوس، وهم الذين تمكّنوا من صدّ الهجوم الذي أتاهم من الخلف ومن الجناحين. لكن، بالرغم من أنهم حاربوا بشجاعة إلا أنهم انهزموا تحت ضغط قوة هجوم جنود الإسكندر. كان هيفاستيون يحارب إلى جانب الملك، ويعزز رمحه الضخم المصنوع من الخشب القاسي في جسد كل من صادفه آتياً نحوه على صهوة جواد. أما ليوناتوس فقد لوح بفأسه الثقيلة التي كانت تقطر دماً، فيما هاجم بطليموس ولايسيماخوس وهما يستعملان سيفيهما، وهكذا تمكّنوا من حماية جناحي الإسكندر، وصدّوا عدداً كبيراً من الهجمات المضادة والمستمرة التي شنّها المرتزقة اليونانيون وجنود فرقة الخالدين. لم يكن أحداً مستعداً للتراجع، لأن الجميع اعتبروا أن هذه المعركة هي فعلاً فرصتهم الأخيرة لرد الأعداء، وإنقاذ حياتهم وأوطانهم.

اشتبك فرسان الجناح الأيمن الذين كانوا بقيادة بيسوس مع المشاة اليونانيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً، لكنهم استمروا في شنّ هجوم تلو آخر بطريقة إيقاعية، وكانت هذه الهجمات مثل أمواج البحر التي تتكسر على الصخور. أما الفرق التي كانت عند الأطراف فقد واجهت، بعد مناورتها حول خطوط الجنود اليونانيين، التراقين الذين كانوا يدافعون عن الجهة اليمنى من المعسكر، والذي وقع جزء كبير منه في قبضة الأعداء.

أما الجناح الأيمن للمعسكر، فقد كان في حالة يائسة بالفعل. فقد حوصر بارمينيون ورجاله بشكلٍ كاملٍ تقريباً، ولم يستطع بيرديكاس، وميليجر، وآخرون تقديم أي مساعدة إليهم لأنهم تلقوا الأوامر بالهجوم

برما هم المخفوضة وسط خط داريوس، بينما حافظ فرسان الملك على ضغطهم من الخلف ومن الجانبين.

وصل مازايوس إلى خيمة الملكة الأم فجثا أمامها متقطع الأنفاس، لكنه قال: "أسرعي أيتها الوالدة العظيمة! يتعين عليك أن تتبعيني! انهضي الآن وإلا لن تتحرري، ولن تمسكي بزمام السلطة مجدداً. دعيني أصطحبك إلى ابنك!".

لم تتحرك الملكة بالرغم من ذلك، بل جلست على عرشها ساكنة وقالت: "لا يمكنني أن أتبعك. إنني لا أستطيع امتطاء حصان بسبب سنّي. اتركني هنا كي أنتظر ما يُمكن أن يتمخض عنه هذا اليوم، وبحسب إرادة أهورا مازدا. اذهب ولا تضيّع وقتك معي! يمكنك أن تأخذ معك محظيات الملك وأولادهن إذا تمكنت من ذلك".

حاول مازايوس معها مرةً أخرى: "أتوسّل إليك، أتوسّل إليك!". لكن، ذهبت كل محاولاته سدى، ولم تتحرك الملكة قيد أنملة.

في تلك اللحظة، اخترق محارب شاب خيمةً أخرى، وهي الخيمة التي كانت بارسين تنتظر فيها نهاية هذه المعركة المرعبة. نزع خوذته، وأطلق حصلات شعره الذهبية وصاح: "أمي! بسرعة! أتيت كي أحرّرك! بسرعة... دعينا ننتلق! خذي حصاناً واتبعيني! أين أخي؟".

صدمت بارسين لدى رؤيتها الشاب في خيمتها، وصاحت: "إتيوكل! بني". وركضت نحوه كي تحتضنه، لكن، في هذه اللحظة بالذات وصل جنديان أغريانيان شاهرين سكينيهما الطويلتين. وكان الجنديان قد تلقيا الأوامر بعدم السماح لأي شخص بلمس امرأة الإسكندر. استلّ إتيوكل سيفه، ووقف في مواجهتهما محاولاً دفعهما إلى السوراء، لكنه كان مجرد ولد، ولم تتمتع ضرباته بالقوة الكافية. ضرب أحد الأغريانيين ذراعه وما لبث سلاحه أن سقط أرضاً، بينما

هم الآخر بضربه ضربة مميتة. عندها، ألقت بارسين بنفسها إلى الأمام، وراحت تصيح: "كلا! إنه ابني!". تلقت بارسين بجسدها زخم الضربة بالكامل، ووقعت على الأرض فوراً. فشرع إتيوكل، بالرغم من جرحه، في مهاجمة أحد الجندين شاهراً خنجره بكل شجاعة، لكن الأغرياني ردّ الضربة بضربة أخرى أشدّ منها دقة. فسقط الولد على جسد أمه الميتة ولفظ آخر أنفاسه فوقها.

في هذا الوقت، أُخرج التيساليون الشجعان من المعسكر، واستعدّ جنود مازايوس للانطلاق نحو وسط ميدان المعركة من أجل مباغته البيزيتاروي، والمشاة التراقيين من الخلف، وهي الوحدات التي كانت لا تزال تقاتل الفرسان الذين كانوا بقيادة بيسوس. ظنّ هؤلاء أنهم رجحوا المعركة، لكن نفيّر بوق سرعان ما تردّد على نحو مفاجئ، وما لبثت أن ترددت ورائه صرخات آلالاي! التي أطلقها آلاف المحاربين.

في تلك اللحظة، ظهرت عبر الطريق الآتية من النهر، ثلاث سرايا من الفرسان التيساليين والمقدونيين المجندين حديثاً، وهم الذين عبروا النهر خلال الليل. شعر كراتيروس الذي جُرحت ذراعه بإهتاك شديد نتيجة القتال، فما كان منه إلا أن تناول العَلَم ورفعته عالياً ما إن رأى الفرسان، ثم صاح: "إلى هناك أيها الرجال!". وبعد ذلك، أمسك بعنان جواد من دون فارس كان ماراً قربه، وامتطى صهوته وانطلق نحوهم. توزع الرجال على جهة واسعة، وهم يتقدمون بوضعية هجومية. أخذ كراتيروس مركزه القيادي على رأسهم، وقادهم ضد الميديين والهيراكانيين، وضد الكيسيين والأشوريين الذين كانوا تحت قيادة مازايوس، وشاغلهم في قتال شرس من جديد.

في هذه الأثناء، بدأ مسار المعركة بالتغيّر، فتحرك الإسكندر بحذر نحو وسط صفوف العدو، وتمكن من تحديد موقع داريوس فوق عربته

الحربية. فتناول ملك مقدونيا رحماً من حاملته وسدّده. كان الإسكندر محمياً من قبل رفاقه فرمى الرمح بكل ما أوتي من قوة، لكنه أخطأ داريوس بالرغم من أنه أصاب سائق العربة فقتله على الفور. بدأت الجياد تركض نحو الطرف الشمالي لميدان المعركة، وعندما تمكّن داريوس من الإمساك بأعنة الجياد استمر في قيادتها بسرعة رهيبه مبتعداً عن ميدان المعركة. تابعت فرقة الخالدين التي أصبحت من دون قائد بسبب انسحاب الملك، القتال بشراسة عنيدة لأنّ الرجال أدركوا أنه لا نجاة لهم، ولم يبدأوا بالاستسلام إلا في وقت متأخر من ذلك المساء بعد أن شعروا بالإهناك التام.

انتشرت الأنباء بأنّ الملك العظيم قد مات بالفعل، ولذلك فرّت فرق عدة أخرى. تلقى بيسوس أخباراً من أحد المبعوثين، أفادت أن داريوس قد فرّ من ميدان المعركة، ولذلك أوقف على الفور كل الهجمات ضد اليونانيين المتواجدين في الجناح الأيسر. وخشي بيسوس من سقوط تاج الإمبراطور في أيدي المقدونيين، فانطلق مع الفرسان المتابعين له للبحث عن الملك الهارب، ولعله فعل ذلك بهدف حمايته، وذلك بالنظر إلى مسار الأحداث، أو من أجل لعب دور الشخص الوحيد القوي الذي يقرّر مصير داريوس.

في تلك الأثناء، اكتشف مازايوس الذي كان قد أوشك على إحراز النصر، بأنه عالق بين التعزيزات الجديدة المؤلفة من التيساليين والمقدونيين، وبين كتائب بيرديكاس وبارمينيون الذي بدأ في هذا الوقت هجماته المضادة من جديد، لذلك فضّل أن يستسلم.

سار الإسكندر على صهوة جواده في ما تبقى من المعسكر المقدوني، وتنقل بين الحرائق والركام، وسط الدخان اللاذع الذي علق في الهواء الكثيف والساكن. بحث عن خيمة بارسين، لكن كل ما سمعه لدى اقترابه منها كان بكاء ولد. كان فرأت ينتحب فوق جثتي والدته وشقيقه اللذين كانا مستقلقين في عناقهما الأخير.

ترجّل الملك، واقترب من المكان. ثم صاح بعد أن امتلأت عيناه بالدموع: "لماذا هذه النهاية المرة لمخلوقين بريئين؟".

جثا الإسكندر إلى جانب الجثتين الداميتين، وما لبث أن مدّد جثة إتيوكل بأكبر قدر ممكن من العناية، ثم غطّى الصبي بعباءته. واقترب بعد ذلك من بارسين، وأزاح خصلات شعرها عن وجهها، ومسّد جبهتها برقّة. كانت عينها لا تزالان تلمعان بسبب الدموع، وبدا أنّها لا تزالان تحدّقان إلى نقطة بعيدة في السماء تعجز عن الوصول إليها صرخات الغضب، وصيحات الحقد والرعب. كانت تأنك العينان تبدوان وكأنهما بحثتا طويلاً عن حلم عزيز تلاشى نهائياً.

خيّم صمتٌ وهمي على المعسكر المدمر، وهو الأمر الذي أضاف بعداً آخر من الحزن على بكاء الصبي. التفت الإسكندر نحو الولد الذي كان يبكي وقد غطّى وجهه بيديه، وقال له: "لا تبك لأنك ابن ممنون من رودس. تشجّع أيها الصغير، تشجّع".

لكن فرأت استمر في ترديد كلماته وهو يبكي: "لماذا ماتت أمي؟ لماذا مات أخي؟". فعجز أقوى ملك على سطح الأرض عن الإجابة

عن سؤاله هذا. فسأله الإسكندر ببساطة: "من قتل والدتك يا فرآت؟  
أخبرني وسأنتقم لموتها. أخبرني، أرجوك".

حاول الصبي أن يجيب، وأشار إلى مجموعة من الأغريانيين  
الذين كانوا يجردون أحد الفرسان الفرس من ممتلكاته الشخصية.  
ففهم الإسكندر على الفور ما حصل، وأدرك أن الأوامر التي أصدرها  
لحماية بارسين مهما كان الثمن هي التي سببت موتها، وموت  
إتيوكل.

في تلك اللحظة، وصلت جماعة من الحمّالين ترافقها دورية من  
البيزيتاروي لأخذ جثة إتيوكل، ولكن الإسكندر أبعدهم الحمّالين عندما  
تقدموا لأخذ بارسين، ورفعها بنفسه بين ذراعيه، وأخذها إلى خيمته  
التي لم تحرقها النيران. وضعها على سريرها، وسرّح لها شعرها، وراح  
يداعب وجنتيها الشاحبتين، وما لبث أن قبل شفّتيها اللتين هجرتهما  
الحياة. وأخيراً، أغمض عينيها وهمس لها: "نامي الآن يا حبيبتى". ثم  
أمسك الإسكندر يد فرآت وخرجها من الخيمة.

عاد الجنود من ميدان المعركة، وراحوا يرددون صيحات النصر في  
أرجاء المعسكر. وُضع الجنود الأسرى ضمن منطقة مسوّرة، وفُصل  
اليونانيون منهم عن البرابرة، فوضع كل منهم في جهة. وصل  
هيفاستيون وعانقه على الفور، وقال له: "أنا آسف لأجلها ولأجل  
ابنها. كان يجب تجنّب هذه المأساة. من الواضح أن مازايوس قد أصدر  
أوامره لاحتراق جهتنا اليمنى وتحرير أسرة داريوس، وكاد أن ينجح في  
تحقيق ذلك لأن بارمينيون كان جريحاً مثل بيرديكاس وكراتيروس، كما  
أننا تكبدنا خسائر كبيرة في الأرواح".

كانت نساء الملك العظيم وأولادهن يُنقلون في تلك اللحظة إلى  
بقعة أكثر أمناً، حيث نُصبت خيمة جديدة. رأى هيفاستيون كاليستين



مع جماعة من الأشخاص، وكان متبوعاً بخدمٍ يحملون صندوقه المليء بأوراق البردى التي تحمل كتاباته، بالإضافة إلى أمتعته الشخصية. حياهم الإسكندر بإماعةٍ منه، والتفت إلى صديقه وسأله: "كم العدد؟".

"إنه عدد كبير. يبدو أنه نحو ألفي رجل، إن لم يكن أكثر. لكن الفرس تكبدوا خسائر هائلة. إذ توجد آلاف وآلاف الجثث مبعثرة في السهل، كما قُتل آخرون عندما كنت أتحدث إلى فرساننا".

"ماذا بشأن داريوس؟".

"فرّ مع بيسوس، ربما نحو سوسا أو بيرسيبوليس، لست متأكداً. لكننا تمكنا من أسر مازايوس".

فكر الإسكندر قليلاً بينه وبين نفسه، ثم سأل: "هل هناك أيّ خبرٍ عن آرتابازوس؟".

"أعتقد أنني رأيت بين أعيان الفرس الذين أسرناهم، وهو مع مازايوس إذا لم أكن مخطئاً".

"خذني إليه".

"لكن الجنود ينتظرون رؤيتك، وهم متشوقون إلى سماع خطبة النصر التي ستلقيها عليهم... حارب الرجال مثل الأسود".

قال الإسكندر: "خذني إليه يا هيفاستيون". ثم أشار إلى بارسين وإتيوكل قائلاً: "وأريدك أن تصدر أوامرك إلى شخصٍ ما كي يعتني بهما". في هذه اللحظة، كان الحمالون يضعون الابن إلى جانب والدته. التفت بعد ذلك إلى فرآت، وقال له: "تعال معي".

جمع إيومينيس قادة الفرس، أي المرزبانات وقادة الجيش، وأقارب الملك العظيم في مكانٍ بعيدٍ عن ميدان المعركة ووضعهم داخل الخيمة الكبيرة التي تُستخدم لعقد مجالس الحرب. أعطى الأمين العام أوامره بأن

يهتم جراحو الجيش وأطبائوه بكل من يحتاج إلى عناية طبية، وكذلك أوصى بالاهتمام بمئات الجرحى الذي يصرخون من أماكنهم في ميدان المعركة طالبين المساعدة.

دخل الإسكندر، فانحنى جميع الفرس احتراماً له، لكن بعض الرجال تجاوزوا ذلك واقتربوا منه راكعين بحيث كادت جيهاهم تلامس الأرض، وما لبثوا أن رفعوا أيديهم اليمنى إلى شفاههم كي يبعثوا إليه بقبلة.

سأل الإسكندر إيومينيس: "ما هذا؟".

"إنها عادة فارسية، وهي قبلة مخصصة فقط للإمبراطور بذاته. إننا في اليونان نطلق عليها اسم بروسكينيسيس. تعني هذه القبلة أن الرجال يعترفون بك حاكماً شرعياً وملكاً عظيماً، وملك الملوك".

لم يترك الإسكندر في هذه الأثناء يد فرأت، كما أنه بحث عن وجه معين بين الحاضرين. قال بعد ذلك: "يدعى هذا الصبي فرأت، وهو ابن ممنون من رودس وبارسين. سلبته الحرب والديه بالإضافة إلى أخيه إتيوكل". وشاهد في أثناء حديثه هذا عيني نبيل مسن كان يجلس في آخر صف في الخيمة وهما تفيضان بالدموع، فعرف أن هذا هو الرجل الذي يبحث عنه. بدأ بالكلام مجدداً: "أمل أن يكون جدّه المرزبان آرتابازوس بينكم، وهو آخر فرد بقي حياً من الأسرة، وآمل أن يعتني بفرأت".

تقدم العجوز وقال بالفارسية: "أنا جدّ هذا الصبي. يمكنك أن توكل إليّ أمر العناية به إذا أردت ذلك".

ما إن أنهى المترجم ترجمة كلام الجدّ حتى انحنى الإسكندر نحو فرأت الذي كان يجفّف وجهه بكم عباءته، وقال له: "انظر، جدّك هنا. اذهب إليه".

نظر الصبي إلى الإسكندر بعينين مليئتين بالدموع وراح يتمتم: "شكراً لك". وركض بعد ذلك إلى جدّه العجوز الذي جثا على ركبتيه وضمّه إليه. خيم الصمت على كل الموجودين، وما لبثوا أن تنحوا جانباً، وفتحوا ممراً بين مكان الإسكندر وآخر الخيمة. كان كل ما يُسمع في تلك اللحظة هو نشيح الصبي، والبكاء الهادئ للمرزبان العجوز. تأثر الإسكندر كثيراً، فالتفت نحو إيومينيس وقال له: "اتركهما الآن مع أحزانهما، ثم رتب جنازة بارسين بحسب ما يريد والدها، وقل له إنه سيُعاد تثيته في منصبه كحاكمٍ بامفيليا. سيحتفظ الرجل بكل امتيازاته وممتلكاته، ويمكنه أن يعلم الولد بالطريقة التي يراها مناسبة".

جذب شخص آخر انتباهه، وكان محارباً محنكاً لا يزال محتفظاً بدرعه، ولا يزال يحمل آثار المعركة على جسمه ووجهه.

همس إيومينيس في أذنه: "إنه مازايوس". فهمس الإسكندر بدوره شيئاً في أذن إيومينيس قبل أن يغادر المكان.

عاد إلى وسط المعسكر حيث استقبله الجيش بحفاوة بارزة. اصطف الجنود في ستة صفوف يرافقهم جميع ضباطهم؛ الفرسان منهم والمشاة. أعطى بارمينيون الأمر، بالرغم من الجروح التي أصيب بها، للجنود بتقديم السلاح، وما لبث الهيتايروي أن رفعوا رماحهم، بينما قدم البيزيتاروي سلاحهم بدورهم فانبعثت منها أصواتها في الوقت ذاته. وقف رفاقه بدورهم لتحيته بكل فخر، وكذلك عرض كراتيروس وبيرديكاس جروحهما التي أصيبوا بها في ميدان المعركة.

امتطى الملك صهوة بوسيفالاس حتى وصل إلى رابية صغيرة، والتفت من ذلك المنبر الطبيعي نحو جيشه كي يشكر جنوده ويحييهم، وصاح قائلاً: "أيها الرجال!". وعلى الفور، خيم على المكان سكون

عظيم، لم يكسره سوى حسيس النيران التي لا تزال مشتعلةً في ميدان المعركة. "أيها الرجال! لقد حلّ المساء تقريباً، ولقد انتصرنا، كما وعدتكم!".

دوّت في الأجواء هتافات امتدت من طرف المعسكر إلى طرفه الآخر، كما بدأ الجنود ينشدون بإيقاع قوي، وازداد قوة ووضوحاً وسط كل هذا الضجيج الناتج عن رنين الأسلحة، إلى أن وصل صوتهم إلى السماء: "إسكندر! إسكندر! إسكندر!".

"أريد أن أشكر أصدقاءنا التيساليين والفرسان المقدونيين الآخرين الذين أتوا إلينا اليوم، ووصلوا في الوقت المناسب تماماً من أجل المشاركة في القتال وتغيير نتيجته. كنت أنتظركم بلهفة أيها الرجال!".

فردّ التيساليون والمقدونيون التابعون للسرايا الجديدة بالهتافات. "أرغب كذلك في شكر حلفائنا اليونانيين الذين صمدوا بثبات في ميمنة الجيش. فأنا أعرف أن ذلك لم يكن سهلاً!".

بدأ اليونانيون بقرع سيوفهم على دروعهم. عاد الإسكندر للكلام مجدداً: "إن كل آسيا تحت سيطرتنا الآن، بكل كنوزها وعجائبها. إننا قادرون على تحقيق كل الإنجازات، وقادرون على صنع العجائب، ولا توجد حدود نعجز عن عبورها. سأقودكم إلى أطراف الأرض. هل أنتم مستعدون لتتبعوني يا رجال؟".

فصاح المشاة والفرسان وهم يرفعون رماحهم ويخفضونها: "نحن مستعدون أيها الملك!".

"إذاً، اسمعوني! سندخل بابل الآن، وسترون أكبر المدن وأروعها في العالم، وستمتعون بالراحة بعد كل هذا الجهد. سننطلق بعد ذلك في زحفنا مجدداً، ولن نتوقف حتى نصل إلى ضفاف آخر نهرٍ في العالم، أي نهر الأقيانوس".

بدأ نسيم لطيف بالهبوب، لكنه ازداد قوةً حيث كوّن غلالة خفيفة من الغبار، وجعل تيجان خوذات المحاربين تهتز قليلاً. بدا أن هذه الرياح قادمة من مكان بعيد حاملة معها أصواتاً تكاد تكون منسية. شعر الملك بالحنين إلى الوطن مع قدوم الظلام. وشعر بمدى الحنين الذي أحسّ به رجاله نتيجة كلماته، فقال: "أفهمكم، وأعرف أنكم تركتم زوجاتكم وأولادكم وتريدون أن تروهم، لكن الملك العظيم لم يُهزم بالكامل بعد، لأنه تراجع إلى أبعد زوايا إمبراطوريته، وهو يأمل أننا لن ننجح في ملاحقته إلى ذلك الحد. لكنه مخطئ! أنا لن أنتقد أي شخصٍ منكم إذا أراد الرجوع. ولكن، إذا فضّلتُم أن تتابعوا الدرب معي، فسأكون فخوراً بقيادة رجال أمثالكم. سيوزع إيومينيس ابتداءً من الغد ثلاثة آلاف قطعة فضية على كل واحد منكم، وسيعطيكم أموالاً أكثر عندما نقهر عواصم أخرى تحوي كنوزاً عظيمة. سنبقى في بابل لمدة ثلاثين يوماً، وهكذا سيتوفر لديكم متسعٌ من الوقت كي تفكروا في هذا الموضوع. سيتلوا إيومينيس لائحة الأسماء كي نعرف من سيعود إلى الوطن، ومن يريد أن يتبعني في هذه المهمة الجديدة. انصرفوا الآن، وجهّزوا أنفسكم لأننا سنستأنف زحفنا مجدداً يوم غد".

أطلق الجنود هتافات حماسية طويلة، أما الإسكندر فقد نحس جواده بقدميه، وسار به مجدداً بسرعة من أمام صفوف الجنود. وأشار إلى رفاقه، فساروا معه نحو المعسكر الفارسي الذي وُضع تحت مراقبةٍ مشددةٍ من قبل رجال فرقة الطليعة، وفرقةٍ من جنود الصدم الأغريانيين.

بدا الأمر مستحيلاً، لكن الخيمة الملكية كانت أكثر فخامةً وترفاً من تلك التي رآها في إيسوس بالرغم من احتوائها على خدمٍ أقل. عثر الإسكندر ورفاقه على ما يزيد على مئتي تالنت من النقود الذهبية

والفضية، وهي النقود التي كانت تُستخدم من أجل دفع أجور المرتزقة والمجندين الجدد في الجيش، أما إيومينيس فقد بدأ على الفور بتحضير الجردة.

دعا الملك أصدقاءه للجلوس معه، ثم أمر الخدم بتقديم الطعام، ثم بدأ بالأكل.

تأوه ليوناتوس بصوت عال، وقال: "لا أستطيع أن أصدق ذلك أيها الفتيان، لكنني أعتقد أنه كاد يُقضى علينا اليوم. مرّت فترة احترقوا فيها جهة بارمينيون، بينما يبسوس يهاجم اليونانيين من جهة اليمين، وكنا في الوسط مثل جماعة من البلهاء".

قال سلوقس: "إذاً، هذه كانت المفاجأة التي أعددتها لنا، أي التعزيزات التي وصلت من مقدونيا وتيساليا. لكن، كيف عرفت أن هذه التعزيزات ستصل في الوقت المناسب؟ فلو مضت ساعة أخرى...".

فتابع ليوناتوس: "لكان الفرس قد أحرقونا بالنار، بينما الغربان تنهش رؤوسنا قبل أن تطلع أعيننا. هذا ما تبدأ به الغربان عادة... أتعرفون ذلك؟".

قال الإسكندر مقاطعاً إياه: "كفى! ليست لديّ رغبة في المزاح هذه الليلة". وبعد ذلك، التفت إلى سلوقس قائلاً: "تكفل القائد أنتيياتر بكل شيء، وكنت أستلم أخباراً عن التحركات اليومية للتعزيزات بعد أن تحركنا من صور، لذلك كنت متأكداً من أنهم سينجحون بالوصول. على كلّ حال، سنعرف المزيد من التفاصيل بعد لحظات لأننا نتوقع زواراً".

تناهى إلى أسماعهم صوتٌ من مدخل الخيمة يقول: "لا شيء أكيد أبداً يا سيدي المتألق. ولو صبّت السماء كميةً أكبر من المطر فوق

الجمال في الليلة الماضية، لكنت تعزيراتك من التيساليين والمقدونيين قد علقنت في الجهة الأخرى من الفرات بانتظار انحسار تدفق المياه، أو بانتظار أن يقطعكم داريوس إرباً إرباً".

وما إن ميّز الإسكندر صاحب الصوت حتى قال: "ادخل يا إيمولبوس. أظن أنك قلت لي إنه يجدر بي أن أثق بممازيوس؟ كانت العملية التي قام بها من أخطر العمليات على الإطلاق، وكاد أن ينجح في مهاجمتنا من الخلف".

سأل إيمولبوس لدى دخوله مصطحباً الرجل الذي رآه في خيمة السجناء: "لماذا لا تسأله؟ إنه هنا بحسب ما أمرت به تماماً".

دخل المرزبان، وسار مباشرة نحو الإسكندر، وانحنى كثيراً حتى وصلت جبهته إلى ما فوق الأرض بقليل، وما لبث أن رفع يديه إلى شفتيه، وأطلق قبلةً في الهواء.

قال الإسكندر: "أرى أنك تعلن ولاءك لي بصفتي مليكك. ولكن، لو صدقت وعدك لكانت الكلاب والطيور منشغلة بلعق عظامنا في هذه اللحظة".

وقف المرزبان وقال بلغةٍ إغريقية سليمة: "أسمح لي بالرد يا مولاي؟".

"أسمح لك بالطبع. اجلسا أنتما الاثنان لأن هناك موضوعات عديدة أريدكما أن تشرحها لي".

استمرّ الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي النهاية، اعترف مازايوس بأنه أراد أن يحترم الوعد الذي قطعه للملك داريوس، والذي يقضي بأن يعيد إليه عائلته، وهذا هو السبب الذي دفعه لشنّ هجومٍ شرسٍ على الجيش المقدوني. وأشار إلى أنه كان في استطاعته أن يشنّ هجومًا أكثر شراسةً على المعسكر المقدوني؛ وهو الهجوم الذي كان يُمكن أن يؤدي إلى هُلب المؤن، وحتى إلى القضاء على وحدات الفالانج، التي كانت تزحف نحو وسط الجبهة الفارسية معرضةً ظهور جنودها لسهام الفرس.

سأله الإسكندر: "ولماذا لم تفعل ذلك؟".

قال بارمينيون مقاطعاً: "لأنه لم يستطع. كنا لا نزال نقاتل، وكان ينبغي لهم أن يبيدونا أولاً".

"هذا ممكن. لكن ذلك سيقودنا إلى نقاشٍ لا نهاية له. يمكنك يا مازايوس الإجابة عن سؤالي".

"إنني بابلي أيها الملك العظيم، ويُعرف البابليون في العالم أجمع بأنهم قادرون على قراءة إشارات حركات النجوم والأبراج. رأى كاهنتنا نجمك يسطع بتألقٍ أشد من غيره وسط السماء الداكنة، وكان يفوق تألق نجم داريوس بكثير. لا أستطيع أن أقف في وجه الإشارات المكتوبة هناك في الأعلى".

ردّ الإسكندر: "أنا متأكد من أنني أفهم الأسباب التي دفعتك لهذا التصرف يا مازايوس. لكن، يمكنني أن أقول إنك قاتلت بشجاعة،



على حدّ علمي، إلى جانب ملكك وأسرته، وهذا هو السبب الذي يدفعني لمكافأتك، وليس بسبب ما قلته عن تلك النجوم والأبراج التي يلفها الغموض... ولأجل ذلك سأثبتك، في مركز مرزبان بابل، وستحظى بدعم الحماية المقدونية التي سأتركها هنا كي تضمن تثبيت سلطتك".

كانت هذه خطوة ذكية تهدف إلى تثبيت حاكمٍ محليّ ناجح، ووضعه تحت المراقبة المباشرة للسلطات العسكرية المقدونية، والسماح له في الوقت ذاته بأن يُظهر نفسه كحاكمٍ شهم. أظهر إيومينيس موافقته بإيماءة من رأسه.

انحنى مازايوس إلى حدّ يفوق الانحناء السابقة وقال: "أيعني ذلك أنني حرٌّ بالعودة إلى بابل؟".

"ستعود إلى قصرِك أيها المرزبان، والآن إذا أردت، مع كل مرافقِك الشخصيين".

وقف مازايوس وأغضى عينيه ثم قال: "لن يدفعني أي شيء من الآن فصاعداً إلى نسيان الولاء الذي أقسمت بشرفي عليه أمامك".

"أشكرك يا مازايوس. لكن دعونا نرتاح الآن. كان هذا أصعب يومٍ في حياتي، أما في الغد فسنشرف على دفن رفاقنا الذين سقطوا في المعركة".

نمض الجميع، وامتطوا صهوات جيادهم مبتعدين نحو المعسكر. لكن الإسكندر أمسك بعنان بوسيفالاس، وبدأ يسير مبتعداً. وبعد قليل، ظهر إيموليوس من سولوي خلفه، وسأله: "أتمنع إذا تنزهت معك قليلاً؟".

"لا، أبداً. فبعد يومٍ كهذا، أعتقد أن المشي هو أفضل شيء يمكننا القيام به للاستمتاع بهدوء هذا المساء".

"سمعتُ ما حدث لبارسين وولدها. إنني آسفٌ فعلاً. قلتُ لك إنه موجود في معسكر داريوس، لأنني خشيتُ أن يُقدم على عملٍ متهور".

بدا وجه الإسكندر شاحباً وسط ضوء القمر، وقد أحاط به شعره الطويل فبدا مثل وجه ولد أكثر من أي وقتٍ مضى، لكنه أجاب: "كل الشبان هكذا. فعل ما كان يعتقد أنه الصواب، ومات مثل بطلٍ في ريعان شبابه، وسنستمر في البكاء لأجله. لكن الإنسان لا يستطيع التأسف بسبب بقائه على قيد الحياة، لأنه ما من أحد يعرف ما قد يجلبه الغد. يُحتمل أن يكون ما ينتظرنا أسوأ من الموت بكثير، مثل الأمراض التي تغيّر أشكالنا، أو التشوهات المخزية، أو العبودية، أو التعذيب...".

تابع إيمولبوس السير محاولاً الإبقاء على وتيرة سير بوسيفالاس البطيئة بينما كان يتبع سيده. مسد الإسكندر عرف الحيوان وقال: "مسكين بوسيفالاس. لم يتسنّ لنا الوقت كي نغسله ونزيّنه".

"أو ربما لم ترغب، ببساطة، في أن تتعد ولو للحظة واحدة عن صديقٍ ساعدك على قهر العالم في هذا اليوم".

ردّ الإسكندر موافقاً من دون أن يضيف أي شيء: "هذا صحيح".

في تلك اللحظة بالذات، سمعا أشخاصاً يئنون بالترافق مع أصوات نايات حزينة، وما لبثا أن شاهدا مصابيحَ تتحرك في السهل في ما يشبه الموكبَ نوعاً ما. فهَمَّ الملك ما يجري، فسار في طريقٍ مختصرة كي يصل إلى آخر الموكب الذي كان يتحرك على شكل دائرةٍ واسعة نحو رابيةٍ صغيرة محاطة بربوةٍ من الأحجار. توقف إيمولبوس وتمتم: "اذهب يا ولدي ورافقها إلى مثواها الأخير". وتحرك مبتعداً بمشيته المتمايلة نحو المعسكر المقدوني. أما في الجهة الأخرى، وحلف خيمة داريوس، فقد بدأت العقبان، والطيور المفترسة الأخرى، بالنزول كي تشارك في المأدبة التي تمثلت بميدان الموت الفسيح.

وصل الموكب إلى أعلى التلة، وقام حاملو النعش بوضعه فوق ربوة من الأحجار التي سبق لهم أن حضروها. كانت تلك الربوة عبارة عن أحد أبراج الصمت. وضع الرجال أربع مبخرات على زوايا تلك الربوة الصغيرة، وأطلقت كل واحدة منها سحابة من البخور ذي اللون الأزرق الفاتح، ثم غادروا. تحرك الإسكندر، الذي كان قابلاً بمفرده بهدوء حتى تلك اللحظة، نحو جثة بارسين. كانت الجثة منظفة ومعطرة. لم تتغير ملامحها، وبدت عيناها وكأنهما مغمضتان قليلاً، وكانتا توحيان بأنها نائمة. ألبسوها ثياباً بيضاء، ووضعوا تاجاً من زهور الصحراء الصفراء حول رأسها. وقف الإسكندر أمامها بمفرده فعادت إليه ذكرياته معها وكأنها طوفان من الصور. رآها تبتسم من جديد، وشاهد دموعها كذلك، وشعر بقبلاقتها الدافئة. بدا له أنه من المستحيل أن ينتهي كل شيء، وأن يدوي جمالها الذي فقد الحياة الآن لدى موتها. نزع العصابة الذهبية عن رأسه ووضعها في يديها، ثم قلبها للمرة الأخيرة وقال لها: "وداعاً يا حبيبتى، لن أنساك أبداً".

تراجعت أصداء المعركة الشرسة، وتراجعت معها ذكريات صوتها الناعم وجمالها الهش، وراء ستائر تلك العزلة التامة، وأدرك أن كل ذلك لم يعد أكثر من ذكريات الآن. أحدثت كل هذه الأمور فراغاً كبيراً في نفسه، وأعدت إليه خوفاً من العتمة يشبه الخوف الذي يشعر به الأطفال. وللحظة، غرق في حزن وكآبة لا قرار لهما، وجثا على ركبتيه وبكى. ثم أسند رأسه على الربوة الحجرية ونادى اسمها أكثر من مرة.

بعد ذلك، نهض كي ينظر إليها للمرة الأخيرة، فلاحظ أن جمالها لا يزال كما هو، وقرّر أنه لن يتقبل أن تنهش الكلاب البرية والطيور المفترسة جسدها. فعاد إلى المعسكر، وأمر إيومينيس بتشييد قبر حجري

لها كي يحمي بقاياها. لم يوافق الإسكندر على استئناف الزحف إلا بعد أن تأكد بنفسه من أن بناء القبر قد اكتمل.

زحف الجيش مجدداً بعد أن تم الانتهاء من دفن كل الجنود اليونانيين والمقدونيين الذين سقطوا في المعركة، لأنه لم يتوافر ما يكفي من الحطب لبناء محارق للجنث. فلقد تسمّم الهواء بفعل الحرارة والسرطوبة، وبسبب ذلك العدد الكبير من جنث الجنود الفرس التي كانت تتحلل في أرجاء السهل. الأمر الذي أدى إلى إصابة بعض الجنود بحمى من نوع مجهول والتي لم يجد أيّ دواء معها.

وصل الجيش إلى معبر نهر دجلة مجدداً، فعبر الجنود إلى الضفة الغربية من النهر قبل أن يبدأوا بالتحرك نزولاً نحو بابل.

أما في المرحلة الرابعة من هذه الرحلة، وبينما كانوا يعبرون منطقة تدعى أديابين، تقدم أحد الضباط المرافقين لمازاينوس من الإسكندر، وأخبره بوجود ظاهرة طبيعية مدهشة ينبغي له رؤيتها، وكانت عبارة عن نبع من النفط!

سأل الملك: "النفط؟".

وتذكّر الملك أن أرسطو قد أحرق بعض النفط الذي أرسل إليه من آسيا عندما كانا في مييزا، وتذكّر ذلك الدخان الكثيف والرائحة اللاذعة التي فاحت منه. كما تذكّر قارب النار الذي أطلقه سكّان صور ضده في إحدى الليالي، وهو الأمر الذي تسبب باشتعال أبراج الهجوم، وتذكّر أن الجو في اليوم التالي ظلّ مشبعاً بتلك الرائحة القوية. سار الإسكندر وراء الضابط الذي قاده إلى حفرة كانت النيران تشتعل فيها باستمرار مطلقاً في الهواء عموداً كثيفاً من الدخان. انتشرت في

ذلك المكان بقعة نفطية سوداء وكبيرة، وبدت مثل مستنقعٍ يطلق انعكاسات غريبة، وتتبعث منه رائحة كريهة. وكان كاليستين قد سبقه إلى المكان، وراه الإسكندر وهو يأخذ عينة من ذلك السائل مستخدماً إناءً زجاجياً.

"أرغب في إرسال عيّنةٍ من هذا السائل إلى نخالي كي يستخدمها في تجاربه".

سأل الإسكندر: "لكن، ما هي طبيعة هذا السائل بالضبط؟".  
"حسناً... يصعب علينا تحديد ذلك. إن مذاقه مقرف جداً إلى أبعد حدود التصوّر، وكذلك رائحته ومظهره. يُحتمل أنه نوع غريب من السوائل التي تفرزها هذه الأرض التي تحرقها أشعة الشمس. ونحن نعلم كذلك أنه سائل قابلٌ للاحتراق، ويولّد كمية كبيرة من الحرارة. انظر!".  
في تلك اللحظة، كان عدد من الجنود قد تجمّعوا بناءً على أوامر من ضباطهم. راح الجنود يملأون بعض القراب بهذا السائل، كما نشروا خطّين منه على طول الطريق المؤدية إلى المعسكر. وتناول أحد الضباط مشعلاً من يدي أحد رجاله وأشعل الخطّين، وسرعان ما ارتفع جداران من ألسنة اللهب على الفور واتّجها نحو المخيم. فغر كل الحاضرين أفواههم من فرط الدهشة. واستمرت هذه المادة الغريبة في الاشتعال على طول المسار، ورافق اشتعالها ستاران كثيفان من الدخان، والحرارة التي لا تُحتمل.

أخذ الإسكندر حماماً كي ينظّف جسمه من الرائحة التي علقت في شعره. وبينما كانت لبيتين منشغلة بتنظيفه تحدث الملك إلى هيفاستيون وبطليموس وكاليستين، بالإضافة إلى مدلكّ جديد وصل حديثاً من أثينا ويُدعى أثينوفان، جاء برفقة مساعده الذي كان صيباً يدعى ستيفانوس.

قال الملك: "يمكن استخدام هذا النفط كسلاح، وذلك بحسب ما رأيته. تصوروا تأثيره إذا استعملناه ضد أعدائنا!"

قال المدلك الذي كان شاباً حضر سابقاً بعض دروس الفلسفة: "سبق لي أن سمعت أن النفط لا يناسب هذه الاستخدامات. إن نوع النيران التي تنتج عن احتراق هذا السائل غريب تماماً. يعرف الجميع أن النار عنصرٌ أثيري وسمائي ينتقل عبر الهواء ناشراً معه الحرارة والضوء. وبالمقابل، يأتي النفط من الأرض، ولا يحترق إلا بعد أن يحتك بأرضٍ قاحلة تماماً مثل الرمل أو التراب كثير الرطوبة، أي مثل الأرض الموجودة في جنوب بابل. لا يحترق النفط عند وقوعه على مادة معتدلة اللزوجة. ولذلك لا يمكن أن يحترق الإنسان بنارها، ولا شك في ذلك."

قال كاليستين معترضاً: "تبدو لي هذه فرضية غير مؤكدة. يصعب علينا تطبيق التوصيفات الفكرية على الظواهر الفردية المادية التي تخضع لتأثير عدد كبير من المكونات غير القابلة للقياس. يُضاف إلى ذلك..."

فردّ أثينوفان عندما خرج الإسكندر من حوض استحمامه، وبدأت لبيتين بتحفيف المياه بمنشفة من الكتان: "إنني متأكد مما أقوله، كما أن مساعدتي ستيفانوس سبق له أن سمع معلّمي السفسطائي هيرميبوس وهو يشرح هذه النظرية".

صاح الصبي ولعله أراد بذلك - وبكل بساطة - أن يجذب الانتباه إليه، بالإضافة إلى التزلّف قليلاً إلى الإسكندر بطريقة ما: "إنني مستعد في واقع الأمر لتوضيح هذه النظرية بنفسني، هنا والآن أمامكم جميعاً!"

قال الملك: "لا أعتقد أن الأمر يستحق هذا القدر من الاهتمام، لذلك من الأفضل أن ننساه".

ومع ذلك، أصرّ الصبيّ على فكرته، وخاصةً بعد أن دعمه أثينوفان الذي تابع الكلام بطلاقة عن نظرياته الفلسفية. لم يُنه الرجل كلامه حتى ظهر خادم يحمل بعض النفط، وسرعان ما بدأ ستيفانوس الشاب بوضعه على جسمه بكل عناية. فبدا وكأنه يدهن جسمه بزييت الزيتون.

ثم تناول أثينوفان مشعلاً وأعلن: "سأظهر أمامكم الآن أن النفط لا يحترق في وسط مليء باللزوجة مثل جسم الإنسان". وقرب الرجل المشعل من جلد الصبي. وسرعان ما لفت غلالة من اللهب جسم ستيفانوس بلمح بصر منتجة حرارةً عظيمة. ومست صرخات الألم التي أطلقها الصبي شغاف قلوب الحاضرين الذين أسرعوا إلى تناول دلاء كانت قربهم، لحسن الحظ، وصبوا المياه الموجودة في حوض الاستحمام على جسم الصبي. ومع ذلك، لم تنطفئ النار بسهولة.

استدعى الإسكندر فيليب على الفور، فاعتنى الطبيب بالصبي بسرعة، وذلك له المناطق المحترقة من جلده بمراهم معيّنة. تطلب الأمر من الطبيب بذل قدر كبير من الجهد من أجل إنقاذ حياة الصبي. وبالرغم من ذلك، أصيب ستيفانوس بتشوهات خطيرة في كل أنحاء جسمه، وتدهورت صحته.

عندها، نصح كاليستين الجميع بالابتعاد عن هذا السائل ذي الرائحة المؤذية حتى ينتهي خاله أرسطو من أبحاثه ويكتشف ميزاته الحقيقية. وتابع الجيش رحلته في اليوم التالي.

\*

ومع تقدّم الجيش تحوّل السهل إلى أرض أكثر خصوبة وغنى. وتوزع في هذه المنطقة عددٌ كبيرٌ من الأفنية التي تصل نهر دجلة بنهر الفرات. وتناثرت في هذه الأراضي الريفية قرى عديدة انشغل فلاحوها بتحضير الأرض للبذار.



وفي كل الأمكنة التي توقف فيها الجيش، كان الفلاحون يقدمون إليه الأصناف التي تختص بها قراهم، وعلى الأخص البلح الناضج الذي كان لذيذاً ومنعشاً. أما شراب البلح فقد كان ثقيلاً على معداتهم، وكثيراً ما سبب الصداع للجنود. ولكن، لم يتوافر لهم أي بديل، لأن الشراب العادي، وحتى أفضل أنواعه، لم يتمكن من الصمود في ذلك المناخ، كما أن مياه الشرب كانت رديئة بدورها. أما التمور فكانت ممتازة، وكذلك كانت ثمار الرمان التي تنمو أشجارها في هذه المنطقة بكثرة؛ إذ كانت لذيذة بشكل لا يوصف.

رأى الجنود كذلك مساحات واسعة من الحقول المليئة بالفلاحين الذين كانوا يستخدمون نظام الأقنية ذات مردّات، لكن الإسكندر اعتبر أن هذا النظام غريب بعض الشيء. استفسر كاليستين عن هذا النظام فأخبروه أنه يخلّص الأرض تدريجياً من الملح الذي يتكون على السطح بسبب الحرارة القوية، وهكذا يتم الحفاظ على خصوبة الأرض. قال بطليموس: "إن ما يفعلونه هنا تقليد صناعي لما يحدث في مصر بطريقة طبيعية لدى فيضان نهر النيل. أعتقد أن هذه ميزة تتصف بها المناطق ذات المناخ شديد الحرارة. أما الأمر المفاجئ هنا، فهو عدم وجود التماسيح في نهر دجلة، وكذلك في نهر الفرات، ولعل هذه الحيوانات لا تستطيع العيش إلا في مياه نهر النيل".

لم يوافق نيرخوس على هذه الفرضية وقال: "أبدأ، على الإطلاق. سبق لي أن سمعت قصة رجلٍ من ماساليا كان قد أبحر إلى ما وراء أعمدة هرقل وبمحاذاة الشاطئ الأفريقي حتى وصل إلى مصبّ نهر يُسمّى كريتيس، والذي كان يعج بالتماسيح".

قال الإسكندر متنهداً: "وراء أعمدة هرقل... إن حياة المرء قصيرة جداً حيث لا تسمح له برؤية العالم بأكمله!". فكّر الإسكندر بهذه

اللحظة في إسكندر إبيروس، وفي موته في هيسبيريا الذي لم يُثار له بعد.

أشرفت الرحلة على الانتهاء، لكن الزحف أصبح أقرب ما يكون إلى الاستعراض لأن السكان المحليين خرجوا من منازلهم في كل الأماكن التي مروا بها، واصطفّوا بمحاذاة الطريق للتصفيق لمليّكهم. بعد ذلك، تجاوز المشهد كل التوقعات الممكنة ليصل إلى حدّ الأعجوبة. حدث ذلك عندما ظهرت أمامهم عند الأفق أسوار، وأبراج، وحدائق هرميّة الشكل في أكثر المدن شهرة في العالم؛ مدينة بابل!

كان الاستقبال الذي لقيه الفاتح الشاب في بابل خيالياً. فقد اصطفّ أُلوف الشباب، من الفتيان والفتيات على حدّ سواء، على جوانب الطريق المؤدية إلى المدينة، وراحوا يرمون الأزهار أمام جواد الإسكندر. بدا أن بوابة عشتار المهيبّة، والتي يبلغ ارتفاعها مئة قدم، والمكسوة ببلاط لامعٍ يحمل رسومات لتنانين وثيرانٍ مجنحة أكثر إشراقاً مع تقدم الملك ورفاقه متبوعين بالجيش بمختلف تشكيلاته مع الجنود والضباط وقد ارتدوا كلهم دروعهم اللامعة.

أما سكان المدينة فقد وقفوا فوق سياجات الأبراج المحيطة بالبوابة وبمحاذاة الأسوار الضخمة، التي كانت متسعة كثيراً حيث تسمح بمرور مركبتين جنباً إلى جنب من النوع الذي تجرّه أربعة جياد. كان السكان متشوقين إلى رؤية الملك الجديد الذي هزم الفرس ثلاث مرات في فترةٍ تقل عن السنتين، كما أجزر مدينتين محصنتين تحصيناً جيداً على الاستسلام.

حيّاً أشرف المدينة الإسكندر ورافقوه كي يقدّم أضحيةً في الهيكل المدرّج الذي يشرف على المساحة المبتلّة الواسعة. صعد الإسكندر مع رفاقه وقادة جيشه، أمام حشد كبير، الدرج الذي يؤدي من شرفةٍ إلى أخرى، ليصل إلى الهيكل الذي يقع فوق القمة.

تمكّن الملك من ذاك المكان العالي من النظر إلى المشهد الذي انبسط أمامه، ومن استيعابه. فقد امتدت بابل أمامه من المكان الذي يقف فيه، وظهرت بأسوارها التي لا نهاية لها، وشاهد الحصن المثلث

الذي يحمي القصر الملكي، ورأى كذلك القصر الصيفي الذي يقع في الجزء الشمالي من المدينة. وأمکنه أن يرى دخان البخور المتصاعد من أكثر من ألف هيكلٍ منتشرٍ في المنطقة السكنية الكبيرة. لاحظ الملك الطرقات الواسعة والمستقيمة التي تتقاطع مع بعضها في زوايا قائمة، ورأى الشوارع الرئيسة المبلطة بأحجار طينية. كانت كل طريق من هذه الطرقات تبدأ وتنتهي بإحدى البوابات الخمس والعشرين التي تؤدي إلى الأسوار، أما أبوابها العملاقة فقد كانت مطليّة بالبرونز، والفضة، والذهب.

كان نهر الفرات يقسم المدينة إلى قسمين، وهو يلمع مثل شريط من الذهب يمتد من أحد جوانب الأسوار إلى الجانب الآخر، فيما انتشرت الحدائق والأشجار الجميلة على جانبي النهر، كما أن أسراباً من الطيور ذات الألوان المتعددة كانت تملأ الأشجار.

أما وراء النهر، فقد كانت القصور الملكية متصلة مع الجزء الغربي من المدينة بجسورٍ حجرية ضخمة. كانت هذه القصور واضحة للعيان لأنها مبلطة ببلاط لامع ذي ألوان متعددة، أما أشعة الشمس فقد كانت تعكس صوراً لمخلوقات مدهشة، ومناظر خيالية، ومشاهد أخذت من الأساطير القديمة لبلاد ما بين النهرين.

برز في مكان لا يبعد كثيراً عن القصر الملكي أعظم بناء في المدينة بأكملها، وهو البناء الذي يُعتبر من أكثر عجائب الدنيا إهاراً في العالم المعروف، أي الحدائق المعلقة.

لقد تجسد المفهوم المعياري للبناء في هذه الحدائق التي شيدت في بقعة أرض مسطحة تماماً، ووسط مناخ لا يلائم المتزهات الكبيرة المليئة بالأشجار. كان كل شيء مصطنعاً، ومصنوعاً بجهد كبير بأيدي أناسٍ ماهرين. شرح الأشراف للإسكندر أن قصة الحدائق تبدأ

في الأصل مع وصول ملكة عيلامية شابة إلى بابل بصفتها عروساً للملك نبوخذنصر. عانت الملكة كثيراً بسبب حنينها إلى وطنها الأم المليء بالجبال المكسوة بالأشجار، وهكذا أعطى الملك أوامره ببناء تلة تكون مكسوة بغابة ظليلة من الأشجار ومزينة بأجمل الأزهار. لهذا السبب بنى المصممون سلسلة من الشرفات الواحدة فوق الأخرى حيث تكون الشرفة الأعلى أقل مساحة من الشرفة التي تحتها. كانت كل شرفة مدعومة بمئات الأعمدة الحجرية والتي غطيت بالإسمنت بكل عناية، وكانت متصلة ببعضها بأقبية مقوسة. كما احتوت هذه الشرفات الكبيرة على التراب اللازم الذي يسمح للشجيرات الصغيرة والأشجار الكبيرة بتكوين جذورها وأغصانها، وكانت مكسوة بالقار أيضاً. بدأت طيور كثيرة، وحتى الأنواع الليلية منها، بصنع أعشاش لها فوق أغصان الأشجار والأجمات، وكذلك أحضرت بعض الأنواع الغريبة من هذه الطيور، مثل الطواويس والدراج، من القوقاز، وحتى من الهند البعيدة. وعمد المهندسون إلى صنع نوافير صناعية من كل الأنواع مستخدمين آلات في غاية الإبداع، وكانت هذه الآلات تحمل المياه من نهر الفرات الذي يمر أسفل هذا الصرح العجيب.

بدا الصرح من الخارج مثل تلة مغطاة بكل أنواع الأشجار الخضراء. ولكن، بدت هنا وهناك علامات تشير إلى تدخل الإنسان. فظهرت الشرفات والأسيجة المخبأة وراء النباتات المرشحة والمتسلقة، وكانت كل واحدة منها مليئة بالأزهار والفاكهة.

تأثر الإسكندر بفكرة أن هذا الصرح الذي يُعتبر من عجائب الدنيا كان نتيجة أمر أصدره ملكٌ عظيم من أجل تخفيف الوحشة التي شعرت بها ملكته، وهي امرأة شابة وُلدت في بلاد عيلام المرتفعة والمليئة

بالغابات. وفكّر في بارسين التي ترقد الآن، وإلى الأبد، تحت برج صمتها الذي يقع في صحراء غواجميلا القاحلة.

تمتم الملك وهو ينظر حوله: "كم من العجائب تتواجد هنا؟!". أما أصدقاؤه بطليموس، وبيرديكاس، وليوناتوس، وفيلوتاس، ولاسيماخوس، وإيومينيس، وسلوقس، وكراتيروس، فقد بدت عليهم أمارات الدهشة بدورهم لدى رؤيتهم مدينة تُعتبر قلب العالم منذ ألف سنة مضت، ولدى رؤيتهم المساحات الخضراء الواسعة المنتشرة بين المنازل؛ وهي المساحات التي تمتلئ بأشجار تحمل كل أنواع الفاكهة. كانت قوارب كثيرة تطوف على سطح النهر برشاقة. وكان عدد كبير من هذه القوارب مصنوعاً من رزم من القصب، ويتحرك بواسطة أشرعة كبيرة مربعة الشكل. أتت هذه القوارب من منطقة تقع عند مصب النهر، حيث شيّدت أقدم مدن بلاد ما بين النهرين، مثل أور، وكيش، ولاغاش. وكانت قوارب أخرى مستديرة الشكل وتبدو مثل سلال كبيرة، ومغطاة بجلود مدبوغة، آتية من جهة الشمال وهي محملة بفواكه البلاد البعيدة. شملت هذه منتجات الفواكه من بساتين أرمينيا الخضراء التي تكثر فيها الطيور البرية، وجلود الحيوانات، والأخشاب والأحجار الكريمة الثمينة.

ساهمت السماء والمياه والأرض في تكوين هذا العالم المثالي المتناسق داخل أسوار المدينة العظيمة، والذي يمتلئ بأبراج بدت كالتاج من بعيد. استمر الإسكندر في النظر حوله بحثاً عن عجيبة أخرى كان قد سمع قصتها منذ طفولته. ففي الواقع، كان معلمه ليونيداس أول من ذكر له برج بابل، والذي كان عبارة عن جبل من الأحجار يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثمائة قدم، وعرضه عند قاعدته ثلاثمائة قدم أيضاً. قيل يومها إن أشخاصاً ينتمون إلى كل شعوب العالم قد عملوا على تشييده.

أشار الكاهن إلى بقعة مترامية الأطراف كانت مهجورة بالكامل ومغطاة بالحشائش، وقال: "هناك وقف إثميناكي، وهو البرج الذي لامس السماء، والذي دمّره الفرس في فورة غضبهم، أي عندما تمردت المدينة، وكان ذلك في عهد الملك زيركزيس".

قال الإسكندر: "إنه الملك ذاته الذي دمّر هياكلنا عندما اجتاح اليونان. أريد أن أعيد بناء البرج عندما أعود إلى بابل".

في مساء ذلك اليوم، احتفل الملك بإقامة مأدبة فخمة لمئات ومئات الضيوف. قُدّمت في هذه المأدبة أفخر الأطباق وألذّ المشروبات، بالإضافة إلى مشروبات مبهجة أخرى. كما رقصت أجمل نساء الشرق من بلاد الميدين، والقوقازيين، والبابليين، والهيراكانيين، والعبريين.

لم يُحرّم الجنود الذين ربّحوا معارك غرانيكوس، وإيسوس، وغواجميلا، والجنود الذين دمروا ميليتوس، وهاليكارناسوس، وصور، وغزة، من أي شيء لمدة ثلاثين يوماً، وفعلوا كل ما يريدونه خلال المآدب، وقاموا بأمورٍ خرجت عن إطار العقول في بعض الأحيان. فقد سمح لهم الإسكندر بذلك لأنّ مغامرة جديدة كانت بانتظارهم، وهي مغامرة صعبة سرعان ما ستبدأ في المستقبل القريب، كما أنّها تحمل صعوباتٍ جمّة، وتشمل تجاربٍ ومحنًا ومعاناةً من مختلف الأنواع.

ذات مساء، ذهب الإسكندر ليرتاح في القصر الصيفي. فقصده بيرديكاس طالباً رؤيته.

كانت الضمادات لا تزال تحيط بجذعه، وتغطي الجروح التي أصيبت بها في ذلك اليوم المشهود في غواجميلا، كما ظهرت في عينيه تعابير غريبة يُحتمل أن تكون الثمالة سببها، أو شعوره بكآبةٍ شديدة تعتصر قلبه.

سأله الملك: "كيف حالك يا بيرديكاس؟".

"إنني بخير أيها الإسكندر".

"طلبت أن تتحدث إلي".

"هذا صحيح".

"وماذا لديك لتقوله لي؟".

"إن شقيقتك، الملكة كليوباترا، أصبحت أرملة منذ نحو سنة من

الزمن".

"هذا صحيح مع الأسف".

"إنني أحبها، لقد أحببتها على الدوام".

"أعرف ذلك".

سأله بيرديكاس بشيء من الحرج: "وكيف عرفت؟".

"عرفت، وهذا يكفي".

"جئت كي أطلب يدها".

بقي الإسكندر صامتاً بضعة لحظات من الزمن.

في تلك الأثناء، ملأت الدموع عيني بيرديكاس، وكاد يضطرب

كلياً، لكنه سأل: "لقد تجرأت كثيراً ولم ألتزم بحدودي، أليس كذلك؟

لكن، لم أكن لأستجمع ما يكفي من الشجاعة كي أطلب يدها من

دون أن أتمل أولاً".

"هل شربت كوب هرقل؟".

أوماً بيرديكاس: "هذا صحيح".

"لكن الواقع هو...".

شعر بيرديكاس بتوتر شديد يثير الشفقة، وسأل منتظراً الرد وهو

فاغر فمه: "ماذا تودّ أن تقول؟".

"في الواقع، إن بطليموس قد طلب يد كليوباترا".



"آه".

"وسلوقس كذلك".

"كذلك... لكن، أما من شخصٍ آخر طلب يدها؟".

"ما من شخصٍ آخر باستثناء لايسيماخوس، وهيفاستيون و... أنت بالطبع".

"ألا يُحتمل أن يكون بارمينيون قد طلب يدها هو الآخر؟".

"كلا، لم يفعل".

"لا يشكّل ذلك فرقاً، وعلى كل حال لا أمتلك أيّ أمل".

"إذا أردتَ الحقيقة، أعتقد أنك الشخص الوحيد الذي يجدر به أن يطلب كليوباترا للزواج، وذلك لأنها المرأة التي تحبها وليس لأنها شقيقة الإسكندر. لا يكفي ذلك على كل حال، كما أنه لم يمرّ ما يكفي من الوقت منذ وفاة إسكندر إيبيروس. سيتعيّن على الرجل الذي يريد أن يتزوجها أن يبرهن عن جدارته بأن يقبل مواجهة أي مخاطرة، وأن يقدم أي تضحية، وأن يتحمّل محناً وآلاماً تعجز، حتى أنت، عن تصورها".

استعاد بيرديكاس ما يكفي من وعيه كي يشعر برغبته في البكاء، لكنه أجاب: "لكن، ألم يسبق لي أن واجهتُ كل الأمور التي تحدثتَ عنها لأجلك؟".

"لم تفعل شيئاً يزيد على ما فعله رفاقك. وعلى كل حال، إنّ أصعب جزء من مهمتنا ما زال بانتظارنا يا صديقي. سننطلق مجدداً في غضون عشرين يوماً كي نقهر هذه الإمبراطورية، وكي نلاحق داريوس إلى أبعد المقاطعات. وبعد ذلك، سنعود إلى هذه المدينة. سأعرف من هو الأجدر بشقيقتي عندما نعود. اذهب الآن، وجد نفسك إحدى الفتيات الجميلات، وهنّ كثيرات. استمتع يا صاحبي لأن الحياة قصيرة".

تحرك بيرديكاس، وفي طريقه التفت نحو الشرفة الكبيرة المليئة  
بالأزهار، والتي تُشرف على المدينة بأكملها وعلى النهر الذي يلتمع  
بآلاف الأنوار، كما تطلع نحو السماء التي تعجّ بالنجوم الملتمة.

خصَّص الإسكندر خلال إقامته في بابل وقتاً كبيراً لتنظيم المقاطعات والإدارة الجديدة، وكذلك من أجل وضع خطة تحرّكه للسنة التالية. وذات مساء، استدعى كل رفاقه، وجميع أعضاء مجلس الحرب إلى القصر الصيفي حيث كان الجو - الذي يصعب احتمالاه في هذه المناطق المنخفضة - أطفئ قليلاً. وكانت نسيمات لطيفة تهب بين وقتٍ وآخر، وعلى الأخص عندما تقترب الشمس من الغيب.

بدأ الملك بالكلام: "أريد أن أطلعكم على خططي. قررت في السنة الأولى من حملتنا احتلال كل المرافئ، وذلك كي أعزل الأسطول الفارسي عن بحارنا، وكي أجعل حصول اجتياح مضاد لأرض مقدونيا أمراً مستحيلاً. سنحتل الآن كل حواضر الإمبراطورية. وهكذا، يبدو جلياً أن حكم داريوس قد أشرف على نهايته، وأن كل ممتلكاته هي الآن في قبضتنا. سنحتل سوسا، وإيكباتانا، وباسارغاديا، وبيرسيبوليس قريباً، وذلك بعد أن أخضعنا بابل. لم يعد أمام داريوس إلا أن يحتمي في المناطق الشرقية البعيدة، لكننا سنلاحقه إلى هناك حتى نلقي القبض عليه.

هناك سبب آخر يدفعنا لاحتلال العواصم، وهو المال. إذ يحتفظ داريوس بخزائن أمواله في العواصم، ولذلك ستمكن بفضل ثروته من إرسال المساعدات إلى القائد أنتياتر الذي سيضطر إلى القتال ضد الإسبارطيين في اليونان، والذي سيتعين عليه مواجهة والدتي بشكل يومي. ولعل ذلك هو أصعب جزءٍ في مهمته".

بدأ رفاق الإسكندر بالضحك، وحتى بيريتاس الذي كان معهم،  
بدأ بالنباح بصوت عالٍ.

"بعد ذلك، سَنتمكّن من تجنيد المزيد من المرتزقة، وتجهيز الجنود  
الجدد الذين سينضمون إلينا قريباً. سينطلق القائد بارمينيون شمالاً مع  
حلفائنا اليونانيين، وستزحف معه ثلاث كتائب من الفالانج، وسرية  
واحدة من فرسان الهيتايروي، وسيكون مزوداً بالمؤن وآلات الهجوم.  
وسيصل القائد إلى الطريق الملكية، وسيقدم عبرها نحو بيرسيوليس. أما  
نحن، فسنتحرك مع بقية قواتنا نحو الجبال من أجل احتلال المعابر وتحرير  
هذه المناطق من آخر الحاميات الفارسية. لا أتوقع أن تكون مهمتنا  
سهلة لأن الثلج بدأ يتساقط في الجبال. لهذا السبب، أقول لكم  
استمتعوا ما دمنا هنا. لكنني أريدكم أن تستجمعوا كل قواكم لأن  
مهمتنا ليست للتسلية".

وما إن غادر الجميع، حتى دخل إيمولبوس من سولوي، فأمسك  
الإسكندر بيريتاس من رباطه لأنه لاحظ أنه بدأ بالدمدمة.

بدأ إيمولبوس بالكلام: "لقد فعلت كل شيء حسب طلبك يا  
مولاي. رتبت الأمر مع أحد رجالي كي يذهب إلى سوسا ويتأكد من  
عدم اختفاء الخزنة الملكية. تبلغ محتويات الخزنة بحسب علمي ثلاثين  
ألف تالنت من النقود والسبائك، وذلك بالإضافة إلى الأشياء الثمينة  
التي تزين القصر. يدعى ذلك الشاب أريستوزينوس، وهو يعرف ما  
يتوجب عليه القيام به. وإذا اضطر الرجل إلى التواصل معك في يوم من  
الأيام، فسيستخدم كلمة السر المعتادة".

فقال الإسكندر وهو يهز رأسه: "الدجّ المشوي. اسمعني جيداً، قد  
يكون هذا الوقت مناسباً لتغيير كلمة السر السخيفة هذه، لأنه ليس هناك  
في الوقت الحاضر أخطار داهمة يُمكن أن تبرّر بقاء هذه الكلمة السخيفة".

"تأخر الوقت على هذا يا مولاي، لأن أريستوزينوس مضى في طريقه الآن. سنغيرها في المرة القادمة".

تنهد الإسكندر، وأمسك ببيريتاس كالمعتاد عندما غادر إيمولبوس الذي ما لبث أن اختفى عبر ممرات القصر.

وقبل مغادرة الجيش بوقت قصير، تناول إيومينيس بعض المال من الخزائن الملكية، وتركها بين يدي أحد معاونيه المقدونيين والذي يدعى هاربالوس، وهو رجل لم يسبق له أن قاتل في أي معركة لأنه كان مشلولاً. وفي هذه الحملة العسكرية، تمتع هذا الرجل بسمعة حسنة باعتباره خبيراً في شؤون الإدارة الاقتصادية. كان الإسكندر يعرف الرجل جيداً لأنه كان يمضي بعض الأوقات في قصر بيلا بالرغم من أنه كان عاجزاً عن المشاركة في التدريبات العسكرية بسبب إعاقته.

قال الإسكندر: "يتعين عليه أن يقوم بمهمة ناجحة. وأعتقد أنه يتمتع بالمهارة الكافية".

أجاب إيومينيس: "وأنا أعتقد هذا أيضاً، فلطالما كان شاباً رائعاً".

\*

انطلق الجيش مجدداً في نهاية فصل الصيف، بعد أن تم تثبيت مازايوس في مركزه كمرزبان لمدينة بابل، وبعد أن تركت حامية مقدونية كي تحميها وتضمن أمنها. تقدم الجنود مع مجرى نهر باسيتجريس، وهو أحد روافد نهر دجلة الذي ينحدر من جبال عيلام. كان المنظر في غاية الجمال، فقد انتشرت في الأرجاء مراعي خضراء تعجّ بقطعان كثيرة من الخراف والأبقار، كما نبتت في هذه الأراضي كل أنواع أشجار الفاكهة، بما فيها الدراق رائع المذاق، بقشرته المخملية وعصارتها كثيرة السوائل. كما تواجدت في هذه المناطق أيضاً كميات كبيرة من الفاكهة المجففة تحت أشعة الشمس، مثل التين والإجاص.

استغرق زحف الجيش مدّة ستة أيام كي يصل إلى مشارف سوسا. وما لبث الإسكندر أن تذكر ما قاله ضيوفه الفرس الذين كانوا يزورون بيلا قبل سنوات عديدة عندما كان صبياً عن سوسا. إذ تقع المدينة فوق بقعة أرضٍ مستوية، وتظهر سلسلة جبال عيلام خلفها، وهي الجبال التي تكلّلت قممها بالثلوج، أما سفوحها فكانت خضراء بفضل أشجار التنوب. كانت سوسا مدينة كبيرة محاطة بالأسوار والأبراج المزخرفة ببلاط لامع، بينما زُحرفت سياجات أسوارها بدعائم عمودية مطلية بالفضة والذهب.

وما إن بدأ الجيش بالاقتراب، حتى فُتحت البوابات. وما لبثت أن ظهرت فرقة من الفرسان الذين يرتدون ثياباً فاخرةً، وبدا أنهم يرافقون أحد الوجهاء الذي وضع تاجاً ناعماً فوق رأسه.

قال إيومينيس للإسكندر: "إنه أيوليتس بكل تأكيد. إنه مرزبان سوسيانا وهو يرغب في الاستسلام. أخبرني أريستوزينوس ذلك في الليلة الماضية. تشير كل الاحتمالات إلى أن كل الخزنة، أو على الأقل جزءاً كبيراً منها، لا يزال في المدينة".

اقترب المرزبان من الإسكندر، ثم ترجّل عن صهوة حصانه، وانحنى أمام الملك حسب الطريقة الفارسية التقليدية، وذلك تعبيراً عن الولاء، ثم قال: "ترحب بك مدينة سوسا بسلام، وهي تفتح بواباتها للرجل الذي اختاره أهورا مازدا خليفةً لسيروس العظيم".

انحنى الإسكندر بكل احترام، ثم أشار إلى المرزبان كي يمشي بالقرب منه.

قال ليوناتوس لسوقس: "أنا لا أحب هؤلاء البرابرة مطلقاً. إذ لا يمكنك أن تعرف ما الذي يخططون له. إنهم يستسلمون من دون قتال، ويخونون ملكهم، كما أن الإسكندر يثبّتهم في مناصبهم التي كانوا فيها

بينما نظل نحن فوق صهوات جياندا ليلَ نهارَ. هل ستمكن من الوصول يوماً إلى الجهة الأخرى من هذه البلاد؟".

ردّ سلوقس بالقول: "إن الإسكندر محقّ. فهو يثبتّ الحكام القدامى في مناصبهم كي لا يشعر الناس أن الأجانب يحكمونهم، لكنّ جباة الضرائب والقادة العسكريين مقدونيون. وهذا يعني أن الأمر ليس كما تتصوره. إذًا، أليس من الأفضل أن تجري الأمور على هذا النحو؟ تفتح المدن أبوابها أمامنا، ونتيجة لذلك، لم نضطر إلى تركيب آلات الحصار منذ أن غادرنا الشاطئ. أم أنك تفضّل سفك الدماء، مثلما حدث في هاليكارناسوس وصور؟".

"لا، أبداً، لكن...".

"إذًا، يجدر بك أن تكون مرتاحاً للطريقة التي تجري بها الأمور الآن".

"أجل، لكن... في الواقع، إنني لا أحب أن يقترب هؤلاء البرابرة من الإسكندر كثيراً، أي أن يأكلوا معه ويرافقوه إلى ما هنالك. إنني، وببساطة، غير مرتاحٍ لكل هذه الأمور".

"لا تقلق، لن يحدث أي شيء. يعرف الإسكندر ما يفعله تماماً".

كانت مدينة سوسا محاطة بالتلال من الجهات الأربع؛ وهي المدينة المهيبة التي يبلغ عمرها نحو ثلاثة آلاف سنة. وبدا القصر الملكي بارزاً فوق إحدى هذه التلال. أمّا مدخل القصر فكان مشيداً على طراز الهياكل المهيبة، ويتكوّن من أعمدة حجرية كبيرة، تيجانها على شكل ثيرانٍ مجنحة تدعم السقف. وبعد ذلك، تظهر الردهة المبلطة برخامٍ من كل الألوان، وتغطي سجادات كبيرة أرضيتها بشكلٍ جزئي. وكذلك برزت الأعمدة التي تدعم السقف واضحة، وهي أعمدة مصنوعة من خشب الأرز ومطلية باللونين الأحمر والأصفر. دخل الإسكندر ممراً،

ثم عبرَ ردهةً قبل أن يصل إلى الأبدانا، وهي قاعة استقبال كبيرة اجتمع فيها الوجهاء والخصيان والمشرفون على تلك القاعة الكبيرة وقد أخفضوا رؤوسهم حتى كادت تلامس الأرض.

تقدم الملك متبوعاً برفاقه وقادة جيشه نحو عرش أباطرة الإخميين وتبواً مكانه، ولكنه سرعان ما شعر بالإحراج. فقد كان قصيراً مقارنة بهم إلى درجة أن قدميه لم تصلا إلى الأرض، فتدلنا بطريقة لا تناسب وضعه الملكي. أما ليوناتوس الذي يتصف بسرعة البديهة فقد لاحظ وجود قطعة أثاث مصنوعة من خشب الأرز موجودة قرب العرش، فدفعها نحو الإسكندر ليتمكن من وضع قدميه عليها وكأنها مقعد، وما لبث أن بدأ بالحديث إلى الحاضرين.

"أيها الأصدقاء، إن ما بدا قبل وقت قصير حلماً مستحيلاً أصبح الآن حقيقة. إننا نسيطر الآن على أعظم حاضرتين في العالم: بابل وسوسا، ولن يمضي وقت طويل قبل أن نحتل العواصم الأخرى كذلك...". قطع صوت بكاء هادئ كلام الإسكندر بعد وقت قصير من بدايته، فنظر الملك حوله وسط الصمت الشديد الذي خيم على القاعة الكبيرة، وهو الأمر الذي جعل بكاء أحد الخصيان الذي كان يُسند رأسه إلى أحد الجدران يبدو مسموعاً بوضوح أكبر. تنحى الجميع لأنهم أدركوا أن الملك يريد أن يراه، وهكذا بقي ذلك المسكين واقفاً بمفرده بعينه الدامعتين تحت أنظار الإسكندر.

سأله الإسكندر: "لماذا تبكي؟". فغطى الرجل وجهه بيديه بعد أن كفكف دموعه. "هيا تحدث ولا تحش شيئاً".

همس ليوناتوس في أذن سلوقس: "يا لهذه المخلوقات المخصصة. إنهم ينفجرون بالبكاء لأتفه الأسباب، أي مثلما تفعل الفتيات. لكن يبدو أنهم يتفوقون على النساء في ذلك".



أجاب سلوقس: "ينتشر الخصيان هنا وهناك. أما هذا، على سبيل المثال، فلا يبدو أنه يحترم أحداً".

قال الإسكندر مصرّاً: "هيا، تكلم".

تحرك الخصي إلى الأمام فأدرك الجميع أنه كان يحدّق إلى المقعد الذي كان تحت قدمي الملك.

بدأ الخصي بالحديث: "إنني خصي، ولهذا، فإنني موال لسيدي أياً يكن هذا السيد. كنتُ موالياً في السابق لمولاي الملك داريوس. والآن أنا موال لك يا مولاي. وبالرغم من كل ذلك، لا أستطيع إلا أن أبكي عندما ألاحظ السرعة التي تتغيّر فيها الأقدار. إن قطعة الأثاث التي تستخدمها كي تريح قدميك عليها..."، بدأ الإسكندر يلاحظ هنا سبب بكاء الخصي الذي تابع كلامه: "كانت مائدة داريوس، وهي الطاولة التي كان يتناول فوقها وجباته، ولذلك كانت شيئاً مهماً بالنسبة إلينا، وتستحق كل الاهتمام. أما الآن، فأنت تستخدمها لتريح قدميك فوقها..."

احمرّ الإسكندر خجلاً، وكان على وشك النهوض بعد أن أدرك بأنه أقدم على عمل لا يليق به، ولا يُسامح عليه، لكن أريستاندر أوقفه وقال له: "لا تحرك قدميك عن تلك الطاولة. ألم يخطر في بالك أن هذه الحادثة التي وقعت صدفة، في ظاهر الأمر، تحمل مغزىً خاصاً بها؟ أراد القدر أن يحدث هذا الأمر كي يعرف الجميع أنهم وضعوا قوة الإمبراطورية الفارسية تحت قدميك".

هكذا بقيت مائدة داريوس حيث هي، أي استمرّ الملك الجديد في إراحة قدميه عليها.

انتهى اللقاء، وتفرق الجميع في أنحاء القصر. أما المشرف، وهو خصي آخر، فقد اصطحب الإسكندر بمفرده إلى جناح الحرم الملكي حيث تتواجد نساء شابات فاتنات. كنّ جميلاتٍ جميعاً ويرتدين

ملابسهن الوطنية. رحبن بالملك وسط القهقهات. كانت بعض النساء سمراوات، بينما كانت بشرة الأخریات أكثر بياضاً وكن ذوات عيون زرقاء. وكانت في الغرفة فتاة إثيوبية، التي بدت بالنسبة إلى الملك وكأنها أحد التماثيل البرونزية التي ينحتها ليسيوس، وخاصةً مع حرکاتها التي تتم عن الكبرياء.

قال الخصي: "إذا أردت أن تمرح معهن، فإنهن سيفعلن ما في وسعهن لأجلك بكل سرور، حتى في هذه الليلة بالذات".  
"اشكرهنّ بالنيابة عني، وأبلغهنّ بأنني سأعود قريباً كي أستمتع برفقتهنّ".

وسار بعد ذلك إلى غرفة أخرى في ذلك القصر العظيم، وما لبث أن لاحظ فجأة أن رفاقه قد اصطفوا جميعاً وهم يحدقون إلى أحد التماثيل، فوقف كي يشاهده بدوره. كان نضباً برونزياً يمثل شاين يرفعان خنجريهما وكأنهما يستعدان لطعن شخص ما.

قال بطليموس شارحاً: "إنهما هارموديس وأرسطوجيتون. إنه تمثال الرجلين اللذين قتلا هيبارخوس، وهو شقيق هيباس الذي كان صديق الفرس الذي خان القضية الإغريقية. أخذ الملك زيركزيس هذا التمثال في أثينا كغنيمة حرب قبل أن يُقدم على إحراق المدينة. بقي التمثال هنا منذ مئة وخمسين عاماً كشاهد على ذلك الإذلال".

قال ليوناتوس: "سمعت أن هذين الشابين لم يقتلا هيبارخوس، في واقع الأمر، من أجل تحرير المدينة من الطاغية، لكنهما فعلا ذلك بدافع الغيرة، لأن هيبارخوس وأرسطوجيتون قد وقعا في حب هارموديس".

قال كاليستين وهو ينظر بإعجاب إلى ذلك التمثال الشهير: "إن ذلك لا يغيّر شيئاً. فلقد تمكّن هذان الرجلان، وبغض النظر عن الأسباب، من إعادة الديمقراطية إلى أثينا".

ساد جوٌّ معينٌ من الحرج عندما نطق كاليستين بهذه الكلمات. فقد تذكّر الجميع خطابات ديموستين الحادة التي دافع فيها عن الديمقراطية في أثينا ضد الطاغية فيليب. بدا أن الإسكندر كان ينسى مع مرور كل يوم الثقافة الديمقراطية التي تلقاها على يد أرسطو، وأن رسائل النصح التي أرسلها الفيلسوف لم تؤت ثمارها عنده. إذ كانت روح الملك تنجذب بشكلٍ متزايد نحو عظمة الإمبراطورية التي تحيط به في بلاد فارس.

فهم الإسكندر، بطريقة ما، ما كان الجميع يفكرون فيه من دون أن يجرؤ أحد منهم على البوح به، فقال: "ابدأوا بالترتيبات اللازمة لإرسال التمثال إلى أثينا باعتباره هديتي الشخصية إلى تلك المدينة. أمل أن يفهموا أن السيوف المقدونية حققت نتيجةً عجزت عنها آلاف الخطابات التي ألقاها الخطباء، والتي تعجز حتى عن وصفها".

سُمح للملكة الأم سيسيجامبيس، ولحظيات الملك وأولادهن، بالإقامة مجدداً في الأجنحة التي تركنها قبل وقت طويل. تأثرت جميع النساء عند عودتهن مجدداً إلى هذه الأمكنة المألوفة لديهن، وعبرن العتبات المؤدية إلى غرف نومهن، وبكين فوق وسادات أسرتهن التي قضين فوقها أوقاتاً ممتعة، والتي أنجن أولادهن عليها. تغيرت أمور كثيرة منذ ذلك الحين. بقيت ممرات القصر وقاعاته محتويةً على الأشياء ذاتها، لكن جواً عدائياً وغير مفهوم كان يخيّم في أرجاء القصر، كما أن المستقبل بدا مظلماً ومقلقاً. بدت الملكة الأم وحدها هادئة، وقد انغمست كلياً في صفاء غامض فرضته الحكمة التي تتمتع بها. طلبت أن يكون فرآت، الابن الأصغر لبارسين، تحت رعايتها إذا حصل أي شيء لجده المرزبان آرتابازوس، فاستجاب لطلبها.

اعتاد الإسكندر زيارة جناح الحرم الملكي، وكان يفعل ذلك بمفرده أحياناً، ومع هيفاستيون في أحيان أخرى. وبدأت الشابات يشعرن بالحب تجاه الملك وصديقه.

كان الإسكندر يزور مقر الملكة الأم كل يوم، وكان يتحدث إليها لمدة طويلة بمساعدة مترجم. وتحدث إليها مجدداً عشية مغادرة الجيش، أي كما فعل في الليلة التي سبقت معركة غواجميلا. قال لها: "أيتها الوالدة. سأغادر غداً كي ألاحق ابنك إلى أقصى حدود إمبراطوريته. إنني أثق بقدرتي، وأثق بأن فتوحاتي قد حدثت بمساعدة القدر، ولهذا السبب، فإنني لن أترك مهمتي قبل أن أنهيتها، لكنني أعدك بالألحاق أي أذى بداريوس طالما كنت قادراً على ذلك، كما أنني سأحاول أن أنقذ حياته. أجريت ترتيبات مع أفضل الأساتذة كي تتعلمي الإغريقية، لأنني أريد أن أسمع لغتي وهي تنطلق ذات يوم من بين شفتيك من دون تدخل المترجمين في أفكارنا".

نظرت الوالدة الأم إلى عينيه، وتمتمت شيئاً لم يتمكن المترجم من فهمه، لأنها تكلمت بلغة سرية وغامضة.

ذات صباح، وفي وقت مبكرٍ من فصل الخريف، ترددت أصوات الأبقاق مصدرة إشارات الانطلاق بينما كانت المدينة غارقة في الظلال. وكانت أشعة الشمس الطالعة تلامس قمم جبل عيلام. انقسم الجيش إلى قسمين: قواد بارمينيون معظم الجنود والعربات التي تحمل آلات الحرب المفككة والمؤن، وذلك عبر الطريق الملكية، بينما قاد الإسكندر القسوات المسلحة تسليحاً خفيفاً، وقوات الصدم والأغريانيين، وسلك بهم الطريق الجبلية التي تعبر بلاد عيلام نحو بيرسيبوليس، وهي العاصمة التي أسسها داريوس الكبير.

تحرك الإسكندر بتوجيه من المرشدين في الطريق التي بدأت تضيق أكثر فأكثر بمحاذاة النهر، ثم سار صاعداً نحو المعبر الذي يؤدي إلى المرتفعات التي كانت تسكنها مجموعات قوية من الرعاة البدائيين والمتوحشين، أي الأوكسيانيين. كان هؤلاء اسماً تحت سيطرة الملك العظيم، إلا أنهم كانوا مستقلين في واقع الأمر. طلب الإسكندر إليهم بمساعدة مترجم، أن يسمحوا له بعبور أراضيهم فأجابوا: "يمكنك أن تعبر إذا دفعتَ مالاً، مثلما كان يفعل الملك العظيم على الدوام عندما كان يريد سلوك أقصر طريق بين سوسا وبيرسيبوليس".

ردّ الإسكندر: "لم يعد الملك العظيم يحكم إمبراطوريته، لذلك، فإن طريقي تختلف عن طريقته. سأعبر أرضكم سواء أحببتم ذلك أم لا".

كان منظر الأوكسيانيين مرعباً بشعرهم الأشعث ولباسهم المؤلف من جلود الماعز والخرفان، ورائحتهم النتنة مثل روائح الحيوانات. كان

من الواضح أنه يصعب إرهابهم، كما أنهم لم يكونوا مستعدين لتقدم تنازلات حول أي شيء. كانوا يثقون تماماً بطبيعة أراضيهم الوعرة وبأوديتها الضيقة، وطرقاتها شديدة الانحدار التي لا يستطيع إلا عدد قليل من الناس تسلقها. لم يعرف هؤلاء أن هذا الملك الغريب كان يصطحب معه محاربين أشرس منهم وأشد وحشية وأكثر بدائية، والذين اعتادوا اجتياز أراضٍ أكثر وعورة وخطورةً من أراضيهم، وهم رجالٌ قادرون على تحمل البرد والجوع والألم والتعب، رجالٌ يتمتعون بالجرأة والشراسة ومتلهفون للقتال، ويطيعون اليد التي تطعمهم طاعةً عمياء؛ وهم الأغريانيون.

جمع الإسكندر القادة والمرشدين من سوسا كي يشرحوا مخطط الطريقين الرئيسيتين اللتين تؤديان إلى جبال الأوكسيانيين. تقرّر في ذلك الاجتماع أن يسير كراتيروس، مع قوات الصدم التي يقودها، في الطريق الأقل انحداراً بينهما، والتي تتجه مباشرة إلى المعابر التي تؤدي إلى بيرسيس. أما الإسكندر فسيسير مع جنوده من الأغريانيين، وكتبتين من حاملي الدروع، في الطريق الأصعب التي تؤدي مباشرة إلى المناطق التي يشغلها المحاربون الأعداء.

انتظر كراتيروس إلى أن بدأ الملك بتسلق المنحدر مع جنوده كي يجذب انتباه معظم قوات الأوكسيانيين، ثم بدأ بتحركه مستفيداً من الغطاء الكثيف الذي توفره الأشجار، وسار عبر الطريق التي تؤدي إلى المعابر.

بدأ الأوكسيانيون بالتصويب على الإسكندر، ورموه بوابلٍ من السهام، وبالأحجار التي قذفوها من القاذفات، وكذلك دحرجوا عليه صخوراً كبيرة من أعلى المنحدر. لكن الأغريانيين كانوا بمنتهى الرشاقة، واختبأوا وراء كل نتوءٍ توفر لهم، ثم تقدموا إلى الأمام بسرعة

عبر أرضٍ مكشوفة، واختبأوا مجدداً وراء جذوع الأشجار والصخور. وعندما التحموا في النهاية مع أوائل الأوكسيانيين، هاجمهم بشراسةٍ ووحشية حيث لم يمتلك المدافعون أي فرصة لإيقافهم. فسقط كثيرون منهم على الأرض بعد أن فُتحت أعناقهم، بينما انهار آخرون وهم يمسون بأمعانهم التي خرجت من بين جروح بطونهم الطويلة. كان الأغرانيون يقاتلون بعناد شديد، وكانوا يوجهون ضرباتهم بهدف القتل؛ القتل وحده، وكي يبيدوا أعداءهم تماماً، وإلراهمم بالجروح التي يرتعب المرء من مجرد النظر إليها.

وقف حاملو الدروع بعد الأغرانيين مباشرة، وبعد أن اتخذوا تشكيلاتهم المعتادة مجدداً. وما لبثوا أن انطلقوا راکضين نحو منازل القرى المشيدة بالأحجار والطابوق حيث يعيش الأوكسيانيون مع مواشيهم حياة بدائية. أعطى الإسكندر جنوده أوامر تقضي باستخدام الأسهم الحارقة، وما لبثت سطوح الأكواخ المشيدة من القش والحشائش أن تحولت إلى جحيم ملتهب، فانطلقت الحيوانات المرتعبة هاربة بكل الوسائل التي أتاحت لها.

لم يتصور الأوكسيانيون مطلقاً إمكانية حصول اجتياح كهذا، فانطلقوا نحو المعابر حيث ظنوا أنه بإمكانهم تنظيم دفاع أكثر فعالية، لكن كراتيروس وجنوده من فرقة الصدم كانوا قد سبقوهم إلى احتلال هذه المعابر. استقبل وابل من السهام السكان الجبلين فقتل عدد كبير منهم على الفور.

وحين اكتشف الأوكسيانيون أنهم عالقون بين جنود الإسكندر وجنود كراتيروس استسلموا. لكن الملك أنزل بهم عقاباً شديداً. أمر الملك بترحيلهم من أراضيهم المرتفعة إلى السهل، وهكذا لن يتمكنوا أبداً من إقفال المعبر بين سوسا وبيرسيس.

ما إن سمع الأوكسيانيون من المترجمين بالمصير الذي ينتظرهم حتى جثوا أمام قدمي الإسكندر، وتوسلوا إليه باكين، وصارخين من شدة اليأس. وشاركت النساء والأطفال في ذلك النواح، لكن الإسكندر كان مصراً على قراره، فقال لهم إنه كان يجدر بهم أن يقبلوا باقتراحه الأساسي، وإنهم بهذه الطريقة سيعرفون بأنه لا يُصدر أبداً تهديدات فارغة، وأنه ما من قوة في العالم تقدر على إيقافه.

اقترح أحد المرشدين من سوسا على الأوكسيانيين أن يتوسلوا إلى الملكة الأم سيسيجامبيس. فهي الشخص الوحيد الذي قد يمتلك بعض النفوذ لدى ذلك الفاتح المتصلب. عمل السكان بهذه النصيحة فأرسلوا سرّاً اثنين من قادتهم من خلال صفوف المقدونيين. وصل الفارسان بعد أربعة أيام، وسلكا الطريق الأكثر سهولة. وما لبث القائدان الأوكسيانيان أن عادا برسالة من الملكة الأم مكتوبة باللغة اليونانية، والتي توصلت فيها إلى الإسكندر كي يسمح لهؤلاء المساكين بأن يبقوا في أراضيهم:

من سيسيجامبيس إلى الإسكندر. تحياتي!  
جاءني ممثلان عن السكان الأوكسيانيين، وطلبوا إليّ التوسط لديك بالنيابة عنهم. أعرف بأنهم أهانوك وسخروا منك، لكن العقاب الذي تعتزم إنزاله بهم هو الأكثر فظاعة؛ فهو أسوأ من الموت. لا أعتقد أنه يوجد شيء أكثر إيلاماً من أن يُسلخ المرء عن البلاد التي عاش فيها منذ طفولته، وعن المياه التي روت عطشه، وعن الحقول التي وقّرت له غذاءه، وعن منظر الشمس التي تشرق وتغرب من وراء آفاق جبالنا.

ناديتي قاتلاً يا والدة مرات عدة، وهو أطف الأسماء، والاسم الذي قدّر لأوليمبيا فقط أن تحمله، هي التي ولدتك في قصر بيلا. إنني أطلب إليك، استناداً إلى ذلك الاسم الذي شرفنتي به، أن تصغي إليّ كما تصغي إلى والدتك. أريدك أن تعفو عن أولئك الناس ولا تسلخهم عن أراضيهم.



تذكّر موطنك، والحب الذي تركته هناك! لم يفعل أولئك  
البائسون شيئاً غير الدفاع عن أرضهم وعن منازلهم.  
كن رحيماً!

تأثر الإسكندر كثيراً بهذه الرسالة التي تمكنت من إطفاء غضبه،  
فسمح للأوكسيانيين بالبقاء في منازلهم الجبلية، لكنه اشترط عليهم أن  
يقدموا جزيةً سنويةً هي عبارة عن خمسمئة حصان، وألفي فرس،  
بالإضافة إلى عدد آخر من الماشية. قبل الأوكسيانيون بهذا الشرط  
بطيب خاطر، لكنهم ظنوا أن هذا الشاب الغاضب ومحاربيه الشرسين  
لن يعودوا أبداً لتحصيل حصتهم من الماعز والثيران، بالإضافة إلى أنه لم  
يكن في وسعهم أن يرفضوا طلبه.

وبعد انتهاء الإسكندر من حلّ مشاكله مع الأوكسيانيين، انطلق  
بجدداً إلى أعلى المعابر. كان المعبر طريقاً ضيقة تُعرف باسم البوابات  
الفارسية، وهو المعبر الذي شيّد فوقه المرزبان آريوبارزانيس جداراً  
دفاعياً مرتفعاً جداً لا يمكن اختراقه بسبب موقعه الحصين. انطلق الجيش  
في مسيرته قبل انبلاج خيوط الفجر الأولى في صباحٍ شديد البرودة.  
سار الجيش فوق هضبةٍ معرضة للرياح قارسة البرودة، بينما بدأت أولى  
رقاقات الثلج بالتساقط من السماء الرمادية.

أخذ الوادي المؤدي إلى البوابات الفارسية يضيق شيئاً فشيئاً حيث تحوّل في نهاية الأمر إلى وادٍ صخري ينحدر جانباه انحداراً شديداً. تطلّب الأمر مجهوداً كبيراً للتقدم إلى الأمام عبر الثلج الذي ازداد كثافةً، وفوق صفائح الجليد. حتى إن بعض الجياد والبغال انزلقت فوق الجليد وأصيبت بكسور في قوائمها. استغرق أوائل الجنود اليوم بأكمله للوصول إلى أولى دعائم المنصة المنحدرة التي تؤدي إلى الجدار العظيم الذي يحمي المعبر.

اهتمك الإسكندر في تجميع قادة التراقيين والأغريانيين من أجل دراسة الوسائل التي تمكنهم من تسلق الضفاف المنحدرة، والجدار ذاته تحت جناح الظلام، لكن سلسلة من أصوات الاصطدام المرتفعة هزّتهم جميعاً. فلقد بدأ الجنود الفرس في دحرجة أحجار كبيرة من أعلى الأسوار. تسببت هذه الأحجار بانزلاق عدد كبير من الصخور إلى أسفل الوادي. بدأ الجميع بالصراخ: "ابتعدوا! ابتعدوا!". لكن الصخور كانت تتحرك بسرعة أكبر من سرعة الرجال، ولذلك كانت النتيجة حدوث مجزرة. علق الإسكندر ذاته بين كومة من الصخور، فجرّح في أماكن متعددة، ولكن لم تُكسر أيّ من عظامه لحسن الحظ. وعلى الفور، أعطى الملك رجاله الأوامر بالانسحاب، لكن جنود الأعداء كانوا قد تناولوا أقواسهم في هذه الأثناء، وبدأوا برمي السهام على الجنود المتمركزين تحتهم من دون أن يخطئوهم، وذلك بالرغم من تساقط الثلج الكثيف، وانخفاض الرؤية الذي بدأ يتزايد.

صاح لايسيماخوس الذي كان على رأس جنود الهجوم:  
"الدروع! ضعوا الدروع فوق رؤوسكم!".

أطاع الرجال الأوامر، لكن الفرس بدأوا يركضون على جانبي ذلك الوادي الضيق، وهم يطلقون السهام على حراس الجزء الخلفي من الجيش الذين لم تتح لهم الفرصة بعد كي يدركوا ما يحصل. تمكنت الظلمة وحدها من وضع حد للمجزرة. وعندها، جمع الإسكندر جيشه في مساحةٍ أوسع سمحت له بإقامة معسكر، وإن كان قد فعل ذلك بصعوبة بالغة. شعر الجميع بإحباطٍ شديد، ليس فقط بسبب عدد الإصابات المميتة الكبير، وإنما بسبب صرخات الجرحى الذين كانوا عاجزين عن تحمّل الألم الذي يشعرون به والنتائج عن قطع أطرافهم التي انسلخت بشكلٍ كبير عن أجسامهم، وبسبب الألم الناتج عن العظام المطحونة.

شرع فيليب ورفاقه من الجراحين بالعمل على ضوء المشاعل، وخاطوا الجراح، وسحبوا الأسهم ورؤوس الرماح من أجساد المحاربين، وجبّروا الكسور، وجعلوا الأطراف ثابتة مستخدمين الأسهم وعصيّ الرماح لأنهم افتقدوا إلى موارد أخرى.

توافد رفاق الإسكندر الواحد تلو الآخر إلى خيمة الملك لعقد اجتماعٍ لمجلس الحرب. لم توقّد النيران، ولذلك لم تتواجد جمار تسمح لهم بتدفئة أنفسهم، لكن المشعل المعلق في العمود الرئيس للخيمة، والذي نشر بعض الضوء في المكان، ساهم قليلاً في منحهم بعض السدف. كان الجميع مدركين جيداً التغيّر الهائل الذي أظهره الحظ في حياتهم في غضون أيام قليلة، وهو تغيّر من الرخاء والترف في قصور بابل وسوسا، إلى الجليد والصعوبات الجمة التي تراكمت مع هذه المهمة اليائسة.

سأل سلوقس: "برأيك كم يبلغ عددهم؟".

أجاب بطليموس: "لا أعرف. أعتقد أنهم آلاف عدة. عندما قرّر أريوبارزانيس السيطرة على المعبر فلا بد من أنه لم يأمل أن يفعل ذلك بجنود قلائل مع أسلحة متواضعة، لذلك توجّب عليه بالتأكيد حشد أعداد كبيرة من جنود الهجوم". في تلك اللحظة، دخل إيومينيس الخيمة بعد أن تحوّل لونه إلى الأزرق بسبب البرد، واصطكّت أسنانه. أما صندوقه الذي حمّله فوق كتفه، فكان يحتوي على أوراق البردى وريشة وحرير استخدمها كلها في تدوين يوميات الحملة كل مساء.

سأله الإسكندر: "هل عددت خسائرنّا؟".

أجاب الأمين العام، وهو يراجع على عجل ورقة من بين الأوراق التي كتبها بسرعة: "إنها كبيرة جداً، وتبلغ ثلاثمئة قتيلٍ ومئة جريحٍ على الأقل".

سأل ليوناتوس: "وماذا سنفعل الآن؟".

أجاب الإسكندر: "لا نستطيع تركهم هناك طعاماً للذئب. يتعيّن علينا أن نستعيدهم".

قال لايسيماخوس: "لكن ذلك سيكبّدنا خسائر أكبر".

"إذا خرجنا الآن فستمكن من التخفي وسط الظلام، أما إذا ذهبنا غداً في وضوح النهار، فسيتمكنون من اصطيدنا من قمة الوادي". قال الملك: "أنا ذاهبٌ الآن. لا أستطيع ترك رجالنا من دون دفن، كما أنكم لستم مضطرين إلى مرافقتي إذا كنتم خائفين".

قال هيفاستيون بعد أن هبّ واقفاً كي يُظهر مدى استعداداه لمرافقته: "سآتي معك".

وقال لايسيماخوس بعد أن استفزّه كلام رفيقه: "تعرف جيداً أنّها ليست مسألة خوف".

"آه، لا؟ حسناً إذًا، ما المشكلة؟".

"لا فائدة من متابعة النقاش لأنه لن يوصلنا إلى شيء. دعونا نحاول أن نفكر قليلاً في هذه المسألة".

قال إيومينيس: "أنا... أنا أعتقد أنني ربما أمتلك حلاً".

التفت الحاضرون كي ينظروا إلى الأمين العام، بينما هزّ ليوناتوس رأسه، وفكر في سرّه أن هذا المخلوق اليوناني الصغير يملك حلاً جاهزاً لكل شيء على الدوام.

سأل الإسكندر: "ألديك حلّ؟ وماذا عساه يكون؟".

أجاب إيومينيس: "لحظة واحدة من فضلكم. سأعود على الفور".

ثم غادر الخيمة، وما لبث أن عاد بعد وقت قصير برفقة أحد المرشدين المحليين الذين رافقوهم حتى تلك المرحلة.

قال الأمين العام: "تكلم بحرية. إن الملك وأصدقائه سيصغون إليك".

انحنى الرجل للإسكندر ورفاقه، وبدأ بالكلام بلغة يونانية مفهومة إلى حدّ معقول، لكن لهجته أشارت إلى أنه قد يكون قبرصياً.

سأله الإسكندر: "من أين أنت؟".

"أنا من ليشيا الواقعة في منطقة باتارا. استعبدتُ في شبابي كي أَدفع ديناً كان لأحد أصحاب الأراضي من الفرس على والدي. كان اسم ذلك الرجل أرزاكيس، ولقد أخذني معه عندما عاد إلى بلاده، ثم أوكل إليّ مهمّة الانتباه إلى ماشيته التي كانت ترعى في هذه المنطقة. ولهذا السبب، أنا أعرف هذه الجبال مثلما أعرف ظاهر يدي".

أمسك جميع الحاضرين أنفاسهم عندما أدركوا أن هذا البائس المسكين قد يعتمد عليه مصير جيشٍ بأكمله.

تابع الرجل كلامه: "إذا عدتم إلى ذلك الوادي، فإنكم ستعرضون للإبادة على يد الفرس، وذلك قبل أن تصلوا إلى أسفل ذلك الجدار،

وذلك لأن الوحدات الصغيرة وحدها هي التي تستطيع التحرك هناك. ومع ذلك، أعرف طريقاً تبعد مسيرة ساعة عن هذا المكان، وهي طريق تمرّ صعوداً من خلال غابة كثيفة. إنها طريق للماعز في واقع الأمر، أي أن الرجال لا يستطيعون عبورها إلا في صفٍّ واحد. لكن تكفي أربع أو خمس ساعات للوصول إلى القمة، ولمفاجأة الفرس من الخلف".

قال سلوقس: "يبدو لي أنه لا خيار آخر لدينا، هذا إذا كنا نرغب فعلاً في التحرك إلى الأمام".

قال الإسكندر: "أنا أيضاً أعتقد ذلك، لكن تبقى هناك مشكلة. إذا كانت الطريق ضيقة، فإننا لن نستطيع إيصال ما يكفي من رجالنا إلى القمة كي يواجهوا أي هجومٍ مضاد يقوم به الفرس. سيتعين على بعض الجنود أن يشاغلوهم عند الأسوار مباشرة".

قال لايسيمachus: "سأهتم بهذا الأمر بنفسى".

"كلا، لأنك ستأتي معي. أما كراتيروس فهو الذي سيذهب مع الأغرانيين، والتراقيين، بالإضافة إلى كتيبة من جنود الهجوم، وسيحاول أن يُبقي الخسائر في أدنى حدٍّ ممكن. سنقوم بالهجوم في الوقت ذاته، أي أن رجالنا سيهاجمون من الأعلى، بينما يهاجم كراتيروس ورجاله من الأسفل. إن هجوماً متناسقاً من هذا النوع لا بد من أن يُلقى الرعب في قلوب الفرس".

قال كراتيروس: "سنحتاج إلى إشارة، لكن كيف يمكن أن تكون هذه الإشارة؟ إن الوادي عميق جداً بالنسبة إلى الإشارات الضوئية، كما أن المسافة بين وحدتنا قد تكون كبيرة جداً حيث يستحيل إيصال الصيحات، أو أي شكلٍ من أشكال الضجيج".

فقال الراعي من ليشيا: "هناك طريقة. أعرف مكاناً قرب السور يتردد فيه الصدى عبر جدران الوادي، أي أن صوت البوق يصل إلى

مسافة بعيدة. جرّبت ذلك مرات عديدة ببوقي، وذلك كي لا أشعر بالضجر عندما كنت آخذ قطيعي إلى المرعى".

نظر إليه الإسكندر قائلاً: "ما اسمك أيها المواطن القادم من ليشيا؟".

"اعتاد سيدي أن يناديني أوخوس، وهو يعني اللقيط بالفارسية، لكن اسمي الحقيقي هو ريداس".

"اسمع يا ريداس. إذا كان ما أخبرتنا إياه حقيقياً، وتمكنت من إيصالنا إلى خلف خطوط الفرس، فسأجعل منك رجلاً ثرياً، وستتمكن من العيش بترف بقية أيامك، وسيكون في وسعك أن تعود إلى مسقط رأسك، وتشتري أفخر منزل يحتوي على الخدم، والنساء، والحيوانات. ستحصل على أي شيء، أي شيء تريده".

ردّ الرجل من دون أن يُبعد نظره: "سأفعل ذلك مجاناً يا مولاي. أبقاني الفرس عبداً لهم، وضربوني وعاقبوني آلاف وآلاف المرات من دون سبب. إنني مستعد للانطلاق في أي وقت تشاء".

مدّ ليوناتوس رأسه إلى الخارج قليلاً، وقال: "بدأ تساقط الثلج يخف".

قال الإسكندر: "ممتاز. دعونا نقدّم طعام العشاء الآن، وكذلك بعض الشراب إلى جميع الذين سيخرجون مع كراتيروس. تأكدوا من تقديم المغريات إلى جميع الذين يتطوعون، لأنه ينبغي لهم الانطلاق فوراً بعد الانتهاء من العشاء. أعتقد أن الفرس لن يتصوروا أننا بلغنا حداً من الجنون حتّى نعاود الكرة بهذه السرعة. أما نحن فستتبع ريداس بعد انتهاء نوبة الحراسة الأولى".

تناول الملك طعامه مع أصدقائه في خيمته، وحصلوا على الحصص ذاتها التي وزّعت على الجنود، وما لبث كل واحد منهم أن انصرف

كسي يستعد لهذه المهمة الليلية. غادر كراتيروس مع رجاله أولاً، وتبعه الإسكندر مع معظم جنوده بعد انتهاء نوبة الحراسة الأولى، كما سبق له أن أعلن.

قادهم ريداس إلى بداية الطريق، ثم صعد بهم نحو الممر من خلال غابة كثيفة الأشجار. كان الممر ضيقاً ويصعب العبور فيه، وهو الذي تشكّل عبر قرون متعاقبة، نتيجة مرور الرعاة والمسافرين الذين كانوا يبحثون عن طريق مختصرة في رحلتهم نحو بيرسيس. مرّت فترات تعرج فيها المعبر بمحاذاة المنحدرات، ولذلك اضطر الرجال إلى تغطية عيون الأحصنة لمنعها من الانزلاق بسبب الخوف. كانت الانزلاقات تسدّ هذا الممر في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى كان يصبح زلقاً بسبب الجليد، ولذلك اضطر الرجال إلى الإمساك بأيدي بعضهم، أو إلى ربط أنفسهم معاً بالحبال كي لا يسقطوا إلى الأسفل، وينتهي بهم الأمر ممزقين إرباً إرباً فوق الصخور.

تقدم المرشد إلى الأمام بخطى واثقة، وذلك بالرغم من الظلام المخيم، وكان من الواضح أنه يستطيع أن يتحرك بسهولة ولو كان معصوب العينين. وفي واقع الأمر، سقط بعض المحاربين في هوة عميقة حيث كان من المستحيل استعادة جثثهم. سار الإسكندر وراء ريداس، لكنه كثيراً ما كان يتوقف كي يساعد أولئك الذين يُجهّدون للمضيّ قدماً، كما غامر بحياته أكثر من مرة كي يُنقذ أولئك الجنود الذين كانوا في خطر.

انخفضت الحرارة أكثر قبل الفجر، وهكذا لاحظ الرجال أن التقدم قد ازداد صعوبة، كما لاحظوا أن أطرافهم متصلبة، إضافة إلى شعورهم بالتعب بعد محنة الزحف الليلي الطويل. لكن أشعة الشمس بدأت بالتسلّل من خلال الغيوم الكثيفة المتجمعة في الأفق، فتشجعوا



قليلاً لأنهم تمكنوا من تمييز الأرض المحيطة بهم، كما أن قلة النباتات حولهم جعلتهم يدركون أنهم اقتربوا من القمة.

أخيراً، وصلوا إلى القمة. وكانت الرياح قد هدأت قليلاً، لذلك أعطى الإسكندر الجنود الذين كانوا في المقدمة أوامره بالبقاء في أماكنهم إلى أن يصل سائر الجنود. بعد ذلك، انطلق الجنود في زحفٍ صامتٍ محاولين الاستفادة من الشجيرات الموجودة كي يبقوا خارج مدى رؤية الفرس، وذلك إلى أطول فترة ممكنة.

أشار الدليل بعد ذلك إلى مرتفعٍ في الأرض كان قد برز أمامهم، وهو عبارة عن نتوء صخري يمتد حتى الوادي، ثم قال: "هذا هو المكان الذي تصل فيه ترددات الصوت إلى مسافات بعيدة. ستمكن في الجهة المقابلة من هذا النتوء من رؤية السور الحصين الذي يتحكم بالوصول إلى البوابات الفارسية. وصلنا إلى مقصدنا".

تقدم بطليموس إلى الأمام وقال: "أعتقدون أن كراتيروس قد وصل فعلاً إلى الموقع المتفق عليه؟".

أجاب الإسكندر: "بالتأكيد، هذا إذا كان كل شيء قد سار بحسب الخطة المرسومة. لكن، حتى لو واجه صعوبة ما، فلا يوجد أمامنا أيّ خيارٍ آخر. اصطفوا أيها الرجال، ولينفخ أحدكم في البوق لأننا سنهاجم المواقع الفارسية".

أمر بطليموس جنوده بالتجمع في ثلاثة صفوف. فاصطفت أولاً سرية من الفرسان، ثم اصطف بعدها المشاة المسلحون تسليحاً خفيفاً إلى جانب رماة السهام وقاذفي الرماح. ووقف بعدهم مباشرة جنود قوات الصدم، وحاملو الدروع، تحت قيادة لايسيمachus. في هذا الوقت، أشار الإسكندر إلى حامل البوق، فاتخذ مركزه فوراً فوق النتوء الصخري الممتد حتى الوادي. تردد صوت البوق بحدةٍ تماثل صياح

الديك محترقاً هواء الفجر الساكن. سُمع الصدى على الفور، وما لبث أن تردد مراراً عبر التلال المتواجدة في الوادي حتى تلاشى أخيراً عبر مساحات الثلج مترامية الأطراف، وناصعة البياض.

خَيِّمت فترة من الصمت على الجيش المتجمّع، وبدت ثقيلاً مثل السماء المكفهرة. في تلك الأثناء، أُرهِف الجميع السمع في انتظار الرد. وعلى نحو مفاجئ، وصل نفير بوق آخر إلى أسماعهم، ثم تبعه نفير آخر، وازدادت قوة الصوت كثيراً بفعل الصدى، وسرعان ما سمعت أصوات المحاربين المندفعين في هجومهم.

صاح الإسكندر: "أطلق كراتيروس الأغرانيين! إلى الأمام يا رجال! دعونا نريهم كيف صمدنا في وجه البرد!"

امتطى الإسكندر صهوة جواده وتمركز في وسط سرّيته، ثم سار نحو التواء الذي يُشرف على مواقع الحامية الفارسية، بينما تبعه جنود المشاة بسرعة كبيرة، وذلك كي لا يفقدوا أثره. قاد الإسكندر الهجوم ما إن ظهرت أمامهم المواقع الفارسية، ثم أطلق صيحة الحرب.

انطلق نفير الأبواق في وقت واحد، وانطلق كل جنود المشاة وقد جهّزوا أسلحتهم، بينما أسرع الفرسان بجيادهم كي يشتبكوا مع العدو الذي وجد نفسه في هذا الوقت مضطراً إلى توزيع قواته على جبهتين. هاجم فرسان الإسكندر من فوق الخندق الذي يحمي الحامية، وما لبث المشاة أن ساروا خلفهم على الفور وشاغلوا المدافعين بمعركة شرسة وجهاً لوجه.

أدرك الفرس بسرعة حقيقة الورطة التي وقعوا فيها، فأطلقوا إنذارهم، لكنهم اضطروا في سياق ردّهم على الهجوم إلى ترك أجزاء من أعلى الأسوار من دون تغطية، وهكذا تمكّن الأغرانيون من تسلقها مستخدمين خناجرهم التي ثبتوها في الشقوق الظاهرة على الجدران،

وهي الشقوق التي كانوا يحشرون أنفسهم فيها عندما يرميهم الأعداء بالأحجار أو يصبون نحوهم سهامهم. لم يطل الأمر قبل وصول أول الأغريانيين إلى الأعلى. وكان بعضهم قد شاغلوا الفرس، بينما ساعد بعضهم الآخر رفاقهم على تسلق الجدار بسهولة أكبر عندما رموا الحبال نحوهم. تمكن المقدونيون وحلفاؤهم من النيل من العدو بالرغم من قلة أعدادهم، وربما يعود ذلك إلى أن الفرس فوجئوا بهم. إذ كانوا نائمين وغير مسلحين.

وبالكاد تمكن آريوبارزانيس من الخروج من مقره حاملاً سيفه بيده، لكنه وجد نفسه على الفور محاطاً بمجموعة من الفرسان المقدونيين الذين هدّدوه بأسنة رماحهم، فأجبر الرجل على إعطاء الأمر بالاستسلام التام، ثم جلس يراقب بعجز جيش الإسكندر الذي زحف عبر المعبر الذي تحرّر الآن، والذي كان من المفترض أن يحمي بيرسيبوليس، وهكذا أصبحت المدينة تحت رحمة العدو.

انتظر الإسكندر حتى انتهى بقية الجنود من الصعود، ثم أصدر إليهم الأوامر كي يبدأوا بالنزول نحو بيرسيس. استدعى الإسكندر قبل بداية التحرك ذلك الراعي من ليشيا الذي قاد جيشه نحو المعبر المحصّن.

قال له: "كانت مساعدتك لنا حاسمة، ولقد ساعدت الإسكندر على قهر إمبراطورية الفرس، وربما ساعدته على تغيير مجرى التاريخ. ولا يمكن لأحد أن يقرّر ما إذا كان ذلك أمراً حسناً أو سيئاً، لكنني ممن لك على كل حال". وكان على وشك أن يضيف: "قل لي ماذا تريد كمكافأة، وسيكون لك على الفور". لكنه تذكر ذلك الوقت الذي قال فيه هذه الجملة لديوجينيس، ذلك الفيلسوف العجوز، عندما كان مستلقياً وهو عار وسط ضوء الشمس الغاربة، ولذلك أنهى كلامه بالقول ببساطة: "شكراً لك يا صديقي".

فاضت عينا الراعي بالدموع وهو يشاهد الملك يمتطي صهوة جواده ويتحرك نحو أسفل التلة، لكنه انتبه عندما سمع صوتاً آخر وراءه. كان ذلك صوت إيومينيس الذي قال له: "أبلغني الملك أنه يمكنك الحصول على أي شيء تريده، أي كما وعدك، وما عليك إلا أن تخبرني به".

أجاب ريداس: "كنت سأرغب في مرافقته لو كنت أصغر سناً، وذلك كي أرى ما سيحدث لاحقاً. ولكن، يتعيّن عليّ الآن أن أفكر في حياتي كرجل مسن. إنني أريد إعادة شراء الحقل الذي كان لوالدي،

والمنزّل الذي وُلدت فيه، وهو يقع على الشاطئ. لم أرَ البحر منذ وقت طويل جداً...".

"ستراه مجدداً أيها الراعي، وستسترجع بيتك وحقلك. وستقدر أيضاً على تكوين أسرة إذا أردتَ ذلك. أما إذا أنجبتَ أطفالاً وأصبح لديك أحفاد، فستروي لهم كيف أنك ذات ليلة قُدتَ الإسكندر لتحقيق قدره. أما إذا لم يصدقوك، فباستطاعتك أن تريهم هذه".

"ما هذه؟"

وضع إيومينيس قلادةً صغيرةً في يد رايداس قائلاً: "إنها نجمة الأُرغادين الذهبية. إن أصدقاء الملك المقربين هم وحدهم الذين يمتلكون مثلها".

أعطاه إيومينيس كذلك حافظة وثائق جلدية وقال له: "هنا في هذه الحافظة رسالة من الملك إلى حاكم ليشيا يأمره فيها بأن يعطيك كل شيء تريده. إنَّ هذه الرسالة قيّمة، وقيمتها تفوق أي مبلغ من الذهب أو الفضة. تأكّد من عدم ضياع هذه الرسالة. وداعاً أيها الراعي، وحظاً طيباً".

\*

وفي الأمسية التالية، نزلوا إلى سفوح الجبال، وسرعان ما اكتشفوا أن مرتفعات بيرسيس تمتد أمامهم، كما امتد النهر بمحاذاة خطوط طويلة من أشجار الحور. وكانت هناك العديد من القرى التي تشتمل على منازل مشيدة بأحجار طينية خشنة.

وصل الجيش إلى الطريق الملكية على ضفاف نهر آراكسيس. وأقام الإسكندر معسكراً كي ينتظر بارمينيون مع بقية الجيش. ولكن، لم يكد الخدم يفرغون من تقديم طعام العشاء حتى تقدم أحد جنود الهيتايروي من الحرس الملكي كي يعلن عن قدوم أحد الزوار. قال الحارس:

"مولاي، هناك رجل يرغب في التحدث إليك، وقال إنه عبر النهر على متن أحد القوارب، ويبدو بأنه على عجلة من أمره".  
"إذاً، دعه يدخل".

قدّم الجندي رجلاً يرتدي ملابسه على الطريقة الفارسية، وكان سرواله مربوطاً فوق كاحليه، بينما وضع كوفيةً حول رأسه وعنقه.  
سأله الإسكندر: "من أنت؟".

"جئت بالنيابة عن المرزبان أبيوليت، أمر الحصن في بيرسيبوليس. وهو يقول إنه مستعد لتسليم المدينة إليك، كما طلب إليّ أن أقول لك إنك تستطيع الانطلاق فوراً، هذا إذا كنت تريد العثور على خزانة الملك العظيم سليمة. أما إذا أضعت المزيد من الوقت، فإن الكفة قد تميل لصالح الذين يدعون إلى الدفاع عن المدينة حتى النهاية. ويطلب آخرون بتخينة الخزانة من أجل تمويل عودة الملك داريوس. ماذا تريدني أن أقول لسيدي؟".

فكّر الإسكندر للحظات قليلة، ثم أجاب: "قل له إنني سأصل مع فرساني إلى مشارف بيرسيبوليس في غضون يومين، وعند مغيب الشمس".  
ثم رافق بعض الجنود الرجل حتى وصل إلى قاربه. وعلى الفور، استدعى الملك دياديس من لاريسا؛ رئيس مهندسي الجيش.

وقال له قبل أن يتمكن الرجل من الجلوس: "أحتاج إلى جسرٍ يُبنى فوق آراكسيس حيث يكون جاهزاً مساءً غد".

اعتاد دياديس أن يطلب منه الإسكندر طلبات مستحيلة، تُلزمه بإنجاز بعض الأشياء في أوقات قياسية، ولذلك لم يرمش له جفن وهو يطرح السؤال: "وكم تريد أن يكون عرضه؟".

"أريد أن يكون بأقصى عرضٍ يمكنك صنعه... سيتعين علينا تسهيل عبور الفرسان النهر بأقصى ما نستطيع".

"أتكفي خمسة كيوييت؟".

"بل عشرة".

"إذاً، سيكون عرض عشرة كيوييت".

"أعتقد أنك ستنجح في صنعه؟".

"هل سبق لي أن خذلتك يا مولاي؟".

"كلا".

"لكن، سيتعين عليّ أن أبدأ العمل على الفور".

"كما تريد. يمكنك إصدار الأوامر إلى أي شخص، وحتى القادة.

إنني أعطيك سلطة كاملة لتفعل ذلك".

غادر ديداييس، وما لبث أن جمع عشر فرق من الرجال، وأعطاهم  
فؤوساً، ومناشير، وأسلاكاً، وسلالم، كما أعطاهم بغالاً وخيولاً، ثم  
أرسلهم كي يقطعوا أشجار التنوب من غابة مجاورة. قام الرجال  
بتنظيف بعض جذوع الأشجار، وشحذوا أطرافها حتى أصبحت حادة،  
ثم تمت تقسيتهما بالنيران، بينما قُطعت جذوع أخرى على شكل ألواح.  
عمل ثلاثمئة رجل طيلة الليل، وعند طلوع الفجر حيث جُمعت كل  
المواد اللازمة فوق ضفة النهر، وصارت جاهزة للجمع.

استعمل ديداييس الجذوع ذات الأطراف الحادة، وبدأ في إدخالها  
في مجرى النهر بمساعدة مطارق كبيرة، وحرص على إدخال جذعين في  
كل مرة حيث يبعد الواحد عن الآخر مسافة عشرة كيوييت. رُبِطت  
هذه الجذوع بالطول وبالعرض بواسطة ألواح سبق تثبيت المسامير فيها.  
وعند ذلك، تكوّن هيكل جانبي، ومنصة أفقية تصلح للعبور. تقدم  
بناء الجسر جزءاً تلو الآخر حتى وصل إلى وسط النهر حيث جرت  
تقوية الدعائم بأحجار كبيرة، وهو الأمر الذي ساعد على التخفيف من  
قوة تيار المياه.

وبحلول المساء، أمر الإسكندر جيشه بالاصطفاف بتشكيلات قتالية، وانتظر إلى أن انتهى تثبيت آخر لوح على الدعائم، ثم انطلق بجواده بوسيفلاس بسرعة كبيرة، وما لبث رفاقه أن تبعوه، مع أربع سرايا من الهيتايروي، وسار المشاة وراءهم بقيادة كراتيروس.

سار الجيش طيلة الليل ولم يتوقف للحصول على قسط من الراحة إلا بحلول نوبة الحراسة الثالثة؛ أي قبل شروق الشمس. شعر الإسكندر بإفهامك شديد بعد أحداث الأيام القليلة الماضية، وبسبب الليالي التي أمضاها من دون أن ينام، لذلك سرعان ما استسلم لنوم عميق. تسبب هواء المرتفعات الخفيف، والنسيم الشرقي اللطيف، بالإضافة إلى غابات الجبال الظليلة وأشجار القيقب، في جعل الجنود يشعرون بالطمأنينة والهدوء التام. وراحت الجياد ترعى بكل حرية على ضفاف الجدول الذي كانت مياهه العذبة والنظيفة تجري بين أشجار الصفصاف والشجيرات الأخرى. راح بوسيفلاس يتنقل بين هذه الأشجار، بينما تبعه بيريتاس الذي راح يداعب الجياد فيعض عراقيبها. ولم يبدُ في الأجواء ما يشير إلى ما سيحدث لاحقاً.

توجهت إحدى دوريات الكشافة نحو الغرب، أي في اتجاه الطريق الملكية كي تتأكد من عدم تعرّض الجيش للمفاجآت في ذلك الاتجاه. ولم يستطع أفراد الدورية تصديق أعينهم عندما رأوا صفّاً طويلاً من الرجال الذين كانوا يتحركون قدماً باتجاههم، فيما راياتهم الحمراء ترفرف في الهواء. كان ذلك جيش بارمينيون!

هرع أفراد الدورية نحوهم، وعرفوا عن أنفسهم، وقال قائد الدورية للضابط المسؤول في صف الجيش المتقدم: "أنا يوثيديموس قائد الفرقة الثامنة من سرية فرسان الهيتايروي. خذني إلى القائد بارمينيون".



"إنَّ القائد بارمينيون موجود في نهاية الصف مع حرس مؤخر الجيش، وذلك بسبب حدوث بعض المناوشات مع الفرسان الميديين في المرتفعات. سأستدعي القائد كلايتوس كي يتحدث إليك".

وصل الأسود بعد وقت قصير. وكانت الغيوم قد حجبت الشمس بشكلٍ متزايد، حيث بدا الأسود وكأنه إثيوبي. سأل القائد: "ماذا وراءك أيها القائد؟ أين أنتم؟".

"تمكنا أيها القائد من اختراق البوابات الفارسية، ونحن على بعد أقل من عشرين ستاديا من هنا. لم نتم منذ ليلتين، ولكن ما إن ترتفع الشمس في الأفق حتى نكون جاهزين للانطلاق نحو بيرسيبوليس. يمكنكم متابعة مسيرتكم بسرعتكم هذه، بينما سنمضي نحن بأسرع ما يمكننا. إنني متأكد من أن الملك سيشرح لك كل شيء عندما يحين الوقت المناسب".

أجاب الأسود: "حسناً. أوصل تحياتي إلى الملك، وقل له إننا لم نواجه متاعب خطيرة. سأخبر القائد بارمينيون أنني التقيتك، لكن، هل ابنه فيلوتاس بخير؟".

"إنه في حالة جيدة، كما شارك في المعركة عند المعبر من دون أن يُصاب بأي أذى". ثم استدار على صهوة جواده، وما لبث أن تراجع عائداً مع جنوده.

كانت الفرقة على استعداد للتحرك خلف الإسكندر الذي كان فوق صهوة بوسيفالاس، وكان على وشك إعطاء إشارة الانطلاق. في تلك اللحظة بالذات، أشرقت الشمس فأضفت صبغةً زهرية اللون على قمم جبال عيلام التي برزت واضحة من بين أشجار الغابات خضراء اللون في الأسفل، وكذلك بين حشائش الحقول الصفراء التي تنتشر فوق تلك الهضبة على مدّ النظر. في ذلك الوقت، كانت قوافل الجمال

تمرّ بأحمالها، فيما ظهر فلاحون على ظهور حميرهم في طريقهم إلى السوق. وكانوا يجرون معهم عربات صغيرة محملة بكل أنواع السلع المتواضعة. كذلك ظهرت النساء اللواتي ارتدين ملابس زاهية الألوان، واللواتي كن في طريقهن إلى الجدول للحصول على المياه، بينما كانت الأخرى في طريق عودتهن منه وهن يحملن على رؤوسهن بشكل متوازن أوعية مليئة بالمياه. كان يوماً عادياً مثل أي يوم آخر، ولكنه في المقابل كان اليوم الذي ستلقى فيه أقوى إمبراطورية في العالم ضربة في الصميم.

تردد صوت البوق في الأجواء، وما لبثت السرايا أن انطلقت مسرعة في الطريق، متسببة بتكوين ستارة كثيفة من الغبار. كانت المناظر حولهم تتغير كثيراً مع تقدّمهم، ليس فقط تلك المتعلقة بالمظاهر المحسوسة مثل الأحرار كثيفة الأشجار، والبساتين والحدائق، ولكن تلك المتعلقة بسلوك المواطنين كذلك. كانت أبواب المنازل تُغلق عندما كان الجنود يمرون وهم على صهوات جيادهم، أما الطرقات فكانت تفرغ من الناس، وكذلك كانت الأسواق تفرغ من الناس بشكلٍ مفاجئ. فاستنتج الجنود أن أخبار ذلك الفاتح اليوناني، والتي امتزجت بالأساطير، لا بد من أنها قد وصلت إلى الناس هنا.

فجأة، رأى الملك منظرًا مقلقاً عند الظهرية تقريباً، وذلك بينما كان على رأس جيشه المتقدم. كان كل من هيفاستيون وبطليموس يقف إلى أحد جانبيه. كانت مجموعة من الأشخاص العرج تتقدم نحوهم عبر الطريق، وكان الجميع يلبسون ثياباً رثة ويلوحون بأيديهم، بينما لوّح بعضهم بما تبقى من يديه، وكأنهم أرادوا لفت انتباه الملك.

سأل الملك إيومينيس الذي كان خلفه: "لكن، من يكون هؤلاء

الناس؟".

اقترب الأمين العام أكثر كي يتمكن من رؤية هؤلاء الناس بطريقة أفضل، ثم قال: "ليس لديّ أدنى فكرة عنهم، لكننا سنعرف عما قريب".

ترجل إيومينيس عن صهوة جواده، ثم تقدم ماشياً نحو هؤلاء المساكين. وأيقن لدى اقترابه منهم أن عددهم أكبر مما ظنّ سابقاً. وترجل الإسكندر بدوره، وبدأ بالسير نحوهم، لكنه لاحظ أن إحساسه العميق بالكرب يزداد كلما اقترب منهم. سمعهم عندما اقترب يتكلمون مع إيومينيس باللغة الإغريقية.

تابع السير نحوهم فلاحظ أنهم يحملون أشبع التشوهات. فبعضهم قُطعت يداه الاثنان، وبعضهم الآخر قُطعت له ساق أو اثنان، بينما لم يخسر آخرون أطرافهم فقط، بل كانت جلودهم تحمل ندوباً عميقة، وهي الندوب التي تماثل تلك التي يُصاب بها شخصٌ صبّ فوقه سائل في حالة غليان.

شرح أحد هؤلاء المساكين ما حصل له عندما لاحظ أن الإسكندر يحدّق إلى جسمه المشوه: "كان ذلك زيتاً".  
سأله الملك: "من أنت؟".

"اسمي هيراتوستين من ميثون يا صاحبي. كنت جندياً في الوحدة الثالثة التابعة للكتيبة الثامنة. أنا من إسبارطة".  
"إسبارطة؟ لكن... كم عمرك؟".

"عمري ثمانية وخمسون عاماً يا صاحبي. أسرني الفرس خلال الحملة الثانية التي شنّها الملك أجيسيلوس عندما كنت في السابعة والعشرين من عمري. قطعوا قدميّ لأهم يعرفون أن المحارب الإسبارطي لن يقبل أبداً فكرة كونه أسيراً لأنه يفضل أن يموت".  
هزّ إيومينيس رأسه قائلاً له: "تغيّرت الأحوال يا صديقي".

"بالرغم من ذلك، حاولت الانتحار، فرمى عليّ سيدي زيتاً يغلي. وبعد ذلك، استسلمت لقدرتي وتقبلت فكرة الأسر، لكن عندما سمعت أن الإسكندر في طريقه إلى...".

قال شخص آخر ملوحاً بما تبقى من يديه المقطوعتين بعد أن قطع ساعده تحت المرفق مباشرة: "نشرنا الخبر حتى يستطيع الجميع الحضور للقاءه".

سأله الملك بصوت مرتعشٍ من فرط الغضب والانفعال: "لكن، لماذا فعلوا بك ذلك؟".

"كنت أخدم في الجيش الأثيني في أثناء حرب المرزبانات، وكنت مجذفاً في كريسي، وهي سفينة حربية ضخمة وجميلة، وكانت خارجة لتوها من حوض السفن. وقعنا في كمين، وأخذت أسيراً. وقالوا لي إنني لن أتمكن من التجديف في سفينة أثينية بعد الآن".

شاهد الإسكندر رجلاً آخر ذا محجرين فارغين وجافين، وكأتهما موجودان في جمجمة، فسأله: "ماذا حدث معك؟".

"قطعوا جفوني، وغطوا عينيّ بالعسل، ثم ربطوني بالأرض قرب جحر نمل. خدمت في البحرية الأثينية أنا أيضاً. ولذلك أرادوا أن يعرفوا محباً بقية الأسطول، لكنني رفضت إخبارهم و...".

تقدم آخرون كذلك، وعرضوا التشوهات التي تعرضوا لها، وتحدثوا عن مآسيهم. كانت شعور رؤوسهم قد اشتعلت شيئاً، وبعضهم سلّخت فروات رؤوسهم، بينما أتى الجرب على أيديهم.

تكلم الإسبارطي مجدداً: "قل لنا، يا صاحبي، أين يمكننا العثور على الإسكندر كي نعلن ولاءنا له، وكي نشكره على تحريرنا. إن الموجودين هنا يمثلون شهادة حية على الأثمن التي دفعها الإغريق عبر السنين في المعركة ضد البرابرة".

أجاب الملك وقد شحُب وجهه غضباً: "أنا الإسكندر، وقد أتيت  
كي أنتقم من الفرس بسبب الجريمة التي ارتكبت بحقكم".

استدار الإسكندر ونادى رفاقه بصوتٍ عالٍ: "بطليموس! هيفاستيون! بيرديكاس!".

"نحن جاهزون يا مولاي!".

"حاصروا القصر الملكي، والخزنة الملكية، ودار الحریم، وتأكدوا من أن أحداً لن يجرؤ على الدخول إلى تلك الأماكن".

فانطلق الرجال بسرعة نحو وحداتهم بعد أن قالوا: "كما تريد".

"ليوناتوس، لايسيمachus، فيلوتاس، سلوقس!".

"نحن جاهزون يا مولاي!".

أشار الإسكندر إلى المدينة العظيمة التي برزت أمامهم فوق التلة ملونة بالألوان الذهبية والبرونزية اللامعة تحت أشعة الشمس، ثم قال: "قودوا الجيش إلى داخل المدينة. بيرسيبوليس لكم. افعلوا بها ما شئتم!".

ثم التفت الملك نحو الهيتايروي الذين كانوا ينتظرون فوق صهوات جيادهم، وقال لهم: "هل فهتم ما قلته للتو؟ بيرسيبوليس لكم! ماذا تنتظرون؟ خذوها!".

سُمت صرخة عظيمة من سرايا الفرسان قبل أن ينطلقوا بسرعة نحو العاصمة التي كانت تستعد في تلك اللحظة لفتح أبوابها لهم. قتل الجنود في طريقهم مجموعة من الموفدين الذين أرسلهم أبيوليت لاستقبالهم، وما لبثوا أن اندفعوا بكل الغضب الذي يتميز به قطعاً من الثيران البرية إلى داخل أغنى وأعظم مدينة في العالم.

لم يأت إيومينيس بأي حركة، لكنه نظر إلى الإسكندر مندهشاً، وقال: "بحق الأسياد، لا يمكنك إعطاء أوامر كهذه! قل لهم أن يعودوا. قل لهم أن يعودوا قبل أن يفوت الأوان. لا يمكنك أن تفعل هذا". اقترَب كاليستين وقال: "بالطبع يستطيع ذلك. ومع الأسف، لقد أصدر أوامره وانتهى الأمر".

تراجعت مجموعة اليونانيين المشوهين الذين كانوا قد جاءوا للقائهم، وفعلوا ذلك وهم يشعرون ببعض الارتباك، وكأنهم أدركوا أنهم تسببوا، من دون قصدٍ منهم، بحدوث كارثة إنسانيةٍ فظيعة. رأى الملك مدى اضطرابهم فأوماً إلى إيومينيس.

"قل لهم إن كل واحدٍ منهم سيحصل على ثلاثة آلاف قطعة فضية، وسيحظى كل شخصٍ يريد الرجوع إلى عائلته ووطنه بنقلٍ آمن. أما إذا فضلوا أن يبقوا هنا، فسيحصلون على مسكن، وخدم، وأراضٍ واسعةٍ وماشية. قم بهذه الترتيبات كلها".

مرّر الأمين العام الأوامر الخاصة بتنفيذ هذه الترتيبات. ولكن، صعبٌ عليه التفكير بينما كان يتكلم، إذ وصلت إلى أذنيه أصوات النهب والصرخات اليائسة التي أطلقها سكان المدينة الذين أصبحوا تحت رحمة الجنود.

في هذا الوقت، وصلت وحدات المشاة، فركض الجنود بدورهم نحو بوابات المدينة، وهم قلقون من أن يكونوا قد تأخروا عن أعمال النهب. وفي تلك الأثناء، وصل بعض المبعوثين إلى جيش بارمينيون الذي كان على بعد مسافة قليلة، وأخبروه أن الملك قد ترك العاصمة تحت رحمة الجنود الذين كانوا ينهبونها. وقالوا له كذلك إن الفوضى قد حلّت مكان الانضباط عندما ترك الجنود وحداتهم متوجهين نحو بيرسيبوليس التي كانت تتصاعد منها أعمدة الدخان وألسنة اللهب.

نخس بارمينيون جواده، وسار به بأقصى سرعة متبوعاً بالأسود ونيرخوس، وتوجه نحو الإسكندر الذي كان ممتطياً صهوة بوسيفالاس. وحين وصلوا، كان الملك مستغرقاً في تأمل المجزرة من فوق تلة، وهو ساكن مثل تمثال من الحجر.

قفز القائد العجوز إلى الأرض، وبدا وجهه مليئاً بأمارات التوتر وقال: "لماذا يا مولاي؟ لماذا؟ لماذا تقوم بتدمير ما أصبح ملكك بالفعل؟".

لم يستدر الإسكندر كي ينظر إليه، لكن بارمينيون تمكن من رؤية سكون الموت والدمار في عينه اليسرى. فنظر كاليستين إلى بارمينيون وتمتم بعد أن تأكد من أن الإسكندر لا يسمعه: "لا تطرح المزيد من الأسئلة أيها القائد. أنا متأكد من أن والدته أوليميا منشغلة الآن بتقديم أضحية دامية في مكان سري، وهي تُمسك بزمام روحه تماماً. آه، ليت أرسطو موجود هنا كي يعالج هذا الكابوس!".

هزّ بارمينيون رأسه، وحدّق إلى الأسود ونيرخوس بملامح تتمّ عن الدهشة، وما لبث أن امتطى صهوة جواده وسار به بعيداً.

لم يتحرك الملك إلا عند مغيب الشمس. وبدا وكأنه استيقظ من نوم عميق. فامتطى صهوة بوسيفالاس، ودخل المدينة من إحدى بواباتها. كانت المدينة سابقاً واحدة من أجمل الأماكن في العالم وأكثرها فنة، ومثال التناسق التام بحسب المثل الإحمينية. أمّا الآن، فقد صارت تحت رحمة قطع من البرابرة الثملين، أي الأغريانيين الذين لم يتورعوا عن اغتصاب الفتيات والأولاد الذين انتزعوهم من بين أيدي أهاليهم. وشارك التراقيون في هذه الفوضى بعد أن ملأوا أجوافهم بالشراب وغطت الدماء وجوههم، فحملوا الرؤوس المقطوعة للمحاربين الفرس الذين حاولوا المقاومة. لم يكن المقدونيون، والتيساليون، وجنود



الاحتياط اليونانيون أقل وحشية. فلقد ركضوا مثل المجانين بعد أن حملوا الأغراض التي نهبوها؛ كما حملوا أوعية مليئة بالأحجار الكريمة الثمينة، والشمعانات الرائعة، والملابس الفاخرة، ودروعاً موشاةً بالذهب والفضة. وبين الحين والآخر، كانوا يلتقون رفاقاً لهم لم يوفقوا مثلهم في النهب، ولذلك حدثت مواجهات وسط الشوارع التي سالت فيها الدماء وجُرحت فيها الأعناق. نسي الجميع إنسانيتهم، وسعوا إلى الحصول على نساء جميلات كان غيرهم قد حصلوا عليهن، كما عمدوا إلى أخذهن بالقوة، وكانوا يتناوبون على اغتصابهن فوق أرضٍ مشبعة بدماء أقرباء الضحايا.

سار الملك على صهوة بوسيفالاس وسط تلك الصرخات والدماء، ووسط كل تلك الأهوال، من دون أن تظهر أي علامة من علامات التأثر على وجهه. بدا وكأن ليسيوبوس قد نحتته من رخام بارد. بدا أن أذنيه لا تسمعان صرخات الأطفال الرضع التي تُدمي القلوب عند سحبه من أحضان أمهاتهم، ولا صرخات النساء اللواتي يستغثن بأولادهن وبناتهن وهن يبكين فوق جثث أزواجهن المشوهة الذين ذُبجوا من دون رحمة خارج منازلهم. بدا الأمر وكأن الإسكندر لا يسمع سوى وقع حوافر بوسيفالاس على حجارة الطريق.

حدّق الإسكندر إلى الأمام مباشرة، وركّز عينيه على الاتساع اللامتناهي للقصر الملكي؛ الأبادانا، الذي تحيط به حدائق رائعة تضم أشجار سرو عالية، وأشجار حور فضية الأوراق، وأشجاراً تميل إلى اللون الأحمر بسبب أشعة الشمس الغاربة. حدّق إلى الردهات الرائعة بأعمدتها العملاقة المزخرفة برسومات الثيران المنحثة، وطيور العنقاء، وصور الملك العظيم الذي بنى هذه التحفة وزخرفها. أما الإسكندر، ذلك اليوناني الصغير، وسيد مملكة صغيرة من الفلاحين والرعاة، والذي

كان تابعاً ذات يوم لسيادة دولة أخرى، فقد أتى الآن من مكان بعيد كي يخرق قلب تلك المملكة العملاقة التي باتت محتضرةً عند قدميه.

صعد الإسكندر درج القصر الضخم على صهوة حصانه. وهناك، رأى على الجدران الحجرية رسومات تمثل مواكب الملوك ورؤساء وفود تابعيهم وهم يحملون الهدايا المناسبة لاحتفال رأس السنة. ورأى أشخاصاً من الميديين، والكاسانيين، والأيونيين، والهنود، والإثيوبيين، والأشوريين، والبابليين، والمصريين، والليبيين، والفينيقيين، والباكتريين، والجدروسانيين، والكرمانيين، والداهيين وهم مجموعة من سكان شعوب عدة تتقدم بهدوء نحو الستارة الذهبية التي ترتفع فوق عرش داريوس: الملك، وملك الملوك، ونور الآرين، وسيّد جهات الأرض الأربع.

وصل الإسكندر إلى العرش الذي أصبح أمامه تماماً. صنّع العرش من خشب الأرز العطر، ومن العاج، وكان مزيناً بالأحجار الكريمة الثمينة، بينما جمّله طيران من طيور العنقاء اللذان كانت عيونهما من الياقوت. برز رسم الملك داريوس الأول على جدارٍ خلفي. وظهر الملك عملاقاً ومرتبدياً إحدى العباءات التي كان يرتديها في المناسبات الرسمية، كما كان منشغلاً في قتال وحشٍ مجنح، وهو أهريمان؛ سيّد الشر والظلمات.

كانت القاعة العظيمة فارغة وساكنة، لكنّ أصوات أمواج محيطٍ من الحزن كانت تتردد بقسوة خارج جدرانها. فلقد تحوّل جنود فيليب الشجعان والمخلصون إلى قطيعٍ من الوحوش التي راحت تتقاتل على ما بقي من الطرائد المرمية في الشوارع، وهم يصرخون بشتائمهم من أفواههم التي تفوح منها روائح نتنّة، كما أشعلوا النيران في الحدائق والقصور، ودمروا هياكل أهورا مازدا.

ترجّل الإسكندر عن صهوة جواده، وتحرك نحو العرش، ثم صعد الدرج، وجلس متكئاً على مسندي اليدين المصقولين. استرخى قليلاً، وأسند ظهره، ثم تنهد بعمق. وفجأة، ظهرت خيالات أشخاص عند المدخل، وسمع وقع خطوات مسرعة وقلقة.

فسأل الإسكندر من دون أن يتحرك: "من هناك؟".

تردد صوت يقول: "إنه نحن يا مولاي!". كان ذلك صوت أحد العبيد اليونانيين الذين جاءوا كي يلتقوه بينما كان في طريقه إلى بيرسيبوليس.

"ماذا تريدون؟".

لم يجب الرجل، لكنه تنحى جانباً مفسحاً المجال لاثنتين من مرافقيه بالدخول. وكانا يحملان رجلاً عجوزاً يبدو عليه الوهن الشديد.

قال العبد اليوناني: "اسمه ليوكاريس. إنه واحد من العشرة آلاف الذين كتب عنهم زينوفون، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة منهم. أعتقد أنه يبلغ الآن التسعين من عمره تقريباً. أمضى الرجل اثنتين وسبعين سنة في الأسر والعبودية".

جهّد الإسكندر كي يخفي تأثره، لكنه سأله: "ماذا تريد أيها الرجل العجوز. ماذا أستطيع أن أفعل لواحد من أبطال العشرة آلاف".

همس الرجل شيئاً لم يستطع الملك سماعه.

"إنه لا يريد شيئاً. يقول إن كل أولئك اليونانيين الذين ماتوا قبل هذا اليوم قد فاتهم أعظم شعور على الإطلاق. فقد فاتتهم رؤيتك جالساً على هذا العرش. ويقول كذلك إنه الآن يستطيع أن يموت كرجل سعيد".

كان العجوز متأثراً جداً، وفاضت الدموع من عينيه على خديه الغائرين، ولم يتمكّن من قول المزيد، لكن تعابير وجهه رسمت أكثر من ألف كلمة.

أوما الإسكندر، واستمر في التحديق إليه وكأنه غير مصدق، بينما ساعده مرافقوه على المغادرة. بعد ذلك، نزل الملك عن عرشه وسار نحو بوسيفالاس الذي كان ينتظره في الردهة. ولكن ما إن أمسك بعنانه حتى رأى محارباً فارسياً. بدا الفارس وكأنه خارجٌ من حلم، وكان مرتدياً زياً رائعاً مثل ذلك الذي يرتديه أفراد فرقة الخالدين، وكان ممتطياً صهوة حصان ذي سرجٍ ذهبي يميل لونه إلى الحمرة. وبدا وكأنه ينظر إلى الإسكندر.

أمسك الإسكندر بمقبض سيفه، ولكنه لم يتحرك. في تلك اللحظة، اهتزت السماء بصاعقة تُعمي العيون، تبعها على الفور صوت رعد اهتزت له أرجاء القصر بأكمله.

تعرف الإسكندر إلى هذا العضو من فرقة الخالدين في اللحظة وعي نادرة. فقد كان هذا المحارب ذاته الذي أنقذه ذات يوم من مخالب الأسد، وهو الفارسي ذاته الذي أنقذه الإسكندر من موتٍ محقق في ميدان المعركة في إيسوس.

نحس الرجل حصانه وتقدم خطواتٍ قليلة إلى الأمام، ثم بصق على الأرض أمام الإسكندر واستدار، ثم نحس حصانه بكعبي قدميه مجدداً قبل أن ينطلق بأقصى سرعة في باحة القصر الواسعة والخالية.

"أسّسها الملك داريوس الأول - داريوس الكبير - في قلب بيرسيس. وكان من المقدّر لها أن تكون أروع عاصمة في كل العصور. عمل على بنائها خمسون ألف شخص يتمون إلى خمس وثلاثين أمة مختلفة، ولمدة خمس عشرة سنة. قُطعت غابات بأكملها في جبل لبنان، واستُخدمت جذوع أشجارها في بناء السقوف والأبواب، أما الرخام والأحجار الأخرى فقد نُقلت من مختلف أنحاء الإمبراطورية، وجُلبت أحجار الفيروز الثمينة من مناجم باكتريانا، ونُقل الذهب على ظهور الجمال من نوبيا والهند. فيما جُلبت الأحجار الثمينة من جبال باروبامسيوس، ومن صحارى جيدروسيا، والفضة من إيبيريا، والنحاس من قبرص. عمل آلاف من النحاتين السوريين، واليونانيين، والمصريين على نحت الرسومات التي تشاهدونها هنا على هذه الجدران، وعلى أبواب القصر، أما صاغة الذهب فقد أضافوا زخارف بمعادن ثمينة وأحجار كريمة. واستُدعي أمهر الناسجين كي يصنعوا السجّاد، والستائر والمطرزات التي ترونها على الأرض وعلى الجدران، وعمل الرسامون الفرس والهنود على لوحات الجص. كان الملك العظيم يرغب في أن تكون هذه المدينة تعبيراً متناسقاً عن الحضارة التي تؤلف هذه الإمبراطورية اللامتناهية".

توقف كاليستين عن الكلام، وجمال بنظره بصمت فرأى أجواء الموت المفجع الذي يخيّم على هذه العاصمة العظيمة. رأى النباتات النادرة التي أُحضرت إلى الحديقة من مقاطعات بعيدة وهي تحترق الآن

مثل المشاعل، كما شاهد الأروقة المعمّدة والأبنية وقد اسودّت جميعها بفعل دخان الحرائق. نظر كذلك إلى الطرقات المليئة بالجنود المشغولين بالنهب والاعتصاب وبكل أشكال التصرفات المنفرة، وشاهد النوافير والبرك التي استمرت مياهها بإصدار صوت خرير حتى بعد أن امتلأت بالجثث، وقد تحوّل لون مياهها إلى اللون الأحمر قبل أن تسيل في الشوارع. نظر المؤرخ إلى التماثيل المتكسرة، والأعمدة، والهياكل، ثم التفت إلى إيومينيس، فرأى في عينيه الرعب والاضطراب ذاتهما اللذين يشعر بهما هو أيضاً.

تابع القراءة بنبرة الصوت ذاتها: "هذا القصر المهيب كان يُدعى قصر رأس السنة، لأن الملك العظيم كان يأتي إليه كي يحتفل بأول يوم من السنة، وفي صباح الانقلاب الصيفي كي تستقبل جبهته أول شعاع من الأشعة الصافية الآتية من الشرق، فيضيء ملامح وجهه قبل أن يعكسها، أي كأن الملك هو الشمس الجديدة.

كانت أعمال الكهنة تزداد طيلة مساء ذلك اليوم وحتى الصباح، نحو النجوم متوسلة النور للملك العظيم، لأنه كان الرمز الأرضي الحي لأهورا مازدا. إن كل شيء هنا رمزٌ إلى شيء ما، فالمدينة بكاملها رمز، وكذلك كل الرسومات والنقوش التي نراها من حولنا في هذا المبنى".

راح إيومينيس يتمتم: "إننا نحرق... رمزاً".

"إنه رمزٌ. حتى إنه أكثر من مجرد رمز. صُمّمت هذه المدينة في اليوم الذي تلى كسوفاً كلياً للشمس، وهو الكسوف الذي حدث منذ سبعين سنة وستة أشهر مضت، أي أن هذه المدينة كان القصد منها أن تكون تجسيداً لإيمان هذا الشعب، وهو الذي يفيد أن العالم لن يقع فريسة لقسوى الظلام مرةً أخرى. انظروا إلى هذا الرسم وسترون أن

الأسد يمزق ثوراً، أي أن النور يهزم الظلمة. إنه نور أهورا مازدا الذي تفيد معتقداتهم أن ملكهم تجسيد له.

عندما ينبج الفجر، ينتظر مئات من أعضاء الوفود في صمت ديني إلى أن تنتشر الأنوار الأرجوانية والذهبية عبر التلال وتغمر البساتين الواسعة. وبعد ذلك، يبدأ الموكب الكبير الذي حظي لستسياس وكتّاب يونانيون وبرابرة آخرون بفرصة مشاهدته والكتابة عنه. وتحاكي الرسومات الكثيرة التي تزين الشرفات هذا الموكب بدورها.

والآن... يشهد هذا الشعب أعمالاً فظيعة ووحشية ودموية وتدنيساً للمقدسات، وها هي النار المبحلة بالنسبة إليهم تلتهم عاصمتهم، وتحرق جثث مواطنيهم".

ردّ إيومينيس: "اقترف هؤلاء بدورهم، وفي أوج قوتهم، كل أنواع الأفعال الدموية. سبق لك أن رأيت أولئك المساكين، وسمعتهم وهم يُخبرون عن العذاب الوحشي الذي تعرّضوا له. إن أولئك الذين بنوا هذه المدينة الأعجوبة، أي الملوك العظام أمثال داريوس وزير كزيس، هم الملوك أنفسهم الذين غزوا بلادنا وهدموا مدننا وأحرقوها. وهم الذين قطعوا رأس الملك ليونيداس بعد صلبه في معبر ثيرموبايلاي، كما أحرقوا هياكلنا بعد أن دنسوها بكل الطرائق التي يتصورها إنسان".

قال له وهو يشير إلى نقوش على أحد الجدران: "بالتأكيد. لكن، أتعرف لماذا؟ انظر إلى هنا. أتعرف فحوى هذا النقش؟ أحرقت هياكل الداياوا، وهي هياكل الشياطين. هذا هو السبب. إن أسيادنا بالنسبة إليهم تجسيدٌ للشياطين، أي لسيد الشر عندهم؛ أهريمان الذي أطلق في الأرض كي يتسبب بالمآسي في هذا العالم. لقد كانوا يعتقدون أنهم يقومون بواجبهم. إن كل شعوب العالم ترى الشر في غيرها، وفي الأجناب وفي أسيادها، لذلك أحشى ألا تكون هناك نهاية لهذه الحلقة

من العنف. فلقد سبق لهم أن دمروا أكثر مظاهر حضارتنا روعة، وها نحن الآن ندمر أجمل مظاهر حضارتهم".

ثم صمت عن الكلام لأنه لم يتبقَّ عنده أيّ شيء ليقوله، وما لبثت الصرخات وأصوات النواح في المدينة التي يعتصرها الموت أن ملأت الفراغ الذي تركه صمتهما.

\*

سمعت الملكة الأم عن الخراب الذي لحق بالعاصمة بيرسيبوليس بعد ثلاثة أيام، وذلك من أحد فرسان فرقة الخالدين الذي اجتاز المعابر المغطاة بالثلوج من دون أن يتوقف أبداً. وعندما روى لها الفارس تفاصيل قليلة عن المجزرة التي تعرضت لها تلك المدينة الخالية من السلاح، وعن الدمار الذي لحق بالأعمال الفنية العظيمة أجهشت بالبكاء.

وبكى المحارب وهو يجثو أمامها، وقال لها: "أيتها الأم العظيمة. اقتليني لأنني أستحق الموت. أعرف ذلك اليوناني الصغير، وأنا مسؤولٌ عن كل شيء. كنت أنا من أنقذ حياته قبل سنين قليلة. حدث ذلك في أثناء رحلة صيد الأسود في مقدونيا. لم أفهم طريقته في إخفاء طبيعته الحقيقية والشرسة عندما أنقذ حياتي، وحررتني في ميدان المعركة التي جرت في إيسوس. حينها شكرته وأظهرت له كل امتناني، بدلاً من أن أغرز خنجري في رقبتة. انظري، هذه هي النتيجة الآن. اقتليني أيتها الوالدة العظيمة، فلعل موتي يسترضي الأسياد ويجعلها تميل إلى جانبنا فتخرجنا من ظلمة الإذلال والهزيمة".

جلست الملكة على عرشها ساكنة، وسالت دموعها على خديها بغزارة. نظرت نحوه بنظرات ملؤها التعاطف، وقالت: "انفض يا صديقي المخلص. قف، ولا تُلقِ اللوم على طبيعتك وشجاعتك. إن ما



حدث كان أمراً حتمياً. أتذكر ماذا اعتقد الليديون عندما احتل سيروس مدينة سارديس وأحرقها؟ أتعرف كذلك ماذا قال البابليون عندما غير مجرى نهر الفرات، وسيطر على العاصمة، وقيد ملكهم بالسلاسل؟ ألم نقم نحن بإحراق المدن ونهبها؟ وكم مرة أحمدنا الثورات بحمد السيف، وأحرقنا الهياكل والمعابد؟ ألم يُقدم الملك قمبيز على قتل العجل آيس في مصر، ونفذ أبشع المجازر أمام أعين ذلك الشعب؟ كما أحرق الملك زيركزيس هياكل الأكروبوليس في أثينا، وأحرق المدينة بعد أن سوّأها أرضاً. حينها، ترك جميع السكان مدينتهم، وفرّوا إلى جزيرة صغيرة، راحوا يشاهدون منها لهيب ألسنة النيران التي التهمت منازلهم، والتي ارتفعت في السماء المظلمة. لقد أخبرني الذين يدونون سجلات تاريخنا بكل هذا.

أصابنا الآن المصير ذاته، مثلما أصاب مدننا الجميلة وهياكلنا، لكن ذلك لم يحدث لأن الإسكندر شرير. إنني أعرفه، وأعرف مشاعره. أعرف مدى طبيته، ومدى اهتمامه بالآخرين. إنني متأكدة من مقدرتي على استرحامه لو كنت موجودة، ومن قدرتي على إضاعة قلبه بنور أهورا مازدا ضد ظلمة أهريمان. هل حدّقتَ إلى عينيه؟".

"أجل يا مولاتي، وشعرت بالخوف".

التزمت الملكة الأم بالصمت للحظات قليلة، وما لبثت أن رفعت رأسها وسألت: "إلى أين ستذهب الآن؟".

"أريد التوجه شمالاً إلى إيكباتانا؛ إلى الملك داريوس، لأحارب إلى جانبه، وأموت من أجله إذا كان ذلك ضرورياً. لكن، أرجوك أعطيني بركتك أيتها الملكة الأم، لأن هذه البركة ستعطيني الدفء فوق الثلج ووسط البرد القارس، وستساعدني على تحمّل الجوع والعطش، والحن والألم".

ثمّ أخفض رأسه. رفعت الملكة الأم يدها المرتعشة ووضعتها على رأسه قائلة: "إني أباركك يا ولدي. أخبرِ ولدي المتعب بأنني أدعو لأجله".

فأجابها الجندي الذي ينتمي إلى فرقة الخالدين: "سأخبره". ثم طلب منها الإذن للمغادرة، وغادر المكان.

لم يزر الإسكندر قصر داريوس قبل اليوم التالي. فلقد نهض باكراً في ذلك اليوم، وقصد القصر، وجال بنظره فيه وقد علت وجهه تعابير غريبة، وبدا كمن يستيقظ من كابوس. تحلّق رفاقه حوله بانتظام، وقد حملوا أسلحتهم، وكانوا جاهزين لتلقي أوامره. سألهم: "أين بارمينيون؟".

أجاب سلوقس: "إنه خارج المدينة، ويجلس في معسكره مع ذلك القسم من رجاله الذين لم يشاركوا في أحداث الأمس". "وأين الأسود؟".

"إنه في المعسكر كذلك. ويقول إنه متوَعك، ويطلب منك أن تعذره على غيابه".

تمتم الملك وكأنه يفكّر بينه وبين نفسه: "لقد تركاني بمفردي".

صاح هيفاستيون: "لكننا معك أيها الإسكندر!". ثم التفت نحو رفاقه قائلاً: "إننا معك مهما فعلت، وبغض النظر عما يُمكن أن يحدث. أليس هذا صحيحاً؟". أجابوا جميعاً: "بالضبط".

قال الإسكندر: "هذا يكفي الآن. أريد أن تنظموا بعض الدوريات من جنود الهجوم، وأن تسيروا في أنحاء المدينة وتذيعوا فيها ما يلي: يُطلب من كل الجنود اليونانيين، والمقدونيين، والتيساليين، والتراقيين، والأغريانيين، يُطلب منهم جميعاً ومن دون استثناء مغادرة

بيرسيبوليس، والعودة إلى المعسكرات الموجودة خارج أسوار المدينة التي لن يبقى فيها غير فرقة الطليعة، وحراسي من الجنود".

وعلى الفور، غادر رفاق الإسكندر كي ينفذوا الأوامر التي تلقوها لتوهم.

بدأ الإسكندر جولته في أنحاء القصر برفقة إيومينيس، وكاليسين، ومترجم، ومجموعة من الخصيان الذين كانوا لا يزالون مرتعنين. خرجوا من الأبادانا إلى قاعة العرش الرئيسة والأصلية، والتي كانت عبارة عن غرفة واسعة الأرجاء يبلغ عرضها أكثر من مئتي قدم ومثل ذلك في الطول. وكانت مدعومة بمئة عمود من خشب الأرز، أما جدرانها فكانت مطليةً بألوان ذهبية وأرجوانية، وفيها نقوش ورسومات جميلة، وكانت السقوف مزخرفة بالنقوش والرسومات كذلك. أما العرش، فكان مصنوعاً من الخشب ومرصعاً بالعاج، كما وضعت خلفه على الجدار مظلة ومراوح من ريش النعام يقوم بتحريكها خدم يرتدون أزياءهم الرسمية في الأيام التي يخصّصها الملك للقاءاته.

انتقلوا من هناك مباشرة إلى غرفة الخزنة الملكية، وقام أربعة خصيان بفتحها، وهم الذين يحملون مفاتيح هذه الغرفة. تحركت الأبواب البرونزية ببطء على مفصلاتها، فظهرت الغرفة الضخمة أمام سيدها الجديد. لم تحتوِ الغرفة على نوافذ مطلقاً، ومع ذلك تمكن الإسكندر من رؤية داخل الغرفة الذي كان مضاعف بفعل الضوء الداخل من الباب الذي فُتح للتو، لكن ما رآه كان كافياً لإدهاشه. إذ رأى آلاف السبائك الذهبية والفضية التي تحمل ختم ملكة الإخمينيين الذي كان عبارة عن رسم يمثل الملك داريوس الأول وهو يُطلق سهماً من قوسه. وكان ذلك الرسم نفسه يظهر على النقود المعدنية، وهي تحمل اسم دورق لهذا السبب. كانت هناك دلاء عدة مليئة بأكملها بهذه

النقود، وكانت بعض هذه الدلاء موضوعة فوق الرفوف التي تستند إلى الجدران.

أحضر الخصيان المشاعل، وما لبثت الانعكاسات المنبعثة من آلاف وآلاف الأسطح المسقوفة أن لمعت خلال تحركهم في شبه الظلمة المخيمة على الغرفة.

سار الملك، وإيومينيس، وكالستين في الغرفة فتزايدت دهشتهم مع كل خطوة يخطونها. إذ لم يقتصر الأمر على وجود النقود المعدنية والسبائك، بل وجدوا كذلك منطقة مخصصة لحفظ الأشياء الثمينة، وهي الموجودات التي تجمعت خلال ما يزيد على مئتي سنة من الفتوحات والسيطرة على منطقة تمتد ما بين هَرَمِي السند وإِستَر. وجدوا مجوهرات بكميات لا تصدِّق، وصناديق مليئة بالأحجار الكريمة الثمينة من كل الأشكال والأنواع، ولآلئ بيضاء وسوداء، وقلائد كثيرة، وبرونزيات، وشمعدانات، وتمائيل صغيرة، وصور نذور من هياكل قديمة، وأسلحة من كل الأنواع بما فيها الأسلحة القتالية، وتلك التي تصلح للاستعراضات العسكرية: الرماح والسيوف، والخوذ المزينة بأروع التيجان، والخناجر ذات النصال المستقيمة والمقوسة وحتى تلك التي كانت على شكل أفعى والمزينة بالجواهر، والدروع البرونزية الموشاة بالفضة أو المطلية بالذهب، وحتى الدروع الخشبية المطعمة بالعاج والفضة، ودروع وقاية الساقين، وأعماد السيوف مع سلاسلها الذهبية بملقائها المتداخلة ومشابكها المزينة بأحجار فيروزية ومرجانية، وبلاطات مطلية بالذهب والفضة، وأقنعة من خشب الأبنوس ومن العاج، وقلائد من الذهب والفضة هندية وأشورية ومصرية، وبعضها مخصَّصة لتزيين الصدر. وبعد ذلك، شاهدوا التيجان والأكاليل التي زينت رؤوس فراعنة مصر، وطغاة الإغريق، وزعماء اللسكاثيين،

وراجات الهند، والمسؤولين الحكوميين، وقادة الجيوش، وكلها مصنوعة من الأبنوس، والعاج، والذهب، والبرونز، والفضة، والكهرمان، ومزينة بشكلٍ مدهش.

شاهد الملك وصحبه منسوجات متعددة الأنواع، بدءاً من الكتان المصري، والحريير السوري، وصولاً إلى الصوف الأيوني، والقماش الأرجواني الفينيقي. حتى إنهم رأوا أقمشة أخرى رائعة الجمال بألوانها المتنوعة والنادرة. أُحضرت هذه المنسوجات جميعها من بلاد بعيدة، وقيل لهم إنها أتت من وراء الصحاري الوسطى، ومن وراء سلسلة جبال باروبامسيوس. كما شاهدوا قطعاً من أنواعٍ أخرى من القماش من إنتاج الهند، والذي يتميز ببرودة الكتان نفسه، وبإمكانية صبغه بسهولة، ولكنه أخف من الكتان بكثير. قال أحد الخصيان: "يشبه ارتداء هذا القماش عدم ارتداء أي شيء".

كرّر الخصيّ خلال تقديمهم الجردة ذاتها بصوتٍ رتيب: "يوجد اثنا عشر دلوّاً يحتوي كل واحد منها على تالنت واحد من النقود الذهبية التي سكّها جلاله الملك داريوس الأول، وعشرين تالنتاً من السبائك الذهبية التي تحمل ختم جلاله الملك زيركزيس، ودرعٍ للصدر مصنوعة من بيت سلحفأة موشى بالعاج والمرجان، وتعود ملكيتها للراجا تاكسيلا، وغمد سيف كان ذات يوم ملكاً للملك السكيثي قربان الثاني...".

أدرك الإسكندر أن الأمر سيستغرق شهراً كاملاً إذا أراد أن يستمر في الإصغاء إلى أوصاف كل هذه العجائب، لكنه لم يتمكن، بكل بساطة، من تحويل نظره عن كل هذه الأغراض اللامعة، وعن هذه الأشياء العظيمة المدهشة، وعن أشكال هذه الحلّي الرائعة.

سأل إيومينيس فجأة: "وكم يبلغ مجموع قيمة هذه السبائك والقطع النقدية المعدنية؟".

نظر الخصي إلى الإسكندر أولاً، وكأنه ينتظر منه الإذن لتقدم الجواب. وحين حصل على إشارة تفيد أنه بإمكانه إعطاء الجواب، قال بصوت منخفض: "تبلغ قيمتها مئة وعشرين ألف تالنت".  
شُحِب وجه إيومينيس وقال: "هل قلتَ مئة وعشرين... مئة وعشرين ألف؟".

أجاب الخصي من دون اكتراث: "هذا ما قلته بالضبط".  
غادر الموكب، وسط شعورٍ عارمٍ بالدهشة من أكبر تجمعٍ للأغراض الثمينة على وجه الأرض، بينما تابع إيومينيس وهو يردّد بصوت منخفض: "لا يمكنني أن أصدّق ذلك. لا أستطيع، ببساطة، تصديق ذلك. وإذا فكّرنا في أننا قبل نحو ثلاثة أعوام فقط لم نمتلك ما يكفي من المال كي نشترى القش لجيادنا، والقمح لجنودنا...".

قال الإسكندر آمراً: "أريدك أن توزع عشرة مينايات (المينايات جزء من ستين من التالنت) على كل واحد منهم".  
"هل قلتَ عشرة مينايات لكل جندي من جنودنا؟".

"هذا ما قلته، إنهم يستحقون ذلك. سأعطي كذلك تالنتاً إضافياً للضباط، وخمسة لآميري أكبر وحدات المشاة والفرسان، وعشرة لكل قائد. دعني أعلم مجموع هذه المبالغ".

تمم إيومينيس: "سيكون لدينا أغنى جيشٍ في العالم، لكنني لا أعرف ما إذا كان سيظل أشجع جيش. هل أنت واثق من أنه الشيء الصائب؟".

"لم يسبق لي أن كنت أكثر ثقة في حياتي. وعلى كل حال، ليس أمامهم ما يكفي من الوقت لإنفاق كل ذلك المال".

"لماذا؟ هل سننطلق مجدداً؟".

"سننطلق بأسرع ما يُمكن".

لكن الجيش بقي في بيرسيبوليس لأشهر. حيث تواجد المسؤولون عن الأرشيات ومستشارو الملك، كما أن إيومينيس شرح للإسكندر أنه قبل المضي قدماً سيكون من الضروري تعزيز ما كُسب فعلاً، وتنظيم أنظمة الطرقات والاتصالات، وهي الأمور الحيوية للمؤن. سيتعين عليهم إعطاء التوجيهات إلى كل المرزبانات ومديري نواحي تلك المقاطعات التي أُخضعت، بالإضافة إلى تنظيم العلاقات مع مقدونيا، وكذلك مع الوصي أتيباتر. بحث إيومينيس كذلك عن أي وثيقة قد تشكل دليلاً على تورط البلاط الفارسي في اغتيال الملك فيليب، أو عن أي أثر للاتصالات بين الفرس والأمير إميانتاس من لينسيستس، والذي بقي خاضعاً للمراقبة بناء على أوامر الملك، وذلك بسبب الاتهامات التي طالته بخصوص التواطؤ مع داريوس عندما كان الجيش لا يزال في الأناضول. كانت نصوص الأرشيف مكتوبةً بحروف مسماوية، ونظراً إلى ندرة المترجمين الماهرين، فقد كان العمل المتعلق بدراسة الأرشيف بعناية سيستغرق سنين عديدة.

تغير سلوك الجنود بشكل كبير، كما توقع إيومينيس، بسبب توافر المال بين أيديهم وبسبب الحمول. يُضاف إلى ذلك أن رفاق الإسكندر أنفسهم سكنوا في أجمل قصور في المدينة وذلك بعد تنظيفها وترميمها، أي أنهم عاشوا مثل الملوك. واستمر الملك في دعوتهم إلى مشاركته النزعات على صهوات الأحصنة، كما نظم لهم مباريات رياضية كي يُقيهم في حالة جسدية مقبولة. شارك أصدقاء الملك بهذه المباريات على مضض، ولأنهم يريدون أن يبقوه سعيداً. ولكن، ما إن يبدأون باللعب حتى يلاحظوا أنهم يستمتعون كما كان يحصل عندما كانوا أولاداً.

في تلك الأيام، ترددت الصرخات والضحكات في أرجاء الأروقة المعمدة كما كان الأمر في قصر بيلا قبل سنوات عديدة.



وفي إحدى المرات، صاح الإسكندر: "مرّوا إليّ الكرة! مرروا إليّ الكرة!".

أجاب بطليموس صائحاً بصوتٍ أعلى: "لقد أضعتها في آخر مرة قذفتها باتجاهك!".

صاح ليوناتوس: "اقذفها بدلاً من الثرثرة هكذا. هل أنت نائم أم ماذا؟".

كان إيومينيس أول من يطلب فترة استراحة على الدوام، لأنه لا يتمتّع بثقافة المقاتل ولا تدريبه. وفي ذلك اليوم، قال: "كفى أيها الشبان، يكاد قلبي ينفجر".

فقال له كراتيروس، وهو الأمهر بينهم والأسرع: "عن أي قلبٍ تتحدث؟ أنت تمتلك كتباً مكان القلب!".

وتدريجياً، بدأت لحظات الاسترخاء تقل وتباعد. وكان جو من الشعور بالنفوذ والسلطة والثروة يعود مجدداً ليخيّم فوق الجميع ما إن تنتهي اللعبة.

ذات يوم، أراد إيومينيس أن يتحدث إلى الإسكندر بمفرده، فقصده في جناحه الخاص في القصر الإمبراطوري.

بدأ بالكلام: "تزداد الأحوال سوءاً مع مرور كل يوم".

"ماذا تعني؟".

"أعني أن الجنود قد تغيّروا جميعاً. إذ يمتلك بطليموس فتيات أحضرن من أجله من بلاد بعيدة، أما ليوناتوس فهو لا يتمرن على المصارعة إلا إذا أحضرت له أفضل الرمال الليبية، وهو ينتظر وصولها على ظهور الجمال. وأوصى لايسيماخوس على مبولة مصنوعة من الذهب وموشاة بالجواهر الثمينة. هل توافق على هذا الأمر؟ أما سلوقس فلديه امرأة تهتم بأحذيته، وأخرى تمشط له شعره، وأخرى

تعطره، وأخرى... حسناً، دعنا نتوقف عند هذا الحد. أما بالنسبة إلى بيرديكاس...".

فسأل الإسكندر بارتيا ب: "وبيرديكاس كذلك؟".

"أجل، وحتى بيرديكاس. لقد أمر بصنع شراشف أرجوانية لسريه. أما فيلوتاس، فقد كان مغروراً ومتعجرفاً على الدوام، وأصبح أسوأ الآن، وتفيد الشائعات بأنه...".

فقاطعه الملك عند هذا الحد، وصاح به: "كفى! استدع منادياً على الفور!".

"ماذا تنوي أن تفعل؟".

"هل سمعتني؟ قلت لك استدع منادياً!".

فغادر إيومينيس وما لبث أن عاد بعد وقتٍ قصيرٍ مصطحباً معه أحد الجنود.

قال الملك للجندي: "ستنطلق من دون تأخير إلى منازل كلِّ من بطليموس، وبيرديكاس، وكراتيروس، وليوناتوس، ولايسيماخوس، وهيفاستيون، وسلوقس، وفيلوتاس. قل لكل منهم أن يأتي ليراني على الفور".

خرج الجندي راکضاً، وقفز على صهوة حصانه، وانطلق من أجل تبليغ رفاق الملك الرسالة. لم يكن بعضهم في منازلهم فترك لهم الرسالة مع الخدم. ولم يخبر الخدم بمضمون رسالة الملك فقط بل أعطاهم فكرة عن مزاجه كذلك، وهكذا انطلق الخدم يبحثون عن مخدوميهم.

قال ليوناتوس لبيرديكاس وهما يصعدان الدرج معاً: "لا بدّ من أنّها لعبة أخرى".

"أشك في ذلك. هل سبق له أن استخدم جندياً من جنود الهجوم كي يدعو الناس إلى مباراة؟".

قال لايسيماخوس الذي ظهر في تلك اللحظة بالذات: "أفترض بأننا سننتقل لنحارب مجدداً".

قال سلوقس الذي وصل مسرعاً: "لنحارب؟ في أيّ حرب؟".  
التفاهم إيومينيس جميعاً في غرفة الانتظار بوجهٍ خالٍ من التعابير،  
واكتفى بالقول: "إنه هناك".  
سأله بطليموس: "ألن تدخل معنا؟".

فقال لهم حين فتح الباب وأدخلهم، وقبل أن يغلقه وراءهم: "أنا؟ كلا... إن هذا الاجتماع لا يتعلّق بي". وما إن أغلق الباب، حتى اتخذ إيومينيس مركزه قربه ليتمكن من استراق السمع. وعلى الفور، بدأ الإسكندر بالصراخ بصوتٍ عالٍ إلى درجة أن إيومينيس اضطر إلى إبعاد أذنه عن القفل.

صاح الإسكندر: "أغطية سرير أرجوانية! ومباول من الذهب الخالص! ورمال للمصارعة من ليبيا! لا توجد رمال هنا بالطبع، صحيح؟ أو ربما ليست ناعمة بما يكفي لتناسب ظهرك الحساس؟".  
وكشّر الإسكندر عندما اقترب من ليوناتوس. "أنتم مجموعة من البلهاء الجبناء! أو هكذا أصبحتم على الأقل! أتظنون بأنني أحضرتكم إلى هنا كي أراكم تنتهون إلى هذه الحال؟".

حاول بطليموس تهدئته قليلاً فقال: "إسكندر اسمعني...".  
"بأي حقّ تتكلم؟ سمعت أنك جلبت بنات هوى من شتى أنحاء العالم! أتيت بكم إلى هذه البلاد البعيدة كي تغيّروا العالم، وليس كي تفسدوا أنفسكم بحياة الترف. أم لعلنا بدأنا هذه الحرب فقط كي نعيش مثل أولئك الذين هزمناهم؟ هل هذا هو السبب الذي زحفنا من أجله كل هذه المسافات، وعانينا من الحرارة والبرد، ومن الجوع وكل أنواع الحن؟ ألسنا بهذه الطريقة ندّعي مستوانا ليصبح بمستوى أولئك

الذين هزمناهم؟ ألا تفهمون أن هذا هو بالضبط سبب خسارة الفرس؟  
ألا تعرفون أنهم عاشوا بالطريقة ذاتها التي تعيشون بها الآن؟".  
بدأ بيرديكاس بالكلام: "إذاً، في هذه الحال لماذا..."، وكان  
سُيُكْمَل لو لم يقاطعه الملك: "تركت كل الحكام الفرس في مناصبهم  
السابقة؟".

"اصمتوا! ستمكتون بدءاً من الغد في المعسكر تحت الخيش كما  
كنتم تفعلون سابقاً. وسيعتني كل واحد منكم بنظافة حصانه، وسيلمع  
دروعه. ستأتون معي بعد يومين في رحلة لصيد الأسود في أعالي الجبال.  
أما إذا هوجمتم حتى الموت فسيكون ذلك بسبب زيادة أوزانكم التي  
منعتكم من الحركة، وعندها لن أحرك ساكناً لإنقاذكم. أتفهمون؟".  
صاحوا جميعاً: "فهمنا يا مولاي!".

"إذاً، اخرجوا من هنا، جميعاً!".

أسرع كل واحد منهم نحو الباب، ثم نزل الدرج بسرعة  
واختفى. في تلك اللحظة، وصل المنادي وقال إنه عجز عن العثور على  
فيلوتاس، وأنه ترك له رسالة. فأوماً إيومينيس وكان على وشك المغادرة  
بعد الرفاق عندما ناداه الإسكندر.

فقال وهو يدخل إلى غرفة الإسكندر مجدداً: "أجل، يا مولاي؟".  
قال الملك على الفور: "لم يكن فيلوتاس حاضراً هنا".  
"لم يستطع الجندي العثور عليه. أترغب في أن يستمر في البحث  
عنه؟".

"كلا، لا يهم. إنني متأكد من أنه سيسمع بما جرى هنا على كل  
حال". وسأله بعد ذلك: "وأنت، ماذا فعلت بالذهب الذي تسلمته؟".  
"إنني أعيش براحة تامة. ولكن من دون إسراف. إنني أدخر ما  
تبقى لشيخوختي".

ردّ الإسكندر: "حسناً تفعل. لا يعرف أحدٌ منا ماذا سيحدث له. ولكن، إذا وجدت نفسي يوماً في حاجة إلى قرضٍ ما، فسأعرف إلى من ألتجئ".

"أيمكنني الانصراف الآن؟".

"أجل بالطبع". توجه إيومينيس نحو الباب، لكن الإسكندر ما لبث أن ناداه مجدداً: "لحظةً واحدةً فقط".

"هل من مشكلة؟".

"ذلك الأمر الذي أصدرته. إنه ينطبق عليك كذلك".  
"أي أمر؟".

"الأمر المتعلق بالنوم في المعسكر تحت خيم الخيش".  
ردّ إيومينيس بحدة قبل أن يغادر: "بالطبع".

\*

مرّت أيام عدة قبل أن يستدعي الإسكندر إيومينيس كي يقول له إنهم عندما يبدأون بالزحف شمالاً في آخر الأمر، فإنه ينوي تحويل كل خزانة بيرسيبوليس إلى إيكباتانا. دُهِش إيومينيس من هذا القرار الذي بدا من دون فائدة، ومن دون معنى. ولكن، كان من الواضح أن الملك ليس على استعداد لتغيير قراره بأي طريقة.

استغرقت هذه العملية أسبوعين على الأقل، وتطلبت قافلة من خمسمئة زوجٍ من البغال، وعشرة آلاف جمل، وذلك بسبب كون النقل بالعربات عبر الطرقات الجبلية في ميديا أمراً مستحيلاً تقريباً.

لم يتمكن إيومينيس من فهم أسباب اتخاذ هذا القرار، واعتبره غريباً ومترافقاً مع مخاطر كثيرة. ولكن، في كل مرة كان يحاول فيها الحصول على تفسيرٍ من الإسكندر كان يحصل على ردودٍ غامضة ومراوغة. وفي النهاية، توقف عن السؤال لكنه بقي يشعر بالانزعاج

وسيطرت عليه الهواجس، كما شعر بأن ما يجري نذير شؤم، وينذر  
باقتراب حدوث أمرٍ خطر.

خضع الرفاق للأوامر لبعض الوقت وعاشوا في المعسكر، لكن هيفاستيون طلب أن يُسمح له بالعودة إلى القصر لأنه يريد أن يكون قرب الإسكندر. أما الملك فقد احتار في أمره، ولم يرفض طلب صديقه. ولم يتمكن الإسكندر من رفض مطالب الآخرين؛ ولا سيما بعد أن تنازل أمام صديقه، وذلك بعد تقديم كل واحد منهم عذراً مختلفاً للعودة إلى مكان إقامته في المدينة. وأقسم الجميع على أن يعيشوا حياة بسيطة تتسم بالاعتقاد. في هذا الوقت، كان فصل الربيع قد شارف على الانتهاء، وبدأت جروح المدينة الخطيرة بالاندمال ببطء. ولكن، اتضح أن بيرسيبوليس لن تعود كما كانت في السابق. وأفادت الأخبار الآتية من المقاطعات الشمالية من الإمبراطورية، والتي كانت لا تزال حرة، بأن داريوس يجمع جيشاً آخر وأنه أصبح مستعداً للصمود في جبال القوقاز، وفي بحر قزوين. ولذلك، قرّر الإسكندر أن الوقت قد حان للتحرك. فنظّم الملك حفلاً وأقام مأدبة كي يعلن انتهاء فترة الراحة. أما الاحتفالات فقد تبين أنها من النوع الذي لا يُنسى.

كانت كل غرف ذلك القصر المهيب مضاءةً بمئة مشعل، أما الطهارة الملكيون فقد بدأوا بالعمل على تحضير أشهى الأطباق، كما تم اختيار أكثر الخصيان وسامة وأكثر الفتيات جمالاً كي يقدموا أصناف الطعام على المائدة. ارتدى هؤلاء ملابسهم التي كانت على الطراز اليوناني. ووُضعت في وسط قاعة الطعام آنية كبيرة من الذهب الخالص جُلبت من الخزانة الإمبراطورية، استُخدمت كإناء وضع فيه

الشراب والمشروبات المعطرة التي أُضيفت إليها التوابل حسب وصفات شرقية.

وكذلك وُضعت على المائدة أكواب من الذهب والفضة مأخوذة من المجموعة الملكية. كما وُضعت آنية مليئة بالزهور والزنابق التي قُطفت من حدائق القصر، وهي الحدائق الوحيدة التي نجت في المدينة بأكملها.

بدأ الحفل بعد مغيب الشمس مباشرة. لكن إيومينيس أدرك أن هيفاستيون قد سُميَ زعيم الاحتفال، وأنه استناداً إلى هذه الصفة أعلن بأنه يتعين تقديم الشراب على الطريقة التراقية، أي من دون تخفيف.

سأل كاليستين عندما ظهر فجأة وراء إيومينيس: "ألن تحتفل معنا؟".

أجاب إيومينيس: "لستُ جائعاً. كما أن واجبي يدعوني إلى الإشراف على كل شيء كي أتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام".

"أم أنك تفضل أن تبقى صاحبياً حرصاً على استمتاعك بما سيحصل؟".

"وماذا سيحصل؟".

"حسناً... لا أعرف. ولكن لا بد من أن يحدث شيء ما. إن هذه المادة تخلو من أي معنى. لقد وصلتُ لتوي من البوابة الغربية وأنا أعتقد أن كون القصر مضاًً أمرٌ يناقض الخراب والظلمة السائدة في أنحاء المدينة. لقد مضت أشهر على وجودنا هنا، لكن الإسكندر لم يأمر بعد بإعادة بناء منزل واحد".

"لكنه لم يمنع أحداً من البناء".

"هذا صحيح، لكنه لم يفعل أي شيء لمنع النبلاء وأصحاب الأراضي من المغادرة. بقي الفقراء فقط، مما يعني أن المدينة قد حكم عليها بالموت. أما المدينة...".



رفع إيومينيس يده وكأنه يريد طرد رؤية أشبه بكابوس. "لا أريد أن أسمع أي شيء عنها".

سأل كاليستين في محاولة منه لتغيير الموضوع: "أين بارمينيون؟".  
"ليس هنا".

"أتصور أن ذلك لا يعني أي شيء بالنسبة إليك. وأين هو الأسود؟".  
"لم أره هنا".

"هذا صحيح بالضبط. وعلى كل حال، لا أعتقد أنه كان على لائحة المدعويين. لكن، انظر من حضر للتو".

التفت إيومينيس فرأى تاييس تأتي عبر الممر. كانت المرأة الأثينية الجميلة تمشي حافية القدمين، ومرتدية رداءً فاضحاً، يشبه ذلك الذي ارتدته عندما رقصت أمام الملك لأول مرة.

قال كاليستين: "أعتقد أنها كانت مع الملك، وأنا لا أعتقد بأن هذا أمر حسن".

أجاب إيومينيس: "إنني أوافقك الرأي. لكن، ليس من المحتم أن تسير الأمور نحو الأسوأ".

لم يعلق كاليستين بشيء، وانطلق نحو الباب الذي يحمل اسم زيركزيس، والذي يؤدي إلى آخر الرواق المعمد. وهناك تمكّن من رؤية المقابر المحفورة في سفح الجبل الذي يرتفع قبالة القصر، ولاحظ أنها مضاءة بمشاعل نذور من أجل أشرف الإخمينيين. لاحظ كاليستين وجود قبر لم ينته بناؤه بعد، وهو المخصص لداريوس الثالث. ومن داخل القصر، تصاعدت أصوات الصرخات والضحكات الصادرة عن المحتفلين، والتي ازدادت صخباً مع استمرار الحفل.

وعلى نحو مفاجئ، سُمعت الموسيقى التي طغت على الضجيج الصادر عن المحتفلين. وكانت موسيقى إيقاعية مصحوبة بأصوات

الطبول، والتي تلاءمت مع بعض أنواع الرقص الطقوسي. نظر كاليستين نحو السماء وتمتم لنفسه: "أين أنت يا أرسطو؟". في هذا الوقت، نظر إيومينيس إلى قاعة الأبادانا الكبيرة، فاستنتج أن الحفل قد بدأ يميل نحو المجون. كانت تاييس ترقص بوحشية، كما أن حركاتها ترافقت مع أصوات صنوج معدنية صغيرة معلقة بأصابعها.

\*

التفت الفتاة بعنف على نحو مفاجئ وتوقفت، وما لبثت أن وقفت على رؤوس أصابعها، ثم أنحنت نحو الأرض ببطء، وكانت تتحرك برشاقة القطة المثيرة. واستمرت الموسيقى في مرافقتها فبدت متناسقة مع تطوّر حركاتها. وعندما وقفت على قدميها ثانية، كانت تحمل ما يشبه العصا التي تحملها الحوريات. كانت العصا مغطاة بغصن لبلاب عُلق كوز صنوبر في طرفه، ثم راحت تصيح بصوت عالٍ وكأنها امرأة ممسوسة: "كوموس! (تعالوا)".

راحت تتحرك بين أعمدة القاعة مثل امرأة على أعلى درجة من الإثارة تميم بين جذوع أشجار غابة عظيمة، ثم دعت الجميع لمشاركتها في رقصها الطقوسي هذا. كان الإسكندر أول من استجاب لها، فراح يصيح بدوره: "كوموس!".

أسرع الجميع للانضمام إليه. أمسكت تاييس بيدها الأخرى مشعلاً انتزعته من حاملته على الجدار، وبدأت بقيادة ذلك الرقص الطقوسي المسعور وسط غرفة المتفرجين، والممرات، وغرف النوم في أجنحة هذا القصر الملكية المدهشة، وتبعها المحتفلون من الرجال الذين شعروا بالإثارة، ومن النساء اللواتي جهدن جميعهن لإثارة الرجال أكثر بحركاتهن المثيرة.

صاحت تاييس بعد أن اتقدت نظراتها بفعل الضوء الصادر عن  
المشعل الذي أمسكته يديها: "إن ديونيسيوس معنا الآن!".  
ردد الجميع: "أيوا!".

"يريد ديونيسيوس أن ينتقم من هؤلاء البرابرة!".  
راح كل الرجال والنساء يصرخون مجدداً وسط هذيانهم الناتج  
عن الشراب والإثارة: "أيوا!".

صاحت الفتاة مجدداً: "سنتقم لجنودنا الذين ماتوا في المعركة، ولهاكلنا  
الدمرة، ولمدننا التي احترقت!". ثم رمت، أمام عيني الإسكندر، المشعل  
الذي تمسكه بيدها على ستارة أرجوانية كانت معلقة بمحاذاة مدخل.

فصاح الإسكندر: "أجل! الانتقام!". وما لبث أن ألقى مشعلاً  
آخر تحت قطعة أثاث كبيرة مصنوعة من خشب الأرز. كان الملك  
يتصرف من دون وعي. راقب إيومينيس ما يجري، ورأى ما يدور  
حوله من دون أن يكون قادراً على فعل شيء. راح يجول ببصره بحثاً  
عن شخص يُمكنه أن يضع حداً لهذا الجنون، لكنه لم يرَ أحداً وسط  
هؤلاء الرجال والنساء الغارقين في الإثارة، والذين لم تحمل نظراتهم أي  
علامة من علامات التفكير المنطقي.

استعرت ألسنة النيران، ودوت أصوات الفرقة، فبدت الغرفة  
بسبب لهيب النار القرمزي وكأها منارة بضوء النهار. راح المحتفلون  
ينتشرون في الغرف المجاورة وكأهم ممسوسون، وراحوا يصرخون لدى  
خروجهم، وهم يحرقون كل شيء يمرّون به.

لم يطل الأمر قبل أن تغلف ألسنة النيران ذلك القصر الرائع.  
فاحترقت مئات الأعمدة المصنوعة من أرز لبنان مثل المشاعل. مسّت  
النيران السقوف، وانتشرت لتصل إلى الدعائم والعوارض التي سرعان  
ما أصدرت صوت صرير ثم انشطرت بسبب قوة الحريق.

وصلت الحرارة إلى حدٍّ لا يُطاق، فبدأ الجميع بالركض إلى الخارج نحو باحة المدخل الكبير، لكنهم تابعوا الرقص هناك، وتابعوا أداء أغنياتهم ومجوفهم. خرج إيومينيس من باب جانبي والصدمة بادية على وجهه، ورأى تاييس لدى نزوله الدرج الخارجي.

خرج الناس الذين بقوا بين خرائب بيرسيبوليس من أحيائها الفقيرة كي يشاهدوا هذه الكارثة. كان قصر الملك العظيم يتفجر في هذا الوقت، وأصبح نهباً للنيران قبل أن ينهار وسط جحيم من الشرارات، كما تصاعدت في السماء سحابة من الدخان الأسود على شكل دوامة نُجحت في حجب النجوم والقمر. نظر هؤلاء الفقراء بسكون ورعب إلى ما يجري بينما فاضت أعينهم بالدموع.

\*

في صباح اليوم التالي، كان أروع قصرٍ في كل أنحاء العالم قد تحوّل إلى كومة من الركام الذي يتصاعد منه الدخان، وبلغ عمق هذا الركام أربعة أو خمسة كيوبيتات. برزت من خلال هذا الركام الأعمدة المزخرفة ذات الرؤوس المنحوتة على شكل ثيران مجنحة. أما البوابات فقد بقيت كما هي، بالإضافة إلى المنصة وأساسات القصر والأدراج، برسوماتها التي تمثل موكب رأس السنة الكبير، وفرقة الخالدين التابعة للحرس الإمبراطوري للألفية القادمة، وقد صارت كلها شاهدة صامتة على الكارثة.

وصل الإسكندر إلى جناحه في المعسكر عندما اقترب الصبح من الانبلاج، فتهالك على سريره، واستغرق في نومٍ عميقٍ ومضطرب.

\*

وبعد وقتٍ قصيرٍ من انبلاج الفجر، جاء بارمينيون. حاول حراسٌ من جنود البيزيتاروي منعه من الدخول عندما وضعوا الرماح بشكلٍ

متصالب أمام المدخل. ولكن، من دون جدوى. إذ أطلق القائد العجوز صرخة قوية تماثل زئير الأسد وقال: "ابتعدوا عن طريقي! دعوني أمرّ. أريد أن أرى الملك!".

اقتربت لبيتين منه رافعةً يديها وكأهما تريد منعه من التقدم، لكنه دفعها جانباً، كما أسكت بيريتاس الذي كان يدمدم، وذلك بنظرة حازمة وبكلمات بسيطة: "اذهب ونم!".

قفز الإسكندر من سريره فجأة، وأمسك برأسه المتثاقل وصرخ: "من يجرؤ...".

عندها، صاح بارمينيون بصوت يماثل صوت الملك حدةً: "أنا أجرؤ...".

هدأ الإسكندر، وكان فيليب ذاته قد عاد إلى الخيمة، وانحنى أمام حوض الماء كي يضع رأسه في الماء البارد. ثم تحرك نحو زائره غير المتوقع قدومه وهو عار تماماً، وقال له: "ما المشكلة أيها القائد؟".

"لماذا فعلت ذلك؟ لماذا دمرت هذا القصر الأعجوبة؟ هل هذا ما علمك إياه أرسطو؟ هل هذا ما يسمى اعتدالاً؟ هل هذا ما يسمى احترام كل ما هو جميل ونبيل؟ لقد أظهرت نفسك أمام العالم على أنك متوحش جاهل وبدائي ومغرور ومتعال! كرّست حياتي لعائلتك، وضحيث بابني في سبيل هذه الحملة، وقدتُ جيشك في كل معاركه. فلي كل الحق في توقع الحصول على جواب منك!".

"لو تجرأ أي شخص آخر على قول هذه الأشياء التي قلتها لي أيها القائد، لكنتُ أعدمته. لكنني سأعطيك الجواب، وسأخبرك بالسبب الذي دفعني للقيام بكل ذلك. سمحت باستباحة بيرسيبوليس لأن اليونانيين سيعلمون بهذه الطريقة بأنني المنتقم الحقيقي لهم، وأنا الشخص الذي يستطيعون التوحد تحت رايته، والشخص الوحيد الذي تمكن من

وضع حدٌ لنزاعٍ استمر قروناً عدة. وقصدتُ كذلك أن تقوم شابة أثنينية بإحراق قصرِ داريوس وزير كزيس. وبما أن المدينة قد دمرت تماماً، فما هو الهدف من بقاء القصر؟ أبقيته قائماً وقتاً كافياً كي أنقل محتويات الخزانة، ووثائق الأرشيف، إلى إيكباتانا وسوسا".

"لكن...".

"إننا على وشك التحرك مجدداً يا بارمينيون كي نلاحق داريوس إلى أبعد ولايات إمبراطوريته، لذلك لو تركتُ القصر سليماً مع كنوزه، فسيكون مصدر إغراء كبيراً لأي شخص، وحتى لواحد من حكامي من المقدونيين. إذ إن بيئة القصر، بما فيه من قاعات يميّزها الترف، والمناظر المنحوتة في كل مكان، تعيد إلى الأذهان ذكريات العظمة الأخمينية. أما ذلك العرش... فإنه فارغ! كان الذهب مكديساً بكميات خيالية تحت تلك الأقبية، وهي كفيلة بجعل أي رجل الأغنى في العالم. إن نبلاء الفرس لن يتورعوا عن محاولة السيطرة عليه بأي ثمن، كما أنهم لن يتأخروا عن سفك أي كمية من الدماء في سبيل الجلوس على ذلك العرش، ولحمل الصولجان في أيديهم. كان من شأن كل هذا إشعال نيران حروب دموية واستنزافية جديدة لا نهاية لها. هل هذا ما كان يجب عليّ السماح بحدوثه؟

ليس لديّ خيار أيها القائد. ليس لديّ خيار، ألا تفهم؟ إن كنت لا تريد لطائر اللقلق أن يعود، فستعيّن عليك تدمير عشّه.

صحيحٌ أنني دمّرت إحدى عجائب الدنيا، ولكن، من سيمنعني - عندما تحين اللحظة المناسبة - من بناء قصر أكثر فخامةً وروعة؟ لقد دمّرت، بفعليّ هذه، رمزاً من رموز بلاد فارس وملوكها، وهكذا برهنتُ لليونانيين، ولبرابرة العالم بأسره، من هو السيّد الجديد لهذا العالم. برهنتُ للجميع بأن الماضي قد مات، وأنه أصبح رماداً، وأن

حقبة جديدة قد أطلت الآن. كان ذلك القصر جميلاً أيها القائد، وجميلاً جداً، ولهذا السبب كان تركه قائماً أمراً يحمل خطورة كبيرة".

طأطأ بارمينيون رأسه، وتذكّر العريضة، والرقص، ونداء ديونيسيوس، وحالة الشعور بالامتلاك التي حدثت عنها إيومينيس وكاليستين قبل وقت قصير. كان كل ذلك مخططاً له، ومعداً مسبقاً. كان العرض واقعياً جداً، لكنه كان مجرد تمثيل متقن! كان الإسكندر قادراً، حتى على تمثيل هذا الدور، كان بارعاً ومقنعاً جداً حتى أكثر من تيسالوس، ممثله المفضل. أما السبب الذي اتخذته لتبرير أعماله فقد كان منطقياً جداً من وجهة نظر سياسية وعسكرية وعقائدية. إذ يفكر ذلك الفتى الآن ويمثّل وكأنه ملك العالم بأكمله!

تناول الملك لفافةً من مكتبته، وناول بارمينيون إياها: "اقرأها، لقد وصلت البارحة. يقول لي أنتيباتر إنه ربح الحرب ضد الإسبارطيين، وإن الملك آجيس سقط في معركة ميغالوبوليس، وهكذا لم يعد في اليونان كلها من ينافسني بصفتي قائداً للتحالف الهيليني. إنني أعتبر أنني قمت بما يتوجب عمله، ووفيتُ بالوعد الذي قطعته بإلحاق الهزيمة بالعدو الذي ظلّ عدو اليونانيين لمدة قرون عديدة. إن تدمير القصر يمثّل هذه الحقيقة كذلك، ولذلك، فإن كل ما يشغل بالي هو تتبّع ما قُدّر لي".

قرأ بارمينيون رسالة أنتيباتر مع بعض الصعوبة، لأن نظره لم يعد كما كان في السابق، لكنه فهم ما كان الملك يقوله له.

وضع الإسكندر يده على كتفه، ونظر إليه بمزيج من الإعجاب الممزوج بالمرارة والحزم العسكري، وقال له بلهجة آمرة: "حضر نفسك أيها القائد، واجمع جيشك، وافرض أقصى قدرٍ من الانضباط. إننا على وشك الانطلاق مجدداً".

بدأ الجيش بالتحرك عند نهاية فصل الربيع تقريباً وتوجّه شمالاً، ثمّ صعد باتجاه وسط المرتفعات حيث كانت الصحراء إلى يمينهم، وجبال عيلام المغطاة بالثلوج إلى يسارهم. ساروا على أربع مراحل مسافة تبلغ عشرين فرسخاً، وعندما وصلوا إلى باسارجاداي، وهي العاصمة القديمة لسيروس الكبير مؤسس السلالة الأخمينية، كان المساء قد حل. كانت هذه المدينة صغيرة، ومعظم سكانها من الرعاة والفلاحين، وتبرز في وسطها أول حديقة رائعة تم تشييدها في الأراضي الجميلة التي تحيط بقصر سيروس القديم. تكفل نظام معقد للري بجلب المياه من سفوح التلال، وهو النظام الذي أبقى كل النباتات خضراء ويانعة، بما فيها الحشائش، والورود، وأشجار الشربين، والتمر الهندي، والقندول العطر، وأشجار السرو والعرعر.

ظهر في الجهة الغربية من المدينة قبر المؤسس. كان قبراً مفرطاً في بساطته، ويشبه خيمةً رباعية الزوايا من الجلود مع سطحين منحدرين، وهو بناءً يشبه تلك الأبنية التي يشيدها بدو السهول، وهم أجداد الفرس منذ أربعة قرون. كان هذا الشعب تابعاً في الماضي للميديين، وما لبث بعد ذلك أن سيطر على مناطق شاسعة بعد قهرها. وُضع هذا البناء البسيط فوق منصة مدهشة ذات درجات سبع فبدا مثل أحد الأبراج التي بناها شعب ما بين النهرين، وكان محاطاً بأعمدة تحيط بحديقة من أشجار السرو التي بدت مقلّمة بعناية وكأنها تلقى العناية اللازمة.



أما القبر ذاته، فكانت مجموعة من الجحوس تتولى مهمة الاهتمام به، بالإضافة إلى رجل دين كان يترأس كل يوم احتفالات تقام لتكريم الملك العظيم. أخاف اقتراب الإسكندر السكان، لأنهم سمعوا بما فعله في مدينة بيرسيوليس، لكن الملك أسرع إلى تبديد مخاوفهم. وقال لهم: "ما جرى قد جرى، ولن يحدث مجدداً. دعوني أرى هذا النصب، أرجوكم. لا أريد سوى تقديم التكرم لذكرى سيروس".

فتح رجل الدين الباب الذي يؤدي إلى الغرفة الداخلية، وسمح للملك الشاب بالدخول. نظر الملك حوله صامتاً. كان شعاع الشمس يتسلل من خلال الباب، ويضيء جوانب المدفن غير المنقوشة بعناية، والتي لم تحمل سوى نقش واحد:

أنا سيروس، ملك الفرس

لا تلتحقوا الأذى بقبري هذا

تدلت على أحد المشابك في الأسفل دروع ذلك الفاتح العظيم، والتي شملت صفائح حديدية مثلت دروع الصدر، وخوذة بشكل كوز، ودرعاً مستديرة، وسيفاً من الحديد الخالص ذا مقبض من العاج، وهو الشيء الوحيد القيم بين كل الموجودات.

خيم صمت عميق على الهضبة بأكملها، وكان الصوت الوحيد المسموع هو صفير الرياح التي هبت على ذلك القبر المنعزل والمهيّب. وفي تلك اللحظة، خيم على الإسكندر شعور حادّ بطبيعة قدر الإنسان العدمية. فلقد كبرت إمبراطوريات وانهارت كي تفسح في المجال أمام إمبراطوريات غيرها لتصبح عظيمة وقوية بدورها، ولتتلاشى في هاوية النسيان بعد ذلك. هل الخلود مجرد حلم؟ فجأة، شعر الإسكندر بوجود والدته، وكان وجوداً قوياً حيث أحسّ بأنه قادرٌ على لمسها، وأن كل ما كان يتطلبه الأمر هو أن يمدّ يده نحو

الجدار المظلم لذلك المدفن. تخيل أنه سمع صوتها قائلةً له: "لن تموت، أيها الإسكندر...".

فاستدار، ثم خرج إلى الفسحة في أعلى الدرج، وتنفس الهواء الجاف والمنعش فوق تلك الهضبة العظيمة، وأحسّ بأنه مغمورٌ بأنوار هي أصفى ما يكون عليه النور. وعندما نظر إلى الأسفل كي يبدأ بالنزول، رأى أريستاندر بانتظاره.

سأله: "ماذا تفعل هنا يا أريستاندر؟".  
"سمعتُ صوتاً".

"وأنا كذلك. كان صوت والدتي".

قال له أريستاندر محذراً: "انتبه أيها الإسكندر. تذكر ماذا حدث مع أخيل". ثم تحرك مبتعداً، والريح تتلاعب بردائه الذي رفرف مثل علم. في اليوم التالي، عبر الجيش منطقة أخضعها، وهي المنطقة التي تسكنها قبيلة كانت تابعةً في الماضي لسلطة الملك العظيم. لكن، عندما وصل الجيش إلى مسافة أبعد، وبدأ يتوغل صعوداً نحو المرتفعات التابعة للميديين، وصلت الإسكندر رسالة من إيمولبوس من سولوي جاء فيها:

الملك داريوس موجود في إيكباتانا، وهو يحاول تجميع جيش من اللسكاثيين والقادوشيين، وهو يدفع لهم من خزينة القصر الملكي. أرسل داريوس الحريم شرقاً عبر بوابات بحر قزوين. يتحتم عليك الوصول إلى المدينة بأسرع وقت ممكن، وإلا ستضطر إلى خوض معركة قاسية نتائجها غير مضمونة أبداً. تذكر أن اللسكاثيين والقادوشيين فرسان لا يصيبهم التعب، وهم خصومٌ مرعبون حقاً. إنهم لا يهاجمون وجهاً لوجه أبداً، لكنهم يشنون هجمات اختراقية، ويستخدمون تقنيات خادعة، ويشتون أعداءهم، ويتعبونهم بهجماتهم وانسحاباتهم المتتالية. تذكر أن اللسكاثيين قد هزموا سيروس وداريوس العظيم.

وما إن قرأ الإسكندر الرسالة حتى قرر الانطلاق على الفور مع الفرسان والمشاة بعد أن تأكد من جهوزية الجنود للقتال. أوكل الملك إلى بارمينيون، الذي كان على رأس ثلاث كتائب من البيزيتاروي، وكتيبة واحدة من المشاة التراقيين والترياليين المسلحين تسليحاً خفيفاً، مهمة العناية بقافلة المؤن ومحتويات الخزانة بكاملها. إذ لم تبقَ الآن سوى عاصمة واحدة تنتظر دخوله إليها.

بدأ الجنود بصعود الطريق الجبلية بخطى سريعة، وتحركوا بمحاذاة الوديان والأنهار عندما كان ذلك ممكناً، وهو الأمر الذي سهّل مرورهم. كان المنظر يزداد إثارةً بسبب الألوان القوية، أما التنوعات الجبلية الصخرية فكانت بلون الإسفلت الأسود، بينما التمعت القمم المكسوة بالثلج تحت الشمس وكأنها ياقوت. برزت الصحراء في الأسفل بلونها الذهبي، وهي التي بدأت بالظهور من البعيد، وبدت كذلك بقعاً من الأشجار الخضراء تناثرت هنا وهناك وكأنها جزر. كانت هذه واحات تعمر بالقرى والفلاحين والرعاة. تناثرت قرى أخرى على جوانب الوديان، وهي القرى القريبة من الينابيع والجداول والسواقي التي تفيض بأعذب المياه. خرج الناس من بيوتهم عند مرور الجيش في قراهم كي يلقوا نظرة على هؤلاء الأجانب الذين يتهادون على صهوات جيادهم من دون أن يرتدوا سراويل، وقد اعتمروا قبعاتٍ عريضة الأطراف.

برزت هنا وهناك أبراج حجرية كبيرة فوق مساحاتٍ من سهول هذه الهضبة. كانت تلك أبراج الصمت التي يضع فوقها سكان تلك البلاد جثث أمواتهم كي تتحلل عناصرها، وتعود إلى الطبيعة، وهكذا لا تلوث التربة ولا النار. فكّر الإسكندر في بارسين الراقدة في رابيةٍ ترايبية في صحراء غواجميلا. وفكّر كذلك في فرآت الشاب الذي عاد إلى

بامفيليا مع جدّه الذي كان آخر من بقي من أسرته على قيد الحياة. تساءل عما يدور في خلد ذلك الفتى المراهق في تلك اللحظة. هل يحلم؟ هل يفكر في الانتقام؟ أم أنه غارق في لجة الحزن الذي يغلف كل يتيم؟ استغرق الزحف عشرة أيام من المسير بمحاذاة الوديان التي كانت تضيق شيئاً فشيئاً، وذلك قبل أن تظهر روعة إيكباتانا، وهي المدينة المحاطة بتاج من الجبال المكّلة بالثلوج ووادٍ أخضر. أما الأطراف العليا للأسوار وأسيحتها فقد كانت مزخرفة بالبلاط الأزرق وبماء الذهب، فلمعت مثل قلادة تحيط بوجهة ملكة، بينما كانت أبراج القصور وأسطحها مغلفةً بالذهب الخالص ولذلك كانت تلمع بشدة. تذكّر الإسكندر حديثه إلى ضيفه الفارسي في قصر بيلا، وكان هذه المحادثة جرت قبل يوم واحد. بدا وصف هذه القصور بالنسبة إلى الفتى الذي بدأ يكبر وكأنه رواية خيالية. في ذلك اليوم نظر إلى عيني الرجل السوداوين والعميقتين، وتفحص لحيته الكثة السوداء، وكذلك تفحص سيفه المصنوع من الذهب الخالص، والذي كان يستخدمه في المناسبات، فبدا له الرجل وكأنه كائن غير حقيقي، أو أنه مبعوثٌ ما من عالم الروايات. أما الآن فقد مثلت تلك المدينة الأسطورية أمام عينيه.

كان برفقته أوكسهاتري، وهو ابن مازايوس حاكم بابل، وابن خال الملك من جهة أمه، وهو شابٌ فتىٌ وطموح يتحرق شوقاً كي يثبت جدارته لسيد البلاد الجديد. ونخس أوكسهاتري حصانه، ثم اقترب من الأسوار، وتبادل كلمات قليلة مع الحراس. وبعد ذلك، التفت إلى الإسكندر كي يُبلغه بلغته اليونانية غير الواثقة، لكن المفهومة: "رحل داريوس. إنه لا يعتزم مقاتلتك، لذلك فرّ مع الخزنة والجيش." "وأى اتجاه سلك؟"

أجاب الشاب وهو يشير إلى جهة الشمال: "سلك ذلك الاتجاه، كما أن المرزبان يرغب في تسليم المدينة".

أوما الإسكندر، وأعطى إشارته للجيش كي يتبعه نحو بوابات المدينة التي كانت تفتح أبوابها في تلك اللحظة. تبعه الجنود بنظام تام، لأن الانضباط الصارم فرض مجدداً، وكانت أبسط الخروقات تواجه بالسوط أو حتى أسوأ من ذلك.

وصل بارمينيون مع جنوده وقافلته بعد يومين وعند حلول المساء، لكن عملية دخوله المدينة، وتفريغ حمولة القافلة والمغادرة من الجهة الأخرى، استغرقت خمسة أيام بلياليها. حملت الحيوانات البالغ عددها عشرين ألفاً حمولة بلغت مئة وعشرين ألف تالنت من الخزنة الملكية، أي أن الواحد منها حمل ما معدله سبعة تالنتات، وهو حمل رهيب تسبب في إبطاء مسيرة الزحف كثيراً.

دعا الإسكندر القائد العجوز كي يتناول العشاء معه، وذلك مع انتهاء هذه المهمة، وانتهاء عملية نصب خيم معسكر الجنود خارج المدينة. كانت وجبة خفيفة جداً، وحتى إنها كانت متقشفة. ولم يوضع شراب على الطاولة غير الماء. راح بارمينيون يفكر في سره وهو يقضم قطعة خبز فارسية كانت قد خُبزت فوق الجمار، في أنه يحتمل أن الإسكندر يعاقب نفسه على إفراطه في الشرب في بيرسيبوليس.

بدأ الإسكندر بالكلام: "ماذا لديك من أخبار عن ابن عمي الأمير إمينتاس؟ إنني أتساءل إذا كان بإمكانك الوثوق به الآن، أم إنه يجدر بي أن أبقيه مراقباً".

"ألم تظهر أي وثيقة في الأرشيف الملكي؟".

"سيسغرق تفحص الأرشيف الملكي أشهراً عدة، هذا إذا لم نقل أعواماً. لم يجد إيومينيس بحسب علمي أي شيء يتعلق باغتيال والدي،

أو أي شيء يتعلق بالتواطؤ المحتمل بين إمينتاس وداريوس. على كل حال، أعتقد أنه يجدر بنا التدقيق في هذه السجلات، وإبقاء المراقبة في الوقت ذاته".

ارتشف الإسكندر جرعة ماء، ثم استأنف الكلام بعد أن غير الموضوع: "أنا آسف لأن وجهتي نظرنا لم تلتقيا على الدوام...".  
"لطالما أبلغتكم بما أفكر فيه يا مولاي، أي مثلما كنت أفعل مع والدك تماماً".

قال الإسكندر بينما كان الطاهي يقدم الفاصولياء، والخضار، وأكواباً من الحليب المتخثر الذي يتميز بمذاقه الحامض: "أعرف، لكنني أريدك أن تصغي إليّ الآن. أرغب في ملاحقة داريوس حتى أجده، وسأجبره على خوض المعركة الأخيرة الفاصلة، وستكون الإمبراطورية برمتها ملك أيدينا.

ولأحقق هدي هذا أحتاج إلى شخصٍ ما هنا في إيكباتانا، وسيقوم هذا الشخص بحماية ظهر الجيش، وضمان التواصل مع مقدونيا بما في ذلك وصول المؤن، والتعزيزات... إلى ما هنالك من أمور؛ ومن ضمنها حراسة الخزانة الملكية. أنت هو ذلك الشخص أيها القائد، لأنك الوحيد الذي يمكنني الوثوق به. أما بالنسبة إلى إدارة المدينة، فإنني أعترم أن أوكل المهمة إلى هاربالوس. إنه شخص طيّب يقدره إيومينيس كل التقدير. حسناً إذاً، ماذا تقول؟".

"إنني أفهم الوضع. لقد كبرت كثيراً، ولذلك لا تريدني أن أتواجد في ميدان المعركة، وها أنت تُخرجني من ميادين القتال لأنني كبرت في السن و...".

أجاب الإسكندر مرفقاً كلامه بابتسامة غريبة: "لقد كُبرت بالطبع أيها القائد". لكنه كاد يصيح عندما أكمل كلامه: "وخاصة

بالنظر إلى أن هذا اليوم هو ذكرى ميلادك السبعين!".  
وفي هذه اللحظة بالذات، ترددت من وراء الخيمة أصوات جوقه  
صاحبة من الذكور:

انطلق الجندي العجوز إلى الحرب  
لكنه وقع على الأرض، وقع على الأرض!

واندفع كل رفاق الإسكندر، بمن فيهم فيلوتاس، وإيومينيس،  
ومساعدته هاربالوس، إلى الخيمة. حمل الرجال عرجلاً مشوياً، بالإضافة  
إلى وعاء كبير مليء بالشراب، وسيخ من الحجلان وطيرين من الدراج،  
وبعض الدجاجات والبط، وكميات كبيرة من الأطعمة من كل  
الأنواع. ودُعي إلى هذا الحفل كذلك الابن الآخر لبارمينيون، نيكاتور.  
رمى ليوناتوس بالفاصولياء والحليب المخثر على الأرض، وراح  
يصرخ: "كفانا تفاهات! دعونا نأكل. ليأكل الجميع!".

تأثر بارمينيون كثيراً عندما رأى أنهم حضروا له هذه المأدبة،  
واستدار بلباقة كي يحفف الدموع التي فاضت من عينيه. فتقدم منه  
الإسكندر حاملاً بيده لفافةً محتومة من أوراق البردي: "هذه هي هديتي  
إليك بمناسبة ذكرى ميلادك أيها القائد". وأعطاه اللفافة راسماً على  
شفتيه ابتسامة من القلب.

فتح بارمينيون اللفافة، وبدأ بقراءتها من دون صعوبة لأن محتوياتها  
كُتبت بأحرف كبيرة. أهداه الملك قصراً جميلاً في سوسا، وقصراً آخر  
في بابل، وقصراً ثالثاً في إيكباتانا. وأهداه كذلك، علاوةً على هذه  
القصور، الكثير من الأراضي الواسعة في مقدونيا، ولينسيستس، وإيوردايا،  
بالإضافة إلى معاشٍ تقاعدي لمدى الحياة يبلغ خمسمئة تالنت. وحملت  
الورقة التالية ترشيح ابنه فيلوتاس لمنصب قائد الفرسان، ووضع عليها  
الختم الملكي، وتوقيع ثانٍ باسم إيومينيس من كارديا، الأمين العام.

بدأ بارمينيون الكلام بصوت مرتعش: "مولاي، أنا..."، فأوقفه الملك بالقول: "لا تُضف أيّ كلمةٍ أخرى أيها القائد. يُعتبر كل هذا أقل مما تستحق بكثير، ونحن نأمل أن تحيا معنا كي تستمتع بها إلى أن تبلغ المئة من عمرك. أما بالنسبة إلى منصبك، فإنه أهم المناصب وأكثرها حساسية في شرق المضائق، كما أنك الشخص الوحيد الذي أثق به تماماً".

أعطى بارمينيون الورقة التي تحمل الترشيح لمنصب قائد الفرسان إلى ابنه، وقال له: "انظر إلى هذه يا بني. انظر إليها. هيا تقدّم كي تريها إلى شقيقك".

عانق الملك القائد العجوز في حين راح كل الرفاق يصفقون، وهكذا استمر الحفل في تلك الليلة. كان موعد نوبة الحراسة الثانية قد حان عندما وصل الجميع إلى أسرتهم بعد أن ثملوا جميعاً بمن فيهم بارمينيون ذاته.



أراد الإسكندر أن تكون إقامة الجيش في إيكباتانا قصيرة إلى أكبر حدٍّ ممكن لأنه أراد الانطلاق على الفور كي يلاحق داريوس. ولكن، كانت هناك أشياء كثيرة ينبغي ترتيبها، ورسائل كثيرة يجب أن تُكتب: واحدة إلى والدته التي استمرت في التذمّر بشأن طريقة معاملة أنتيباتر لها، وأخرى إلى أنتيباتر الذي ربح الحرب مع إسبارطة، لكنه كان لا يزال شديد الانتقاد لأوليمبيا، ورسائل أخرى إلى كل مرزباناته، وحكّام المناطق التي بات يسيطر عليها.

سأله إيومينيس عندما كان يختم رسالة ويلفّها: "كيف تنوي حلّ هذه المشكلة بين الوصي وبين والدتك؟ لا يمكنك الاستمرار في التظاهر بأن كل شيء على ما يرام".

"كلا، لا أستطيع الاستمرار في ذلك. لكن، يتعيّن على أنتيباتر أن يدرك أن دمةً واحدة من دموع والدتي تساوي ألف رسالة من رسائله".  
ردّ إيومينيس: "إن هذا ليس عادلاً. يحمل الوصي أكبر المسؤوليات، ولذلك، فهو يحتاج إلى راحة البال".

"إنه يمتلك زمام السلطة في يديه، أما والدتي فهي في النهاية ملكة مقدونيا، ولذلك يتعيّن عليه أن يعترف بمركزها".

هزّ إيومينيس رأسه عندما أدرك أنه لا يستطيع فعل شيء. فلقد مضت أربع سنوات، في واقع الأمر، منذ أن رأى الملك والدته، ولذلك كان من الواضح أنه لا يذكر سوى حسناتها. وكذلك اشتاق الملك إلى شقيقته كليوباترا كثيراً. ولذا، فهو كان يرسلها كثيراً.

قال الإسكندر ما إن فرغا من كتابة الرسائل: "قررت الاستغناء عن حلفائنا من الإغريق".

سأل إيومينيس: "لماذا؟".

"أصبح التحالف الهيليني تحت سيطرتنا مجدداً، كما أننا نمتلك الآن ما يكفي من المال لتجنيد أي جيشٍ قد نحتاج إليه. يُضاف إلى ذلك أن اليونانيين سيروون كل شيء شاهدوه وفعلوه حين يعودون إلى بلادهم، وهو ما سيؤثر في الناس كثيراً، وأكثر بكثير من التاريخ الذي يكتبه كاليستين".

"لكنهم جنودٌ ممتازون و...".

"لقد تعبوا يا إيومينيس، كما أن الزحف الذي ينتظرنا زحفاً طويلاً. يُحتمل أن يجلّ الوقت الذي يشعرون فيه بأنهم بعيدون جداً عن وطنهم، وربما سيتخذون عندها قراراً متسرعاً في اللحظة غير المناسبة. إنني أفضل أن أتجنب كل هذا. دعهم يخرجون من المعسكر عند حلول الفجر".

\*

أدت عوامل عدة إلى أن يدرك اليونانيون بأن أمراً مهماً قد طرأ: الساعة المبكرة من اليوم، والأمر بتحضير حقائبهم، وعربات النقل، والأمر بارتداء دروعٍ لامعة.

ظهر الإسكندر على صهوة جواده بوسيفالاس، وكان مرتدياً كل دروعه ومحاطاً بحراسه. انتظر حتى انعكست أولى أشعات الشمس على درع هوبليت المصقول قبل أن يبدأ بالكلام:

"أيها الحلفاء! إن مساهمتكم في نصرنا كانت شديدة الأهمية، بل كانت حاسمة في بعض الحالات. إننا لن ننسى أبداً أن المشاة اليونانيين في غواميلا هم الذين دافعوا عن ميمنة الجيش ضد الهجمات المستمرة

التي قام بها فرسان البيسوس والميديين. كنتم شجعاناً، وجريئين، ومخلصين لقسم ولائكم للتحالف الهيليني وقيادته العليا. حققتم شيئاً لم ينجح أي يوناني آخر في تحقيقه على الإطلاق، وحتى أولئك الذين شاركوا في حرب طروادة، وهو إخضاع بابل، وبيرسيبوليس، وإيكباتانا.

والآن، حانت لحظة تمتعكم بثمار جهودكم: إنني أحرركم من قسمكم، وأصرفكم من الخدمة. سيستلم كل ضابط من ضباطكم تالنتاً واحداً، وسيستلم كل جندي ثلاثين ميناياً من الفضة، وستحصلون إضافة إلى كل ذلك على المال الذي يكفيكم لدفع أجور نقلكم من هنا إلى اليونان. إنني أشكركم. عودوا إلى عائلاتكم، وإلى أولادكم، وإلى مدنكم!".

توقع الإسكندر حدوث عاصفة من البهجة والتصفيق بين الجنود. ولكن، بدلاً من ذلك، سرت بينهم تمتمات سرعان ما تزايدت حتى أصبحت ضجيجاً ناتجاً عن مناقشات نشطة بين كل الجنود والضباط. صرخ الإسكندر مندهشاً: "ما المشكلة أيها الرجال؟ ألم أدفع لكم ما يكفي؟ ألم تسرّوا بالعودة؟".

تقدم أحد الضباط الذي يبلغ نحو الأربعين من العمر ويدعى هيليو دوروس من إيغيون، وقال: "أيها الملك. إننا نشكرك على كل شيء، ونحن سعداء بأن تكون مساعدتنا مهمة بالنسبة إليك، لكننا لا نرغب في تركك".

نظر الإسكندر نحوه وهو غير مصدق، وما لبث هيليو دوروس أن تابع كلامه: "تعلمنا عندما حاربنا إلى جانبك أموراً لن يتمكن أحد من تعليمنا إياها، كما حققنا إنجازات لم يكن أي جندي منا يحلم بإنجازها قط. يتساءل كثيرون منا عما ستفعله الآن، وأي بلاد تريد أن تقهرها،

وأى أراضٍ بعيدة عنا سيتمكن أولئك الذين يخدمون تحت لوائك من العيش لرؤيتها؟ سيقبل عدد منا، بالطبع، عرضك بالعودة إلى منازلهم، وسيقبلون ذلك بفرح من جهة، ولكنهم من جهة أخرى سيحزنون جداً، لأنه تعلموا طوال هذا الوقت أن يعجبوا بك ويحبوك.

ولكن، هناك آخرون لم يؤسسوا أسراً بعد، وحتى لو أسسوا أسراً، فإنهم سيعتبرون أنه من الأهم بالنسبة إليهم أن يتبعوك ويحاربوا بشرف تحت لوائك، وأن يخاطروا بحياتهم إذا لزم الأمر. يفضل هؤلاء الرجال البقاء معك إذا كنت تريدهم".

أنهى هيليو دوروس كلامه، وما لبث أن قفل عائداً إلى صفوفه إلى جانب جنوده.

رد الإسكندر: "هناك القلائل من أمثالكم، لذلك أتشرف كثيراً إذا اختار أي واحد منكم البقاء معنا. ولكن، إذا اختار أي شخصٍ منكم البقاء، فإن ذلك سيكون على أساسٍ شخصي، وليس على أنه حليف أرسلته مدينته. سيكون ذلك الشخص جندياً محترفاً. إنني أعترم أن أدفع لهؤلاء الرجال مبلغ ستمئة دراهم مقابل المشاركة في الحملة بكاملها، وإذا مات أحدكم في المعركة، فسيذهب هذا المبلغ إلى أسرته. يتعين على الأشخاص الذين يريدون البقاء أن يقفوا وراء الخط الأمامي بثلاث خطوات، أما الآخرون فهم أحرار بالذهاب في أي وقتٍ يشاءون، وسيذهبون مع امتناني، وصدائقي، وإعجابي".

دقّ الرجال رماحهم على دروعهم، وهتفوا باسم الملك، أي مثلما يفعل الجنود المقدونيون تماماً. وتراجع الذين يريدون البقاء في خدمة الجيش ثلاث خطوات وراء الخط الأمامي، فلاحظ الإسكندر أنهم يشكلون نحو نصف عدد حلفائه اليونانيين.

\*

انطلق اليونانيون الذين اختاروا العودة إلى منازلهم في ذلك اليوم بالذات، وساروا بانتظام بين المشاة والفرسان في الجيش والذين اصطفوا لأداء آخر تحية، وراحت الأبواق تصدح إشارة تفريق الصفوف. أما عندما أصدر بارمينيون الأمر بنفسه: "قدّم سلاحك!"، فإن عدداً كبيراً من أولئك الجنود الذين تعودوا على كل أنواع الأخطار، وعلى كل تحديات الحياة، اغرورقت عيونهم بالدموع.

اختفى الجنود المغادرون وراء أول منعطف في الطريق، وتلاشت أصوات الطبول التي قرعت إشارة إلى ابتعادهم. أمر الإسكندر بأن يعود نفير الأبواق مجدداً في إشارة إلى متابعة عملية ملاحقة الملك العظيم. كان أوكسهاتري يعرف كل الطرقات المختصرة، وتطوع كي يسبق الجيش مع اثنين من المرتزقة اللسكاثيين الذين يعملون معه، ثم انطلقوا بسرعة.

تقدّم الجيش عبر الهضبة الواسعة التي ترعى فيها قطعان الظباء والماعز البرية، وكان يُسمع بين الحين والآخر زئير أسود. كانت وتيرة زحفهم تكاد لا تُحتمل، واضطر عدد كبير من المشاة للتوقف بسبب القروح التي أصابت أقدامهم، كما أن عدداً قليلاً من حيوانات التحميل انهارت تحت ثقل الأحمال. ومع ذلك، رفض الإسكندر كل اقتراحات إبطاء المسيرة، وبدلاً من ذلك طلب إليهم التحرك بسرعة أكبر، ولم يسمح لهم بالنوم إلا لساعات قليلة كل ليلة، وذلك من دون نصب خيمهم. فعل كل ذلك كي يُبقي الضغط على داريوس.

ذكر الإسكندر كل المحاربين القدماء كيف أنهم زحفوا ذات مرة إلى طيبة من ضفاف نهر إستر في غضون ثلاثة عشر يوماً فقط، كما أنه أقدم كذلك على النوم في العراء ليلاً، ومن دون غطاء سوى عباءته العسكرية. تمكّنوا في بعض الأحيان من العثور على أماكن للاستراحة

على طول الطريق المؤدية إلى المقاطعات الشرقية، لكن هذه الأماكن كانت محدودة الحجم، لأنها مصممة للأشخاص الذين يمرضون، أو للذين يواجهون صعوبات كثيرة في طريقهم.

حلّ المساء، فأصبح الهواء أقل كثافة وأكثر حدة، فبدأ إيومينيس بارتداء السروال مجدداً، وهو الأمر الذي جعله يشعر براحة أكبر. استمر الزحف شرقاً لمدة ستة أيام، وسار الجيش بمحاذاة سلسلة جبال رائعة اشتملت على أعلى قمة رآها أي جندي، وكانت قمة مكسوة بالثلج. وصلوا إلى معبر ضيقٍ يحمل اسم بوابات قزوين. وكان عبارة عن وادٍ صخري عميقٍ تجري في أسفله مياه سيول، وتحيط به جدران شديدة الانحدار حيث إن الأغريانيين وجدوا أنه يستحيل عليهم عبورها.

قال الأسود: "لو أنهم نصبوا لنا كميناً هنا، فإنهم سيقطعوننا إرباً إرباً". وبدأ، بالفعل، أنه من غير المحتمل ألا يسعى داريوس إلى استغلال هذا الوضع لمصلحته.

نظر الإسكندر إلى تلك الجدران التي تكاد تكون عمودية، وراح يراقب الانسياب البطيء لأحد النسور، وقال: "أعتقد أن هناك أي شخص في الأعلى؟".

"هناك طريقة واحدة كي نعرف".

"الأغريانيون".

"سأرسلهم إلى فوق على الفور".

لم يمض وقت طويل قبل أن يحول الجنود الواقفون في الأسفل وجوههم نحو الأعلى كي يراقبوا الحركات البهلوانية التي يقوم بها جنود الهجوم الأغريانيون وهم يتسلقون السطوح الصخرية، ويدكونها بمعاولهم في بعض الأحيان كي يكوّنوا ثغرات تمكنهم من التحرك من

خلال شقوقها قبل متابعة تحركهم إلى الأعلى بخفة ورشاقة لا تعرف الكلال. أفلت أحدهم يده، وهو يحاول التمسك بنتوء قبل مسافة قصيرة من وصوله إلى القمة، ففقد توازنه وهوى فتقطع إرباً إرباً فوق الصخور في الأسفل. تابع رفاقه عملية التسلق، وتوجهت مجموعة أخرى منهم نحو النقطة التي علقت فيها جثة رفيقهم بين صخرتين. فحملوا الجثة إلى حيث أعادوا حمالة وألقوه فوقها، وغطّوه بعباءة، ثم انتظروا متابعة الزحف مجدداً.

في هذا الوقت، وصل آخرون إلى القمة، ونفخوا في بوق كي يُعطوا إشارة التقدم. تقدّم الجيش إلى الأمام. ولكن، لم تكن هناك علامة تدل على وجود أي مقاومة من قبل جنود الملك العظيم. احتفل الأغريانيون عند أول استراحة بمراسم جنازة رفيقهم، ثم وضعوه في محرقة من أغصان الصنوبر، وأحرقوه وهم ينشدون معاً أغنية حزينة. وبعد ذلك، وضعوا رماده في أنية مع أسلحته وحزام عباءته. وشربوا حتى ثملوا معاً في ما تبقى من الليلة.

انتبه الإسكندر وهو نصف نائم إلى دمدمة بيريتاس، وكان ذلك قبل وقت قليل من نهاية نوبة الحراسة الرابعة.

"ماذا هناك؟ ماذا تسمع؟ حسناً، حسناً... لا بد من أنه ذئب، أو ربما وشق". نظر عالياً فرأى المشاعل التي أوقدها الأغرانيون على جانبي الوادي السحيق إشارةً إلى خلو الساحل من أي مخاطر في هذا الوقت. وسمع بعد ذلك ضجيج وقع أقدامٍ ووشوشات مضطربة. فقال بصوت أعلى هذه المرة: "ماذا هناك؟".

اقترب هيفاستيون منه قائلاً: "عاد أو كسهاتري مع رفاقه من اللسكاثيين، وهو يريد التحدث إليك".  
"أو كسهاتري؟ دعه يدخل".

شاهد الإسكندر ثلاثة فرسان يتقدمون في أسفل الوادي وقد تسلحوا بأقواسهم المتدلية من فوق أكتافهم، لكن طبقة من الغبار غطتهم جميعاً. انطرح أو كسهاتري على الأرض من فرط الإجهاد، ثم سار إلى الأمام وهو يترنح قليلاً. ويُحتمل أنه لم يعد يشعر بساقيه بعد بقائه فوق صهوة جواده فترة فاقت قدرته على الاحتمال. "أقدم بيسوس، وهو مرزبان باكتريانا، على خلع الملك داريوس وسجنه".

قال ليوناتوس: "ذلك اللعين الذي كاد يقضي علينا من الخلف، وعلى ميمنة الجيش في غواجميلاً".

طلب أو كسهاتري مساعدة من مترجمٍ كي يتأكد من فهم الآخرين لكلماته، ثم تابع: "غادر الملك إيكباتانا مع ستمئة فارس،



وعشرين ألف جندي من المشاة، وسبعة آلاف تالنت من الخزنة الملكية، وذلك بنية إحراق الأرض من ورائه، وكان يريد أن ينتظر عند بوابات قزوين، لكن جنوده شعروا بالإحباط بفعل انسحاباتهم المتتالية، كما شاعت أخبار تفيد أن اللسكاثيين والقادوشيين لا يعترمون إرسال تعزيزات إليهم. فرّ جنود كثيرون من الخدمة، ولقد التقينا عدداً منهم، وهم الذين أعطونا هذه المعلومات. قالوا إنهم تركوا المعسكر عند حلول الظلام كي ينتشروا في الجبال وعبر الصحراء، أي عندما انشغل الكشافون في الإبلاغ عن أخبار تقدم أوائل جنودكم. عند هذا الحد، أقدم بيسوس وبدعم من مرزبانان آخرين، مثل ساتيارزان، وبارزيانتي، ونبازان، على إلقاء القبض على الملك، ثم قيّده بالسلاسل ووضعوه في عربة هي في طريقها الآن بأقصى سرعة نحو أبعد المقاطعات الشرقية".

سأل الإسكندر: "أين هم الآن؟". في هذا الوقت، كان رفاقه قد ارتدوا ملابسهم، وحملوا أسلحتهم. وضع أحدهم حطباً في النار المشتعلة ووقفوا جميعاً حولها، وشعروا بأنهم سرعان ما سينطلقون إلى العمل مجدداً.

"إنهم في مكان ما بيننا وبين مدينة هيكاتومبيلوس، عاصمة الميديين. لكن، ليس هناك من مخاطر في الوادي. وهكذا، إذا أسرعنا الآن مع فرسانك فستتمكن من الإمساك بهم. أعتقد أنه من المرعب أن يتمكن ذلك الخائن الطموح من الاستمتاع بثمار خيانتته. وإذا كنت تفكر في تعقبه، فسأتي معك وسأكون دليلك".

ردّ الإسكندر: "لا أعتقد أنك في حالة تسمح لك بامتطاء صهوة الجواد الآن. إنك متعبٌ جداً".

"أعطني بعض الوقت كي أكل شيئاً وأريح ساقَيَّ قليلاً، وسترى".

في هذه اللحظة بالذات، ظهرت لبيتين حاملةً معها شيئاً للشرب، لكن الإسكندر أوماً إليها أن تقدم شيئاً منه إلى أوكسهاتري، وقال له: "جرّب هذا. إنه شراب قوي". والتفت بعد ذلك إلى رفاقه، وقال: "فلتجهز وحدات الفرسان للتحرك على الفور".

وكان هذا تحديداً الأمر الذي كانوا بانتظاره. صدحت الأبواق في إشارة للتحرك، وما لبث الإسكندر أن امتطى فوراً صهوة جواده، وانطلق به بسرعة كبيرة بمحاذاة أسفل الوادي الصخري. ورافقه كل من أوكسهاتري، وهيفاستيون، وبطليموس، وبيرديكاس، وكراتيروس، وكل الآخرين. أما فرق الهيتايروي فقد انطلقت ما إن أصبحت جاهزة.

ساروا لساعات عديدة، ولم يتوقفوا إلا كي يسمحوا للجياذ بالاستراحة قليلاً ولاستعادة أنفاسها. انفتح الممر الصخري الضيق نحو الوادي الذي يؤدي إلى المدينة بينما كانت الشمس تستعد للبروز من وراء قمم جبال هيركانيا المكسوة بالثلوج. صاح أوكسهاتري فجأة وهو يشدّ عنان جواده: "توقفوا!". شخر الجواد بشدة، وحاول أن يرفع رأسه الذي كان يلعب من العرق نحو الأعلى. أما الإسكندر وجنوده فقد توقفوا بدورهم ونظموا أنفسهم على شكل دائرة واسعة، ثم جهّزوا أنفسهم. استلّ الملك سيفه من غمده، بينما فكّ ليوناتوس ساطوره من حزامه. التفت الجميع نحو الأمير الفارسي الذي كان يشير إلى شيء ما في البعيد على مسافة نحو ستاديين.

قال لهم: "إنها عربية من الإسطبلات الملكية. يُحتمل أنهم تركوها كي يتمكنوا من الإسراع في مسيرهم".

قال الإسكندر آمراً: "دعونا نمضي قدماً، لكن كونوا شديدي الحذر. يُحتمل أن تكون هذه مجرد مصيدة. توجّه يا هيفاستيون إلى تلك الجهة، وأنت يا بطليموس إلى الجهة الأخرى. أما أنت يا

بيرديكاس، فتقدّم في الطريق كي تتأكد من سلامة الوضع وراء ذلك المنعطف. كن حذراً".

نخس أو كسهاتري جواده نحو العربة، وما لبث الإسكندر أن تبعه برفقة ليوناتوس وكراتيروس.

كانت العربة الملكية وسط الطريق مغلقة الأبواب وبجالة جيدة على ما يبدو.

قال ليوناتوس: "انتظروا. دعوني أتقدم أولاً". وترجّل عن صهوة جواده، ورفع فأسه عالياً عندما فتح الباب ونظر إلى داخلها: "آه...".

تقدّم الإسكندر نحو العربة. كان الملك داريوس ملقى على أرضها وهو مرتد ثيابه الريفية، ولا يحمل أي علامة تدل على مركزه الملكي، في ما عدأ رأسه المهيب ذا الشعر الطويل، ولحيته المزينة بالخرق، وشاربه الأسود الكثيف الذي يتناقض كلياً مع بشرته الشاحبة شحوب الموت. غطت صدره طبقة كبيرة حمراء اللون. وكانت ملابسه مبلّلة بالدماء حتى خصره، أما يدها فكانتا مقيدتين. فلقد استخدم قاتلوه سلسلة ذهبية لتقييد يديه من فرط حقدهم عليه.

شتم الإسكندر بغضب: "اللعة عليهم!".

صاح بطليموس: "بسرعة، دعونا نخرجه من العربة، فرمما لا يزال حياً. استدعوا فيليب، بسرعة!".

رفع جنديان جسد الملك العظيم بعناية، ووضعوه فوق بطانية على الأرض. وصل فيليب بسرعة وركع إلى جانب داريوس، ثم وضع أذنه فوق صدره كي يسمع دقات القلب.

سأل ليوناتوس: "هل مات؟".

أشار فيليب إليه بأن يلزم الهدوء وتابع الإصغاء، ثم قال: "غير معقول... إنه لا يزال يتنفس".

نظر الحاضرون إلى وجوه بعضهم، فيما جثا الإسكندر إلى جانب فيليب وقال: "أيمكن فعل أي شيء لأجله؟".

هزّ فيليب رأسه وبدأ بفكّ سلسلة القيد من حول معصمَي داريوس، وقال: "هذا كل ما أستطيع عمله. دعوه يموت كرجلٍ حر. إنها الآن مسألة لحظات قليلة".

صاح كراتيروس: "انظروا، إنه يحرك شفتيه...".  
جثا أوكسهاتري بدوره، ووضع أذنيه قرب شفتي الملك بضع لحظات، ثم وقف بعد أن فاضت الدموع من عينيه.  
قال بصوت مرتعش من فرط التأثر: "لقد مات الآن. مات الملك داريوس الثالث".

اقترب الإسكندر أكثر، وقال: "هل قال أي شيء؟ هل تمكنت من سماع كلماته؟".

ردّ أوكسهاتري: "قال انتقم لي!".

نظر الإسكندر إلى وجه عدوّه، وحدّق إلى تينك العينين الزجاجيتين اللتين حدقتا إليه في ميدان المعركة في إيسوس. وشعر بالتعاطف مع هذا الرجل الذي كان يجلس قبل شهرٍ قليلة فوق أعلى عرشٍ في هذه الأرض، وكانت الملايين من رعاياه تنظر إليه، لكنّ أصدقاءه خانوه الآن وقتلوه، ثم تركوه على قارعة طريق ترابية. وخطرت في ذهنه أسطر عدة مأخوذة من سقوط إيليوم التي تصف جسد بريام الخالي من الحياة، وهو الذي قُتل بيد نيو بوليموس:

هنا يرقد ملك آسيا، والقائد القوي للجيش

مثل شجرة أسقطتها صاعقة

ومثل جذع متروك، وجسدٍ من دون اسم.

تمت الإسكندر بالقول: "سأكون أنا من ينتقم لمقتلك. أقسم على ذلك". وأغمض الملك جفون داريوس بعد ذلك.

"من الإسكندر إلى سيسيغامبيس، الملكة العظيمة. تحيائي! مات ابنك داريوس. لم يُقتل على يدي، ولا على أيدي رجالي، ولكن قتله أصدقاؤه، وتركوا جثته إلى جانب الطريق المؤدية إلى هيكاتومبيلوس.

كان لا يزال يتنفس عندما عثرت عليه، لكننا عجزنا عن فعل أي شيء لمساعدته غير القسم بالانتقام لمقتله. توجهت آخر أفكاره نحوك بالتأكيد، وكذلك أفكاري التي هي معك في هذه اللحظات. شكّل موته بهذه الطريقة إهانة كبيرة لي، كما هو الأمر بالنسبة إليه، لأنه حرماننا من فرصة مواجهة بعضنا بعضاً وجهاً لوجه، وهو الأمر الذي كان سيُسفر عن فوز أحدنا، بينما يترك للآخر بعض الشرف. سأرسله إليك الآن بحيث ستمكنين من احتضانه للمرة الأخيرة، ومن البكاء عليه عندما ترافقيه إلى مثواه الأخير. جهّزنا جثته حيث تتمكن من الصمود في هذه الرحلة الأخيرة، والطويلة، حتى خرائب بيرسيبوليس حيث حُفر قبره الذي يستعد لاستقباله إلى جانب الملوك الآخرين.

أريدك أن ترتبني له جنازة مهيبة. أما بالنسبة إليّ، فإنني لن أرتاح قبل العثور على المجرمين. أعرف أنه ليس هناك خسارة تعادل خسارة أم لولدها، لكنني أتوسل إليك ألا تكريهيني. فعلى الأقل، منحتك الفرصة، كي تحزني عليه وتدفيه حسب عادات أجدادك. أما والدي التي تنتظري منذ سنوات عديدة فلعلها لن تحظى بامتياز كهذا".

طوت سيسيغامبيس الرسالة، وبكت بمفردها فترة طويلة من الزمن في غرفتها الخاصة. وبعد ذلك، استدعت الحصيان كي يعدّوا لها عربتها

الصغيرة مع جيادها، وطلبت إليهم كذلك تجهيز فستان حدادها، وأضحيات الجنازة. وفي اليوم التالي، انطلقت عبر بلاد الأوكسيانيين، وهم الشعب الذي توسطت لدى الإسكندر بالنيابة عنه من أجل حمله على التراجع عن قراره بإبعادهم عن أراضيهم.

انتشرت الأخبار بأن الملكة الأم تعبر بلادهم متجهة إلى بيرسيبوليس كي تدفن ابنها، فتجمع الناس على جانبي الطريق. تجمع الرجال والنساء والعجائز والأولاد معاً من أجل إلقاء التحية على الملكة العجوز الحزينة بصمت، ورافقوها إلى حدود أراضيهم وإلى المرتفعات التي يُمكن منها رؤية خرائب العاصمة المحروقة، وعلى الأخص الأعمدة المضاءة في قصر الانقلاب الشمسي، وجذوع الأشجار في الغابة التي التهمت النيران.

توقفت الملكة عند بوابات المدينة المدمرة، وأمرت بنصب خيمتها هناك. صامتة لمدة ثلاثة أيام حتى رأت في الطريق الآتية من إيكباتانا العربة التي تجرها أربعة جياد والتي تحمل جثة ابنها.

\*

أمّا الإسكندر فقد انطلق على الفور لملاحقة بيسوس والمتواطئين معه. وفي اليوم التالي، وصل إلى مدينة تدعى هيكاتومبيلوس، والتي استسلم قائدها الفارسي من دون أي مقاومة. ومن هناك، انطلق الجيش نحو زادراكارتا، وهي مدينة الهيراكانيين. ورأى الجنود أمامهم الامتداد غير المحدود لبحر قزوين.

ترجّل الملك عن صهوة جواده، وبدأ بالمشي حافي القدمين فوق حصى الشاطئ المبلّلة بالماء، وما لبث مرافقوه، الذين فوجئوا واحترأوا، أن تبعوه إلى هذا الحد المائي الذي أشار إلى وصولهم إلى النقطة القصوى في زحفهم.

سأل ليوناتوس كاليستين عندما وقفوا أمام البحر: "أين نحن بالضبط في هذا العالم، بحسب رأيك؟".

ردّ المؤرخ: "أعطني رمحك".

ناوله ليوناتوس الرمح، ونظر إليه وعلامات الارتباك بادية على وجهه. غرز كاليستين الرمح في رمال الشاطئ، وحرص على إيصاله إلى أقصى عمقٍ ممكن وبشكلٍ عموديٍّ، ثم قاس ظلّه بعناية. "إننا على مستوى مدينة صور تقريباً، لكن ليس لديّ أي فكرة عن مدى بعدنا عنها".

"وأين ينتهي هذا البحر؟".

حدّق كاليستين إلى ذلك الامتداد المائي الذي أخذ لونه يتحول إلى الأحمر بفعل الشمس الغاربة، ثم التفت نحو نيرخوس الذي كان يقترب في تلك اللحظة، والذي ربما كان لديه جواب عن هذا السؤال. انحنى القبطان، والتقط حصاةً، ثم رماها بكل قوّته إلى أقصى مسافةٍ يقدر عليها. سقط الحجر في البحر فتسبب بحدوث سلسلة من الموجات ذات المركز الواحد التي تحركت فوق سطح المياه قبل أن تتلاشى. وأعطى جوابه بعد ذلك على الشكل التالي:

"لا أحد يعلم. لكنني لو تمكنت من بناء أسطول فسأبحر به نحو ذلك الأفق، وأستمر في الإبحار شمالاً. وبهذه الطريقة سنكتشف ما إذا كان هذا خليج من خلجان المحيط الشمالي كما يقول كثيرون، أم إنه مجرد بحيرة".

سمعوا أصواتاً صادرة من المعسكر خلال تبادلهم الحديث. وتزايدت الأصوات حدةً إلى أن أصبحت صرخات فرح وأغاني.

التفت الإسكندر كي ينظر وراءه قائلاً: "ماذا يحدث في المعسكر؟".

ردّ ليوناتوس وهو يستعيد رحمه: "لا أعرف".



"إذاً، اذهب كي نعرف ماذا يجري".

امتطى ليوناتوس صهوة جواده، وانطلق بسرعة نحو المعسكر. ولدى اقترابه سمع أصوات صراخٍ وغناءٍ بشكلٍ واضح. وأدرك عندها سبب هذا الاحتفال. فلقد سمع الجنود بموت داريوس، وظنوا أن الحرب قد انتهت، كما سرت شائعات تفيد بقرب عودتهم إلى الوطن أخيراً. رقص الجنود وشربوا ثم صاحوا من شدة الفرح، وغنّوا أغانيً مقدونية قديمة، حتى إن بعض الجنود بدأوا بإعداد حقائبهم استعداداً لرحلة العودة الطويلة.

قفز ليوناتوس إلى الأرض، وأوقف أول جندي التقاه، وكان أحد جنود مشاة البيزيتاروي، وسأله: "ماذا يحدث هنا؟".

"إننا عائدون إلى الوطن! ألم تسمع بذلك؟ انتهت الحرب!"

"انتهت الحرب؟ من قال لك إنها انتهت؟".

"يقول الجميع إنها انتهت. مات داريوس، وانتهت الحرب. إننا

عائدون إلى الوطن! إننا عائدون إلى الوطن!"

صاح ليوناتوس في وجه الجندي: "أيها الأحمق. اطلب إلى جميع هؤلاء البلهاء أن يهدأوا، ويُنهوا هذا الضجيج. هناك رجلٌ واحد، ورجلٌ واحد فقط، سيبلغنا بموعد انتهاء الحرب. إنه الإسكندر! أتفهم؟ الإسكندر! وهو لم يقل أي شيء. أوكد لك ذلك". ثم ترك الجندي واقفاً كالأبله وسط المخيم، ووسط ضجيج الاحتفال الذي يصم الآذان من دون مبرر، وعاد مسرعاً إلى الملك.

سأل الإسكندر: "حسناً، ما سبب هذا الضجيج؟".

"يصعب على المرء أن...".

"تكلم يا رجل! ماذا يدور داخل معسكري؟".

"لا يعلم أحد كيف انتشرت إشاعة تفيد بأن الحرب قد انتهت، وأننا جميعاً على وشك العودة إلى الوطن... فمنذ أن أبلغت اليونانيين

بأنهم يستطيعون الرجوع، تأكد رجالنا أن دورهم سيأتي قريباً. أما الآن، وقد مات داريوس... بدأوا بالاحتفال بجنون و...".

امتطى الإسكندر صهوة جواده، وانطلق به بسرعة نحو المعسكر. وما إن وصل إلى المعسكر حتى استدعى نافخي الأبواق، وأمرهم بنفخ إشارة تدعو إلى التجمع داخل المعسكر. خفت حدة الضوضاء قليلاً، وسرعان ما تحوّلت إلى مجموعة من الأصوات المتناثرة هنا وهناك. وبعد ذلك، تجمّع الرجال وسط المخيم على شكل مجموعات، ووحدات، بينما وقف بعضهم حول المنصة. وقف الإسكندر في الوسط تماماً منتصب القامة ومحاطاً برفاقه، وبانت علامات الغضب الشديد على وجهه. رفع يده في إشارة إلى طلب السكوت، وبدأ كلامه:

"أيها الرجال! ماذا تفعلون؟ هيا، أجيوا! أرسلوا إليّ قادتكم، وأخبروني ماذا تفعلون!"

ارتفعت الضوضاء مجدداً، وبدأ واضحاً أنهم صُدموا جميعاً بمنع احتفالهم. تقدم قادة الوحدات المختلفة الواحد تلو الآخر، وتشاوروا للحظة في ما بينهم عند قاعدة المنصة. قال المتحدث باسمهم: "يا مولاي. انتشرت الأخبار بعد أن صرفت حلفاءنا اليونانيين بأنك على وشك أن تصرف التيساليين كذلك، ولذلك بدأوا بتحضير أمتعتهم، وعندما وصلتنا الأخبار وسط هذه الأجواء بأن الملك داريوس قد مات، اعتقدنا جميعاً أن الحرب قد انتهت، وأنت ستعيدنا إلى الوطن. ولهذا السبب بدأ الرجال يحتفلون لأنهم يريدون العودة إلى زوجاتهم وأولادهم الذين لم يروه منذ أربع سنوات".

ردّ الإسكندر: "هذا صحيح. إنني أنوي صرف التيساليين مثلما فعلت سابقاً مع اليونانيين. إنهم حلفاؤنا في التحالف الهيليني، وقد انتهت مهمتهم معنا الآن. سبق لنا أن وعدنا بتحرير المدن اليونانية

الموجودة في آسيا، وبالحاق الهزيمة بأعداء اليونانيين القدامى، وقد وفينا بتلك الوعود، كما أخضعنا العواصم الأربع، ومات الملك العظيم، لكن مهمتنا لم تنته بعد". تصاعد ضجيج الأحاديث عند هذه الكلمات الأخيرة. "كلّاً يا رجال! ويا قدامى المحاربين الذين نحاضوا معارك كثيرة! يا أصدقائي! إن المرزبانات المتمردين يحضّرون الآن هجوماً مضاداً، كما انتهوا من تجميع جيشٍ جديد يتكوّن من آلاف وآلاف المحاربين، وها هم الآن ينتظرون أن ندير ظهورنا إليهم.

"وعندها، سيهاجمونا من كل الاتجاهات الممكنة بجيادهم السريعة. وهم لن يلينوا ولو للحظة واحدة؛ لا في الليل ولا في النهار، وسيسمّون الآبار الموجودة على طول الطريق التي ستبعضها، وسيحرقون المحاصيل، كما يعتزمون تدمير القرى التي يُحتمل أن نسعى للّجوء إليها اتقاءً من برد الشتاء. وحينها، ستتحول رحلة عودتنا بعد أن أتمنا كل هذه الإنجازات الرائعة إلى كارثة. هل هذا ما تريدونه؟".

ردّ الجنود على سؤال الملك بصمتٍ مليءٍ باليأس والإحباط. فقد امتلأ هؤلاء الجنود، الذين حاربوا دائماً بشجاعةٍ مخيفة، والذين واجهوا كل الأخطار من دون أن يقلقوا على سلامتهم، بالشك وعدم اليقين. إن المساحات الشاسعة التي رأوها تمتد إلى ما وراء أعينهم كانت بلاداً وبحاراً غير معروفة لديهم، وحتى إن مواقع النجوم والأبراج في السماء بدت في غير أماكنها، كما أنهم لم يمتلكوا أدنى فكرة عن مكان وجودهم. شعروا فجأةً بأنهم بعيدون جداً عن منازلهم، كما شعروا للمرة الأولى أن الإسكندر نفسه لا يرغب أبداً في إرجاعهم إلى منازلهم، وأنه لا يريد سوى التحرك قُدماً، وإلى الأمام. أما خوفهم الآن فتركز على احتمال عدم عودتهم على الإطلاق.

تحدث الملك مجدداً: "يتعين علينا التحرك إلى الأمام! يتعين علينا أن نلاحقهم، وأن نهزمهم، وأن نبسط سلطتنا في كل أنحاء الإمبراطورية التي كانت للفرس. أما إذا فشلنا في تحقيق هذا الهدف، فإن ذلك يعني أن كل ما فعلناه حتى الآن قد ذهب هباءً، وأن كل ما بيننا وبيننا سينهار، وعندها لن يضمن أي شخص من بيننا عودته سالماً إلى ربوع الوطن. أيها الرجال! هل خنت ثققتكم بي يوماً؟ وهل خدعتكم؟ وهل حدث أنني لم أدفع لكم بسخاء لقاء أتعابكم، ألا تعتقدون أنني سأقدم إليكم المزيد عند انتهاء مهمتنا؟ أعرف أنكم متعبون، لكنني أعرف كذلك أنكم أفضل الجنود في العالم، وأنه لا مثيل لشجاعتكم وجرأتكم. لا رغبة عندي في إجباركم على أي شيء، لأنه لا أحد يعرف أكثر مني كم تستحقون أخذ قسط من الراحة وتعويضكم عن تعبكم. ولأجل كل ذلك، قرّرت أن لا أؤخركم أكثر من ذلك. إن أولئك الذين يرغبون في المغادرة الآن يمكنهم أن يفعلوا ذلك مع كل الشرف الذي يستحقونه ومع كامل امتناني لهم. ولكن، أريدكم أن تعلموا أنكم إذا تخلّيتم عني جميعاً في هذا الوقت للعودة إلى مقدونيا، فإنني سأمضي قدماً على كل حال مع رفاقي إلى أن أفرغ من مهمتي التي رسمتها لنفسني، وإذا كان ذلك ضرورياً... فسأفعل ذلك بمفردي!". وسكت عند هذا الحد، ووضع ذراعيه فوق صدره بشكلٍ متصلب. وبعد ذلك، خيّمت فترة طويلة أخرى من الصمت.

تقدّم رفاق الإسكندر خطوة واحدة إلى الأمام، وهم الذين ارتحلوا معه قبل أعوام عبر ثلوج إيليريا كي يكونوا معه في منفاه، وهم الذين وقفوا وراءه حتى هذه اللحظة. فعلوا ذلك وكأنهم ينفذون أمراً ما، وتحلقوا حوله ممسكين بأيديهم مقابض سيوفهم. وتقدّم معهم كذلك فيلوتاس وكلايتوس والأسود.

رأى أحد أفراد جنود فرقة الطليعة، والذي كان يعد العدة للمغادرة هذا المشهد من حيث يقف في وسط الميدان، فأوقع الحزمة التي تحتوي على أمتعته الشخصية عند قدميه، وأسرع إلى استلال سيفه وقرعه على درعه، فترددت أصداء الصوت مثل قصف الرعد وسط السكنينة المخيمة. التفت كل الجنود نحوه، وما لبث جندي آخر أن استجاب على الفور بقرعٍ مشابه. وانضمَّ إليهما جندي ثالث، ثم تبعه جندي رابع، وما لبث فرسان الطليعة أن انضموا جميعاً إليهم بعد أن كانوا متفرقين قرب بوابات المعسكر، أو قرب سياجه، أو في منتصف الميدان، أو كانوا منشغلين بإعداد أمتعتهم. استل جميع هؤلاء سيوفهم، وبدأوا بقرعها على دروعهم الواحد تلو الآخر. فعلوا ذلك وهم يتقدمون نحو المنصة إلى أن وقفوا جميعاً أمام الملك، فتابعوا قرع السيوف على الدروع بطريقة إيقاعية ومستمرة وذلك كي يكونوا ذلك الضجيج الذي يصم الآذان والذي ينتج عن قرع البرونز على الحديد. وسرعان ما تبعهم جنود آخرون من الفرسان، وجنود المشاة، وجنود المحوم، والكشافة، والتراقين، والأغريانيين. تجمَّعوا كلهم في صفوفٍ منتظمة مع فرسان فرقة الطليعة، واستمروا في قرع سيوفهم على دروعهم. رفع حامل الراية الذي ينتمي إلى الكتيبة الأولى العلم الأحمر ذا النجمة الأرجادية، فتوقف الجميع عن القرع ووقفوا جامدين أمامه. تقدّم حامل الراية خطوة أخرى إلى الأمام، وأخفض الراية قبل أن يصرخ: "أوامرك مولاي!".

تأثر الإسكندر كثيراً، فتقدّم قليلاً إلى الأمام قبل أن يرفع أسلحته نحو السماء كي يشكر جنوده على عدم تخليهم عنه. رأى بطليموس الذي كان يقف قرب الملك أن عيني هذا الأخير قد فاضتا بالدموع. وقف إلى جانبه وقتاً بدا له طويلاً، بينما راح الجيش بأكمله يهتف باسمه بصوتٍ يشبه قصف الرعد: الإسكندر! الإسكندر! الإسكندر!

سار الملك محاطاً برفاقه، وعبرَ الميدان وسط صفّين من الرماح  
اللامعة، ثم تقدم نحو بوسيفالاس. وقف ذلك الجواد العظيم منتظراً  
صاحبه وهو يقرع الأرض بجوافره.

تحرك الجيش نحو زادراكارتا عاصمة الهيراكانيين، وهناك عثر الإسكندر على أفراد بلاط داريوس الثالث الذين تركهم بيسوس خلال انسحابه إلى المقاطعات الأبعد في الإمبراطورية. في هذه المرحلة، صرف الملك الفرسان التيساليين، لكنه أعطى الفرسان فرصة البقاء والعمل معهم بصفتهم مرتزقة، ثم أمر جيشه بالاستعداد لزحف طويل شرقاً. تعين عليهم أن يغادروا ما إن تصل الفرق الجديدة الآتية من مقدونيا، وهي التعزيزات التي كان من المفترض أن يرسلها بارمينيون إليهم في أسرع وقت ممكن.

مكث كل أفراد بلاط داريوس في منطقة محددة من المدينة تحت مراقبة الخصيان. وأعطى الإسكندر أوامره بأن يكونوا جميعاً تحت حماية جيشه. وطلب الإسكندر معلومات محددة تتعلق بأفراد الأسرة المالكة الذين كانوا لا يزالون جزءاً من البلاط الملكي.

تقدم المسؤول عن الاحتفالات من الملك كي يقدم تقريره، وهو رجلٌ يبلغ نحو الستين من عمره. وجسمه خالٍ من الشعر تماماً، وهو حليق الرأس.

"تتواجد هنا كل محظيات الملك مع أولادهن، وكذلك سمو الأميرة ستاتيرا".

"ستاتيرا؟"

"أجل سيدي".

تذكر الإسكندر الرسالة التي عرض عليه فيها داريوس السيطرة على مناطق آسيا الواقعة غرب الفرات، بالإضافة إلى عرضه يد ابنته

للزواج، كما تذكر كيف أنه رفض هذا العرض مخالفاً بذلك رغبة بارمينيون.

قال له: "أريد ترتيب لقاء بيني وبين الأميرة". استأذن الخصي بالمغادرة، وما لبث أن أرسل مبعوثاً في وقت مبكر من الظهرية كي يعلمه بأن الأميرة ستنتظره بعد مغيب الشمس في جناحها في القصر الذي كان ملكاً لمرزبان بارثيا.

ذهب الملك لمقابلة الأميرة مرتدياً عباءته اليونانية البسيطة جداً. وكانت بيضاء اللون وتصل إلى كاحليه. وارتدى فوقها عباءته الزرقاء المثبتة بمشبك ذهبي.

وقف الخصي عند الباب وقال: "لا تزال الأميرة في فترة حدادها يا سيدي، وهي تتوسل إليك أن تعذرها على عدم قدرتها على تزيين نفسها بطريقة تليق بحضورك. لكنها مسرورة كثيراً بزيارتك لأنها سمعت أنك رجل ذو روح وعاطفة نبيلتين".  
"هل تتكلم الأميرة باللغة اليونانية؟"

أوماً الخصي: "علمها الملك داريوس لغتك عندما عرض عليك يدها للزواج، لكن في ذلك الوقت...".  
"أسمح بأن تعلن الآن عن قدامي؟"

ردّ الخصي: "يمكنك أن تدخل على الفور، لأن الأميرة تتوقع قدومك".

دخل الإسكندر فوجد نفسه واقفاً وسط ردهة صغيرة مزينة برسومات نباتية، وبأكاليل من أنواع الفاكهة. ووجد أمامه باباً آخر ذا إطار حجري منقوش مع عتبة يسندها نقشان لطائري عنقاء. فتح الباب، فأدخلته إحدى الخادמות قبل أن تنصرف، وتغلق الباب خلفها.



وقفت الأميرة ستاتيرا أمامه إلى جانب طاولة صغيرة للقراءة ووضعت فوقها بعض لفافات من أوراق البردي، بالإضافة إلى تمثال صغير يمثل فارساً من فرسان السهول. ارتدت الأميرة عباءة بلون العاج مصنوعة من الصوف الخشن، كما لفت حزاماً جلدياً حول خصرها، وانتعلت صندلاً جلدياً مطرزاً بأناقة. لم تضع الأميرة أي مجوهرات غير قلادة فضية صغيرة تمثل أهورا مازدا. ولم تضع مستحضرات تجميل على وجهها، لكن ملامحها القوية والرقيقة عززت جمال طلعتها الفخورة والرقيقة في الوقت ذاته. ورثت الأميرة عن والدها عينيها العميقتين والداكنتين وحاجبيها الملحوظين، بينما ورثت عن والدتها شفيتها الناعمتين والرطبتين والمثلتتين، بالإضافة إلى عنقها الرقيق، وساقها اللتين كانتا طويلتين وجميلتين بالتأكيد.

تقدم منها الإسكندر حتى وقف أمامها وجهاً لوجه. وكان قريباً منها بما يكفي كي يشمّ عطر الآكاسيا والعنبر، ويشعر بأنه محاطٌ بفتنة تعلم أن يميزها عند النساء الشرقيات.

قال وقد أحنى رأسه: "ستاتيرا. إنني آسفٌ جداً لموت أبيك الملك، وقد جئت كي أخبرك...".

قابلت الأميرة الخنائه بمثلها، وأرفقتها بابتسامةٍ حزينة، ثم مدّت يدها، فأمسكها الإسكندر بيده هنيهة قصيرة.

تكلّمت الفتاة بلغة يونانية خرجت من بين شفيتها بنغمة غريبة، لكنها كانت ذات إيقاعٍ موسيقي ذكره ببارسين: "هل تفضل بالجلوس يا سيدي؟".

شعر أن ضربات قلبه قد تزايدت على نحو مفاجئ عندما جلس قبالتها، وعاد مجدداً إلى الكلام: "أردت أن أخبرك أن داريوس سيتلقى أعلى درجات التكريم، وسيُدفن في قبره الحجري في بيرسيبوليس".

ردّت الشابة: "شكراً لك".

"أقسمت كذلك أن ألقى القبض على القاتل، وهو المرزبان بيسوس الذي فرّ نحو باكتريانا. كما أنني سأُنزل به العقوبة التي ينصّ عليها القانون الفارسي، والمتعلقة بالشخص الذي يخون ملكه ويقتله".

أحسنت ستاتيرا رأسها بحركة خفيفة ورشيقة، وهي علامة تدل على الموافقة، ولكنها لم تقل أي شيء. في هذا الوقت، دخلت إحدى الخاديمات حاملةً صينية عليها كوبان مليئان بالثلج وعصير الرمان الطازج ذي اللون الزهري. ناولت الأميرة أحد الكوبين إلى ضيفها. غير أنّها لم تشرب من العصير، وذلك احتراماً لقوانين الحداد الصارمة، لكنها راقبته بصمت. بدا لها أنه يستحيل على هذا الشاب الذي يمتلك ملامح في غاية الكمال، وسلوكيات صريحة ونبيلة، أن يكون ذلك القاتل العنيد الذي سحق أقوى الجيوش في العالم، وأن يكون ذلك الشخص الذي أحرق قصر بيرسيبوليس، وترك المدينة مستباحة للنهب والسلب. بدا لها في تلك اللحظة ذلك الشاب اللطيف الذي عامل كل النساء الفارسيات اللواتي أسرهنّ بكل احترام، وذلك الفاتح الذي احترم خصومه إلى درجة أنه كسب إعجاب الملكة الأم.

سألته بطريقة طبيعية تماماً: "كيف حال جدّتي؟". لكنها سرعان ما استدركت على الفور: "أعني الملكة الأم".

"إنها بخير. إنها امرأة نبيلة وقوية، تمكنت من تحمل ضربات القدر بكرامة. وأنت أيتها الأميرة، كيف حالك؟".

"أنا كذلك بخير يا سيدي؛ بقدر ما تسمح به الظروف".

داعب الإسكندر يدها مجدداً وقال: "أنت جميلة يا ستاتيرا، وفي غاية الجاذبية. لا بد من أن والدك كان فخوراً بك".

فاضت الدموع من عينيها، وقالت: "كان والدي المسكين فخوراً بي. كان سيبلغ الخمسين من عمره في هذا اليوم. لكن، شكراً لك على كلماتك اللطيفة هذه".

ردّ الإسكندر: "إنها كلمات نابغة من القلب".

أحنت ستاتيرا رأسها، وقالت: "أستغرب أن أسمع هذا الكلام من شاب سبق له أن رفض الزواج بي".

"لم أكن أعرفك حينها".

"أكان ذلك الأمر سيغيّر شيئاً؟".

"يُحتمل ذلك. يُمكن لنظرة واحدة أن تغيّر قدر رجل".

ردّت الأميرة وهي تحدّق إليه بعينيها اللامعتين والصافيتين: "أو قدر امرأة. لكن، لماذا أتيتَ إلى هنا؟ لماذا تركتَ بلادك؟ أليست بلاداً جميلة؟".

ردّ الإسكندر: "آه، نعم. إنها كذلك حقاً. فيها جبالٌ مغطاة بالثلوج، وسرعان ما تتحول إلى اللون الأحمر عند مغيب الشمس، واللون الفضي عند طلوع القمر. وفيها كذلك بحيرات ذات مياه نقية وصافية مثل أعين الفتيات الصغيرات، وفيها مروجٌ مغطاة بالأزهار، وغابات من شجر التنوب الأزرق".

"أليس لديك والدة وشقيقة؟ ألا تفكّر فيهما؟".

"أفكّر فيهما في كل ليلة. وكلما هبت الرياح الذاهبة إلى جهة الغرب، أحملها الكلمات التي تخرج من قلبي، وأتضرع أن تحمل هذه الكلمات إلى بيلا؛ إلى القصر الذي ولدت فيه، وإلى بوثروتوم حيث تعيش شقيقتي مثل طائرٍ غرّيد في عشٍّ حجري يشرف على البحر".

"إذاً، لماذا بدأتَ هذه المهمة؟".

تردّد الإسكندر قليلاً، وكأنه خائف من الكشف عن جوهر روحه أمام هذه الشابة الغريبة، لكنه سمح لنظراته بأن تسرح بعيداً، أبعد

من الجدران؛ بحيث تعبر تضاريس الجبال المغطاة بالغابات والمروج الخضراء. تناهت إلى أسماعه في تلك اللحظة أصوات آتية من الطريق في الأسفل. كانت أصوات رجال يبيعون سلعاً متنوعة، وأصوات نساء يثرثن خلال غزلهن الصوف. وبعد ذلك، سمع صوتاً أحش صادراً عن الجمال الباكترانية خلال سيرها في قوافلها.

وقال على نحو مفاجئ، وكأنه أفاق لتوه: "يصعب عليّ الإجابة عن هذا السؤال، لأنني طالما حلمت بالذهاب إلى ما يتخطى الأفق الذي يُظهر نفسه أمام عيني، وبالذهاب إلى أقاصي الأرض ذاتها إلى حين وصولي إلى أمواج المحيط...".

"وماذا بعد؟ ماذا ستفعل بعد أن تقهر العالم بأكمله؟ أتعتقد أنك ستكون سعيداً عندها؟ هل ستكون قد أنجزتَ حينها كل شيء أردته بالفعل؟ أم أنك ستجد نفسك في قبضة قلقٍ أقوى وأعمق، لكنه قلقٌ مجهول هذه المرة؟".

"يُحتمل ذلك، لكنني لن أختبر هذه الأمور حتى أصل إلى الحدود التي حددت للبشر".

نظرت ستاتيرا إليه بصمت. وعندما حدّقت إلى عينيه، اعترها شعور بأنها كانت تحدّق إلى عالمٍ غامض وغير معروف، وإلى صحراء مسكونة بالأشباح. فشعرت بالدوار الذي ترافق مع إحساسٍ عارم بالإعجاب، وما لبثت أن أغمضت عينيهما بصورة فطرية. قبلها الإسكندر، وشعرت بملامسة شعره وجهها وعنقها.

وحين فتحت عينيهما مجدداً، لم يكن هناك.

وفي اليوم التالي، حضر إلى القصر إيومينيس، الأمين العام، وطلب يدها للزواج بالنيابة عن الملك.

تمت مراسم الزفاف بحسب التقاليد المقدونية. قطع العريس بسيفه رغيفاً من الخبز، وقدم قسماً منه إلى العروس التي شاركته أكل الرغيف. كان طقساً بسيطاً، لكنه مليء بالإحياءات وقد استمتعت به ستاتيرا كثيراً. جرى الاحتفال الذي أعقب حفل الزفاف على الطريقة المقدونية كذلك، وترافق مع سكب الشراب على الأرض، ومع وليمة فخمة، ومع كثير من الغناء، والاستعراضات، والرقص. لم تشارك ستاتيرا في هذه الاحتفالات بسبب كونها لا تزال في فترة حداد على والدها، وانتظرت زوجها في غرفة نومها التي كانت في الطابق الأعلى، وهي الغرفة المصنوعة من خشب الأرز. وفيها ستائر عريضة مصنوعة من قماش الكتان المصري، وكانت الغرفة مضاءة بالمشاعل.

كانت أهازيج جنود الإسكندر التي تشتمل على كلمات بديئة لا تزال تُسمع عندما حضر إليها. ولكن، ما إن خبا الضجيج حتى حلت مكانه أغنية حزينة ترددت أصداؤها في تلك الليلة، كما هبّ نسيم عليل مرّ فوق قمم الأشجار المكسوة بالأزهار مثل أغنية عندليب. سأل الملك: "ما هذا الصوت؟".

تقدمت ستاتيرا نحوه بعباءتها الهندية الخفيفة، ووضعت رأسها على كتفه: "إنها واحدة من أغاني الحب عندنا. هل تعرف قصة أبروكوم وأثيا؟".

وضع الإسكندر ذراعه حول خصرها، وجذبها نحوه: "أعرفها بالطبع، ولكن بالإغريقية. تحدّث عنها أحد كتّابنا في مؤلّفٍ حمل عنوان

تعليم سيروس، لكن لا بد من أنها ستكون رائعة عند سماعها  
بالفارسية، حتى لو كنتُ لا أفهم لغتكم. إنها قصة رائعة".  
قالت ستاتيرا بصوتٍ مرتعش: "إنها قصة حب تتخطى كل  
الحدود".

فكّ الإسكندر أربطة عباؤها ونظر إليها. وقفت أمامه، وما لبث  
أن رفعها بذراعيه وكأنه يرفع طفلاً صغيراً، ثم وضعها فوق السرير.  
أحبها بلطفٍ شديد، وكأنه أراد أن يعوضها عن كل شيء سلب منها:  
وطنها، ووالدها، وشبابها اللاهي. وهي بدورها استجابت بحماسة  
وشغف، كما استفادت من التعليمات التي استقتها من وصيفاتها عن  
أمور الحب المتوارثة عن أجيالٍ سابقة، وذلك كي لا تحيّب آمال  
زوجها في سرير زفافهما.

\*

وعند فجر اليوم التالي، داعبت أولى أشعات شمس الصباح  
الإسكندر. فهمّ بالنهوض، وكان على وشك مناداة لبيتين كما اعتاد على  
الدوام، لكنه انتبه إلى ذلك الصف الطويل من الأشخاص الواقفين أمامه  
بنظام، وكان من الواضح أنهم كانوا ينتظرون استفاقة منذ بعض الوقت.  
كاد الإسكندر يهّم بتناول سيفه وهو لم يستيقظ جيداً بعد، لكنه  
توقف في الوقت المناسب. جلس على السرير، وأسند رأسه إلى لوحته،  
وذلك قبل أن يسأل بصوتٍ فيه من الدهشة أكثر مما فيه من الغضب:  
"من أنتم؟".

أجاب أحد الخصيان: "إننا خدمك الشخصيون، وأنا المسؤول عن  
حفل صباحيتك".

راح الإسكندر يهز ستاتيرا التي كانت لا تزال نائمة، فنهضت،  
وغطت نفسها برداء. همس في أذنها: "ماذا يُفترض بي أن أفعل الآن؟".

"لا شيء يا سيدي. إنهم سيهتمون بكل شيء، وقد جاءوا إلى هنا لهذا الغرض".

لم يضيّع الخصي وقتاً قبل أن يشير إليه بأن يتبعه إلى الحمام، حيث كانت خادمتان وخصيٌّ شبه عارٍ بانتظاره؛ وهم الذين غسلوه ومسّدوه، ووضعوا له العطور. بينما راحت خادمت ستاتييرا يعتنين بأمرتهن.

وبعد ذلك، اقترب الخصيُّ الشاب والوسيم منه كي يجفف له بشرته. ثم ساعده الخدم على ارتداء ملابسه، فتقدموا منه الواحد تلو الآخر تحت إشراف الخصيِّ. تقدمت الخادمت بعد أن حملت كل واحدة منهن قطعة من ملابسه وألبسنه إياها بحركاتٍ رشيقة. بدأت الخادمت بالملابس الداخلية، التي لم يسبق للإسكندر أن استخدم مثلها حتى تلك اللحظة، ثم جاء دور السروال المصنوع من الكتان المطرز، ولكنه رفض أن يرتديه بإشارة من يده.

هزّ الإسكندر رأسه وتبادل نظراتٍ مليئة بالدهشة مع المشرف على الملابس.

قال الإسكندر شارحاً: "أنا لا أرتدي سروالاً أبداً. أعطني عباءتي".

قال المشرف على الملابس الذي اعتبر أنه من غير اللائق أن يرتدي الإنسان ملابس داخلية من دون ارتداء السروال: "لكن يا سيدي...".

كرّر الإسكندر بإصرار: "أنا لا أرتدي السراويل". لم يفهم الرجل هذه الكلمات الإغريقية، لكنه فهم تماماً نبرة الملك وإشاراته. جهدت الخادمت لكتم ضحكاهن. وتبادل الخصيُّ والمشرف على الملابس النظرات، ثم أرسلوا خادماً من أجل إحضار عباءة الملك اليونانية، وألبسها إياها. عند هذا الحد، احتار الخدم في طريقة إلباسه. فقرّر

الخصي الشاب والوسيم أن يأخذ المبادرة، فأمر إحدى الخادמות بإحضار العباءة الملكية الفاخرة ذات الكمين العريضين والمثنيين، ثم ناول الإسكندر إياها كي يرتديها. نظر إليها الإسكندر، ثم نظر إلى المشرف على الملابس الذي استمر في التحديق إليه بدهشة أكبر، لكنه ارتداها متردداً بعض الشيء. وبعد ذلك، أحضروا له الكوفية، وربطوها حول جبهته وعنقه، فانسدلت فوق كتفيه.

راح خدماً آخرون يرشون العطور عليه، وما لبث الخصي الشاب أن أحضر مرآة حيث تمكن الملك من النظر إلى صورته، ثم قال له بالإغريقية: "بدو رائعاً يا سيدي".

دُهِش الإسكندر من قدرة الشاب على التكلم بالإغريقية فسأله: "ما اسمك؟".

"اسمي باجاوس، وكنت خادماً للملك داريوس الشخصي والمفضل لديه. لا يعرف أحد كيفية إرضائه أكثر مني. أما الآن، فلقد أصبحت ملكك إذا كنت تريدني". قال هذه الكلمات بصوت رقيق ومثير جداً حيث إن الملك شعر بالذهول. لم يُجبه الإسكندر، بل نظر إلى صورته المنعكسة على السطح الفضي المصقول. شعر الملك بنوع من الرضا الواضح لأن تلك الملابس ناسبته بالفعل. وكان على وشك الذهاب إلى ستاتيرا كي يرى مدى إعجابها بملابسه. ولكن، ترددت فجأة أصوات وقع قدمي جندي مقدوني في أرجاء الممر، ولم يلبث الأسود أن ظهر مزوداً بكامل أسلحته، والاضطراب باد على وجهه. بدأ بالكلام حتى قبل دخوله الغرفة: "مولاي. وصلتنا أخبار مهمة من..."، ولكنه ما إن رأى الإسكندر حتى توقف عن الكلام، وتغيرت ملامحه، وانفجر ضاحكاً: "من هم كل هؤلاء الأشخاص؟ وكل هؤلاء النساء؟ وكل هذه العجائب؟ وبعد ذلك... ماذا ترتدي؟".



لم يضحك الإسكندر مطلقاً، لكنه بدا منزعجاً ومتضيقاً:  
"توقف على الفور! أيجب عليّ أن أذكرك بأنني الملك!".  
تابع الأسود حديثه: "الملك؟ أي ملك؟ بالكاد عرفتك لأنك تبدو  
مثل...".

"سأجرّدك من أسلحتك إذا زدت كلمة واحدة، وسألقيك في  
السجن. وسنرى عندها إذا كنت ستجد شيئاً تضحك عليه".  
أحنى الأسود رأسه.  
"ماذا تريد أن تقول لي؟".

وصلتنا أخبار تفيد بأن بيسوس موجود في باكتريانا حيث أعلن  
نفسه ملكاً عظيماً، واتخذ له اسم أرتخششتا الرابع (أرتازير كريس).  
"هل من شيء آخر؟".

"شوهدت التعزيزات القادمة من مقدونيا على طريق إيكباتانا  
(همذان حالياً)، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف رجل ومعهم المرافقون.  
سيصلون إلى هنا عند حلول المساء".  
"حسناً، سأستقبلهم بنفسى عند غروب الشمس. دع الجيش  
يستريح الآن".

غادر الأسود وهو يعرض شفته كي لا يقول أي شيء آخر.  
ولكن، لم تتأخر الإشاعة عن الانتشار داخل المعسكر، والتي تفيد بأن  
الإسكندر يرتدي ثياباً فارسية وقد أحاطت به النساء والخصيان.  
صاح فيلوتاس عندما سمع الخبر: "لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً،  
كما أن والدي لا يطبق النظر إلى هذا المنظر المخزي".

ردّ كراتيروس: "أما أنا، فلا أصدّق ذلك. ألم يحذّرنا الإسكندر  
ذاته عندما كنا في بيرسيبوليس بأنه لم يأت بنا كل هذه المسافات كي  
يرانا نتصرّف مثل الشعب الذي هزمناه".

قال هيفاستيون: "لا أعتقد أن هناك أي شيء غريب في الأمر. سبق لكم أن رأيتم الإسكندر في مصر وهو يرتدي ملابس الفراعنة، إذًا، ما الذي يمنعه من ارتداء ملابس الملك العظيم ونحن هنا في بلاد فارس؟ لقد تزوج ابنة الملك العظيم وورث مملكته".  
ردّ فيلوتاس بحدة: "إن كل ما يفعله الإسكندر أو يقوله صائب بالنسبة إليك. لكن الملك فيليب كان سيشرع بالذعر لدى رؤيته هذا المنظر...".

قال هيفاستيون مقاطعاً: "كفّ عن هذا الحديث! إنه ملك. ويحقّ له أن يفعل ما يشاء. أما أنتم، فالأجدر بكم أن تشعروا بالخجل من سلوككم، وأنت أيضاً أيها الأسود. أنسيتم عندما أغدق عليكم العطايا، وملاً خيمكم بالذهب الفارسي، وعندما أخذتم كل ذلك بكل سرور؟ لقد نسيتم، أليس كذلك؟ أما أنت يا فيلوتاس، ألم تشعر بالسرور عندما عينك الإسكندر في مركز القائد الأعلى للفرسان؟ أما الآن، فإنني أراكم ساخطين بسبب بعض القماش الفارسي. إنكم تدفعونني للضحك!".

فصاح الأسود الذي كان في مزاج سيئ: "أنا أدفعك للضحك؟ إذًا، سأشفيك عما قريب!". ورفع قبضته، واستعد لتوجيه لكمة.

تقدّم بطليموس على الفور للفصل بين الرجلين، وما لبث سلوكس أن ساندته: "توقف عندك! هل فقدت صوابك؟ هذا يكفي! توقفا!".

ابتعد الرجلان عن بعضهما. فتوجّه كراتيروس إلى ناحية كلايتوس، وكأنه يريد أن يقول له إنه يدعمه.

قال سلوكس: "اسمعوني جيداً. إنه من المعيب أن نتواجه حول هذه الأمور. يُحتمل أن يكون الإسكندر قد ارتدى ملابس فارسية كي يرضي ستاتيرا، أو أنه فعل ذلك بدافع الفضول فقط. كنا معاً على

الدوام، وسنظل معاً. إننا وسط منطقة معظمها معاد لنا، وإذا بدأنا بالجدال فسنضيع. ألا تفهمون ذلك؟".

سُمع صوتٌ مألوفٌ من الخلف: "لا تُعتبر هذه أموراً تافهة". التفت سلوقس وقال: "كاليستين...".

"أكرّر ما قلته. إن هذه الأمور ليست تافهة. غادر الإسكندر اليونان بصفته قائداً للتحالف الهيليني، وأخذ على عاتقه مهمة تدمير عدو اليونانيين القلبي. هذه هي غايته الحقيقية، وهي الغاية التي أقسم في كورينث أن يسعى إلى تحقيقها حتى النهاية".

قال إيومينيس الذي بقي صامتاً حتى هذه اللحظة: "سوّى الإسكندر مباني بيرسيبوليس أرضاً. ألا يكفي ذلك؟ وضحتي بأجل قصرٍ في العالم على مذبح فكرة العالم الهيليني".

ردّ كاليستين بحدة: "أنت مخطئ، لأنه فعل ذلك بسبب عدم إتاحة خيارات أخرى أمامه. إنني أقول لك ذلك لأنني أعرفه من أوثق المصادر. إن اليونان وشعبه لم يعنيا له شيئاً في ذلك الوقت، كما أنني أخشى أنهما لا يعنيان له شيئاً الآن".

في تلك اللحظة، دوّت أصوات الأبواق، وما لبثت فرقتان من الهيتايروي يرتدي أفرادهما ملابس الاستعراض أن خرجتا بسرعة من البوابة الغربية للمعسكر، ثم توزع الجنود على صفين متقابلين. محاذاة الطريق العامة. وبعد وقت قصير، سُمعت أصوات الطبول والتقدم المنتظم لجنود جيش يتحرك مقرباً من المكان.

صاح بطليموس: "وصلت التعزيزات! سيصل الإسكندر في أيّ لحظة. دعونا نستعد لاستقبالهم بدلاً من الوقوف هنا كي نتبادل الأحاديث".

هزّ كاليستين رأسه وكأنه يريد أن يعبر عن رغبته في عدم المشاركة، وتحرك مبتعداً. وتحرك الآخرون، بعضهم على عجلة من

أمرهم، وبعضهم الآخر بسرعة أقل، وذلك كي يرتدوا دروعهم قبل الاصطفاف مع بقية الجيش الذي كان يستعد للترحيب بالرفاق الذين وصلوا لتوهم من مقدونيا.

تقدّم الواصلون الجدد بنظام تام عبر الميدان، فرحّب بهم الجنود بنفير الأبواق، وعن طريق فرقة الهيتايروي التي قدّمت سلاحها قبل أن تتوجه كي تصطف أمام المنصة القريبة من الخيمة الملكية. فيما اصطفّ باقي أفراد الجيش وراء هذه الفرقة. أما المرافقون، وهم أبناء نخبة نبلاء المقدونيين الشبان، فقد وقفوا أمام كل الباقيين لأنهم ارتدوا ستراتهم البيضاء الفضفاضة وعباءاتهم الحمراء. جاء هؤلاء كي يخدموا الملك الإسكندر، أي مثل بيرديكاس، وبطليموس، ولايسيمachus، وباقي الرفاق الذين كانوا في خدمة الملك فيليب في قصره في بيليا.

سُمع نفير أبواق أخرى، فالتفت الجميع هذه المرة نحو البوابة الشرقية لأنه قيل لهم إن الملك سيدخل منها.

قال بطليموس بصوت منخفض بينما رفع إحدى يديه نحو جبهته: "بحق الأسياد، لا يزال يرتدي الملابس الفارسية".

قال سلوقس من دون اكتراث: "بهذه الطريقة، سيعرف الجميع كيف يتصرفون. صدّقني، هكذا أفضل".

وصل الإسكندر بسرعة على صهوة جواده بوسيفالاس. وقد تطايرت ملابسه الفارسية، المصنوعة من أجود أنواع الحرير، بفعل النسائم فبدت مثل الستائر. أما الكوفية التي أحاطت برأسه نزولاً إلى صدره وكتفيه فقد أعطته مظهراً غريباً، لكنه مظهر جذاب مع ذلك.

قفز الإسكندر إلى الفسحة أمام المنصة، وصعد الدرج الذي يؤدي إلى سطح المنصة ببطء. والتفت بعد ذلك بملابسه الفارسية كي يواجه الجيش المقدوني، ومن ضمنهم قدامى المحاربين والمجنّدون الجدد. وقف

أمام أعين جميع الحاضرين المندهشين، بدءاً من الرفاق وحتى آخر جندي، وحتى أولئك الشبان المصطفين أمام المنصة مباشرة، والذين كانوا يحدقون إليه وكأنهم عاجزون عن تصديق ما يرونه.

بدأ الملك كلامه: "أردت أن أحضر شخصياً كي أرحب بمجندينا الجدد الذين أرسلهم إلينا أنتيياتر؛ الوصي على العرش. أردت كذلك أن أرحب بالشبان الذين أرسلهم إلينا نبلاء مقدونيا كي يتدرجوا في خدمة ملكهم، ويتعلموا كيف يصبحون محاربين مخلصين. إنني أقرأ الدهشة المرتسمة في أعينكم، وكأن شبحاً ظهر أمامكم. أعرف السبب. إنه هذا الرداء الذي أرتديه، أي العباءة، وهذا القماش الذي أضعه فوق عباةي العسكرية. أريدكم أن تعرفوا أنني فعلت ذلك عمداً لأنني لم أعد ملكاً لمقدونيا فقط. إنني فرعون مصر كذلك، وملك البابليين، وملك الفرس العظيم. مات داريوس وتزوجت الأميرة ستاتيرا، ولذلك فقد أصبحت وريثته. إنني أعلن، بهذه الصفة، سلطتي على كامل الإمبراطورية التي كانت له، كما أرحب في أن أستغل هذه السلطة لملاحقة بيسوس، الذي يدعي أنه الملك الجديد، إلى أي مكان قد يختبئ فيه. سننال منه، وسننزل به العقاب الذي يستحقه.

وسأقوم الآن بتوزيع الهدايا على الواصلين الجدد. لذلك سأقيم مأدبة عشاء خاصة هذا المساء، وسأقدم كمية كبيرة من الشراب. أريدكم أن تستمتعوا، وأريد أن تكون روحكم المعنوية عالية لأنكم سرعان ما ستنتقلون مجدداً. ونحن لن نتوقف حتى نحقق هدفنا!"

دوت عاصفة تصفيق فاترة، لكن الإسكندر لم يفعل أي شيء كي يجعلها أكثر حرارة، وأكثر حماساً. أدرك الملك الأفكار التي تجول في رؤوس جنوده ورفاقه، كما أدرك مدى دهشة الشبان، ومرافقي الجيش الذين وصلوا لتوهم من مقدونيا، لأن الملك كان بالنسبة إليهم

أسطورة حية، لكنهم وقفوا الآن أمام رجل يرتدي ملابس البرابرة الذين هزمهم حديثاً، وهي ملابس توحى بالأنوثة تحديداً. لم يكن ذلك كل شيء، لأن ما سيقوله كان أسوأ بكثير.

انتظر الملك حتى خيم الصمت التام قبل أن يستأنف حديثه: "إن المهمة التي نوشك على تحقيقها ليست أقل صعوبة من تلك المهام التي أنجزناها حتى الآن. كما أن الجنود الجدد الذين وصلوا من مقدونيا لا يكفون لهذه المهمة. لذا، سيتعين علينا أن نبذل قصارى جهودنا كي نقارع أعداء لم يسبق لنا أن رأيناهم أو حاربناهم. وسيتعين علينا كذلك أن نقيم حاميات في مدن وقلاع كثيرة، وأن نصطدم مع جيوش أكثر عدداً بكثير من الجيوش التي قهرناها في إيسوس وغوجاميل". خيم صمت تام على المعسكر، فركزت عيون المحاربين جميعاً على الإسكندر، وأرهفوا السمع كي لا تفوتهم كلمة واحدة مما يقوله. "ولهذا السبب بالذات اتخذت قراراً قد لا توافقون عليه، ولكنه ضروري جداً. إننا لا نستطيع استنزاف شبان وطننا عن طريق الطلب إليهم أن يخدموا في الجيش بشكل متواصل، كما أننا لا نستطيع أن نترك مراكزنا الدفاعية من دون جنود. ولذلك، أجريت الترتيبات من أجل تجنيد ثلاثين ألف فارسي، وتدريبهم بحسب الأساليب العسكرية المقدونية. سيبدأ التدريب على الفور، وسيستلم القادة العسكريون في المرزبانات تعليمات محددة في هذا الشأن".

لم يصفق أحد من الحضور، ولم يطلب أي شخص الإذن بالكلام، ولم يُصدر أي جندي أي صوت. بقي الملك وحيداً كما لم يكن من قبل، وسط هذا الصمت الثقيل. وتحرك هيفاستيون فقط، وأمسك بعنان جواد الإسكندر الذي قفز على صهوة بوسيفالاس، ثم اختفى فوراً وبسرعة.

لفَّ إيومينيس الوثيقة وحدَّق إلى عيني كاليستين قائلاً: "إذا، هذا هو الإسكندر بالنسبة إليك؟".

ردَّ كاليستين والارتباك باد في عينيه: "ربما يتعيَّن عليّ أن أقول إنَّ هذا هو ما يجب أن يكون عليه الإسكندر".

أجاب الأمين العام وكأنه يردِّد صيغةً ما حفظها عن ظهر قلب: "إن دور المؤرخ يجب أن يقتصر على رواية الحقائق كما حدثت بالفعل، وذلك بعد أن يكون قد عاينها بنفسه، أو بعد استشارة شهود عيان موثوق بهم".

"أعتقد أنني لا أعرف ما يجب أن يكون عليه دور المؤرخ؟ لكن يجب عليّ كذلك أن أحاول شرح نفسيّة الإسكندر وأفكاره ليفهمه الذين سيقروُن كتابي. سمحت لك أن تقرأ ما كتبتُه حتى الآن لأنني أحتاج إلى دعمك، ولأنك تدوّن يوميات الحملة كل يوم، ولكن على الأخص...".

"أتفعل ذلك لأنه يتحرك إلى ما يتعدى هوامش صفحتك، ويتخطى الحدود التي حدّدتها له في كتابك؟".  
"يحتمل ذلك؟".

"إذا، يمكنك أن تريح بالك، لأن الإسكندر لم يعد ذلك الشخص الذي نعرفه، وربما لم يكن ذلك الشخص مطلقاً".

"لقد أقسمَ أمام كل الإغريق أن يقود حملة تحالفٍ هيليني ضد بلاد فارس، وهي البلاد المعادية لنا منذ أجيال".

"لقد فعل ذلك وانتصر. إنه زعيم كل اليونانيين".

ظهر الضيق على كاليستين، وما لبث أن هبّ واقفاً: "أجل، لكنه أصبح الآن واحداً منهم. إنه يرتدي أزياءهم، ويحيط نفسه بالخصيان والمحظيات، كما أنه يدرّب شبانهم بحسب تقنياتنا القتالية، ولعله يتلقى دروساً باللغة الفارسية. يقولون إنه البارحة، وفي أثناء إحدى حفلات مجونه أقدم على... وأمام الجميع".

ردّ إيومينيس: "لقد قرّر أن يشهّر بكل الذين ينظرون إلى هذه الأمور بالطريقة التي تنظر أنت بها إليها. إنه يريد أن يُظهر لكم أننا قد وصلنا إلى نقطة اللاعودة. أما بالنسبة إلى الحفلات التي تتحدث عنها، فإنني لا أعتقد أن حفلاتنا أقل مجوناً. يتعيّن علينا أن نتعلّم تقبّل الواقع الحاضر مثلما نتقبل الماضي. صدّقني عندما أقول لك إنه ينبغي لنا أن ننسى الصورة التي كوّناها سابقاً، لأن ذلك يمنحنا راحة البال".

"راحة البال؟"

"أجل. إن الصورة التي ترسمها له في كتابك التاريخ صورة مطمئنة، ويسهل فهمها بالنسبة إلى الشخص اليوناني المتعلم، والذي يمتلك أفكاراً معتدلة، لكن الإسكندر أمرٌ مختلف تماماً".

"لا شك في ذلك. فهو لا يفوّت الفرصة مع مرور كل يوم كي يذكّرنا بهذه الحقيقة. يشعر جنودنا بالقلق، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المجندين الجدد ومرافقي الجيش من الشبان الذين وصلوا لتوهم من مقدونيا، وهم يشعرون بالصدمة. ظن هؤلاء أنهم جاءوا إلى هنا كي يخدموا بطلاً، وفاتحاً، ووريث آخيل وهرقل، لكنهم وجدوا بدلاً منه رجلاً يرتدي ملابس تليق بالنساء، ويريد إدخال التقاليد البربرية، والعادات المخزية والمقيّئة".

"إنها عادات أقل ما يُقال فيها إنها تختلف عن تلك التي اعتدنا عليها يا كاليستين. قادنا الإسكندر إلى بلادٍ لم يعبرها أي يوناني من



قبل، وتظللها سماء أخرى. قادنا عبر صحارٍ ومرتفعات، كما قادنا إلى ما وراء النيل ودجلة والفرات. وهو يحلم بالوصول إلى نهر السند. لا شيء يبقى على ما هو عليه، ألا تفهم ذلك؟".

"أنا أفهم ذلك، لكنني لن أتقبل هذا الواقع أبداً".

"وهل أعلمته بذلك؟".

"بالتأكيد".

"وماذا قال لك؟".

"قال لي: اكتب ما يحلو لك يا كاليستين. إنه لا يعطي معنى لأي شيء، ولا يكثر بأى شيء".

لم يُضف إيومينيس شيئاً، لأنه كان يعلم أن كاليستين قد وصل إلى درجة من القناعة، بحيث إن شيئاً لن يتمكن من تغيير معتقداته وأفكاره التي كوَّنها في ذهنه. وحين انتبه إلى تأخر الوقت، وقف كي يغادر، ولكنه شعر قبل أن يعبر عتبة الباب بأنه لا يزال يمتلك شيئاً يريد أن يقوله لكاليستين، بالإضافة إلى رغبته في إعطائه بعض النصائح. قال له: "يتغير الإسكندر على الدوام، لأن فضوله من النوع النهم، أما قوته الحيوية فهي من النوع الذي لا ينضب. يشبه الإسكندر الهاليكيون، وهو الطائر الذي يقولون عنه إنه لا يحط أبداً على الأرض في حياته. حتى إنه ينام في أثناء طيرانه، لأن الريح تحمله. إذا لم يكن عندك رغبة في اللحاق به يا كاليستين، فأنا أنصحك بأن تذهب الآن، وأن تعود إلى الوطن طالما أن هناك متسعاً من الوقت".

غادر إيومينيس، وترك المؤرخ وهو يفكر في هذه الكلمات. وبعد قليل، بدأ كاليستين بقراءة مقاطع من كتابه *تاريخ حملة الإسكندر* على ضوء المشعل، فقطع عليه، بعد وقت قصير، تركيزه هذا صوت خادمٍ يقول: "هناك رجل يا سيدي يقول إنه وصل مع التعزيزات العسكرية،

وإنه أمضى وقتاً طويلاً في البحث عنك. ويقول إنه يريد التحدث إليك".

"أدخله، ثم اسكب لنا بعض الشراب".

دخل الرجل، وعرف عن نفسه. قال إن اسمه إيفونيموس، وهو مواطن من بيزنطية، لكنه يعيش في مكان قريب من نيابوليس في تراقيا. قال إن أحد الحكماء الكبار في ستاجيرا أوكل إليه مهمة إيصال رسالة إلى كاليستين، ودفع له لقاء أتعابه، كما أكد له أن مستلم الرسالة سيدفع له مبلغاً إضافياً من المال.

قال وهو يتناول كيس نقوده: "أنا كاليستين، سأعطيك قطعتين نقديتين لامعتين لقاء تطفك بإيصال هذه الرسالة إليّ. أيمكنني أخذ الرسالة الآن؟".

ناوله الرجل الرسالة ووضع المال في جيبه، ثم شرب كوباً من الشراب، وغادر المكان.  
جاء في الرسالة:

من أرسطو إلى ابن اخته كاليستين. تحياتي!  
أمل أن يصل إليك خطابي هذا وأنت بصحة جيدة. للأسف، إنني أعاني ألماً في كتفي يسبب لي العذاب، ويعني من أخذ قسط من الراحة، وحتى في أثناء الليل. أتساءل عن مكان تواجدك عندما تستلم هذه الرسالة، وآمل أن تكون بمزاج جيد. وصلني منذ بعض الوقت مجموعة من النباتات والحيوانات النادرة من الإسكندر كي أضيفها إلى مجموعتي. مما يعني أنكم تتوغلون بعيداً جداً نحو بلاد قسيّة وغير معروفة.

أما بالنسبة إليّ، فإنني عندما أفرغ من عملي في الأكاديمية، سأعود إلى مقدونيا وتراقيا كي أكمل تحرياتي. إن ذلك الرجل الذي ادعى أن اسمه نيكاندر، وزعم بأنه شريك بوزانياس في اغتيال

فيليب، إنما يدعى يوبيثوس في الواقع. وكما أخبرتك في رسالة سابقة، لديه ابنة يجنّبها في هيكل آرتيمس في تراقيا القريبة من سالميديسيوس. عثرت على هذه الفتاة بمساعدة أحد ضباط أنتيباتر، كما احتجزتها في مكان يُمكن لوالدها أن يراها فيه، وهكذا سيضطر إلى الكلام إذا أراد استرجاعها.

أعتقد أنه أخبرني بكل ما يعرفه، وهو أن بوزانياس قد قُتل على يد أحد حراس إيبيروت، والذي كان يعمل في حقيقة الأمر مع القتلة، وأن يوبيثوس كان مكلفاً بمهمة العثور على مجبأ لذلك الحارس والتأكد من اختفائه من دون أن يترك أثراً. يبدو أن كل الدلائل تؤكد شكوكنا حول الملكة الأم، لكن المنطق يدعونا لمتابعة تحرياتنا بأقل قدرٍ ممكن من التحيز إلى أن يتوضح كل شيء.

إن ذلك الرجل لا يزال حياً ومختبئاً في قرية في إقليم فوكيس غير البعيد عن هالياتروس. إنني أرغب في الذهاب إلى هناك ما إن يتحسن قليلاً هذا الطقس السيئ المخيم هذه الأيام، وعندما يخفّ الألم الذي أعانيه في كفتي. اعن بنفسك.

لفّ كاليستين الرسالة، وأطفأ المشعل، ثم استلقى على سريره، وحاول أن يفكّر في شيء يمكن أن يساعده على النوم. وبعد مرور أيام قليلة، بدأ الزحف مجدداً وتسلّم رفاق الإسكندر وقادة كل الوحدات الكبيرة في فرقة البيزيتاروي، وفرسان الهيتايروي عشية مغادرتهم، مسامير فضية لجيادهم، وذلك جرياً على العادات الفارسية، كما تسلّموا عباءات من القماش الأرجواني. لم يتجرأ أحد على رفضها، ولا حتى كلايتوس الأسود، لكنّ أحداً لم يستخدمها قطّ، باستثناء فيلوتاس. أما ستاتيرا فقد أرسلت إلى إيكباتانا مع وصيفاتها. كان من المفترض أن تمضي فترة هناك قبل أن تذهب لزيارة

قبر والدها في بيرسيوليس. فأسف الإسكندر كثيراً لأنه مضطر إلى الابتعاد عنها.

سألته عروسه بينما كانت خادماتها يجهزها لتلك الرحلة: "هل ستفكر في؟".

"سأفكر فيك على الدوام، حتى وأنا في معمة القتال، وحتى عندما أصل إلى بلاد بعيدة حيث تبدو كواكبنا المألوفة لدينا قريبة من الأفق. أريدك أن تفكري في أنت أيضاً يا عروسي الحلوة".

سألت ستاتيرا بقدرٍ صغيرٍ من الخبث: "وهل ستأخذ باجاوس معك؟".

ردّ الإسكندر: "أجل. أجدّه مسلياً، وهو ينجح دائماً في انتشالي من اللحظات التي أشعر فيها بالإحباط والمتاعب. إنه يرقص ويغني بشكلٍ مذهل".

قالت ستاتيرا: "كما أنه وسيم جداً، وذو جسد متناسق تحسده عليه أجمل الخادمات، كما أن بشرته ناعمة مثل تويجات الورد. أفترض أنه يمكنك أن تعتبره هديتي إليك لأنني أنا التي قدّمته إلى والدي".

احتضنها الإسكندر في عناقٍ طويل، ثم ساعدها على الصعود إلى عربتها، وقال لها: "إذا علمت بأنك حامل فدعيني أعلم على الفور، وحيثما أكون. أرسلني إليّ أسرع المبعوثين في المدينة. كتبتُ رسالة إلى هاربالوس، أمين خزنتي، وأمرته بأن يعطيك ما تحتاجين إليه".

ردت ستاتيرا: "إن ما أحتاج إليه هو أنت. لكن، لا يسع المرء أن يمتلك كل شيء. كن حذراً، ولا تكن دائماً أول من يخاطر بحياته. لا أستطيع أن أتحمّل خسارتك". قبلته مجدداً بينما كانت الشمس تشرق بين قمم جبال هيركانيا العالية.

سُمعت في تلك اللحظة أصوات آلاف الخوافر، وصراخ سائسي البغال، وسُمع صرير دواليب العربات بشكل يصم الآذان. وحين التفت الإسكندر رأى صفّاً طويلاً من العربات المشاهمة لعربة ستاتيرا التي أوشكت على المغادرة. كانت هذه القافلة تناور للتحرك بعد آخر فرقة من فرق الجيش، وكان فرسان مسلحون من الفرس يرافقونها. سأل الملك الضابط الفارسي الذي كان قائد رجال المرافقة: "لكن... من هؤلاء؟".

أجابت ستاتيرا قبل أن يتمكن الضابط من فتح فمه: "إنهن محظياتك يا زوجي العزيز. يبلغ عددهن ثلاثمائة وخمس وستين محظية. أي واحدة لكل يوم من أيام السنة، ولكل واحدة منهن رقيقات لها بالطبع".

"محظياتي؟ لكنني ذاهب إلى الحرب، و...".

"لا يمكنك الارتحال من دونهن. إن كل واحدة منهن هي ابنة ملك حليف لنا، أو ابنة زعيم قوي من زعماء القبائل المنتشرة عبر السهول. لا يمكنك أن تخاصم آباءهن، لأن ذلك سيدفعهم إلى التحالف مع بيسوس".

أجاب الإسكندر بصوت يشوبه بعض القلق: "كلا. بالتأكيد لا يمكنني أن أخاصمهم".

بعد وقت قصير، انطلق الجيش شرقاً، وتقدم عبر منحدرات مغطاة بنسبات مختلفة الأنواع. وانتشرت بين وحدات الجيش أنباء تفيد بأن البلاط الفارسي بأكمله يتبع هذه الحملة، فيما عدا الأميرة ستاتيرا. وتراوحت ردود الفعل ما بين التهكم والقلق، وحتى السخرية في بعض الحالات. واضطر هيفاستيون أكثر من مرة إلى استلال سيفه دفاعاً عن شرف الملك، لكن بطليموس وسلوقس تمركزا إلى جانبه، وراحا يهدئانه كي لا تتحول التحديات والمواجهات إلى منازعات أسوأ.

وبعد أن مضى عشرون يوماً على مسيرة الحملة، وبينما كان المرشدون على وشك التوجه شمالاً نحو باكتريانا حيث التجأ بيسوس، وصلت أخبار أفادت بأن ساتيارزان مرزبان آريا، وبارزياني مرزبان آراكوسيا قد تمردا، وأهما يجهّزان جيشاً لمهاجمة الغزاة من الخلف.

دعا الإسكندر إلى عقد مجلس حرب على الفور، وظهر فيه مرتدياً درعه اليونانية، لكن الحاضرين لاحظوا أنه قد وضع إلى جانب الخاتم الذي يحمل النجمة الأرغادية، خاتماً يحمل الختم الملكي الفارسي. بدأ الإسكندر كلامه: "أيها الأصدقاء. لا بد من أنكم سمعتم أنه يتعين على حملتنا أن نغيّر اتجاهها. يتعيّن علينا الآن أن نتجه جنوباً من أجل إخماد التمرد الذي قام به ساتيارزان وبارزياني. سأقول لكم ما سنفعله: سيتبعنا كراتيروس مع جنود المشاة، بينما أنطلق أنا مع الفرسان. أما فيلوتاس، وهيفاستيون، وبتليموس، ولايسيمachus، وليوناتوس فسيتبعوني. فيما سيبقى بيرديكاس وسلوقس مع كراتيروس.

سنهاجم المتمردين بأسرع ما يمكننا، وقبل أن يعلموا أننا غيرنا طريقنا،  
وسنسحقهم. سيقدم كراتيروس الدعم اللازم إلينا ما إن يصل بقواته؛  
وذلك إذا احتجنا إليه. إذا كان لدى أحدكم فكرة أفضل من هذه،  
فإنني أريد أن أسمعها الآن من فضلكم".

لم يتكلم أحد، ولم يضحك أحد، ولم يلقِ أحدهم نكتة ما، أو  
يقدّم رداً لبقاً كما كانوا يفعلون في السابق، بل خيم جو من التوتر،  
وعدم الارتياح والحرج. ويعود سبب ذلك إلى أن كل واحد منهم سمع  
كيف عامل الملك كلايتوس في زادراكارتا عندما انتقد ملابسه. كان  
كل واحد منهم يفكر، وإن لم يقل أي شيء، في الجهد الذي يُبذل  
لجعل هذه المجموعة الهائلة من المحظيات والخدم والخصيان ترافق الحملة،  
وهو الأمر الذي تسبّب في إبطاء سيرها من دون طائل. كما أنهم سمعوا  
قصصاً كثيرة عن حوادث الاحتكاكات المستمرة، وعدم التحمّل  
المتبادل، بين الجنود المقدونيين والفرس.

تفحص الإسكندر وجه كل واحد منهم على حدة، وبحث فيه  
عن تعابير الصداقة والتفهم، لكنهم غضبوا أبصارهم، ولعلمهم شعروا  
بالخجل من إظهار أي من عواطفهم الإيجابية التي أغدقها عليه مدة  
سنوات طويلة.

تعمّد أن يقول بلهجة متواضعة: "لا تبدو لي متحمسين أبداً.  
أيحتمل بأنني عاملتكم بطريقة سيئة؟ هل خيبت آمالكم بطريقة ما. إذا،  
هيا، تكلموا الآن!"

سارع هيفاستيون للقول: "إنهم خائفون جداً من أن يخبروك أنهم  
قلقون. انظر إليهم! إنهم أغنياء الآن ويأملون بالاستمتاع بحياتهم، ولهذا  
تراهم خائفين. إنهم ينتقدونك لأنك ترتدي ملابس فاخرة جداً، ولأنك  
تمتلك هذا العدد الكبير من أتباعك من جنود الفرس، وكل هؤلاء

الفتيات، لكنهم يودّون لو أنهم يفعلون الأمر ذاته. إنهم يريدون أن يسكنوا برحاء في قصرٍ فخيم يقع بين هذا المكان والساحل الفينيقي. أعتقد أنهم نسوا الوعود التي قطعوها بأن يتبعوك إلى أي مكان، وحتى إلى أطراف الأرض. أليس كذلك أيها الرجال؟ أليس هذا هو الواقع؟ هيّا، قولوا شيئاً... أم أن القطة الأسطورية قد أكلت ألسنتكم؟".

قال كراتيروس: "هذا يكفي يا هيفاستيون. إنني مستعد للتضحية بحياتي من أجل الملك، هنا، والآن، كما أن كل رفاقي مستعدون لفعل الأمر ذاته. لا يتعلق الأمر بالملابس أو المحظيات فقط، وذلك لأن الجنود يريدون أن يعرفوا متى ستنتهي هذه الحرب. إنهم يريدون أن يعرفوا كذلك أين ستنتهي، وكم من الوقت سيمرّ قبل الوصول إلى تلك المرحلة. لا يمكن للرجال أن يستمروا في اكتشاف أنه مع مرور الأيام، وحتى في هذه اللحظة بالذات، ستكون هناك مرحلة أخرى، وستأتي بعدها مرحلة غيرها. توجهوا شمالاً... لا، توجهوا جنوباً... أو ربما سنضطر إلى التوجه غرباً هذه المرة؟ إنهم ينتظرون أن يروا شيئاً مألوفاً فيك يا إسكندر، وأن يعرفوا بأنك لا تزال ملكهم. إنهم مستعدون لاتباعك. ولكن، لم يعد في وسعهم العيش بعد الآن في ظل ظروف غامضة كهذه، وأن يعيشوا يوماً بيوماً من دون أمل، ومن دون وجود أي نوع من الأمن".

أوماً الإسكندر، لكنه لم يقل شيئاً، وكأنه يواجه موقفاً لم يتصور إمكانية حدوثه قبل شهرٍ واحد فقط. تكلم هيفاستيون مجدداً حول هذه النقطة: "لكن، هل أخبرتكم كل جنودكم؟ وأنت يا فيلوتاس، يا من أصبح القائد الأعلى للفرسان، ماذا أخبرت رجالك من الهيتايروي؟ أما زلت تقول لهم إن الإسكندر لم يكن ليقدر على أي شيء لولا مساعدتك ومساعدة أبيك؟ وإنه أصبح ضعيفاً؟ وإن همّ الوحيد في كل



ليلة ينحصر في مشاهدة محظياته يسرن عاريات أمامه كي ينتقي واحدة منهن لتمضي الليل معه؟ هل قلت لهم إنه كفّ عن القراءة، وإنه لم يعد يشعر بالقلق على جنوده ومصائرهم؟".

صاح فيلوتاس بعد أن اجتاحت نوبة غضب: "إنها أكاذيب، كلها أكاذيب! لم أقل أي شيء من هذا النوع!".

ردّ هيفاستيون: "وعلى كل حال، هذه هي الإشاعات التي يسمعا المرء، وسبق لنا أن سمعناها في كيليكيا بعد معركة إيسوس، وفي مصر بعد عودتنا من واحة آمون".

"إنها أحاديث غير صحيحة! إنها أكاذيب! أحضر إليّ الشخص الذي قال هذه الكلمات، فقط جد شخصاً واحداً يمكنه أن يدعم علناً الاتهامات التي ألصقت بي، هذا إذا كنتَ تتمتع بالشجاعة. وصلتني أخبار بالأمس أفادت أن شقيقي نيكانور قد جرح في زادراكارتا. أصيب بسهمٍ خلال قيامه بدورية في جبال هيركانيا، ولم يستطع أي طبيب شفاؤه بعد. إنني أسألك الآن: هل كلف شخص ما نفسه بالسؤال عنه؟ هل خطر على بال أحد أن والدي، وبعد أن خسر ابنه الأصغر يخاطر بخسارة ابن آخر؟ هل سمعني أحدكم أطلب إجازة كي أبقى معه وأساعده؟".

ردّ هيفاستيون بسخرية: "أنت القائد الأعلى للفرسان، وهذا المنصب خطر حيث يجعلك تنسى كل شيء عن المسكين نيكانور".

وقف فيلوتاس، وتحرك بشكلٍ يوحي بأنه على وشك الهجوم على صديق الإسكندر، لكن بطليموس منعه، ثم التفت صوب هيفاستيون، وحدّق إلى عينيه، وصاح به: "توقف عن هذا! ليس من اللائق التحدث عن فيلوتاس بهذه الطريقة. وصلتني أخبار من مبعوثٍ قبل وقت قليل، وقبل أن يعقد هذا المجلس، تفيد بأن نيكانور يحتضر. ويُحتمل كثيراً بأنه...".

حَيِّم صمتٌ ثقيلٌ فوق خيمة المجلس، ومرّت فترةٌ بدت بلا نهاية حيث لم يُسمع خلالها غير صفير الريح التي كانت تهب فوق المرتفعات. وكان الصوت حزيناً يوحى بعزلة مطلقة، لكنه امتزج مع الأصوات الصادرة عن الراية الملكية التي ترفرفُ عالياً. غطى فيلوتاس وجهه بيديه، أما هيفاستيون فقد نظر إلى الأرض، ولم يعد يعرف ما يقوله في هذا الموقف. أما سلوقس وبطليموس فقد تبادلوا نظرات تنم عن القلق، ونظر كل واحد منهما عبثاً إلى عيني الآخر بحثاً عن أي فكرة قد تساعد على إزالة هذا التوتر الذي لا يُحتمل. فيما رفع بيريتاس الذي تكوّر على نفسه أمام قدمي الإسكندر أنفه نحو الإسكندر، وأصدر أنيناً خافتاً. بدا الأمر وكأنه شعر بالثقل الذي يَحْمِي على روح الإسكندر.

داعبه الإسكندر، ثم وقف وقال: "أنا آسفٌ فعلاً بالنسبة إلى نيكانور. ولكن، يتعيّن عليّ أن أعرف ما إذا كان في وسعي الاعتماد عليكم جميعاً".

نظر كراتيروس إلى رفاقه، ثم وقف بدوره، وسار نحو الإسكندر: "كيف أمكنك أن تشكّ فينا؟ ألم نقف إلى جانبك على الدوام؟ ألم نحارب إلى جانبك حتى النهاية، ألم نتعرض لكل أنواع الجروح في معاركنا؟ إن كل ما نريد معرفته هو ما تريده منا. ولكن قبل أي شيء آخر، نريد أن نعرف ما الذي تريده من الرجال الذين تبعوك إلى هذا الحد".

ردّ الإسكندر: "أريدكم أن تفهموني، لأنني لم أتغيّر. إن ما أفعله شيء ينبغي لي القيام به".

سأل ليوناتوس عند هذه النقطة: "أيمكنني أن أتكلّم؟".  
"بالطبع".

"يخشى الرجال من أنك ترغب في أن تصبح ملكاً عظيماً بشكلٍ من الأشكال، وأن ترغمهم على التصرف مثل الفرس، وأن تُجبر الفرس على التصرف مثلهم".

"أعتقد أنني كنتُ سأقدم على إحراق القصر في بيرسيبوليس وغرفة العرش فيه، لو كنت أرغب في أن أكون مثل الملك العظيم؟ سننطلق غداً كي نستأنف زحفنا، لأن إيمولبوس من سولوي أبلغني أن ساتيارزان موجود الآن في أرتاكوانا. سنغادر عند الفجر. يستطيع أي شخص لا يرغب في المتابعة أن يغادرنا الآن برفقة رجاله".

بدأ ليوناتوس بالقول: "لكن، أيها الإسكندر، إننا..."، لكن الملك وقف ببساطة وغادر المكان.

رفع فيلوتاس رأسه، ونظر إلى رفاقه حوله، وقال: "لا يحق له أن يعاملنا بهذه الطريقة. لا يحق له".

في هذا الوقت، وصل الإسكندر إلى خيمته ودخلها. وكان إيمولبوس من سولوي بانتظاره.

سأله وهو يجلس على كرسي: "هل من أخبارٍ جديدة عن ساتيارزان؟".

"إنه يعد العدة للمعركة، لكن جنوده في حالة معنوية سيئة. لا أعتقد أنهم سيحاربون حتى النهاية المرة. كيف كان اجتماع مجلس الحرب؟".

هزّ الإسكندر كتفيه.

"لا تدعهم يؤثرون فيك. يتعيّن عليهم، ببساطة، أن يعتادوا على هذا الوضع الجديد. إنهم متعلقون كثيراً بعباداتهم، لكنني أعتقد أنهم يشعرون بالغيرة. إنهم يخشون من ابتعادك عنهم، حيث لن يعودوا قريين منك كما كانوا من قبل".

"يبدو أنك تعرفهم جيداً".

"أعرفهم بما يكفي".

"ماذا تعني بذلك؟".

"أعني أنه بعد معركة إيسوس، أي عندما استأنفتُ العمل معكم، ركزت اهتمامي على أصدقائك كذلك. مَنْ تعتقد أنه أقدم على وضع الفتيات في أسرهم؟".

"أنت؟ لكنني لم...".

"آه! هراء! إنها مهمة تستحق القيام بها... كما أن الكلام الذي يُقال فوق الوسادات من اختصاصي أنا. أتعرف أن الرجال يميلون إلى الثرثرة أكثر بعد تمضيتهم ليلة ممتعة؟ إنها نقطة مهمة. ألا تعتقد ذلك؟".  
"توقف عن الكلام".

"أخبرتني الفتيات بكل شيء".

"لا يُقدم أصدقائي على خيانتِي أبداً".

"يُحتمل ذلك، لكن بعضهم يُسهل الإيقاع بهم أكثر من الآخرين. خذ فيلوتاس مثلاً. إنه قائد فرسانك الأعلى، وهو رجلٌ يلعب دوراً مهماً".

ازداد انتباه الإسكندر عند هذا الكلام: "ماذا سمعتَ عن فيلوتاس؟".

"في الواقع، لم أسمع الكثير لكنه أبلغ الجميع بأنك مجرد فتى صغير، وأنت ما كنتَ تقدر على كسب أي معركة لولاه، ولولا والده، لا في غرانيكوس، ولا في إيسوس. وقال كذلك إنك تعاملهما بشكلٍ غير عادل".

"لماذا لم تُخبرني عن ذلك فوراً؟".

"ما كنتَ لتصغي إليّ".

"ولماذا سأصغي إليك الآن؟".

"لأنك في خطر. أنت على وشك أن تعبر بلاداً غير معروفة بالكامل، وستواجه شعوباً متوحشة. سيتعين عليك أن تعرف الأشخاص الذين يمكنك الاعتماد عليهم، والأشخاص الذين لا يسعك الاعتماد عليهم. كن حذراً كذلك من ابن عمك إمينتاس".

"أبقيته تحت المراقبة المشددة منذ الحادثة الأولى عندما ألقيت القبض عليه في الأناضول. تصرف بشجاعة على الدوام، ولطالما كان مخلصاً لي".

"حقاً، إنه أميرٌ شجاع ومخلص. أتعرف إلى من سيلجأ رجالك إذا تخلوا عنك؟".

حدّق إليه الإسكندر بصمت. حدّق إلى الرجل الذي عبّر بالكلمات عمّا قرأه في عينيه: "سيلجأون إلى الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من سلالة الأرخاديين. لتمنحك الأسياد نوماً هانئاً". وقف الرجل، وانحنى بلطف، ثم توجه نحو خيمته بعد أن تأكد من أن بيريتاس لا يتبعه.

انفتحت آسيا بكاملها أمام جيش الإسكندر، لكن تضاريسها أصبحت أكثر وعورة وأكثر انعزالاً. وصل الجيش إلى أراضٍ صخرية، وهي البيئة المثالية للعقارب والأفاعي، وهي الأراضي التي جعلتها الشمس قاحلة بأشعتها غير المنقطعة. انتشرت هنا وهناك أجمت عدة نبتت فوق مجاري أنهارٍ أصبحت جافة، وفوق المستنقعات، وكانت كلها محاطة بترسباتٍ من الملح. زحف الجنود بصمتٍ لأيامٍ وأيامٍ من دون الحصول على استراحة، ومن دون أن تهب عليهم نسمة واحدة تلطف قليلاً من حدة الحر الخانق.

بدت السماء ذاتها خالية، عدا الأنوار التي شابهت درعاً برونزية مصقولة من شدة التمعها. كانت الطيور الوحيدة التي رأوها طيوراً مفترسة تحلّق بشكلٍ دائري بأجنحتها التي تخفق ببطء، باحثةً عن الحيوانات التي ضلّت طريقها، أو تلك التي استسلمت في معركتها ضد الموت، وثُركت للمخلوقات التي تتغذى على الجيف، والتي تزحف بين الصخور الخالية من كل شيء يدل على الحياة.

لم يواجه الجنود صعوبات جمّة، حتى في رحلتهم نحو واحة آمون، وذلك لأن كثبان الصحراء تميّز بجمال قممها الحادة، وتباينات الظلال والضوء فيها، وصفاء أشكالها الرشيقة والمتغيرة، وهي الأشكال التي نحتتها الرياح، فبدت الصحراء وكأنها محيط فضي تُرك ساكناً بإشارةٍ من يد أحد ما، والكثبان تمتلك إمكانية ظهور تجلياتٍ جديدة وشيكة الحدوث.

في المقابل، لم تكن هذه الأراضي توحى بأفكار كثيرة، إلا في ما يتعلق بالموت، والوحدة القاتلة، والعزلة المستمرة. ولذلك تولّد في قلب كل رجلٍ من الرجال نوع من أنواع الحنين العميق، ورغبة عارمة في العودة إلى الوطن. لم يكن لديهم أي هدف، ولا أي معنى يبرّر هذا التعب المتواصل، وكانوا يخطون كل خطوة بتردد متزايد، والخوف يغمرهم من هذه الأراضي الممتدة، والخالية من التضاريس المتنوعة، والتي لا نهاية لها. وبدا لهم أنهم متأكدون من شيء واحد وهو معرفة مرشديهم المحليين بوجود مقصد ما وراء الأفق البعيد، وكأنه السراب. بدت الأيام المحيدة التي مرّت عليهم في مهمتهم بعيدة جداً، وبدا أن عدداً كبيراً من الرجال قد ندموا على استجابتهم لنداء الملك. إذ لم يتمكن أحد منهم من فهم الهدف الذي يسعى إليه داخل هذه البلاد البعيدة والمقفرة، والتي لا تنتشر فيها غير قرى قليلة متناثرة هنا وهناك. بمنازلها المشيّدّة من أحجارٍ طينية مغطاة بروث الجمال أو الخراف.

وشياءاً فشيئاً، بدأت طبيعة الأرض تتغيّر بشكلٍ تدريجي، كما أن الهواء ذاته أصبح منعشاً وأكثر برودة. وظهرت المرتفعات كذلك، كما تساقطت بعض الأمطار بين الحين والآخر، وتغطت الأرض بطبقة من النسبانات. كما ظهرت أشجارٌ منعزلة هنا وهناك، بالإضافة إلى قطعان صغيرة من الجمال ذات الوبر الطويل، أو الجياد ذات الشعر المتشابك. وصلوا إلى وادي أحد الأنهار، وما لبثوا أن وصلوا إلى ضفاف بحيرة كبيرة تمكنوا من رؤية انعكاسات أسوار أرتاكوانا، وهي عاصمة الآريين، والقلعة التي يتحصّن فيها ساتيبارزان، وأبراجها على صفحة مياهها.

وما إن بدأ الجيش بالانتشار حتى فتحت بوابات القلعة على مصارعها، وشرعت سرية من الفرسان بالهجوم بسرعة بالغة، وهم

يصيحون بأصوات عالية، كما أثار الجنود سحابةً كبيرةً من الغبار الأحمر سرعان ما انتشرت فوق السهل. وأمر فيلوتاس وكراتيروس بإطلاق أبواق الإنذار. فنحس فرسان الهيتايروي جيادهم المتعبة والعطشى ودفعوها إلى المواجهة.

بدا أن الجيش تعرّض لضربة أليمة بعد الصدام الأول، فيما كان الأعداء مرتاحين في قلعتهِم. لكن جنود الإسكندر حاربوا بشجاعة وهم يتحركون بتراجعٍ محسوب، كما سعوا إلى الحصول على دعمٍ من رفاقهم الذين هرعوا إلى الأمام في موجاتٍ متعاقبةٍ للانضمام إليهم بعد سماعهم أصوات الأبواق.

بعد ذلك، أرسل الإسكندر الجنود الفرس للهجوم، وذلك بعد أن أبقاهم حتى تلك اللحظة في عداد الاحتياط، وأوكل إليهم مهمة حماية العربات ومرافقي الخدم والمحظيات. انطلقت الجياد البارثية بسرعة، وهي المهياة أكثر لتحمل الحرارة والتعب، وفعلت ذلك باندفاعٍ يماثل اندفاع الجياد الأخرى. أسرع المحاربون الميديون والهيراكانيون، بالإضافة إلى من بقي من فرقة الخالدين إلى ترك انطباع جيّد أمام الملك. فاندفعوا إلى صفوف الأعداء، وتمكنوا من فتح ثغرات فيها، ومن نشر الفوضى لدى انطلاقهم. كانوا يرتدون ثياباً مماثلة لتلك التي يرتديها أعداؤهم الذين لم يميّزهم، وأعطاهم هذا الأمر أفضلية كبيرة فضربوا بقوة كبيرة خلال الهجوم الأول.

خفّت حدة المعركة بشكل تدريجيّ، كما تجزأت جبهة المواجهة إلى بؤر قتالٍ شرسةٍ ومتناثرة. فامتطى فرسان فرقة الطليعة صهوات جيادهم، وهم الذين بقوا ساكنين حتى هذه اللحظة، واندفعوا بقيادة الملك شخصياً نحو أحد جناحي العدو. تلقى رجال ساتيارزان ضربات قاسية، وأجبروا على التراجع إلى الوراء، وتلقوا بذلك صدمةً كانت كافيةً لإلقاء الرعب في



قلوبهم. عند هذه المرحلة، أطلق كراتيروس رجاله من مشاة الأغرانيين، وهم الذين تسلحوا بسكاكينهم وخطافهم الطويلة والحادة. تحرك هؤلاء مثل الأشباح، تحميهم سحابة من الغبار الكثيف، وراحوا يستفردون بضحاياهم ويضربونهم بدقة حيث لم تذهب أيّ ضربة سدى.

لاحظ ساتيبارزان أن هجومه قد فشل فشلاً ذريعاً، فأمر بالنفخ في الأبواق إشارة انسحابهم. وهكذا تراجع جنوده وهم يتكبدون خسائر إضافية، ثم تسللوا من خلال الأسوار إلى داخل المدينة. بعد حين، هبت رياح قوية وحملت الغبار معها بعيداً، فانكشفت مئات الأجساد التي تناثرت في أرجاء ميدان المعركة، وكان عدد كبير من الرجال قد أصيبوا إصابات قاتلة، لكن بعضهم كانوا جرحى فراخوا يطلبون المساعدة.

تحرك الأغرانيون من رجل إلى آخر، وراحوا يقطعون رقاب كل جنود الأعداء ويجردونهم من أسلحتهم وجليهم. حدث كل ذلك تحت أعين النساء اللواتي كن ينظرن من فوق الأسوار، ورحن يشدّدن شعر رؤوسهن، وهنّ يطلقن نواحاً يقطع نياط القلوب.

أصدر إيومينيس أوامره بإقامة مخيم، وبوضع دفاعات حجرية، وحفر خنادق حول محيطه بالكامل. وتمكّن لدى إشرافه على أعمال إقامة المعسكر من سماع الجنود في أثناء تدميرهم من القرار الذي اتخذه الملك باستخدام الفرس لمهاجمة جيش ساتيبارزان.

تساءل الجنود: "لماذا اضطر إلى استخدام هؤلاء البرابرة. كان بإمكاننا تدبّر الأمر من دونهم. فلقد وصل الأمر إلى حدّ عدم استخدام جنودنا من المشاة".

قال أحدهم موافقاً: "هذا صحيح. أراد الملك إذلالنا بشكل واضح، وهذا ليس بالأمر الصائب بعد كل التعب الذي قاسيناه، وكل الأخطار التي واجهناها".

علّق جندي آخر بالقول: "لكن، ماذا يمكننا أن نفعل؟ إنه الآن واحدٌ من الفرس، ويحيط به حراسٌ منهم، كما أنه يأخذ حمامه مع ذلك الخصي الذي يدلّكه، ومن يعلم الأمور الأخرى التي يقوم بها. وبعد ذلك، يقوم باستعراض كل أولئك المحطيات، بينما نقوم نحن بالحراسة...".

أصغى إيومينيس بصمت، لأن ما سمعه كان جارحاً.

وكذلك سمع إيمولبوس من سولوي الحديث، بالرغم من وقوفه جانباً، وتمضيته معظم وقته جالساً داخل خيمته. ويعود السبب في ذلك إلى امتلاكه عيوناً وآذاناً عديدة، لذلك لم يفته أي شيء، عدا القليل جداً. لكن إيمولبوس، وبالرغم من كل المعلومات التي حصل عليها لم يكن يعرف أن الأحداث كانت على وشك أن تفاجئه، وللمرة الأولى في حياته.

وحين انتهى تحضير المعسكر، وكان كل الجنود يستعدون للحصول على قسط من الراحة بعد أن انحدرت الشمس وراء أسوار أرتاكوانا بألوانها البنية المائلة إلى اللون الأصفر، ارتفع نفير بوق طويل وحزين في الجوّ. اقترب أوكسهاتري، الذي كان دليل الملك في طريقه إلى إيكبباتانا وزادراكارتا من الإسكندر وقال بلهجته اليونانية الآخذة بالتحسّن بسرعة: "إنه مننادٍ. إنه واحد من المنادين التابعين لساتيارزان".

"أذهب إليهم يا أوكسهاتري، فرما يريدون التفاوض على... الاستسلام".

امتطى أوكسهاتري صهوة جواده، وأسرع نحو أسوار المدينة، بينما تقدم نحوه أحد المبعوثين. التقى الرجلان، وتبادلا كلمات قليلة قبل أن يعود كلاهما، كلٌّ إلى معسكره.

في هذا الوقت، تجمع كل رفاق الملك حوله كي يعطوه تقريراً عن خسائرهم في المعركة، وكي يقدموا اقتراحاتهم بشأن تحركهم في اليوم التالي. فظهر أوكسهاتري في هذا الوقت بالذات وقدم تقريره: "يتحدى ساتيبارزان أقوى رجل بينكم للدخول في مبارزة معه. تغادرون إذا ربح، وتأخذون المدينة إذا خسر".

اندفعت دماء الحماسة في رأس الإسكندر، لأن ذهنه كان مليئاً بمشاهد المبارزات التي جرت بين أبطال ملاحم هوميروس، وهي المبارزات التي سيطرت على مخيلته في فترة طفولته. فقال من دون تردد: "أنا سأواجهه في المبارزة".

ردّ بطليموس على الفور: "كلا، لن يُقدم ملك مقدونيا على مبارزة مرزبان. يمكنك أن تختار شخصاً من بيننا كي يمثلك".

عند هذا الحد، تدخل أوكسهاتري قائلاً: "إن ساتيبارزان ضخم وقوي". رفع الرجل ذراعيه كي يوضح مدى ضخامة جثة خصمهم.

قال ليوناتوس: "سأذهب أنا. أنا ضخمٌ وقوي بما فيه الكفاية".

نظر الإسكندر إليه صعوداً ونزولاً وأوماً، وكأنه يطمئن نفسه ورفاقه. وربّت بعد ذلك على كتف صديقه قائلاً: "أنا موافق. قطعهُ إرباً إرباً يا ليوناتوس".

\*

عند فجر اليوم التالي، واجه البطلان بعضهما فوق فسحة واسعة من الأرض، واصطفّ الجيشان بكل جنودهما تقريباً في تشكيلٍ شبه دائري كي يشاهدوا المبارزة. انتشرت أخبار هذه المبارزة بسرعة بين الجنود المقدونيين، وسرت بينهم حماسة كبيرة. كان الجميع يعرفون مدى قوة ليوناتوس وقدرته الجسدية المدهشة، وذلك لأنهم اختبروا قوته هذه في المعارك العديدة والحاسمة التي خاضوها. لذا، ما إن ظهر أمامهم

حتى راحوا يهتفون له هتافات التشجيع. كان مسلحاً من رأسه وحتى  
أخمص قدميه، وحمل درعه الكبيرة ذات النجمة الفضية فوق ذراعه  
اليسرى، بينما شهر سيفه الفولاذي اللامع بيده اليمنى، واعتمر خوذته  
ذات العرف الأحمر.

فرّق الفرس صفوفهم كي يسمحوا لخصم ليوناتوس بالمرور، فدهش  
عددٌ كبير من المقدونيين لكنهم بقوا صامتين. كان ساتيبارزان عملاقاً  
بالفعل، وتقدّم بخطوات ثقيلة وبطيئة. حمل يمينه سيفاً طويلاً ومقوساً،  
كان نصله حاداً إلى أقصى درجة. كما حمل درعاً مصنوعة من الخشب  
ومغطاة بصفائح حديدية لامعة، وكانت خوذته على الطراز الأشوري.  
ألحق بهذه الخوذة غطاءً جلديّ مرصّع يصل إلى كتفيه، ومزوّد بسلسلة  
تلتفّ حول عنقه. التقى طرفا شاربه الكثيف مع حاجبيه السوداوين،  
 واجتمعت كل هذه الأمور معاً لتمنحه مظهراً شرساً ومرعباً.

لم يتأخر الرجلان عن الوقوف في مواجهة بعضهما، وعن تحديق  
أحدهما إلى عيني الآخر من دون أن يقولوا كلمة واحدة. وقفا منتظرين  
إشارةً من الرجلين المكلفين بإعطاء إشارة البدء. كان أحدهما مقدونياً  
والآخر فارسياً. بدأ المترجم بالترجمة: "يقترح النبيل ساتيبارزان قتالاً  
حتى الموت من دون وجود قواعد ثابتة. ستربح القوة والشجاعة هذا  
اليوم".

أحكم ليوناتوس قبضته على مقبض سيفه، واستعدّ للضربات  
الأولى، وقال: "قل له إنني موافق".

أعطى المشرفان إشارة بدء المبارزة، وهي المبارزة التي لا يُمكن أن  
تنتهي الآن إلا بموت أحد المحاربين.

اقرب ليوناتوس قليلاً، وبحث عن ثغرة في دفاعات خصمه، بينما  
تمكّن الفارسي من تغطية نفسه بشكلٍ شبه كامل بواسطة درعه، وشهر

سيفه بشكلٍ منخفض فبدا وكأنه غير قلقٍ على الإطلاق. ولكن، عندما بدأ ليوناتوس هجومه أطلق ساتيبارزان ضربته الخاطفة التي أصابت خوذة ليوناتوس بكامل زخمها، فاهترّ مترنحاً باضطراب.

صاح الإسكندر الذي تأثر كثيراً: "عد! ليوناتوس، عد إلى مكانك! قم بحماية نفسك... انتبه!". دفعته فطرتَه للدفاع لنجدة صديقه، لكنه كان قد أعطى كلمته كملك بأن أحداً لن يتدخل على الإطلاق في هذه المواجهة.

ضرب ساتيبارزان ليوناتوس مرةً تلو أخرى، بينما حاول ليوناتوس دفع تلك الضربات بدرعه التي حملها أمامه في أثناء تحركه إلى الخلف بساقين مرتجتين. راح الجيش بأكمله يراقب سيل الضربات الرهيبة التي كانت تنزل على بطلهم. أما من الجانب الفارسي، فقد تصاعدت صرخات التشجيع للعَملاق الذي كان يتقدم بعناد باحثاً عن فرصةٍ تتيح له إنزال الضربة القاضية. لم يتمكن ليوناتوس من الرد، فحسباً على ركبتيه، عندها تلقى ضربةً أخرى من خصمه أصابت النجمة الفضية الموجودة على درعه، وكان ذلك نذير شؤم مخيفاً للجنود المقدونيين. احترقت هذه الضربة اللحم في كتفه فسال منها الدم بغزارة.

في تلك اللحظة، أطلق جنود البيزيتاروي صرخة مرتعبة بسبب الإحباط، واهمرت الدموع من أعينهم وهم ينتظرون الضربة القاضية التي سينزلها ذلك الفارسي. لكن الألم الذي كان حاداً مثل ضربة السوط أعطى ليوناتوس فرصةً أخرى. فلقد بدأ البطل المقدوني بالوقوف على قدميه مستفيداً من طاقة مذهلة، فأزاح خوذته عن رأسه بحركة رشيقة ورماها بعيداً. فلمح جرحه، ورأى الدم المتدفق منه، وأدرك على الفور أنه ليس أمامه وقتٌ طويلٌ قبل أن تتحلى عنه قوته

تماماً. لذا، اندفع إلى الأمام مطلقاً صرخة رهيبة، وضرب بدرعه درع خصمه.

فوجئ ساتيارزان، وصُدم من هذا الهجوم الجديد الذي أفقده توازنه. فاستغل ليوناتوس هذه الفرصة المؤقتة إلى أقصى حد، وهاجم مرة، ومرتين، وثلاث مرات بسيفه، بينما حاول الفارسي أن يتفادى هذه الضربات بسلاحه. تراجع ساتيارزان، فاندفع ليوناتوس بقوة أكبر من ذي قبل. ولكن، فجأة، انكسر نصل سيفه إلى قسمين لأن درع المرزبان كانت مصنوعة من معدن ذي نوعية أفضل من ذلك الذي صنع منه سيفه.

ردّ الفارسي بسرعة على هذا الهجوم بعد أن استعاد توازنه، فتحرك قُدماً نحو خصمه الذي أصبح مجرداً من السلاح في هذا الوقت، ورفع سيفه عالياً، فلمع تحت أشعة الشمس، بشكل مخيف. ولكن، قبل أن يهوي به أطلق لايسيماخوس صيحته قائلاً: "أمسك يا ليوناتوس". ورمى له فأسه ذات النصل المزدوج. أمسكها ليوناتوس بسرعة خاطفة قبل أن يتمكن ساتيارزان من الضرب بسيفه، وقطع ذراع الفارسي تماماً. وقف خصمه وهو يتلوى ألماً. لكن ليوناتوس هوى بفأسه مجدداً فقطع عنق الفارسي، فتدحرج رأسه على الأرض، بينما كانت عيناه السوداوان لا تزالان مفتوحتين من فرط الدهشة.

سرت موجة عظيمة من الاغتباط في صفوف المقدونيين، وأسرع المسعفون لتقديم المساعدة إلى بطلهم الذي بدا الشحوب عليه نتيجة الصراع الذي خاضه، ثم حملوه إلى خيمة الطبيب فيليب علّه يتمكن من إنقاذ حياته.

تجمّع الفرس حول جثة قائدهم المقطّعة، وشكّلوا حاجزاً بهدف إخفاء ذلك المنظر الرهيب عن أعين جنود أعدائهم. لم يتحرك الفرس

نحو المدينة إلا بعد أن جمعوا جسد ساتييارزان، ووضعوه على نقالة، ثم ساروا وهم يحملونه ببطء في موكبٍ جنائزيٍ مخلفين وراءهم خطوطاً من الدماء.

استسلمت أرتاكوانا قبل مغيب شمس ذلك اليوم.

أعاد الإسكندر تسمية المدينة فأطلق عليها اسم إسكندرية آريا. ولم تتأخر الأخبار القادمة من مصر بأن أولى المدن التي أسماها الإسكندرية، وهي المدينة التي صمّمها له دينوقراط وبنها على الشاطئ، قد بدأت تزدهر. نمت التجارة في هذه المدينة بسرعة، كما ازداد سكّانها يوماً بعد يوم، لأن السكان الجدد جاءوا من كل الأماكن كي يشتروا منازل، وأراضي، وحدائق، وهكذا عرفت المدينة نمواً كبيراً وصاحباً.

ترك الإسكندر حاكماً مقدونياً في إسكندرية آريا، وترك معه حامية صغيرة من المرتزقة، والتي أوكل إليها أمور ضبط المداخل، والممتلكات، والعبيد، والنساء. كانت الفكرة من وراء ذلك أن يشجعهم على تأسيس أسر، وهكذا سيشعرون بأنهم مرتبطون بطريقة معينة بذلك المكان البعيد والمنسي، وربما عندها ستخفّ قليلاً حدة حنينهم إلى أوطانهم.

انتظر الإسكندر حتى شفي ليوناتوس تماماً من الجروح التي أصيب بها خلال المباراة مع ساتيبارزان، ثم أعطى أوامره للجيش كي ينطلق شمالاً. محاذة الوادي الأخضر لنهر له روافد عدة تقطعه باستمرار مشكّلةً بذلك آلاف الجزر الصغيرة الخضراء، والتي كانت تلمع مثل حبيبات الزمرد في شبكة فضية. كان يتوجب على الجيش الزحف نحو سلسلة من الجبال شديدة العلو، حيث إنها تجعل أي قمة أخرى في العالم تبدو مثل تلة صغيرة أمامها. وكان هذا الحاجز الطبيعي يدعى



باروباميسوس وهو يفصل باكتريانا عن سهول سكاثيا التي لا نهاية لها، فتبدو وكأنها محيط كبير.

أمر ليوناتوس الذي أحاطت الأربطة بكتفه خدمه بإعداد أمتعته، بينما راح كاليستين الذي كان مزاجه معكراً ينظر إليه. سأله البطل المقدوني: "أيمكن أن تكون هذه الجبال حقاً أعلى من جبل الأولمب؟". ردّ كاليستين: "إننا نقرب من أماكن لم يرها أحدٌ منا من قبل؟ وسرى شعوباً لا يعرفها أحد منا. يُحتمل كثيراً أن تكون تلك الجبال موجودة في أبعد أطراف الأرض. ولهذا السبب هي أعلى من أي جبالٍ أخرى نعرفها. إننا الآن في بلاد يُحتمل وقوع كل شيء وأي شيء فيها، ويُحتمل أن يكون كل شيء فيها غريباً في الوقت نفسه". "ماذا تعني؟".

أخفض المؤرخ رأسه من دون أن يجيب، بينما لم يقل ليوناتوس شيئاً. فسَدَّ جو البهجة العارمة للنصر العظيم الذي أحرزه نتيجة عدم الارتياح الذي شعر بأنه ينتشر بين صفوف الجيش، والذي امتزج مع الشكوك التي أحسَّ بوجودها حتى بين القادة والضباط. أما الجنود الوحيدون الذين بدوا متحمسين فعلاً للإنجازات التي حققها الجيش فكانوا الشبان الصغار الذين جاءوا من مقدونيا ليقدموا في الجيش بصفتهم مرافقي الملك. فلقد جال هؤلاء بأعينهم بين المناظر المهيبة والرائعة ذات الألوان الساطعة التي كانوا يرونها في وقت المغيب، والزرقة الشديدة لسماء تلك البلاد المعلقة بين الثلوج الناصعة التي تكلَّل قمم جبالها وعظمة النجوم التي لا تعد ولا تُحصى في الليالي الصافية، وهم يشعرون بالدهشة.

أدهشتهم الطبيعة ذاتها بتغيُّراتها المستمرة، وبنباتها التي لم يروها من قبل، والحيوانات التي لم يسمعوها عنها إلا في القصص. لاحظ

أحدهم عند أسفل النهر جلد النمر المخطط الذي كان يعبر عند الفجر  
كي يصطاد الأيائل والغزلان، وشاهد آخر الجواميس الضخمة ذات  
القرون المعقوفة التي ترعى على الضفة الأخرى.

فرضت واجبات المرافقين الشبان عليهم أن يكونوا في الجناح  
الملكي قرب الإسكندر، وكذلك قرب مساكن رفاق الملك الآخرين،  
وكبار قادة الجيش. ومكّن هذا الوضع أحد هؤلاء الشبان، وكان فتى  
أشقر الشعر ذا بنية نحيلة ورشيقة ويبلغ الخامسة عشرة من عمره،  
ويُدعى سيبالينوس، من سماع سرّ رهيب كان عبارةً عن خطةٍ لقتل  
الملك!

أخبر الفتى صديقاً له أكبر منه سناً، ويُدعى أغيريوس بما سمعه.  
فلقد كانا يقيمان في الخيمة نفسها مما يتيح لأغيريوس فرصة حماية  
سيبالينوس من مضايقات الآخرين. ذات ليلة، أيقظ سيبالينوس صديقه  
بينما كان الآخرون يغطون في نوم عميق. فرك الشاب الأكبر سناً  
عينيه، وجلس على طرف السرير وأصغى بذهول.

جاءت نصيحة أغيريوس له على الشكل التالي: "لا تقل شيئاً لأي  
شخص إذا لم تكن متأكداً من الأمور التي قلتها لي".  
ردّ سيبالينوس: "إنني متأكدٌ مما قلته لك، وليس لديّ شكّ فيه.  
سمعت ضابطين من الفالانج يناقشان كيفية تنفيذ الخطة، ومكاتها،  
وزماها".

هزّ أغيريوس رأسه: "مضى على وجودنا هنا بضعة أيامٍ فقط، وها  
نحن متورطان في أمر كهذا. إنه أمرٌ مرعب".

"ماذا يتعين عليّ أن أفعل برأيك؟ أيجدر بي أن أتكلم مع الملك؟".  
"كلا... لا بد من أنك فقدت صوابك، ليس مع الملك. إننا لن  
نتمكن أبداً من التحدث إليه مباشرة، وخاصة الآن بعد أن أصبح

بروتوكول القصر معقداً جداً. يُمكنك أن تتحدث إلى أحد رفاقه، فيلوتاس على سبيل المثال، لأنه القائد الأعلى لفرسان الهيتايروي. كما أننا سنعيّن كمراقبين له بدءاً من الغد، وهو سيحرص على تحذير الملك".

أجاب سيالينوس: "أعتقد أنك محقّ. إنها نصيحة جيّدة".  
قال أغيريوس: "نم الآن، وغداً سيوظفنا قائداً عند الفجر لتدرّب على امتطاء الأحصنة".

حاول الفتي الاستسلام للنوم، لكن خطورة السر الذي يحمله كانت كبيرة جداً، فاستلقى على ظهره لمدة طويلة، وعيناه مفتوحتان وسط الظلمة، وشعر أن هذا الكابوس الدموي المتمثل بخطة قتل الملك يعذّبه كثيراً. وشعر في الوقت ذاته بإحساس عارم بأن مكافأة عظيمة قد تنتظره إذا أفشى سر الخطة. وفكّر في أن الإسكندر الثالث بذاته، وهو ملك مقدونيا، وقاهر ممفيس، وبابل، وسوسا، قد يدين له بحياته، وهو سيالينوس، أصغر مرافق في الجيش، والذي تحمّل على الدوام وطأة هكّم الآخرين ودعاباتهم السمجة.

ارتدى ثيابه قبل سماع نفير الصباح، وتناول فطوره بصمتٍ مع التابعين الآخرين بينما كان جالساً قرب أغيريوس.

قال أحد رفاقه: "هاي! أكلت القطة لسان سيالينوس!".  
هَبَّ أغيريوس لإسكاته: "اتركه وشأنه! إنكم لا تحسنون سوى مضايقة أولئك الذين يصغرونكم سنّاً".

"حسنّاً... لعلك تريدني أن أبدأ بك؟".

تجاهل أغيريوس هذا الاستفزاز، ومضى في تناول طعامه، وما لبثوا جميعاً أن تبعوا الأمر الذي قادهم نحو اسطبلات الأحصنة كي يبدؤوا تدريباتهم اليومية.

كان سيياليينوس مشغول البال إلى درجة أنه سقط مرات عدّة خلال التدريب، فأصيب بجروح عدّة من جرّاء هذه السقطات. ولكن، لم يهتم به أحد لأنهم عزّوا الأمر إلى حماقته المعتادة.

في ذلك المساء، سُمِحَ له بالدخول مع رفيقه إلى جناح فيلوتاس من أجل مساعدة القائد على نزع درعه، ولمساعدته على تنظيف أسلحته، مثل قيامهما بتلميع دروع صدره وساقيه، ورمحه، وتفحص أربطة درعه، وشحذ سيفه ورمحه. باشرا عملهما بحماسة، لكن سيياليينوس انتظر بفارغ الصبر اللحظة المناسبة كي يتحدث إلى فيلوتاس، لكنه لم يتمكن من أن يستجمع ما يكفي من الشجاعة اللازمة.

لم يقل شيئاً، لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي تلاه. شجّعهُ أغيريوس على الكلام، وقال له: "سيثني عليك القائد بالتأكيد عندما تُبلّغه عن المؤامرة. لا تخف، فالوقت يمر، وقد يقرّر المتآمرون في أي لحظة قتل الملك. هيا، ماذا تنتظر؟".

عندها، اتخذ الفتى قراره بإبلاغ فيلوتاس بما سمعه. وهكذا عندما همّ فيلوتاس بالخروج في مساء اليوم التالي تمكّن من استجماع شجاعته وتحدّث إليه: "أيها القائد...".

التفت فيلوتاس: "ما الأمر أيها فتى؟".

"أريد أن أتحدّث إليك يا سيدي".

"لا وقت لديّ الآن. لكن، ما الأمر؟".

"يتعلّق الأمر بمسألة في غاية الأهمية. يتعلق، في الواقع، بحياة الملك".

فجأة، جمّد فيلوتاس عند المدخل وصدّم وكأنه أصيب بصاعقة، لكنه لم يلتفت كي يواجه سيياليينوس.

"ماذا تعني بذلك؟".

"أعني أن حياته في خطرٍ شديد. يريد شخصٌ ما أن يقتله و...".  
أغلق فيلوتاس الباب وراءه فجأةً واستدار، ثم قال وهو يصرّ  
بأسنانه: "بجانين! رفضوا الإصغاء إليّ...". تراجع الفتى إلى الورااء مرتعباً  
من ردّ الفعل هذا، لكن فيلوتاس نظر إليه مشجعاً وسأله: "ما اسمك يا  
فتى؟".

"اسمي سيبالينوس".

"حسنًا. اجلس هنا وقل لي ماذا تعرف. وسنسوي الأمور معاً.

سترى".

اقترب اليوم المحدد للرحيل، وأمر الإسكندر بإحضار الأميرة ستاتيرا من زادراكارتا، وذلك كي يتمكن من تمضية بعض الوقت معها قبل فراقهما الذي سيطول. التقاها على الطريق، وما إن رآته حتى تراجلت من العربة، وركضت نحوه مثل فتاة صغيرة تُهرع إلى ذراعَي حبيبها الأول. تراجل بدوره عن صهوة حصانه، وجذبها نحوه بينما أحاطت عنقه بذراعَيها. غمرته عاطفتها العفوية الصادقة، ورقَّتْها وطبيعتها المرحة، كما تأثر لأنها لم تطلب منه شيئاً، ولا حتى في الرسائل التي أرسلتها إليه.

مضيا في طريقهما بعد ذلك سيراً على الأقدام، وتحدثا كصديقين قديمين في أثناء توجههما إلى مقر إقامة الملك في إسكندرية آريا. لاحظت ستاتيرا المباني التي ستجعل من مدينة أرتاكوانا القديمة مدينة يونانية. وشاهدت الهياكل في المناطق العليا من المدينة، والمركز الرياضي في أحد جوانب الساحة المخصصة لتدريب المحاربين الجدد، وشاهدت المسرح الذي تُقام عليه المسرحيات.

قال الملك: "إن أكثر ما يؤثر فيّ هو فكرة أنه في هذا المكان البعيد جداً عن أثينا وكورينث وبيلا، ستُسمع أشعار يوربيديس وسوفوكل عما قريب. هل سبق لك أن شاهدت واحدة من مسرحيات التراجيديات التي كتبها المؤلفون عندنا؟".

ردّت ستاتيرا: "كلا، لكنني سمعت حكايات عنها. تُروى حكاية على لسان ممثلين، بينما تأخذ الجوقة بالغناء والرقص. هل هي هكذا؟

أبلغني معلمي أنه شاهد إحداها ذات مرة في إحدى المدن اليونانية الساحلية".

قال الإسكندر: "هكذا تجري الأمور تقريباً. لكن مشاهدة هذه المسرحيات أمرٌ آخر بالفعل. إذ إنَّ عواطف الأبطال القدماء وآلامهم تبدو وكأنها واقعية وحقيقية مرةً أخرى من خلال هذه المسرحيات".

قرصت ستاتييرا ذراعه كي تدعه يعلم مدى تأثرها بكلماته. "أود أن أنتظر حتى ينتهي العمل في بناء المسرح، ولكن لا وقت لدي. يوشك ذلك المغتصب ييسوس على عبور باروباميسوس حتى يلتقي مع قبائل سكيثيا التي تسكن في السهول العظيمة. يتعين عليّ أن أصل إليه كي أنفذ فيه حكم العدالة، ولذلك رتبت أن تقام مسرحية يوم غدٍ فوق مسرحٍ خشبي وشرفاتٍ خشبية. وسأغادر في اليوم التالي".

سألته ستاتييرا: "أيمكنني أن أبقى معك هذه الليلة؟". وهمست له في أذنه: "صدَّقني عندما أقول لك إنني ارتحلت مسافة سبعين فرسخاً في هذه العربة لهذا السبب، ولهذا السبب فقط".

ابتسم الإسكندر: "أمل أن الأمر يستحق مثل هذه التضحية. أما الآن، فإنني سأبحث لك عن سكنٍ يليق بك". وفي هذا الوقت، كانا قد وصلا إلى جناحه الذي كان موجوداً في القصر الذي كان ساتييارزان يشغله في السابق. اهتمت النساء بالأميرة واصطحبها إلى غرفتها.

زارها الملك في ذلك المساء، بعد أن أمضى فترة ما بعد الظهر في المعسكر وهو يشرف على تحضيرات المغادرة. كانت الشمس حينها قد توارت خلف الأفق، وأرسلت آخر أشعتها الذهبية عبر السُحُب التي طافت في السماء ببطء. نظر الإسكندر إلى الشرق حيث كانت السماء داكنة، ولاحظ في ذلك الاتجاه ناراً موقدة ومنعزلة.

سأل حراسه: "مَن هناك؟".

جاءه الجواب: "يُحتمل أنه راعٍ يحضّر وجبة طعامه قبل أن يخلد إلى النوم". ولكن، ما إن اقتربوا حتى شاهدوا عباءةً بيضاء ترفرف وسط نسائم المساء.

حَثَّ الملك جواده على الإسراع في خطواته، وراح يتمتم: "أريستاندر". همّ الحراس باللحاق به، لكنه أوماً إليهم كي يبقوا حيث هم، ولم يكن لديهم خيار غير الانصياع إلى أوامره.

وقف الضالع أمام كومة من الأحجار التي كانت تتقد فوقها النار، وركّز نظره على ألسنة اللهب المتمايلة وهي تلتهم أغصان الأكاسيا وفروعها. بدا وكأنه لم يسمع وقع حوافر الجواد، لكنه تحرك ما إن سمع صوت الإسكندر.

سأله بصوت متغيّر: "إذاً، لقد سمعت ندائي؟".

"رأيت نارك".

"أنت في خطر".

"إنني أعيش في خطرٍ دائم. إن جسمي المغطى بالندوب يُثبت هذه الحقيقة".

بدا أن عيني الضالع قد لاحظتنا في تلك اللحظة فقط حضور الإسكندر، وقال بينما كان يحدّق إليه: "إنه أمرٌ غريب ألاّ ينجو من السندوب إلا وجهك. يُقال إن والدك، في المقابل، كان مشوهاً عندما مات".

"أُيْحتمل أنك تلقيتَ توقّعاً ما يتعلق بموتي يا أريستاندر؟ أريد أن أحقق حلمي، كما أود كثيراً أن أرزق بولد... قبل...".

قاطعته الضالع: "ستنجو. لكن أصغ جيداً إلى صوت فتى...". ثم تابع مكرراً كلامه: "صوت فتى". اغرورقت عيناه بالدموع عندما أكمل: "لا أستطيع قول المزيد. لا أستطيع...".



"وماذا بشأن كابوسك؟ أما زلتَ ترى ذلك الرجل العاري الذي أحرق حياً في محرقة الأموات؟".

أشار إلى النار المشتعلة أمامه: "أراه دائماً، لكن صمته يقلقني كثيراً. صمته، هل تفهم؟".

ابتعد الإسكندر سيراً على قدميه، وقد أمسك عنان جواده بيده، ثم انطلق في الطريق حيث كان حراسه في انتظاره. عادت إلى ذهنه صورة والده وهو يسقط أرضاً بعد أن أجهز عليه أحد رجاله، فصرف حراسه بعد أن قال لهم: "اذهبوا الآن. لا أحتاج إلى حراس. يحبني رجالي، وكذلك رفاقي. أقول لكم اذهبوا الآن".

\*

غادر فيلوتاس جناحه بعد حلول الليل، وسار بسرعة نحو أعلى جزء في المدينة، وتوجه نحو مبنى كبير مصنوع من الأحجار الطينية كان قد خصص لضباط فرسان الهيتايروي. كان القمر قد اختفى من صفحة السماء في تلك الليلة، لكن السماء كانت مليئة بأعداد لا متناهية من النجوم الكبيرة والساطعة، وكذلك بشريط من نجوم المجرة الساطعة التي تنتشر في قبة السماء، فبدأ المنظر وكأن النور يتأوه.

كان فيلوتاس يرتدي عباءة داكنة، ويعتمر غطاء رأس، ويضع قناعاً حتى لا يميّزه أحد. كشف عن وجهه عند الحارس الواقف أمام المدخل، فأسرع الرجل إلى خفض رمح تحيّة له. دخل فرأى سيمياس واقفاً أمامه، وهو أحد قادة سرية فرسان البيزيتاروي.

سأله: "أين الآخرون؟".

ردّ الضابط: "لا أعرف".

"أنت تعرف بالتأكيد. أنت تعرف مكانهم مثلي تماماً. لا أعترم مغادرة هذا المكان قبل أن أراهم جميعاً. أريد أن أرى كل واحد منهم، وإلا سأخبر الملك".

شُحِبَ لون سيمياس وقال: "انتظر هنا. بعضهم في برج الحصن الشرقي، بينما الآخرون في مقر الحرس في الباحة الوسطى". خرج سيمياس عبر باب جانبي، فيما استمر فيلوتاس في التجول جيئةً وذهاباً، وفي عصر كفيه في أثناء انتظاره.

وصلوا واحداً تلو الآخر، وراح فيلوتاس يتفحصهم صعوداً ونزولاً وكأنه يفتش فرقةً من الجنود، لكن وجهه كان مليئاً بملامح السخط الشديد: سيمياس من نيابوليس؛ أمر الكتيبة الثالثة من البيزيتاروي، وآيجساندر من ليوكوبيديون؛ مساعد أمر سرية الهيتايروي الخامسة، وليمينوس من كاليسترا؛ أمر الوحدة الأولى من فرقة الطليعة، وبولون وأتالوس، وهما شقيقا إمينتاس وقائدا جنود الهجوم، وأريستارخوس من بولياكومون مساعد فرقة حاملي الدروع.

بدأ كلامه حتى من دون أن يعطيهم وقتاً ليفتحوا أفواههم. "هل جننتم؟ ما الذي سمعته عن القرار الذي اتخذتموه والذي تعزمون فيه قتل الملك؟".

حاول سيمياس أن يردّ بالقول: "اسمع، لقد فهمت الموضوع بشكل غير صحيح".

أسكته فيلوتاس على الفور: "كفى! مع مَنْ تظن نفسك تتكلم؟ أريدكم الآن أن تخبروني من هو الذي اتخذ ذلك القرار، ومتى بالضبط تريدون تنفيذ الأمر، وأريد أن أعرف، قبل كل شيء السبب الذي دفعكم إلى اتخاذ ذلك القرار".

ردّ بولون: "أنت تعرف السبب. لم يعد الإسكندر مَلَكًا. إنه ملك البرابرة، وهو يرتدي أزياء البرابرة، ومحاط بالبرابرة. ماذا بشأننا نحن؟ قهرنا إمبراطورية لأجله، ولكن يُطلب منا الانتظار المذل في غرف الانتظار عندما نريد التحدث إليه".

تدخل سيمياس بالقول: "وكان ذلك لا يكفي، فأتنا خططه المجنونة بقهر العالم. أفهم؟ إنه يريد أن يقهر العالم... لكن أي عالم؟ أيعرف أحدنا أين ينتهي هذا العالم؟ وماذا لو لم تكن هناك نهاية لهذا العالم؟ أيعني ذلك أنه يتعيّن علينا أن نجرّ أنفسنا عبر الصحاري، وعبر الجبال، والقفار المنعزلة من أجل إخضاع قرى صغيرة مثل أرتاكوانا؟".

قال ليمنوس من كاليسترا: "لا ينتهي الأمر هنا. إنه يُنشئ المستعمرات الآن، لكن هل لاحظتم أين؟ إنه لا يؤسّسها على الشاطئ، وفي أماكن مناسبة مثل المكان الذي اختاره كي يبني عليه الإسكندرية الأولى. إنه يُنشئ الآن مدنًا في أماكن صحراوية وبين شعوب بربرية، في أماكن بعيدة جدًا عن البحر. إنه يُجبر آلاف المساكين الفقراء على اتخاذ مساكن لهم في أماكن مرعبة، ويحشّهم على الزواج من نساء البرابرة وذلك من أجل توليد جيل من الأطفال ذوي الدم المختلط".

قال فيلوتاس: "تزوج كل اليونانيين الذين يعيشون في المستعمرات من نساء بربريات. ولا يعد هذا سبباً كافياً لقتله".

ردّ سيمياس: "لا تكن منافقاً، فلطالما اتفقتَ معنا - وأنت الوحيد بيننا الذي يعدّ من أصدقائه - بأنه لا يمكننا الاستمرار على هذا المنوال. أنت الوحيد الذي يفهم رجالنا، ويفهم معاناتهم ومخاوفهم ورغبتهم في العودة إلى الوطن، وها أنت الآن تتظاهر بأنك فوجئت بشيء تعلمه مسبقاً".

ردّ فيلوتاس بحدة: "هذا ليس صحيحاً! كانت مفاهيمنا مختلفة كلياً. قرّرنا أن فرقنا ستتحرك عندما تُبرز اللحظة المناسبة نفسها، وأنا سنرغمه على تغيير خططه".

قدّم أريستارخوس بعض التفاصيل هنا: "بالقوة إذا لزم الأمر".  
ردّ فيلوتاس بشكلٍ أكثر صرامة: "لكن، ليس عن طريق سفك الدماء. إذا نجحت خطتكم المجنونة الآن، فسيترك جيشنا من دون قائد وسط بلاد غريبة، وسيبقى العرش من دون ملك".

قال بولمون: "الأمر ليس هكذا، لأن لدينا ملكاً".  
قال سيمياس: "إمينتاس الرابع. الابن الشرعي للملك الشرعي إمينتاس الثالث".

هزّ فيلوتاس رأسه: "هذا مستحيل. إمينتاس مخلص للإسكندر".  
قال سيمياس: "أنت تظن ذلك، لكن انتظر حتى يصبح تاج المقدونيين فوق رأسه".

جلس فيلوتاس بتناقل على الكرسي والتزم الصمت. بدأ سيمياس الكلام مجدداً بعد لحظات قليلة: "أنت القائد الأعلى لفرسان الهيتايروي، لذلك سيضطر الملك الجديد إلى الاعتماد على دعمك. نريد أن نعرف مع أي جهة ستقف".

تنهد فيلوتاس: "اسمعوني... إنني أعتقد، وبالحقيقة أنا متأكد، بأنه من غير الضروري تلوّث أيدينا بدماء الإسكندر، إننا جميعاً ندين له بالكثير".  
قال أريستارخوس مقاطعاً: "هو الذي يدين لنا بالكثير. كما أنه ما من سبب يمنعنا بعد موته من منحه أوسمة شرف عظيمة، ومن أن نسبي له التماثيل، وأن نقيم له النُصب، وأن نكرّمه في أنحاء العالم كافة بنقوشٍ على نُصبٍ حجرية... هذا أمرٌ محسوم. أما بالنسبة إلى إمينتاس، فإنه سيكون مديناً لنا عندما نعطيه التاج، لذلك، فهو سيُصغي إلينا".

استمر فيلوتاس بالكلام وكأن أريستارخوس لم يقل شيئاً: "لا أريد أن أقتله، ولن تقدموا أنتم أيضاً على اغتياله. سأقول لكم كيف سنتحرك ومتى". تكلم بلهجة صارمة حيث لم يجرؤ أحدٌ على معارضته. ثم غطى وجهه مجدداً بغطاء رأسه وغادر المبنى.

انتظر سيمياس حتى اختفى وقع خطوات فيلوتاس قبل أن يلتفت إلى رفاقه من المتآمرين قائلاً: "من أخبره؟".

هز الجميع رؤوسهم منكرين.

"عرف فيلوتاس بقرارنا. وذلك يعني أن أحداً ما قد أخبره".

قال ليمنوس مطمئناً: "لم أقل شيئاً. أؤكد لك".

ردّد الآخرون: "ولا نحن كذلك".

قال سيمياس: "إن حياتنا على المحك في هذا المكان. لا أريد أن تُنقل أي كلمة إلى أي شخص، ولا حتى إلى عشيقاتكم أو أصدقائكم، أو أشقائكم. وبما أن فيلوتاس قد عرف بالأمر، فربما سيعرف الآخرون، وقد يعرف أي شخص بخططنا".

قال أريستارخوس: "هذا صحيح. ماذا يجدر بنا أن نفعل الآن برأيك؟".

"يتعيّن علينا أن نتحرك على الفور".

"أتعني... أن نقتل الملك... الآن؟".

"وبأسرع وقت ممكن، لأنه إذا عرف خطتنا، فإن كل شيء سيضيع. هل سبق لكم أن شاهدتم محاكمة مقدوني بتهمة الخيانة العظمى؟ شاهدت أنا محاكمة كهذه، وشاهدت كذلك عملية الإعدام. يمزق الجيش الخونة إرباً إرباً... وببطء".

سأل بوليمون: "متى سنضرب ضربتنا؟".

أجاب سيمياس: "غداً، وقبل أن تتسلل الهواجس والشكوك إلى ذهن فيلوتاس. وما إن يموت الإسكندر حتى لن يتمكن فيلوتاس من التراجع، وسيلتزم بكامل مسؤولياته في كل ما يجري. أما بالنسبة إلى بيرديكاس، وبطليموس، وسلوقس وكل الآخرين، فإنهم سينظرون إلى المسألة بعقلانية. كل هؤلاء تقريباً رجالٌ عقلانيون. أصغوا إليّ بتركيز الآن، لأن أصغر خطأ قد يُفشي سرّنا ويعرّضنا إلى مصير رهيب". ثم استلّ سيفه، وراح يرسم بحدّه على التراب. "سيدشّن الملك فمار غدّ المسرح الجديد، وهو يريد أن تشاهد ستاتيرا أداء تيسالوس في مسرحية *المبتهلين*. سينطلق من قصر ساتيارزان، وسيسير في هذه الطريق من خلال سوق تجار التوابل. سيصل إلى هذه النقطة، وعندها سيتوجه في الطريق المؤدية إلى المسرح. سيصطف جنود البيزيتاروي من الفالانج من الجانبين، وسيقدّمون إليه التحية وسيوفرون له الحماية من الجمهور. ستكون هذه هي لحظتنا المؤاتية".

وغرّز سيفه بقوة في الأرض، وحدّق إلى عيون رفاقه من المتأمّرين واحداً واحداً.

تمكّن سيبالينوس من شقّ طريقه برفقة صديقه أغيريوس حتى وصلا إلى الصفّ الأول تقريباً. راقب الفتى بقلقٍ بالغ تقدّم الملك الذي كان محاطاً بأصدقائه من إحدى الجهات، بينما ظهر الضباط القادة أمرو الوحدات القتالية يرافقهم الأمير إمينتاس من الجهة الأخرى. بحث الفتى عبثاً عن فيلوتاس بين الرجال المرافقين للإسكندر، ثم قال: "لا أرى القائد فيلوتاس".

سأله أغيريوس: "أعتقد أنه أبلغ الملك بالخطّة؟". أجاب سيبالينوس: "أنا متأكد من أنه فعل ذلك، لأنه أصغى إليّ باهتمامٍ شديد، ونصحني بالأقلق، وأن كل شيء سيكون على ما يرام".

"لكن متى سينفذون خطتهم برأيك؟". "لا أعرف. كان هناك ضحيج كبير في الخارج عندما كنت أستمع إليهم، لذلك لم أنتبه إلى كل ما قالوه. أعتقد أنهم سينفذون ضربتهم قبل أن ينطلق الجيش في زحفه نحو باكتريانا". أشار أغيريوس إلى قادة الموكب الذي يتقدم نحوهم، ثم قال: "انظر. ها هو الملك مع الأميرة ستاتيرا وباقي رفاقه. لكن أنا أيضاً لم أتمكن من رؤية فيلوتاس".

"يُحتمل أنه مشغول هذا اليوم. سمعت أن المرزبان الآخر، بارزيانتي، يجول في التلال مع عصابات الساكا المسلحة، ومحاربي الجدروسانيين. يُحتمل أنه قد تلقى الأوامر بالقضاء عليهم".

"يُحتمل ذلك...".

في هذا الوقت، أخذ الملك يقترب أكثر فأكثر، فأحسّ سيبالينوس بشعورٍ غريبٍ يَحْتِمُ عليه بشكلٍ مفاجئٍ، وبدأت كل أطرافه ترتجف من دون سببٍ ظاهرٍ.

سأله أغيريوس: "ما خطبك؟ تبدو لي في حالة مرضية".

لكن صديقه اليافع تذكر في هذه اللحظة بالذات كلمةً سمعها من شفتي أحد القادة، وهي كلمة بدت له في ذلك الوقت بلا معنى، لكنها ترددت الآن في ذهنه مترافقةً مع أهمية خاصة: بوابة أرسيس. كانوا هناك! كان هناك ثلاثة رماة في البرج الذي يقع خلف المكان الذي يقف فيه، وبدأ أنهم يصوّبون نحو الملك. فاندفع سيبالينوس إلى الأمام من خلال الحاجز الذي شكّله جنود البيزيتاروي وصاح: "إنهم على وشك اغتيال الملك! سيقتلون الملك! أنقذوه!".

انهمرت السهام في تلك اللحظة بالذات، لكن درعي بطليموس وليوناتوس كانتا قد أصبحتا في مكانهما المناسب، وحمّتا صدر الملك المكشوف. صاح بيرديكاس بكل ما في صوته من قوة: "اقبضوا على هؤلاء الرجال!". وأسرع بعد ذلك إلى إرسال مجموعة من جنود الصدم في اتجاه بوابة أرسيس.

تردّدت كل تلك الكلمات في ذهن الإسكندر، وهي التي تضخمت بفعل الذكرى التي أيقظت كابوساً متمثلاً بصورة والده فيليب عندما سقط في بركة من الدماء تسبّب بها خنجر سلمي انغرز بين ضلوعه. سمع كذلك صوت ستاتيرا وهي تُصدر أوامر مقتضبة بلغتها، وأتى بعد ذلك ضجيج الأسلحة المعدنية، وقرقعة حوافر الجياد، لكن كل ما تمكن من رؤيته كان الدماء، والمزيد من الدماء، وتراءى له الشحوب المميت لفيليب في أثناء احتضاره.



كان صوت بطليموس هو الذي أعاده إلى عالم الواقع: "هذا هو الفتى الذي أنقذ حياتك. إنه تابعٌ يافع وشجاع ومخلص. اسمه سيبالينوس".

نظر إليه الإسكندر باهتمامٍ شديد، ولاحظ ملامحه الوسيمة، وأطرافه الرشيقة، وعينه الواسعتين والجميلتين. كان لا يزال يرتجف، وأبقى عينيه مركّزتين على الأرض كي يخفي مشاعره. سأله الملك: "من أين أنت أيها الفتى؟".

تمكّن الشاب من الردّ متمتماً: "إنني من يونوستوس، وهي قرية من قرى لينسيستس يا مولاي".

"لقد أنقذت حياتي. شكراً لك. سأعطي تعليمات كي تُكافأ لقاء ولائتك. لكن، قل لي، كيف عرفتَ أن هناك من يريد قتلي؟".

"مولاي. أخبرتُ القائد فيلوتاس، ولا بد من أنه أخبرك...". سكت فجأةً ونظر حوله. وبدا مرتبكاً عندما لاحظ الدهشة واضحة على ملامح وجه الملك، ووجوه كل رفاقه.

كان الأمين العام، إيومينيس من كارديا، موجوداً هناك، وسرعان ما تقدّم منه وربّت على كتفيه وقال له: "تعال يا ولدي. هيا نذهب، لأنه يجب أن تسرد علينا كل شيء، ومنذ البداية".

بدأ سيبالينوس، وبالرغم من توتره والإثارة التي شعر بها نظراً إلى كونه الشخص الذي أنقذ الملك، برواية كل تفاصيل المؤامرة، وكيف أنه حذّر فيلوتاس الذي وعده بإبلاغ الملك على الفور.

ربّت إيومينيس على كتفيه مجدداً عندما أنهى كلامه وقال له: "يا لك من فتى وسيم خدّمنا بشكلٍ جيد. سيتمحك الإسكندر منصب قائد التابعين الملكيين بمفعولٍ فوري، وستحصل على كل المداخليل ومظاهر الشرف التي تترافق مع ذلك المنصب. يرغب الملك كذلك في

أن يهديك مبلغ تالنت من الفضة، والذي يمكنك أن تبقيه معك، أو أن ترسله إلى عائلتك جزئياً أو كلياً. اذهب الآن، ونل قسطاً من الراحة لأن هذا اليوم كان متعباً جداً لنا جميعاً".

غادر الفتى وهو يشعر بالتوتر والإثارة، وسرعان ما توجه راكضاً إلى صديقه أغيريوس كي يخبره بما حدث، لكنه بدأ يفكر في المتعة التي سيشعر بها عند إعطاء الأوامر وإنزال العقوبات بأولئك الفتيان من رفاقه الذين سخروا منه في السابق وأهانوه.

أصدر الإسكندر على الفور الأوامر بإلقاء القبض على كل من القادة سيمياس من نيبوليس، وليمينوس من كاليسترا، وبولون وأتالوس من أندرومين، وأريستارخوس من بولياكومون، وآيجساندر من ليوكوبيديون، وكذلك فيلوتاس، القائد الأعلى للهيثايروي، بالإضافة إلى الأمير إمينتاس من لينسيستس. وتوجه بعد ذلك إلى جناحه في القصر وأصدر أوامر تفيد بأنه لا يريد أن يزعجه أحد.

قرّر سلوقس، وبظلموس، وإيومينيس التحدث إلى هيفاستيون، وهو الشخص الوحيد الذي قد يوافق الإسكندر على استقباله في هذه الفترة العصيبة. فذهب إليه هؤلاء عند المساء كي يقابلوه في مقره.

قال إيومينيس: "حاول أن تعرف ما هي نواياه".

أضاف سلوقس: "وعلى الأخص في ما يتعلق بفيلوتاس".

"سأحاول أن أتحدث إليه. لم يسبق لي أن رأيته في حالة كهذه من قبل، وحتى عندما كنا في المنفى، وعندما كنا نواجه خطر الموت نتيجة الجوع والحرارة كل يوم". وكان على وشك أن يغادر عندما قرع جندي الباب وناولته استدعاءات فورية من الإسكندر.

قال إيومينيس: "لا بأس. إنه متقدم عنا خطوة واحدة". غادر

الأربعة جناح هيفاستيون معاً.

قال هيفاستيون: "ماذا سيسألنا برأيكم؟".

ردّ إيومينيس: "الأمر واضح؛ سيسألنا عن رأينا بالمؤامرة. لكنه سيسألنا، قبل كل شيء عن رأينا بما يجدر به عمله مع فيلوتاس".  
سأل سلوقس بجدية وهدوء كمن يسأل نفسه: "وماذا عسانا نردّ على هذا الموضوع؟".

في تلك اللحظة، وصل بيرديكاس على صهوة جواده، وما لبث أن ترجّل عندما شاهد أصدقاءه، ثم انضمّ إليهم وهو يقود جواده. "أفضّل أن أحمل أسداً بيديّ العاريتين على أن أدلي برأيي في هذه المسألة. هل فكّرتم في الأمر جميعاً؟".

نظر أصدقاءه إليه، فقرأ بيرديكاس في عيونهم القلق والمعاناة والشكّ، وهي الأمور التي ارتسمت في عينيه كذلك: "إذاً، فأنتم بدوركم لا تعرفون ما الذي ستقولونه له. هل أنا على صواب؟".

اقتربوا في هذا الوقت من قصر الحاكم، وهو القصر الذي تحرسه مجموعة من البيزيتاروي بمشاركة أربعة رجال من فرقة الخالدين التابعين للحرس الإمبراطوري. اقترب ليوناتوس برفقة كلايتوس الأسود ولايسيماخوس من الاتجاه المعاكس، وكانت الأربطة لا تزال تحيط بكتفه.

قال بطليموس: "إن كراتيروس هو الغائب الوحيد".

قال إيومينيس خافضاً بصره: "وفيلوتاس أيضاً".

قال بطليموس: "بالضبط". نظر كل واحد منهم إلى الآخر من دون أن يقولوا أي شيء. كانوا يعلمون أنه لن يمر وقت طويل قبل يُبلغوا الملك رأيهم في ما يتعلق بحياة أو موت أحد رفاقهم الذي شاركوه الطعام، والجوع، والنوم، والقلق في الليالي، والمسرات، والأخطار، والآمال، واليأس.

كسر ليوناتوس الصمت المخيم: "لم أحب فيلوتاس قط. إنه مغرور وفخور بنفسه، لكن فكرة رؤيته مقطعاً إرباً إرباً بعد عملية إعدام عسكرية هي فكرة مريعة. دعونا نمضي الآن، لأنني لم أعد أطيق حالة الشك هذه".

دخل الجميع القصر، وتوجهوا إلى غرفة الاجتماعات حيث كان الإسكندر بانتظارهم جالساً على عرشه. بدا شاحباً، وبدت على وجهه أمارات ليلة أمضاها قلقاً. كان بيريتاس متكوراً على نفسه عند قدميه، وكان يرفع أنفه بين حين وآخر آملاً أن يداعبه سيده.

لم ينتظر جلوسهم، بل بدأ بالكلام على الفور: "كنتم جميعاً حاضرين عند اغتيال والدي".

قال إيومينيس الذي كان يذكر الحادثة، ويشعر وكأنها جرح مفتوح في روحه: "هذا صحيح. لكن الحكم على ما حدث اليوم على ضوء تلك الحادثة الدموية سيكون خطأ مريعاً، لأن ما حدث عندها لا يماثل حادثة اليوم، كما أن الوضع ليس ذاته و...".

صاح الإسكندر فجأة: "ليس ذاته؟ كنت أنا من سحب الخنجر من جسده... وأنا من تلطخت ثيابه بدمائه... وكنت أنا من سمع أنفاسه الأخيرة. كنت أنا... أتفهمون؟ إنه أنا!".

أدرك إيومينيس أنه لا يقدر على قول أي شيء. كان من الواضح بالنسبة إليهم أن الإسكندر مهووس بفكرة اغتيال الملك، وأنه أمضى ساعات الليل معذباً بكابوس موت فيليب الدموي. في تلك اللحظة، دخل كراتيروس وبدأ أنه هو الآخر في مزاج سيئ للغاية.

قال بطليموس في تلك اللحظة: "إذا كنت قد اتخذت قرارك مسبقاً، فلماذا استدعيتنا إلى هنا؟".

بدأ أن الإسكندر قد هدأ قليلاً: "لم أتخذ أي قرار بعد، ولن أتخذ هذا القرار. إن الجيش بأجمعه هو الذي سيحكم بحسب العادات القديمة".

قال سلوقس: "إذاً، أعتقد أنه لا فائدة من وجودنا...".

قاطع الإسكندر: "يمكنكم المغادرة إذا أردتم، لأنني لا أرغب في تأخيركم أكثر من هذا. دعوتكم إلى هنا كي أستمع إلى نصيحتكم، ولأن وجودكم يريحني. تأمر لقتلي ستة من أشجع ضباطنا، ومعهم واحد من أخلص أصدقائي، والذي كاد أن يكون بمثابة شقيقي. كنتم هناك جميعاً، وقد سمعتم شهادة ذلك التابع".

تكلّم الأسود عند هذه النقطة وهو الذي بقي ساكناً حتى هذه اللحظة: "كن حذراً أيها الإسكندر، لأنك لا تملك دليلاً ضد فيلوتاس غير شهادة ذلك الصبي".

"أنقذ ذلك الصبي حياتي، وهو الذي اعتاد أن يقول الصدق في كل الأمور الأخرى. اعترف الرماة الثلاثة تحت التعذيب بالحقيقة، وأيدوا رواية سيبالينوس، كما أن التحقيق معهم جرى بشكل منفصل، لكن كلامهم جاء متطابقاً".

سأل الأسود مجدداً: "وماذا نعرف عن فيلوتاس؟".

"كان يعرف بالتأكيد، ومع ذلك لم يقل أي شيء. أتفهم هذا يا أسود؟ ولو جرت الأمور كما يريد، لكنت ميتاً الآن بعد أن احترقت السهام جسيمي الذي كان سيسبح في بركة من الدماء". فاضت الدموع من عينيه عندما تلفظ بهذه الكلمات، لكنهم فهموا جميعاً أنه لم يبك بسبب التفكير في السهام التي كان من المقدر أن تحترق جسمه، بل بسبب فكرة أن يخونه صديق أو كل إليه أهم مركز في الجيش بعده، وهو ما يجعله المؤمن على شخص الإسكندر ذاته، وفكرة أن صديقه هذا قد خطط وتآمر ضده، وأن صديقه كان قاسياً بما فيه الكفاية حيث تمكّن من تخيل السهام التي تحترق جسمه وتركه بعد ذلك ليموت وسط نوبات الألم. عجز الجميع في تلك اللحظة عن عدم ملاحظة الألم في

نظرته، والرعدة في صوته، وكذلك يديه المتمسكتين بذراعي العرش  
بتشنج.

سأل بصوت يكاد يصل إلى حدّ البكاء: "ماذا فعلتُ كي أستحق  
كل هذا؟".

حاول بطليموس أن يردّ بالقول: "إسكندر، إننا لا...".

لكن الإسكندر صاح به: "إنكم تدافعون عنه!".

ردّ سلوقس بجدة: "كلا. إننا نعجز، ببساطة، عن تصديق ذلك  
حتى ولو كانت كل الأدلة ضده".

خيّم الصّمت على الجميع في أنحاء الغرفة مع حلول المساء، ولم  
يتمكن أحد من خرقه، ولا حتى بيريتاس الذي قبع جالساً وهو ينظر إلى  
سيده بعينيه الواسعتين والرطبتين. شعر كل واحد من الحاضرين  
بالوحدة، وبأنه بعيد جداً عن الأوقات السعيدة التي ميّزت صداقتهم في  
فترة مراهقتهم. بدت، فجأة، أيام أحلامهم وبطولاتهم بعيدة عنهم، ولم  
يعد يرافقهم سوى الشك والقلق. انحصرت مهمتهم الآن بإيجاد طريقة ما  
للخروج من دوامات هذه المؤامرة، ومن الزيف والشكوك التي علقوا بها.  
سأل الأسود: "ماذا نعرف عن الأمير إمينتاس؟".

ردّ الإسكندر بأسى: "كان سيصبح الملك الجديد بعد موتي".  
سأل بعد مرور هنيهاتٍ قليلة: "ماذا تعتقدون أنه يجدر بي أن  
أفعل؟".

تكلّم الأسود بالنيابة عنهم جميعاً: "لا خيار لنا. إنهم ضباط جيش  
الملك، لذلك، فإنه يتعيّن على جيش الملك أن يحاكمهم".

لم يتبقّ أي شيء إضافي يُقال، لذلك غادروا الواحد تلو الآخر  
تاركين الإسكندر بمفرده مع أشباحه وشكوكه. ولم يجد أي واحد  
منهم شجاعةً كافية كي يبقى، ولا حتى هيفاستيون".

توجّه إيومينيس وكاليسين إلى الإسكندر قبل الفجر، فشاهداه جالساً على مقعد بسيط، ومن دون أن يرتدي شيئاً غير عباءته المقدونية البسيطة. كان من الواضح جداً أنه لم ينم على الإطلاق. سأل من دون أن يرفع رأسه: "هل اعترف بخيانته؟". أجاب إيومينيس: "تحمل التعذيب بشجاعة مذهلة. إنه جندي عظيم".

قال الإسكندر بحزن: "أعرف ذلك". سأل كاليسين: "ألا ترغب في معرفة ما قاله؟". أوما الملك برأسه ببطء.

"صاح في ذروة معاناته: اسألوا الإسكندر ماذا يريدني أن أقول، ولننته من هذا الأمر!". قال الملك: "هذا يكفي. إنه يتصرف مثل نبيلٍ مقدوني حقيقي ومتعطرٍ كالعادة".

سأل كاليسين: "لماذا لم تساورك شكوك في شأن هذه المسألة؟". ردّ الإسكندر: "ليس لديّ أي شك، لأن الدليل دامغ جداً، كما أن كلامه قد أكدّه القتلة الآخرون أنفسهم".

سأل إيومينيس: "وماذا بشأن إمينتاس؟ يمكنك على الأقل أن تعفو عنه، لأنه لم توجّه ضده أي اتهامات".

"كان مدار شبهة من قبل، وكان سيصبح ملكاً بعد عملية اغتيالي. ألا يكفي هذا؟".

صاح كاليستين بجرأة واقتناع لم يُظهرهما مطلقاً من قبل: "كلا!  
كلا! ليس كافياً! أتريد أن تعرف لماذا؟ أتذكر تلك الرسالة التي بعثها  
داريوس إلى إمينتاس ووعده فيها بإعطائه مبلغ ألفي تالنت؟ كانت  
الرسالة مزورة! كانت كل الأمور مزورة: الرسالة، والمبعوث،  
والمؤامرة... ويمكنني أن أقول إنه بالتأكيد كانت هناك مؤامرة، لكن  
والدتك هي التي دبرت هذه المؤامرة بالاشتراك مع سيسين المصري.  
كان هدف المؤامرة هو القضاء على إمينتاس."

صاح الإسكندر: "أنت تكذب! كان سيسين جاسوساً وظَّفه  
داريوس، ولهذا السبب أعدم بعد معركة إيسوس".

"أجل، لكنني كنت آخر شخصٍ تكلم معه. سعى إلى رشوتي  
ورشوة بطليموس. تظاهرت أنني قبلت عرضه الذي كان عبارة عن  
خمسة عشر تالنتاً لي، وعشرين لبطليموس، مقابل سكوتنا وتأكيدينا  
براءته. لم أخبرك أي شيء عن ذلك وأبقيت الأمر سراً حتى لا أسبب  
لك أي إحراج، وكفي لا أضعك في موقع المواجهة مع والدتك. كانت  
أوليمبيا مهووسة بمسألة وراثتك للعرش. كانت هي من ربَّت مسألة  
حنق طفل يوريديس الصغير في مهده، أم أنك نسيت ذلك؟".

ارتعش الإسكندر عندما مثلت أمامه صورة يوريديس التي امتلأ  
جسمها بالجروح، ووجهها الذي كثرت فيه الخدوش، وشعرها القدر،  
وهي تضم جسد طفلها إلى صدرها.

تابع كاليستين كلامه بحزم: "وُلد طفل من لحمك ودمك  
نفسيهما، أم أنك تعتقد أنك فعلاً لست ابن فيليب؟".

هَبَّ الإسكندر واقفاً على قدميه، وكأن شخصاً ما قد لسعه  
بسوط، وأسرع نحو المؤرخ شاهراً سيفه، ثم صاح به: "لقد تجاوزت  
حدك!".



شحب لون كاليستين، وأدرك فجأة أنه أثار غضباً شديداً قد تكون عواقبه وخيمة حيث لا يستطيع تحملها، لكن إيومينيس وقف بين الرجلين، فتوقف الملك في اللحظة الأخيرة. "عبر كاليستين عن أفكاره. هل ترغب في أن تقتله لهذا السبب؟ إذا كنت تريد أن تجمع حولك متملقين وخداماً لا يقولون لك إلا ما تريد سماعه، فإن ذلك يعني أنك لست بحاجة إلينا". التفت الأمين العام بعد ذلك نحو المؤرخ الذي كان شاحباً شحوب الأموات، ومرتجفاً مثل ورقة شجرة في مهبّ الريح، وقال له: "هيا يا كاليستين، هيا بنا. يبدو أن مزاج الملك متعكر اليوم". غادر الرجلان معاً بينما جلس الإسكندر بثقل على مقعده، وأحاط وجهه بيديه، وكأنه يريد احتواء الآلام الشديدة التي يشعر بها في جبهته.

قال صوت من خلفه: "أوافق معك على أنه عمل قدر، لكن ليس لديك خيار آخر لسوء الحظ. يتعين عليك أن تضرب من دون تردد، حتى ولو كانت لديك شكوكك. يُحتمل أن فيلوتاس لم يُرد أن يقتلك، ولعله أراد احتجازك، أو إرغامك على التصرف بحسب ما يريده هو معتمداً على مركزه ومركز والده. لكنه تورط بالتأكيد في مؤامرة، وهذا كافٍ بحدّ ذاته". عبر إيمولبوس من سولوي الغرفة شبه المظلمة، وجلس على مقعد آخر مقابل الملك.

"هل أصغيتَ إلى الأمور الأخرى التي أراد كاليستين أن يقولها؟".  
 "أتعني قصة إمينتاس؟ أجل. لكن هل أنت متأكد فعلاً بالنسبة إلى هذه القضية كذلك؟ من كان خلال الاستجواب الذي سبق إعدام سيسين؟ لم يكن هناك أحد على حدّ علمي غير كاليستين ذاته، لذلك لا يمكن التأكد من روايته. أما إمينتاس، فهو يمثل تهديداً من الناحية الموضوعية، ولو كان في البلاط الفارسي لكانوا تخلصوا منه على الفور.

وتذكّر أنك الآن ملك الفرس، وملك الملوك. أعتقد على كل حال أنك لست مضطراً إلى إقحام نفسك في هذه المسألة، لأن المحكمة ستقرر، بالتأكيد، أنه مذنب. إن كل ما عليك فعله هو أن ترفض الرأفة به في حال طلب أي شخص العفو عنه".

دخل أحد المساعدين محاطاً بمراقبين يحملان أسلحة الملك. قال المساعد: "حان الوقت يا مولاي".

\*

كان انعقاد المحكمة العسكرية أمام الجنود المجتمعين عادةً قديمة ورهيبة. أراد الأسلاف من خلال هذه المحكمة إنزال أشد الآلام بالخونة وجعلهم يشعرون بالذلل. كان الملك يترأس هذه المحكمة المنعقدة بحضور كل الجنود، وقادة فرق الفرسان، والمشاة ومرافقي الجيش. كان عدد أعضاء هذه المحكمة عشرة أعضاء يُختارون عن طريق القرعة، ومن بين أرفع الضباط وقدامى الجنود.

اصطفّ الجيش في ذلك السهل الصحراوي قبل مطلع الفجر، وكان الجنود قد تجمّعوا بعد إطلاق نفير بوق طويل وعال بشكلٍ يخرق الأسماع بنغمته الوحيدة الحادة كالشفرة. تجمّع جنود البيزيتاروي في سبعة صفوف بعد أن حملوا كامل أسلحتهم، كما حملوا رماحهم بأيديهم بشدة، واصطفّ أمامهم فرسان الهيتايروي. تجمّع في أقصى الجانبين جنود مشاة الهجوم المسلّحون تسليحاً خفيفاً وقد أحاطوا بالصفين الطويلين على شكل مربع، وذلك بالإضافة إلى جنود الصدم، وحاملي الدروع تاركين مدخلاً صغيراً في الجهة الشرقية، ليسلكه الملك والقضاة والسجناء. لم يُسمح للجنود المرتزقة من اليونانيين ولا من التراقيين أو الأغريانيين بالحضور، لأنه لا يُسمح لغير المقدونيين بمحاكمة المقدونيين.

نُصبت منصة منخفضة العلو وسط صف الهيئات يروي. ووُضع على تلك المنصة عرش الملك مع مقاعد لسائر أعضاء المحكمة.

بزغت الشمس من وراء الجبال، فأضاءت أشعتها أسنة الرماح أولاً، وجعلتها تلمع بسطوحٍ شديد لا تحتمله الأبصار. وبعد ذلك، تسلل ضوء الشمس كي يضيء وجوه الجنود الذين وقفوا ساكنين وهم يلبسون دروعهم المعدنية، وأضفى ظلالاً على وجوههم المتصلبة التي تركزت عليها الشمس آثارها مع الريح والجليد.

سُمع نفير البوق ثلاث مرات معلناً عن وصول الملك، وما لبث أن وصل وراءه القضاة، وبعدهم السحناء المكبلون بالسلاسل. كان فيلوتاس بينهم، وبانت آثار التعذيب الشديد على وجهه، ثم ظهر إمينتاس الذي سار إلى الأمام، وكأنه غير مكترث بما يجري.

أخذ الملك وباقي أعضاء المحكمة أماكنهم فوق المنصة، فأسرع أكبر الأعضاء سناً لتلاوة الاتهامات بصوت عال. بعد ذلك، اصطف الشهود، وما لبث أحد المنادين أن كرر كل جملة صرحوا بها حتى يتمكن كل المجتمعين من سماعها. صوت أعضاء المحكمة بعد ذلك، ثم صدر الحكم بالإجماع: المتهمون مذنبون.

صاح المنادي وهو يكرر كلمات أكبر القضاة سناً: "يُمكن للهيئة العامة للمحكمة أن تصوت الآن. ستدلون بأصواتكم في ما يتعلق بكلّ متهم على حدة. يُمكن للذين لا يوافقون على الحكم ألا يضعوا سيوفهم على الأرض. ستراجعون جميعاً عشر خطوات إلى الوراء حتى تتمكن من إحصاء عدد أسلحتكم".

نادى أكبر القضاة سناً أسماء المتهمين واحداً واحداً، وكان المحاربون يضعون في كل مرة سيوفهم على الأرض ويتراجعون. نظر المتهمون في اتجاه بعد آخر. نظروا أولاً إلى الفرسان وهم يعتمدون على

ما تبقى لديهم من أمل برفاقهم الجنود الذين قد ينقذوهم. ولكن، في كل مرة كانوا يفعلون فيها ذلك، يكون عدد السيوف اللامعة المتروكة على الأرض قليلاً جداً. أما عندما وصل الدور إلى فيلوتاس فقد تُرك عددٌ أكبر من السيوف، وخاصة تلك العائدة إلى الهيتايروي، لكنها لم تكن كافية لقلب نتيجة الحكم. كلفته غطرسته وعجزه عن التآلف مع الجنود، وعلى الأخص مع جنود المشاة ثمناً غالياً. وعلى كل حال كانت شهادة التابع سييالينوس، وهي الشهادة التي سمعها الجميع، دليلاً حاسماً ضده.

لم ينظر فيلوتاس إلى الأرض على غرار ما فعله السجناء الآخرون، بل تابع التحديق إلى الإسكندر، واستمر في الصرّ على أسنانه كي يكبت آلامه. كان لا يزال يحدّق إلى الملك عندما وضعوه أمام عود إعدامه. دفع فيلوتاس رجال الإعدام الذين أرادوا ربط معصميه وكاحليه، ووقف منتصباً ومحتفظاً بكل كبريائه، كما عرض صدره أمام مجموعة من الرماة المكلفين بتنفيذ حكم الإعدام. اقترب الضابط المسؤول من المنصة، كما تفرض التقاليد، وذلك كي يسمع ما إذا كان الملك يريد منحه عفواً خاصاً.

أصدر الإسكندر أوامره باقتضاب: "صوّبوا على القلب. أريده أن يموت من المرة الأولى. لا أريده أن يتعذّب لحظةً واحدةً أطول مما هو ضروري".

أوماً الضابط وتوجّه إلى وحدته، ثم تبادل كلمات قليلة مع رجاله. صاح بأمر التنفيذ، وما لبث الرماة أن شدّوا سهامهم وصوبوها نحو هدفهم. كان المعسكر يعجّ بالجنود، لكنّ الصمت التام حيّم في تلك اللحظة على المكان. صوّب الفرسان أنظارهم نحو جسد فيلوتاس لأنهم علموا أنه حتى في تلك اللحظة الحرجة، والتي صعب عليه الوقوف

فيها بسبب التعذيب، كان سيعلمهم درساً في كيفية مواجهة قائد الهيتايروي للموت.

أعطى الضابط الأمر بإطلاق السهام، لكن فيلوتاس تمكن قبل أن تحترق السهام قلبه، من أن يجد الوقت الكافي كي يفتح فمه ويصيح: "آلالاي!".

ثم سقط على التراب، وما لبثت بركة من الدماء أن أحاطت به. كان الأمير إمينتاس آخر من أُعدم في ذلك النهار، لكن عدداً كبيراً من الحاضرين وجدوا صعوبة في عدم البكاء عند رؤيتهم هذه النهاية المفجعة التي وصل إليها هذا النبيل الشاب والشجاع، والذي حرمه القدر أولاً من عرشه، وها هو الآن يسلبه حياته في أوج شبابه. عاد الإسكندر إلى قصره، وكان متوتراً أكثر من أي وقت آخر في حياته، وسيطر عليه القلق لأنه خسر رفيق طفولته. تألم أكثر لأنه لم يخسره في ميدان المعركة، بل أمام فرقة إعدام. عجز الإسكندر عن فهم كيف أن شاباً في مثل سنّه، وسبق له أن شاركه بسرور في مشروعاته كافة، والذي ائتمنه على أعظم المسؤوليات يمكن أن يصل، فجأة، إلى هذه الدرجة من الرفض والإنكار حيث يدير له ظهره تماماً، ويتأمر ضده.

لم ينته موسم الخداع والدماء عند هذا الحد، بل جاء الآن دور اتخاذ قرار أكثر خطورة.

دعا الإسكندر إلى عقد مجلس الرفاق بعد مغيب الشمس، والذي كان سيعقد تحت خيمة نُصبت منعزلة في مكان ريفي. كان إيومينيس حاضراً. ولكن، غاب عن الاجتماع كلايتوس الأسود الذي أنيطت به مهمة دفن الرجال الذين أُعدموا. لم يقف حراساً على باب الخيمة، كما لم توضع فيها مقاعد، أو طاوولات أو سجادات، بل كانت الأرض

خالية. وقفوا كي يناقشوا الأمور على ضوء مشعل واحد. لم يتناول أحد من الحاضرين عشاءه، ولم تظهر على وجوههم سوى أمارات المرارة والإحباط.

بدأ الإسكندر الكلام: "لم تكن هذه عادتكم. لم يقل أي واحدٍ منكم أي شيء كي يُنقذ فيلوتاس من براثن الموت".

قال إيومينيس على الفور: "إنني يوناني، ولذلك لا يحق لي أن أقول شيئاً".

رد الإسكندر: "أعرف ذلك، وإلا لكنت تكلمت لصالحه علناً، كما فعلت في المجالس الخاصة. لكن الحكم صدر في هذا الوقت وأقرته الهيئة العامة للمحكمة، كما تم تنفيذ حكم الإعدام. ما حصل قد حصل وانتهى".

سأل ليوناتوس: "إذاً، لماذا دعوتنا إلى الاجتماع هنا؟".

قال إيومينيس: "فعلت ذلك لأن الأمر لم ينته بعد. هل أنا محق؟ عندما يبدأ المرء أمراً ما ستتوجب عليه متابعتة حتى النهاية المرة".

سأل بطليموس بقلق: "هل اكتشفت وجود متآمرين آخرين؟".

التفت الملك نحوه هنيهة، لكنه بدا مرتبكاً، وكأنه يواجه الآن أصعب مهامه وأبغضها، ثم بدأ الكلام بصوت هادئ جداً: "اليوم، عندما عدت إلى جناحي بعد تنفيذ أحكام الإعدام، جلست إلى طاولتي وبدأت بالكتابة إلى القائد بارمينيون...".

كان ذكر ذلك الاسم كافياً بتذكيرهم بالمأساة التي بدأت تتكشف في أذهان الحاضرين، وأدركوا جميعاً طبيعة ذلك القرار الرهيب الذي يتعين عليهم أن يتخذوه.

"بدأت بالكتابة إليه شخصياً كي أنقل إليه أخبار الحكم على ابنه فيلوتاس بالإعدام، وأن الحكم قد نفذ بحسب رغبة الهيئة العامة

للمحكمة العسكرية. أردت أن أقول له إنني كملك قبلتُ تصويت المجلس، لكنني كرجل كنت أفضل أن أموت على أن أوافق على إنزال ذلك الألم الرهيب به". نظر إليه إيومينيس، فلاحظ الدموع التي انهمرت فوق خدييه وهو يتكلم. كانت معاناة الإسكندر في تلك اللحظة تماثل معاناة القائد العجوز. "وسرعان ما توقفت يدي عن الكتابة. منعتني فكرة رهيبية من المتابعة، وهي التي دفعتني لاستدعائكم إلى هذا المكان، ولن يغادر أحد منا المكان قبل أن نتوصل إلى قرار".

قدم إيومينيس مجدداً الجواب مرفقاً إياه بسؤال: "كيف سيستجيب بارمينيون؟ هذه هي الفكرة التي تعذبك، أليس كذلك؟". قال الإسكندر: "هذا صحيح".

قال إيومينيس: "أعطاك مسبقاً اثنين من أبنائه. هيكتور الذي ابتلعه مياه النيل، ونيكانور الذي احترق جسده سهم قاتل. وها أنت تحرمه الآن من الابن الثالث، وهو بكره، والابن الذي كان فخوراً به كثيراً، وذلك بعد أن عذبتّه وأعدمتّه".

صاح الإسكندر: "ليس أنا! منحتّه أعلى المراكز بعد مرتبتي. ولكن حُكم عليه بسبب أفعاله". طأطأ رأسه برهة قبل أن يعاود الحديث مجدداً بصوت أكثر لطافة:

"إننا عالقون هنا بمفردنا وسط بلاد مجهولة لا حدود لها. وها نحن الآن على وشك الانطلاق مجدداً لتنفيذ مهمة أقسمنا على إتمامها. إن أصغر خطأ من جانبنا قد يخرّب كل شيء، وقد يمنح عدونا قوة جديدة، وهو عدو لم يستسلم بعد، والذي يحضّر - حتى وأنا أتكلم الآن - لقتال حتى النهاية. إن خطأ كهذا قد يعني القضاء على مهمتنا بالكامل. أتريدون أن تروا رفاقنا مبعثرين، أو سجناء، أو يخضعون

للتعذيب، أو قتلى، أو يباعون كالعبيد في بلاد بعيدة بعد أن يُحرموا إلى الأبد من أمل العودة إلى ديارهم ذات يوم؟ أتريدون أن تتعرض بلادنا للغزو، وأسرنا للإبادة، وأن تتعرض منازلنا للحرق على يد هؤلاء الأعداء؟ ألا تدركون أنه إذا سقط الإسكندر، فإن العالم المعروف بأكمله سيغرق في لجة اضطراب رهيب؟ هل هذا ما تريده يا إيومينيس من كارديا؟ هل هذا ما تريده جميعاً؟ لا خيار لدي سوى الضرب من دون تردد، وأن أكبت كل مظاهر الحيرة، والأحاسيس، وكل... أنواع الرحمة".

فاضت عيناه بالدموع لدى كلامه، وكان صوته متهدجاً بفعل العواطف التي هبت على روحه، وكان جميع رفاقه واعين لكل ذلك. شعروا الآن بالقوة العارمة التي كادوا أن ينسوها. بدا الأمر وكأن أنفاس الإسكندر قد اخترقت صدورهم، أو كأن دموعه تجري فوق حدودهم، أو كأن شكوكه وحزنه تعذب أرواحهم بدورها. نظر الملك مباشرة إلى أعينهم واحداً تلو الآخر قبل أن يقول: "ومع ذلك، يتوجب علينا أن نفعل الأسوأ".

سأل إيومينيس بصوت مرتعش: "أن نقتل بارمينيون؟". أوماً الإسكندر: "ليس أمامنا طريقة أخرى كي نعرف ما يعتزم أن يفعله عند سماعه أخبار موت فيلوتاس، لكنه إذا قرّر أن ينتقم فسنقع جميعاً في ورطة. إنه يمتلك كل الأموال اللازمة لشراء المؤن، وهو يسيطر على الطرقات، وعلى كل وسائل اتصالنا مع مقدونيا، وهي كلها ضرورية لإيصال التعزيزات التي نحتاج إليها بصورة مستمرة. إنه قادرٌ على إغلاق البوابات من خلفنا ليتركنا وأقدارنا. حتى إنه يستطيع أن يتحالف مع بيسوس، أو مع أي شخصٍ آخر كي يبيدنا كلياً. أنستطيع أن نتحمل هذه المخاطرة؟".



قال كراتيروس: "بقي أمرٌ واحد. أعتقد أن بارمينيون كان يعلم بأمر المؤامرة، أو أنه متورطٌ فيها؟ كان فيلوتاس ابنه، لذلك يصبح افتراض أنه قد علم بها منطقياً".

"لا أعتقد ذلك. ولكن يتعين عليّ ألاّ أستبعد هذه الفرضية من ذهني. أنا الملك، ولا يمكن لأحد أن يساعدي في هذا الأمر. إنني أقف وحيداً عندما أأخذ مثل هذه القرارات الرهيبة. إن الراحة الوحيدة التي أجدها وسط كل هذا الكرب تأتي من الصداقة، فمن دونكم لن أكون متأكداً من أنني سأستجمع القوة، والإرادة، والهدف اللازمة كلّها لاتخاذ كلّ هذه القرارات. أصغوا إليّ الآن. إنني لا أرغب في تحميلكم عبء الشعور بالذنب الذي أشعر به، وهو عبء يتعين عليّ أن أحمله بمفردي. ولكن، إذا كنتم تعتقدون أن ما أفعله ضرب من الجنون، وإذا كنتم تعتقدون أنني تخطيت كل الحدود المعقولة، وإذا كنتم تعتقدون أن ما أعتزم فعله عملٌ يصدر عن طاغية متوحش، فإنني أطلب إليكم أن تقتلوني الآن. يمكنكم بعد ذلك أن تنتخبوا الأفضل بينكم كي يحلّ مكاني لأنني لم أرزق بالأولاد. يمكنكم بعد ذلك أن تتفقوا مع بارمينيون كي تعودوا إلى الوطن". فكّ الملك درع صدره وتركه يقع أرضاً تاركاً صدره من دون حماية.

كان هيفاستيون أول من تكلم: "أقسمتُ إنني سأتابعك إلى أقصى الحدود". والتفت بعد ذلك إلى رفاقه وقال: "إذا رغب أي واحد منكم في قتل الإسكندر، فسيتعين عليه أن يقتلني معه".

فكّ هيفاستيون درع صدره وتركه يسقط أرضاً لدى اقترابه من الإسكندر كي يقف إلى جانبه.

ملأت الدموع عيون الجميع، وخبأ بعضهم وجوههم بأيديهم. تذكّر كراتيروس في تلك اللحظة ذلك اليوم البعيد عندما تنقلوا وسط

العواصف الثلجية في المعبر الذي يحيط به الجليد في إيليريا كي ينضموا إلى الإسكندر. لقد فعلوا ذلك حينها كي يُعلموا أميرهم المنفي أنهم لن يتركوه وحيداً أبداً لأي سببٍ من الأسباب. فصرخ بأعلى صوته الأَجَش: "يا جنود الإسكندر!".

ردوا جميعاً: "حاضرون يا مولاي!".

دخل إيمولبوس من سولوي مخزن الأسلحة القديمة التابع لقصر المرزبان. فالتفت نحوه الرجل الذي كان ينتظره فجأة ما إن سمع وقع قدميه. سأل الجاسوس: "مَنْ أنت؟ ومن أي فرقة؟".

ردّ الرجل: "اسمي ديمتريوس، من الفرقة الخامسة، الكتيبة الثالثة من جنود الهجوم".

قال إيمولبوس وهو يعرض عليه وثيقة تحمل النجمة الأرجادية عليها: "لدي أوامر لك من الملك. أتعرف ماذا تعني هذه؟".  
"إنها الختم الملكي".

"بالفعل، وهي تعني أن الأوامر التي توشك على تلقيها بفعل هذه السلطة تأتي من الإسكندر مباشرة. إنها مهمة صعبة وتحمل معها مسؤوليات كثيرة، لكننا نعرف أنك لست غريباً عن مهام كهذه، كما أنك تصرفت دائماً بسرعة ودقة عظيمتين".  
"ومن سيتعيّن عليّ أن أقتل؟".

حدّق إيمولبوس إلى عينيه مباشرة ثم قال: "القائد بارمينيون". لم يُظهر الرجل أيّ ردّ فعل واضح، عدا ارتجاف رموشه قليلاً. تابع إيمولبوس كلامه فيما كان يراقبه بعناية: "صدر هذا الأمر شفهاً فقط، ولا يعرف به أحد غيرك. ولا يعلم أحد، حتى الملك، بأن الاختيار قد وقع عليك كي تنفذ هذه المهمة. سنضع بتصرفك شخصين من الأعداء، كما ستستخدم جمالاً من إسطبلات ساتيبارزان. إن هذه الجمال هي أقوى الحيوانات الموجودة في هذه المناطق وأسرعها. سيتعيّن عليك أن

تصل إليه قبل أن تصله في إيكباتانا أخبار مقتل فيلوتاس". ثم ناول ديمتريوس لفافةً من ورق البردى وتابع كلامه: "هذه هي الوثيقة التي تثبت أنك مبعوث ملكي، لكنك تحتاج إلى معرفة كلمة السر المتعارف عليها بين الملك وبارمينيون كي تصل إليه، وتنقل رسالتك الشفهية".

"وما هي كلمة السر؟".

"إنها أغنية مقدونية قديمة كان الصغار يغنونها، لذلك يُحتمل أنك تعرفها: انطلق ذلك المحارب العجوز الأحمق إلى الحرب...".

بدا واضحاً أن ذلك القاتل استمتع بالمفارقة التي تحملها الأغنية. فأوماً وهو يُكمل كلمات الأغنية: "وسقط على الأرض!".

لم يُظهر إيمولبوس أي مشاعر من أي نوع كان، وقال مؤكداً: "بالضبط".

تابع كلامه قائلاً: "لن تنال مكافأة مقابل هذه المهمة، لكنك ستلقى تالنتاً فضياً واحداً من جيبي الخاص".

أجاب الرجل: "لا حاجة إلى ذلك".

"بل ستستفيد منه. استخدم خنجراً واغرز في صدره. إذ يجب ألا يموت أعظم جندي في مقدونيا من جرّاء جرح يصيبه في ظهره".

أوماً ديمتريوس: "هل من شيء آخر".

"يتعيّن عليك أن تفاجئه، لأنه إذا أدرك ما يحدث فسيفضي عليك. لا تغرّك حقيقة أنه يبلغ السبعين من عمره. إذ لا يزال الأسد أسداً، حتى وإن كُبر في السن".

"سأكون متيقظاً".

"إذاً، انطلق الآن، فليس أماناً وقت نضيّعه. سينتظرك الدليلان عند الإسطبلات مع الجمال. ستجد المال في إيكباتانا في معبد أشمون

الكالديين خارج البوابة الجنوبية مباشرة. يتعين عليك أن تغادر فور إتمامك المهمة، وألاً تعود أبداً".

غادر الرجل من باب جانبي بحسب ما أمر به، ونزل الدرج متوجهاً إلى الإسطبلات، ثم انطلق على الفور باتجاه الشمس الغاربة. وقف الإسكندر شاحب اللون وساكناً وهو يراقب القاتل حتى اختفى عن ناظريه فوق سطح الصحراء المتماوج.

استغرق ديمتريوس ستة أيام وخمس ليالٍ للوصول إلى زادراكارتا لم ينم خلالها سوى ساعات معدودة كل ليلة، وكان يتناول طعامه وشرابه وهو مُعتلّ جملة. كان يتبادل الجمال مع الدليلين حينما يكون ذلك ممكناً وذلك كي يحافظ على سرعة ثابتة. كان من المدهش كيف أنهم تمكنوا من اجتياز كل هذه المسافة في فترة زمنية قصيرة وبحسب هذا النظام. وصلوا إلى إيكباتانا عند غروب شمس اليوم الثالث عشر، فتوجه ديمتريوس مباشرةً إلى مدخل قصر الحاكم.

سأله الحارس: "من أنت؟ وماذا تريد؟".

عرض عليه ديمتريوس الوثيقة التي تحمل الختم الملكي: "أنا مبعوث الملك بمهمة عاجلة. أريد أن أنقل رسالة شفوية إلى القائد بارمينيون".

"ألديك كلمة سر؟".

"بالطبع".

ردّ الحارس: "إذاً، انتظري". دخل غرفة الحرس وتكلم مع أمره الذي خرج على الفور وتحدث إلى ديمتريوس مباشرة، ثم قال له: "اتبعني".

دخلوا باحة تحتوي على أعمدة كثيرة، وبرزت في وسطها بئر كان الخدم يسحبون منها المياه للضيوف وللحيوانات، وكانوا يعبرونها من جانبٍ إلى جانب. صعدا درجاً في الجهة الغربية من الرواق المعمد

يؤدي إلى الطابق العلوي. ثم انعطفا بعد ذلك إلى ممر يحرسه جنديان من البيزنطيين، ثم سارا إلى الأسفل قبل أن يصلا في آخر الممر إلى بابٍ من دون حراسة. قرع الضابط الباب وانتظر. سُمع بعد وقتٍ قصيرٍ وَقَعُ خطوات، وسأل أحدُ: "من هناك؟".

أجاب الضابط: "الحرس. وصل مبعوثٌ من قِبَلِ الملك، وهو يحمل رسالةً عاجلة، وهي رسالة شفوية، كما يقول إنه يعرف كلمة السر". فُتح الباب، فظهر رجلٌ في نحو الخمسين من عمره، ويكاد أن يكون أصلع. كان يحمل لوحاً تحت ذراعه اليسرى، وريشة بيده اليمنى. عرّف الرجل عن نفسه بالقول: "إنني مساعده في ما يتعلق بالمراسلات. اتبعني، لأن القائد سيراك على الفور. أنهى القائد الرد على جملة من الرسائل وكان يستعد لغسل يديه قبل أن يتناول طعام العشاء. آمل أنك ستنتقل إليه أخباراً حسنة. إنه يعاني كثيراً بسبب فقدانه نيكاتور، كما أنه قلقٌ جداً بشأن الملك، وبشأن آخر ابن له على قيد الحياة. يا للرجل المسكين". وحدّق في أثناء كلامه إلى وجه القاتل محاولاً أن يَحْمَنَ طبيعة تلك الأخبار التي يوشك أن ينقلها إلى قائده، لكنه لم يستتج قطّ أما أخبار مطمئنة.

توقفاً أمام بابٍ آخر، فقال المساعد: "انتظر هنا. هناك أمر روتيني ينبغي لي معالجته قبل إدخالك إلى غرفة القائد".

كان ديمتريوس خائفاً من تعرّضه للتفتيش، ولذلك أمسك بخنجره من تحت عباءته. مرّت بضع لحظات من الصمت إلى أن ظهر المساعد مجدداً في آخر الأمر حاملاً معه صينية عليها قطعة خبز، وإناء مليء بالملح، وكوب من الشراب.

"يرغب القائد بارمينيون في أن يتمتع كل الداخلين إلى جناحه بضيافته. يقول إن ذلك يجلب حظاً طيباً". وأضاف بعد أن رسم ابتسامة صغيرة على شفثيه: "تفضّل وتناول الطعام بنفسك".

أرعى القاتل يده عن مقبض خنجره، ومدّها نحو الصينية. تناول قطعة الخبز أولاً ثم غمسها بالملح وأكلها. ورشف بعدها بعض الشراب.

قال وهو يمسح فمه بظاهر يده: "اشكر القائد بالنيابة عني".

أوماً المساعد ووضع الصينية على الطاولة، ثم قاد ديمتريوس إلى الباب الذي يؤدي إلى غرفة بارمينيون، وطلب إليه أن ينتظر لحظات قليلة. سمع الرجل صوتيهما من خلال الباب الذي كان منفرجاً بعض الشيء. وبعد ذلك، خرج المساعد، وأوماً في إشارة منه إلى أن القائد مستعدٌ لاستقباله. عندها، دخل ديمتريوس وأقفل الباب وراءه.

كان بارمينيون جالساً إلى طاولته وظهر خلفه رفٌ مليءٌ بلفافات أوراق البردي، وكانت كل واحدة منها تحمل بطاقة صغيرة وعلامة معينة، بينما ظهرت على أحد جانبي الرف لوحة عليها خريطة تمثل مقاطعات الإمبراطورية الفارسية شرق نهر هاليس. وقف بارمينيون لتحية المبعوث ما إن رآه داخلاً الغرفة. لم يكن يرتدي غير عباءته العسكرية التي تغطي رجليه حتى الركبتين، بينما انتعل حذاءه المقدوني الذي يصل إلى منتصف ربله ساقيه. كان القائد يتميز ببنية جسدية قوية بشكلٍ استثنائي، بينما كانت دروعه الحديدية والجلدية معلقةً على حامل خشبية أمام الجدار الموجود إلى يساره، وهي الحاملة التي يبدو أنها ترن مع درعه تالنتاً واحداً. كان القائد أعزل من السلاح، لكن سيفه ذا النصل الأثري القديم كان معلقاً من حزامه على الحاملة ذاتها.

أشار إلى أحد المقاعد وقال: "اجلس أيها الجندي".

ردّ القاتل: "لست متعباً".

قال بارمينيون: "لست متعباً؟ يبدو لي أنك ذهبت إلى آخر الدنيا

وعدت منها. تبدو بحالةٍ فظيعة. تعال، اجلس".

أطاع ديمتريوس كي لا يثير الشبهات، وقرّر أنه سينتظر القائد كي يقترب منه، لكنه ما إن جلس حتى برز مقبض خنجره من عباءته بشكلٍ يكفي كي يكون ملحوظاً. فتراجع بارمينيون إلى الوراء نحو درعه وأسلحته بشكلٍ غريزي، وسأل وهو يهم بتناول سيفه: "من أنت؟ قلت إنك تحمل كلمة السرّ".

وقف ديمتريوس على الفور وقال: "انطلق الجندي الأحق إلى الحرب..."، ووضع القاتل يده على مقبض الخنجر مجدداً. أرخى بارمينيون سيفه عندما سمع هذه الكلمات، وتحرك نحوه وقد ظهر الذهول والألم على وجهه، وراح يتمتم: "الملك... لكن كيف يُمكن لذلك أن يحصل؟".

غرز القاتل خنجره بسرعة في قلب بارمينيون، وراقبه وهو يسقط من دون إصدار أي صوت، بينما امتدت بركة من الدماء فوق الأرض حوله. راقبه يموت، ولكن من دون أن يلاحظ الحقد أو التمرد في عينيه بينما كانت الحياة تفرّ منهما، بل لاحظ الدموع فقط. بدا له أن شفّيتي القائد كانتا تهمسان بشيءٍ ما مع آخر أنفاسه... ربما كان... ربما كلمة السر تلك.

غادر من خلال بابٍ آخر إلى يمين الجدار، واختفى عبر ممرات ذلك القصر العظيم، وما لبثت صرخة رعبٍ طويلة أن مزقت هدوء الفترة التي تترافق عادةً مع مغيب الشمس.

\*

وبعد مرور ثلاثة عشر يوماً، سمع الإسكندر أن بارمينيون قد اغتيل، وبالرغم من أنه هو الذي أعطى الأمر شخصياً بذلك، إلا أن هذا الخبر كان بمثابة ضربة قاسية بالنسبة إليه، وكأنه أمل أن يقوم أحد بتغيير مصيره المحتوم. عزل نفسه في خيمته بعد أن غرق في جوٍّ من



الكآبة لأيام عديدة من دون أن يرى أحداً، ومن دون أن يتناول طعاماً أو شراباً. قصدته لبيتين أكثر من مرة، لكنها كانت تخرج في كل مرة والدموع تفيض من عينيها، وتجلس على الأرض خارج خيمته وهي تبكي تحت أشعة الشمس أحياناً، وتحت المطر في أحيان أخرى منتظرة إياه أن يسمح لها بدخول خيمته. أما أصدقاؤه فكانوا يأتون بين الحين والآخر لعلهم يلاحظون أي علامة من علامات الحياة في الخيمة. ولكن، كل ما كانوا يسمعون كان صوته الأَجش والرتيب عندما كان يردّد أغنية الأطفال المقدونية القديمة، لذا، كانوا يغادرون بعد أن يهزّوا رؤوسهم.

ختم إيومينيس المجلد الرابع من اليوميات بهذه الفقرة:

في اليوم السابع من شهر بيانوبيو قُتل القائد بارمينيون بناءً على أوامر الملك، بالرغم من أنه لم يكن مذنباً بشيء. كان رجلاً شجاعاً خاض كل معاركه بشرف على الدوام، وكان يحارب مثل الشبان بالرغم من سنّه المتقدّمة. لم تكن تشوب سجلّه أيّ شائبة، ولن يتلخّ هذا السجل بأيّ شائبة، وهو سيعيش في قلوبنا إلى الأبد.

عاد الإسكندر أخيراً إلى القصر بمفرده سيراً على قدميه. لم يخلق ذقنه، وكانت خصلات شعره القدر متشابكة. فقد الإسكندر قدراً كبيراً من وزنه، بينما كان الغموض وعدم التركيز يكتنفان نظراته. ضمّته ستاتيرا بين ذراعيها مرحةً به، وسعت إلى التخفيف من آلامه عندما كانت تجلس كل ليلة قرب قدميه لتغني له مع خلفية من الأنغام صادرة عن قيثارتها البابلية.

كان الصيف قد أوشك على الانتهاء عندما أمر الملك الجيش بالتجمع بعد أن حدّد له موعداً للمغادرة. تحدّث الضباط المسؤولون عن الزحف مع الأعداء، كما حضرّ الضباط المسؤولون عن المؤن العربات وحيوانات الحمولة. أمر قادة مختلف الكتائب فرّقهم بالاصطفاف، وقادوها في مسيرات تدريبية تستغرق الواحدة منها أياماً عدة. كان القصد من هذه الدورات تعويد الجنود على تحمّل المصاعب والمشقات التي تنتظرهم في الأودية الضيقة لسلسلة جبال باروباميسوس. أثار استئناف هذه الأنشطة العسكرية حماسة كبيرة في أنحاء المعسكر لأن الجنود كانوا متلهفين كثيراً إلى مغادرة هذا المكان المريع الذي شهد أحداثاً مفرعةً، كما أرادوا قبل أي شيء آخر وضع حدّ لأيام الاسترخاء وسفك الدماء التي عاشوها على ضفاف هذه البحيرة التي تخلو من الحياة، والتي تربض تحت أسوار إيكباتانا، وهي المدينة التي باتت تحمل الآن اسم إسكندرية آريا.

اكتشفت الأميرة ستاتيرا أنها حامل، فبدأ أن هذه الأخبار قد حملت قدراً من العزاء للملك، حتى إنها أضفت عليه بعض الشعور

بالسعادة. سرّ أصدقاؤه بدورهم واعتقدوا أنهم سيحصلون بعد قليل على إسكندر جديد صغير يمشي بينهم. كان الزحف شمالاً شاقاً جداً بالنسبة إلى امرأة في وضعٍ دقيقٍ كهذا، لذلك طلب إليها الإسكندر العودة والمكوث في أحد أجنحة قصوره. أطاعت ستاتيرا وتوجهت نحو زادراكارتا بنية الانضمام إلى والدتها في إيكباتانا أو سوسا.

وفي أحد صباحات أيام الخريف الصافية، تردّد نغير الأبواق كإشارة للمغادرة، واتخذ الملك مركزه على رأس جيشه بعد أن امتطى بوسيفالاس مرتدياً درعه الرائعة، أي كما كانت الأحوال أيام إنجازاته العسكرية المجيدة. سار إلى جانبه كلٌّ من هيفاستيون، وبيرديكاس، وبطلليموس، وسلوقس، وليوناتوس، ولايسيمachus، وكراتيروس، وكانوا على صهوات جيادهم وقد ارتدوا دروعهم المعدنية، واعتمروا خوذاً التي تماوجت تيجانها تحت أشعة الشمس.

ارتحلوا لأيامٍ وأيامٍ في الوادي الذي يجري فيه نهر تصب فيه آلاف الروافد، والذي يمرّ قرب قرية تلو قرية، ولم يحدث أي شيء. تبادل النبلاء الفرس الذين كانوا يتبعون الجيش الحديث مع السكان الذين كانوا يعيشون في تلك الأماكن، وشرحوا لهم إن ذلك الشاب المتألق الذي يمتطي صهوة ذلك الجواد الأسود العملاق هو ملك الملوك الجديد. وكان يظهر بين الحين والآخر شخصاً ما وهو يلوح بغصنٍ من الصفصاف تحيةً له. كانت السماء في تلك الليلة صافية جداً، وبدا أن لمعان نجومها قد ازداد كثيراً، وكأن آلاف النجوم الجديدة قد وُلدت في هذه القبة السماوية المقوسة والعظيمة، وظهرت مثل أزهارٍ لا حصر لها في حقلٍ ربيعي. شرح لهم كاليستين أن الهواء في مثل هذا الارتفاع يكون أصفى بكثير بسبب عدم وجود الأدخنة والأبخرة التي تتكاثف في الأماكن الأقل ارتفاعاً، وهذا ما يسهّل رؤية النجوم كثيراً. لكنّ عدداً

من الجنود شعروا أن السماء تتغير مع التغيرات التي يلاحظونها في طبيعة الأرض المحيطة بهم، لكنهم ما عادوا يُدهشون لدى رؤيتهم أي شيء في هذه الأراضي البعيدة.

كانوا ينصبون الخيم بمحاذاة ضفة النهر عند مغيب شمس كل يوم. كان منظر هذا الجمع الضخم من الجنود ومن يرافقهم من النساء، والتجار، والخدم، والعبيد، والحمالين، والرعاة، وأصحاب القطعان مع ماشيتهم، يشبه منظر مدينة تنتقل بأكملها.

وصلوا ذات يوم إلى مكان تحوّل فيه وادي النهر الذي تصب فيه آلاف السراويل إلى سهلٍ فسيحٍ جداً محاطٍ بمعظمه بسلسلة كبيرة من الجبال شديدة العلو والشاخحة نحو السماء، والتي كانت مكلّلة بالثلج، ولا معة تحت أشعة الشمس.

صاح إيومينيس متأثراً بهذا الجمال الطبيعي: "إنها الباروباميسوس!".

ومع ذلك كان كاليستين أقل تأثراً: "تبادلت مؤخراً سلسلة من الرسائل مع خالي أرسطو، وهو يعتقد أن الجبال في هذه المنطقة لا بد من أن تكون آخر امتدادٍ لسلسلة الجبال القوقازية، وهي أعلى سلسلة جبال في العالم".

أشار ليوناتوس إلى المعابر التي تتخلل القمم المعلقة بين السماء والأرض، وسأل: "وهل يُفترض بنا أن نرحف إلى تلك المرتفعات العالية؟".

أجاب بطليموس: "بالضبط، لأن بيسوس موجود، من دون شك، في الجهة الأخرى من هذه الجبال مع جيشٍ من الباكترين والسوغدانيين واللسكاثيين. ولقد صمّم الإسكندر على القضاء عليه مهما كان الثمن".

رفع ليوناتوس يده إلى جبهته كي يحمي عينيه من وهج الشمس، ونظر مرة أخرى إلى سلسلة الجبال المهيبه التي يعجز المرء عن النظر إليها بسبب غطاء الجليد والثلج ناصع البياض، وما لبث أن هزّ رأسه، وتحرك قُدماً.

أكّد الملك نظرية كاليستين الجغرافية، وتمكّن في غضون الأيام القليلة التالية من تحديد موقع مثالي لتأسيس مدينة جديدة تقع وسط وادٍ عريضٍ وخصبٍ، حيث يتمكن قسم كبير من الناس الذين يرافقون الجيش في تحركه من الاستقرار فيها. أطلق الإسكندر اسم إسكندرية القوقاز على هذه المدينة، وأسكن فيها آلاف الناس مع حامية يبلغ عددها نحو مئتين من الجنود المرتزقة الذين فضلوا البقاء فيها على تحمّل عملية صعود الجبال الصعبة والتي تسبب الدوار.

هبت نسائم الهواء الصافي، وبدت السماء زرقاء ساطعة فوق المروج الخضراء، التي يقطعها النهر وروافده الفضية، لكن أشباح أرتاكوانا التي بدا أنها تلاشت لبعض الوقت، وشبح بارمينيون الملطخ بالدم، عاودت الظهور مجدّداً. ففي أحد الأيام، قصد الإسكندر عند مغيب الشمس خيمة أريستاندر، وقال له: "أحضِر حصانك واتبعني".

أطاع الضالع أوامر الملك، وما لبث الرجلان أن تسلّلا خفية عن أنظار الحراس، وتحركا بسرعة وسط الظلمة التي بدأت تبسط جناحها فوق الجبال، وما لبثا أن بدأا صعود منحدرات هذه الحواف العظيمة.

سأل أريستاندر: "لماذا جئنا إلى هنا؟".

ردّ الملك وهو يحدّق إليه بنظرةٍ محمومة من عينيه: "أريدك أن تستحضر لي شبح بارمينيون. يمكنك أن تفعل ذلك يا أريستاندر؟".

أوما الضالع، وقال: "سأجعله يحضر إليك إذا كان لا يزال يحوم فوق هذه البلاد، لكنني غير متأكد من الوصول إليه من دون تعريض حياتي للخطر إذا كان قد ذهب إلى العالم السفلي".

"حلمتُ بأنني رأيتُه منذ ليالٍ قليلة. كان بمفرده سائراً على قدميه قرب ذلك المعبر. مشى وظهره مقوس وكأنه يحمل حملاً ثقيلاً، بينما امتزج شعره الأبيض مع بياض الثلج. رأيتُه وهو يلوح لي بين الحين والآخر كي أتبعه... لَوْح لي ذلك المحارب العظيم بيده الخشنة. والتفت نحووي بغتة، فرأيت الجرح الذي يحمله في صدره، لكنّ عينيّه لم تحملا الحقد ولا الاستياء. لم يظهر في تينك العينين سوى حزن لا حدود له. استدعه لأجلي يا أريستاندر، أرجوك!".

"أتذكر المكان الذي رأيتُه فيه بالضبط في الجبل؟".

ردّ الملك، وهو يشير إلى ممرٍ صخريٍ مختفٍ تحت الثلج: "هناك في الأعلى".

"إذاً، خذني إلى هناك قبل أن يفاجئنا الليل وتدهمنا ظلمته فلا ندرك عندها الطريق التي يجب أن نسلكها".

انطلقا على صهوتي جواديهما في البداية، ثم ترجّلا عندما ضاق المرر وصعبَ سلوكه. وصلا إلى خط بداية الثلج قبل انتصاف الليل، وتوقفا أمام حقلٍ أبيضٍ يمتد أمامهما ليصل إلى القمم العالية.

سأل أريستاندر: "هل أنت مستعد؟".

ردّ الملك: "أنا جاهز".

"جاهزٌ لماذا؟".

"لكل شيء".

"وحتى للموت؟".

"أجل".

"إذا، اخلع ثيابك".

فأطاع الإسكندر.

"استلق فوق الثلج".

استلقى الإسكندر على ظهره فوق الثلج، وراح يرتجف بينما كان يراقب أريستاندر وهو يركع قربه، ويهزّ كعبي قدميه صعوداً ونزولاً. راح يغني تمويده غريبة أرفقها بين الحين والآخر بصرخات قصيرة بلغة بربرية غير مفهومة. تصاعدت أغنية أريستاندر نحو البعيد المتجمد. بدأ جسم الإسكندر يغرق أكثر في الثلج مع تصاعد النغمات إلى حدّ أنه أصبح مغموراً تقريباً.

شعر الإسكندر بأن آلاف الإبر الجليدية تحترق جلده، وأحسّ بأنها ستصل إلى قلبه، كما أن الألم ظلّ يتزايد مع مرور كل لحظة وسرعان ما أصبح لا يُطاق. وعند حدّ معيّن أدرك أنه يطلق سلسلة من الصرخات الإيقاعية باللغة البربرية ذاتها التي يستخدمها أريستاندر، وما لبث أن لاحظ أن عيني الضالع قد ابيضتا تماماً من دون أن تُظهرا أيّ تعابير، وكأهما عينا تمثال رخامي جردتهما مياه المطر من الألوان.

حاول أن يتكلم، لكنه عجز عن نطق أي كلمة. حاول النهوض، لكنه شعر بأنه لا يتمتع بالقوة الكافية لذلك. حاول أن يصرخ مجدداً، لكن صوته اختفى بالكامل. كان يغرق في الثلج أكثر فأكثر، أو لعله كان يطوف في الهواء المتجمد والشفّاف فوق قمم الجبال... شاهد نفسه وكأنه في حلم. كان طفلاً يركض متنقلاً بين غرف القصر، بينما تحاول آرميس العجوز اللحاق به لاهثة الأنافاس. وأخيراً شاهد نفسه في قاعة اجتماعات كبيرة، ووسط مستودع الأسلحة حيث اعتاد كبار قادة المملكة الجلوس إلى جانب والده. وقف هناك معقود اللسان أمام المحاربين العظماء وقد اختفوا داخل دروعهم اللامعة. رأى عند هذا الحدّ رجلاً بهميّ الطلة يتقدم

من ممرٌ جانبي، وكان شعره الأبيض الطويل يتماوج خلفه. كان هذا الرجل أهم جندي في المملكة، أي القائد بارمينيون!

حدّق إليه المحارب العجوز وقال مبتسماً: "ما هي تلك الأغنية أيها الأمير الصغير؟ غنّها أمامي مجدداً. ألا ترغب في أن تغنيها مجدداً أمام محاربك العجوز والأحمق الذي انطلق إلى الحرب؟".

حاول الإسكندر أن يغني تلك الأغنية التي كانت تدفع جميع الحاضرين إلى الضحك، لكنه لم يستطع بسبب تلك الكتلة التي سدّت حنجرتَه سداً محكماً. تحرك كي يتراجع نحو غرفته، لكنه رأى أمامه الأرض المغطاة كلها بالثلج، وشاهد أريستاندر مجدداً راکعاً على ركبتيه وعيناه لا تزالان بيضاوين. حاول يائساً استجماع آخر قواه كي يصل إلى حيث كانت عباؤه التي خلعتها فوق الثلج قبل وقت قصير ويلمسها، لكنه ما إن بذل جهداً كبيراً كي يلتفت برأسه في ذلك الاتجاه حتى أحسّ بالشلل على نحو مفاجئ بسبب الصدمة التي سببتها له رؤية بارمينيون أمامه. كان شاحباً تحت ضوء القمر، ومغلفاً بدروعه، ومعلقاً سيفه المهيب إلى جانبه.

فاضت عينا الإسكندر بالدموع عندما تمكّن من أن يتمتم: "أيها المحارب... العجوز... الشجاع... ساحني".

حرّك بارمينيون شفّتيه قليلاً راسماً ابتسامة حزينة وأجاب: "إنني مع أولادي الآن، وها قد عدنا لنجتمع معاً. وداعاً أيها الإسكندر. سأغفر لك ما فعلته بي عندما نشاهد بعضنا مجدداً، لكن تلك اللحظة لم تعد بعيدة". وتحرك مبتعداً ببطء فوق الثلج النقي ثم اختفى بين الظلال.

انتفض الإسكندر فجأة مستعيداً وعيه. ورأى أريستاندر واقفاً أمامه حاملاً عباؤه، ثم قال له: "بسرعة! تغطى! تغطى بالعباءة! لقد شارفت على الموت".



تمكّن الإسكندر من الوقوف، ثم تدثّر بعباءته، وما لبث دفاء  
الصفوف أن أعاد الحياة ببطء إلى جسده.

سأل أريستاندر: "ماذا حدث؟ استخدمت كل القوى المتاحة لي،  
لكنني لا أتذكر شيئاً".

"رأيت بارمينيون. كان مرتدياً دروعه، لكن لم تظهر عليه أيّ  
جروح. ابتسم لي". أحنى رأسه لدى كلامه. "لعل كل ذلك كان مجرد  
وهم".

قال الضالع: "مجرد وهم؟ ربما لا. انظر".

التفت الإسكندر، فرأى صفّاً من آثار الأقدام على الثلج، والذي  
انتهى على بعد مسافة قريبة منهما. بدا المشهد وكأن أحداً قد سار في  
ذلك الاتجاه واختفى تماماً. ركع الملك ولمس آثار الأقدام بأطراف  
أصابعه، ثم التفت نحو أريستاندر بنظرة ملؤها الدهشة، وقال: "إنها آثار  
حذاء مقدوني ثقيل... ونعلين مليئين بالمسامير. آه! هل هذا ممكن؟".

حدّق الضالع إلى الأفق البعيد قبل أن يقول: "دعنا نعود الآن.  
تأخر الوقت. إن النجوم التي أمّنت لنا الحماية حتى الآن سرعان ما  
ستختفي متلاشياً أمام ضوء الصباح".

احتفل الإسكندر بتدشين مدينته الجديدة بشعائر وأضحيات بسيطة أعلن بعدها عن إقامة مسابقات رياضية، وألعاب مختلفة، ومسابقة شعرية كانت ستقام فوق منصة كبيرة. سعى الممثلون الذين يقدمون مسرحيات التراجيديا إلى تمثيل أدوار صعبة كي ينافسوا بها تيسالوس الأسطوري. وبدا أن هواء المرتفعات قد أضفى طابعاً أكثر مهابة وقوة على صوت ذلك الممثل العظيم.

كان أبرز عملٍ قُدِّم على خشبة المسرح من ضمن مسرحيات التراجيديا هو مسرحية سبعة ضد طيبة وهي المسرحية التي مثل فيها فنان شاب من ميلاسا دور تيديوس بواقعية مذهلة عندما غرز أسنانه في جمجمة ميلانيبوس. لكن جائزة أفضل تمثيل ذهبت مرة أخرى إلى تيسالوس عن دور المدافع عن أجاثون، والذي أدّاه بشكلٍ رائع.

استمرت الاحتفالات سبعة أيام. وفي اليوم الثامن، انطلق الجيش نحو المعبر في زحفه وراء مجموعة من المرشدين المحليين. وصل الجيش بعد أن توقف مرتين فقط إلى منطقة تعلوها طبقة كثيفة من الثلج. بدت هذه المنطقة مهجورة كلياً. وكانت الممرات التي تؤدي إليها منحدرَةً بشدة وصعبة التسلق، ولذلك اضطر الجيش إلى تحميل الحيوانات نصف حمولتها المعتادة، وهكذا أصبحت وحدة الحملة محدودة جداً.

قال المرشدون إن هناك قرى عدّة في الأعلى، وإنما تحتوي على مؤن، لكن الثلج أخفى كل شيء بشكل تام حيث لم يظهر لها أثرٌ من أي نوع كان. وتمثلت الطريقة الوحيدة لمعرفة أماكن هذه القرى في

الانتظار حتى حلول المساء. إذ عندها، يبدأ السكان في إشعال نيرانهم كي يطبخوا طعام عشائهم، وهكذا سيدل الدخان على مواقعهم. وبهذه الطريقة، تمكّن الجنود من ملء بطونهم، لكن سكان تلك القرى الفقيرة حُرموا من كل وسائل بقائهم على قيد الحياة واضطروا إلى مغادرة منازلهم الجبلية والانتقال نحو الأراضي الأكثر انخفاضاً حيث تنافسوا على الطعام مع مساكين آخرين.

استمر الزحف، لكنه كان منهكاً جداً حيث إن آثاره بدأت بالظهور على الجنود، وعانى كثيرون من تأثير العمى المؤقت الذي يسببه الثلج.

استدعى الإسكندر الطبيب فيليب إلى خيمته بعد غياب الشمس، وعرض عليه فقرة من كتاب **مسيرة العشرة آلاف**، وقال له: "يروي زينوفون أنه عانى مع رجاله من المشكلة ذاتها في ثلوج أرمينيا، وقال إن عدداً كبيراً منهم قد فقدوا أبصارهم".

ردّ فيليب: "أعطيت الجنود الأوامر بأن يعصبوا أعينهم، وأن لا يتركوا في العصابات سوى فتحات صغيرة كي يروا من خلالها ما هو ضروري فقط. يساعد هذا التدبير على إنقاذ أبصار الجنود. لا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك، لأننا لا نمتلك ما يكفي من الأدوية لكل الرجال، لكنني أتذكر أن نيقوماخوس، معلمي القدم، والرجل الذي أشرف على ولادتك، قد استخدم الثلج من أجل شفاء تمزق الأنسجة، بالإضافة إلى منع حدوث النزيف أو إيقافه. أحرقت بعض التجارب على جنودنا، وكانت النتائج مشجعة. نستطيع أن نقول إن الدواء موجود في المادة التي سببت الداء".

لاحظ الطبيب بعد ذلك أن الإسكندر يبدو مجهداً: "وكيف حالك أنت يا مولاي؟".

"إن آلامى من النوع الذي يستعصي على علاجاتك يا فيليب الطيب، ولعل الشراب فقط ما يمكنه أن يخفف منها... لم أفهم قطّ ما عناه والدي عندما قال إن الملك يقف وحده حتى الآن".

"هل تتمكن من النوم؟".

"أجل... أحياناً".

"إذاً اذهب الآن، ونل قسطاً من الراحة، أتمنى لك ليلة هانئة".

"وأنت أيضاً أيها العطار".

ابتسم فيليب لأن الملك لا يستخدم لقبه الطبي الكامل إلا إذا كان مسروراً بالتحديد من أحد جوانب عمله كطبيب. حيّا الإسكندر بإيماءة صغيرة من رأسه، ثم احتفى في ظلمة تلك الليلة كثيرة النجوم.

وصلوا في اليوم التالي إلى مشارف صخرة كبيرة، كانت عالية وكثيرة الشقوق. تفحصها كاليستين لمدة طويلة من الزمن، ثم طلب من مجموعة من الأغريانيين مرافقته إلى أسفلها. لاحظ نتوءاً غامضاً شبه دائري في أحد جوانبها يشبه عشاً ضخماً، بينما ظهرت في الجهة الأخرى، وفي منتصف سطح الصخرة بالضبط لطخات دائرية بلون الصدأ، ثم ظهر منخفض يجعل المرء يظن أنه شكل جسد إنسان بأبعاد كبيرة. عندها، أرسل كاليستين بطلب أريستاندر على الفور.

قال له: "انظر. إنه شكل رائع! لقد وجدنا الصخرة التي قيّد إليها بروميثيوس! انظر إلى ذلك الشيء هناك". أشار إلى النتوء وأضاف: "يُحتمل أن يكون هذا عشّ النسر الذي أكل كبده، أما تلك". وأشار إلى اللطخات التي كانت بلون الصدأ: "فهي السلاسل التي أبقت تيتان سجيناً، وتلك هي الآثار التي تركها جسده... وإذا كان خالي أرسطو محقاً، وهذا ما أعتقد، فإن هذه البلاد هي القوقاز، لذا يُحتمل أن تكون هذه هي صخرة بروميثيوس".

انتشرت هذه الأخبار بسرعة بين صفوف الجنود، لذا ترك عدد كبير منهم أماكنهم وتوجهوا لرؤية الصخرة، وكلما تطلعوا بتمعنٍ أكبر كلما ازداد اقتناعهم بحقيقة ما قاله كاليستين. جاء تيسالوس بدوره، فألمته الطبيعة الرائعة للموقع الذي يحيط به، وبدأ بتلاوة أبيات من قصيدة بروميثيوس التي كتبها آيسخيلوس، وهي أبيات قيلت في رثاء تيتان الذي كان مقيداً إلى هذه الصخرة السكاثية. ردّدت القمم العالية صوته الجمهوري، وأرسلت كلمات الشاعر في أنحاء تلك البلاد البربرية البعيدة، والمأسورة أبداً بالجليد:

أيتها السماء الزرقاء الساطعة، ويا نسائم الرياح السريعة  
المنحفة، ويا مياه الأنهر، ويا ضحكات المحيط اللامتناهية. أيتها  
الأرض؛ أم الجميع، وأنت أيتها الشمس؛ ذلك الجرم السماوي  
الذي يرى كل شيء. أناديك! انظري إليّ....

وقف الملك جامداً بدوره، وأصغى إلى هذه الكلمات المهيبة، لكن كاليستين ردّ على تيسالوس بكلمات كتبها هيفايستوس الذي أُجبر على تقييد تيتان بالسلاسل:

هكذا قف حارساً، فوق هذه الصخرة البائسة. قف منتصباً من  
دون نوم، ومن دون إحناء ركبتك. ستصدر عنك تأوهات  
كثيرة، ونواح بلا جدوى، لأن قلب زيوس قاسٍ جداً، مثل  
قلب أي شخصٍ اكتسب قوة جديدة<sup>(\*)</sup>.

أثرت هذه الكلمات في الإسكندر كثيراً، وكأنها موجهة إليه وإليه وحده.

في تلك اللحظة بالذات، طار نسر من إحدى القمم، وأطلق

(\*) آيسخيلوس، بروميثيوس المقيّد (الأسطر 88 - 90، 31 - 35) ترجمة هيربرت واير سمايث.

صغيره الأجنح عبر ذلك الفضاء الواسع الذي يحيم فوقهم، وراح يحلق ببطاء فوق تلك الصحراء المغطاة بالجليد، فبدا الأمر وكأن زيوس ذاته هو من يردّ، بعد أن شعر بالإهانة نتيجة الكلمات غير المناسبة التي يُطلقها هؤلاء البشر الوقحون.

التفت كاليستين، ولاحظ نظرة الملك المذهولة، فسأله: "أليست هذه الأشعار رائعة؟".

ردّ الإسكندر: "إنها كذلك". وبعدها تابع المشي.

\*

استغرق الجيش الزاحف سبعة عشر يوماً لعبور سلسلة الجبال العظيمة من جهة إلى أخرى. واجه الجيش كل أنواع الصعوبات والمخاطر قبل وصوله إلى سهل سكاتيا. وتطلب الأمر التضحية ببعض الحيوانات من أجل عبور آخر قسمٍ من أقسام ذلك الحاجز الرهيب، لكن الإسكندر تمكّن في النهاية من التحديق إلى مقاطعة جديدة من مقاطعات مملكته الواسعة.

نظر الإسكندر من فوق آخر معبر جبلي إلى سهلٍ فسيح، وشعر الجنود مجدداً بالدهشة لدى رؤيتهم هذا المنظر المتناسق واللامتناهي، لكنهم دُهبشوا أكثر من منظر الجليد والثلج اللذين يجاوران هذه المناطق شبه الصحراوية الواقعة تحت أشعة الشمس الحارقة.

شعر الجنود مجدداً بأنهم جزءٌ من مشروع الإسكندر، وهذا ما دفعهم إلى الشعور بأنهم وسط تيار قوي، وأنهم مدفوعون بقوةٍ لا تُقهر، ولا يُمكن مقاومتها.

وشعر الجنود كذلك أنهم منهمكون مجدداً في مغامرة لا يُمكن مقارنتها مع أي شيءٍ آخر، حيث إن أحداً في هذا العالم لا يستطيع الصمود فيها غيرهم، وأنهم وحدهم كانوا محظوظين بلقاء رجلٍ مثله،

هذا على افتراض أنه رجل. يُضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من أولئك الذين يتبعون الجيش تعودوا أن يروه من بعيد، ودرع صدره الفضيّة تلمع، فيما يخفق قربه العلم الأحمر ذو النجمة الفضية، وأصبحوا يميلون إلى لاعتقاد أنه رجل يفوقهم مقدرة.

ما إن وصل الجنود إلى السهل حتى انطلقوا نحو عاصمة ذلك الإقليم، وهي مدينة تُدعى باكترا، وتقع وسط واحة خضراء مكنتهم من الحصول على كل ما يُنعشهم. استسلمت المدينة من دون قتال، لذلك تّبت الإسكندر أرتاوزوس، مرزبانها الحالي، في منصبه. كان ذلك المرزبان هو الذي رحّب بالملك في هذه المنطقة وأعلمه أن بيسوس قد انسحب بعد أن أحرق الأرض وراءه.

"لم يتصوّر قطّ أنك ستتمكن من الوصول إلينا بهذه السرعة، وأنتك ستتمكن من عبور الجبال في غضون أيام متغلباً على الثلج والجوع. ولم يتمكن كذلك من جمع جيشٍ كافٍ لمواجهة جيشك في ميدانٍ مفتوح، لذلك عبّر نهر أوكسوس، وهو أحد أعظم الأنهر التي تنبع من جبالنا. وهو موجود الآن وسط إحدى المدن المتحالفة معه، ولقد دمّر كل الجسور وراءه.

قرّر الملك عدم تضييع أيّ وقت بعد أن سمع هذه الأخبار، فانطلق بزحفه مجدداً وهو ينوي عبور النهر حيث يكون ذلك ممكناً. وعندما وصل إلى ضفة النهر استدعى ديايس رئيس المهندسين، وسأله: "كم من الوقت سيستغرق بناء جسر؟".

تناول ديايس رحماً من أحد الحراس، وغرزه في مجرى النهر إلى أبعدهم عمقٍ ممكن، لكن تيار المياه أماله حتى كاد يطفو مستوياً على سطح المياه. عندها، صاح ديايس: "إنها رمال! إنها مجرد وحول!".  
سأله الملك: "ماذا يعني ذلك؟".

"يعني ذلك أن الدعائم لن تصمد، تماماً كما حصل مع مقبض ذلك الرمح". ونظر حوله قبل أن يتكلم مجدداً: "يُضاف إلى ذلك عدم وجود ما يكفي من الأشجار في الجوار".

"سأعيد عدداً من الجنود إلى الجبال كي يقطعوا أشجار التنوب". هزّ دياديس رأسه: "مولاي. تعلم جيداً أن شيئاً لم يوقفني قطّ، وأني لم أعتبر أي مشروع مستحيلاً، لكن هذا النهر يبلغ عرضه خمسة ستاديات، وتيار مياهه قوي جداً، كما أن مجراه مكونٌ من الرمال فقط. لا يُمكن للدعائم أن تصمد، ومن دون الدعائم لا وجود للحجر. أنصحك أن تبحث عن معبر آخر".

تقدّم أوكسهاتري إلى الأمام، وقال بلغة يونانية غير واثقة: "لا وجود للمعابر في هذه المنطقة".

بدأ الإسكندر في ذرع ضفة النهر جيئةً وذهاباً تحت أنظار جميع جنود جيشه، بالإضافة إلى رفاقه المنذهلين. لفت نظره بعض المزارعين الذين كانوا منشغلين بالعمل في حقولهم المجاورة للنهر. كانوا يفصلون القش عن القصب مستفيدين من ذلك اليوم الذي نشط فيه الهواء، فيلقونه في الهواء بالفروش والشوك. كان القصب يسقط في مكان قريب، أما التبن فكان يتماوج وسط الرياح إلى أن يستقر على أطراف البيدر. كان منظرًا جميلاً للمشاهدة، لأن دوامةً ذهبيةً كانت تُظهر القشّ الذهبيّ الملتصق في أثناء طيرانه في الهواء.

اقترب ذلك الشاب الوسيم من المزارعين فتوقفوا عن عملهم، ونظروا إليه مندهشين عندما انحنى كي يلتقط حفنة من التبن.

ثم التفت نحو دياديس الذي كان قد انتهى في هذا الوقت من غرز بعض الأعمدة في قاع النهر في مكانٍ مجاور. فشاهد بعد قليل، الأعمدة وهي تطوف فوق سطح المياه.



قال الإسكندر: "عثرتُ على طريقة".

سأل المهندس وهو يفتح ذراعيه علامةً على عدم تصديقه ما سمعه:  
"وجدتَ طريقةً للعبور؟ كيف؟".

رفع الملك يده وأفلت حفنة التبن على الأرض، وقال: "بواسطة  
هذه".

"أتعني بواسطة تبن القصب؟".

"بالضبط. رأيت ما يشبه ذلك في إستر. كانوا يملأون جلود  
الحيوانات بالتبن ثم يخيطنونها ويضعونها في الماء. فيقوم الهواء المحبوس  
وسط التبن بجعل هذه الأكياس الجلدية تعوم لمدة تكفي عبورنا النهر".

قال المهندس: "لكننا لا نملك جلوداً تكفي كل جنودنا".  
"كلا، لكننا نملك ما يكفي منها لتكوين ممر. يمكننا أن نستخدم  
جلود الخيّم... ما رأيك؟".

تطلع دياديس نحوه بذهول: "إنها فكرة عبقرية. يمكننا أن ندهنها  
بالشحم كي نزيد من مقاومتها لتسرب المياه".

دُعي مجلس الرفاق للانعقاد، وتم تحديد مهمة كل شخصٍ منهم:  
يقوم هيفاستيون بتجميع التبن، ويجمع ليوناتوس كل الجلود التي  
تُستخدم عادةً لنصب الخيام، وسيطلب إلى السكان إعطاءه ما لديهم  
منها. أما ألواح آلات الحرب فستُستخدم كمر بعد أن يتم تثقيفها  
بالأحجار، وترتبط بالحبال.

كانت كل هذه المواد جاهزةً بحلول المساء، وعندها عمد  
الإسكندر إلى تفقد جيشه، ولكنه عندما وصل إلى قدامى الجنود،  
ورآهم منهكين نتيجة عبورهم الطويل للجبال، نظر إليهم بتعاطفٍ  
شديد وكأنه يراهم للمرة الأولى. كانت أعمار كثيرين منهم تصل إلى  
الستين، بينما كان آخرون أكبر سناً، لكنهم حملوا جميعاً آثار المحن التي

مرّوا بها من معارك، وندوب، وصعوبات مختلفة. أدرك أنهم مستعدون كسي يتبعوه مهما كانت الظروف، لكنه لاحظ خوفهم من ذلك النهر الكبير الذي سيحاولون عبوره بواسطة أكياس من القش قبل أن يصلوا إلى سهل صحراوي خالٍ ومتراحي الأطراف.

نادى الإسكندر كراتيروس، وأمره بتجميع كل قدامى الجنود فوراً أمام خيمته بعد مغيب الشمس، لأنه يرغب في صرفهم من الخدمة. أطاع كراتيروس ونفذ أوامره، وعندما تجمّع قدامى الجنود وسط المعسكر صعد الإسكندر إلى منصّة وبدأ بالحديث.

"يا قدامى الجنود! لقد خدمتم ملككم وجيشكم بشرف، وتغلّبتم على كل الصعوبات والحن من دون أن توفروا أنفسكم. وتمكّنتم من قهر أعظم إمبراطورية عرفها العالم حتى الآن. واليوم، ها أنتم قد بلغت السن التي يليق بالمرء أن يستمتع فيها بالراحة والامتيازات التي استحقها نتيجة خوضه المعارك بشرف. إنني أحرركم من كل التزاماتكم، وأريد أن أعيدكم إلى منازلكم. سينال كل واحد منكم مبلغ مئتي قطعة فضية لتكون هديتي الشخصية له، كما أنكم ستستمترون في قبض معاشاتكم إلى أن تصلوا إلى مقدونيا. أريدكم أن تصلوا تحياتي إلى بلدكم، وأن تعيشوا بسعادة ما تبقى من أيامكم. إنكم تستحقون ذلك".

ختم الإسكندر كلامه، وتوقع سماع عاصفة من التهليل، لكن ما سمعه كان همهمة سرت بين صفوف الجنود، وهي من نوع الأحاديث المكتومة. تقدّم أحد قادة الفرق، وكان كبيراً في السن، وقال: "لماذا لم تعد تريدنا يا مولاي؟".

سأله الإسكندر: "ما اسمك أيها القائد؟".

"اسمي أنتينور".

"ألا تريد رؤية أفراد عائلتك؟".

"أريد أن أراهم... أجل، بالطبع".

"ألا تريد رؤية موطنك مجدداً، وأن تُمضي بعض الوقت هناك كي تأكل وتشرب، وكي تكون محطَّ عناية".  
"أريد ذلك حقاً".

"إذاً، يمكنكم أن ترحلوا جميعاً بكل سرور، وأن تدعوا الشبان الجدد الذين سيوجدون معنا يأخذون أماكنكم، لأنكم أتمتم مهمتكم".

لم يتحرك الرجل قيد أنملة.

"هل من شيء آخر أيها القائد؟".

"كنت أفكر في أن اليوم الأول سيكون رائعاً بالطبع. سأتمكن من رؤية زوجتي وأولادي، وعدد قليل من أصدقائي، ومنزلي. سأشتري ملابس جديدة وطعاماً كثيراً، لكن الأيام التي ستليه تخيفني يا مولاي. هل أدركتَ ما أعنيه؟".

"أدرك ذلك تماماً أيها القائد. إن ذلك اليوم الذي تتحدث عنه يخيف كل الناس، بمن فيهم أنا، وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى عدم التوقف... أبداً. يتعيّن عليّ أن أسرع كي أصل إليه وأتجاوزه".

أوماً الجندي المخضرم بالرغم من أنه لم يفهم كلام الإسكندر، وقال: "أنت على حق يا مولاي. إنك شاب ونحن مستنون. حان وقت عودتنا إلى وطننا، لكن على الأقل...".

"على الأقل ماذا؟".

"على الأقل... أيمكنني أن أعانقك بالنيابة عن كل رفاقي؟".

عانقه الإسكندر بلهفة وكأنه يعانق صديقاً حميماً، ثم أهدأ العناق وسط ابتهاج الحاضرين، لأن قدامى الجنود شعروا جميعاً بأن الملك كان يعانقهم بعد أن تأثر كثيراً، كما شعروا بأن عيونهم تفيض بالدموع.

في تلك الليلة، كتب كاليستين رسالة مطوّلة إلى خاله أرسطو وسلّمها إلى أحد قدامى الجنود المغادرين الذي يسكن قرب ستاجيرا. تسلّم الرجل قطعة نقدية ذهبية، وهي من أولى القطع النقدية التي سكّها فيليب وتحمل صورة الإسكندر؛ الإسكندر الذي لم يعد موجوداً بعد الآن بنظر كاليستين، والذي لم يكن موجوداً منذ بعض الوقت. غادر قدامى الجنود عند الفجر، وقدموا التحية بكل الأسلحة التي يحملونها، وبنفير الأبواق، وذلك في أثناء تحركهم نحو الغرب متّبعين طريق الجبال التي تقود نحو زادراكارتا.

كانت أصوات الطبول التي ترافق مسيرتهم لا تزال تُسمع عندما بدأ دياديس بتجميع الجسر بأقصى سرعة ممكنة. وبدأ الجنود بعبور الجسر فور الانتهاء من تركيبه: عبر الهيتايروي أولاً مشياً على الأقدام، وقادوا جيادهم وهم يمسون بأعنتها، ثم تبعهم جنود المشاة.

عند حلول الظهيرة، عبر الجيش بأكمله إلى الجهة الأخرى لكن المهندسين تابعوا عملهم حتى حلول الظلام من أجل استعادة المواد المتواجدة على الضفة الشمالية من النهر. بدأ الجنود بنصب الخيم، وسرعان ما نفّذ أوكسها تري وفرسانه جولة مراقبة بعيدة، ثم عادوا إلى الإسكندرية كي يُبلغوا الملك أنهم عثروا على آثار قوائم جياد كثيرة، وأنها لا بد من أن تكون عائدة للجيش الذي يرافق بيسوس الذي يدّعي أنه الملك الجديد.

دعا الملك رفاقه إلى عقد مجلس؛ بمن فيهم كلايتوس الأسود، وبعض قادة الكتائب الذين أبلوا بلاءً حسناً خلال العمليات التي جرت مؤخراً. سمح الملك لأوكسها تري بالحضور، بالإضافة إلى بعض الضباط من فرسان الفرس، وهو الأمر الذي قابله كلايتوس وقادته بفتور شديد. بدأ الملك كلامه: "قدّم إلينا أصدقاؤنا الفرس مساعدةً ثمينةً عندما وضعونا على الطريق التي يتبعها عدونا. إننا نعرف الآن إلى أين يتجه

بيسوس، ونعرف كذلك ما يجب علينا القيام به. يتعيّن علينا أن نمسك به الآن، وإلا لن نتمكن من الإمساك به على الإطلاق. سيتولى بطليموس قيادة فرقة الطليعة بمعاونة سرية من الهيتايروي وفرقتين من جنود المهجوم، كما أن الملاحقة ستبدأ في أسرع وقت ممكن. سيرافقك أوكسهاتري مع فرقته". أصدر بطليموس إشارة صغيرة تدل على الانزعاج، وهي إشارة تمكّن الإسكندر من ملاحظتها. "ألديك أي اعتراض يا بطليموس؟".

جاء الرد على الفور: "ما من اعتراض من أي نوع كان".  
"إذاً، اتفقنا على أن تغادر على الفور. يعرف الأدلاء الذين سيرافقونك الطريق؛ حتى وسط الظلام".

اعتمر بطليموس خوذته، وغادر متبوعاً بكل الأعضاء الحاضرين في المجلس، لكن الأسود بقي جالساً بمفرده.

وسأله: "هل كان من الضروري إرسال هؤلاء البرابرة مع بطليموس. أما كنا نتحرك دائماً معتمدين على أنفسنا؟".

حدّق الإسكندر إلى عينيه بحزم ثم قال: "أجل. كان ذلك ضرورياً، ولسببين أيها الأسود. أولهما، إنهم يعرفون هذه المناطق معرفة جيدة أكثر من غيرهم. وثانيهما، إنهم سيصبحون قريباً جزءاً من جيشنا، على المستوى ذاته مثل فرساننا ومشاتنا".

أحنى الأسود رأسه، وكأنه تلقى ضربة قوية: "إنك ترتكب خطأ فظيماً أيها الإسكندر".

"ولماذا؟".

"لأنه سيتعين عليك، عاجلاً أم آجلاً، أن تختار... بيننا وبينهم".  
وغادر بعد ذلك من دون أن يقول وداعاً. ولم تتأخر أبواق بطليموس عن عزف إشارة الانطلاق.

برهن أوكسهاتري، على الفور، أنه لا غنى عنه. وكان قد ارتدى سروالاً جلدياً سكاثياً وصدرية من الجلد المقوى بصفائح معدنية، بينما علّق قوسه وحاملة سهامه على كتفه، كما علّق سيفه الهيركاني إلى جانبه. امتطى حصاناً مناسباً للسهول، أي أنه كان قصيراً ذا شعرٍ طويل، لكنه قوي جداً.

تأكد من أن كل جندي يحمل مشعلاً، ثم أضاء مشعله، وحدّق إلى عيني بطليموس بنظرة ذات مغزى، وكأنه يريد أن يقول له: "دعنا نرى الآن إذا كنتم أقوىاء كما تُظهرون أنفسكم". وانطلق بعد ذلك بسرعة وهو يحمل مشعله عالياً كي يضيء الطريق خلفه، ولتتمكن الجنود الذين يتبعونه من رؤية طريقهم. كانت الطريق تبدو في أثناء تقدمهم واضحة المعالم، وكان اجتيازها سهلاً، مما يدلّ على أنهم يتقدمون بشكلٍ مرضٍ.

لاحظ بطليموس أن الفرسان الآسيويين لا يتوقفون أبداً، وحتى إنهم يتبولون وهم على صهوات جيادهم. فأعطى بطليموس أخيراً الأمر بالتوقف كي يمنح الحيوانات بعض الراحة، وكي يحصل الجنود على ساعات قليلة من النوم، لكن أوكسهاتري هزّ رأسه كي يؤكد على عدم موافقته، ثم انحنى إلى الأمام على رقبة جواده وغفا قليلاً، وهذا ما فعله الفرسان الهيركانيون والباكتريون. أما الجنود الآخرون فقد جلسوا على الأرض، وغطوا أنفسهم بعباءاتهم. وبعد فترة، جلس البربري على صهوة جواده، وتناول عنانه ثم قال: "تأخرنا، لأن بيسوس لا ينتظرنا

الآن". أضاء مشعلاً آخر من بقايا مشعله الأول، ثم انطلق بسرعة متبوعاً برجاله. وتوقف الرجل قبل طلوع الفجر مباشرة. ترجل وجمع بعض روث الجياد وعرضها على بطليموس. "إنها جديدة... ستمكّن من القضاء عليهم في الغد".

ردّ أحد ضباط فرقة الطليعة: "هذا إذا لم نمت قبل ذلك بسبب الإجهاد".

صاح بطليموس الذي لم يرغب في أن يظهر أقل شجاعة: "إلى جيادكم أيها الرجال! دعونا نُظهر لهم معدننا!".

كان الكبرياء واحترام الذات كافيين لإيقاظ ما تبقى من طاقة في أطراف الفرسان المتعبين، لكن بطليموس لاحظ أن جروح بعض رجاله تنزف.

"يُحتمل أنك أدركت الآن السبب الذي يدفعنا إلى ارتداء السراويل. هيا بنا، دعونا نتحرك الآن!".

بزغت الشمس بعد ذلك بوقت قصير، فاستطالت خيالات الرجال عبر السهل المهجور بالكامل. ظهرت كل الألوان المنسية والمحبية التي خبأها الظلام في تلك اللحظة من الهدوء والطمأنينة الشاملة. كانت الأرض رائحةً بالفعل، وظهرت باقات من أزهار الأقحوان الصفراء البرية، ومجموعات من أزهار الأشواك الصغيرة بنفسجية اللون، بالإضافة إلى أجمات فضية اللون تناثرت هنا وهناك، والتي لمعت تحت أشعة الشمس، فظهرت ألوانها المغرية واضحة وبدت مثل الجواهر المتناثرة على الأرض الرملية. وفي نقطة محددة، التقى الجنود قافلة طويلة من الجمال العملاقة ذات الشعر الكثيف، وذات السنامين، وهي الجمال التي تُدعى الباكترية والتي ملأت سكون ذلك الصباح بأصواتٍ غريبة وحزينة.

شرح أوكسهاتري ضاحكاً: "إنهم في طريقهم إلى سميرنا. أتريد الذهاب معهم؟".

هزّ بطليموس رأسه، وأوماً إلى البربري كي يكمل طريقه. كانت عيناه متعبتين نتيجة الإجهاد فانتشرت حولهما البثور، لكنه كان يفضل الموت على أن يطلب فترة استراحة. ومع ذلك، توقف بعض رجاله بينما انهار آخرون على الأرض نتيجة الإجهاد، فتركهم حيث سقطوا بعدما قرر أنه سيستعيدهم في طريق عودته.

في هذا الوقت، كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في كبد السماء بينما أصبحت الحرارة لا تطاق. وصلت أسراب من الذباب من أماكن مجهولة، وراحت تطن حول عيونهم محاولة أن تمتص بعض السوائل، بينما راحت مئات من ذباب الجياد تُزعج جيادهم التي راحت تدق الأرض بحوافرها، وتسهل من الألم. لاحظ بطليموس أن الجياد الفارسية لم تتأثر كثيراً بهذه الحشرات بفضل شعرها الكثيف والشائك، بالإضافة إلى ذيولها التي تكاد تصل إلى الأرض، فقد كانت هذه الذبول طويلة بما يكفي لإخافة أي طفيليات تقترب منها. فكّر بطليموس في أن الإسكندر ربما يكون محقاً بشأن القدرات التي يتمتع بها البرابرة ومعارفهم بهذه البلاد والسكان الذين يعيشون فيها.

اخترق صوت أوكسهاتري شروده عندما قال له: "هذه هي المدينة". أشار إلى سور كبير مشيد بالأحجار الطينية، ويحيط بمباني هذه المدينة منخفضة الارتفاع ورمادية اللون، كما أشار إلى أحد المباني الذي كان عالياً وبارزاً بشكلٍ يوحي بأنه مسكن الحاكم. أوماً بطليموس، وسرعان ما اصطفت الفرسان على شكل قوس حتى يحيطوا بالمدينة، وهكذا شكلوا ما يشبه الحلقة، فلم يعد باستطاعة أحد من السكان دخولها أو مغادرتها. تفاوض أوكسهاتري مع قائد جنود



العدو، وعاد بعد قليل وأبلغ بطليموس: "فوجئوا عندما رأونا هنا، وشعروا بالخوف. سيقوم اثنان من المرزبانات بتسليمها إلينا شرط أن ندعهم وشأنهم".

"ومن هما هذان؟"

"سبيتامين وداتافيرن".

"وأين هما الآن؟"

"إنهما في المدينة، وبيسوس معهما".

فكر بطليموس في الأمر قليلاً بينما كانت قطعان الخراف تعود مع رعيائها الذين اكتشفوا أن الطريق إلى المدينة مقطوعة، فبدأوا بالتجمع خارج صفوف الجنود الذين غطّاهم الغبار الذي أثارته الحيوانات. جاء قرار بطليموس على الشكل التالي: "إننا نوافق. اطلب إليهم أن يبلغوك عن المكان الذي سيجري فيه التسليم. سنترك معظم الجيش هنا كي نتجنب أي مفاجآت، وستابع طريقنا".

عاد أوكسهاتري وتحديث مجدداً إلى المفاوضين، ثم أشار إلى بطليموس إلى أنهم قد توصلوا إلى اتفاق، وهكذا سُمح لقطعان الخراف بالمرور. اندفعت القطعان مع رعاتها من خلال البوابات المفتوحة. وبعد ذلك، عمّجت الأسوار بالناس من الرجال والنساء، ومن الكبار والصغار، وكلهم يريدون رؤية الداياوا الذين لبسوا دروعهم المعدنية، واعتمروا خوذاً ذات التيجان، وامتطوا جيادهم الضخمة بدروعها اللامعة. راحوا يشيرون إلى الجنود، كما أشاروا إلى الجبال المتوردة بنور الشمس الغاربة، وكأنهم أرادوا القول إن هؤلاء الرجال قد نزلوا من أعاليها مثل الطيور المفترسة.

أبلغ أوكسهاتري بطليموس شروط الترتيبات المتفق عليها. إذ كان سيتم تسليم بيسوس ليلاً في مكانٍ يبعد ثلاثة ستاديات عن المدينة.

وستعتمد مجموعة من الفرسان إلى تسليم السجين عند حلول الظلام، بينما يقوم سبيتامين وداتافيرن بالانسحاب عبر البوابة الشرقية التي ستبقى مفتوحة لهذا السبب بالتحديد.

ردّ بطليموس: "قل لهم إننا موافقون". قال ذلك بعد أن ظن أن أوامره تقضي بالقبض على بيسوس بمفرده من دون أسر المرزبانين الآخرين، وهكذا سمح لرجاله بتناول الطعام والشراب، وهم جالسون على الأرض. وأعطى أوامره بعد ذلك بإبقاء البوابة الشرقية مفتوحة ما إن يحل الظلام.

وسأل بشيء من القلق عندما تحركوا نحو المكان المعين: "من يضمن أنهما سيحترمان الاتفاق؟".

ردّ أو كسهاتري: "تركتُ مجموعة من رجالي عند البوابة الشرقية. إنهم جميعاً يعرفون بيسوس، وسيتعرفون إليه إذا مرّ عبر تلك الطريق". توقف عندما وصل إلى مكان رأى فيه شجرة أكاسيا ذابلة بمحاذاة الطريق، ثم التفت إلى بطليموس، وقال: "سيجلبونه إلى هنا، وكل ما علينا فعله هو الانتظار".

خيّم السكون على السهل الفسيح عند قدوم الظلام. ومع تقدّم الوقت، تصاعدت أصوات الصراخ التي تمازجت مع أصوات بنات آوى التي بدت وكأنها تأتي من المجهول وتختفي فيه مثلما تجيء. مرّت ساعة أو نحو ذلك قبل أن يُسمع أولاً نباح كلب، ثم سُمع بعد ذلك وقع حوافر جياد. تحرك أو كسهاتري، وكان أول من تكلم: "إنهم في طريقهم إلينا". توتّر فجأة، وبدا مثل حيوان مفترسٍ ينتظر لحظة الانقضاض. ظهرت مجموعة من خيالات أشخاص فوق السهل، وكانت عبارة عن عشرة من الفرسان الآسيويين، أو نحو ذلك، بقيادة ضابطٍ فارسي يُمسك بسجينٍ مقيدٍ بالسلاسل. نفخ أو كسهاتري في

قعر مشعله المتوهج الذي كان يحمله، فاشتعلت السنة نيرانه. قرّبه من وجه السجين، وتعرّف إليه فانفرجت أساريره عن ابتسامة شريرة تشابه ابتسامة الذئب. تراجع الفرسان الذين رافقوا بيسوس وابتعدوا، وما لبثوا أن اختفوا فوراً عن الأنظار.

أوماً أو كسهاتري إلى أحد رجاله كي يحمل مشعله، وأوماً إلى آخر كي يُقي قبضته على السجين.

صاح بطليموس: "ماذا تفعل؟ إنه سجين الإسكندر!"

أجاب الفارسي وقد بدت نظرة شرسة في عينيه حيث لم يجرؤ بطليموس على مواجهتها: "إنه سجيني أنا قبله!". ثم تناول من حزامه خنجره ذا النصل الحاد مثل الشفرة، واقترب من السجين الذي أطبق فكّيه استعداداً لكل الألم الذي سينزل به بعد أن وقع بين يدي أسوأ عدوٍ قد يتوقعه.

قطع أو كسهاتري كل أربطة ملابس الرجل وتركه عارياً تماماً، وهو أكثر أمرٍ يجلب العار بالنسبة إلى رجلٍ فارسي. وبعد ذلك، أمسكه من شعره وقطع له أنفه، ثم قطع أذنيه. تحمل بيسوس هذه التشويهات المرعبة بشجاعة بطولية حقاً، ومن دون أن يبكي أو يصرخ، وبقي وجهه المشوه والمليء بالدماء مرفوعاً فوق جسده المتناسق، وكأنه تمثال يحتفظ بكل الكبرياء المثير والمرعب في الوقت ذاته.

صاح به بطليموس بعد أن ارتعب مما شاهده: "كفى! لن أتحمل هذا!". وقفز إلى الأرض، ودفع أو كسهاتري جانباً، ثم استدعى جراحاً، وأمره بتضميد جروح السجين كي لا يفقد قدراً كبيراً من الدماء.

لم يجد الأطباء طريقة لوقف نزف الدماء غير لفّ ضمادة حول وجه السجين. أُجبر السجين بعد ذلك على السير كما هو، عارياً وحافي القدمين، فوق الطريق المليئة بأحجار الصوّان الحادة. راقبه

بطليموس بينما كان أعداؤه يجرونه بحبلٍ مربوط حول رقبتة، فبدأ له أن هذا المشهد يحاكي - ولكن بقبح أكبر - مقطّعاً من أوديب ريكس، وهي تراجيديا سبق له أن شاهدها في مدينته عندما كان شاباً، وكانت تقدمها فرقة متحولة. فلقد ظهر أوديب هكذا، أي بضمادة لفت حول رأسه بعد أن قلع مقلتي عينيه بيديه.

ساروا الليل بأكمله وطيلة اليوم التالي. التقوا الإسكندر وبقية الجيش في اليوم الثالث. تقدّم الملك محاطاً بأصدقائه وبمجموعة من الضباط الفرس، ثم حدّق إلى عدوّه أرتخششتا الرابع المزعوم. أما الفرس الموجودون والذين كانوا موالين للملك داريوس فقد بصقوا عليه وأوسعوه ضرباً على جروحه التي لا تزال تنزف فتحول وجهه إلى قناع دموي.

لم يقل الإسكندر شيئاً لأنه كان في تلك اللحظة ينتقم لموت داريوس، وشعر الآن أنه حقاً الوريث الشرعي الوحيد لملك الملوك. انتظر الملك حتى انتهى الجميع من تفرغ شحنات حقدهم، ثم نادى أوكسهاتري. وقال له: "هذا يكفي. أعيدوه إلى باكترا، وأبلغوهم أن يعدوا له محاكمةً ريثما أعود. لا أريد أن ينزل به المزيد من الأذى". ثم التفت بعد ذلك إلى بطليموس قائلاً: "لقد أنجزت عملاً استثنائياً. قيل لي إنك تمكنت من قطع مسيرة تستغرق عشرة أيام في ثلاثة أيام فقط. أيمكنك أن تتناول العشاء معي هذا المساء؟".

ردّ بطليموس: "سأفعل".

بدأ الليل يرخي سدوله، فعاد الإسكندر إلى خيمته حيث كانت ليبتين تعد له حمامه. كان يستعد للاستحمام عندما أعلن عن قدوم طبيبه فيليب لزيارته.

قال له: "ادخل. كنت على وشك البدء بالاستحمام. هل حدث أن مرض أحد؟".

"كلا يا مولاي. إن الجميع بخير، لكنني أحمل لك أنباءً محزنة.  
تعرضت الأميرة ستاتيرا للإجهاض."  
أحنى الإسكندر رأسه، وسأل بصوتٍ مرتعش: "هل كان...  
صبياً؟".

ردّ فيليب: "يبدو أنه كان هكذا حسب ما قيل لي". لم يطرح  
الملك أسئلةً أخرى، حتى إن فيليب لم يتمكن من قول المزيد بسبب  
تلك الكتلة الكبيرة التي سدّت حنجرتة، لكنه تمكّن أخيراً من أن  
يضيف: "أنا آسف... أنا فعلاً آسف". وغادر المكان بعد ذلك.

كانت أعداد الموكب الذي يرافق جيش الملك يتزايد على الدوام. وكان هذا الموكب يخيّم على بعد مسيرة أيام قليلة من الجيش، فشكّل بالفعل مدينةً متنقلة مزوّدة بهيئة لتنفيذ العدالة، وبمسارح متنقلة كانت تعرض مسرحيات شعبية محلية، بالإضافة إلى مسرحيات الملهاة والتراجيديا المأخوذة من الأرشيف اليوناني، هذا بالإضافة إلى المخازن التجارية التي كانت تبيع وتشترى مختلف أنواع السلع.

وازدادت العلاقات التي أقيمت بين الجنود المقدونيين وفتيات القرى مع تزايد أعداد الموكب، فنتج عن ذلك ولادات أطفال من أعراق مختلفة. كان الملك بالنسبة إلى كل هؤلاء الناس شيئاً لا يرقى إليه، وذلك بسبب مظهره، وبسبب جبروته ومنعته، وكذلك بسبب قدرته على التغلّب على كل المعوقات الطبيعية بدءاً من أعلى الجبال إلى أغزر الأنهار مياهاً، وأكثرها سرعة.

أدرك الإسكندر، مع كل ذلك، أن هذا الموكب سيثقل جيشه في النهاية، وسيعيقه عن الحركة، وسيتسبب في إبطاء ردّ فعله في حال اضطر إلى الردّ على أي هجومٍ محتمل. لهذا السبب، قرر أن يعيد قسماً من جيشه مع كراتيروس إلى ضفاف نهر الأوكسوس من أجل تأسيس مدينة جديدة تحمل اسم إسكندرية. أسكن الإسكندر بضعة آلاف من الناس في هذه المدينة، بالإضافة إلى أربعمئة جندي وكانوا من بين الذين أنجبوا أولاداً من النساء اللواتي كنّ من ضمن الموكب. وأمر الإسكندر بتنظيم مجتمع هذه المدينة بحسب دساتير المدن اليونانية، ونظّم لها مجالسها وقضاها.

بعد ذلك، انطلق الملك مجدداً في زحفه شمالاً، وعبرَ بلاداً كانت قاحلةً بمعظمها، وذلك إلى أن وصل إلى ضفة أحد روافد الأوكسوس، والذي يسميه المواطنون المحليون الأكثر شرفاً، وهكذا قرّر اليونانيون أن يطلقوا عليه الاسم ذاته: بوليتيميتوس. كانت المدينة الجميلة التي تطلّ على النهر تدعى سمرقند، وكان السوغديون، واللسكاثيون الآسيويون يرتادونها من مختلف المناطق التي لا نهاية لها وراء النهر، وهم الذين كانوا يجلبون معهم بضائعهم إلى سوق المدينة، والتي كانت تشتمل على الجلود، والماشية، والأحجار الثمينة، وتبر الذهب، وأحياناً بعض العبيد الذين كانوا يُسرقون من بلاد بعيدة. وكانت القوافل التي تأتي من الهند عبر المعابر الجبلية تمرّ من خلال هذه المدينة كذلك.

تحرك الإسكندر من تلك المدينة شرقاً نحو أبعد نقطة وصلها الفرس في ذلك الاتجاه، نحو مدينة أسسها سيروس العظيم بنفسه على ضفاف نهر جاكزارت، وحملت اسم قورشكات، التي تعني كريبوبوليس. كانت المدينة في تلك الفترة معقلاً قوياً لمجموعة من المتمردين من أصدقاء المرزبائين سبيتامين وداتافيرن، وهما اللذان سلّما بيسوس إلى بطليموس، واللذان صمّما على قيادة مقاومة من أتباعهما ضد نظام الحكم الجديد.

كانت المدينة محمية بحصنٍ قديمٍ مشيد بواسطة أحجار غير منتظمة، والتي نحتتها الرياح ومياه الأمطار وجعلتها تتآكل، كما شيّدت فوقه بعض أبراج المراقبة الخشبية. أحاطت بهذه المدينة سبع مدن أصغر منها. استغرق إخضاع هذه المدن الواحدة تلو الأخرى مدةً تقلّ عن الشهر الواحد، وأجبرت هذه المدن في النهاية على قبول تواجد حامياتٍ مقدونية فيها.

\*

قرّر الإسكندر الاحتفال بانتصاراته بإقامة مأدبة كبيرة، وأرسل دعوةً شخصية إلى رفاقه وكبار الضباط لحضورها.

رحّب بهم الملك جميعاً عند المدخل وقبّلهم على خدودهم الواحد تلو الآخر، ثم أدخلهم بعد ذلك إلى حيث رُتّب مكان الاحتفال بياحته المستديرة، وظهرت الأكواب والمغارف. جلس الجميع في أماكنهم، وبعد ذلك، وصل الضيوف الآخرون، فالتفت الحاضرون لمشاهدتهم عند دخولهم. دخل أولاً أو كسهاتري والنبلاء التابعون له مرتدين أزياءهم الوطنية الرائعة، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم. برهن هؤلاء عن إخلاصهم بصورة تدعو للإعجاب من خلال الهجمات على المدن المتمردة، لذلك قرّر الملك أن يكرّمهم بأن دعاهم إلى طاولته.

راقبهم الضيوف الآخرون بدهشة كبيرة ثم ما لبثوا أن نظروا إلى وجوه بعضهم بعضاً لكنهم امتنعوا جميعاً عن الكلام. كان الإسكندر أول من تكلم وسط هذا الجو من الحرج العام. "أسرنا بيسوس يا أصدقائي، وقمنا باحتلال المدن المتمردة بفضل السرعة الاستثنائية لفرقة بطليموس، وبفضل مساعدة أصدقائنا من الفرس. سأعلن الآن عن قرارٍ مهم. إنني أنوي أن أصرف الآن فرقة حلفائنا من قدامى فرسان التيساليين. وسأحتفظ فقط بالشبان الذين قدموا مع التعزيزات التي جاءتنا مؤخراً".

سأل كلايتوس بدهشة بالغة: "أتريد أن تصرف التيساليين؟! لكن التيساليين أنقذونا من براثن الهزيمة في غواجميلا... أم أنك نسيت ذلك؟". لم يقل قائد التيساليين أي شيء. وكان يبدو أن الملك قد أعلمه بهذا القرار مسبقاً.

"لا أريد إبعادهم، لكنّ عدداً كبيراً منهم قد أصيب بالتعب، كما أن بعضهم يريدون العودة إلى عائلاتهم بعد أن خاضوا كل تلك المعارك



في تلك السنوات، وبعضهم الآخر لا يشعرون بأنهم قادرون على المخاطرة بمواجهة ضد اللسكاثيين".

سأل كراتيروس: "مواجهة ضد اللسكاثيين؟! وهل سناحق اللسكاثيين؟ لكن لم يسبق لأحد أن هزمهم. فقد سيروس العظيم حياته، وأبيد جيش داريوس... ولا أحد يعرف عددهم بالضبط، وأين هم، ولا أحد يعرف أين تنتهي أراضيهم. يبدو الأمر وكأنه تقدم نحو... الفراغ".

رد الإسكندر بهدوء: "يُحتمل أن يكون الأمر كذلك. وعلى كل حال، إن هذا ما أريد اكتشافه بالضبط".

قال هيفاستيون: "أنا معك". ولم يُضف كراتيروس شيئاً، بل بدأ متردداً في تناول شيءٍ من لحم الخراف المشوي الذي كان يقدم على الطاولة.

مرّت لحظات من الصمت الذي لم تخرقه سوى أحاديث الفرس التي تبادلوها بهدوء في ما بينهم.

كان كلايتوس هو من تكلم أولاً، وطرح سؤالاً: "وكيف تعزم التعويض عن الكتائب الثلاث القوية من فرسان التيساليين؟".

ردّ الملك وهو يحدّق إلى عينيه مباشرة: "سيصل ألفان من الفرسان الفرس إلى هنا، وقد تدرّبوا جميعاً بحسب الطرائق المقدونية، وقد أطلقت عليهم اسم اللاحقين".

أصابته هذ الكلمات الأسود بالشلل، وبدا الغضب واضحاً في عينيه. فوقف وقال: "وهكذا يبدو أنك لم تعد بحاجة إلينا". ثم التفّ بعباءته بعد ذلك، وأسرع بالتوجه نحو الباب.

صاح الملك: "قف أيها الأسود! توقف! لا تتحداني بهذه الطريقة أيها الأسود!".

لم يكلف الأسود نفسه حتى عناء الالتفات في أثناء مغادرته. ووقف آخرون تاركين الطعام على الطاولات، وكان من بينهم قائد التيساليين، ثم قائدا الكتائب ميليجر وبوليبيرشون، وما لبث أن تبعهم الضباط الآمرون في فرسان الهيتايروي.

سأل الإسكندر وهو يلتفت نحو أصدقائه: "أترغبون في المغادرة بدوركهم؟".

قال سلوقس، وهو الأكثر هدوءاً من بين كل الرفاق، والذي كان يبدو أحياناً الأكثر فهكماً: "لا تقلق لهذا السبب، فالأمر لا يستحق كل هذا القلق. فنحن الذين بقينا هنا، أقسمنا على أن نتبعك نحو أطراف الأرض. أما الآخرون فهم أحرار بأن يفعلوا ما يريدونه، أي أننا لا نحتاج إليهم".

صاح ليوناتوس، وهو الذي لم يكن متأكداً قبل وقت قليل من موقفه من كل ما يسمعه: "أنت على حق! إن هؤلاء اللسكاثيين من لحمٍ ودمٍ وعظامٍ فقط... سبق لي أن رأيتهم، أتعلمون ذلك؟ يدفعون لهم في أثينا للمحافظة على النظام العام، وللقيام بدوريات في المدينة حاملين العصي الكبيرة وأقواسهم متدلية فوق صدورهم. إنهم لا يبدون لي وكأنهم من نوعٍ فريد".

اقترب بطليموس منه وداعب شعره: "أحسنْتَ يا ليوناتوس، أنت محقٌّ تماماً. ولكن تذكر أن هؤلاء اللسكاثيين المتواجدين هنا من معدنٍ أكثر صلابة. إن ما قاله لك كراتيروس حقيقة بسيطة: انتهى الأمر بسيروس بأن عقر وجهه بالأرض عندما واجههم. ولقد أجبروا داريوس على الركوع على ركبتيه، كما أن جيوشاً بأكملها قد اختفت إلى الأبد في أراضي اللسكاثيين اللامتناهية".

أغدقت مختلف أنواع الهدايا على التيساليين عندما غادروا، كما أنهم تسلّموا مبالغ سخية لتغطية نفقات رجوعهم إلى الوطن، أي مثل ما حدث مع قدامى المحاربين الآخرين. فساعدت هذه الهدايا كثيراً على تخفيف استيائهم من الإسكندر، لكن عدداً كبيراً منهم قد تأثر لدى مغادرته. فقال أحد قدامى المحاربين الذي شارك في كل المعارك بدءاً من غرانيكوس وحتى أرتاكوانا للإسكندر بكل صراحة: "سمعتُ أنك تريد ضمّ البرابرة ليقاتلوا إلى جانب جنودك، وستسمح لبعض ضباطهم بأن يكونوا جزءاً من القيادة العليا. لا أعتقد أن هذا قرار حكيم من قبلك. ومع ذلك، يتعين عليّ أن أعترف بأننا كنا نتذمر في كل مرة بشأن سياساتك التي بدت بمعظمها نوعاً من الجنون، ولكن كان يتبيّن لنا في النهاية أنك كنت محقاً.

إننا نريد العودة إلى عائلتنا مجدداً، ورؤية مدننا وقرانا مرةً أخرى. وأقول لك بصراحة إننا لسنا متحمسين لفكرة ملاحقة اللسكاثيين عبر أراضيهم التي لا نهاية لها، والتي لا تنمو فيها أشجار الزيتون أو الكروم، كما قيل لنا إن المرء لا يتمكن من رؤية منازل، ولو سار مسافة مئة يوم. إنني أتكلم الآن بالنيابة عن معظم رفاقي، وأقول إننا آسفون لتركك يا مولاي. سنفكر فيك، إلى حدّ يمنعنا من النوم في بعض الليالي، وأنت هناك في تلك الأراضي المهجورة محاطاً بالبرابرة من كل الجهات، لكنني أخشى أن لا شيء سيغيّر وجهة قدرك. كان قتالنا إلى جانبك تجربةً عظيمةً بالنسبة إلينا. كن حذراً أيها الإسكندر، ووداعاً."

استعرضهم الإسكندر على صهوة جواده بوسيفالاس، وحيًا كل جندي بمفرده مع ابتسامة، كما صافح أيدي الذين يعرفهم، أو الذين رأهم يحاربون بشجاعة في ميادين المعارك. كانت الدموع التي فاضت من عينيه على وجهه صادقةً بينما كان يشاهدهم وهم يغادرون، وذلك بعد أن انتظموا في صفوف يضمّ الواحد منها ثمانية جنود، وساروا تحت أشعة الشمس الغاربة التي نشرت ألوانها الحمراء فوق الأفق الغربي.

شهد اليوم التالي وصول أوائل فرسان الفرس، وهم الذين تدرّبوا على القتال بحسب الطريقة المقدونية. أما الفرق الوحيد الذي يميزهم عن غيرهم، عدا عن مظهرهم الجسدي وشواربهم الكثيفة وشعر رؤوسهم الطويل، فكان ارتداءهم السراويل، هذا إلى جانب عادتهم الفريدة في تحية الملك بالطريقة التي اعتادوها مع الملك داريوس، أي أنهم كانوا ينحنون أمامه ويرسلون إليه قبلةً عن بعد. أطلق المقدونيون واليونانيون على هذه الظاهرة اسم بروسكينيسيس أي السجود، كما اعتبروها فوراً عادةً بربريةً مقيتة تليق بالعبيد أكثر منها بالجنود، لكن الإسكندر قبلها، وهكذا برهن مرةً أخرى عن أنه بات يعتبر نفسه الآن الوريث الشرعي للأباطرة الأخمينيين.

يقع نهر جاكزارت وراء كريبوليس مباشرة، وهو يشكّل الحدود الشمالية للإمبراطورية الفارسية. تمكّن الإسكندر من الوصول إلى هذا النهر بعد مسيرة يومٍ واحد، وما لبث أن أقام المعسكر على ضفافه. وبعد مرور وقتٍ قصير، ظهرت مجموعة من فرسان اللسكاثيين على الجهة الأخرى. وكانوا يرتدون ملابس رائعة، ويحملون أسلحتهم. صاح هؤلاء بتحدٍ واضحٍ مطلقين إشاراتٍ تهديدية، وحتى إنهم أطلقوا بعض السهام.

وقف أحد الرجال، وكان قائدهم على ما يبدو، ويتميّز عن رفاقه بحجمه وشعره الطويل الذي تثبته بشریط من القماش الأحمر. وكان يرتدي سترة ذات كمين طويلين، وسروالاً من القماش واللون نفسيهما، ويصنع حزاماً ذهبياً. كان صدره محمياً بدرع صدر ذات طبقات متعددة. أما ساقاه فكانتا محميتين على الطريقة اليونانية بدرعَي ساقين معدنيّتين. تدلى سيفٌ من حزامه، وعُلّق قوسٌ على كتفيه بينما كانت حاملة سهامه معلقةً على عنان حصانه. كانت لكلّ جياد هذه المجموعة أغطية رأس من معدن منقوش، بالإضافة إلى رزمٍ من القطع الجلدية التي تحمي أسفل رقابها المزينة بقطع مهيبة من أوراق الذهب.

سأل الإسكندر مترجمه: "ماذا يقولون؟".

قال أوكسهاتري الذي كان يفهم لغتهم: "يقولون إنك وغدٌ وجبان، وإنه يتعيّن عليك أن تغادر على الفور بعد أن تدفع لهم جزية. ويقترحون مبلغ مئة تالنت من الفضة".

أغضب هذا الكلام الإسكندر كثيراً فامتطى صهوة بوسيفلاس، وتوجّه نحو ضفة النهر من دون أن يكثرث بوابل الأسهم التي أطلقها اللسكاثيون نحوه. سعى ليوناتوس وبطليموس إلى حمايته بدرعيهما. فيما صاح الإسكندر: "لست خائفاً منكم! سأعبر النهر، وسألاحقكم إلى كل مكان؛ حتى ولو وصلت إلى شاطئ الأقيانوس الشمالي!".

سأل سلوقس بسخريته المعهودة: "أتظن أنهم فهموا؟".

ردّ الإسكندر: "يحتمل أنهم لم يفهموا، لكنهم سيفهمون بعد وقت قصير. أبلغ لايسيمachus أن ينقل كل المنحنيقات إلى ضفة النهر، وأن يُبقي القصف المستمر عليهم. سنعبر في الغد إلى الجهة الأخرى، وسنؤسس مدينة جديدة وهي الإسكندرية البعيدة".

\*

وزَّع لايسىماخوس عشرين منجنيقاً على صفين بمحاذاة مياه النهر تماماً، وبدأ بإطلاق مقذوفاته. وما إن يُفرغ الصف الأول من المنجنيقات حرابه، حتى تُملأ منجنيقات الصف الثاني، حيث إن سيل المقذوفات كان من دون انقطاع. تمكنت المقذوفات من تحقيق إصابات مميّزة. أُصيب العديد من اللسكاثيين، وهرب أولئك الذين لم يُصابوا إصابات مباشرة بعد أن ارتعبوا من رؤية هذه الآلات التي لم يروا مثيلاً لها من قبل. عندها، أرسل الإسكندر الأغرانيين، وأمرهم بقطع النهر سباحة، وما لبث جنود الهجوم أن ثبتوا رأس جسرٍ على الضفة الأخرى، وتمكنوا من تعزيزها بحلول الظهر. بعد ذلك، بدأ دياديس من لاريسا بإطلاق سلسلة من الطوافات المثبتة على الأكياس الجلدية المليئة بالقش والتبن، أي كما سبق له أن فعل في أوكسوس.

انتقل أفراد فرقة الطليعة إلى الجهة الأخرى عند مغيب الشمس، وقرّر الإسكندر إقامة معسكرٍ على الضفة الشمالية، بالرغم من تلقي أريستاندر إشارات سلبية عدة عند تقديمه الأضحيان.

ظهر الضالع عند حلول الظلام، وكان في حالة مزاجية سيئة حيث إنه فضّل عدم تناول طعام عشائه في الخيمة الملكية. في هذه الأثناء، تابع سائر الجنود عملية عبورهم النهر، وتألّف هؤلاء من الهيتايروي، وسرية من فرسان الفرس التي تضم بمعظمها الميدين والهيراكانيين والباكتريين. أما من بقي من السكان القلائل على الضفة الأخرى فقد شاهدوا منظرًا مذهلاً، وكان عبارةً عن صفٍّ لا نهاية له من الجياد والفرسان الذين كانوا يمشون في طريقهم عبر السهل. وشاهدوا كيف أن هذا الصف أنار أولاً حقول القمح، وسطح النهر الملتع بعد ذلك.

وفي اليوم التالي، انشغل المهندسون بتحديد حدود الإسكندرية البعيدة. وبينما كانوا منهمكين في عملهم، ظهر فجأة آلاف الفرسان

في الأفق الشمالي، واصطفوا في أوسع خط جبهة يُمكن للمرء أن يتصوره.

صاح ليوناتوس: "اللسكاثيون. إنه هجوم مباغت! إنه هجوم مباغت!".

صدحت الأبواق بإشارة الإنذار، وبينما كان جنود المشاة المسلحون تسليحاً ثقیلاً يتخذون أماكنهم في تشكيلات مربعة حول الحدود التي رُسمت حديثاً، ترجل الفرسان في العراء أمامهم مباشرة. سأل كراتيروس: "ماذا يمكننا أن نفعل؟".

تقدم أحد القادة التراقيين، وهو رجل ذو خيرة قتالية كبيرة منذ أيام الملك فيليب، وسأل الإسكندر: "أيمكنني أن أتكلم؟".

لم يحول الملك بصره عن الخطر المحدق بهم والمتمثل بالجنود اللسكاثيين الذين كانوا يتقدمون عبر السهل، لكنه أجاب: "بالطبع".

"سبق لي أن حاربت ضد اللسكاثيين مع والدك في إستر، ولا أزال أتذكر تلك المعركة جيداً. إن أي شخص يدخل مناطق اللسكاثيين ويتحرك بعيداً عن قاعدته، سرعان ما سيقع في ورطة كبيرة. انظر إلى ذلك السهل الذي يمتد حتى نهر إستر، هذا عدا الأهر الكبيرة، أي أنه يصل إلى حدود مقدونيا. وهؤلاء الرجال يتحركون فوق السهل مثلما تتحرك الأسماك في المياه". وأشار إلى المحاربين الذين كانت دروع صدورهم ذات الطبقات المتعددة تلمع تحت الضوء، ثم تابع قائلاً: "إنهم يتمتعون بحسٍّ ممتاز في ما يتعلق بالاتجاهات حيث يستطيعون التنقل آلاف السطادات من دون رؤية أي شجرة أو كوخ. إنهم يصطفون الآن أفقياً، لكنهم لن يهاجمونا بهذه الطريقة. فما إن نتحرك حتى يهاجموا على شكل دائرة من حولنا، ولكن من دون أن يقتربوا أبداً من مجال سهامنا، لكنهم سيقذفون وابلًا من السهام علينا.

سُيُجرح المئات من جنودنا. وبالرغم من أن الكثيرين لن تكون جروحهم خطيرة لكنها ستكون كافية لتعطيلهم عن العمل.

سيُتسبب هجومهم برد فعلٍ من قبلنا بالطبع، لكنهم لن يقاتلونا على الفور، بل سيُتظاهرون بأنهم ينسحبون، وذلك من أجل دفعنا بعيداً إلى أن يعاودوا الظهور مجدداً بشكلٍ مفاجئ، أي مثل الأشباح. وسيبدأون بالمطاردة مجدداً بعد أن يطلقوا وإبلاً من السهام كي يضعفونا أكثر. وعند هذه النقطة فقط، سيهاجمونا بشكلٍ أفقي، فيحصدون كل الناجين. وبعد أن يتأكدوا من موت أعدائهم، سيُجرّدون الجثث من أي شيء قيّم، وسيقطعون رؤوس القتلى من أجل عرضها كغنائم، أو سيكتفون بسلحها كي يزينوا بها رماحهم، ومقابض فؤوسهم القتالية".

قال سلوقس، وهو يمرّر يديه من خلال شعره: "يا لهذه العادة المشوّقة".

نظر الإسكندر حوله فرأى الأسود وهو يقف بعيداً ويراقب رجاله وهم ينصبون خيمهم. كان هذا القائد يتعد دائماً عن طريق الملك منذ أن ترك طاولته في كريبوليس، وكان يتحدث إليه باقتضابٍ شديد، لكنه في ظل هذا الظرف لم يستطع تجنّب الإسكندر عندما استدعاه بإجماعٍ منه.

استخدم الأسود البروتوكول العسكري عندما وصل إلى حيث يجلس الإسكندر فردّ عليه قائلاً: "أوامرك يا مولاي".

ردّ الإسكندر: "ليس لديّ أوامر أصدرها إليك، لكن أريدك أن تستمع إلى كلمات هذا الصديق الذي حارب ضد اللسكاثيين في إستر".

قال كلايتوس: "أنا أيضاً حاربت هناك".

"إذاً، ماذا تقترح؟"



"أقترح أن ننسحب".

نظر الإسكندر مجدداً إلى خط الأعداء الضخم، وهو الذي وقف الآن جامداً وسط السهل: "أنت حرٌّ كي تفعل ذلك، بالرغم من أنني أحتاج الآن إلى خيرتك وشجاعتك أكثر من أي وقت مضى. ولكن، لم يسبق لي قطّ أن انسحبت أمام عدوّ يصطفّ أمامي في ميدان معركة مفتوح".

قال المحارب التراقي: "أعتقد أنّ لديّ اقتراحاً مفيداً".

لم يستطع الأسود أن يبقى بعيداً عن هذه المناقشة المهمة: "ما هو؟".

"دعونا نرسل فرقة قوية إلى الأمام تكون مؤلفة من ألف رجل أو نحو ذلك. يتعيّن علينا أن ندفعهم إلى جهة اليمين، وكأننا نريد أن ندفعهم إلى داخل الأراضي للسكائية، ونُبقي في الوقت ذاته أعيننا على تحرك أعدائنا حيث نتواصل مستخدمين نظام التبديل. يُمكن أن يشتمل هذا النظام على تبادل فارسٍ واحد كل خمسة ستاديات. وإذا لم يتخذوا أي خطوة، فسنرسل فرقةً ثانية مزودة بخطّ ثانٍ من الاتصالات...".

قال الإسكندر: "فهمت. عندها، سنعرف عندما يقررون البدء بالهجوم، وسنتمكّن من مهاجمتهم من الخلف بما بقي من قواتنا هنا".

أضاف التراقي: "سنفعل ذلك بأسرع ما يكون. يُضاف إلى ذلك أنّه بالنظر إلى وضعنا، فإن هؤلاء الرجال سيكونون ذوي قيمة كبيرة بالنسبة إلينا". وأشار عند ذلك إلى فرقة الفرس.

كشّر الأسود، لكنه لم يقل شيئاً.

سأل بيرديكاس: "حسناً... هل أنت معنا أيها الأسود؟".

"أين سأذهب إذا لم أكن معكم؟".

سأله الإسكندر: "في هذه الحالة من سينطلق أولاً؟".

ردّ كلايتوس: "تعني من سيكون الطعام؟ هذه مهمتي أنا، لأنني الأصعب هنا". وأمر بإطلاق إشارة التجمّع لسريته، ثم أصدر أوامره بالتقدم ببطء. تجمّع الجنود في صفوف يضم الواحد منها أربعة جنود، وهكذا شكّل الهيتايروي كتلةً داكنةً ومتألقةً ومنتظمة وسط ذلك السهل الأخضر. سارت هذه الكتلة المترابطة وسط القرع الإيقاعي للطبول، وبدأوا بالاختفاء تدريجياً. ولكن، بقي فارس واحد على الأقل في مكان منظور. فوجئ فرسان اللسكاثيين بهذه المناورة، وبدأ أنهم احتاروا في ما يجدر بهم القيام به.

قال بطليموس وهو يهز رأسه: "إنهم لا يتحركون... ولا يفعلون شيئاً".

قال الإسكندر أمراً: "دعونا نرسل سرية فرسان ثانية. اذهب أنت يا بيرديكاس، وتحرك بأسرع ما يمكنك، لأنك كلما أسرعت بالانضمام إلى الأسود كلما كان ذلك أفضل، وخذهم معك..."، وأشار إلى الفرقة الفارسية التي كانت لا تزال تنتظر أوامرها في طرف الميدان. أوماً أوكسهاتري في إشارة منه إلى أنه فهم، وما إن صدحت الأبواق وتحركت فرقة بيرديكاس إلى الأمام، حتى تحرك خلفهم بفرسانه المنتظرين في السهل.

لم يُظهر اللسكاثيون أي ردّ فعل هذه المرة كذلك. واستداروا بعد ذلك بشكلٍ مفاجئ، وكأنهم أطاعوا إشارةً مفاجئة، واختفوا وراء تلة في تلك المنطقة التي تكثرت فيها المنحدرات.

عندها، أعطى الإسكندر باقي قواته أوامره بأن يصطفوا وينتظروا أيّ إشارة تدل على أي طارئ.

امتلأت الأجواء بضباب غريب اعترض أشعة الشمس التي تسربت من خلاله، فنتج عن ذلك وهجٌ شفافٌ وحليبي، وهو ما قلّل الإحساس بالمسافة والعمق بشكل متزايد.

فجأة صاح ليوناتوس: "انظروا. إنها إشارات من المراقبين التابعين لنا! لقد بدأوا بالهجوم".

جمع الإسكندر كل الفرسان الباقين، ثم أوكل إلى بطليموس وإلى الآخرين قيادة فرق الاحتياط والسرايا، وانطلق بسرعة مع الفرقة الثانية التابعة لأوكسهاتري، وهي الفرقة التي تضم مئة من اللسكاثيين الذين كانوا يقاتلون منذ بعض الوقت كمرتزقة مع الجيش الإمبراطوري.

فضّل الإسكندر ألاّ يتقدم ضمن مجال أنظار العدو، وحافظ على اتصالاته مع جيشه عبر المراقبين إلى أن تلقى تأكيدات تفيد أن اللسكاثيين قد بدأوا القتال ضد بيرديكاس وكلايتوس. سأل الملك: "ما هي طبيعة تشكيلاتهم القتالية؟".

"إنها ليست تشكيلات بالمعنى الصحيح، لأنهم يدورون حول فرقنا، ويطلقون وابلاً كثيفاً من السهام. استخدم رجالنا دروعهم حتى الآن لحماية أنفسهم، لكنني لا أعلم إلى متى يمكنهم الصمود".

ردّ الإسكندر: "حان الوقت بالفعل، لوضع حدّ لكل هذا". ثم نادى رفاقه، وقال لهم: "ستتحركون الآن قُدماً بسرعة معتدلة حتى نحتكّ معهم، وما إن نصل إلى حيث يصبح بإمكانهم رؤيتنا حتى تصدر الأبواق الإشارة، وعندها سيفلت كلايتوس وبيرديكاس ورجالهما من الحلقة التي تحيط بهم، وسينتشر جنودهما خارجاً قبل أن يستديروا نحونا، بينما نفاجئ نحن اللسكاثيين من الخلف بحركة الكماشة. وهكذا لن يجدوا لهم مخرجاً، وحتى في الجهات المفتوحة أمامهم. لا تأخذوا أسرى إلا إذا استسلموا، أما الآن، فإلى جياذكم!".

امتطى الإسكندر جواده السارماشي بني اللون، وسار إلى جانبه حامل العلم وكل الآخرين، وانتشروا على جبهة واسعة فوق ذلك السهل الواسع وعلى أربعة صفوف.

ما إن ظهر اللسكاثيون بأزيائهم الساطعة ودروعهم ذات الطبقات المتعددة حتى أمر الملك أن تطلق الأبواق الإشارة المتفق عليها. وعلى الفور تقريباً، تمكن كلايتوس وبيرديكاس من جمع رجالهما على شكل وتد، وبدأ الهجوم إلى الأمام، فتمكن الرجال من الإفلات من الحلقة التي تحيط بهم، ثم انطلقوا بسرعة بخط مستقيم إلى أن خرج آخر رجل منهم. انقسم الرجال بعد ذلك إلى قسمين حيث نفذ رجال كل قسم استدارة واسعة قبل أن يلتقوا مجدداً في جبهة واحدة، ثم استداروا وهاجموا بصفوف متراصة برماحهم المخفوضة استعداداً لبدء القتال.

في تلك اللحظة بالذات، ظهر الإسكندر من الجهة الأخرى مع كل سرايا الفرسان التي كانت تنتشر استعداداً للهجوم. فوجئ اللسكاثيون في منطقة الوسط، فأجبروا على خوض معركة وجهاً لوجه ضمن حيز ضيق جداً لا يتيح لهم أبداً أي فرصة للهرب. شعر المقاتلون بالحنق الشديد لأنهم حوصروا بهذه الطريقة وسط سهلهم مترامي الأطراف كالمحيط، أي كما تُحاصر سمكة في شبكة، ولذلك سعوا إلى الخروج بكل الطرائق الممكنة، لكن الأرض كان منبسطة ومنتظمة جداً، حيث تمكن المقدونيون من الحفاظ على سلامة جبهتهم بشكل تام، واستطاعوا الاستفادة إلى الحد الأقصى من أسلحتهم الثقيلة.

حارب اللسكاثيون بعزيمة، وتكبدوا خسائر فادحة، لكنهم أدركوا عند الظهيرة أنهم يواجهون في حقيقة الأمر مجزرة، ولذلك بذلوا

جهداً أخيراً. تجمعوا معاً، وانطلقوا نحو ثغرة صغيرة ظهرت في جبهة العدو يتقدمهم قائدهم. وتمكنوا بهذه الطريقة من الاندفاع من خلالها إلى السهل الواسع قبل أن يفروا.

صاح الجنود المقدونيون صيحات النصر، ورفعوا أسنة رماحهم نحو السماء، لكن الملك ما لبث أن أوقفهم وقال لهم: "لم تنته المعركة بعد. يتعيّن علينا الآن أن نلاحقهم إلى قراهم حيث سنأكد من أنهم سيتذكرون الإسكندر وجنوده الهيتايروي إلى الأبد". وكان على وشك إعطاء الأوامر بالمغادرة عندما وصل مبعوثون من المعسكر حاملين معهم رسالة من قادة المشاة.

"مولاي. أقدم المرزبان سبيتامين على تحريض السوغدانيين والباكتريين، وهو يقوم الآن بمهاجمة سمرقند. ويريد القادة معرفة ما يجدر بهم القيام به".

"اتركوا حامية في المدينة الجديدة، ثم عودوا نحو سمرقند. سأصل إلى هناك ما إن أنتهي من المعركة هنا".

ما إن غادر المبعوثون، حتّى بدأ الإسكندر بالزحف عبر السهل مجدداً بقيادة أوكسهاتري. سار الجيش ببطء في هذا الوقت متبعاً آثار أقدم الفرسان للسكاثيين الذين فرّوا من المعركة، وسرعان ما شعر الجنود بالدهشة والرهبة إزاء الاتساع الكبير لهذا السهل الفسيح. لم يروا شجرةً واحدة، ولا صخرة أو حجراً، ولم يشاهدوا تلةً أو مرتفعاً في هذه الأراضي، بينما كانت جبال باروباميسوس تعكس ألوان أشعة الشمس الغاربة الزهرية عند سقوطها على القمم المغطاة بالثلوج.

قال بطليموس وكأنه يحدث نفسه: "حاربت مدينتنا خالقيس وارتريا بشراسة مدة خمسين سنة للسيطرة على سهلٍ يبلغ طوله نحو ثلاثين ستاديا، ويقع في جزيرة يوبويا".

قال بيرديكاس موافقاً: "هذا صحيح تماماً. أما هنا فإن السهل يمتد على مرمى البصر من دون أي عوائق، ومن دون وجود إشارات تدل على وجود سكان".

قال هيفاستيون: "ومع ذلك، لا يمكنهم الاختفاء هكذا، لأنهم ليسوا أشباحاً".

شرح أوكسهاتري الذي كان وراءهم على صهوة جواده: "إنهم من الغجر، ويعيشون في عربات تجرّها الثيران. تعيش عائلاتهم في هذه العربات، أي زوجاتهم والعجائز والأولاد. ويعتمدون في غذائهم على الحليب واللحم، كما يمكنهم الارتحال لأيامٍ وليالٍ من دون التوقف أبداً، لأن جيادهم تتمتع بقدرات تحملٍ هائلة".

تذكّر الإسكندر القصص التي رواها له والده عن معاركة ضد اللسكاثيين ما وراء نهر إستر، فسأل: "إلى أين تمتد هذه البلاد؟".

أجاب الفارسي: "لا أحد يعلم".

قال سلوقس: "بحسب ما يقوله بعض الناس، إنّ هذه البلاد تصل شمالاً إلى هيربورنيو، وشرقاً حتى إسيدونيا التي لا يتناول سكانها إلا حليب الأفراس".

نظر ليوناتوس إلى تلك الأراضي السهلية المنبسطة، وقال: "ماذا يحدث لو أضعنا طريقنا".

قال له سلوقس مطمئناً: "هذا مستحيل. إن الجبال خلفنا ونهر جاكزرات إلى يسارنا. أفضل أن أعود على كل حال، وذلك بالنظر إلى الوضع في سمرقند".

تابع الإسكندر سيره بصمت. وكانت هذه هي طريقته في اختبارهم، واختبار ولائهم، وصدقتهم، وتصميمهم على مواجهة

المجهول الذي ينتظرهم. اختفت آثار اللسكاثيين فجأة، وكان الجياد قد نبتت لها أجنحة، وطارَت نحو السماء. صاح بيرديكاس: "بحق زيوس!".

ترجّل أو كسهاتري عن صهوة جواده وتفحص الأرض. "لقد أقدموا على لفّ حوافر الجياد بحيث لا تترك، تقريباً، أي أثر على هذا العشب اليابس، لكن لا بد من أن اللسكاثيين التابعين لي سيقدرّون على معرفة شيء ما".

قال الملك أمراً: "إذا، دعونا نمضي".

تابع الإسكندر الزحف مجدداً إلى أن حلّ الظلام حيث عجز الكشافة اللسكاثيون التابعون لأوكسهاتري عن رؤية أي شيء. عندها، أمر الإسكندر نافخي الأبواق بإطلاق إشارة التوقف، وهكذا وضع كل جندي عباة على الأرض، وتناول من كيسه قطعة خبز صغيرة وبعض الحليب المخثر، بالإضافة إلى قوارير المياه، ثم جلسوا لياكلوا أكثر الوجبات تقشفاً منذ وقت طويل. ومع ذلك، ساد جوٌّ عميق من الطمأنينة في كل الأنحاء. كان القمر بدرًا تقريباً، وبدأ بالبروغ من خلف الجبال مضيئاً السهل الكبير، حيث انعكست أنواره على مياه الأنهر. ظهرت أكثر الكواكب التماعاً الواحد تلو الآخر في السماء الصافية لهذا الليل، والتي خلّت من الغيوم. ولكن، شوهدت بعيداً، أي في اتجاه الشرق وفوق قمم الجبال، بعض ومضات البرق. وفي ما عدا ذلك كان السلام التام والسكينة يخيّمان على هذا العالم. تحلّق المحاربون الآسيويون في دائرتهم الخاصة بهم وتمكّنوا من إشعال النار.

بدأ هيفاستيون يشعر بالبرد، فسأل: "كيف تمكّنوا من ذلك؟ لم أرَ أي أثرٍ للنباتات أو أي شيء آخر لمسافة مئة ستاديا".



أجاب أوكسهاتري بلغته اليونانية الركيكة، وملامح تدل على الاستياء: "لقد أشعلوا الروث".

رفع سلوقس حاجبيه قائلاً: "الروث؟".

"إنه روث الخراف، والأحصنة، والماعز. إنهم يجمعونه في كيس ويحرقونه عندما يجف".  
"آه!".

"إننا نعتبر ذلك نوعاً من التدنيس، أي تدنيس النار. تصل عقوبة هذا العمل إلى الإعدام في بلاد فارس، لكن هؤلاء..."، تلفظ بكلمة تعني برابرة بالفارسية.

سأل الإسكندر كي يغيّر الموضوع: "ألا تعتقدون أن هذه وجبة شهية بالرغم من كل شيء؟".

قال هيفاستيون موافقاً: "عندما يضرب الجوع بنابه...".

"أما هذا المكان... فأنا لم أرَ شيئاً له. لا توجد أماكن مسكونة في كل الاتجاهات ما بين هذا المكان والأفق". والتفت بعد ذلك إلى أوكسهاتري وقال: "ما رأيك؟ هل ستحظى الإسكندرية البعيدة بفرصة البقاء والنمو؟".

أجاب المحارب الفارسي: "إنها ستزدهر، وذلك عندما يغادر الجنود ويصل التجار. ستمتلئ المدينة بالسكان، وبالماشية، وبالحياة. ستزدهر".  
ناموا تلك الليلة وسط حلقة مزدوجة من الحراس الذين بقوا على صهوات جيادهم، وراقبوا السهل الذي غمره القمر بأنواره. وهضوا عند الفجر، وانطلقوا بمطاردهم على الفور. وصلوا بعد مرور ثلاثة أيام إلى حيث رأوا آثار عجلات، وسرعان ما رأوا قرية متنقلة كانت تحت قيادة ذلك القائد اللسكاثي الذي هرب من ميدان المعركة. ظهرت أمامهم ثلاث مجموعاتٍ من العربات، وكلها مغطاة بالجلود المدبوغة.

عرف أو كسهاتري العَلم الذي يرفرف فوق العربة التي تسير في المقدمة. وكان عبارة عن سارية خشبية ورسم يمثّل وعلين منهمكين في مواجهة بقروئهما. قال: "إنه الملك. يُحتمل أنه الرجل الذي يربط عصاة حمراء حول رأسه... لا مخرج له الآن، ولا بد من أنه يفكر الآن على الشكل الآتي: كيف وجدتموني هنا في هذه الأراضي الواسعة التي تخلو من مظاهر تميّزها؟".

أشار الإسكندر إلى رفاقه، فأسرع كل واحد منهم إلى الاصطفاف أمام فرقته حيث أحاطوا بهذه القرية المتنقلة على عربات. جلس الفرسان فوق صهوات جيادهم منتصبين القامات، بينما أحكموا قبضات أيديهم على رماحهم الطويلة. بدؤا مثل مخلوقات جبارة في ذلك المكان المنعزل، وأظهروا نوعاً من القوة التي لا تُقهر والتي تجلّت في عضلات جيادهم اللامعة، وفي أسنة أسلحتهم الحادة، وفي خوذاتهم المصقولة، وفي تيجانهم التي ترتعش وسط نسيمات الفجر الأولى.

سمعوا وسط هذا الصمت الذي لا يصدّق والذي ترافق مع ساعات اليوم الأولى صوت بوقٍ راح يتلاشى تدريجياً عبر فضاء ذلك السهل الواسع. وبعد ذلك، ظهر الملك اللسكاثي ممتطياً صهوة جواده المرقط، والذي يختلف كثيراً عن جياد جنوده الصغيرة ذات الشعر الكثيف. يُحتمل أنه تلقى هذا الحصان كهدية من أحد الملوك المجاورين، أو أنه غنمه خلال غارة قام بها على إحدى القرى. كان الملك لا يزال مرتدياً لباس القتال فظهرت العصاة الحمراء، ودرع الصدر متعدّدة الطبقات. تبعته زوجته سيراً على قدميها وقد غطّت رأسها بغطاء ذهبي مزخرفٍ بشرائط متوازية، بالإضافة إلى حجابٍ أحمر وطويل، وارتدت سترّة قرمزية مزينة بلويحاتٍ مذهبة على أطرافها، وفتاناً

طويلاً يصل إلى قدميها حيث يكاد يغطي نعلها المصنوع من الصوف المحبوك. كانت تمسك بيد فتاة صغيرة تبلغ نحو الثانية عشرة من عمرها، ولا بد من أنها ابتتها بالنظر إلى أنهما تشبهان بعضهما.

نظر الملك حوله. وبدا وكأنه يتفحص هذا الصف العظيم للجنود المدرعين الذين ظهروا من اللامكان، ثم تقدم بكل ثقة نحو الإسكندر وبدأ بالكلام. قام أحد مرافقي أو كسهاتري من المرتزقة اللسكاثيين بترجمة كلامه بينما تبرع أو كسهاتري ذاته بالترجمة للإسكندر.

"لم يُذكر في تاريخنا أي شخصٍ تجرأ وتقدم هكذا في الأراضي اللسكاثية. ولم يتمكن أحد من قبل من قهر اللسكاثيين ومفاجأهم في قلب أراضيهم. سمعت كذلك أنك هزمت ملك الفرس واستوليت على مملكته. خسرت أفضل المحاربين عندي في أثناء القتال معك، وجهدت كثيراً كي أنقذ حياتي. جئت كي أعرض عليك السلام، وكذلك أعرض عليك ابنتي لتكون عروساً لك، وذلك كجزء من التزامي".

دفعت الملكة عند سماعها هذه الكلمات الفتاة المترددة إلى الأمام، ولاحظ الإسكندر أن عينيها تفيضان بالدموع تحت رموشها السوداء والطويلة.

ترجّل الإسكندر عن سهوة جواده ونظر إلى الفتاة ففاضت الدموع من عينيه عندما فكّر في شقيقته كليوباترا، وفي منظرها عندما غادر متوجهاً إلى ميسزا، وتذكر فترة دراسته الطويلة تحت إرشاد أرسطو... كم سنة مضت على ذلك؟

ردّ الإسكندر: "لا تزال ابنتك بحاجة إلى الحب والعناية من قبل والدتها، ولذلك لا رغبة لي في أخذها من بين أيديكما. إن قَسَمًا تحت السماء التي تظلل الجميع، والأرض التي ستحتضننا ذات يوم في جوفها، هو كل ما يلزم لإبرام اتفاق بين الملوك، هذا بالإضافة إلى مصافحة بالأيدي".

انتظر حتى انتهى المترجم من ترجمة كلماته، ثم مدَّ يده نحو القائد  
اللسكاثي الذي صافحها بشدة، بينما رفع يده الأخرى نحو السماء  
أولاً، وما لبث أن مدَّها واضعاً راحة يده نحو الأسفل.  
قال الزعيم بعد أن حدَّق إلى عيني ذلك الغريب الشاب ذي  
الشعر الأشقر: "اسمي درافاس، وأنت، ما اسمك؟".  
جاء الرد: "اسمي إسكندر، وسأتمكّن من العودة إلى هنا في أي  
لحظة وأينما تواجدت". قال ذلك بنبرة مميزة ونظر إليه نظرة جعلت  
القائد اللسكاثي يثق تماماً، ومن دون أدنى شك، ولو للحظة واحدة،  
بأنه يقول حقيقة مؤكدة".

في صباح اليوم التالي، انطلق الجيش مجدداً، ولكن باتجاه الشرق هذه المرة أي نحو جاكزارت، إلا أن الأراضي في هذه المنطقة كانت قاحلة تماماً ويابسة بسبب أشعة الشمس الشديدة، ولذلك استهلك الجنود ما يحملونه من ماء. أما جنود المشاة المسلحون تسليحاً خفيفاً، والذين تحمّلوا أكبر قدر من وطأة الجهد الشاق الذي تطلّبتهم مهامّ المراقبة البعيدة التي يقومون بها، فقد كانوا أول من نفذ الماء منهم بالإضافة إلى الحرس. عند ذلك، أصدر الإسكندر أوامره بإعطائهم حصته الشخصية من الماء. وبهذه الطريقة، تمكّن الجيش من المضي بالزحف ليومٍ إضافي، لكن العطش أصبح لا يُحتمل عند هذا الحدّ. فشرّب الملك بعض المياه المتجمّعة في بركة صغيرة، لكنه شعر قبل حلول الليل بأنه وقع ضحية آلامٍ فظيعة في معدته، وسرعان ما ترافقت هذه الآلام مع الحمى والدوزنتاريا.

أمر هيفاستيون بصنع نقالة، وهكذا نُقل الملك بواسطتها مدّة يومين إضافيين وهو في حالة من الهذيان. استلقى الملك فوق النقالة وهو يعاني الحمى الشديدة والعطش، كما كانت نقالته ملوثة بسبب افتقارهم إلى المياه حيث لم يستطيعوا تنظيفها، كما أزعجته أسرابٌ من الذباب.

قال أوكسهاتري: "قد يموت إذا لم نصل إلى معبرٍ بسرعة. سأسبقكم كي أبحث عن معبرٍ مناسب. يمكنكم أن تتبعوا آثاري، وإذا تمكنتم من اصطيد طريدة بريّة يمكنكم أن تتناولوها نيئة. لا تشربوا أي

شيء يرفض المرتزقة اللسكاثيون شربه، لأنهم يعرفون الكثير عن هذه الأمور".

ثم اختفى في اتجاه الغرب، وكان برفقة مجموعة من الفرسان السوغدانيين، وهم أكثر من يصمد تحت وطأة الحرارة والعطش، بينما تابع صف الجنود الطويل تقدمه البطيء تحت أشعة الشمس الحارقة. عاد أوكسهاتري بعد حلول الظلام، وسأل على الفور عن أحوال الملك: "كيف حاله؟".

هز هيفاستيون رأسه من دون أن يجيب، بينما استلقى الإسكندر على الأرض فوق نقالته المتسخة. كانت شفتاه متشققتين وجافتين، أما أنفاسه فكانت متقطعة.

قال الفارسي: "عثرتُ على المعبر، كما جلبت مياهاً صالحة للشرب، لكنني لا أريدها أن تُستخدم للاغتسال".

شرب الإسكندر، كما شرب كل الذين كاد العطش يودي بحياتهم. وانطلق الجيش مجدداً في مسيرته نحو جاكزارت بعد حلول الظلام، وظهر النهر أمامهم مع خيوط الفجر الأولى. أسرع رفاق الملك إلى تغطيسه فوراً في المياه الباردة، وأبقوه فيها إلى أن انخفضت درجة حرارة جسمه. استعاد الملك وعيه ببطء، فسأل على الفور: "أين أنا؟".

قال أوكسهاتري شارحاً: "لقد وصلنا إلى المعبر، ومعنا مياه نظيفة ولدينا ما يكفي من الحطب للطبخ".

تمكّن الإسكندر من استجماع ما يكفي من القوة كي يقول: "إن لغتك اليونانية تتحسن باستمرار".

\*

انضموا إلى بقية الجيش المرابط قرب سمرقند، لكن مفاجأة غير سارة كانت بانتظارهم. فلقد شنّ قادة البيزيتاروي هجوماً متسرعاً

على جنود سببامين عند نهر بولتيميتوس، لكن الهجوم فشل فشلاً ذريعاً، وقُتل ما يقارب ألف جندي في هذا الهجوم بينما جرح آلاف غيرهم. بقيت محارق الجثث مشتعلة لأيام وأيام بينما كانت السماء داكنة وكتيبة.

بكت لبيتين يائسةً عندما رأت الملك في هذه الحالة المريعة. غسلته وألبسته ثياباً نظيفة، ثم أمرت بعض الرجال ممن يحملون مراوح من الريش بإبقائه بارداً في النهار والليل. حضر فيليب بسرعة إلى جانبه، فأدرك أن الحمى لا تزال شديدةً جداً، كما أن الإسكندر أخذ يهذي كل مساء عند مغيب الشمس. تذكر الطبيب بعض تعليمات معلّمه نيقوماخوس، فأرسل بعض الفرسان الهيراكانيين لجمع بعض الثلج من الجبال. غطى فيليب جسد الإسكندر بهذا الثلج في كل مرة كانت حرارته ترتفع فيها، بينما ثابرت لبيتين على تغيير ضمادات القماش الباردة على جبهته خلال الليل. بدأ الطبيب بعد ذلك بإطعامه خبزاً يابساً وبعض التفاح المقطّع إلى أن توقفت عنده حالة الإسهال.

لاحظ الطبيب أن اللون قد بدأ بالعودة إلى جسم الإسكندر، وأن حرارته قد عادت إلى طبيعتها أخيراً، فقال له: "يُحتمل أنك ستنجو هذه المرة أيضاً. ولكن، إذا استمرت في التصرف على هذا المنوال فإن أسكليبيوس ذاته لن يتمكن من إنقاذك".

تمكّن ذلك المريض الملكي من الرد قبل أن يستسلم للنوم مجدداً: "أثق بأنك أفضل من أسكليبيوس أيها العطار".

ما إن تمكّن الإسكندر من إصدار الأوامر، حتى منع كل الذين نجحوا من معركة بولتيميتوس من التحدث عنها إلى أي شخص كان، وذلك من أجل عدم إحباط معنويات الجنود. أرسل الملك بيرديكاس وكراتيروس وهيفاستيون من أجل شنّ هجوم مضاد على قوات

سبيتامين، وإجبار المتمردين على التراجع نحو الجبال. اقترب حلول فصل الخريف في هذا الوقت، ولذلك كان من الجنون مطاردة المتمردين في مواقعهم هناك. لذا، قرّر الإسكندر الرجوع إلى باكترا حيث كان بيسوس مأسوراً، وزحف باتجاه الغرب بمحاذاة الحدود الشمالية للإمبراطورية، وذلك كي يثبّت سلطته في تلك المنطقة، وكي يعرف ما إذا كانت أراضي اللسكاثيين تمتد في ذلك الاتجاه كل هذه المسافة.

عبر الجيش نهر أوكسوس مجدداً على الجسر الذي صُنِع من جلود الخيّم، كما غامر بدخول منطقة مهجورة بمعظمها. كانت منطقة واسعة ومنبسطة كلياً، وتحتفي وراء أفق ضبابي. كان الجنود يلتقون بين الحين والآخر قوافل طويلة من الجمال الباكترية المتوجهة غرباً، لكنهم كانوا عرضةً للملاحقة في بعض الأحيان من قبل مجموعات من الفرسان اللسكاثيين والذين تميزوا بملابسهم وسراويلهم المزخرفة، وبدروعهم المميزة التي تحتوي على طبقات عدة. كان الجنود يستعدون عند مغيب شمس أحد الأيام لنصب خيمهم عندما اقترب منهم أحد الحراس المتقدمين كي ينقل إليهم بعض الأخبار المروعة: "نساء الأمازون المحاربات".

ابتسم سلوقس: "لم أعرف أن أحد الحلول للتخلّص من الجفاف الذي نعاني منه كان إعطاء الشراب غير المخفّف للجنود". ردّ الجندي بكل جدية: "لست ثملاً أيها القائد. هناك محاربات مصطفات فوق التلة المقابلة لنا".

قال ليوناتوس برزانة: "أنا لا أحارب النساء إلا إذا...". قال الجندي: "لكنهن لا يردن القتال. ابتسمن لنا، أما تلك المرأة التي تبدو قائدتهن فهي جميلة و..."، والتفت حينها كي يُظهر للملك مكان اللقاء معهن، فلاحظ أنها تقف خلفه على بعد أقل من ستاديا واحد برفقة أربع من رفيقاتها.



مرّر الإسكندر يده من خلال شعره، وكأنه يريد أن يُصلح مظهره قليلاً، ثم قال آمراً: "اسمحوا لهنّ بالتقدم، فرمما نكون بحاجة إلى أراضيهن".

تقدمت المحاربة الجميلة في هذا الوقت وترجلت عن حصانها، بينما فعلت رفيقاتها الأمر ذاته، وكان من الممكن رؤية المزيد منهن بعيداً وهنّ ينصبن خيمة. كانت خيمة واحدة وسط تلك الأراضي اللامتناهية.

تحركّ الملك إلى الأمام كي يلتقيها، وكان محاطاً بهيفاستيون وكراتيروس من الجانبين، بينما سُمعت خلفه عاصفة من المهمة التي تعبّر عن الدهشة عندما سرت هذه الأخبار بين الموكب الذي يتبع الملك. سمع كاليستين بالخبر، وسرعان ما شقّ طريقه نحوهم، كما أن ليبتين ذاتها اقتربت بعد أن ذهلت من هذه الحادثة الغريبة.

وقفت قائدة المحاربات والملك وجهاً لوجه، وما لبثت أن نزعَت قناع وجهها، الذي كان نوعاً من خوذة مخروطية الشكل مصنوعة من الجلد، ومزودة بأغطية حامية للخدّين، وهكذا كشفت عن شعرها الأسود اللامع والرّائع، والذي جمعته في ضفيرة طويلة تكاد تصل إلى خصرها.

بدا أنّها في نحو العشرين من عمرها، لكنها كانت مختلفة جداً عن صورة المرأة المحاربة التي يعرفها الجنود، والتي كان يُظهرها برياكسيس وسكوباس في مقابر هاليكارناسوس عارية بفخر، أو في لوحات زيوكزيس وباراسيوس في الرواق المعمّد في أثينا. لم يكن أي جزء من جسدها ظاهراً سوى وجهها بلونه الزيتوني الجميل. ارتدت هذه المحاربة سروالاً من الصوف الأزرق، والمطرّز باللون الأحمر، وسترة جلدية غريبة ضيقة عند خصرها وواسعة في منطقة ما تحت ركبتيها.

وحملت المحاربة سيفاً تدلى من خصرها مع قارورة مياه، كما حملت قوساً وأسهماً فوق كتفيها، وهي الأسلحة التي تُعتبر تقليدية بالنسبة إلى المرأة المحاربة، لكنها لم تحمل الدرع التي يقال إنها على شكل نصف قمر.

نظرت إليه بعينيها الواسعتين والداكنتين، وقالت شيئاً لم يفهمه أحد من الحاضرين.

الستف الإسكندر نحو أوكسهاتري قائلاً: "هل فهمت شيئاً مما قالته؟".

هزّ الفارسي رأسه.

"وأنتم أيها اللسكاثيون؟".

تبادل أوكسهاتري بضع كلماتٍ معهم، لكنهم أوضحوا له أنهم لم يفهموا شيئاً.

أسف الإسكندر كثيراً لأنه يقف أمام إحدى الكائنات الأسطورية التي ملأت أحلام طفولته، لكن من دون أن يقدر على قول جملةٍ واحدة يمكن أن تفهمها، فقال مبتسماً: "أنا لا أفهمك".

تكلّمت الشابة مجدداً، وبادلته ابتسامته، وحاولت أن تستخدم بعض الإشارات، لكن من دون أن يُجدي ذلك نفعاً.

فجأة، تنهى إلى سمع الإسكندر صوتٌ صادرٌ من خلفه يُعلن: "أنا أفهمها".

التفت الملك مندهشاً لأنه كان صوت امرأة: "ليبتين!".

تقدمت الفتاة، وبدأت بالتحدث إلى المحاربة الشابة وسط دهشة الحاضرين.

سأل كاليستين مندهشاً بدوره: "كيف يمكن لذلك أن يحدث؟".  
تذكّر الإسكندر ذلك المساء الشتائي الذي أمضاه مع ليبتين في آيجيا،

وداخل ذلك القصر القدم الذي يعود إلى أسلافه، وتذكر كيف أنها تكلمت بلغة غريبة غير مفهومة، كما تذكر الوشم على كتفها، والذي يماثل الصورة المحفورة على القلادة الذهبية التي تضعها تلك القائدة، وهي القلادة التي تُظهر قرنين طويلين يشبهان غصنين طويلين.

قال فيليب الطبيب: "يمكن لهذه الأمور أن تحدث. روى زينوفون حادثةً مماثلة حدثت معه في أرمينيا عندما تعرّف أحد العبيد فجأة لغة الكالبيين، وهم شعب لم يسبق له أن عرفه من قبل."

في هذا الوقت، كانت لبيتين تتحدث إليها. تكلمت بتردد في البداية، وما لبثت أن بدأت الكلام بثقة أكبر بعد ذلك، حتى وإن بدأ أن كلماتها تخرج بتردد من فمها، أي كلمة بعد أخرى، وكأنها آتية من هاوية سحيقة من ذاكرتها. تحرك الإسكندر نحوها، وكشف عن الوشم الموجود على كتفها عارضاً إياه على القائدة المحاربة. سألتها: "هل تعرفين هذا الوشم؟"

أوحت تعابير المرأة المندهشة بوضوح ليس فقط أنها عرفته، بل أن صورة الوشم قد حملت أهمية كبيرة بالنسبة إليها.

تحدثت المرأتان مجدداً بلغتهما الغامضة، بينما أمسكت القائدة يدي لبيتين بينما كانت تحدّق إلى عيني الملك الشاب عن بعد، وما لبثت أن تراجعت نحو خيمتها.

سألها الإسكندر ما إن تحركت مبتعدة: "ماذا قالت لك؟ أنت واحدة منهن، أليس كذلك؟"

ردت لبيتين: "أجل. إنني واحدة منهن. أخذني بعض المحاربين السيميريين عندما كنت في التاسعة من عمري، ولا بد من أنهم باعوني إلى أحد تجار العبيد في أحد متاجر بونطوس. كانت والدتي رئيسة قبيلة من قبائل هؤلاء النسوة، وكان والدي أحد النبلاء اللسكاثيين الذين يعيشون بمحاذاة نهر جاكزارت."

أمسك الإسكندر يديها، وراح يتمتم: "أنتِ أميرة، هذا ما أنتِ عليه حقيقة".

قالت لبيتين مصححةً كلامه: "هذا ما كنتُ عليه. تلاشت تلك الأيام، وإلى الأبد".

"هذا غير صحيح. يمكنك أن تعودى الآن كي تعيشي بين شعبك، ويمكنك أن تسترجعي مركزاً كان حقاً شرعياً لك. أنتِ حرة، وسأمنحك مهراً سخياً يشتمل على الذهب والماشية والأحصنة".

"إن المركز الذي تعتبره من حقِّي هو إلى جانبك يا مولاي، وليس لي أحد غيرك في هذا العالم، أما هؤلاء النسوة فلسن إلا غريبات عني. سأذهب إليهن فقط في حال أبعدتني عنك، وأجبرتني على المغادرة".

"لا أعتزم إجبارك على أي شيء لا ترغبين فيه. سأبقى معي إلى آخر أيام حياتي إذا كان هذا ما تريدينه. لكن، أخبريني، لماذا أتت تلك الشابة إلى هذا المكان؟ ولماذا نصبت خيمتها هناك في الأسفل؟".

نظرت لبيتين إلى الأسفل، وكأنها شعرت بالخجل أو بالإحراج، لكنها أجابت في النهاية: "قالت إنها قائدة المحاربات اللواتي يعشن ما بين الأوكسوس، وشواطئ بحر قزوين. وسمعت أنك أقوى رجل في العالم، وهي تعتقد أنك الوحيد الذي يستحقها. إنها تنتظرك في تلك الخيمة، وتدعوك إلى تمضية الليل معها. إنها تأمل... أن تقبل دعوتها هذه، كما تريد أن تحمل طفلاً منك، سواء أكان المولود ولدًا، أم بنتاً يمكن أن تسلمها صولجان القيادة بيدها ذات يوم".

غطت لبيتين وجهها بيديها، وما لبثت أن غادرت راكضة والدموع تفيض من عينيها.

نظر الإسكندر نحو الخيمة المنعزلة التي أصبحت بالكاد منظورة في العتمة التي تزداد شدة والتي تخيم على ذلك المرج، وبالكاد وصلت إلى مسامعه أصوات الشيخ الهادئ الذي كان يصدر عن لبنتين. تأثر كثيراً بالأمر الغريب المزوج الذي حدث اليوم: ظهور مجموعة من النساء المحاربات في مكان بعيد جداً عن نهر ثيرمودون، والذي تفيد الأسطورة بأنه يجري بمحاذاة حدود الأرض التي تسيطر عليها النساء المحاربات. أما الأمر الثاني فقد كان اكتشاف أصول لبنتين ومعرفتها لغتها الأصلية. فكّر الملك في هذا الكم من الأمور التي يمكنه أن يكتشفها في هذا العالم، وفي عدد الألبان التي تنتظر إيجاد حل لها، وفي الأراضي المجهولة التي تنتظر أن تُكتشف في يومٍ واحدٍ قصير من أيام الحياة الإنسانية.

كان يتمنى لو كان في مقدوره أن يساعد لبنتين التي كانت متوترة بسبب الصدمة العاطفية التي سببتها هاتين الحياتين المتناقضتين اللتين تصادمتا على حين غرة في كيانها. لكن قلق الإسكندر الأكبر في هذه اللحظة كان منصباً على تلك المرأة الغامضة التي تنتظره هناك، وسط ظلمة السهل. امتطى جواده، وتوجه نحو تلك الخيمة المنعزلة، ولم يتسلح سوى بسيفه. رآه هيفاستيون، فأشار إلى بعض رجاله من فرقة الطليعة بأن يتحركوا قُدماً. قال أمراً: "خذوا مواقعكم حول الخيمة من دون أن يلاحظكم أحد. وأسرعوا راكضين لمساعدة الملك عند حدوث أي إشارة تدل على حدوث أي شيء مشبوه. خذوا بيريتاس معكم، لأنه عند حدوث أي خطر سيكون أسرع من أي شخصٍ آخر".

أطاع الرجال أوامر هيفاستيون وتحركوا في الظلام، ثم انتشروا على شكل مروحة كي يحيطوا بالخيمة. اقترب أحدهم من الخيمة، وكان هو الذي يحمل بيريتاس، أكثر من الآخرين، وجلس متربعاً فوق العشب بمحاذاة الكلب، لكن الليلة مرّت بسلام نام خلالها بيريتاس من دون أن يرفع أذنيه إلا عندما كان يشم رائحة أحد الحيوانات البرية التي كانت تمر وسط السكون المخيم على السهل.

لم يتمكن أحد من معرفة ما حدث في تلك الليلة، وما إذا كان الإسكندر قد زرع في رحم ملكة تلك العزلة اللامتناهية ابناً يكبر مثل حصان بري، ويركض حراً من كل قيد عبر هذه الأراضي اللامتناهية تحت أنظار الشمس محمولاً على أجنحة الرياح.

عاد الملك إلى خيمته قبل انبلاج الفجر مع نور عميق ومحموم يشع في عينيه. وبدا وكأنه نازل لتوّه من جبل الأولمب.

\*

عاود الجيش الزحف غرباً حتى وصل إلى نهر. أراد الإسكندر متابعة السير نزولاً بمحاذاة النهر، وذلك كي يعرف ما إذا كان يؤدي نحو الأوقيانوس الشمالي. ولكن، بعد مسيرة ثلاثة أيام تحوّل السهل إلى صحراء، وجفّ النهر في رمالها الحارقة. تابعوا السير مجدداً ناحية الغرب على أربع مراحل، وكانت كل مرحلة تستغرق خمسة فراسخ (بارسانغ) إلى أن صادفوا مجرى مياه آخر، فبدأوا يسرون بمحاذاته، ولكن سرعان ما اختفى بين شقوق الأرض العطشى.

تحرك بطليموس إلى جانب الملك الذي كان يتفحص بقلق ذلك الأفق الذي حجبه ذرات الغبار والضباب، ووضع يده على كتفه. "دعنا نعود أيها الإسكندر، لا يوجد شيء هنا غير خيالات الظهر. وإذا كانت الأرض هنا تبتلع أنهارها قبل وصولها إلى البحر، فلا بد من

وجود سبب قوي لا نعرفه وراء هذه الظاهرة. أتقدر والدة على التهام ابنها بعد ولادته؟".

فكر كاليستين كذلك في هذه الظاهرة المقلقة، فبدا القلق العميق في نظرات عينيه. وأوحت إليه معرفته بالفيزياء والفلسفة بإجابات منطقية، لكن المخاوف اللاعقلانية التي نشأت من أعماق روحه أخذتها على الفور.

قال الملك من دون أن يلتفت: "أود كثيراً لو أنني أعرثر على إجابات عن هذه التساؤلات يا بطليموس. أود كذلك لو أتبع عفاريت حرارة الظهيرة هذه التي تسكن الأفق، فقط لو أننا نمتلك ما يكفي من الإمكانيات لتحقيق ذلك. كان عوليس (أو يوليسيس) رجلاً محظوظاً بالفعل، لأنه سمع أغنيات جنيات البحر مع أنه كان مقيداً بسارية سفينته، لكنه لم يكشف قط لأي شخص معاني الأغنية. مات السر معه في مكان بعيد ومخفي، أي هناك حيث قاده توقع تيريسياس، وحيث المقصد الذي تاق إلى الوصول إليه بعد رحلته الأخيرة...".

سار الجيش مجدداً عبر الطريق المؤدية إلى الجنوب، وراح يقترب يوماً بعد يوم من مزيد من مصادر المياه، وأماكن تواجد النباتات، والحيوانات، وذلك مع وصوله إلى المرتفعات المرجانية. وعند وصوله إلى ضفة أحد الأنهار، أسس الملك مدينة أخرى أطلق عليها اسم إسكندرية مارجيانا، وأسكن فيها القبائل شبه البدوية التي تعيش في المنطقة المجاورة، وبعض الرجال والنساء المرافقين له. وترك الإسكندر فيها حامية مؤلفة من خمسمئة رجل من الجنود المقدونيين، واليونانيين، والتيساليين الذين أسسوا عائلات مع النساء الآسيويات اللواتي تابعن اللحاق بالجيش بعد أن أظهرن قدرة على التحمل والمثابرة. وأسكن الملك في هذه المدينة تحديداً أولئك الرجال الذين نسوا عائلاتهم التي

خلفوها وراءهم في الوطن منذ فترة طويلة، أي بعد مرور وقت بدا موعلاً جداً في القِدم حيث بدت عائلاتهم الأصلية شيئاً بعيداً عن الواقع.

وصل الجيش إلى باكترا بحلول نهاية فصل الخريف، وكان الإسكندر ينوي في البداية تمضية فصل الشتاء هناك. وأعطى أوامره للبدء بمحاكمة بيسوس على الطريقة الفارسية. فجمع أو كسهاتري المجلس المؤلف من أكبر القضاة سنأ، كما أمر بجرّ السجين أمامهم. بدا أن التشوهات التي تعرّض لها في تلك الليلة المظلمة في الريف بجوار قورشكات قد شفيت في هذا الوقت، لكن منظر وجهه المعذب أصبح أكثر بشاعة؛ فبدا وكأنه جمجمة حيّة.

انتهت المحاكمة بسرعة كبيرة. لم يقل بيسوس شيئاً عندما سأله المحكمة ما إذا كان يرغب في الدفاع عن نفسه إزاء الاتهامات الموجهة إليه، بل وقف بصمت أمام أعدائه محتفظاً بكل كبرياء الرجل الذي أراد إنقاذ شرف الإمبراطورية الفارسية، والذي شعر بالإهانة بسبب جبن داريوس، ذلك الملك الذي فرّ مرتين من ميدان المعركة، كما احتفظ بكبرياء الرجل الذي سعى إلى قيادة ثورة ضد غزاة بلاده.

أعلن الحكم، وكان أسوأ حكم يُمكن أن يتصوره المرء لأنه الحكم الذي يُنزل بأولئك الذين يغتالون الشخص المبجل للملك الملوك، والذين يغتصبون عرش الأخمينيين. فقد قضى الحكم بتقطيع أوصال المتهم.

جرّد بيسوس من ثيابه، ثم اقتيد إلى باحة مفتوحة جهّزت لتنفيذ الحكم. وهناك، برزت شجرتا صفا ف طويلتان ورفيعتان وقريبتان من بعضهما، وقد جمعتا معاً بجبل رُبط في أعلاهما ووُصل بعضا عُرزت في الأرض. شكّل جذعا الشجرتين بهذا الشكل نوعاً من القوس المدب.



اقتيد السجين إلى ذلك القوس ورُبط عند كاحليه ومعصميه بالجدعين في أعلى مكان يمكن الوصول إليه حيث إنه تُرك معلقاً فوق الأرض بعلو خمسة كيوبيتات. لم يكن الفرس والسكان المحليون هم الوحيدين الذين شهدوا هذا الحدث الفظيع، لأن المقدونيين واليونانيين كانوا من بين الحشود التي شهدته. ولقد جاءت الأميرة ستاتيرا من زادراكارتا خصيصاً كي تشاهد هذا الحدث بنفسها، وكانت متلهفة لرؤية الانتقام لمقتل داريوس؛ والدها الذي دفته وحزنت عليه لمدة طويلة في المقبرة الملكية في بيرسيبوليس، تلك المدينة التي أصبحت مهجورة الآن. فجلست إلى جانب الإسكندر شاحبة وساكنة.

تقدّم الجلادون بعد تلقيهم إشارة بسيطة من القاضي الأكبر، وتحركوا نحو الحبال شاهرين فؤوسهم. وجهوا ضرباتهم المتناسقة بعد تلقيهم إمءاءة ثانية، وكانت ضرباتهم مركزة وقاطعة بشكلٍ مثير. فانتصب جذعا الشجرة نحو الأعلى على الفور. توتر للحظة جسد بيسوس مفتول العضلات تحت وطأة هذه الضربات التي لا تُحتمل، وما لبث أن انقسم إلى نصفين. بقي النصف الأيسر من جسده، أي من كتفه وحتى أرييته، معلقاً بأحد الجذعين، بينما كان النصف الآخر، الذي ضمّ رأسه وأحشائه، معلقاً بالجذع الآخر. كان هناك أثرٌ من آثار الحياة في عيني بيسوس عندما حامت الطيور المفترسة التي تنشط على الدوام في ذلك المكان الذي تنفذ فيه الإعدامات حوله، وما لبثت أن نزلت كي تتغذى من جثته المعذبة.

بقي الإسكندر في باكترا مع ستاتيرا وبقية الحاشية طيلة فصل الشتاء، كما أمضى وقتاً طويلاً مع إيومينيس في الكتابة إلى مرزبانات مقاطعاته. كتب إلى أنتيغونوس الذي يعرف بلقب العين الواحدة والذي كان حاكماً على الأناضول، وإلى مازايوس حاكم بابل،

وكذلك إلى آرتابازوس في بامفيليا. وسأل في إحدى هذه الرسائل عن أحوال فرآت، وما إذا كان قد تغلب على شعوره بفقدان والدته وأخيه العزيزين على قلبه، وما إذا كان يعيش حياة هادئة في قصره المجاور للبحر. وأعطى الملك الحدادين المرافقين للجيش الأوامر بصنع عربة صغيرة، ثم أمر بإرسالها إلى فرآت كهدية بالإضافة إلى مهرتين لسكائيتين. تلقى الإسكندر كذلك رسالة من والدته أولمبيا، وأخرى من كليوباترا التي حدثته عن تفاصيل حياتها في قصر بوثروتوم، بالإضافة إلى الحنين الذي تشعر به إلى مسقط رأسها:

وصلتني أخبار إنجازاتك، لكن وهج هذه الإنجازات يخفّ كثيراً بفعل المسافات التي تفصل بيننا. يبدو لي أنه من المستحيل بالنسبة إليّ، أنا شقيقتك، أن أراك، وأن أعرف موعد عودتك، ومتى ستضع حداً لمهمتك التي طالّت كثيراً. إنني أعاني كثيراً بسبب بعدك عني، وأعاني بسبب وحدتي. أرجو أن تسمح لي بأن آتي إليك بأسرع وقت ممكن، وذلك كي أعاين إنجازاتك، وأشاهد عجائب المدن التي قهرتها. أشكرك كثيراً على الهدايا التي ترسلها إليّ على الدوام، والتي تجعلني أشعر بفخر كبير، لكن أعظم هدية تصلني منك هي قدرتي على معانقتك مجدداً، ولا يهمني المكان، سواء أكان ذلك في أراضي سكائيا المتجمدة، أو في صحاري ليبيا. أتوسّل إليك أن تدعوني إليك يا إسكندر، وأنا سأسرع بالهجرة من دون تسأخير، وسأبحر فوق البحار العاصفة، وسأجابه الرياح العاتية. انتبه إلى نفسك.

نصّ الإسكندر ردّه، وكان رداً متعاطفاً لكنه يتسم بالتصلّب وختمه بهذه الكلمات:

لم أحكم السيطرة بعد على إمبراطوريتي بالكامل يا شقيقتي الأحب إلى قلبي. سأطلب إليك الانتظار فترة أخرى بعد،

وعندما ينتهي كل شيء سأدعوك للمجيء إلى حيث أكون،  
وسنقدر عندها أن نشارك الجميع البهجة التي يشعرون بها،  
وسنشهد ولادة عالم جديد.

والتفت بعد ذلك إلى إيومينيس، وقال له: "يتحسن إنشاء  
كليبواترا مع كل رسالة ترسلها إليّ. لا بد من أنها تأخذ دروساً مكلفة  
من أحد أساتذة البلاغة".

قال إيومينيس: "هذا صحيح، لكنني أحسّ بالرغم من ذلك بأن  
تعاطفاً مخلصاً يتوارى وراء كلماتها، ووراء بلاغتها المنمقة. أحببتك  
كليبواترا على الدوام، ولطالما كانت الدرع التي تحميك من غضب  
والدك. ألا تفتقدها؟".

ردّ الإسكندر: "أفتقدها كثيراً. إنني أفتقد تلك الأيام، لكنني لا  
أستطيع السماح لنفسي بأن أغرق في ذكرياتي، وذلك لأن الهدف الذي  
وضعتة نصب عينيّ يعاودني على الدوام ويتطلب انتباهي، وكأنه أمر  
محمّم يستلزم التضحية بكل شيء آخر، وهو الالتزام الذي لا أستطيع  
التهرب منه".

ردّ إيومينيس: "إنه الالتزام الذي لا ترغب في التهرب منه".  
"أتظن أنني أستطيع فعل ذلك، حتى ولو أردت؟ تضع الأسياد  
الأحلام في قلوب الرجال. فهي تضع في قلوبهم الأحلام، والرغبات،  
والتطلعات التي تكون عادةً أكبر منهم. وتتوقف عظمة الإنسان على  
ذلك التناقض المؤلم القائم بين الهدف الذي يضعه لنفسه، وبين القوة  
التي وهبته إياها الطبيعة عندما قَدِمَ إلى هذا العالم".

"أي مثل بيسوس".

"وفيليب".

قال إيومينيس ناظراً إلى الأسفل: "وفيليب".

سكت الرجلان، وكان روح ذلك الملك المقتول ماثلةً في المكان بطريقة ما، أو كأنها استحضرت فجأةً بفعل الصمت والنسيان. خصَّص الإسكندر بعض الوقت من أجل الحفاظ على اتصالاته مع المدن التي أسَّسها في مقاطعات الإمبراطورية البعيدة، أي المدن التي حملت اسمه. وكتب شخصياً إلى القادة العسكريين وإلى قضاة تلك المدن الصغيرة التي أسَّسها في أراضٍ غير مأهولة، وغير معروفة. كتب كذلك رسائل إلى أرسطو، ووصف له فيها قوانين هذه المدن ودساتيرها، وهي الوثائق التي من شأنها إثراء مجموعة الفيلسوف.

وبين الحين والآخر، كانت تصله خطابات من تلك المراكز البعيدة، وكانت مكتوبة بلغةٍ إغريقية ركيكة جداً، أو باللهجة المقدونية. اشتملت تلك الخطابات في معظم الأحيان على طلبات للمساعدة على صدِّ هجمات الأعداء، وللمساعدة على إنهاء مقاطعة السكان الآخرين الذين أرادوا المحافظة على هوياتهم الوطنية. كانت ثورة سببثامين تنتشر في كل مكان، لأن تسليم بيسوس أسفر عن تمهيد الطريق للقائد الجديد الذي يتحصَّن الآن في سفوح جبال باروباميسوس التي تغطيها الثلوج.

أرسل الإسكندر الجواب ذاته إلى الجميع:

"اصمدوا. إننا نجمع المزيد من الجنود، ومنتظر وصول تعزيزات جديدة كي نساعدكم، ولنعيد الهدوء إلى الأراضي التي تربون فيها أطفالكم".

مرّ فصل الشتاء بأكمله على هذا المنوال. ولكن، عندما حلَّ فصل الربيع، وصلت تعزيزات جديدة من الجنود من مقدونيا والأناضول، فانطلق الجيش بزحفه مجدداً. أدرك الإسكندر عند دخوله إلى باكتريانا أن المتمردين قد توزعوا على عدد كبير من القلاع والحصون، ولذلك

قرّر تقسيم قواته كي يتمكّن من شن هجمات متعددة في الوقت ذاته، حيث يتركز كل هجوم على مركز محدد للمقاومة. واكتشف أن كبار قادته ورفاقه لم يوافقوا على هذه الاستراتيجية عندما عرضها عليهم.

صاح الأسود: "إياك أن تقسّم قواتك، لأنه على حدّ علمنا لقي إسكندر إبيروس، خالك وصهرك، المزيمة على يد البرابرة في إيطاليا لأنه اضطر إلى تقسيم جيشه. يبدو لي أنه من الجنون... أن يُقدم المرء على القيام بالأمر ذاته من تلقاء نفسه".

قال بيرديكاس: "أعتقد أنه من الأفضل لنا البقاء متحدّين، وسنهمهم الواحد تلو الآخر، وسنسحقهم مثل البراغيث".  
أوماً ليوناتوس موافقاً، وكأنه لم تعد هناك حاجة إلى المزيد من مناقشة الأمور.

بدأ إيومينيس الكلام: "إذا كنتم تريدون معرفة رأيي..."، لكن الإسكندر قاطعه بينما كانت الكلمات لا تزال في فمه:  
"إذاً، اتفقنا. سيبقى كراتيروس في الجنوب قرب باكترا بينما نتحرك نحن شمالاً وشرقاً نحو سوغديانا كي نحاصر المتمردين في الجبال، وسنقوم في مرحلة معينة بالانتشار على شكل مروحة. ستكون هناك خمس وحدات، أي وحدة لكل منكم تتكفل بالاستيلاء على أحد الحصون. صمّم دياديس منحنىقات طويلة المدى، كما أننا سنطلق حراباً أصغر لكنها تتمتع بالفعالية ذاتها".

توقف ليوناتوس عن الإيماء برأسه عندما أدرك أن الوضع قد تغيّر. فسأله الإسكندر الذي كان يراقبه: "لكن، ألا توافقون جميعاً؟".

"أنا، في واقع الأمر، كنت أوافقك الرأي..."، حاول أن يكمل لكنه فوجئ بأن الحاضرين قد هبوا واقفين، لأنه لم تعد هناك حاجة إلى قول أي شيء آخر، خاصة وأن الإسكندر قد رافقهم حتى الباب.

وُضعت الخطة موضع التنفيذ في غضون أيام قليلة. فانطلق الملك ورفاقه مع ما يزيد عن نصف الجيش نحو مداخل الوديان حيث يتواجد المتمردون المسلحون. حارب الجيش طوال فصل الصيف، وهدم بعض الحصون، لكن العمليات تباطأت بسبب استراتيجية الجيش الذي تجنّب المواجهة المباشرة، أي أنه كان يهجم ثم ينسحب مباشرة، وكذلك بسبب طبيعة الأرض الوعرة. قاد الإسكندر جيشه نحو سمرقند عندما ساء الطقس وقلّت المواد الغذائية.

\*

سارت الأمور بشكل مختلف مع كراتيروس لأنه تُرك في الخلف، وفشل في الوصول إلى عاصمة المقاطعة قبل وصول مبعوث من قائد حاميتها.

"اجتاح سبيتامين المنطقة المحيطة بباكترا ونهب الريف والقرى. شنّت حاميتنا هجوماً أولاً لكنها منيت بالهزيمة، ثم نظمنا هجوماً ثانياً لمطاردة سبيتامين، لكننا بحاجة ماسة إلى التعزيزات".

خيم هاجسٌ مفاجئ على كراتيروس، لأنه كان يعرف جيداً مراوغة سبيتامين، وكان متأكداً تقريباً من أن شن غارة في تلك المنطقة المحيطة بباكترا كان الاستفزاز الوحيد الذي يدفع بحامية العاصمة للقتال في ميدان مفتوح تمهيداً لإبادتها.

سأل كراتيروس المبعوث: "أي طريق سلكوا؟". أشار المبعوث إلى الطريق المؤدية إلى الصحراء قائلاً: "سلكوا ذلك الاتجاه".

قال القائد المقدوني بعد أن اتخذ قراره: "سنسير في ذلك الاتجاه بدورنا، وذلك بعد أن نرتاح قليلاً. فلا حاجة بنا إلى المرور عبر العاصمة".

انطلقوا بزحفهم قبل الفجر، وعبروا مجرى مياه عند المعبر، ثم وصلوا إلى ممر ضيق محاط بأشجار الآكاسيا وأجمات الأزهار البيضاء المائلة إلى الحمرة. كانت هذه الطريق مكاناً مثالياً لنصب الكمائن. اقترب منهم كيونيوس، وهو قائد سرية الهيتايروي الثانية على نحو مفاجئ. قال وهو يشير إلى السماء: "انظروا هناك".

سأل كراتيروس رافعاً يده كي يحمي عينيه من أشعة الشمس: "ما هذا؟".

أجاب الضابط بجديّة: "العقبان".

كان المنظر مفرعاً بالفعل. فلقد تواجد مئات من الجنود المقدونيين القتلى أمامهم، وكانت جثثهم مشوهة تشويهاً مروعاً، وكانت رؤوس بعض الجثث مقطوعة أو مسلوخة، بينما وُضع بعضها على أعمدة مغروزة في الأرض، وربط بعضها الآخر إلى أشجار، وكانت آثار التعذيب الشديد تبدو واضحة عليها، كما صُلب قائدان من ضباط الحرس القديم، وصديقان من أصدقاء كلايتوس.

سأل كيونوريوس بجدية: "ماذا سنفعل الآن؟".

"أريد تجميع الفرسان لأننا سنهاجم الآن. وسيتبعنا المشاة بخطوات سريعة".

أطلق كيونوريوس إشارة التجمع، ثم أمر الفرسان بعبور ميدان المجزرة وسط صمت مطبق. فلقد أراد تحديداً أن يشاهد الجنود ما فعله العدو برفاقهم، وأراد أن يتزايد الغضب الذي يعتمل في نفوسهم حيث يتخطى كل الحدود، وأن يدفعهم تعطشهم إلى الانتقام لزيادة بأسهم في ملاحقة الأعداء.

وما إن انفتح الممر الضيق على سهلٍ متموج حتى أمرهم كراتيروس بالاصطفاف في خمسة صفوف يشتمل الواحد منها على ستمئة فارس وصاح بهم: "لن أتوقف حتى نلقي القبض على هؤلاء البرابرة ونقطعهم إرباً. اتبعوني أيها الرجال وتذكروا ما فعلوه برفاقكم!".

كانت آثار جنود العدو لا تزال جديدة ومرئية بوضوح، كما تمكّنت سرايا الفرسان من المحافظة على تشكيلاتها. انطلق الجنود بسرعة



وسط سحابة من الغبار، وساروا نزولاً نحو ثغرة تشبه السهل، ثم صعدوا منحدرًا طويلًا أخفى وراءه ثغرة أخرى. كان كيونيوس أحد أوائل الذين وصلوا إلى القمة مع كراتيروس. رأى الرجلان فرسان العدو على بعد يقل عن ثلاثة ستاديات، وكانوا يتقدمون ببطء غافلين عن الخطر الذي أوشك أن يدهمهم.

صاح كراتيروس: "ها هم أمامنا! الأبواق! اهجموا! لا تتوقفوا أيها الرجال! أبيدوهم! قطعوهم إرباً إرباً! إلى الأمام! إلى الأمام!"

سمع نفير الأبواق مرات عدة، فانطلق الفرسان نزولاً على المنحدر مثل السيل. اهتزت الأرض، وامتلاء الجو بأصدااء نفير الأبواق البرونزية، وبالشراسة التي تميز بها الهجوم. فوجئ سبيتامين الذي كان يقود جيشاً مؤلفاً من الباكترين واللسكاثيين المساجتين، فأعطى جنوده الأوامر بأن يستديروا لمواجهة العدو، لكن هذه المناورة نجحت جزئياً فقط لأن المقدونيين كانوا فوقهم في هذا الوقت خافضين رماحهم. تساقط الجنود بالمئات عند مواجهة الأولى، وانتشرت جثثهم ذات اليمين وذات اليسار، وسقطوا على الأرض حيث داستهم حوافر الجياد. لحقت الهزيمة التامة بمنطقة الوسط فتبعثر الجنود، بينما أبدى الجناحان بعض المقاومة، وسعوا إلى تنفيذ مناورات التشتيت. لكن كراتيروس لم يقع في هذه المصيدة، فاستدعى رجاله، وقادهم مجدداً إلى هجوم ثانٍ وجهاً لوجه. أبيد من تبقى من جنود سبيتامين في غضون أقل من ساعة واحدة، لكن المرزبان تمكن مع مئات قليلة من اللسكاثيين المساجتين من النجاة بصعوبة بالغة وفرّوا إلى الصحراء.

عندها، أرجع كراتيروس رجاله من أجل دفن رفاقهم الذين سقطوا في القتال في مثوهم الأخير، لكنه استدعى كيونيوس جانباً قبل البدء بالمراسم وقال له: "أتعرف من خصومنا؟".

"إنهم اللسكاثيون".

"إن المساجتيين هم أفراد القبيلة التي تمكنت قبل مئتي عام من إلحاق الهزيمة بسيروس العظيم وقتله. أريدك أن تنشر الرعب الخالص في صفوفهم، وتأكد من أنهم لن يتجرأوا على المهاجمة مجدداً... أبداً. أتفهم؟".

أجاب كيونيوس: "فهمت". وأضاف بعد ذلك: "أرسل إليّ المنجنقات. أريد كل ما تمتلكه منها، بالإضافة إلى فرقة من الأغريانيين".

أوما كراتيروس وقاد جنوده من الهيتايروي إلى المعسكر حيث وقعت المجزرة، لكن جنود المشاة تمكنوا من الوصول قبلهم، فألقوا أسلحتهم، وبدأوا بتجميع الجثث، ثم راحوا يجمعون أجزاء الجثث المقطعة بأفضل طريقة ممكنة، ونقلوها إلى حافة الميدان، بينما كانت الدموع تفيض من أعينهم. وراح آخرون يقطعون الأشجار كي يجهزوا المحارق.

انتظر كيونيوس وصول المنجنقات. وفي هذا الوقت، أمر الأغريانيين بقطع رؤوس كل جثث اللسكاثيين المساجتيين التي يجدونها أمامهم. وذهب بعد ذلك إلى حدود أراضيهم التي يحدّها نهر أرتاكيونيس، ورأى دوريات من الفرسان الذين كانوا يقومون بحماية الحدود على الضفة الأخرى. فاهمك في حشو المنجنقات، ثم أطلق الرؤوس المقطوعة على شكل مجموعات إلى الجهة الأخرى، فراحت تتدحرج على الأرض حيث انتهت تحت حوافر الجياد. واستدار بعد ذلك كي ينضم مجدداً إلى بقية الجيش. وكان الجيش قد زحف نحو باكترا، وأشرف في طريق عودته على استسلام كل القرى التي شاركت في ثورة سبيتامين.

\*

في هذا الوقت، تمركز قسمٌ من الجيش الذي حارب مع الإسكندر في سمرقند لبعض الوقت. وهناك عمد الضباط الفرس إلى تجنيد أكبر عدد من الشبان في باكتريانا، وفي سوغديانا، لصالح الجيش الإمبراطوري، وهو الجيش الذي أصبح الآن مختلفاً جداً عن ذلك الجيش الذي انطلق من بيلا قبل سبعة أعوام. تسبّب هذا الأمر بإنقاص أعداد جنود العدو الذي أخذ بالانخفاض حيث قلت كثيراً فرص تعزيز المقاومة ضد الإسكندر.

أشارت الوقائع إلى أن نجاحات الحملة كانت محدودة، وهذا ما أساء إلى هيبة الملك إلى درجة أن عدداً كبيراً من رفاقه سعى إلى إقناعه بالعدول عن استراتيجيته. من جهته، حاول الإسكندر دفع جنوده إلى نسيان الطبيعة المحددة للحملة التي يخوضونها، وذلك عن طريق إقامة الحفلات، ومآدب الطعام التي شارك فيها الضباط الفرس، وهو الأمر الذي أعاد جو التوتر بين المقدونيين وأصدقائه. وبدا أن عدداً كبيراً منهم شعر بالاستياء من هيفاستيون، لأنه أظهر قبوله للعادات الفارسية، أي مثل ما فعل الملك، حتى إنه كثيراً ما كان يرتدي ملابسه على الطريقة الشرقية.

حضرت وفود كثيرة للمفاوضة بمن في ذلك زعيم قبيلة لسكائية كانت تعيش على الضفة الأخرى من الأوكسوس. عمد الملك إلى تطبيق البروتوكول الفارسي على الجميع، وشمل ذلك عادة السجود، كما كان يستقبل الضيوف مرتدياً العباءة، أو حتى وهو يضع التاج العالي فوق رأسه. وأدّت هذه التصرفات إلى زيادة حالة عدم الرضا بين الجنود.

قدم فلاسفة، وضالعون، وشعراء، وممثلون من اليونان والأناضول بعد أن جذبتهم شهرة الملك، وأخبار انتصاراته وإنجازاته، هذا عدا عن

الشائعات التي انتشرت بخصوص ثروته التي لا حدود لها والتي صادرها جيشه. أمل كل هؤلاء بأن يغنموا جزءاً يسيراً من تلك الثروة الهائلة، أو حتى مجرد التعرّف إلى ذلك الفاتح الشاب. استقبل الإسكندر جميع هؤلاء ودعاهم إلى حضور مادبه. كان الملك يأمل أن يتمكن بهذه الطريقة من نقل قسم من الشعب اليوناني إلى هذه الأصقاع البعيدة، كما تمكّن من إشباع ميله الطبيعي إلى المناقشات الفلسفية والمواجهات البلاغية. لكن جميع هؤلاء كانوا يرغبون فقط في التزلف إلى الملك، ولهذا تحلقوا حوله بكل الطرائق الممكنة، وبطريقة مراوغة في بعض الأحيان، حيث يتمكنون من إخفاء مقاصدهم الحقيقية. أزعج هذا الأمر المقدونيين الذين تعودوا على نوع من الرفقة التي تتميز بالخشونة مع ملكهم، في حين كانت السمة الرسمية في ما بينهم هي طبع قبلة على الخد، وهي القبلة التي تخصص عادة للأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة حميمة.

في أحد الأيام، وصل رجلٌ يحمل الفاكهة المحففة والمكسرات إلى الملك. جاء الرجل من اليونان مباشرة محملاً بالتين، واللوز، والجوز. تذوق الإسكندر هذه الفاكهة، فبدت له شهية حيث فكّر في تقديم بعضها إلى كلايتوس الأسود في إشارة إلى الصداقة بينهما، وذلك بعد حدوث مواجهات عدة بينهما بخصوص البروتوكول، وكذلك بخصوص تصميم الملك على إدخال الفرس والآسيويين ليس فقط إلى البلاط، بل إلى الجيش كذلك. وكانت بعض هذه المواجهات حامية جداً في واقع الأمر.

كان الأسود، وبالرغم من مزاجه الغاضب والمتعطرس، متديناً جداً. وكان يقدّم أضحيات عندما وصل المبعوث الذي حمل استدعاء الملك له. فترك الأضحية في منتصفها، وتبع الجندي من دون أن ينتبه إلى أن عدداً من الخراف كان يتبعه.

وصل إلى باحة القصر مع الخراف التي كانت ترافقه، فبدأ الإسكندر بالضحك، وصاح به: "أيها الأسود! هل تحولت الآن إلى الرعي؟". لكنه شعر بالانزعاج عندما علم بأن هذه الخراف كانت مخصّصة لتقديم أضحية. أعطى الأسود هديةً من الفاكهة والمكسرات، وما لبث عند مغادرته أن استدعى أريستاندر وأخبره بما حدث. شعر الضالع بالانزعاج وأجاب: "إنها إشارة سيئة، ونذير شؤم".

في تلك الليلة بالذات، حلم الإسكندر بكلايتوس، وربما كان السبب تأثره بكلمات الضالع. رآه متسربلاً بثياب سوداء من قمة رأسه وحتى أخص قدميه، وكان جالساً إلى جانب أبناء بارمينيون الثلاثة، وقد أصبحوا جميعاً من الأموات. واستيقظ صباحاً وهو يشعر بالقلق الشديد وأخبر أريستاندر بحلمه. كما أقام مأدبة في ذلك المساء بالذات كي يطرد عنه شبح الكرب العميق الذي أحسّ به وكأنه يسحقه. كان متعلقاً جداً بكلايتوس بالرغم من صداماتهما المتكررة، وذلك لأنه شقيق المرأة التي أرضعته وهو طفل. ويكوّن هذا الأمر رابطة قوية بينهما تقرب من رابطة الدم، وذلك جرياً على عادة المقدونيين.

انتُخب بيرديكاس في تلك الليلة بالذات ليكون سيّد المأدبة، فأعلن على الفور بأنه توجد حلقتان، واحدة للمقدونيين بشراب خالص، وأخرى لليونانيين حيث يحتوي شراهم على جزء واحد من الشراب وأربعة أجزاء من الماء. كان هذا القرار بحدّ ذاته كافياً لإثارة بعض السخط، كما أن الإسكندر ذاته شعر بالسخط، لأن بيرديكاس لم يأت على ذكر الضيوف الفرس على الإطلاق.

كان بين اليونانيين عدا عن كاليستين، فيلسوف يدعى أناكزارخوس، وهو رجل وصل حديثاً، وكان إلى جانب صلفه وغطرسته قديراً جداً. اصطحب معه شاعرين بدأ بالشرب وتناول

الطعام على الفور. مضى الاحتفال على ما يرام في البداية، واشتمل على إلقاء الفكاهات، والتعليقات، والقصص الفاسقة. وساهمت بعض النساء اللواتي لم يكن أقل جرأة من الرجال في رواية هذه القصص. بدأ الجميع بالإفراط في الشرب، ولم يمضِ وقت طويل حتى شعر الجميع بالمرح، بمن فيهم الملك.

عند هذا الحد صاح أحد الشعراء الذين جاءوا مع الفيلسوف، وهو رجل يُدعى برانيكوس: "ألقت ملحمة شعرية صغيرة! أيرغب أحدكم في سماعها؟".

قال الإسكندر ضاحكاً: "ولم لا؟".

بدأ الشاعر، بعد أن شجعتة موافقة الملك، بإلقاء تحفته الشعرية، وهو الأمر الذي أطلق ضحكات كثيرة من قبل رفاقه. ولكن ما إن أدرك المقدونيون موضوع هذه الملحمة حتى صمتوا فجأة، بالرغم من أنهم كانوا ثملين جميعاً، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من تصديق ما تسمعه آذانهم. ألقى ذلك الشاعر المثير للشفقة قصيدة هجائية تتميز بالغباء تتناول قادة حامية باكترا، وهم الذين وقعوا في المصيدة التي نصبها لهم سبيتامين خلال حملة الربيع، وسخر الشاعر فوق كل شيء من أعمارهم:

أطلق العجوزان صرخات الحرب،

وعجزا عن رفع عصويهما عن الأرض،

حرصا على الهجوم، ولكن كان عليهما البقاء في سريريهما،

سخر منهما الجميع واعتبروهما من واسعي الاطلاع.

عندها، استشاط الأسود غضباً، ورمى كوباً من الشراب على

وجه الشاعر، وصاح به: "هذا يكفي أيها اليوناني السخيف!".

كان الإسكندر ثملاً ونصف عارٍ في أثناء جلوسه بين اثنتين من

النساء اللواتي كن يفعلن ما في وسعهن من أجل تسليته، وهكذا لم

يفهم شيئاً مما كان يدور أمامه، باستثناء أن الأسود قد أهان ضيفه اليوناني، ولذلك صاح: "كيف تجرؤ؟ اعتذر منه ودعه يكمل! أنا أحب الشعر".

سمع كلايتوس، الذي كان تحت تأثير الشراب بدوره، تلك الكلمات ففقد صوابه، وردّ بالقول: "أيها الولد الصغير قصير الساقين، والصلف، والمغرور! كيف تجرأت على السماح لهذا اليوناني التافه بالسخرية من ذكرى ضابطين شجاعين ضحيا بحياتيهما في ميدان المعركة؟".

صاح الإسكندر بعد أن استوعب مدى الإهانة التي لحقت به: "ماذا قلت؟".

"سمعت ما قلته! من تظن نفسك؟ أتعتقد فعلاً أنك ابن زيوس آمون؟ وهل صدقت تلك الأمور التافهة التي تنشرها تلك الشاذة والدتك عن ولادتك؟ انظر إلى نفسك! انظر إلى حالتك وأنت ترتدي أزياء النساء، وكل هذه الزخرفات والمخرمات!". وأشار الأسود عندها إلى الملابس الفارسية التي كان الملك يرتديها قبل أن تبدأ الفتاتان بنزع ملابسه.

وقف الإسكندر شاحباً من فرط الغضب، وأعطى مساعده الأوامر قائلاً: "أطلق نداء استدعاء حاملي الدروع! أطلقه الآن!". كان هذا إجراءً متطرفاً يلجأ إليه الملوك المقدونيون فقط عندما تكون حياتهم في خطر مباشر، وما إن يندفع حاملو الدروع إلى القاعة حتى يقتلوا الجهة المعتدية والمذنبه على الفور. ولهذا السبب، تردد المساعد قليلاً ووقف مدهوشاً من هذا الأمر الذي تلقاه، فوجه الإسكندر لكمةً إلى وجه المساعد. وما إن سقط الرجل على الأرض، حتى صاح الإسكندر بكل قوته: "يا حاملي الدروع! تعالوا إلى هنا!".

صاح كلايتوس غاضباً: "أجل! استدع حاملي الدروع! استدعهم الآن! أتريد أن تعلم الحقيقة؟ أنت لا شيء من دوننا... لا شيء! نحن الذين كسبنا لك كل معاركك، ونحن الذين حاربنا، ونحن الذين هزمتنا الأعداء. أنت لا تساوي حتى جزءاً صغيراً مما كان عليه والدك فيليب!".

قلق بطليموس من الطريقة التي تطور بها هذا الجدل، فأمسك كلايتوس من كتفيه، وحاول أن يدفعه إلى الخارج. "توقف عن هذا أيها الأسود. إنك تمل. توقف عن إهانة الملك! هيا الآن، اخرج من هنا!".

وساعد بيرديكاس بطليموس، وكادا ينجحان في جرّه إلى الخارج، لكن كلايتوس حرّر إحدى ذراعيه، وبدأ بالصياح ملوحاً بيده في الهواء. "اسمع يا ابن زيوس! أترى هذه اليد؟ أتراها؟ هذه هي التي أنقذتك في غرانيكوس... أم أنك نسيت يا ترى؟". والتف بقوة مجدداً، فحرّر نفسه كلياً، وعاد يصيح موجهاً الإهانات إلى شخص الإسكندر.

عندها، تناول الإسكندر تفاعاً عن الطاولة، ورمأها على وجهه كي يُجره على التراجع، لكن كلايتوس تفادها وتقدم إلى الأمام، واستمر في توجيه المزيد من الإهانات إلى الملك. سيطر الغضب الشديد على الملك، وغضب كذلك بسبب عصيان مساعده، وشعر أنه أهين أمام ضيوفه. وسرعان ما تحوّل الملك إلى رجلٍ شرسٍ فتناول رمحاً من أحد جنود البيزيتاروي ورمأه نحو كلايتوس، ولكن من دون أن يتصور بأنه سيصيب هدفه، أي أنه قصد أن يخيفه قليلاً، ويلقنه درساً... وكانت لحظة طويلة، حيث بدت وكأنها تستغرق عمراً بأكمله. أرادت يده التي رمت الرمح في تلك اللحظة، وكانت لا تزال ممدودة، أن تسترجعه مجدداً كي تمنعه من الوصول إلى هدفه، كما أرادت أن تحمي الأسود نفسه. لكن لم يحدث أيّ من هذين الأمرين، لأنه في هذه اللحظة بالتحديد كان بطليموس قد أمسك به في محاولة منه لحمايته من



غضب الملك وجرّه إلى الخارج، فانغرز الرمح الصغير بأكمله في جسده بشكلٍ مباشر.

صاح الإسكندر: "لا! أيها الأسود، لا! لا!". وركض نحو صديقه الذي ارتقى على الأرض وهو يتقيأ دماً. سحب الرمح من جسد رفيقه، وغرز مقبضه في الحائط، وحاول أن يدفع جسده إليه لينغرز فيه. فأمسكه سلوقس وبطليموس في الوقت المناسب، لكنه راح يتلوى مثل رجلٍ ممسوس. وصاح من بين دموعه: "دعوني! دعوني! أنا لا أستحق أن أعيش!".

أسرع ليوناتوس لمساعدة صديقه، لكن الإسكندر تمكّن من تحرير إحدى يديه، وتناول سيفه ثم شرع في محاولة انتحارٍ ثانية. عندها، جرّده رفاقه من سلاحه ودفعوه إلى الخارج.

لم يتمكن إيومينيس من فعل أي شيء لأنه كان جالساً إلى جانب كاليستين في مكانٍ بعيدٍ في الجهة المقابلة من الغرفة. جلس بسكون، وراح يراقب ما يجري في الغرفة التي كانت قبل لحظة مضت تتردد فيها أصوات ضجيج حفل العرابة المليء بالشراب، لكنها الآن غرقت في صمتٍ أخرق وغير واقعي. نظر المساعدون الذين كانوا يقفون منتصبين قرب الجدار ومرتدين أزياءهم إلى بعضهم. وبان الشحوب على وجوههم نتيجة الدهشة التي أصيبوا بها. التفت كاليستين نحوهم، وقال لهم مستشهداً بكلام لأرسطو: "إن الذي يقترف جريمة في حالة ثمالة يكون ذنبه مزدوجاً، وذلك لأنه ثملٌ، ولأنه اقترف جريمة".

فحدّق إليه إيومينيس، وهزّ رأسه غير مصدّق، وسأله: "أيّ رجلٍ أنت؟". فيما نظر إليه أحد المساعدين، وهو ولدٌ يدعى هيرمولوس بنظرة ملؤها الإعجاب.

\*

بكى الإسكندر يائساً لمدة ثلاثة أيام وأربع ليالٍ، وهو يردد اسم صديقه المقتول، كما رفض أن يتناول الطعام أو يشرب الماء، فبدأ مثل خيال للرجل الذي كان قوياً قبل أيام قليلة.

قلق رفاقه أخيراً من إمكانية فقدانه صوابه وحياته في آخر الأمر، فطلبوا من أريستاندر أن يتدخل. دخل الضالع وتحدث إليه لوقت طويل، وذكّره بالحلم الذي سبق أن رآه، وبنذير الشؤم الذي تمثّل بالخراف التي أفلتت من مذبح الأضحيات، أي أن هذه الحادثة قد سطرها القدر مسبقاً، ويعني ذلك أنها حتمية. وتمكّن في النهاية من إعادة الإسكندر إلى حيويته مجدداً، لكن شبح كلايتوس الأسود استمر في تعذيبه وجعله يشعر بتأنيب الضمير في ما تبقى من أيامه ولياليه.

عاد الإسكندر مجدداً إلى احتساء الشراب بإفراط، أما المساعدون الصغار الذين اعتادوا نيل شرف تبادل حراسة الملك خلال نومه فقد بدأوا يستهينون به. رأوه في أحيان عدة يعود ثملاً، فكانوا يجروّنه إلى غرفته بسبب عجزه عن الوقوف على قدميه. وكان يفرق بعد ذلك في نوم عميق وهو يشخر.

وحدها لبيتين استمرّت في خدمته بالمستوى ذاته من التعاطف كما كانت تفعل من قبل، ومن دون أن تطلب شيئاً في المقابل. وأخذت تدعو له بصمت كي يستعيد بعض الهدوء في حياته.

وعند بداية فصل الخريف، اجتمع قسما الجيش في سمرقند. فوجئ كراتيروس كثيراً عندما سمع أخبار تلك الأحداث المرعبة. وأراد أن يتجنّب الإحراج الذي سيصيبه اجتماعه مع الملك، ولذلك انطلق بزحف نحو الصحراء بهدف تلقين المساجتيين الدرس الأخير بسبب مساندتهم سبيتامين. أدركت القبيلة أخيراً أن المرزبان ليس لديه أي أمل بقيادة تمردٍ ناجح ضد الإسكندر في باكتريانا وسوغديانا، وهي التي

كانت لا تزال مرتعبةً من الأحداث التي جرت على ضفتي نهر أرتاكوانا. علمت القبيلة من درافاس أن الملك القادم من الغرب كان من أنصاف الأسياد التي لا تقهر، وهو قادرٌ على الظهور فجأةً حيثما يريد، وعلى الضرب بعنف مدمر. ودعا زعماء القبيلة إلى عقد اجتماع، واتفقوا على إقامة علاقات حسنة مع الفاتح الجديد، وألاً يستفروه أبداً. وأقدم هؤلاء على إلقاء القبض على سببامين عندما فاجأوه خلال نومه، وقطعوا رأسه ثم أرسلوه إلى كراتيروس كعلامةٍ على نياتهم الطيبة.

وبعد ذلك، اجتمع قسما الجيش المقدوني مجدداً في سمرقند وسط طقسٍ بارد، وانطلق الجيش نحو باكترا من أجل تمضية فصل الشتاء هناك.

وفي الربيع التالي، انطلق الإسكندر في زحفه نحو سوغديانا مجدداً، وذلك من أجل إخماد آخر جيوب المقاومة، وعلى الأخص تلك التي كانت تتحصن في قلعة مشيدة في أعالي الجبال، وتُعرف باسم الصخرة السوغدية. كانت تلك القلعة مكاناً حصيناً يصعب الوصول إليه، كما كان حاكمها أحد كبار الملاكين الذي يُعرف باسم أوكسيارت، وهو رجلٌ شجاع لا يعرف الخوف، ولا يُمكن قهره. كانت الطريق الوحيدة المفتوحة للوصول إلى القلعة عبارة عن ممرٍ ضيقٍ وصعبٍ محفورٍ بين الصخور، ويؤدي إلى البوابة الوحيدة في أسوار القلعة العالية، والتي تقع مباشرةً فوق منحدرٍ عالٍ. أما الجزء الخلفي من الأسوار فقد شيد على قمة صخرية يغطيها الثلج في معظم أيام السنة، وكانت ترتفع ما لا يقل عن ألف قدم فوق القلعة.

أرسل الإسكندر منادياً مع أحد المترجمين في تلك الطريق، وطلب من الحراس الاستسلام، لكن أوكسيارت صاح بنفسه من فوق الأسوار: "لن نستسلم أبداً! لدينا مؤونة تكفينا سنوات عدة، بينما ستهلكون أنتم جميعاً من البرد والجوع. أبلغوا ملككم أن الجنود الوحيديين القادرين على احتلال قلعتي هذه هم الجنود المجتّحون".

وما إن وصل ما قاله أوكسيارت إلى الإسكندر حتى: "جنود مجتّحون! جنود مجتّحون...". نظر ديداديس إلى الأعلى بعد أن غطى عينيه بيده لحمايتهما من وهج الثلج الساطع، وقال: "إذا كنت تفكر في ديدالوس وآيكاروس، فإنني مضطر الآن إلى أن أذكرك بقصتهما، وهي

للأسف أسطورة. أقول لك إن الإنسان لن يتمكن أبداً من الطيران، حتى ولو صنع أجنحة. صدّقي، إن ذلك مستحيل".

أجاب الملك: "أنا لا أعرف معنى تلك الكلمة، وكان هناك وقت لم تعرف فيه معناها أنت أيضاً. أحشى أنك تتقدم بالسن". صمت دياديس نتيجة الإحراج الذي شعر به، وبقي صامتاً لأنه لن تخطر في ذهنه أي فكرة عن مهاجمة مكان كهذا مهما أطل التفكير.

وبالرغم من ذلك، تمكّن الإسكندر من وضع خطة. فاستدعى منادياً وأرسله كي يتفاوض، وأمره أن يبحث في المعسكر عن رجل يتبرع تحت جناح الظلام بتسلق تلك القمة التي تشرف على القلعة، مقابل عشرين تالنتاً أي أنه يتعيّن على ذلك الرجل أن يتسلّق ألفي قدم على الأقل بدءاً من المكان الذي يعسكر فيه الجنود في تلك اللحظة.

سأل إيومينيس: "ستمنحه عشرين تالنتاً؟ لكن ذلك مبلغ كبير جداً".

ردّ الإسكندر: "يجب أن تكون المكافأة مناسبة لهذه المهمة المستحيلة. إنها تضمن غنى أسرة لمدة خمسة أجيال. إنني متأكد تماماً من أن المال يدفع الرجال إلى استنابات أجنحة لهم".

تقدم ثلاثمئة متطوع في غضون أقل من ساعة واحدة، وكان أكثر من نصفهم من الأغريانيين، ومن المقدونيين الآخرين الذين جاءوا من مناطق جبلية.

قال أحد الرجال الذي بدا وكأنه قائدهم: "لدينا فكرة. إن سكاكين الأغريانيين لا تصلح في مثل هذا الوضع، لذلك نعتزم استخدام المسامير الشائكة التي تُستخدم في نصب الخيم، والمصنوعة من الحديد الصلب، وسنقوم بشيئها في الثلج، ثم سنربط الحبال حولها، وسنسحب أنفسنا إلى الأعلى واحداً تلو الآخر. إنني متأكد من نجاحنا في ذلك".

ردّ الملك: "وأنا متأكد من ذلك. دع إيومينيس يعطيك علماً، عندما تصلون إلى القمة اغرزه هناك. عندها ستصدر الأبواق نفيها وكل ما عليكم أن تفعلوه عند هذه النقطة هو أن تنحنوا قليلاً حيث يرونكم من القلعة في الأسفل".

بدأ الليل يرخي سدوله، فانطلق المتطوعون في مهمتهم المثيرة. تسلّق الرجال التلة الصخرية سيراً على أقدامهم إلى أبعد نقطة يستطيعون بلوغها، وحملوا حقائبهم على أكتافهم مع الحبال والمسامير الشائكة. وبدأوا بعد ذلك بتثبيت المسامير في الجليد، ثم تابعوا سحب أنفسهم إلى الأعلى واحداً تلو الآخر.

في تلك الليلة، لم ينم الملك ورفاقه، بل ظلوا مستيقظين وهم ينظرون إلى الأعلى، ويراقبون الرجال الذين كانوا يصعدون ببطء تلك التلة الصخرية المغطاة بالثلج. بدأت الرياح تهبّ في منتصف الليل تقريباً، واخترقت هذه الرياح المتجمدة أطرافهم وعظامهم حتى كادت تجمدها، لكن المحاربين استمروا في تسلّقهم حيث كان بالإمكان رؤية ذلك الخط الداكن الذي يمثّل صفّ الجنود إزاء بياض الثلج الناصع.

سقط ثلاثون رجلاً، ولقوا حتفهم متحطمين على الصخور الموجودة في الأسفل. ولكن، تمكن مئتان وسبعون رجلاً من الوصول إلى القمة قبل انبلاج خيوط الفجر الأولى.

صاح بيرديكاس مشيراً إلى نقطة صغيرة حمراء اللون وهي تتحرك في الأعلى: "العَلَم! لقد نجحوا".

صاح إيومينيس: "آه! بحق الأسياد، لو لم أرَ ذلك بأعيني لما كنت صدقت هذا أبداً. أسرعوا، انفخوا في الأبواق!".

كُسِر جدار الصمت المخيم في الأسفل، وتردّد نفي الأبواق في المكان، بينما انحنى جميع المقاتلين، وبدأوا بالصياح حيث تمكّن ساكنو

القلعة من سماعهم ورؤيتهم. جهد حراس الأسوار في البداية كي يعرفوا مصدر تلك الأصوات، لكنهم عندما نظروا عالياً رأوا رجال الإسكندر يغطون القمة. عندها، ركض الحراس كي يوقظوا قائدهم الذي أسرع إلى المكان. بعد ذلك بقليل، تقدم المناادي المكلف من الإسكندر من القلعة، وصاح: "إننا نمتلكك، كما ترون، جنوداً مجنحين، ولدينا الكثيرون منهم. فما هو قراركم الآن؟".

نظر أوكسيارت إلى الأعلى، ثم نظر إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى مجدداً. وردّ بالقول: "إنني أستسلم. أبلغ ملكك أنني مستعد لاستقباله". توجه الإسكندر مع رفاقه وجنود الهيتايروي من فرقة الطليعة، إلى القلعة في اليوم التالي، عند حلول الظلام. تبادل الطرفان الشكليات في البداية، وما لبث الضيف أن دخل مع أصدقائه قاعة المآذب، والتي كانت مجهزةً بحسب الطريقة السوغدانية. فقد صُفّت على الأرض مساند ناعمة بخطّ مزدوج ووضعت الطاولات بينها. جلس الملك مقابل أوكسيارت، ولكن سرعان ما لفتت نظره فتاة تجلس إلى يمين مضيفه. وكانت هذه الفتاة تدعى روكسانا؛ وهي ابنة أوكسيارت! كانت شابة ذات جمال أخاذ وجسد متناسق، ولذلك أصبحت أسطورة بين شعبها الذي أطلق عليها اسم النجمة الصغيرة.

ابتسمت له فلمعت أسنانها كاللآلئ. أما وجهها الناعم بيضاوي الشكل فقد كان وجهاً رقيقاً غاية في الكمال. كانت رموشها طويلة، أما بشرتها فكانت ناعمة مثل الرخام، وتتألق بوهج خافت يماثل الكهرمان. كان شعرها داكناً جداً حيث عكس لمعاناً يميل إلى الزرقة، وهو الذي أحاط بوجهها المرسوم بشكل دقيق جداً. وعندما حرّكت رأسها، ألقى شعرها ظلالاً على عينيها الواسعتين والمظللتين بلون أرجواني داكنٍ ومحّب.

التقت عيونهما فعلقا في دوامة هالة سحرية وأثيرية وناعمة. غابت عنهما كل الأشياء حولهما، وتلاشت أصوات الآخرين، وبدا لهما أن الغرفة خالية. لم يسمعا سوى أنغام قيثارة هندية كانت تتماوج في هذا الفضاء الواسع والمتذبذب، وما لبثت هذه الأنغام أن دخلت رويهما وجسديهما. كانت أصواتاً بلغات مختلفة، لكنها متساوية في موسيقى العاطفة العصية عن الوصف فحملتهما على أجنحة خيالات مهيبة.

أدرك الإسكندر بعد ذلك أنه لم يسبق له أن أحب شخصاً ما إلى هذا الحد، وأنه عاش حالات من الإثارة العميقة، ومن الرغبة التي لا ترحم، ومن التعاطف والإعجاب، لكنها كانت بعيدة عن الحب. كان الإحساس الذي شعر به في تلك اللحظة حياً. أحسّ بعطش لا يرتوي تجاهها، كما أحسّ بسكينة تطوّق روحه، لكنها سكينة ترافقت في الوقت ذاته مع قلقٍ يعصى عن محاولة السيطرة عليه، سكينة متمازجة مع سعادةٍ خالصة، وخوفٍ طاغٍ. كان ذلك هو الحب الذي يكتب عنه الشعراء، ذلك السيد الذي لا يُقهر ولا يرحم، وتلك القوة الحتمية، وهذيان العقل والحواس، والسعادة الوحيدة الممكنة. نسي الإسكندر كل خيالات الماضي، وكل الأحزان والأهوال، ونسي رغبته الملحة في الوصول إلى المجهول، وهي الرغبة التي سكنت الآن وذوت بتأثير تينك العينين الأرجوانيتين الداكنتين، وبتأثير تلك الابتسامة.

وعندما استفاق الملك من أحلام يقظته أدرك أن جميع الحاضرين كانوا ينظرون إليهما، وأنهم فهموا ما يجري. نهض الملك ووقف أمام أوكسيارت، ثم قال بصوتٍ حازم، ولكن بعينين تفيضان بالعاطفة:

"أعلم أننا كنا عدوين قبل ساعات قليلة فقط، لكنني الآن أعرض عليك صداقة متينة وطويلة المدى، ومقابل هذه الصداقة وانطلاقاً من الحب العميق الذي أشعر به في هذه اللحظة، فإنني أطلب يد ابنتك



للزواج". ما إن انتهى المترجم من الترجمة حتى التفت إلى روكسانا وأضاف: "هذا إذا كانت ترغب في الزواج بي".  
وقفت روكسانا، وردّت بلغتها التي كانت غريبةً جداً وذات جرسٍ إيقاعي في الوقت ذاته، لكنها نطقت اسمه بالطريقة نفسها التي سمعت أصدقاءه ينطقونه بها، وقالت: "أريدك أيها الاسكندر وإلى الأبد".

\*

وبعد ثلاثة أيام، جرت مراسم الزفاف وسط مظاهر بدخ. طلب الإسكندر تطبيق الشعائر الفارسية في تحضير الخبز، لكنه أصرّ على تقديمه بالطريقة المقدونية، فقطعه بسيفه. أكل العريس والعروس من الخبز، ونظر أحدهما إلى عيني الآخر، وشعرا أنهما سيحبان بعضهما حتى النهاية. ارتدت روكسانا ملابسها الرسمية والتي كانت مؤلفة من سترة حمراء ارتدتها فوق فستان أزرق اللون، ووضعت حول خصرها حزاماً مزيناً بحلقات من الذهب، بينما غطت رأسها بحجابٍ تدلت منه قلادة من الذهب الخالص، ومزينة بأحجار اللازورد.

لم يتناول الملك أي شراب تقريباً في أثناء العشاء الذي تلا حفل الزفاف، ولم يتجاوز حدود الإمساك بيد عروسه والتحدث إليها بنعومة. تحدّث بكلمات لم تتمكن من فهمها، وردّد على مسامعها أبياتاً لكبار الشعراء، وصوراً عن أحلامه، وأدعية، وكلمات الحب. سعت روح الإسكندر إلى الحصول على بعض العزاء في عيني هذه الشابة العذراء، وفي مشاعر الحب التي سرت إليه من يديها عندما داعبته، ومن عينيها عندما نظرت إليه برغبةٍ صريحةٍ خاليةٍ من الخجل وناريةٍ ولكنها مهذبة في الوقت ذاته. كان صدرها الجميل يرتفع مع كل نفسٍ من أنفاسها، بينما غطّت حمرة خجلٍ طفيفةٍ خديها. بحث

الملك في أنفاسها تلك عن معنى هذا الشعور المفاجئ والمجهول بالنسبة إليه، والذي تمنى أن يبقى في أعماقه بشكلٍ ثابتٍ وإلى الأبد.

غرق الإسكندر في لجة عاطفة جارفة وقوية عندما أصبحا بمفردهما في النهاية، وعندما بدأت روكسانا بخلع ثيابها. أخفضت عينيها وهي تكشف ببطء عن جسدها الجميل، وملأت سرير زواجهما الأرضي بعطرٍ مبجلٍ فاح من بشرتها وشعرها. وقع الإسكندر في قبضة أقوى المشاعر وأعمقها. كان الأمر يشبه الغطس في حمامٍ دافئٍ بعد مسيرة دهور وسط العواصف الثلجية والجليد الذي يسبب الخدر. أو كأنه يشرب مياهاً عذبةً من نبعٍ صافٍ بعد أن تاه في صحراءٍ ما. شعر بأنه رجلٌ مجدداً بعد أن عاش الحرمان والعنف والقسوة.

وعندما جذبها نحوه، كانت عيناه رطبتين من فرط العاطفة. لم يشعر الإسكندر بأي خوفٍ لأن دفاء روكسانا غلّفه مثل غلالةٍ ناعمة، ومثل تلك السعادة الغامضة التي يحملها بين ذكريات طفولته.

\*

استيقظ الملك فوجدها مستلقية إلى جانبه، وهي تبدو أكثر جمالاً بعد أن انعكس نور أحلامها في عينيها. داعبها بنعومة لامتناهية، وقال لها: "يتعين علينا أن نغادر الآن يا حبيبتى، ولن نتوقف إلا عندما أرى أطراف الأرض ومدن الغانج، وطيور مالك الحزين في البحيرات الذهبية، والطواويس في باليمبوثرا".

بعد ذلك، ركّز الإسكندر اهتمامه على تحضير الجيش وإعادة تنظيمه، وجنّد الآلاف من الآسيويين من مقاطعات باكتريانا وسوغديانا، وهم الذين أصبح ولاؤهم مضموناً بشكلٍ مضاعفٍ، ومحتوماً بفضل زواجه من الأميرة ابنة أوكسيارت. وصل كذلك عشرة آلاف جندي فارسي، بعد أن تدربوا وتسلحوا حسب الطريقة

المقدونية، وهم الذين تجندوا على يد الحكام في المقاطعات الوسطى للإمبراطورية. قرر الإسكندر أنه بسبب القيمة العالية التي تمثلها عادة السجود أمام الملك، فإنها يجب أن تعمم على رعاياه كافة. لكن المقدونيين تمردوا على هذا الأمر، وما لبث كاليستين أن واجهه مباشرة، وذكره أنه من السخافة أن يتوقع هذا الأمر من شعبه. سأله: "ماذا ستفعل عندما تعود إلى الوطن؟ هل ستطلب إلى اليونانيين، وهم أكثر الناس تمتعاً بالحرية من بين كل الشعوب، أن يُظهروا ولاءهم بالطريقة ذاتها التي يجلبون بها الأسياد؟ إنهم مختلفون، كما أن هرقل ذاته لم يحصل على مثل هذا القدر من التقدير في حياته، وحتى بعد أن مات في واقع الأمر، وذلك إلى أن طلب الضالع في دلفي إعطائه هذا التكریم بالتحديد. أترغب في أن تكون في صف واحد مع هؤلاء الملوك البرابرة؟ فكّر في ما حدث لهم. هُزم قمييز على يد الإثيوبيين، وهُزم داريوس على يد اللسكاثيين، وهُزم آرسييس على يد اليونانيين، وهُزم أرتخششتا على يد جنود زينوفون العشرة آلاف، وهو الأمر الذي تعرفه جيداً. هُزم كل أولئك الملوك على أيدي رجال أحرار. نحن الآن فوق أرضٍ غريبة، وإلى حد ما ينبغي لنا أن نفكر مثل هؤلاء الأجانب، لكنني أتوسل إليك ألا تنسى اليونان! أريدك أن تتذكر تعاليم أرسطو. وكيف يُمكن للمقدونيين أن يعاملوا ملكهم وكأنه أحد الأسياد، وكيف يُمكن لليونانيين أن يعاملوا زعيم تحالفهم وكأنه أحد الأسياد؟ يتلقى الإنسان مصافحة وقبلة، أما الأسياد فتبني لها الهياكل، وتقدم الأضحيات وتعني الترانيم. هناك فرق كبير بين تكريم رجلٍ وتكريم أحد الأسياد. أقول لك إنك تستحق أعظم درجات التكریم من بين كل الرجال، لأنك كنت أكثرهم شجاعة، وأكثرهم كرمًا، والأعظم بينهم، لكنني أتوسل إليك أن ترضى بهذا. أرجوك أن تقبل تقدير الناس لك

بصفتهم رجالاً أحراراً، وألاً تطلب إليهم السجود بين يديك مثل العبيد!".

أحنى الإسكندر رأسه، وهو الذي كان جالساً في تلك اللحظة وسط حشدٍ من الحاضرين. وسمعه الأشخاص القريبون منه وهو يتمتم: "أنت لا تفهمني... ببساطة، أنت لا تفهمني".

كان من بين الذين سمعوه أحد المساعدين الشبان ويُدعى هيرمولوس، وهو شاب كان يقدر كاليستين كثيراً، ولكنه لم يكن يحب الملك. وكان هذا الشاب قد تولّى مهمة قيادة المساعدين لأن سياليينوس، وهو الشاب الذي أنقذ حياة الإسكندر مرة، قد استسلم أمام صعوبات الحياة العسكرية وقساوة المناخ، فسقط مريضاً بحمى شديدة أصابته خلال الحملة ضد اللسكاثيين، ومات بعد مرور أيامٍ عدة. اعتاد هيرمولوس تمضية ما أمكنه من وقت في الاستماع إلى نصائح كاليستين وتعاليمه، وكثيراً ما كان يُهمل القيام بالمهام الموكلة إليه.

أعلن الملك أن كل الذين يشعرون بعدم الرغبة في إبداء مظاهر التكريم عن طريق السجود سيكونون غير ملزمين بأن يفعلوا ذلك، وترك المسألة عند هذا الحدّ، لكن هذا الأمر لم يُقنع كل منتقديه. إذ لم يتقبّل عددٌ كبيرٌ منهم فكرة السجود مثل الآسيويين الذين اعتادوا هذا الأمر تماماً. ولهذا السبب، استمر المنتقدون في وصفه من وراء ظهره بأنه طاغية متحجر أعمته السلطة وأسكره الحظ الحسن.

ولسوء الحظ، لم تتوقف حالة السخط هذه، ولم يتوقف بعض الجنود عن التشكي والتذمر، بل تمّ وضع خطة جديدة تهدف إلى قتل الملك. وقع الاختيار هذه المرة على الجنود الشبان المكلفين بالاهتمام به، أي على المساعدين الذين كانت مهمتهم مراقبة الإسكندر في أثناء نومه.

تعود بذور هذه المؤامرة الفظيعة والمؤلمة إلى ما بعد عودة الجيش إلى باكترا، في أثناء إحدى مناسبات الاسترخاء والسرور. حينها، كان هيرمولوس يسير على صهوة حصانه إلى جانب الملك عندما ظهر فجأة حيوان برّي من تحت إحدى الأجمات هارباً من ملاحقة بيريتاس وكلاب أخرى خلال رحلة صيد الحيوانات البرية. عندها، تنحى الإسكندر جانباً وصوّب عليه رمحه، ولكن إثارة المطاردة سيطرت على هيرمولوس الذي كان تواقفاً إلى تسجيل نجاح ما لنفسه، فرمى رمحه أولاً وقتل الحيوان، وهكذا تجاهل حقّ الملك في الأسبقية في هذا المجال. كانت تلك إهانةً فظيعة، وعلامة على التغطرس والاستهانة التامة بتقاليد البلاط وبروتوكوله. وامتلك الملك وحده صلاحية إنزال العقوبات البدنية بهذا المساعد، أو في تقرير من يمكنه إنزال العقوبة البدنية به. واستخدم الإسكندر امتياز هذا، فأمر أن يقيد الولد ويُضرب بالعصي.

كانت تلك عقوبة قاسية بالفعل، ولكنها كانت عادية بالنسبة إلى البلاط المقدوني. ولقد سبق أن عانى كل رفاق الإسكندر في طفولتهم من العقاب بهذه الطريقة، ولا يزال ليوناتوس يحمل آثار العقاب على ظهره، كما أن هيفاستيون ولاسيماخوس دفعا بدورهما ثمن عدم الانضباط، وذلك بناءً على أوامر من الملك فيليب، أو ليونيداس، أو أوامر مدرب القتال بالأسلحة. اعتبر الأشخاص الذين دوّنوا هذه القوانين أنها نوع من أنواع التدريب على تحمّل الألم، وأرادوها أن تكون طريقة تلزم الصغار بالاعتياد على الطاعة، وطريقة تساعد على تقوية الجسد والروح في وجه الصعوبات. وكان الأولاد يُجلدون في إسبارطة من دون داعٍ لذلك أو من دون غاية محددة، ليكون ذلك نوعاً من أنواع التثقيف، ولتعليمهم أهمية الشجاعة والتضحية، وكتمرين على قدرة تحمّل الألم.

وبالرغم مما تقدم، اعتبر هيرمولوس نفسه ضحية لإذلال علي، وقاس، وغير منصف. ومنذ ذلك اليوم، أخفى ذلك الشاب حقداً عميقاً تجاه الملك، حتى إنه أعد خطة لقتله. أراد أن يتحرك بمفرده، ولكنه احتاج إلى مساعدة من قبل أحدهم من أجل ترتيب طريق فراره. تحمّس الشاب عندما سمع أفكار كاليستين عن الحرية، لكنه عجز عن إدراك أنه ليس مواطناً أثينياً مولجاً بحماية ديمقراطية مدينته ضد أحد الطغاة، بل إنه في واقع الأمر مساعد مقدوني مكلف بخدمة الملك الذي يتواجد في بلاد شديدة البعد عن الوطن، وتحيق به شتى أنواع المخاطر. كذلك عجز عن إدراك أن كاليستين هو الآخر كان يعتمد على الإسكندر، وأن ذلك المؤرخ يتلقى الطعام والملابس والأغطية من الملك، وهي كلها تتكفل بمعيشته، وتُبقية دافئاً في الليالي الباردة في هذه الهضبة.

تحدث هيرمولوس عن الموضوع مثل أي شاب متهور إلى صديق له يُدعى إيمينيديس، والذي تحدث بالأمر على الفور إلى صديق له يدعى شاريكليس، وهو شاب كان يثق به بشكلٍ أعمى. وتحدث هذا الأخير بدوره إلى شقيق إيمينيديس، ويدعى يوريلوخوس. شعر يوريلوخوس برعب شديد، فسعى إلى ثنيهما عن عزمهما بكل الطرائق الممكنة.

فسألهم في أحد الأيام عندما كانوا مجتمعين في خيمة: "هل جنتما؟ لا يمكنكما أن تفعلوا هذا".

أجاب هيرمولوس: "بالطبع نستطيع، وسنسدي جميلاً إلى العالم عندما نحرّره من طاغية مقيت".

هزّ يوريلوخوس رأسه: "كانت غلطتك أنت، لأنك تعلم تماماً أن الرمية الأولى امتيازٌ للملك!".

"كاد يسقط عن حصانه، فكيف كان سيتمكن من الرمي؟".

"لم يسبق للإسكندر أن سقط عن حصانه أيها الغبي، وعلى كل حال كيف تتصور أن تنفذ خطتك؟ أنت تعرف أنه ليس من السهل أبداً قتل ملك".

"آه، بل إن ذلك أمر يسير. فكّر في كيفية موت الملك فيليب، وهو الذي كان أفضل بكثير من هذا الملك. إذ لم يكتشف أحد من كان القاتل".

"لكننا بمفردنا هنا، كما أننا محاطون بالبرابرة وبالصحراء. سيأتون للبحث عنا على الفور. يُضاف إلى ذلك - هذا إذا كنت تريد أن تعرف حقاً - أنني مضطر إلى أن أقول لك إن هناك شائعات تسري بين أوساط الجنود وتدور حول كاليستين، وهي شائعات تجعلكما المشتبه فيهما. فلقد سمعك أحدهم وأنت تسأله عما يستطيع المرء أن يفعله كي يصبح أشهر رجل في العالم، ويبدو أنه أجابك على النحو التالي: من حسن حظك أن كلماتك هذه لم تصل إلى مسامع الملك. ولكن لا يمكنك استفزاز القدر من دون عقوبة". ثم التفت إلى إييمينيديس وأضاف: "وبالنسبة إليك، فهذا يكفي تماماً. أنا شقيقك الأكبر، ولهذا أمرك بأن تنسى أمر هذين البائسين. أما أنتما، فإنكما ستنسيان الأمر برمته لو كنتما تعرفان صالحكما. تصرفوا بشكل محترم، فلعل الشائعات تتلاشى من تلقاء نفسها".

هزّ هيرمولوس كتفيه قائلاً: "سأتصرف كما أريد. وإذا لم تكن لديك النية لمساعدتي، فلا تهتم بذلك لأن لديّ أصدقاء آخرين. سيكون الأمر بسهولة تماثل هذه". وبصق على الأرض قبل أن يدير ظهره ويسير مبتعداً.

انتظر المتآمرون الشبان أن يخرج الإسكندر ورجاله في عملية ضد مجموعة من المتمردين ليبدو موته وكأنه من عمل عدوٍّ تمكن من التسلل

إلى المعسكر بطريقة ما. وشرعوا بعد ذلك في مناقشة تاريخ التنفيذ وتوقيته.

\*

عانقت روكسانا الملك بشدة عندما غادر القصر في باكترا، وقالت له: "لا تذهب!".

فرد الإسكندر: "إنك تحرزين تقدماً كبيراً بلغتك اليونانية. ولكن، عندما تتقنيها سأعلمك اللهجة المقدونية كذلك".

كرّرت روكسانا بصوت يوحى بالقلق: "لا تذهب!".

طبع الإسكندر قبلةً على خدها: "لكن، ما الذي يعني من الذهاب؟".

حدّقت إلى عينيه، وقالت والدموع تفيض من عينيها: "منذ يومين

وأنا أرى... الظلام".

هزّ الملك رأسه، وكأنه يريد أن يطرد فكرةً مقلقةً من رأسه. وبعد

ذلك، أسرع مساعده إلى تثبيت درعه، ورافقه إلى باحة القصر حيث ينتظره فرسانه وهم على أهبة الاستعداد للانطلاق.

مضى يومان قبل أن يتكلم الملك مع أريستاندر بسبب قلقه ممّا

أخبرته إياه روكسانا. سأله: "برأيك ماذا يعني ذلك؟".

"لدى نساء هذه البلاد القدرة على التوقع، وهن قادرات على

الإحساس بالخطر عندما يكون بعيداً عنهن، يضاف إلى ذلك أن روكسانا تحبك".

"وما الذي يجدر بي القيام به؟".

"لا تنم هذه الليلة. اقرأ واشرب، ولكن كن منتبهاً. يتعيّن عليك

أن تبقى مستيقظاً".

ردّ الإسكندر: "وهذا ما سيحصل". وانتظر الملك بعد ذلك

حلول الظلام.



لاحظ بطليموس أن مشعلاً لا يزال مشتعلًا في خيمة الإسكندر، فتوجه نحوها ودخلها. ألقى التحية عليه مساعدان شابان كانا في الخدمة في تلك الليلة.

سأل بطليموس: "لماذا لا تزال مستيقظًا؟ إنها نوبة الحراسة الثانية".

"لا أشعر بالرغبة في النوم، لذلك كنت أقرأ".

ألقى بطليموس نظرة على الكتاب، وقال: "الهند للكاتب

ستيسياس. لا تستطيع الانتظار، أليس كذلك؟".

"كلا. عندما نحتل الهند نستطيع أن نقول إن آسيا بأكملها قد

أصبحت في قبضتنا. بعد ذلك، سنعود كي نبدأ في تغيير العالم يا بطليموس".

"أعتقد فعلاً أن العالم قابل للتغيير؟ أعتقد أننا نستطيع النجاح في

مهمة كهذه؟".

أبعد الإسكندر نظره عن لفافة البردى التي كان يمسكها مفتوحة

أمامه: "أجل، أظن ذلك. أنسيت تلك الأمسية في هيكل ديونيسيوس

في مبيزا؟".

"إنني أتذكرها. كنا صغاراً ومليئين بالحماسة، والآمال،

والأحلام...".

"تمكّن هؤلاء الصغار من قهر أكبر إمبراطورية في العالم، وهي التي

تشكل ثلثي مساحة الأرض، كما أسسوا مدناً عدة ذات ثقافات

إغريقية، وديساتير إغريقية، في قلب آسيا. أتظن أن كل ذلك قد حدث

بمحض الصدفة؟ أعتقد أن كل ذلك يخلو من دلالة معيَّنة أو من غاية معيَّنة؟".

"أحب أن أعتقد أن ذلك صحيح. يمكنك الاعتماد على صداقتي في كل الأحوال، وعلى ولائي لك. يمكنك أن تثق بأنني لن أتخلى عنك. أما بالنسبة إلى الآخرين، فإن هناك لحظات تمر بي وأحтар فيها في ما أفكر فيه...".

دخل هيرمولوس في تلك اللحظة، فزجر بيريتاس. عندها، التفت بطليموس نحوه وسأله: "هل دورك بالحراسة في هذه الليلة؟".

أجاب الفتى: "أجل يا سيدي".

"إذاً، لماذا كنتَ في الخارج؟".

"لم يكن الملك نائماً، ولم أرد إزعاجه".

قال الإسكندر: "أنت لا تزعجني. يمكنك أن تبقى إذا أردت".

جلس الفتى في إحدى زوايا الخيمة. نظر بطليموس إليه، ثم نظر إلى الإسكندر، لكنه أحس أن شيئاً ما لا يجري على ما يرام، وخيم عليه شعور مبهم من التوتر، ومن طاقة ما مكتومة.

"إنه الفتى الذي عاقبته في ذلك اليوم بعد جولة الصيد".

سأل بطليموس المساعد بعد أن رأى ملامح شريرة على وجه الفتى: "أما زلتَ ممتعضاً أيها الفتى؟ أتعلم؟ لا يجدر بك أن تمتعض. أتعلم كم مرة تعرضتُ فيها للضرب عندما كنت في مثل سنك؟ ركلي الملك فيليب ذاته على ظهري، كما أنه أمر بجُلدي بالسياط ذات مرة عندما أعطبت أحد جياده، لكنني لم أسمح لنفسني بالحنق، لأنه كان رجلاً عظيماً، ولقد فعل ذلك لصالحي".

قال الإسكندر: "تغيّر الزمن. إن هؤلاء الفتيان ليسوا كما كنا. إهم... مختلفون، أو ربما نحن الذين تغيّرنا، أو لعلنا كبرنا في السن.

إنني في الثلاثين من عمري... أتصدق ذلك؟".

"إذا كنت تريد التحدث عن العمر، فإنني تجاوزت هذا الحد منذ سنوات. حسناً، سأواصل جولاتي التفتيشية. أيمكنني أخذ الكلب معي؟ إنه رفيق جيد". لَوْح بيريتاس بذيله في هذه اللحظة.

"خذه. إن وزنه يزداد، لذلك فإن بعض التمرين سيفيده كثيراً".

"إذاً، سأخرج. نادني إذا احتجت إليّ في شيء".

أوما الإسكندر، وعاد إلى قراءاته، وكان يتناول بين الحين والحين رشفةً من كوب شرابه الذي وضعه على طاولته. فيما جلس هيرمولوس قبالة بصمته بصمت، مطبقاً فكيه بشدة، وخافضاً بصره. وبين الحين والآخر، كان الملك يبعد نظره عن لفافة البردى لينظر إلى ملامح وجه مندهشة. قال له: "أنت تكرهني، أليس كذلك؟ أنت تكرهني، لأنني أمرت بضربك".

"هذا ليس صحيحاً يا مولاي. أنا...". كان كذبه واضحاً، وهذا ما أفنع الملك بأنه ولد شرير، لأنه لم يمتلك الجرأة لإظهار كراهيته أو للتخلي عنها.

"انس الأمر. لا أهمية لذلك أبداً".

مرّت الليلة بأكملها تقريباً على هذا المنوال، ولذلك كانت ليلة باردة، وفارغة، وبلا فائدة. أوشكت فترة الحراسة على الانتهاء، واستعد الفجر لإطلاق خيوطه الأولى. كان هيرمولوس معذباً بشكوكه، واستمر في النظر إلى الملك الذي أحنى رأسه، وبدا وكأنه على وشك الاستسلام للنوم.

بقي يوريلوخوس مستيقظاً طوال الليلة لأنه أدرك أن المساعدين الثلاثة المكلفين بالحراسة كانوا يتآمرون، ولذلك كان واثقاً من أنهم سيقروون تنفيذ الخطة، وازداد تأكده هذا لأن القائد بطليموس اعتاد

أخذ بيريتاس معه عندما يأتي دوره في تفتيش الحراس. لاحظ أن المشعل في الخيمة الملكية بقي مشتعلًا، وأن الملك لم يخلد إلى النوم، بالرغم من عدم وجود خطرٍ داهم بأن يشن الأعداء هجومًا مباغتًا، فاستنتج أن أمرًا رهيبًا على وشك الحدوث. أَيْحتمل أن يكون الإسكندر قد اكتشف خطتهم. أو هل يُحتمل أن يكون هيرمولاوس والآخرون على وشك أن يضربوا ضربتهم. أَيْمكن أن تكون الكلمات وحدها كافية لإنقاذ هؤلاء؟ رأى بطليموس آتياً بعد أن انتهى من جولته التفتيشية فقرر أن يتكلم معه. "سيدي...".

"ما الأمر أيها الفتى؟".

"أنا... يتعين عليّ أن أتحدث إليك".

"إنني أصغي إليك".

"ليس هنا في هذا المكان".

"إذا، سنتحدث في خيمتي". وقاده إلى خيمته ومشى قبله. "إذا؟

لماذا كل هذه السرية؟".

بدأ يوريلوخوس كلامه: "اسمع يا سيدي. إن شقيقي إيمينيديس، وهيرمولاوس، وشباناً آخرين... كيف أقولها؟... تسيطر عليهم أفكارٌ غريبة... تعرف أن هيرمولاوس وشقيقي وبعض أصدقائهما يرافقون كاليستين في بعض الأحيان، ولقد ملأ رؤوسهم بكل أنواع الكلام التافه حول الديمقراطية والطغيان، وهكذا...".

سأل بطليموس مقوساً حاجبيه: "إذا؟".

تابع يوريلوخوس كلامه من دون أن يستطيع كبح جماح دموعه: "إنهم مجرد أولاد يا سيدي. يُحتمل أنهم عدلوا عن تفكيرهم هذه المرة، ويُحتمل أن الملك يشكّ في شيء ما... لا أعلم... قررت أن أتكلم معك علك تخيفهم قليلاً، حيث يقومون بنزع كل هذه الأفكار الغبية

من رؤوسهم. يقع الحق بكامله على كاليستين، ألا ترى ذلك؟ لأنهم ما كانوا ليفكروا في كل هذه الأمور لولاه، وحتى لو كان الملك قد ضرب هيرمولاوس بسبب قضية الحيوان البري، فأنا لست متأكداً بأنه سيقدم بالفعل... لكن من يعلم...".

صاح بطليموس: "بحق زيوس! بيريتاس! اركض! اركض إلى الإسكندر!". انطلق الكلب راكضاً بأسرع ما تقدر عليه قوائمه، واندفع إلى الخيمة في اللحظة ذاتها التي كان فيها سيده يضع رأسه على الطاولة من شدة النعاس. وكانت يد هيرمولاوس تتحرك بخفة نحو حزامه، ومن تحت سترته، فهاجمه بيريتاس، وأوقعه أرضاً وعضّه في يده التي حملت الخنجر.

دخل بطليموس بسرعة، فتمكن من الإمساك بالكلب قبل أن يعمل أنيابه في يد الفتى. استيقظ الإسكندر من غفوته فجأة بسبب كل ذلك الضجيج ونهض على قدميه، ثم استل سيفه.

جهد بطليموس لالتقاط أنفاسه في أثناء تجريده هيرمولاوس من سلاحه، وقال: "شرعوا بقتلك".

تلوى الفتى، وراح يركل بقدميه صارخاً: "أيها الطاغية الملعون! أيها الوحش المتعطش إلى الدماء! إن يديك ملطختان بالدماء! لقد قتلت بارمينيون وفيلوتاس. أنت قاتل!".

حاول الحارسان الموجودان خارج الخيمة الفرار، لكن بطليموس نادى حامل البوق وأمره باستدعاء حاملي الدروع، وهكذا أوقف الحارسان المساعدان فور شروعهما بالهرب. كان يوريلوخوس لا يزال ييكي عند وصوله راكضاً، وراح يتوسل إليهم قائلاً: "لا تؤذوهم يا سيدي! لا تؤذوهم لأنهم لن يفعلوا أي شيء آخر. أعدك بذلك. سلمهم إليّ وسأتولى إنزال العقوبة بهم. سأشبعهم ضرباً، لكن لا تُنزلوا الأذى بهم. أتوسل إليك!".

هُض الإسكندر، وكان شاحب اللون من شدّة الغضب، بينما استمر هيرمولاوس في صراخه مطلقاً كل أنواع الشتائم والإهانات وسط المعسكر الذي أصبح يعجّ بالجنود الراكضين من كل صوب. سأل بطليموس مستخدماً الصيغة الرسمية: "ما هو العقاب العادل الذي يستحقه هؤلاء الرجال يا مولاي".

أجاب الإسكندر قبل أن يتوجه إلى خيمته للاستراحة: "دع الجيش يقرّر مصيرهم".

اجتمع القضاة العسكريون على الفور، وخضع المساعدون للمحاكمة التي استمرت طوال اليوم وخلال الليلة التالية، وطلب إلى كل واحد منهم تأكيد قصة الآخر، وهو الأمر الذي أدى إلى حصول تناقض بين القصص، فضربوا وجلدوا بالسياط إلى أن اعترفوا جميعاً. لم يذكر أحد اسم كاليستين، وحتى تحت التعذيب، لكن يوريلوخوس، وهو الذي لقي العفو لأنه أنقذ حياة الملك، استمر في القول إن هؤلاء الفتيان ما كانوا ليقدموا على التفكير في وضع خطة كهذه لو لم يملأ كاليستين رؤوسهم بهذه الأفكار. وتابع التوسل حتى النهاية كي يُعفى عنهم، لكن جهوده ضاعت سدى.

وعند طلوع الفجر، رُجم المتآمرون جميعاً حتى الموت، وترافق ذلك مع هطول مطر خفيف.

شهد إيومينيس المحاكمة والإعدام، وتوجّه بعد ذلك إلى خيمة كاليستين فوجده فيها مرتعشاً وشاحباً مثل جثة، بينما كانت يدها ترتجفان بتوتر حزين.

قال له: "ذكر اسمك في أثناء المحاكمة".

أثار كاليستين على كرسي وهو يصدر تنهيدة عميقة: "إذاً، إنها النهاية، أليس كذلك؟".

لم يُجب إيومينيس.

صاح كاليستين: "إنها نهايتي، أليس كذلك؟".

"اكتسبت أشباحك هيئة جسدية يا كاليستين، وسكنت جثث أولئك الفتيان الذين يرقدون الآن تحت كومة من الأحجار. إن رجلاً مثلك... ألم تُدرك أن الكلمات، مثل السيف، تقتل بالسهولة ذاتها؟".

صاح كاليستين وسط نسيجه: "هل سيعذبونني؟ أنا لا أحتمل ذلك. يمكنهم أن يحملوني على قول أي شيء يريدونه!".

أحسنى إيومينيس رأسه حرجاً: "أنا آسف. أردت فقط أن أخبرك أنهم سيأتون ليأخذوك بعد وقت قصير، لذلك، ليس أمامك الكثير من الوقت". وغادر بعد ذلك تحت المطر المنهمر.

نظر كاليستين حوله بياس تام باحثاً عن سلاح، أو نصلٍ ما. ولكن كان كل ما رآه لفافات ورق البردي المتراكمة في كل مكان. رأى الكتاب الذي دوّنه تاريخ حملة الإسكندر، وتذكّر فجأة شيئاً كان يتعین عليه أن يتخلص منه منذ زمنٍ طويل، لكنه احتفظ به لسببٍ ما. توجه إلى صندوق، وراح يبحث في محتوياته بينما تقطعت أنفاسه نتيجة الخوف والقلق. أخيراً حمل ذلك الشيء بين يديه، وكان عبارةً عن علبة معدنية. فتحتها فوجد داخلها قارورة زجاجية تحتوي على مسحوق أبيض وملفوفة بقطعة قماش، كما وجد ورقة صغيرة من أوراق البردي كتب عليها!

لا يستطيع أي شخص أن يتحكّم في سيطرة الأمراض عليه، لكن هذا الدواء يسبب الأعراض ذاتها.

يسبب مقدار عُشر واحد من جزيء حدوث حمى عالية، وقيء، وإسهال لمدة يومين أو ثلاثة أيام. ويظهر تحسن بعد ذلك، حيث يسدو الأمر وكان المريض يتعافى. ولكن، في اليوم الرابع ترتفع درجة الحرارة مرةً أخرى، ولا يلبث المريض أن يموت.

أحرق كاليستين ورقة البردى، ثم ابتلع كامل محتويات القارورة.  
ووجدته الحراس الذين أتوا لأخذه منهاراً بين لفافات أوراق تاريخه،  
وعيناه مفتوحتان وملئتان بالرعب، وتحققان إلى الفراغ.



ظهر شاطئ فوسيس بوضوح الآن من بين الضباب المسائي، ومن بين الغيوم التي تلبدت في كبد السماء، ومن بين أمواج البحر الملتهبة التي تلونت بألوان أشعة الشمس الغاربة. تابع المركب إبحاره مستفيداً من الرياح التي تهب من خليج آيچنا. تحرك أرسطو نحو مقدمة المركب كي يشاهد المناورات التي تسبق عملية الرسو، وما لبث بعد وقت قصير أن نزل في مرفأ سيرا الصغير، حيث انشغل عمال المرفأ وبائعو الأشياء المبجلة في أعمالهم.

سأله أحدهم: "أتريد خروفاً للتضحية؟ يكلفك هنا نصف الثمن الذي يطلبونه منك في دلفي. انظر إلى هذا الخروف الصغير. إنه لا يكلفك أكثر من أربعة أوبولات. إذاً أترغب في ابتياع زوج من الحمام؟".

ردّ الفيلسوف: "أحتاج إلى حمار".

قال التاجر بسرعة: "أتريد حماراً؟ أنت تمزح من دون شك... من هو الشخص الذي يُقدم على التضحية بحمار في...".  
"لا أنوي التضحية به، لكن أريد أن أمتطيه".

"آه! هذا أمر مختلف. إذاً، تعالَ إلى هذه الناحية، فلديّ صديق قدم متخصص بالحميز، وهو يمتلك أفضل الحيوانات التي يُمكنك إيجادها". أدرك التاجر عند هذا الحدّ أن الرجل الواقف أمامه هو أحد المثقفين، ورجلٌ يُتقن كتابة الرسائل، وليس ذا خبرة كبيرة في أمور الفروسية.

تفاوض أرسطو مع البائع على ثمن استئجار الحمار لمدة ثلاثة أيام، هذا بالإضافة إلى دفع تأمين يُسترجع بعد إعادة الحيوان. انطلق أرسطو في رحلته نحو هيكل أبولو من دون أي مرافقة. بدأ الوقت يتأخر في هذا الحين، كما أن الزائرين يفضلون عادة زيارة الهيكل بعد المرور بغابة الزيتون الفضية اللامعة في أوقات الصباح، أي في ضوء النهار، بدلاً من التنقل في الظلام الذي يحول هذه الجذوع الموغلة في القدم إلى أشكال مخيفة تهدد الناظر إليها. أتاحت طريقة سير الحمار الهادئة للفيلسوف المجال كي يفكر قليلاً، بينما كانت أشعة الشمس الغاربة تدفئ أطرافه الباردة بعض الشيء نتيجة هبوب رياح المساء، والتي لا بد من أنها حملت معها الثلوج الأولى التي غطت جبل سيثيرون.

فكّر في تلك السنوات العديدة التي خصّصها للتحقيق في مقتل الملك فيليب محاولاً الوصول إلى الحقيقة المستعصية عن الانكشاف.

لم تكن الأخبار الواردة من آسيا مشجعة منذ بعض الوقت. فلقد بدا أن الإسكندر قد نسي ما تعلمه، على الأقل في ما يتعلق بالسياسة. وضع الملك البرابرة على قدم المساواة مع اليونانيين، وارتدى أزياء طاغية فارسي، وطلب من زائريه السجود بين يديه، كما أن والدته أولمبيا عمدت إلى نشر أخبار أصله، وصلته بزيوس.

يا لفيليب المسكين! لكن قيل قديماً إن قدر كل العظماء أن يولدوا بطريقة غير شرعية لآباء من الأسياد: هرقل، كاستور، وبولوكس، وآخيل، وثيسوس... والإسكندر لا يمكن أن يكون استثناءً لهذه القاعدة، والحق يُقال إنه لا يُمكن للمرء إلا أن يتوقع هذا. شعر بأنه مشتاق إلى الإسكندر، بالرغم من كل هذه الأفكار، وأنه مستعد لدفع أيّ مبلغٍ مقابل رؤيته مجدداً. وراح يتساءل كيف يبدو بعد كل هذه السنين، وما إذا كان لا يزال محتفظاً بطريقته الفريدة في إمالة رأسه نحو

كتفه اليمنى عندما يكون مصعباً إلى أحدهم، أو عندما يقول شيئاً يمسّ شغاف روحه.

ماذا بشأن كاليستين؟ إنه يتمتع بقدرات كبيرة في الكتابة من دون شك، ويفتقد قليلاً إلى روح النقد، لكن مستوى حكمته منخفضٌ بالتأكيد. راح يتساءل كيف يتدبر كاليستين أموره في تلك الظروف الصعبة هناك في الأماكن الوعرة، وبين أناسٍ قساة القلوب، ووسط دسائس ذلك البلاط المتنقل، والذي أصبح غير ثابت الآن، وأكثر خطورة. لم يتلقَ منه أخباراً منذ أشهر عدة. لكن، ربما يعود ذلك إلى صعوبة خطوط المواصلات عبر تلك المناطق الشاسعة والمؤلفة من صحارٍ ومرتفعات، وأهوارٍ سريعة الجريان، وسلاسل جبال، وكلها عوامل تصعب التواصل بينهما.

أسرع الفيلسوف بحماره قليلاً بعدما نخسه بكعبي قدميه على جانبيه، وذلك لأنه يريد الوصول إلى القمة قبل حلول الظلام. لا بد من أن قاتل فيليب، كائناً من كان، ذو عقل شيطانيّ حيث لم يستطع هو أو المحققون الآخرون، كشفه حتى تلك اللحظة. أشارت الدلائل الأولى إلى الملكة أولمبيا، لكنها أثبتت أنها متهمة مستبعدة، لكن لماذا أقدمت زوجة فيليب على وضع التاج فوق رأس جثة القاتل؟ أدرك أنه بقي عدد كبير من أصدقاء الملك الذين لديهم القدرة على جعلها تدفع غالباً ثمن هذا الاغتيال، وخاصة لأنها أجنبية، أي أنها ضعيفة ومعرضة للاهتام بشكلٍ مضاعف في هذه الظروف. راح يستعرض فرضية أن الجريمة قد حدثت بدافع العاطفة، وهي قصة قدرة، وتوحي بأن بوزانياس القاتل قد انتقم من فيليب كي يثأر مما عاناه على يد آتالوس، والد يوريديس الشابة، وآخر أعمامه. لكن آتالوس مات الآن، والأموات لا يتكلمون.

رافقت أصوات حوافر الحمار على الطريق الحجرية تأملات  
الفيلسوف التي سارت على إيقاع هادئ. وخطرت في ذهنه المقابلة التي  
أجراها مع خطيبة بوزانياس في منطقة المقابر في أحد مساءات الشتاء  
الباردة. وفكّر كذلك في الفرضية الثالثة: ما إن وضعت يوريديس،  
عروس فيليب الشابة مولودها الذكر حتى خطر في بال آتالوس، والد  
العروس وجدّ المولود، وضع خطة جريئة تقضي بقتل فيليب وإعلان  
نفسه وصياً على العرش باسم حفيده، وهو الحفيد الذي سيتولى العرش  
عندما يكبر. كانت إمكانية نجاح هذه الخطة كبيرة لأن والدة الطفل  
كانت مقدونية، بعكس أولمبيا التي كانت غريبة عن البلاد. كانت  
هذه الخطة ستحظى بخاتمة مثالية مع قتل بوزانياس، الشاهد الوحيد على  
هذه المؤامرة. لم يتوافر أي برهان على هذه النظرية لأن آتالوس لم يبذل  
أي محاولة للاستيلاء على السلطة بعد مقتل فيليب، ولم يزحف على  
بيلا بالجيش الذي كان يقوده في آسيا في ذلك الوقت. أليحتمل أنه كان  
خائفاً من بارمينيون؟ أم من الإسكندر؟

على كل حال، كيف يُمكن للمرء أن يفسّر كلمات خطيبة  
بوزانياس؟ كانت هذه الفتاة على علمٍ بأشياء كثيرة، وبدا أنها تعتقد أن  
فرضية الاعتداء على حبيبها من قبل مساعدي رحلة صيد آتالوس  
فرضيةٌ تضعف كثيراً إذا لو كان هو القاتل. بحث أرسطو عن الفتاة  
مجدداً، لكن قيل له إنها اختفت في وقتٍ سابق، وإنه لم ترد منها أي  
أخبار.

بقي لديه احتمالٌ أخير متمثل في الدلائل التي تشير إلى معبد  
دلفي، حيث أصدر الضالع هناك توقعاً غامضاً في الظاهر، لكنه دقيق  
جداً ويرتبط بموت فيليب الوشيك. علم أرسطو أن هناك رجلاً يعيش  
في مكانٍ غير بعيد عن هذا المكان، لكنه يتخذ لنفسه اسماً مزيفاً. إنه

الرجل الذي قتل بوزانياس، وهو الشاهد الوحيد الذي قد يرشده إلى الشخص الذي أمر باغتيال فيليب.

نظر الفيلسوف خلفه، فلاحظ أن ضوء الشمس الآخذ في التلاشي قد صبغ مياه الخليج باللون الأرجواني، فبدا مثل مرآة محصورة بين رأسين بارزين. بدت إلى يساره في الأعلى الطريق التي تؤدي إلى معبد أبولو القدم والعظيم، وهو المعبد الذي ظهر مضاءً في هذا الوقت بفعل المشاعل. في هذه الأثناء، احترقت جدار سكينه المساء أنغام الأغنية الإيقاعية التالية:

أيها السيد، يا من تحمل قوسك الفضي، يا فوبس المتألق،  
الذي يجلب النور إلى بلاد إيليسيوم،  
وإلى الجزر التي ضاعت  
في مياه أفيانوس المتلاطمة،  
عُد. عُد الآن. آه أيها السيد! اجلب لنا  
الفجر في الغد،  
وابتسامك المشرقة بعد الليلة الحالكة،  
والدة الكوايس، وابنة الفوضى.

في هذا الوقت، وصل أرسطو إلى مقصده، فربط الحمار بحلقة معدنية قرب بركة المياه، ثم سار مشياً على قدميه فوق الأرض المبلجة، ومرّ من خلال المعابد الصغيرة المخصّصة لتقدم النذور، والمؤلفة من المعابد الأثينية والسفنيانية، ومعبدَي طيبة وإسارطة. كانت كل هذه المعابد مليئة بنذور الانتصارات التي تم كسبها عن طريق سفك دماء الأخوة. فلقد سفك اليونانيون دماء اليونانيين. شعر الفيلسوف عندما نظر إلى هذه النذور بما كان الإسكندر سيقوله عنها لو تمكّن من تبادل الأحاديث في ما بينهما في تلك اللحظة بالذات.

كان أواخر الزائر ينغادرون، وكان القِيم على وشك إغلاق أبواب المعبد الذي أصبح مهجوراً في هذا الوقت.

فطلب إليه أرسطو أن ينتظر، ثم أضاف: "جئت إلى هنا من مكان بعيد، ويتعين عليّ أن أعادر في الغد. أرجوك، أعطني فترة قصيرة فقط، ودعني أتلو مطالبتي، والتي تتضمن طلباً يائساً بسبب كوني ضحية تعويذة رهيبة، وهي لعنة لاحقتني منذ سنوات عديدة". وضع الفيلسوف قطعة نقدية في يد القِيم.

وضع القِيم القطعة النقدية في محفظته وقال: "حسناً، لكن كن سريعاً". انطلق الفيلسوف فوق الدرج المؤدي إلى منصة المعبد.

دخل أرسطو المعبد، وتوجه إلى داخل المنطقة شبه المظلمة التي تشكل الممر الأيسر، وتحرك بخطوات صغيرة في أثناء تقدمه، ولاحظ آلاف النذور المعلقة على الجدار. أرشده إلهامه، وبقايا ذكرى تعود إلى سنوات عديدة مضت عندما زار المعبد وهو صغير، وكان يمسك بيد والده نيقوماخوس. استرعى انتباهه أحد هذه النذور بالذات. وقادته هذه الذكرى، بالإضافة إلى شكوكه، ليقف تحت هذا السقف المبجل.

وصل إلى نهاية الممر، وعبره إلى الناحية الأخرى تحت أنظار أحد الأسياد الذي كان جالساً فوق عرشه. تابع تفتيشه حتى وصل إلى الجهة الأخرى، ونظر بتركيز إلى الجدار، لكنه لم يجد شيئاً يؤكد ذكرياته التي تلاشت بسبب قدمها. كان الظلام حالكاً، لذلك تناول مشعلاً معلقاً على أحد الأعمدة، ورفعها عالياً نحو الجدار. وسرعان ما شعّ وجهه بأمارات الانتصار. كان على حق! تمكّن من تعرف ذلك الشيء أمامه، مع أنه بهت بفعل مرور الزمن. كان هذا الشيء هو تلك العلامة التي بدت كأثر لشيء عُلق في ذلك المكان لسنوات عديدة.

نظر حوله كي يتأكد أنه ليس هناك أحد يراقبه. رفع بإحدى يديه المشعل، بينما تناول باليد الأخرى ذلك السيف السلتي القصير الذي قتل الملك فيليب في ذلك اليوم في آيجيا. حركه نحو البقعة على الجدار وقربه ببطء، وكأنه خائف من فعل ذلك... لكنهما تطابقا بشكل تام!

كان المسماران لا يزالان في مكانيهما على الجدار، وتناسبا مع شكل منحنيات المقبض الحلزوني. علّق أرسطو السيف في مكانه. تناهى إلى مسمعه صوت القيم من الخارج: "إذا... هل أهيئت ما تقوم به؟".

ردّ الفيلسوف: "أنا آت". وغادر بسرعة، وشكر القيم عند مروره أمامه.

أمضى أرسطو الليل بكامله تحت الرواق المعمد ملتفاً بعباءته مثل بقية الزائرين، لكنه لم ينم إلا قليلاً. راح يفكر في تحالف دلفي! أيعقل هذا؟ أيعقل أن تكون أكثر الهياكل مهابةً في العالم اليوناني هي التي أمرت بقتل الملك فيليب؟ ألا يُحتمل أن تكون العلامة على الجدار مجرد مصادفة غريبة، أم أن أرسطو أراد الوصول بأي ثمن إلى حل لهذا اللغز الذي تحدّى ذكاه لسنوات عديدة. لكن هذه هي النظرية الوحيدة التي استطاع أن يبرهنها، أي أن السلاح الذي قتل الملك قد جاء من المعبد! كان ذلك دليلاً معقولاً في نهاية الأمر. ولكن، هل سمحت أعلى سلطة في اليونان لنفسها بأن تقع تحت هيمنة إرادة رجل واحد بمفرده؟ ألا يظهر ذلك الذكاء الذي يصدر عن مكان مبجل والذي أمر بقتل ملك عظيم في لحظة تسمح باتهام أي شخص كالأثينيين الذين رأوا فيه طاغيةً ومغتصباً لسيادتهم، وما تبقى من سكان طيبة الذين يكرهونه بشدة بسبب المواجهات في شايرونيا، والفرس بسبب خوفهم من إقدامه على غزو آسيا، والملكة أوليمبيا لأنه اختار يورديدس الشابة عروساً له، والأمير إمينتاس الذي حرّمه فيليب من حقه

الشرعي في الحكم؟ ألم يكن الإسكندر ذاته في دائرة الشكوك في نهاية الأمر. كان الجميع في دائرة الشك، وهذا يعني أن أصابع الاتهام لن توجه إلى أحد. كان الدافع هو ذاته الذي يرر أي جريمة: سلطة العقل على الإنسان، والتي هي أقوى وأهم بكثير من أي سلطة أخرى في العالم، وهي أقرب ما تكون إلى سلطة الأسياد.

بقي هناك رابط أخير مع تلك الجريمة؛ الرجل الذي قتل بوزانياس والذي عاش، حسب ما تمكّن أرسطو من الاستنتاج، في مزرعة تعود ملكيتها إلى الهيكل.

كان الظلام لا يزال مخيمًا عندما نهض، فامتطى حماره وانطلق مجدداً. سار نزولاً في الطريق التي تؤدي إلى البحر لمسافة نحو عشرة ستاديات، وما لبث أن سار عبر طريق بغالٍ تتجه يميناً قبل أن يصل إلى سهلٍ صغيرٍ مقسّم إلى جلولٍ مزروعة بكروم العنب.

كان المنزل مائلاً بوضوح خلف العرائش، وإلى جانب شجرة سنديانة معمرة. ظهر مبنى صغير شيدّ سطحه بالأحجار الطينية وأمامه رواقٌ صغيرٍ معمّد؛ أعمدته مصنوعة من خشب أشجار الزيتون.

دخل الباحة حيث كانت مجموعة صغيرة من الحيوانات البرية تجول في المكان وتلتقط ثمار البلوط المبعثرة تحت الشجرة. نادى أرسطو: "أمن أحد هنا؟ أمن أحد هنا؟". لم يسمع جواباً. ترجّل الفيلسوف عن حماره، وطرق على الباب الذي سرعان ما انفتح وسمح للضوء بدخول المنزل.

كان هو بذاته، وكان معلقاً بجبلٍ مربوط بدعائم السقف. تراجع أرسطو إلى الورا من فرط الدهشة، وأسرع إلى حماره، وانطلق به في محاولة منه للابتعاد عن المكان بأسرع ما يمكن.

\*



لم يضيّع وقتاً في الوصول إلى أثينا، ورفض أن يستقبل أحداً لأيامٍ عديدة. مزّق ملاحظاته، وكلّ نسخ الرسائل التي أرسلها إلى ابن أخته والتي تتعلق بهذه القضية. لم يترك في ملف اغتيال فيليب إلا الملاحظات الغامضة والعامّة، ثم بدأ بكتابة خاتمة: "يُحتمل أن تكون الأسباب الحقيقية للاغتيال في تلك القصة الغريبة العلاقات الجنسية بين...".

في نهاية الشهر، طرق أحد المبعوثين بابه، وناولهُ رزمةً ضخمة. فتحها أرسطو ليجد أنها تحتوي على بعض أغراض كاليستين الشخصية وكلّ الرسائل التي كتبها له. ووجد لفاقةً من ورق البردى تحمل ختم بطليموس ابن لاغوس، والحارس الشخصي للملك الإسكندر، وقائد الفرقة المدرعة للجيش المقدوني. ارتعشت يداه عندما فتح الرسالة وبدأ بالقراءة:

من بطليموس إلى أرسطو، تحياتي!

في اليوم الرابع من شهر إلفيوليون، من السنة الثالثة بعد الألبسياد، وُجد ابن شقيقتك كاليستين، المؤرخ الرسمي لحملة الإسكندر، ميتاً في خيمته. شهد فيليب، وهو طبيب الملك، بأن الوفاة كانت نتيجة تناول سمّ قوي. تأمرت مجموعة من المساعدين الفتيان على قتل الملك، وبالرغم من أن أحداً من المتهمين في أثناء المحاكمة لم يذكر كاليستين بالاسم، إلا أن هناك أشخاصاً حملوا ابن شقيقتك نوعاً من أنواع المسؤولية المعنوية عن هذه الخطة الإجرامية. كان من المستغرب بالفعل أن يتخذ هؤلاء الفتيان قراراً بقتل ملكهم من دون أن يُقدم أحدهم على زرع تلك الفكرة في عقولهم. كما أن هناك سبباً للاعتقاد أن ابن شقيقتك كان يسعى من وراء انتحاره إلى تجنّب الشعور بالألم والإذلال لدى مواجهته إدانة الناس له.

يشعر الملك بأنه عاجز عن الكتابة إليك، لأن روحه معذبة بمشاعر كثيرة ومتناقضة، ولذلك قررت أن أكتب بالنيابة عنه.

أعرف أن هذه الأخبار سوف تصلك متأخرة كثيراً لأنه مع شروعي بالكتابة بدأ جيشنا بالتحرك عبر أراضٍ وعرة جداً تمهيداً لاجتياح الهند. ارتأيت كذلك أن أرسل إليك نسخة عن تاريخ حملة الإسكندر وهي التي خطتها يد كاليستين نفسه. مع الأسف، تسبب موت كاليستين في ترك هذا العمل غير تام. وعلى كل حال، فكّرت في أنه من الأفضل أن أرسل إليك أخبار الأحداث التي جرت حتى هذه المرحلة، بالإضافة إلى أهم الأحداث التي جرت حتى الآن خلال حملة اجتياح الهند، وذلك في حال كنتَ تريد إتمام العمل الذي بدأه ابن شقيقتك، وبالطريقة التي تراها مناسبة.

أود كذلك أن أخبرك قصة قد تعتبرها مهمة. عاش معنا رجلٌ في المعسكر لبعض الوقت يحمل اسم بايرو، وهو من إيليس. بدأ الرجل عمله عندما كان رساماً فقيراً ومغموراً، ولحقَ بجملتنا على أمل أن يكسب أموالاً، لكنه التقى خلال هذه السنين في بلاد فارس رجلاً مجوسياً، والتقى بعد ذلك رجالاً حكماء في الهند، وذلك بعد أن أمضى وقتاً طويلاً مع كاليستين. طوّر الرجل من خلال تجاربه هذه طريقة تفكير جديدة، والتي يُمكن بحسب ما فهمت، أن تكتسب شهرة محترمة في أنحاء العالم كافة. أمل أن تصلك رسالتي هذه وأنت بصحة جيدة. انتبه إلى نفسك.

لم يبدأ أرسطو بقراءة تقرير بطليموس إلا في نهاية الشهر، أي مع حلول الطقس البارد. كان التقرير عبارة عن سرد رواية مختصرة لكنها مفيدة، يُمكن أن تشكّل أساساً لمتابعة عمل كاليستين:

انطلق الجيش عبر جبال باروبامسيوس، أو القوقاز الهندية، كما يفضل بعض الناس تسميتها، لكن هذا التحرك كلف تضحيات كبيرة. كان البرد شديداً جداً في الطريق فتسبب في إحدى الليالي بموت بعض الحراس الذين كانوا متكئين على جذوع الأشجار الموجودة في مراكزهم. كانت أعينهم لا تزال تنظر إلى الأمام، بينما تحولت شواربهم ولحاهم إلى قطع من الجليد. أظهر الإسكندر مجدداً إنسانيته العظيمة حين رأى أحد قدامى الجنود وقد خارت قواه، وكان يرتجف من شدة البرد، فأمره بأخذ عرشه الذي كان مصنوعاً من الخشب، ويحرقه كي يُدفن نفسه. وصلنا بعد مسيرة تسعة أيام إلى مدينة نيسا حيث زعم سكانها أن ديونيسيوس قد مرّ فيها في أثناء رحلته إلى الهند. أما البرهان الذي قدّموه على هذا فكان وجود جبل ميرو، وهي الكلمة التي تعني "فخذ" باللغة اليونانية، لأن ديونيسيوس وُلد من إحدى فخذتي زيوس. يُضاف إلى ذلك أنهم يؤكدون أن هذا هو المكان الوحيد في الهند بأكملها حيث تنبت أشجار اللبلاب، وهي الشجرة المججلة عند ذلك السيد. وضع الجميع أغصان اللبلاب على رؤوسهم، وأقاموا مآدب كبيرة، وحفلات مجون وشراب، ورقصوا الكوموس، وصرخوا **البيروي!**

قسّم الجيش هناك إلى فرقتين. زحف هيفاستيون وبيرديكاس إلى أسفل السوادي الذي يحمل مياه السيول التي تفيض من

المرتفعات إلى أن تصبَّ في مكان التقاء الوادي بنهر السند. شيد الجيش جسراً هناك. أما الفرقة الثانية من الجيش، والتي كنتُ جزءاً منها مع الملك ورفاقه، فقد زحفت نحو المجرى الأعلى للسند من أجل احتلال المدن الواقعة في تلك الوديان، مثل مساجا، بازييرا، وأوروس. سقطت جميع هذه المدن بأيدينا بعد هجمات متكررة. أما أكبر هذه المدن فكانت آورنوس، وهي المدينة التي يبلغ محيطها ما يزيد على عشرين ميلاً، وتقع على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ويحميها وادٍ عميق يحيط بها من كل الجوانب.

أمر الملك ببناء خندق وتعلية، حيث تمركزت ذات ليلة في موقع يمكنني من مهاجمة المدينة في إحدى أضعف نقاطها. دافع الهنود عن مدينتهم بشجاعة، لكن المنجنيقات تمكنت في النهاية من فتح ثغرة، فاندفع الجيش من خلالها إلى داخل المدينة. اتحدت فرقنا الجيش، وتمكنتا معاً من احتلال المدينة بعد هجومٍ منسق. عرض الإسكندر على الهنود فرصة الانضمام إلى جيشه بصفتهم مرتزقة، لكنهم فضلوا الفرار على محاربة إخوانهم.

وجدنا في المدن التي احتلها جيشنا عدداً معيناً من الفيلة والحيوانات التي سرَّ الإسكندر كثيراً بامتلاكها. فقد كان حجمها كبيراً بالفعل، أما أنيابها الكبيرة فكانت تبرز من أفواهها. كان باستطاعة تلك الفيلة أن تحمل الخاربين المسلحين على ظهورها، كما أن رجالاً يجلسون فوق رقابها كانوا يقودونها ويحثونها على السير بنخسها بكعوب أقدامهم. تفقد الفيلة إحساسها بالاتجاهات إذا قُتل هؤلاء الرجال في المعركة، ولا تستطيع عندها معرفة الاتجاه الذي يجب أن تقصده.

إن الهنود أناسٌ طوال القامة، وبشرتهم داكنة أكثر من الناس الآخرين باستثناء الإثيوبيين، وهم يُبدون شجاعةً كبيرة في القتال. أمر الملك بإبقاء حامية في آورنوس بعد قهرها، ونصَّب عليها أحد الأمراء الذي كان موالياً لبيسوس قبل أن يميل إلى جهتنا. يُدعى هذا الأمير ساشاجوبتا في لغته، لكن اليونانيين

يدعونه باسم سيسيكوتو. صادر الجيش في أرونوس متين  
وخمسين ألف ثور. تم اختيار أقوى هذه الثيران وأفضلها كي  
تُرسل إلى مقدونيا من أجل حراثة الحقول، وتحسين نسل  
القطعان في بلادنا. أمر الإسكندر بعد ذلك ببناء مراكب كثيرة،  
حتى إنه أمر ببناء سفينتين في كل واحدة منها خمسة وعشرين  
مجدافاً. بدأنا بعد ذلك بالتحرك أسفل نهر السند، والذي كان  
عريضاً جداً حيث يُمكن الإبحار فيه.

وهكذا، وصلنا إلى المكان الذي أنهى فيه بيرديكاس وهيفاستيون  
بناء جسرهما فوق النهر، وهو مكان يقع قرب مدينة تُدعى  
تاكسيلا حيث رحب بنا سكانها بكل مودة. أما ملك تاكسيلا  
الهندي، ويُدعى تاكسيلي، فقد قدّم إلينا خمسة وعشرين فيلاً،  
وثلاثمئة تالنت من الفضة إلى الإسكندر، لكنني لم أر إلا القليل  
من الذهب. ورد في الأساطير أن عمالاً ضخمة في هذه البلاد هي  
التي تقوم بالحفر بحثاً عن الذهب في الجبال، كما تقوم طيور  
العنقاء الجنحة بحراسة هذا الذهب. لم أعثر على دليل قيم يؤكد  
هذا الزعم، ولهذا أعتقد أنه يجب اعتبار هذه الأخبار مجرد  
قصص لا أساس لها.

ومن هناك، توغلنا نحو ضفاف نهر هيداسب - أكبر روافد  
السند - وهو رافد عريض ومياهه سريعة الجريان بسبب مياه  
الأمطار التي تسقط على الجبال. وعلى الضفة الأخرى من هذا  
النهر، كان هناك ملك هندي يدعى بوروس، وهو يمتلك جيشاً  
كبيراً يضم ثلاثين ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف من  
الفرسان، وثلاثمئة مركبة حربية، ومنتى فيل. كان من المستحيل  
عبور النهر لأن بوروس كان يغيّر موقعه في كل مرة كنا نتحرك  
فيها. بعد ذلك، أعطى الإسكندر جنوده أوامر تقضي بالتحرك  
المستمر، وحتى خلال الليل، وهم يصيحون ويحدثون أكبر قدر  
ممكن من الضجيج، حيث يعجز أعداؤنا عن تكوين أي فكرة  
عن خططنا، ويضطر بوروس إلى إقامة معسكره في إحدى  
النقاط كي ينتظرنا فيها.

تركنا فرقة كراتيروس قبالة معسكرهم مع عدد محدد من الجنود، ثم تبعنا الإسكندر نحو أعلى النهر مع فرسانه من جنود الهيتايروي، والرماة المحمولين، والأغريانيين، وجنود المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً. ضربت عاصفة المكان في هذا الوقت، وأرسلت رعداً القاصف الذي يصم الآذان، وبرقها الذي يُعمي الأبصار، وهو الأمر الذي أحبط مساعي الهنود في محاولة المخاطرة على ضفاف نهر هيداسب. كان المعبر صعباً جداً، لكن وجود جزيرة في وسط النهر جعل عبور المياه ممكناً. عبر الرجال النهر بالرغم من أن المياه غمرتهم حتى أكتافهم، بينما غمرت المياه الجياد حتى أرساغها. قرّر الإسكندر في هذه المناسبة امتطاء بوسيفالاس بالرغم من أنه سبق له أن قرر عدم امتطائه بهدف القتال بعد معركة غواجيلا، وذلك لأنه الجواد الوحيد الذي يمكنه حمله من سحق فرسان العدو الذين يمتطون جياداً أصغر، ولكن أكثر سرعة.

سمع بوروس عند الفجر أن الجنود المقدونيين عبروا النهر، فأرسل ابنه علي رأس ألف فارس للقتال ضدنا. سحقناهم بعد هجومهم الأول، كما قُتل الأمير الشاب. وحين أدرك بوروس أن الإسكندر هو الذي عبر نهر هيداسب خلال تلك الليلة العاصفة، أرسل جيشه برمته وراءه. صفّ في البداية عرباته الحربية، وصفّ وراءها القبيلة، كما اصطف المشاة وراء القبيلة، بينما كان الفرسان على الجانبين. أما هو، الذي كان يمتاز ببنية عملاقة، فقد امتطى فيلاً ضخماً. ما إن بدأت المعركة حتى قادها بنفسه، وراح يصيح وهو يدفع مطيته إلى الأمام.

بدأت العربات بالهجوم، لكن الأرض كانت مبللة جداً بمياه الأمطار حيث اضطرت العربات إلى التباطؤ إلى درجة سهّلت على رماتنا المحمولين تعيين أهدافهم، وإصابة سائقي هذه العربات.

أرسل الإسكندر فرسانه كي يهاجموا جناحي العدو عندما مرّ من أمام أول صفّ من العربات، فاشتبك الفرسان وجهاً لوجه مع

الفرسان الهنود الذين قاتلوا بشجاعة عظيمة. في هذا الوقت، أرسل بوروس القبيلة إلى الأمام، أي إلى منطقة الوسط. قتلت هذه الوحوش الضخمة جنودنا، واصطدمت بصفوف الفالانج المتراصة. عندها، أعطى بيرديكاس وهيفاستيون الأوامر لتفريق الصفوف، والسماح للقبيلة بالمرور. فيما نجح لايسيماخوس في هذا الوقت بتجميع آلات الحرب بعد عبوره النهر، وبدأت المنجنقيات بالتصويب على القبيلة. دفننا بعد ذلك الرماة المحمولين للهجوم ضد هذه الوحوش، كما ساعدتهم رماة الرماح الذين أنزلوا بها خسائر كبيرة. أما الرماة من المشاة فقد شاركوا في المعركة، وصوبوا على راكبي القبيلة وأنزلوهم عن ظهورها الواحد تلو الآخر. راحت القبيلة تتصرف بشراسة نتيجة شعورها بالألم والخوف فبدأت ترنح وتركض بتهور حتى بين الجنود الهنود، لكنها لم تعد قادرة على التمييز بين العدو والصديق.

في هذه المرحلة، خرجت القبيلة من المعركة، وأمر بيرديكاس الفالانج برص الصفوف مجدداً، وأرسلهم إلى الهجوم بعد أن أطلق صيحة الحرب التي اعتاد عليها، ثم دفعهم إلى التمرکز في الصف الأمامي. أما في الجهة المقابلة فقد تابع بوروس التحرك إلى الأمام، وقاتل بطاقة تفوق الوصف. كان فيله هائجاً فراح يسحق كل شيء في طريقه، واتسخت قوائمه بالدماء، وامتلات بالخدوش، فيما علقت بقايا أحشاء القتلى من الجنود على قوائمه ووصلت حتى ركبتيه. كان بوروس داخل درعه التي يستحيل اختراقها، وكان يلقي ما بدا وكأنه وابل لا يتوقف من الرماح التي قذفها بقوة تعادل قوة المنجنيق.

استمرت المعركة ثماني ساعات، إلى أن تمكن الإسكندر أخيراً، وهو الذي كان على رأس فرقة الطليعة التي كانت في الجناح الأيمن، وبمساعدة كيونوس الذي كان يقود الجناح الأيسر، من إجبار فرسان العدو على التراجع والتجمع في الوسط. استسلم جميع الهنود في هذا الوقت بعد أن حوصروا تماماً. وجرح

بوروس في كتفه اليمنى، وهي النقطة الوحيدة في جسمه التي لا تحميها دروعه، فبدأ بالترنح.

كان منظر الفيل بعد أن أدرك أن سيده يمر بوقت عصيب منظرًا مؤثراً. فلقد تباطأ الفيل عن السير، ثم ركع، وهكذا سمح لبوروس بالانزلاق ببطء إلى الأرض. حاول الفيل بعد أن رأى سيده ملقى على الأرض أن ينزع الرمح من كتفه، فأبعده راكبو الفيلة حيث تمكن جراحونا من استلام الملك الهندي، وما لبثوا أن سارعوا إلى معالجته.

أراد الإسكندر لقاء بوروس ما إن سمع بأنه قادر على الوقوف، لكنه دُهِش من بنيت الضخمة، وذلك لأن طوله كان يزيد على سبعة أقدام، بينما كانت درعه اللامعة لا تزال ملتصقة بجسمه وكأنها جلد ثان له. أرسل الإسكندر في البداية الملك تاكسيلى، وهو حليف بوروس، بصفته مترجماً، لكن الملك الضخم اعتبره خائناً وحاول أن يقتله. عندها، توجه الإسكندر لمقابلته شخصياً مع مترجم آخر. ألقى عليه التحية باحترام، وأثنى على شجاعته، كما عبّر له عن أسفه لفقدانه اثنين من أبنائه خلال المعركة. سأله في نهاية اللقاء: "كيف تريد أن تُعامل؟".

ردّ بوروس: "أريد أن أُعامل مثل ملك".

لقي بوروس معاملة الملوك بالفعل. وسمح له الإسكندر بأن يستمر في حكم كل المقاطعات التي قهرها حتى تلك اللحظة، كما سمح له بالعودة إلى قصره مجدداً.

ابتهجنا بهذا النصر الذي حققناه بعد قتال مرير ضد تلك الوحوش التي تتمتع بقوة جسدية هائلة تفوق قدرة البشر، وتظهر بمظهر مخيف، وهي تلك الحيوانات التي لم يحتك بها أي مقدوني قبل الآن، لكن بهجتنا تلاشت بعد حادثة تركت الملك في حالة من الإحباط العميق.

فلقد جرح بوسيفالاس، جواد الملك، خلال المعركة، وخارت قواه في أثناء المواجهة مع فيل، ولم يلبث أن مات بعد أربعة أيام من المعاناة.



بكى الملك لفقدانه بوسيفالاس، وكأنه يأسف على صديق حميم، وبقي معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. كنت هناك، ورأيتَه يمسد جسده ذلك الحيوان بلطف، هو يكلمه بخنان، ويذكره بكل المغامرات التي مرَّ بها، لكن بوسيفالاس راح يصهل بصوت ضعيف وكأنه يحاول أن يردَّ عليه. رأيت الدموع تنزل فوق خدِّي الملك، كما رأيت جسده يرتعش بفعل النشيج عندما أسلم الحيوان الروح.

أمر الملك بتشييد قبر من الحجر، كما وضع الأساس لمدينة جديدة تكريماً له، وأطلق عليها اسم إسكندرية بوسيفالاس، وهو تكريم لم يسبق أن ناله أيَّ حصان على الإطلاق، ولا حتى أشهر الجياد التي فازت في سباقات الأولمبياد. دفن الإسكندر في ذلك القبر قطعة من قلبه، وأسعد فترة من أعوام شبابه الضائع. أسس الإسكندر قرب ميدان المعركة التي قهر فيها بوروس مدينة أخرى، وأعطها اسم إسكندرية نيقيا، وذلك تخليداً لذكرى انتصاره هناك. وأقام الملك مهرجانات ألعاب، وقدم الأضاحي إلى الأسياذ. ثم توجه من هناك شرقاً بعد أن لقي التشجيع من بوروس الذي زوَّده بخمسة آلاف جندي من جنوده، ثم وصلنا إلى آسيزينز؛ ثاني أكبر رافد للسند، وهو نهر آخر سريع الجريان، ويحتوي على شلالات وصخور كثيرة مع مياه فوارية يطفو على سطحها الزبد. اصطدمت مراكب كثيرة من مراكبنا بالصخور ففرقت مع بحارتها. وبعد ذلك، وجدنا نقطة عبور كان النهر فيها أوسع وأهدأ، وتمكننا من العبور. أخضعنا سبعين مدينة، والتي كان أكثر من نصفها يضم ما يزيد على خمسة آلاف مواطن. توقفنا أخيراً تحت أسوار مدينة سنغالا الواقعة على ضفاف حيدروتس.

لا أعرف ما الذي سيحدث الآن، وما إذا كنا سننجح في إخضاع هذه المدينة أيضاً، وما إذا كنا سننجح في عبور هذا النهر بالذات. كانت هناك صحراء بعد النهر، وبعد الصحراء غابة لا يُمكن اختراقها، كما هناك ممالك تضم مئات الآلاف

من المحاربين. وصلنا الآن إلى حالة من التعب الذي لا يُمكن احتمالُه. في تلك الغابات وحوش حقيقيّة وأفاع بأعدادٍ مخيفة. وقد قتل ليوناتوس إحداها بفأسه وكان يبلغ طولها ستة عشر كيويتاً.

تسَهّد أرسطو. ستة عشر كيويتاً! وقف كي يقيس ذلك الطول بخطواته، واضطر إلى الخروج من الغرفة لأنها ليست طويلة بما يكفي.

تتماز الأراضي المزروعة بالخصب الشديد. ولكن، بدا أن الغابة تحيط بها من كل الجوانب، أي وكأنها تقامها بمعنى من المعاني. كما أن هناك قروداً من كل الأحجام في كل الأماكن، ولديها عادة غريبة في تقليد كل شيء تراه. بعض هذه القروود مدهشة وذلك بسبب الملامح المرتسمة على وجوهها، والتي تشبه كثيراً وجوه الناس، وذلك كما ترى بنفسك.

وكان بطليموس قد كلف أحد الرسامين الموهوبين برسم أحد تلك القروود بالفحم إلى جانب هذه الكلمات. أدهشت نظرة الحيوان الفيلسوف بالفعل إلى حدّ أنها أثارت لديه شعوراً بالقلق، وإحساساً مزعجاً.

وفي هذا المكان أيضاً أشجار عملاقة بشكل مذهل، والتي يُطلق عليها الهنود اسم *بانيان*. تصل هذه الأشجار إلى ارتفاع سبعين كيويتاً، كما أن جذوعها ضخمة جداً حيث لا يكفي خمسون رجلاً للإحاطة بها. رأيت في إحدى المناسبات أكثر من خمسمئة رجل يجلسون في ظل إحدى هذه الأشجار العملاقة.

هناك أيضاً أفاعٍ من مختلف الأنواع. تبدو بعضها مثل قضيب من البرونز، فيما بعضها الآخر تبدو داكنة اللون، وتنتهي أعناقها بنوعٍ من أنواع التيجان التي تحمل علامتين على شكل دوائر. تجلب لدغات هذه الأفاعي الموت على الفور تقريباً، لكن ذلك يتسرفق مع ألم لا يُحتمل، وتعرّقٍ شديد. بقينا

مستيقظين طوال الليلة التي لقينا فيها هذه الزواحف، وكنا مرتعبين من فكرة تعرضنا للدغاتها خلال نومنا، لكننا تعلمنا أن نوقد النيران حول المعسكر، كما أن السكان المحليين علمونا كيفية استخدام أعشاب محددة كترياق لسُم الأفاعي.

إن هذه الأفاعي أشد خطورة من النمر التي تتراد هذه الغابات التي يصعب اختراقها، وذلك بسبب تواجد طريقة يدافع بها الناس عن أنفسهم ضد تلك القطة الكبيرة، كما يسمونها، وذلك عن طريق استخدام سيف قاطع، أو رمح قوي. إن النمر أكبر من الأسد، كما أن جلده ملون بألوان جميلة كألوان المغرة، وهو مخطط بخطوط سوداء. أما صوته فكان يصل إلى مسافات لا تصدق. لم أرَ واحداً منها بنفسي، لكنني رأيت أحد جلودها، وقد وصفته لك بأفضل ما أستطيع.

يتعين عليّ أن أتوقف الآن عن الكتابة، لأن هذه الأمطار الغزيرة تجعل من المستحيل بالنسبة إليّ كتابة المزيد. إذ إن الرطوبة تجعل كل شيء عفناً، حتى إن الجنود يمرضون، وبعضهم انتهى بهم الأمر بين فكوك التماسيح التي تزحف في كل مكان هنا، لأن الأمطار جعلت مياه الأنهار تفيض نحو ضفافها، كما أن المياه غمرت الحقول، وغطت مساحات تقدر بالآلاف وآلاف الستاديات. وأنا الآن أجهل ما إذا كان باستطاعتي مجدداً أن آمل بالعيش مثل إنسان وليس كحيوان.

وحده الإسكندر من يبدو بأنه لا يعرف التعب أو اليأس من أي نوع كان. إنه يزحف قبل الجميع على الدوام، ويفتح الطريق بسيفه، ويساعد الذين يسقطون، ويشجع أولئك الذين نال منهم التعب. لا نزال نرى في عينيه ذلك البريق المتوهج، وهو البريق ذاته الذي رأيته منذ زمن بعيد عندما كان خارجاً من معبد آمون الذي يقع وسط الصحراء الليبية.

انتهت قصة بطليموس عند ذلك الحد، فأسرع أرسطو إلى لفّ

الرسالة ووضعها على أحد الرفوف.

تحوّلت أفكاره نحو كاليستين فامتألت عيناه بالدموع. انتهت مغامرته بشكلٍ محزن في مكانٍ بعيدٍ جداً قرب أطراف الأرض، وربما كان الخوف هو الذي قتله أكثر من السمّ ذاته. شعر بالحزن لأجله في هذا الوقت لأنه يعرف أنّ أفكاره أقوى بالمقارنة مع روحه وجراته. وتمنّى لو كان هناك وبقربه في لحظاته الأخيرة، إذ كان سيتمكن من قراءة كلمات سقراط الأخيرة على مسامعه: "لكن، حان الآن وقت الرحيل، وقتي أنا كي أموت، ووقتكم أنتم كي تستمروا في الحياة...". لكن، ربما لم يكن بإمكان كاليستين سماعه وهو واقع في لجة الرعب الخالص.

أطفأ أرسطو مشعله واستلقى، ثم تنهد في الغرفة الخالية، ووسط أشعة القمر الخريفي الباهتة. تساءل إذا كان الإسكندر قد شعر بأي قدرٍ من التعاطف مع كاليستين.

هرع هيفاستيون إلى خيمة الملك تحت الأمطار التي هطلت بشدة، وراح يركل الوحل في أثناء ركضه. سمح له الحراس بالدخول، ثم ما لبث أن اقترب من الموقد الذي كانت تستعر فيه النار التي كانت تُصدر دخاناً أكثر عما تصدره من حرارة. تقدّم الإسكندر كي يجيّه، ثم ظهرت لبيتين وناولته عباءة جافة.

قال له: "استسلمت سنغالا، كما أن إيومينيس على وشك أن ينتهي من تعداد القتلى والجرحى".  
 "وهل هم كثر؟".

"إنهم سبعة عشر ألف قتيل".

"إنها مجزرة. لا بد من أنهم أبدوا مقاومة شديدة".

"أسرنا عدداً كبيراً منهم. وتمكّننا كذلك من مصادرة ثلاثمئة عربية حربية وسبعين فيلاً".

دخل إيومينيس وكان مبللاً بدوره، وقال: "حصلت على العدد النهائي: خمسمئة قتيل من جهتنا. منهم مئة وخمسون من المقدونيين واليونانيين، بالإضافة إلى ألف ومئتي جريح، كما جرح لايسيماخوس جرحاً بالغاً في كتفه. هل هناك أوامر أخرى لي؟".

ردّ الإسكندر: "أجل. يجب أن ننطلق غداً نحو المدينتين الأخريين اللتين تقعان بين هذا المكان وبين هيفاسيس. خذ بعض الأسرى معك من الذين يستطيعون أن يُخبروا الآخرين بما حصل في سنغالا. إذا اعترفت المدينتان بحكمي، فلن يحصل المزيد من القتل أو المجازر. وستبعك بعد قليل مع بقية الجيش".

أوماً إيومينيس وخرج من الخيمة بعد أن وضع عباءته فوق كتفيه، بينما أضاء برقٌ يُعْمي العيون المعسكر بأكمله، وأضفى عليه لمعاناً أزرق اللون. وما لبث قصفُ رعد أن انفجر فوق منطقة خيمة الملك تقريباً. قال هيفاستيون: "أنا ذاهب الآن من أجل الإشراف على نقل الأسرى، وإذا استطعت، فإنني سأمرُّ بك قبل المساء كي أقدم إليك تقريرِي".

ثم رفع درعه فوق رأسه إلى أن وصل إلى الحاجز الذي يحيط بالمعسكر، فلاحظ أن الأسرى يتحركون بين صفين ساكنين من جنود البيزيتاروي تحت المطر الغزير، وكانوا يتبعون ضابطين محمولين يقودانهم إلى باحة كبيرة مسيّحة تقع قرب البوابة الغربية، وهي الباحة التي نُصبت فيها خيمٌ تكفي لعدد يزيد قليلاً على نصفهم. تأكد الجنود أولاً من حصول النساء والأطفال على الحماية من المطر، ثم انصرفوا إلى الاهتمام بالرجال الذين حُشروا معاً، وتغطّت أرجلهم بالوحول.

نظر هيفاستيون إلى الأعلى فرأى سحباً سوداء تهدّد بالمزيد من المطر، ثم نظر إلى الأفق حيث كانت صواعق تُعْمي العيون تتردد في فترات متقاربة. كانت السماء ملبدة بالغيوم التي تُنزل أمطاراً بشكلٍ مستمر. ما هي تلك البلاد التي تبدو هناك؟ وماذا سيجدون في الجهة الأخرى من النهر، والتي يصرّ الإسكندر على الوصول إليها؟

دوّت صاعقة في تلك اللحظة من بين الغيوم، وكانت قوية بما يكفي لإضاءة المنطقة والمدينة بأكملهما. فظهر أمامه هناك طيف شخصٍ وحيد ونحيف جداً وشبه عارٍ مثل الشبح، وكان يتحرك إلى الأمام عبر البوابات المفتوحة للمعسكر. سار هيفاستيون نحوه وسط دهشة كبيرة، وصاح وسط قصف الرعد المدوي: "من أنت؟ وماذا تريد؟".

ردّ الرجل بتمتمة غير مفهومة، لكنه لم يتوقف، وتابع السير بمحاذاة الخيم إلى أن وصل إلى شجرة بانيان كبيرة. جلس قرب الشجرة، وشبك يديه فوق حضنه مبقياً راحتيه نحو الأعلى، كما قرب سبابة يده اليمنى وإهامه جاعلاً إياهما بشكل دائرة، وبقي ساكناً تحت المطر المنهمر مثل تمثال.

كان أريستاندر في مكان قريب جداً من الهيكل الخشبي الصغير منشغلاً بتقدم أضحية خروف إلى الأسياد، وطلب إليها إيقاف المطر. فجأة، شعر بألم حاد خلف رقبته، وسمع صوتاً يناديه. التفت على الفور فرأى رجلاً يمشي ببطء، ولكن بثقة، داخل المعسكر. لم يكن هناك أي شخص في الجوار كي يناديه، وهو الأمر الذي حيره كثيراً. لذا، خرج وسط المطر حاملاً عباءته فوق رأسه، ومشى نحو شجرة البانيان. رآه هيفاستيون وهو يحاول أن يتحدث إلى الهندي شبه العاري الذي يجلس بسكون، ثم رآه وهو يبحث بدوره عن ملاذ في تجويف الشجرة قبل أن يجلس على الأرض.

هزّ هيفاستيون رأسه، ثم توجه إلى خيمته مبقياً درعه فوق رأسه. جفّف نفسه بقدر ما يستطيع قبل أن يرتدي ملابس جافة.

استمر هطول المطر طوال الليل مترافقاً مع رعدٍ مخيف وبرق يقصف فوق الرؤوس، وهو الأمر الذي أشعل حرائق في بعض الأشجار والأكواخ. وفي الصباح، أطلّت الشمس مشرقة بالرغم من كل ذلك. وعندما خرج الملك من خيمته رأى أريستاندر واقفاً أمامه.

"ما الأمر أيها الضالع؟"

أشار أريستاندر إلى الرجل النحيل العاري الذي يجلس تحت شجرة البانيان قائلاً: "انظر. إنه هو".

"ومن هو؟"

"إنه هو. الرجل العاري الذي أراه في كوايبيسي".

"هل أنت متأكد؟".

"تعرفت إليه فوراً. لقد بقي جالساً بسكون منذ الليلة الماضية.

بقي في الوضعية ذاتها طوال الليل مثل تمثالٍ وسط العاصفة، ومن دون أن يرتعش أو أن يغمض جفنيه".

"ومن هو؟".

"سألت عنه الهنود الآخرين. لا أحد يعرف. لا يعرفه أحد من الناس".

"أليس لديه اسم؟".

"لا أعرف. أعتقد أنه من السامانا، أحد فلاسفتهم وحكمائهم".

"خذني إليه".

انطلقا يمشيان عبر الوحول الكثيفة التي غطت المعسكر بكامله في هذا الوقت إلى أن وصلا قبالة الزائر الغامض. فكّر الإسكندر فوراً في ديوجينيس، ذلك الفيلسوف العاري الذي التقاه ذات يوم خريفي دافئ مستلقياً أمام سردالته (إناء كبير من الفخار)، وما لبث أن شعر بكتلة تعترض حنجرتة.

سأله: "من أنت؟".

فتح الرجل عينيه، وحدّق إليه بتركيز شديد، لكنه لم يقل شيئاً.

"هل أنت جائع؟ أترغب في الذهاب إلى خيمتي؟". ثم التفت إلى

أريستاندر وقال: "أريد مترجماً هنا في أسرع وقت ممكن".

كرّر الإسكندر سؤاله عندما وصل المترجم: "هل أنت جائع؟

أتريد الذهاب إلى خيمتي؟".

أشار الرجل إلى وعاء صغير كان أمامه. شرح المترجم أن هؤلاء

الرجال المبجلين والزاهدين الذين يبحثون عن النعمة الأبدية، يعيشون

على الصدقات، وأن حفنة من الحبوب المغلية فقط ستكون كافية لهم.



"فلتأت إلى خيمتي كي تجفّف نفسك، وتحصل على بعض الدفء، وتأكل شيئاً؟".

قال المترجم: "إن ذلك غير ممكن، لأنه سيرقل رحلته نحو الاتحاد مع كل شيء، وهي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من الحصول على الطمأنينة، والتحرّر من الألم".

راح الإسكندر يفكر بينه وبين نفسه: "إنها أفكار ديمقريطيس... يتحلل كل شيء، ويُعاد تشكّل كل شيء بأشكال مختلفة، حتى العقل... إن تحلله هو الأمل الوحيد...".

قال أمراً: "أعطوه شيئاً يأكله، وقولوا له إنني سأسرّ بالتحدث إليه في أي وقت يشاء".

ردّ المترجم: "يقول إنه سيتحدث إليك ما إن يتعلّم لغتك".

انحنى الإسكندر وعاد إلى خيمته، بينما كانت الأبواق تصدح بإشارة التجمع للفرق كافة. انطلق الجيش في اتجاه هيفاسيس، آخر الروافد، وآخر عائق قبل اختراق مساحات الهند الشاسعة، ونحو نهر الغانج، ونحو عجائب باليمبوثرا، وسواحل الأقيانوس الأبعد.

انطلق الجيش في منطقة من الغابات المتناثرة، والتي أخذت تصبح أكثر كثافة مع اقترابه من النهر. هطل المطر بغزارة في اليوم الثاني، واستمر على هذا المنوال في اليومين الثالث والرابع أيضاً، وترافق ذلك مع صوت الرعد المدوي الذي يصمّ الآذان، والصواعق التي تعمي العيون. شرح المرشدون الهنود أن هذا هو فصل الأمطار، وهو الفصل الذي يستمر عادة سبعين يوماً. وصل الجيش إلى ضفة نهر هيفاسيس الفائض والموحل، وما لبث الإسكندر أن أمر بعقد مجلس حرب في خيمته. حضر الأميرال نيرخوس مع نائب الأميرال أونيسيقریط الذي أثبت جدارته تماماً في عمليات العبور التي حصلت منذ وقت قريب،

وفي مسيرة الجيش بمحاذاة نهر السند من أورنوس وحتى تاكسيلا. حضر هذا المجلس كذلك هيفاستيون، وبيرديكاس، وكراتيروس، وليوناتوس، وسلوقس، وبطليموس، ولايسيمachus. فيما غاب عن المجلس حراس الملك فيليب، ولم يبق سوى أولئك الشبان من مييزا الذين أصبحوا كبار قادة كل فرق الجيش.

حضر الاجتماع كذلك أحد الحلفاء من الهنود، وهو ملك يُدعى فايجايا؛ يعرف كل المناطق الواقعة على الجهة الأخرى من نهر هيفاستيس معرفة جيدة.

افتتح الإسكندر اجتماع مجلس الحرب بالقول: "أيها الأصدقاء. توغلنا حتى الآن إلى مسافات تفوق تلك التي وصل إليها أي يوناني آخر في أي وقتٍ من الأوقات. ووصلنا إلى أماكن تتعدى تلك التي زارها ديونيسيوس في تجواله، ونحن ندين بتحقيقنا هذه الإنجازات إلى شجاعتكم الهائلة، وإلى قواكم الاستثنائية، وإلى بطولات جنودنا وميزاتهم. بقيت أماننا الآن خطوةٍ أحيية؛ فإذا عبرنا آخر رافدٍ من روافد السند، فلن تبقى أماننا أيّ عقبات تواجه زحفنا نحو الغانج وشواطئ الأقيانوس العظيم. وإذا وصلنا إلى تلك المرحلة، فسنكون قد أتممنا أعظم إنجازٍ تم تحقيقه في تاريخ الإنسانية. وإذا أنجزنا هذه الخطوة، فسنكون قد حققنا أعظم حلمٍ يُمكن أن يتخيله إنسان. أعتقد أن أميرالنا يستطيع أن يرسم لنا الآن مشروعه لعبور النهر، وبعد ذلك يستطيع قادة كل فرقنا القتالية عرض آرائهم بالنسبة إلى الزحف".

في تلك اللحظة بالذات، سُمع قصف رعدٍ فوق الخيمة. وكان من القوة حيث أخذت كل الأغراض الموجودة فوق الطاولة بالاهتزاز. تبعت ذلك لحظات طويلة من الصمت، وما لبث صوت المطر أن تزايد إلى درجة غير معقولة حيث أصبح يصم الآذان.

تبادل بطليموس نظرةً سريعةً مع سلوقس وكان أول المتكلمين: "اسمع أيها الإسكندر، لقد تبعناك إلى هذا الحد، ونحن مستعدون لأن نتبعك إلى مسافات أبعد، وأن نسير فوق الوحول، وعبر المستنقعات، وبين الأفاعي والتماسيح. إننا مستعدون لعبور المزيد من الصحاري والجبال، لكن جنودك غير مستعدّين لذلك". نظر الإسكندر إليه بدهشة، وكأنه عاجزٌ عن تصديق ما تسمعه أذناه. أكمل بطليموس كلامه: "أعطاك رجالك كل ما عندهم، ولم يتبقَ عندهم الآن أي شيء".

صاح الإسكندر: "هذا ليس صحيحاً! لقد هزموا بوروس، وقهروا مدناً كثيرة".

"وهذا هو سبب شعورهم بالإهناك، فلقد وصلوا إلى أقصى درجات تحملهم. ألا تلاحظ ذلك؟ انظر إليهم. لو أنك فقط تتوقف قليلاً لتنظر إليهم وهم يزحفون تحت هذا المطر الذي لا يتوقف، وعبر الوحل الذي يصل إلى رُكبهم تاركين لحاهم من دون تشذيب. أما عيونهم فقد احمرت من قلة النوم. هل تعرف عدد الذين قُتلوا من أجل مساعدتك على تحقيق حلمك؟ هل قمتَ بإحصائهم؟ قُتل هؤلاء بسبب الدماء التي نزفت منهم، وبسبب الجروح التي لم تلتئم قطّ، وبسبب الغرغرينا ولسعات الأفاعي، ولأن التماسيح مزقتهم إرباً، ولأن الحمى أحرقت أجسادهم، ولأن الزحار جفّف أجسامهم. تحوّل جنودنا إلى هياكل عظمية وجلود، لكنهم جرّوا أنفسهم إلى هذا الحدّ، أي إلى أطراف الأرض، وهم خائفون. ولكنهم ليسوا خائفين من الأعداء بعرباتهم الحربية وفيلهم، بل إنهم خائفون من هذه الطبيعة المعادية لهم والغريبة عنهم، وخائفون من هذه السماء المليئة بالبرق والرعد، وخائفون من الوحوش التي تسرح في الغابات وفي المستنقعات،

حتى إنهم خائفون من السماء في الليل عندما ينظرون إلى الأعلى كي يروا الأبراج التي اعتادوا رؤيتها منذ نعومة أظفارهم، وهي التي تكاد تختفي تحت الأفق. انظر إليهم. إنهم ليسوا الرجال أنفسهم بعد أن تمزقت ثيابهم، واضطروا إلى تغطية أنفسهم بالخرق، أو بثياب البرابرة الذين قهروهم. بليت حوافر جيادهم بسبب الزحف المتواصل، كما أنهم يتركون آثاراً من الدماء فوق الأرض".

صاح الملك وهو يفتح رداءه كي يُظهر لكل الحاضرين الندوب في صدره: "ألم أتحمل أنا المعاناة ذاتها؟ ألم أعان وإياهم الجوع والعطش، والمطر، والجراح!".

"أجل، لكنهم ليسوا أنت، لأنهم لا يتمتعون بطاقتك وبقوتك الحيوية. إنهم مجرد رجال، وهم منهكون ومستنزفون تماماً. إنهم لم يتلقوا أي أخبار عن عائلاتهم منذ سنوات، وكل ما يفعلونه هو أن يحملوا بزوجاتهم وأولادهم الذين تركوهم وراءهم منذ مدة طويلة.

فكّر في الجنود الذين أُجبروا على البقاء للخدمة في الحاميات، وفي الاتهامات بالفرار من الخدمة التي وُجّهت إلى الذين لم يرغبوا في البقاء في المدن التي قهرناها. إن كل هذه العوامل أمور تزعجهم، وهم خائفون من وصول المنادي ذات يوم حاملاً معه أوامر بأن يشكّلوا جزءاً من حامية أحد المواقع المعزولة، وأن يضطروا إلى نسيان عائلاتهم وأوطانهم إلى الأبد. أرجعهم إلى الوطن، أرجعهم إلى أوطانهم".

أحسّ بطليموس رأسه عندما توقف عن الكلام، بينما بقي كل رفاقه الآخرين صامتين. ضربت صاعقة الأرض حولهم بقوة كبيرة، وما لبث أن سُمع قصف الرعد وكأنه قرع طبل آت من بعيد.

انتظر الإسكندر تلاشي صوت الرعد قبل أن يبدأ بالكلام: "هيا، قل ما عندك يا بطليموس! هل هذا تمرد؟ هل جيشي يتمرد ضدّي؟

وأنتم يا ضباطي، ويا أعزّ أصدقائي، هل أنتم مشتركون في هذا التمرد؟".

قال هيفاستيون، وهو أخلص رفاق الإسكندر، مدممماً بعد أن سمع هذه الكلمات: "كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ كيف يمكنك أن تتهمنا وكلّ جنودك بجرمة كهذه؟ لا يريد أحد عصيانك، ولا يريد أحد أن يُجبرك على هذا. إن بطليموس على حق. إذا أردت أن تستمر في الزحف، فستبعلك، ونحن الذين أقسمنا على عدم تركك لأي سبب كان، لكن جنودك لهم كل الحق بالعودة إلى ممارسة حياتهم الطبيعيّة. ضحّي الجنود بما فيه الكفاية، وقد أعطوك كل ما يقدرّون عليه. إنهم مستنزفون تماماً، وهذا ما دفعهم إلى مناشدتنا كي نحاول إقناعك، وهذا هو ما نحاول فعله لا أكثر. أرجوك فكّر في هذا الآن. أرسل منادياً كي يبلغنا بأنك ترغب في أن تفعل ذلك، ونحن سننفذ".

غادروا واحداً تلو الآخر، وخرجوا إلى حيث استقبلهم غضب العاصفة.

بقي الملك داخل خيمته لمدة يومين من دون أن يستقبل أحداً، ومن دون أن يأكل. وراح يلعن القدر الذي يمنعه من الوصول إلى هدفه بعد أن أصبح في متناول يده. لم يتمكن أي شخص من التخفيف عنه، حتى روكسانا، وهي زوجته الحبيبة التي اختارت أن تتبعه في كل الظروف، وأن تقاسمه كل المخاطر والمحن التي يتطلبها مشروعه. سألته بلغتها اليونانية التي لا تزال ركيكة: "لماذا لا تصغي إلى أصدقائك؟ لماذا لا تريد الإصغاء إلى الذين يحبونك، والذين لم يتركوك طوال تلك السنين؟ ولماذا لا تُشفق على جنودك؟".

لم يردّ الإسكندر عليها، بل حدّق إليها بعينين يائستين.

"هل من المهم جداً بالنسبة إليك أن تُخضع بلاداً غير تلك التي تمتلكها؟ أتظن أنك ستجد السعادة في السيطرة على مناطق جديدة، ومدن جديدة، وفي الاستيلاء على ثروات جديدة؟ أخبرني بما تتوقع الحصول عليه في الجهة المقابلة من ذلك النهر. أتوسّل إليك. أخبر روكسانا زوجتك التي تحبك كثيراً".

تنهد الملك بشدة وقال: "كنت في الخامسة من عمري عندما تركت منزل والدي لأول مرة. أردت الذهاب إلى جبل الأولمب. وأردت منذ ذلك الحين أن أعرف ماذا يوجد خلف الفجر وغروب الشمس، وخلف الجبال والسهول، وخلف النور والظلمة، وفي الجهة الأخرى من النور والظلمة، وخلف الخير والشر، وخلف كل شيء". هزت روكسانا رأسها لأنها لم تتمكن من أن تفهم ما يقوله. كانت كل هذه الكلمات صعبة بالنسبة إليها، لكنها فهمت تلك النظرة في عينيه، وشعرت بالقلق الذي يعتمل في أعماقه.

قالت له: "إذاً، دعنا نذهب، أنت وأنا. دعنا نذهب كي نرى العالم الذي يقع خلف ذلك النهر".

ردّ الإسكندر: "لا. إن قدرتي ليس كذلك، لأن الضالعين لم يتحدثوا إليّ لهذا السبب. لا يمكنني ترك جيشي، ولا يمكنني أن أتخلى عن المجد... روكسانا. أريد أن أكون قريباً من الأسياد إلى أقصى حدّ ممكن. أريد الذهاب إلى ما يتعدى حدود الزمن، وأن أتفوق على كل الذين أتوا من قبلي. لا أريد أن أغرق في عالم النسيان عندما أنزل إلى العالم الآخر".

ظهرت كل ملامح القلق والتوتر على وجه زوجته عندما نظرت إليه، وصعّب عليها كثيراً أن تفهم حديثه، لكنها شعرت بوجود قوة داخله لا يمكن لأحد أن يقهرها، وبرغبة جامحة لا يمكن لأحد أن يلبسها

أبداً. كان مثل ولد صغير يلاحق قوس قزح، وبدا مثل نسرٍ يَحُلِّقُ نحو الشمس. داعبته وقبّلته بحنان على جبهته، وعلى جفني عينيه، وعلى فمه، ثم قالت له بلغته: "أبقي معك. لا تتركني أبداً. لا يمكنني العيش من دونك".

ولم تتركه قطّ منذ تلك اللحظة، ولا حتى للحظة واحدة. جلست بصمتٍ تنتظر نظرةً منه، أو حتى كلمة، وركّزتُ عينيها على كل حركة من حركات رموشه، وعلى كل نفسٍ أخذه، لكن الملك بدا الآن وكأنه قدّ من صخر. عزل الإسكندر نفسه في عالمه الذي يستعصي على الاختراق، فكان سجين أحلامه وكوابيسه.

وفي مساء اليوم الثالث، وقبل غروب الشمس، كان جالساً في ظلّمة خيمته، فشعر فجأة بوجود شخص ما فنظر إليه. وقف الحكيم الهندي أمامه محققاً إليه بعينه العميقتين والداكنتين. أدرك أن أحداً لم يرَ هذا الرجل، لأن الحراس لم يوقفوه، وكذلك بيريتاس لم يشعر بقدمه، وهو الذي كان يغطّ في نوم عميق متكوراً على نفسه.

لم يقل الرجل شيئاً، لكنه أشار ببساطة بإحدى يديه نحو المعسكر، فأحدثت هذه الحركة قوة هائلة لا تقاوم. خرج الملك من خيمته لكنه دُهِش مما رآه أمامه. وقف آلاف الجنود حول خيمته ناظرين إليه، ولاحظ أن عيونهم حمراء، وأن شعرهم غير المسرح قد استرسل حتى أكتافهم، وأن ثيابهم بالية، وأن نظراتهم حزينة وقلقة ولكنها حازمة، وكانوا ينتظرون منه رداً ما. شعر بأن معاناتهم تُطبق عليه، فبدأ بالكلام. صاح عالياً: "أبلغوني بأنكم لم تعودوا ترغبون في المتابعة. هل هذا صحيح؟".

لم يردّ أحدٌ منهم، ولكن سُمعت همهمات خافتة بين صفوفهم. "أعرف أن هذا ليس صحيحاً. أنا أعرف أنكم أفضل الجنود في العالم، وأنكم لن تتمرّدوا ضد ملككم أبداً! كان قراري هو الانطلاق

إلى الأمام، وأن أقودكم إلى مسافات أبعد، لكن تحتّم عليّ أولاً أن أعرف إرادة الأسياد، لذلك قدّمت بعض الأضحيان. كانت كل الإشارات سلبيةً تكراراً مع الأسف، ولا يُمكن لأحد أن يتحدى إرادة الأسياد. استعدوا أيها الرجال! جهّزوا أنفسكم لأن الوقت قد حان بالنسبة إليكم كي تتمتعوا بما تستحقونه، وبما كسبتموه. إننا عائدون. إننا عائدون إلى الوطن!".

لم تُسمع أصوات الهتافات، ولا صرخات الفرح، بل أصداء مشاعر وعواطف عميقة وشديدة. بكى كثيرون منهم بصمت، ونزلت دموعهم ببطء حتى وصلت إلى لحاهم الكثّة، نزلت على تلك الوجوه التي أعتبتها أعوامٌ عديدة من المعارك والليالي التي مرّت من دون نوم، وأهككتها الهجمات والجليد والحرارة، وأتعبها الثلج والمطر. بكوا لأن ملكهم لم يكن غاضباً منهم، ولأنه لا يزال يحبهم وكأنهم أبناءه، وها هو الآن يريد أن يعيدهم إلى أوطانهم. خرج أحد قدامى المحاربين من بين صفوف الجنود وتقدّم من الإسكندر قائلاً له: "شكراً يا مولاي لأنك لم تسمح لأحد بأن يغلبك غير جنودك. شكراً... لكن نريدك أن تعلم بأنه مهما حدث، وبغضّ النظر عما تخبئه لنا الأقدار، فإننا لن ننساك أبداً".

عانقه الإسكندر، ثم أمرهم بأن يعودوا جميعاً إلى خيمهم كي يستعدوا للمغادرة. عاد الإسكندر بمفرده إلى ضفة نهر هيفاسيس بعد أن ابتعد الجنود. كانت السحب قد انقشعت قليلاً فانتشرت أنوار الشمس الغاربة، وأضاءت النهر العظيم، وصبغت سلسلة جبال باروباميسوس بقممها العالية باللون الأحمر. اتجهت أنظار الملك إلى الضفة الأخرى وامتدت عبر ذلك السهل اللامتناهي الذي يمتد من الضفة وحتى الأفق. بكى الملك. بكى كما لم يبكي من قبل قطّ، لأنه لن يتمكن بعد الآن



من رؤية مجرى نهر الغانج العظيم، ولن يقدر أبداً على السير فوق  
ضفاف البحيرات الذهبية، وبين طواويس باليمبوثرا. بكى من عينه  
الزرقاء زرقة السماء، وبكى من عينه السوداء سواد الليل الخالك.

تحسّن الطقس السيئ يوماً أو يومين وكان السماء قد وافقت الإسكندر على قراره. قسّم الملك جيشه إلى اثني عشرة مجموعة، وكلّف كل مجموعة ببناء مذبحٍ حجري عملاق على ضفة نهر هيفاسيس. كانت هذه الأنصاب عالية جداً، وخُصّص كل واحد منها لتكريم سيد من أسياد الأولمب الاثني عشر. قدّم الإسكندر بعد ذلك أضحيةً أمام الجيش المتجمّع بأكمله، وتضرع إلى الأسياد كي لا تسمح لأي إنسان آخر بأن يتجاوز هذا الحد. انطلق الجيش في اليوم التالي في اتجاه السند، ومرّ في الطريق عبر سنغالا والمدينتين الأخريين اللتين أسّسهما الإسكندر حديثاً: إسكندرية بوسيفالاس وإسكندرية نيقيا.

مرض في ذلك المكان القائد كيونيوس الذي حارب ببطولة كبيرة في غواجميلا، وحارب بعد ذلك مع كراتيروس في الحملة التي شنّها ضد سييتامين في باكتريانا، وما لبث أن مات. أمر الإسكندر بإقامة جنازة له، كما أمر بتشييد مقبرة مهيبّة له تخليداً لذكري بطولاته وشجاعته.

سَلّم الإسكندر زمام السلطة في جميع أنحاء الهند إلى بوروس، وهو الرجل الذي كسب منه البلاد التي كانت مؤلفة من سبع دولٍ وألفي مدينة، وألزمه بدفع جزية، وبتقديم جنودٍ إلى المرزبان المقدوني الذي نصبّه في إسكندرية نيقيا.

وانطلق مجدداً من هناك إلى أن وصل إلى هيداسب، وسار نزولاً مع مجراه حتى ملّقه مع نهر آسيزينز. توافد الأمراء الهنود في هذه المناطق لإعلان ولائهم بشكلٍ تلقائي، ولإظهار دلائل خضوعهم. قيل

للإسكندر إن مجموعات كثيرة تسكن في الجنوب على ضفاف السند، وإن هذه المجموعات تُميّز بالشراسة والاستقلالية. انضمت إلى جيش الإسكندر بعد ذلك فرقة مؤلفة من عشرين ألف جندي تم تجنيد عناصرها في مقدونيا واليونان. جلب هؤلاء معهم أسلحة جديدة، وثياباً جديدة على الطراز اليوناني، بالإضافة إلى ثمانين تالنتاً من الأدوية، والضمادات، والأدوات الجراحية، والقضبان لتثبيت الأطراف المكسورة، وأغراض أخرى متنوعة، وهي التي كانت ستكون مفيدة لو أنها وصلت قبلاً.

تسلّم الإسكندر مع هذه التعزيزات والمؤن، رسالةً من ستاتيرا. بدأت ذكرياته معها تنساب إلى روحه مع بداية قراءته هذه الرسالة، فشعر بندمٍ شديد لأنه أهملها وكاد أن ينساها:

من ستاتيرا إلى الإسكندر، زوجي العزيز. تحيائي!  
مررت بأوقات حزينة جداً بعد خسارة ابنا. ووصلتني بعد ذلك بوقت قليل أخبار تفيد بأنك عثرتَ على حبٍّ جديد، وهي ابنة زعيمٍ جبلي في سوغديانا، وقيل لي إنها رائعة الجمال، وأنتك أعلنتها ملكتك ووالدة ملك المستقبل. سأكذب لو قلت لك إنني لم أشعر بالأسف والإحباط، وإنني لم أقاسِ آلام الغيرة. لا تعود آلامي هذه إلى السلطة والمجد اللذين تتمتع بهما لكونها ملكة، ولكن، ببساطة، لأنها تستمتع بحبك، ولأنها تنام إلى جانبك، وتتمكّن من الإصغاء إلى أنفاسك طوال الليل، ومن شمّ رائحة عطر بشرتك. آه! كم أتمنى لو أنني تمكنت من منحك ابناً، لكنك أحمله الآن بين ذراعيّ كي أشاهد وجهك في وجهه. لكن الأقدار هي التي تعيّن لكل منا دوره عندما يأتي إلى هذا العالم. أرادت الأسياد أن أخسر والدي وابني ومحبة زوجي خلال فترة زمنية قصيرة. لا أرغب في جعلك حزيناً بأخبار كآبتي، لكنني أأمل فقط أن تكون سعيداً، وأن ترغب في رؤيتي

مجدداً عند عودتك، وذلك كي تمضي بعض الوقت معي، حتى لو كان ذلك ليوم أو ليلة. تعلمت منذ أن التقيتك أن لحظة واحدة يُمكن أن تساوي عمراً بأكمله. أتوسل إليك أن تتجنب إنزال الأذى بنفسك، واحترس.

ردّ الإسكندر على رسالتها في اليوم ذاته، بينما راحت روكسانا التي كانت لا تزال تتعلم كيف تكتب، تراقبه بحشرية متزايدة. سألته: "إلى من تكتب؟".

"أكتب إلى الأميرة ستاتيرا التي تزوجتها قبل أن ألتقيك".  
اسودّ وجه روكسانا، ثم قالت بنبرة لم يسبق للإسكندر أن سمعها من قبل: "لا أرغب في معرفة ما تكتبه إليها. ولكن، أبعدها عني، هذا إذا كنتَ تريد أن تبقى حية".

\*

حلّ فصل الخريف في هذا الوقت وتوقف هطول الأمطار. قرّر الملك الارتحال إلى أسفل نهر السند كي يعرف المدى الذي يُمكن أن يصل إليه. شعر بعض الجغرافيين الذين كانوا يرافقونه بأن هذا النهر لا يعدو عن كونه القسم الأول من نهر النيل، وذلك لأنه مثل ذلك النهر الذي تسرح فيه التماسيح، كما يعيش على ضفتيه أشخاص من ذوي البشرة الداكنة مثل الإثيوبيين. وإذا كان هذا الكلام صحيحاً، فإن الأسطول الضخم سيتمكن من الإبحار منتصراً عبر النهر حتى إسكندرية مصر.

أعجب الملك كثيراً بهذه الفكرة، لذلك استدعى نيرخوس كي يلتقيه عند ضفة النهر، واختار لذلك الاجتماع نقطة عالية يستطيعان أن يريا منها الجيش برمته في أثناء زحفه، وهو الجيش الذي بدا رائعاً كما كان عندما غادر مقدونيا، لكن عدد الجنود قد تضاعف أربع مرات.

قال الإسكندر: "سار عدد كبير من هؤلاء الرجال مسافة ألف ستاديا. أريد أن يتمكنوا من السفر براحة من الآن فصاعداً. أريد بناء أسطول لنقل الرجال والجياد على حدٍ سواء. سنبحر نزولاً مع النهر حتى السند، وسنتوقف عند رؤيتنا أيّ مدينة، وذلك كي نعيد تثبيت سلطتنا على كل الأراضي التي كانت تحت سيطرة داريوس والتي أصبحت الآن تحت سيطرتنا".

سأل نيرخوس: "وماذا ستفعل بعد ذلك؟".

"أنوي إرسال كراتيروس عائداً مع نصف الجيش عبر أراخوزيا وكارمانيا، بينما أتابع الإبحار معك نزولاً مع النهر إلى أن نصل إلى الإسكندرية، هذا إذا كان هذا النهر يشكّل بالفعل الجزء الأعلى من نهر النيل، أو إلى أن نصل إلى الأقيانوس".

"ألديك فكرة عن عدد السفن التي سنحتاج إليها لنقل كل رجالنا؟".

هزّ الإسكندر رأسه.

"ليس أقل من ألف".

"أسنحتاج إلى ألف سفينة؟".

"سنحتاج إلى أكثر من هذا العدد، أو أقل بقليل".

قال الإسكندر مشجعاً: "إذاً، دعنا نبدأ العمل بأسرع وقتٍ

ممكن".

صاح نيرخوس: "أخيراً! أعتقد أنني سأكون الأميرال الوحيد في

العالم بقدمين متوجعتين".

انتبه الملك في أثناء حديثهما إلى روكسانا التي كانت على صهوة

حصانها في المرج الذي يحاذي النهر العظيم. كانت تمتطي صهوة حصان

كبير أبيض اللون، بينما كان شعرها يتطاير في الهواء.

سأل الإسكندر: "أليست جميلة؟".

ردّ الأميرال: "إنها كذلك، بل إنها أجمل امرأة يُمكن أن يتخيّلها أيّ رجل، وهي المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تليق بك بالفعل".  
رأته الفتاة فجذبت عنان الحصان نحو اليسار، وسارت به مسرعةً إلى قمة التلة حتى وصلت إليهما. سارت بحصانها نحوه، وانحنت كي تقبله. لاحظ الجنود الذين كانوا يزحفون في الجوار هذه المناورة الغرامية فصاحوا: "آلا لا لا لا!"، فيما رفع الملك يده كي يرد على تحيتهم له، ولكن من دون أن يُبعد شفّتيه عن شفّتي عروسه.

\*

أرسل نيرخوس منادياً إلى كل الفرق، وزوّده بأوامر إلى كل الجنود الآتين من المناطق الساحلية ليطلب إليهم التجمع. شمل هذا النداء اليونانيين الذين يعيشون على سواحل الجزيرة الرئيسة والجزر، والفينيقيين، والقبارصة، والبنط. بدأ نيرخوس بعد ذلك ببناء الأسطول، ولذلك أمر بقطع مئات الأشجار التي تحولت جذوعها إلى ألواح، ثم بدأ كبار النجارين بعملية إحناء الألواح، وتجميع الهياكل بمفصلات خشبية. تبين أن حسابات نيرخوس كانت دقيقة، لأنه تجمّع فوق ضفّتي الهيداسب عند انتهاء العمل نحو ألف قارب إمداد جاهز للانطلاق، هذا بالإضافة إلى ثمانين سفينة من تلك التي يسيرها ثلاثون مجدّفاً. دخل الأسطول المياه وسط تصفيق حارّ، وتخليل من الجنود الحاضرين.

كان يوماً مشمساً، تجمّع فيه عدد كبير من سكان المنطقة على ضفّتي النهر كي يشاهدوا هذا الحدث المهيّب. شعر جميع الجنود بأنهم يتمتعون بروح معنوية عالية جداً، واعتقدوا بأن الأسوأ قد انتهى، وأنهم قد تركوا وراءهم أصعب فترة في حياتهم وأكثرها إثارة. لكن، لم تكن لديهم، في واقع الأمر، أي فكرة عما ينتظرهم، لأن المعلومات

الوحيدة التي كانت لديهم هي التي استقوها من المرشدين المحليين. لكنّ أحداً منهم لم يكن يعلم أي شيء عمّا سيحدثه بعد إبحار ثلاثة أيام أو أربعة.

تسلّم نيرخوس قيادة كبرى السفن، وهي التي كانت سفينة القيادة التي حملت على متنها الملك والملكة. أعطى إشارة الانطلاق، وما لبثت المجاذيف أن أنزلت إلى المياه، فانزلقت السفينة إلى مجرى النهر، وسرعان ما تبعتها السفن والقوارب الأخرى. ازداد المشهد روعة عندما نزل الأسطول بكامله إلى المياه المزبدة بمحاذاة مقدمات المراكب وتحت مجاذيفها، بالإضافة إلى آلاف الأعلام والرايات الأخرى التي رفرفت بفعل الرياح، والدروع والأسلحة اللامعة.

كان بايرو من إيليس من بين الفلاسفة المرموقين الذين سُمح لهم بالسفر على متن سفينة الملك، بالإضافة إلى أريستاندر، وذلك الحكيم الهندي الذي ظهر بصورة غامضة في معسكر سنغالا. جلس في مقدمة السفينة، ووضع رجلاً فوق رجل بينما أراح ذراعيه فوق ركبتيه، ونظر إلى الأمام فبدا وكأنه تمثالٌ من التماثيل.

طرح الملك سؤالاً على أريستاندر: "ماذا عرفتَ عنه؟".

"اسمه كالان، أو كالانوس باليونانية، وهو حكيم عظيم بين أبناء شعبه، كما أنه موهوب، وذو قدرات استثنائية اكتسبها بعد تمضية عمره بأكمله في ممارسة التأمل".

"يذكرني بأفكار فيثاغورس، وبأشعار بيندار".

"هذا صحيح، لذلك يُحتمل كثيراً أن تكون هذه الأفكار قد وصلت إلى فيثاغورس من الهند".

"كيف اكتشفتَ كل هذا؟".

"أخبرني كالانوس الذي تعلّم كيفية التحدث بالإغريقية في فترة  
تقل عن شهرٍ واحد".

"أقول في أقل من شهرٍ واحد؟ هل هذا ممكن؟".

تابع أريستاندر شرحه: "إنه أمرٌ ممكن لأنه تحقّق بالفعل، لكن،  
ليس لديّ تفسير لذلك. تمكّن الرجل من التواصل معي حتى قبل أن  
يتمكّن من الكلام. شعرت وكأن أفكاره تدخل عقلي".

تحولت نظرة الإسكندر إلى الموجة التي كانت تتكسر في تلك  
اللحظة بلطف على جانبي السفينة، ثم نظر إلى ذلك الاتساع العظيم  
للنهر، وإلى السفن المتجمعة في مجراه. ابتعد بايرو الآن كي يجلس قرب  
الدفة فوق بعض الحبال، وكان يكتب شيئاً ما على لوح وضعه فوق  
ركبتيه. اقترب الملك من أريستاندر وسأله: "هل أخبرته عن كابوسك؟".  
"كلا".

"أما زال يراودك".

"كلا لم يعد يراودني منذ قدومه إلى المعسكر".

"وهل تعرف لماذا أتى؟".

"أتى كي يلتقيك وكي يساعدك. عرف منذ بعض الوقت بأن  
رجلاً عظيماً سيظهر من الغرب، ولذلك قرّر أن يلتقيه".

أوماً الإسكندر، ثم ترك مكانه عند طرف السفينة وتقدّم من  
كالانوس.

سأله: "ما الذي تنظر إليه يا كالان؟".

ردّ الحكيم بصوت غريب يشبه صوت آلة نحاسية: "أنظر إلى  
عينيك. إنهما رمز ذلك الخطّ الداكن الذي يمرّ عبر رُوحك، وهو خطّ  
فاصلٌ رفيع ما بين النور والظلمة، أي مثل نصل شفرة تسير أنت فوقه  
راكضاً. إنه مشروع صعب، وعادة، يكون مؤلماً...".



ردّ الملك بدهشة: "كيف يمكنك أن تنظر إلى عينيّ إذا استمررت في التحديق إلى الأمواج؟ وكيف تمكنت من التحدث بلغتي بشكل مثالي من دون أن يعلمك أحد؟".

"رأيت عينيك قبل أن ألتقيك، لكن هناك لغة واحدة يا مولاي. وإذا نجح الإنسان في التوصل إلى أعماق روحه وطبيعته هو، فسيتمكّن من أن يفهم كل البشر، وسيتمكّنون بدورهم من فهمه أيضاً".  
"لماذا أتيتَ إليّ؟".

"أتيت كي أتابع مطلبتي".

"وإلى أين يقودك مطلبك؟".

"يقودني إلى السلام".

"لكن طريقي تأخذني إلى الحرب. هَيأت لهذا منذ أن كنت صبيّاً".

"هَيأت كذلك كي تتلقى المعرفة. إنني أرى ظلال حكمة كبيرة في أعماق عينيك. إن السلام في العالم هو الخير الأسمى، ولا يُمكن تحقيق الخير الأسمى من دون المرور عبر النار والسيوف. حدث ذلك بالفعل. ولذلك أريد أن أساعد على تنمية حكمة الملك العظيم فيك، وهي الحكمة التي يجب أن تكون موجودة لدى من سيكون ذات يوم أب الشعوب كلها. هذا هو سبب قدومي إليك".

"على الرحب والسعة يا كالان، لكن طريقي تحدتت يوم عبرت البحر لأول مرة. ولا أعرف إذا كنت سأنجح في تغيير اتجاه هذه الطريق".

أجاب كالانوس وهو يحدّق إلى مجرى المياه السريع: "سيحملنا هذا النهر بعد قليل إلى السند العظيم. إذا أبحرتَ نحو منبعه فستصادف مجرى صغيراً من المياه العذبة، لكن إذا أبحرتَ نزولاً فسترى المئات

من مجاري السيول التي تمزج مياهها معه، وتغيّر لونه ومجراه. سترى الأشجار التي تحني أغصانها العالية كي تلامس سطحه، وسترى كذلك أسماكاً من كل الأنواع، وأفاعي، و تماسيح تظهر بشكلٍ مفاجئٍ ساجحةً في مجراه، وسترى الطيور التي تبني أعشاشها بمحاذاة ضفتيه. إن هذا النهر الذي تراه الآن هو كل هذا؛ وسيتحول إلى شيءٍ آخر مجدداً عندما يتدفق نحو الأقيانوس. يتدفق هناك في المياه الأبدية، أي في الرحم الشامل الذي يحيط بكل اليابسة. لا يخرج السند العظيم عند تلك النقطة، لكنه يصبح جزءاً من السائل الحيوي الوحيد الذي تولد منه ثانية كل السحب والطيور والأنهار والأشجار والأزهار...".

لم يقل شيئاً آخر، لكنه عاد إلى اتخاذ وضعية الصمت الذي لا يمكن لأحد أن يخترقه.

اقترب نيرخوس من الملك، ولكن مع نظرةٍ من القلق مرتسمة على وجهه.

سأل الإسكندر: "ما الأمر؟".

فأجاب: "لقد وصلنا إلى مجرى الشلالات".

أشار نيرخوس إلى مكان في النهر كان يغلي مزبداً، وربما يبعد عنهم عشرة ستاديات. قال: "يجب أن نتوقف على الفور كي نلقي نظرة على مجراه من الضفة قبل أن نحاول عبوره بأسطولنا".

أمر برفع علم الإنذار على الفور، وأمر قائد الدفة بالاستدارة نحو الضفة. صاح رئيس المجذفين: "ارفعوا مجاذيف الجهة اليمنى!". فرجع المجذفون في الجهة اليمنى بمجاذيفهم، بينما تابع المجذفون من الجهة الأخرى تجذيفهم، وجعلوا السفينة تتحرك في دورة واسعة نحو الضفة النهر اليمنى. وحذت السفن الأخرى حذو سفينة القيادة بمناوراتها بعد أن رأت إشاراتهما، وهكذا وصلت السفن إلى اليابسة وألقت مراسيها. انشغل البحارة بربط سفنهم، لكنهم سمعوا سلسلة من الصرخات العالسة، بينما ظهر آلاف المحاربين فوق التلال التي ترتفع شرقاً، وبدأوا بالهجوم على الفور.

أمر الإسكندر بعزف الأبواق، وما لبث حاملو الدروع وجنود الهجوم أن قفزوا إلى المياه، وركضوا إلى الأمام كي يتصدوا للعدو الذي اقترب كثيراً.

سأل الملك: "من هم؟".

أجاب نيرخوس: "إنهم المالينيون. اقتربنا كثيراً من ملتقى هذا النهر مع نهر السند. إنهم جنود شرسون لا يُمكن التغلب عليهم".

قال الإسكندر أمراً: "أريد أسلحتي!". عندها، ركض مساعدوه نحوه حاملين درع صدره، ودروع ساقيه، وخوذته المتوجّهة.

قالت له روكسانا متوسلة إياه وهي تطوقه بذراعيها: "لا تذهب أيها الإسكندر".

"أنا الملك! يتعين عليّ أن أكون في المقدمة!". ثم قبلها على عجل وصاح: "هيا معي يا رجال!". أمسك درعه بسرعة، وقفز إلى المياه، ثم اندفع نحو الضفة.

في هذا الوقت، بدأ المحاربون بالنزول من السفن الأخرى بالآلاف، وصدحت الأبواق، وصاح القادة بأوامرهم بكل اللغات التي يتكلمها جنود ذلك الجيش العظيم.

ما إن وصل الإسكندر إلى اليابسة حتى وصلت كتائب من المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، بينما كانت جياد أولى سرايا الفرسان تنزل بسرعة من السفن الأخرى المتجمعة في مكانٍ آخر على ضفة النهر.

بدأ العدو بالتراجع بعد نجاح هجومه الأول، وذلك تحت ضغط فرق المقدونيين التي أخذت تستعيد زخمها، وراحت تهاجم بتشكيلاتٍ متراصّة. لاحظ المالينيون استحالة إجبار المقدونيين على التراجع، ولذلك بدأوا بتراجعٍ منظم، لكنهم استمروا في قتالهم الشرس إلى أن وصلوا إلى حيث كانت التلة خلفهم، أي أنهم أصبحوا في موقعٍ أقوى، لذلك شنوا هجوماً مضاداً بحوية متجددة. استمر خط المواجهة في التغير مع سيطرة المالينيين عليه حيناً والمقدونيين حيناً آخر. ولكن، مع تقدم فترة الصباح، نزل ما يكفي من الجياد من السفن لتشكيل سريتين كاملتين من الفرسان، واللتين تمكنتا من التقدم لمهاجمة جناحي العدو. امتطى الإسكندر جواده، وقاد الهجوم بنفسه. في تلك اللحظة بالذات، ظهر خطٌ طويل من فرسان الأعداء فوق التلال المقابلة، وما لبثوا أن بدأوا بهجومهم لمشاغلة سرايا الملك.

تزايدت حدة المعركة حتى الظهرية. عندها، مالت الكفة أخيراً لصالح المقدونيين فتمكنوا من دفع المالبينيين إلى ما وراء سلسلة التلال. نظر الإسكندر من هناك إلى خمس مدن أخرى، ولاحظ أن إحداها تتميز عن غيرها من المدن بتحسيناتها الضخمة المشيدة بأحجار الطوب. قسّم الإسكندر جيشه إلى خمس مجموعات، وأرسل كلّ واحدة منها نحو إحدى تلك المدن. قاد بنفسه المجموعة الخامسة، وكانت أكبر المجموعات عدداً. ودعا الإسكندر بيرديكاس وبطليموس وليوناتوس إلى مهاجمة العاصمة، لكنه عندما أوشك على إطلاق الأمر بالهجوم صرخ به ليوناتوس: "انظر أيها الإسكندر! هرب بيريتاس من السفينة". كان ذلك الكلب المولوشي يركض بأقصى سرعة إلى أعلى التلة كي ينضمّ إلى سيده.

قال الملك مُقسماً: "بحق زيوس سأمر بجلد من سمح له بترك السفينة إذا حدث له أي شيء! ارجع. عد يا بيريتاس! عد إلى روكسانا!".

بدا للحظة أن الكلب يفكّر في إطاعة الأمر. ولكن، ما إن انطلق الإسكندر على رأس رجاله حتى لحقه مجدداً.

وصلت المجموعة التي يقودها الملك إلى تحت الأسوار قبل أن ينتصف العصر. وكان المقدونيون يجدّون في أثر المالبينيين الذين سعوا إلى الاحتماء داخل مدينتهم. اندفع هؤلاء إلى الداخل من خلال ثلاث بوابات تُركت مفتوحة أمامهم.

علق الإسكندر تماماً وسط الإثارة التي سببتها المطاردة، لكنه قفز عن صهوة جواده عندما رأى ذلك الجزء من الأسوار الذي كان منهاراً جزئياً بسبب مياه الأمطار، أو بسبب عدم الصيانة، وبدأ بصعود الممر كي يدخل المدينة. وصل إلى القمة من دون أن يتبّه إلى أنه بمفرده.

لاحظ ليوناتوس مدى ضعف موقفه فاندفع وراءه صائحاً: "أيها الإسكندر! توقف! انتظر!". لم يسمع الملك شيئاً من هذه الكلمات بسبب ضجيج القتال، وفوضى الصيحات الآتية من كل حذبٍ وصوب، ولذلك توجه إلى القمة ثم نزل من الجهة الأخرى.

قاد ليوناتوس جنوده إلى ذلك الممر المنهار كي يساعد الإسكندر. لكن، في هذا الوقت، تقدّم عدد من جنود العدو الذين رأوا ماذا يجري بغية منعهم من التقدم، وذلك من أجل إتاحة الفرصة أمام رفاقهم لقتل الملك داخل الأسوار.

أدرك الإسكندر في هذا الوقت الخطر المحدق به، وأنه محاصر فتراجع حتى أصبح ظهره محمياً بشجرة تين كبيرة، وراح يقاتل يائساً ضد مجموعة من خصومه. حارب ليوناتوس بدوره كي يشقّ طريقه وسط الأعداء، ولوّح بفأسه فأجبرهم على التراجع إلى أسفل الممر وصاح: "إسكندر، اصمدا! اصمدا، إننا قادمون!". لكنه أدرك في أعماقه أن الملك يواجه خطر الهزيمة في أي لحظة. في هذه اللحظة بالذات، سمع عواءً يأتي من خلفه، ثم تذكر الكلب. فصاح بأعلى صوته ومن دون أن يلتفت: "اركض يا بيريتاس! اركض إلى الإسكندر!".

ركض الكلب المولوشي إلى أعلى الممر بسرعة عظيمة، ووصل إلى القمة في اللحظة ذاتها التي انهار فيها سيده بعد أن أصيب بسهم. أمسك الإسكندر درعه بآخر ذرة من القوة التي بقيت لديه. لم يستغرق الأمر أكثر من لحظة واحدة حتى قفز بيريتاس من أعلى السور، وارتطم بسرعة البرق بالأعداء دافعاً إياهم إلى الوراء. سحق بيريتاس يد أحد الجنود بعضة واحدة، ومزّق عنق جندي آخر، وفتح بطن ثالث ما لبثت أحشاؤه أن انسكبت على الأرض. حارب ذلك الحيوان الرائع مثل

أسد، وراح يزجر ميرزاً أنيابه المتسخة بالدماء، وكانت عيناه تومضان، وكأفهما عينا حيوان متوحش.

اغتنم الإسكندر هذه الفرصة كي يزحف متراجعاً، بينما بدأ ليوناتوس، الذي وصل في هذا الوقت إلى القمة مع رجاله، بالركض نزولاً وهو يصيح مثل رجل مجنون، ملوحاً بفأسه في الهواء على شكل دوائر ففتح بذلك ممراً للملك. وحين استدار واجه جنود الأعداء الذين استمروا في الهجوم. قطع أول جندي اعترض طريقه إلى نصفين بدءاً من رأسه ونزولاً حتى أربيته، فترجع الآخرون الذين ارتعبوا لدى رؤيتهم قوته المخيفة. وخلال لحظات، انتشر مئات من جنود الهجوم وحاملي الدروع من المقدونيين في أنحاء المدينة وملاؤا أجواءها بصرخاتهم المرعبة، وصيحاتهم اليائسة، بينما تصاعد ضجيج الأسلحة وسط شراسة المعركة.

جثا ليوناتوس إلى جانب الملك، وفكّ أربطة درع صدره، لكن الإسكندر التفت في هذه اللحظة وقد فاضت عيناه بالدموع: "بيريتاس! لا! ماذا فعلوا بك!".

فقد كانت الدماء وقطرات العرق قد غطت جسد ذلك الكلب المولوشي الذي كان يسير مترنحاً نحوه وهو يئنّ بسبب ذلك الرمح المنغرز بإحكام بين ضلوعه.

صاح ليوناتوس: "استدعوا فيليب لأن الملك جريح!".

تمكن بيريتاس من الوصول إلى يد سيده كي يلحقها لآخر مرة قبل أن ينهار ميتاً أمامه.

راح الإسكندر يئنّ وسط نشيجه: "بيريتاس! لا!". ثم قرّب الكلب منه، وعانق صديقه الذي قدّم إليه أعلى تضحية كي ينقذ حياته.

وصل بيرديكاس والدماء تغطي وجهه، وكاد أن ينهار من شدة الإعياء. "فليب ليس هنا، لأن أحداً لم يفكر في إعطائه حصاناً وسط فوضى هذه المعركة".

قال ليوناتوس بصوت متقطع: "ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟".  
"لا يمكننا أن نحركه وهو في هذه الحالة. يتعين علينا أن نسحب هذا السهم. أمسكوه لأنه سيشعر بألم لا يطاق".  
أمسك ليوناتوس ذراعَي الإسكندر بإحكام وثبتهما تحت ظهره، بينما مزق بيرديكاس سترته فأنكشف الجرح. وضع إحدى يديه على صدر الملك بينما استخدم يده الأخرى لسحب السهم، لكن رأس السهم المعدني كان عالقاً بين عظمتي الترقوة والكتف، فلم يتزحزح السهم قيد أمملة.

قال بيرديكاس: "يتعين عليّ استخدام نصل سيفي كعتلة. اصرخ أيها الإسكندر. اصرخ بأعلى صوت ممكن، لأنني لا أملك شيئاً لتخفيف الألم الذي ستشعر به!".

ثم أخرج سيفه من غمده وأدخله في الجرح. صرخ الإسكندر، وراح جسده يتلوى بسبب وخزات الألم الذي لا يُحتمل. بحث بيرديكاس عن عظمة الكتف بطرف سيفه، ودفعها بقوة إلى الخلف بينما استخدم اليد الأخرى كي يسحب مقبض السهم فتحرر فجأة، لكن الدم تدفق من الجرح بغزارة كبيرة. وسرعان ما انهار الملك فاقدًا الوعي بعد أن أطلق آخر صرخة له.

"اعثر على جمار متوهجة يا ليوناتوس. بسرعة! يتعين علينا كيّ الجرح وإلا سينزف حتى الموت".

عندها، هُض ليوناتوس وركض، ثم عاد بسرعة حاملاً دعامة خشبية محترقة سحبها من منزلٍ محترق وما لبث أن دفعها في الجرح



فصاعدت رائحة اللحم المتفحم التي تبعث على التقيؤ، ولكن الدم توقّف عن التدفق. في هذا الوقت، صنع جنود بيرديكاس نقالة ووضعوا الملك عليها، ثم حملوه إلى خارج بوابات المدينة. أشار ليوناتوس بعينه الحمراءين اللتين تفيضان بالدموع إلى جسد بيريتاس الذي غادرته الحياة، وقال: "خذوه معكم. إنه البطل الحقيقي في هذه المعركة".

نُقل الإسكندر إلى ضفاف النهر حيث نصب نيرخوس خيمَ المعسكر قرابة منتصف الليل، وهو يغلي من شدّة الحمى، وفاقداً وعيه. هرعت روكسانا إليه وهي تصرخ يائسة، ثم جثت إلى جانبه، وقبّلت يده وسط نشيجها. نظرت إلى لبيتين في أثناء إحضارها ضمّادات نظيفة وبعض المياه. بدا وجهها شاحباً بعد أن ارتسمت عليه كل أمارات الرعب والقلق، وذلك في أثناء انتظارهما وصول فيليب.

ظهر الطبيب على الفور تقريباً، وبدأ عمله من دون تأخير فأنحنى على الرجل الجريح. وقصّ في البداية الضمادات المؤقتة التي وضعها بيرديكاس وليوناتوس على الجرح، ثم بدأ بتنظيف الجرح بواسطة الماء الذي أحضرته لبيتين.

وضع الطبيب أذنه على صدر الإسكندر، وبدأ يفحصه بعناية، بينما انتظر أصدقاء الملك سماع رأي الطبيب بعد أن دخلوا لرؤيته بصمت واحداً تلو الآخر.

قال فيليب بعد أن هبّ واقفاً: "ليس هذا، مع الأسف، جرحاً عادياً، لأن رأس السهم قد ثقب رئته. لقد سمعت صوت الدماء وهي تفرقر مع كل نفس يتنفسه".

سأل هيفاستيون: "وماذا يعني ذلك؟".

اكتفى فيليب بأن هزّ رأسه بعد أن عجز عن الكلام.

توترت أنفاس الإسكندر في تلك اللحظة، وما لبث لعبابه الممزوج بدمائه أن سال من فمه فوق وسادته.

اقترب بطليموس من صديقه، ووضع يده فوق كتفه. أما هيفاستيون فقد قال بالرغم من تلك الكتلة التي تجمعت في حنجرتة: "يعني ذلك أن الإسكندر قد يموت. هيّا دعونا نتركه كي يرتاح الآن". في تلك اللحظة، دخل سلوقس الذي قاد المهجمات على المدن الأخرى ومعه كراتيروس ولايسيمانخوس، وسرعان ما أدركوا حقيقة ما يجري. اقترب سلوقس من فيليب وسأله هامساً: "أوجد أي أمل؟". رفع الطبيب عينيه، وسرعان ما لاحظ سلوقس في عينيه نوعاً من الحزن، ونوعاً من الإحباط والعجز إلى حدّ عجز معه عن الكلام قبل مغادرته.

فرغت الخيمة فجأة، ولم يعد يُسمع فيها سوى تفجّع روكسانا الهادئ وهي تبكي حزناً وتقبل يد زوجها، ودموعها تنهمر بغزارة. أما لبيتين التي كانت تشعر عادةً بنوع من الكراهية تجاه أي شخص يكون على علاقة حميمة مع الإسكندر، فقد اقتربت من روكسانا ببطء، ووضعت يدها فوق كتفها هامسة: "لا تبكي. أتوسّل إليك ألا تبكي. يمكنه أن يسمعك، لذلك يجب أن تكوني قوية. يتعيّن عليك أن تفكري... عليك أن تفكري أن الجميع يحبونه... إننا نحبهم جميعاً، والحب أقوى من الموت".

نزع فيليب مئزره الملوّث بالدماء، وقال للمرأتين: "تذكّرا ألا تتركاه بمفرده، ولو للحظات قليلة قصيرة. أنا ذاهبٌ الآن لتحضير كل ما يلزم من أجل تصريف الجرح. أرسلنا في طلبني على الفور إذا حدث أي شيء".

أومأت لبيتين، وما لبث الطبيب أن تناول مشعلاً وغادر الخيمة. وعند عبوره المعسكر شاهد بطليموس وليوناتوس وهما يضعان جسد بيريتاس فوق كومة من الحطب، كما وضعوا إلى جانبه عنان الكلب

المزّين بأزرار فضية، وهي الإجراءات المتبعة عند حرق الأبطال. اقترب الطبيب منهما.

قال بطليموس متمماً: "يا لهذا اليوم الفظيع. ما إن بدا أننا وضعنا كل الآلام والتعب وراءنا..."، ومسّد بيده جسد الكلب الذي غادرته الحياة، والمسجّى على بطانية مصنوعة من الصوف الأحمر. قال والدموع تفيض من عينيه: "سأفتقده لأنه كان يرافقي على الدوام عندما أكون في نوبة حراسة". في تلك اللحظة، وصل كراتيروس مع ثلة من جنود البيزيتاروي الذين توزعوا على جانبي المحرقة.

قال لليوناتوس شارحاً الأمر: "شعرنا بأنه يستحق كل مظاهر التكريم، لأنه كان الحارس الأول للملك".

ثم تناول مشعلاً كي يُشعل المحرقة، وانتظر إلى أن بدأت السنة اللهب بالتصاعد مبددةً الظلمة، فصاح: "قدّموا سلاحكم أيها البيزيتاروي!".

رفع جنود المشاة رماحهم تحيةً. وفارق بيريتاس سيده للمرة الأولى منذ أن قدّم إسكندر إييروس هذا الكلب إلى الإسكندر.

\*

راقب فيليب الطبيب الملك طيلة الليل، وكذلك فعلت روكسانا وليبيتين، ولم تستسلم الملكة للنوم إلا عند الفجر، وذلك لأنها كانت متعبةً من قلة النوم لمدة طويلة. راحت الملكة تئنّ باستمرار بفعل الألم والحزن.

دخل هيفاستيون وبتليموس عند مطلع الفجر، وبدا عليهما أنهما لم ينالا قسطاً من الراحة بدورهما. سألا عند دخولهما: "كيف حاله؟". أجاب فيليب: "تمكّن من الصمود في هذه الليلة. لا يمكنني إخباركما المزيد".

قال هيفاستيون بجزن: "إذا مات، فسنحرق هذه المدن مع كل سكانها تكريماً له".

ردّ فيليب: "دعونا ننتظر ونرى ماذا سيحصل، لأنه لا يزال حياً".  
مرّ يومان آخران، وبدا أن حالة الملك الصحية تتدهور من دون أن تمنحهم الأمل بالتحسن. أصاب الورم صدره بالرغم من أدوات التصريف التي أدخلها فيليب، كما بقيت حرارته مرتفعة جداً، وظلّ تنفّسه متقطّعاً، بالإضافة إلى تحوّل لون جلده إلى لونٍ يشبه لون الرماد، كما ظهرت هالتان سوداوان حول عينيه الغائرتين.

لازمه رفاقه، وبقوا متنبهين كي لا يزعموه، كما تناوبوا على مراقبته، ولم يستسلموا لسلطان النوم إلا بعد أن نال منهم الإهناك تماماً. وغرق المعسكر الذي كان يعج بالحياة والضجيج عادة بسكونٍ غير طبيعي. بدا الأمر وكأن الزمن قد توقف.

ارتفعت حرارة الإسكندر كثيراً في ذلك المساء، كما صعّبت عليه عملية التنفس كثيراً، فما كان من فيليب إلا أن هبّ واقفاً بشكلٍ مفاجئ، وغادر الخيمة.

سأل ليوناتوس: "إلى أين ذهب؟".

ردّ هيفاستيون: "لا أعرف. لم أعد أعرف شيئاً بعد الآن. لم يعد هناك شيء نعرفه الآن...".

سار فيليب في وسط المعسكر، وألقى نظرةً سريعةً على أريستاندر الذي كان يتابع تقديم الأضحيان في مذبحه الذي تصاعد منه الدخان طوال الليل. وخرج بعد ذلك إلى مكان تواجدت فيه شجرة بانيان، ووقف هناك أمام جسد كالانوس النحيل فوجده غارقاً في التأمل.

قال له فجأة: "استيقظ".

فتح كالانوس عينيه.

"برهنت أسيدانا عن عجزها التام، وكذلك علومنا. أنقذ الإسكندر إذا كنتَ تستطيع ذلك، أو غادرنا ولا تعد".

وقف كالانوس بسرعة، فبدا وكأنه لا يزن شيئاً، ثم سأل: "أين هو؟".

أجاب فيليب وهو ينطلق مبتعداً: "إنه في خيمته. تعالَ معي".

تبعه كالانوس، ودخلا إلى الخيمة الملكية التي كانت مضاعفةً بالمشاعل.

أمر بصوتٍ حازم: "أطفئوها كلها، ودعونا بمفردنا".

أطاع الجميع أوامر كالانوس الذي جلس متربعاً وراء سرير

الإسكندر، وراح يحدّق من خلال الظلمة إلى رأس الملك، وقد توتّر

جسده إلى أن أصبح مثل كتلة حجرية.

وجدوه جالساً هناك بهذه الوضعية مدّة ثلاثة أيام متتالية. وفجر

اليوم الرابع، دخل فيليب كي يغير أدوات تصريف الجرح، وسحب

زاوية من الستارة التي تغطي مدخل الخيمة كي يسمح لقدرٍ قليل من

الضوء بدخول الخيمة. كان يغسل يديه في حوض مياه قبل أن يبدأ

بتغيير الضمادات عندما سمع صوتاً ضعيفاً ينادي من ورائه: "فيليب...".

فالتفت من دون تأخير قائلاً: "يا مليكي!".

كانت الحمى قد خفّت قليلاً، فيما انتظم تنفسه. أمّا دقات قلبه

فكانت ضعيفة ولكن منتظمة. أصغى إلى صدره، فلاحظ أن قرقرة

الدماء قد اختفت. نادى لبيتين: "أبلغني الملكة بأن الملك قد استعاد

وعيه. أريدك أن تحضّري له بعض المرق على الفور. يجب علينا أن

نغذّيه لأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة".

انصرفت لبيتين للقيام بواجباتها، بينما أخرج فيليب رأسه خارج

الخيمة على الفور، ونظر إلى حيث كان لايسيماخوس وهيفاستيون

ينتظران، وقال لهما: "أخيرا الآخرين بأن الملك قد استيقظ".

سأل هيفاستيون بقلق: "وكيف حاله؟".

ردّ الطبيب بحشونة: "وكيف ستكون برأيك؟ إنه مثل رجلٍ أصيب بسهم حديديّ استقرّ في كتفه".

عاد فيليب إلى العناية بالإسكندر، وعندها فقط رأى كالانوس مستلقياً بسكون على الأرض، وهو أشبه بالجثة الباردة. صاح على الفور: "آه! بحق زيوس!".

وأمر مساعديه بنقل كالانوس إلى خيمته، وبتدفئته بكل الطرائق التي يمكنهم التفكير فيها، وبإعطائه شيئاً لياًأكله، وحتى بالقوة إذا اضطروا إلى ذلك، ثم عاد للاهتمام بالإسكندر. في هذا الوقت، كانت روكسانا إلى جانبه وكانت تحدّق إليه غير مصدقة، بينما كانت لبيتين تحاول إقناعه بتناول بعض المرق بالطريقة الوحيدة الممكنة، أي بتغميس قطعة قماش في المرق ووضعها على شفّتيه بحيث يستطيع امتصاصها. سأل الإسكندر ما إن رأى فيليب: "ماذا حدث؟".

ردّ الطبيب: "حدث كل شيء يا مليكي، لكنك لا تزال حياً، ولديّ كل الأمل بأن تبقى كذلك. لا يمكنك أن تعرف مدى سروري". وأضاف بصوت مرتعش: "لا يمكنك أن تصدّق... لكن، أرجوك أن تتوقف عن الكلام الآن. إنها معجزة أن تبقى على قيد الحياة، وأعتقد أن كالانوس هو الذي صنع هذه المعجزة".

قال الإسكندر متمتماً: "بيريتاس...".

"لم يتمكن بيريتاس من النجاة. قال لي ليوناتوس إنه مات كي يُنقذ حياتك. لذا، أريدك ألاّ تضيّع تضحيته سدى. حاول أن تأكل قبل أن تخلد إلى الراحة. استرح أرجوك".

شرب الإسكندر شيئاً من المرق الذي قدّمته إليه لبيتين، ثم ألقى رأسه على الوسادة مغمضاً عينيه، لكن دموعه انسابت من خلال جفنيه المغمضين ونزلت فوق خدّيه قبل أن تبلّل وسادته.

استلقى الملك في سريره متأرجحاً بين الموت والحياة لأيامٍ كثيرة. ولكن، تبين أن جميع الجهود التي بُذلت في سبيل إرجاعه إلى الحياة قد ذهبت سدى. فحالته العامة بقيت حرجةً للغاية، وبقي التحسّن طفيفاً إلى حدّ أن فيليب لم يعد متأكداً من إمكانية إنقاذه، أو إن كان ثاناتوس قد ابتعد عنه مؤقتاً بسبب بطولة كالانوس ولكنه سيعود للضرب مجدداً بهدف انتزاع روح سبق له أن ادّعى ملكيتها. وحده الحكيم الهندي كان واثقاً من نجاته، حيث إنه استمر في القول: "عقدت اتفاقية، ولذلك سيتحسّن". لكنه امتنع عن إضافة أي شيء عندما كان أي شخص يسأله عن تفاصيل أكثر.

مرّ شهر كامل قبل أن يتمكّن الإسكندر من الجلوس متكئاً على طرف سريره، كما مرّ عشرون يوماً آخر قبل أن يتمكن من شرب الحساء بمساعدة لبيتين التي كانت تطعمه بواسطة الملعقة بينما كانت روكسانا تنظر إليهما. لم يتكلم كثيراً، وفعل ذلك بصعوبة بالغة. وكان إيومينيس يأتي بين الحين والآخر كي يقرأ له أشعار هوميروس. تسلّم الأمين العام مهامّ الملك السياسية، وذلك بعد إجماع الرفاق على ذلك. واعتادت روكسانا في أوقات أخرى أن تغني له أغاني شائعة في منطقتها الجبلية. كان صوتها هادئاً ومرافقاً مع ألحان بسيطة وموحية تعزفها على قيثارتها.

وبعد مرور شهرين، وأفق فيليب على أن ينهض الإسكندر ويخطو خطوات عدة داخل الخيمة، وذلك بمساعدة كراتيروس وليوناتوس. ولكن، كان من الواضح منذ البداية أنّ هذا المجهود البسيط سبب له



تعباً لا يوصف في ما بعد، وجعله يتصبّب عرقاً، وما لبث أن استسلم مجدداً لنوم عميق.

في إحدى المرات، دخل ليوناتوس مع كراتيروس وهيفاستيون الخيمة، بينما كانت لبيتين تحاول جاهدة أن تجعله يبتلع شراباً ساخناً. مرّر الرجل يده في شعره الأشعث، وقال مقتنعاً بفكرته: "وماذا لو كنا سنعطيه كوب نسطور؟".

نظر إليه فيليب بشفقة ظاهرة في عينيه: "أنت لا تعرف ماذا تقول. ألا تعلم أن مزيج العسل والطحين، والشراب، والجن، من شأنه أن يقتله؟". قال ليوناتوس بعد أن شعر بالإهانة: "يُحتمل أنك محقّ. ولكن، هل سمعت الإشاعات التي سرت في الخارج؟ يقولون إن الملك قد مات، وإننا نخفيه كي نتجنب حدوث ذعر بين الجنود".

صاح فيليب: "كيف يتجرأون على هذا التفكير. يعلم الجميع أن الملك حي".

قال هيفاستيون: "ليس هذا هو واقع الحال. إننا نعرف هذا، لكن الآخرين لا يعرفون. أعطيت أوامر بالأمر بآلا يراه أحد في وضعه هذا، حتى الحراس. إذ إن تأثير ذلك على معنويات الجنود سيكون مأساوياً لمعرفةهم بأنه مات".

قال إيومينيس موافقاً: "بالضبط. في الحقيقة، لم يره الجنود منذ أشهر، بينما يروننا نأتي إلى خيمته ونخرج منها باستمرار، أو عندما نعقد اجتماعاتنا، كما أن عدداً من الجنود رأوني وأنا أستخدم ختم الملك على الوثائق التي أرسلناها إلى المقاطعات".

قال كراتيروس موافقاً: "هذا هو شعوري أنا أيضاً. تفكّر بعض فرّق الجيش في إمكانية دعوة جمعية عامة للجيش المقدوني. أتعلمون ماذا يعني ذلك؟".

أوماً إيومينيس: "يعني أنه بإمكانهم إجبارنا على استقبال وفدٍ منهم في الخيمة الملكية كي نريهم الإسكندر وهو في هذا الوضع".  
التفت فيليب عند هذا الحد: "لن يدخل أحد هذه الخيمة من دون إذني طالما أنا موجود هنا، لأنني طبيب الملك الخاص، وأنا أتحمّل مسؤولية...".

فوضع كراتيروس يده على كتفه: "إذا غاب الملك، فإن الجمعية العامة للجيش ستتولى السلطة المطلقة. يمكنهم أن يفعلوا هذا الأمر، وسيفعلونه بالتأكيد قريباً".

دخل سلوقس ولايسيمachus كي يستفسر عن صحة الملك، فلاحظوا جو التوتر السائد في الخيمة. سأل سلوقس: "ماذا يجري؟".  
بدأ كراتيروس بالقول: "الواقع هو...".

لم يلاحظ أحد وجود الإسكندر منذ أن بدا بأنه استغرق في نوم عميق، لكن صوته أخذهم جميعاً على حين غرة: "أصغوا إليّ".

التفت الرفاق بدهشة وحرص. أدرك إيومينيس أنه لا بد من أن يكون الملك قد سمع كل ما دار في الخيمة من أحداث، لذلك حاول أن يشرح ما يجري: "أيها الإسكندر، هذا أمر سهل حلّه في ما بيننا...".  
رفع الملك رأسه ويده اليمنى بإشارة واضحة، فتوقف الجميع عن الكلام.

"يا سلوقس...".

أجاب صديقه بصورة عفوية بعد أن تأثر لكونه تلقى أمراً من الإسكندر بعد كل هذا الوقت الطويل: "في خدمتك يا مولاي".

"أريدك أن تدعو الجيش إلى التجمع. أريد أن يتجمع كل الجنود بعد غياب الشمس".

"أجل يا مولاي".

"يا ليوناتوس...".

ردّ ليوناتوس الذي أظهر دهشةً تفوق دهشة سلوقس: "في خدمتك يا مولاي".

"جهّز لي جوادي. أريد الجواد البني...".

"الجواد السرماشي. أجل، أجل. بالطبع يا مولاي".

صاح فيليب: "بالطبع لن تفعلوا أموراً كهذه. ماذا يحدث هنا..."

هل جننتم جميعاً؟ إن الملك ليس في حالة تسمح له...".

رفع الإسكندر يده مجدداً، ولم يقل فيليب أي شيء آخر بصوت

عالٍ، لكنه بقي يتمتم بينه وبين نفسه.

"يا هيفاستيون...".

"أنا أصغي".

"حضّر لي درعي. أريدها أن تكون لامعة إلى أقصى حدّ ممكن".

ردّ هيفاستيون بالرغم من تلك الكتلة التي تجمعت في حنجرتة:

"ستكون جاهزة. ستكون لامعة ومشرقة مثل النجمة الأوغادية".

اقتنع جميع الحاضرين في هذا الوقت بأن الملك لم يعد راغباً في

ملازمة فراشه، وأنه فضّل أن يموت على سهوة حصانه. حتى إن فيليب

كان متأكداً من ذلك أيضاً، فجلس في إحدى زوايا الخيمة وهو يتمتم

لنفسه: "افعلوا ما يحلو لكم. نفذوا ما تريدونه إذا كنتم ترغبون في قتله.

لكن لا علاقة لي بكل هذا...". ولم يتمكّن من قول أي شيء آخر

بسبب تأثيره بفكرة فقدانه الإسكندر.

قال الملك: "ليوناتوس. أريد الجواد هنا في هذه الخيمة".

أجاب صديقه بعد أن عرف أن الملك لا يريد أن يراه الجنود وهو

يمتطي الجواد بمساعدة آخرين: "سأحضره إلى هنا".

"يمكنكم الانصراف جميعاً الآن".

أطاع الحاضرون أمر الإسكندر الذي ألقى نفسه فوق الوسادة، واستسلم للنوم فور انصرافهم. وبعد فترة أيقظه صوتا هيفاستيون وليوناتوس. لاحظ الملك عندما فتح عينيه أن أنوار الشمس الغاربة قد أضاءت الخيمة جزئياً.

قال هيفاستيون: "إننا جاهزان".

أوما الإسكندر، وجهد كي يرفع نفسه، ثم جلس على حافة السرير، وطلب إلى صديقيه أن يساعدها على الذهاب إلى الحمام. غسلته لبيتين، وعطّرت جسمه وشعره، ثم بدأت بمساعدته على ارتداء ثيابه.

قال الملك: "ضعي بعض اللون على خدي". أطاعت الفتاة، واستخدمت بعض مساحيق التجميل كي تضيف بعض الحيوية إلى خديها، وكي تغطي الهاليتين الداكنتين اللتين أحاطتا بعينيه. داعب الإسكندر وجهها وقال: "سأرتّب لك زواجاً من رجلٍ عظيم في إمبراطوريتي، وسأعطيك مهراً يليق بملكة". تكلم بصدق، وبنبرة صوت توحى بطمأنينة عظيمة. وسأل أصدقاءه عندما أنهت لبيتين عملها: "كيف أبدو؟".

أجاب ليوناتوس مع ابتسامة حجولة: "لست سيئاً. تبدو مثل ممثّل".

"والآن أريد درعي".

ساعد هيفاستيون الملك على ارتداء درع صدره ودرعي ساقيه، وعلّق له سيفه إلى جانبه، ثم وضع له الإكليل فوق رأسه. "أحضرا لي جوادي. هل تجمّع الجنود؟".

قال له هيفاستيون مؤكداً: "إنهم في تشكيلاتهم جميعاً".

خرج ليوناتوس، وعاد مصطحباً الجواد السرماشي ممسكاً إياه بعنانه، وقاده إلى داخل الخيمة عبر مدخلٍ خلفي. عندها، جثا

هيفاستيون، وشبك يديه كي يستعين بهما الإسكندر. وضع الملك قدمه عليهما حتى تمكّن من الصعود على صهوة الجواد.

اقترب ليوناتوس منه حاملاً بعض الأربطة في يديه: "اعتقدنا أن ربطك إلى الجواد سيكون فكرةً جيدة، كما أن هذه الأربطة لن تكون ظاهرة لأنها ستكون مغطاةً بعباءتك".

لم يجب الإسكندر، لكن صمته فُسرّ على أنه موافقة. وضعا له حزاماً كبيراً حول خصره، وثبتا بقية الأربطة به، وكانت عبارة عن أربعة أربطة: رباطين من المقدمة، ورباطين من الخلف، وربطت جميعها بصهوة الجواد. ثم ألبساه عباءته الأرجوانية حيث غطت الأربطة المؤقتة تماماً. قال أمراً: "هيا بنا الآن".

نظر هيفاستيون إلى خارج الخيمة، وأوماً ليوناتوس وكأنه يقول: "هيا، الآن!". رفع هيفاستيون يده، وكانت هذه إشارة متفق عليها مسبقاً، فدوّى من بعيد صوتٌ عميق كسر الصمت الثقيل المخيم على المكان عند غياب شمس ذلك اليوم. دوّى صوت فرقة وتبعه آخر، ثم صوتٌ آخر مجدداً! وضع الإسكندر يده على أذنه وكأنه صعب عليه تصديق ما يسمعه، ثم انتصب جالساً بصورة فطرية، ونخس بطن الجواد بكعبيّ حذائه، فتحرك الجواد خارجاً من الخيمة، وسار حولها ثم انطلق بهدوء عبر الجنود.

استمر سماع الأصوات العميقة والبطيئة، والتي أضافت إيقاعاً إلى وقع الخطوات المهيبه لذلك الجواد القوي. جهد الإسكندر لكبح دموعه وهو يشعر باهتزاز الهواء نتيجة ذلك الصوت المرعد الذي يصدر عن طبل شايرونيا!

وقف الجنود ساكنين في صفوفهم، وأمسكت أيديهم بمقابض رماحهم بإحكام. نظروا بدهشة، بينما كان مليكهم يتحرك إلى الأمام

وهو يستعرضهم بنظرة فخورة، وحازمة، وقاسية. وما إن كان يتقدم من فرقة حتى كان الضابط المسؤول عنها يخطو إلى الأمام، ويستل سيفه صارخاً: "تحياي مولاي!". وكان الإسكندر يرد بانحناء بسيطة من رأسه.

سكت طبل شايرونيا عندما وصل الإسكندر إلى نهاية الصف. فتقدم أرفع ضابط مسؤول عن الهيتايروي بجواده إلى الأمام وصاح: "في خدمتك يا مولاي!".

قال الإسكندر: "اعزفوا إشارة التفرّق". وجذب عنان جواده، بينما كانت الأبواق تصدح بإشارة التفرّق، فانطلق الملك بجواده نحو الخيمة. تمتم فيليب وهو ينظر إليه من بعيد: "إنه مجنون. يُحتمل أن تتسبب أي هزة من هذه الاهتزازات بوقوعه على الأرض و...". ردّ سلوقس وهو يربّت على كتف الطبيب: "لن يسقط على الأرض. لن يسقط".

لم يتمكن بطليموس من تحويل أنظاره عنه: "إذاً، هذا ما أراده. رآه الجميع، وهم يعرفون الآن أنه حيّ، وأنه استعاد مركز القيادة". دخل الإسكندر الخيمة على صهوة جواده، فأسرع أصدقائه إلى فكّ الأربطة، وساعدوه على النزول عن صهوة جواده، ثم بدأوا بنزع عباءته، ودرع صدره، ودرعي ساقيه بالإضافة إلى سيفه. قال فيليب أمراً: "خذوه إلى سريره على الفور".

هزّ الإسكندر رأسه، وسار مترنحاً قليلاً نحو كرسيه الميداني، ثم وضع يديه على الطاولة وقال: "إنني جائع. أيرغب أحدكم في أن يأكل شيئاً معي؟".

نظر الحاضرون إليه بدهشة، حتى إن ليوناتوس توقف عما كان يفعله، ووقف ممسكاً بعنان الجواد.

نادى الملك: "ليبتين. أزيلني كل هذه الأغراض عن الطاولة، وأحضري لي شيئاً من كوب نسطور".

ردّ فيليب: "كوب نسطور! إذاً، هل قرّرت بالفعل أن تموت؟ لن تستطيع أبداً هضم هذا الشراب، وستمرض، وستتقيأ وستفتح جروحك مجدداً، و...".

كرّر الإسكندر أوامره: "أحضري كوب نسطور". حدّق إليه الحاضرون فاغري الأفواه. فلقد بدا أنه وُلد من جديد وتغيّر كلياً.

همس كراتيروس في أذن الطبيب: "حدث ذلك بفعل صوت الطبل ومشاهدته جنوده. دعه يأكل. سيكون على ما يرام. ستري".

أحضرت ليبتين الكوب فبدأ الإسكندر بتناوله. كانت الإشارة الوحيدة التي تدل على إجهاده هي تلك الحلقة الصغيرة من حبيبات العرق التي توجت جبهته. راقب فيليب ما يجري بذهول، واستمر في تحريك فكّيه، وكأنه كان يسعى إلى مساعدة الملك على المضغ. وحذا الآخرون حذوه بعد أن تحلقوا حول الطاولة، لكنهم عجزوا عن تصديق ما يرونه.

نظّف الإسكندر فمه بعد أن فرغ من تناول طعامه، ثم نظر إلى أعين الحاضرين المندهشين.

سأل: "ما الأمر. ألم يسبق لكم أن شاهدتم رجلاً يتناول طعامه؟".

تمكّن الملك في غضون شهرٍ آخر من الوقوف على قدميه مجدداً، حتى إنه تمكّن من الركض، ومن الخروج بجولات على صهوة جواده، بالإضافة إلى التصارع مع ليوناتوس. وفي نهاية الصيف، أعطى الإسكندر أوامره بإزالة المخيم كي يصعد الجنود إلى المراكب مجدداً. ساروا مع مجرى النهر لمدة يومين إلى أن وصلوا إلى المنطقة التي تسمى السند. وهناك، طلب الإسكندر إلى نيرخوس أن يأمر برسو كل مراكب الأسطول. شرح المرشدون بأن هذه نقطة الانطلاق التي تؤدي إلى ممرٍ جبلي يوصل بدوره إلى إسكندرية أراخوزيا.

استدعى الملك رفاقه إلى خيمته لتناول العشاء معه، وعرض عليهم خريطةً رسمها له الضباط المسؤولون عن الزحف بمساعدة المرشدين المحليين، وكانوا خليطاً من الهنود والفرس. تكلم بعد ذلك مع كراتيروس: "ستنتقل في الغد مع نصف الجيش، وستعبر أراخوزيا ودرانجيانا. أريد منك أن تعيد إرساء النظام حيث تجد ثورات، أو إخلالاً بالنظام العام. أخبرنا البحارة الهنود بأن السند ليس رافداً، لأنه يصب مباشرةً في المحيط عند باتالا. تقضي خطتي بأن يُبحر نيرخوس وأونيسيقرط من باتالا بالأسطول بمحاذاة الساحل الجنوبي للإمبراطورية، بينما آخذ أنا بقية الجيش براً كي أضمن وصول المؤن إلى السفن عند كل نقطة من نقاط التوقف بعد كل يومٍ من أيام الإبحار. سنلتقي جميعاً في سهل مدينة هرمز، وهي المدينة التي تسيطر على المضائق التي تصل ما بين الأقيانوس والخليج".



سأله كراتيروس: "لماذا ترغب في المرور عبر جيديروسيا؟ يقولون إنها منطقة مخيفة، وصحراء تحرقها أشعة الشمس كل يوم، كما أنها تخلو من كل أنواع النباتات، فلا حشائش فيها ولا أشجار."  
"إن الحدود الجنوبية للإمبراطورية هي المناطق الوحيدة التي نجهلها. يتعين علينا أن نتحرك في ذلك الاتجاه."

أكل الحاضرون وشربوا باعتدال لأن الملك كان يشعر بين الحين والآخر بالتأثيرات اللاحقة للحروح التي أصيب بها، كما أنهم خلدوا إلى النوم في وقت مبكر نسبياً. كان الجيش بأكمله متجمعاً فجر اليوم التالي من أجل إلقاء التحية على فرقة كراتيروس التي كانت على وشك المغادرة. عانقه الإسكندر بشدة وقال له: "إنك أحد أعزّ أصدقائي. سأفتقد إليك."

"سأشتاق إليك بدوري. أتوسّل إليك أن تعتني بنفسك. ألاحظ بأنك امتحنت الأقدار كثيراً حتى الآن، فلتحرسك الأسياذ ولتبتسم لك."

"لنبتسم الأسياذ لك أيضاً."

قفز كراتيروس إلى صهوة جواده، ورفع يده في إشارة إلى الجنود كي ينطلقوا وسط أصوات الأبواق المدوية، وصرخات التحية التي أصدرها الرفاق الذين بقوا مع الإسكندر. وما إن اختفت آخر مجموعة من الحراس المكلفين بحماية القسم الخلفي من الجيش وراء تلك الأراضي الواسعة التي تؤدي إلى الصحراء، حتى أمر الإسكندر جنوده بالصعود إلى السفن والانطلاق. أبحروا جنوباً، وكانوا في كل مرة يتوقفون فيها يخطون بولاء الأمراء المحليين إلى أن وصلوا إلى باتالا، وهي مدينة عظيمة تربض عند نهاية السند. اكتظت المدينة بالسكان، وامتازت بغناها، وكان سكانها يمارسون كل أنواع التجارة مع السفن التي تصل من كل

أصقاع العالم. كانت سفن كثيرة تصل إليها من جزيرة كبيرة تقع شرقاً وتُدعى تابروباين، والتي يُقال إنها كبيرة مثل الهند بأجمعها.

ومن هناك، تحرك الأسطول إلى آخر بقعة قبل الوصول إلى المصب. كان النهر عند تلك النقطة متسعاً جداً، وكان عريضاً حيث إنه يستحيل النظر من ضفة إلى الضفة الأخرى. قام أونيسيقرط بحساب عرضه فبلغ نحو خمسين ستاديا.

وصلوا في آخر مساء من أيام إبحارهم إلى مصب النهر، فقرر نيرخوس ربط السفن عند نقطة يكون التيار فيها بطيئاً جداً حيث لا يعود ملحوظاً تقريباً. وفي الواقع، كان نيرخوس يخشى أنهم إذا غامروا بالإبحار في عرض البحر، فلن يتمكنوا من إيجاد ملاذ لهم إذا هبت عواصف مفاجئة. لكن ما حدث بعد ذلك كان كارثة لا تقل فظاعة عن العاصفة. فلقد انخفض مستوى المياه في أثناء الليل إلى درجة علقت معها السفن في رمال البحر، وهو الأمر الذي تسبب في انقلاب بعضها. أمر نيرخوس الجميع بالبقاء في أماكنهم وبالانتظار إلى أن تبدأ المياه بالارتفاع مجدداً، ثم توجه إلى الإسكندر وهو في حالة قلق شديد.

"لم يكن باستطاعتي توقع هذه الظاهرة، بالرغم من أنني سمعت قصة من أحد بحارة ماساليا، ويُدعى باتياس. وصف الرجل مكاناً في الأقيانوس الشمالي يضم فجوة كبيرة تبتلع المياه ثم تتقيأها بعد ذلك، أي أنها تكشف أقساماً كبيرة من الشاطئ ثم تغطيها مجدداً. لم يصدقه سوى عدد قليل من الناس. ونحن لسنا في الأقيانوس الشمالي. فكيف كان بإمكانني أن أتصور إمكانية حدوث شيء كهذا؟ إنها كارثة... كارثة!".

رد الإسكندر: "لقد أنجزت أعمالاً استثنائية للغاية في السابق. لا تعذب نفسك. أعرف أننا سنخرج منتصرين من هذا الصراع مع

النهر والبحر. واجه سلفي آخيل السكامندار وقهره. سأربح أنا بدوري. دعنا ننتظر مرور هذه الليلة، لأن نور النهار سيغيّر أشياء كثيرة".

في تلك الليلة، ظهر قمرٌ جديد وزادت الظلمة من الشعور بالهلع والاضطراب. أمر نيرخوس بإطلاق إشارة الإنذار بالأبواق، وأرسل مناديين من سفينة إلى أخرى لتبليغها الأوامر بوجود عدم التحرك لأي سبب. شعر عدد من البحارة بالهلع بسبب هذه الظاهرة، وبسبب الشائعات التي سبق لهم أن سمعوها في مطاعم مدّهم، فقرروا الهرب تحت جناح الظلام سعياً وراء الأمان الذي تمثله اليابسة. مات هؤلاء جميعاً بعد أن ابتلعتهم المياه والرمال المتحركة. أما الذين اندفعوا من أجل إنقاذ رفاقهم فقد ابتلعهم البحر بعد أن حمل هواء الليل صرخاتهم ونداءاتهم اليائسة لتلقي النجدة، لكن رفاقهم الذين بقوا على متون السفن شعروا بالحزن والهلع بسبب عدم قدرتهم على القيام بأي شيء لتقدم المساعدة. تلاشى الصراخ بعد ذلك، وسكتت أصوات الغرقى الواحد تلو الآخر، وكان كل ما يُسمع هو صرخات الطيور البرية، وزئير نمرٍ يجول بعيداً وسط الغابات بحثاً عن طريدته.

تعلقت روكسانا بالإسكندر في سفينة القيادة، وكانت ترتجف من الخوف، ومرتعبة من الطبيعة المعادية والمتوحشة المحيطة بهم، وهي التي تختلف تماماً عن العالم الطبيعي الذي يحيط بها في جبال بلادها حيث السماء صافية. وقف نيرخوس وبجارته ساكنين صامتين، لكنهم كانوا يهمسون بين الحين والآخر بقصصهم البحرية. تناهى إلى أسماعهم قبل الفجر بقليل ضجيج بعيد غير مألوفٍ لديهم فالتفت الملك وهو يصغي السمع جيداً.

سأل: "هل سمعت ذلك؟".

بدأ نيرخوس بالركض نحو مقدمة السفينة، وانحنى بعد وصوله إلى هناك في محاولة منه لاكتشاف مصدر الضجيج الذي بدأ بالتزايد في هذا الوقت مع مرور كل لحظة. فجأة، رأى نوعاً من الأمواج المزبدة البيضاء والمخيفة التي كانت تتحرك نحوهم وسط ضوء الصباح الشاحب. كان الضجيج الصادر عنها مثل صوت الأحصنة البيضاء وهي تسرع نحو الأسطول الساكن والضعيف الثابت في هذه الأرض الطينية.

صاح الأميرال: "الأبواق! أطلقوا إشارة الإنذار بالخطر! أطلقوا الإنذار! عادت المياه في طريقها إلينا! اذهبوا إلى مجاذيفكم أيها الرجال، بسرعة إلى المجاذيف! رجال الدفة توجّهوا للقيام بأعمالكم". ثم ألقى حبلًا إلى الملك وسط أصوات الأبواق التي ملأت سماء هذا الصباح الشاحبة، وذلك كي يربط نفسه بسارية السفينة مع روكسانا، وما لبث هو نفسه أن أسرع نحو الدفة كي يساعد بقدر ما يستطيع، واستعد لتلقي صدمة الموجة.

سمع البحارة الآخرون إشارة الإنذار فأطلقوا الإشارة ذاتها بأبواقهم، فترددت في أجواء هذه المنطقة المليئة بالمستنقعات أصوات الصرخات اليائسة والبكاء.

كان تأثير تلك الموجة العظيمة مرعباً. حتى إن الماء رفع بعض السفن قبل أن يرميها إلى الخلف وكأنها أغصان أشجار، بينما تحطمت السفن المنغرزة في الوحول، وتحولت إلى مجموعة من القطع المتناثرة. أما السفن التي كانت جوانبها معرضة لتلك الموجة، فقد انقلبت وانسحقت بفعل كتلة المياه الضخمة.

تمسك أونيسيقریط، وهو قبطان السفينة الملكية التي تحوي خمسة صفوف من المجاذيف في كل جهة، بالدفة وراح يصيح برجاله أمراً

إياهم بالتحذيف بكل قواهم من أجل إبقاء السفينة في وضعها السليم. ألصق القبطان كتفه بعمود الدفة من أجل مواجهة قوة الدوامات التي شكّلها المدّ والفيضان على سطح المياه.

هدأت الموجة الكبيرة في نهاية الأمر، فتوازنت قوة دفعها مع مجرى نهر السند، وهكذا تمكن نيرخوس من النظر حوله كي يقدر حجم الكارثة. تحطمت مئات السفن وطفّت أجزاءها على سطح المياه، وتضرّر عدد كبير آخر، وامتلاً المكان بالجنود الذين كانوا يتحركون بيأس في المياه بعد أن تمسكوا بدعائم وألواح خشبية خلال طفوهم على سطح المياه.

مضى النهار بأكمله في تجميع الناجين من تحطّم السفن، كما أن الإسكندر ذاته بذل كل ما في وسعه من أجل إنقاذ رجاله، وغاص بالفعل في المياه في بعض الحالات من أجل مساعدة أولئك الذين كانوا على وشك الانهيار تحت وطأة الإجهاد الناتج عن محتتهم هذه.

في ذلك المساء، ألقت السفن مراسيها وراء المصب مباشرة، وعلى الشواطئ الرملية للأقيانوس، كما دقّ قادة الوحدات بأسماء الحاضرين من البحارة، فتيّب لهم أن أكثر من ألف وخمسمئة رجل قد غرقوا. وُضعت كل الجثث التي أمكن التقاطها في محرقة أمام الجيش المتجمع، وراح الجنود يصرخون وسط الهواء والأمواج بأسماء رفاقهم الذين ماتوا، وذلك كي لا تضيع ذكراهم إلى الأبد.

أما بالنسبة إلى تلك الجثث التي تعدّرت التقاطها، فقد ترأس الملك طقساً جنائزياً، وأمر بإقامة نصب تذكاري على الشاطئ، وذلك كي ترتاح أرواحهم في العالم الآخر، لكنّه شكر الأسياد من أعماق قلبه لأن أحداً من رفاقه لم يهلك، ولأنه تمكّن من معانقتهم جميعاً. وأثنى كذلك على نيرخوس وأونيسيقریط لأنه بفضل شجاعتها ومهارتهما لم تتحوّل هذه المأساة إلى كارثة.

بقي الجيش معسكراً على الشاطئ لمدة عشرين يوماً، وذلك لإتاحة الفرصة أمام جميع الجنود الناجين للانضمام إلى وحداتهم، وكي يتأكدوا من إصلاح كل السفن.

وجد الجيش منطقة محمية على مسافة قريبة، وكانت هذه البقعة محاطةً بحقول خصبة، وتقع على حدود الصحراء التي تسكنها القبائل الأوريتية. أسس الإسكندر مدينة هناك، وأسكن فيها كل الجنود الذين لا تساعدهم صحتهم على تحمّل الرحلة الطويلة عبر الصحراء الجيدروسية. بنى الإسكندر رصيفاً وميناءً محمياً، كما خصّص منطقة مغلقة تضم هياكل. استعد الإسكندر بعد ذلك لاتخاذ قرار يتعلق بتحديد وقت المغادرة بالنسبة إلى الأسطول والجيش على حدّ سواء.

"سيكون الأمر رائعاً جداً لو كان هذا النهر بالفعل القسم الأعلى من النيل كما يؤكد بعض الناس. ففي هذه الحالة، سنتمكن جميعاً من الإبحار إلى مصر".

ردّ نيرخوس: "إن الأمر ليس كذلك مع الأسف، لأنه يتطلب أكثر من وجود رجال ذوي بشرةٍ داكنةٍ وتماسيح من أجل تكوين نهر النيل".

ردّ الملك: "هذا صحيح. لكن، الزم جهة الشاطئ حيث يكون الجيش تحت أنظارك على الدوام، وذلك كي تتمكن من النزول إلى الشاطئ ما إن ترى نيراننا، لأن ذلك سيسهّل الأمور علينا في ما يتعلق بتزويدك بالأطعمة والماء".

"سأفعل ذلك إذا كان ممكناً، لكنني أريد الاستفادة إلى أقصى حدّ من هذه الرياح التي تهب في اتجاه الغرب بشكل مستمر، وذلك من أجل توفير طاقات بحارتي، لذلك لا أعلم إذا كان الجيش سيتمكن من السير بموازاة سفننا. سنلتقي على كل حال في هرمز. يرغب نائب

الأميرال أونيسيقریط في نيل شرف توديعك. إنه بحار ممتاز ويستحق منك كل تقدير".

وما إن تقدّم أونيسيقریط وصافحه حتى قال الإسكندر: "لتكن الأسياد معكم، وليتسم بوسيدون في وجوهكم. قدّمت مع أريستاندر أضحيةً إلى الأقيانوس هذا الصباح، وطلبنا الرحمة والرياح المؤاتية لسيرنا. أما الثمن الذي دفعناه في هذه المهمة فقد كان باهظاً جداً حتى الآن".

توجّه نيرخوس وأونيسيقریط إلى سفينتيهما، وأمرا بفك المراسي. تحرّك الأسطول بعيداً عن الرصيف بقوة المجذفين، وسرعان ما رفعت السفن أشرعتها التي دفعتها الرياح النشطة. بدت هذه السفن الجبارة مثل ألعاب الأطفال بعد وقت قصير من ابتعادها، وما لبث الإسكندر أن نزل إلى الشاطئ وعرز رحاً في رماله، وذلك دلالةً على أنه سيطر على هذه المنطقة النائية. والتفت بعد ذلك إلى رفاقه وصاح: "حان الوقت الآن كي نغادر هذا المكان أيضاً. أعطوا الإشارة!".

امتطى الجميع جيادهم: هيفاستيون، وليوناتوس، وبطليموس، وسلوقس، ولايسيماخوس، وبيرديكاس، وساروا جميعاً على رأس وحداتهم. امتطى الملك جواده بدوره والعلم يرفرف أمامه، وما لبث ذلك الصف الطويل أن تحرك وسط نفير الأبواق وقرع الطبول، بينما تقدمته الأعلام التي رفرت عالياً.

تحولت طبيعة الأرض المحاذية لضفتي نهر السند، وبعد وقت قصير من مسيرة الجيش إلى نوعٍ من مروج المستنقعات، والتي كانت مسرحاً للحواميس الكبيرة ذات القرون المعقوفة التي كانت ترعى إلى جانب الظباء والغزلان. رأى الجنود من بعيد مجموعات صغيرة من الأسود التي كانت تشبه تلك الأسود التي كانت متوافرة للصيد في مقدونيا. كانت الأشجار طويلة ومليئة بكل أنواع الطيور، بما فيها البيغاوات بألوانها الزاهية والمتنوعة. غابت المستنقعات بعد ذلك ليظهر سهل تتواجد فيه أجمات متناثرة، وقطعانٌ من الثيران والخراف يقوم برعايتها رعاة بدائيون وشرسون.

قال الدليل الهندي شارحاً: "إنهم الأوريتيون وهم قبيلة تسكن السواحل، لكننا سنلتقي بعد قليل أولئك الذين يسكنون السهول والصحراء، وهم متوحشون وشرسون بالفعل، أي أنهم قد يصبحون خطرين جداً، وهم يحتفون في الرمال مثل العقارب، ويخرجون قافزين عندما يهاجمون بشكلٍ مفاجئ".

قال الإسكندر أمراً: "أبلغ كل الجنود بهذه المعلومات". استمر الإسكندر في التقدم إلى الأمام، وهو يحدّق إلى جهة الجنوب. لاحظ الملك أنهم ابتعدوا عن الشاطئ بالفعل، وذلك لأنهم اتبعوا الطريق، لذلك احتفى الأقيانوس عن أنظارهم تماماً.

وفي اليوم الرابع للزحف، وصل الجيش إلى أطراف الصحراء. نظر الجنود بدهشةٍ بالغة إلى ذلك المدى الواسع من الرمال الحارقة الممتدة



أمامهم. فهم لم يروا حتى وريقة عشب واحدة، أو مكاناً يصلح للاحتماء فيه من أي نوع كان. كانت الصحراء تحترق في كل الفصول تحت أشعة الشمس التي لا ترحم.

تراجع المرشدون الهنود عائدين، فاضطر الإسكندر إلى الاعتماد على خبرة بعض الضباط الفرس الذين شاركوا سابقاً في حملات الملك داريوس في درانجيانا و آراكوسيا.

تحوّل الزحف بسرعة إلى محنة رهيبية في ظل هذه الظروف المخيفة. فأسرع الضباط إلى مصادرة كل كميات المياه، وأبقوها تحت المراقبة المستمرة حيث تخضع للتقنين. تبين أن هذا الإجراء محدود الفعالية، لأن المياه نفدت بسرعة على كل حال، فاضطر الجنود إلى البحث عن آبار المياه التي كانت قليلة ومتباعدة في تلك الطريق الرملية. صمدت مؤن الطعام لمدة أطول بسبب استحالة تنفيذ خطة تزويد أسطول نيرخوس بالمؤن، لأنه لم يعد بالإمكان رؤية السفن بسبب الرياح الشرقية القوية التي دفعت هذه السفن بعيداً في عرض البحر.

رأى المرشدون اللسكاثيون في مكان معين آثار أقدام إلى جانب الطريق، فأبلغوا الضباط والملك عن وجودها. برز الآن خطر وجود كمائن في هذه المنطقة، لأن جيشاً غازياً كان يمثل هدفاً مشروعاً للمهاجمين بسبب المؤن التي ينقلها معه، هذا بالإضافة إلى العدد الكبير من حيوانات الحمولة والأحصنة.

قال الإسكندر آمراً: "ضاعفوا عدد الحراس، وأبقوا نيرانكم مشتعلة ما أمكنكم ذلك". كان من الصعب إيجاد الأخشاب، باستثناء جذوع أشجار رفيعة قليلة خلفها المد على الشاطئ.

حدث الهجوم بغتة في ليلة غاب عنها ضوء القمر. بدأ المهاجمون هجومهم على فرقة ليوناتوس، وهي التي كانت تقوم بحراسة القسم

الخلفي من الجيش، ولذلك كانت تسير خلف الآخرين بمسافة ستاديا واحد. كانت دقة الهجوم مميّزة. ظهر المهاجمون مثل أشباح من خلف الصخور، وقفزوا بقسوة على المحاربين الذين كانوا منهكين بفعل العطش والزحف الطويل. أسفر الهجوم عن حدوث مجزرة. حارب ليوناتوس بشجاعة، وعندما قطع أحد المهاجمين الأعداء - الذي ظهر فجأة من بين الرمال - رقبة حامل البوق الذي يسير إلى جانبه، سارع ليوناتوس إلى تناول البوق مطلقاً إشارات الإنذار بالخطر، وطالباً المساعدة من الإسكندر.

انطلق الملك بأقصى سرعته مع سريتين من الفرسان، فتمكّن من شقّ طريقه، وتمكّن من تحرير صديقه الذي كان منهكاً وجريحاً بعد أن قامت مجموعة من الأعداء بمحاصرته. استلقى خمسمئة جندي قتيل على الأرض عند شروق الشمس، وكان عدد كبير منهم متعلقاً برقبة عدوه في آخر نوبات الآلام التي سبقت موتهم.

دُفن جميع القتلى في الرمال مع أسلحتهم بسبب عدم توافر ما يكفي من الحطب لحرق الجثث. وامتلأت قلوب رفاقهم بالحزن والكآبة بعد استئنائهم تحركهم، وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن أولئك المتوحشين الطامعين سيعتدون على حرمة هذه القبور التي أقيمت على عجل.

وفي أحد الأيام، عادت مجموعة من الكشافة من مهمة مراقبة، وأبلغت عن اكتشاف مجموعة من القرى قرب الساحل، وعلى مقربة من مصبّ نهر صغير تصب كمية ضئيلة من مياهه في البحر. عندها، قرّر الإسكندر شنّ الهجوم في الليلة ذاتها. كان القمر بدرًا فأضاء رمال الصحراء البيضاء حتى بدت الصحراء وكأنها في وضح النهار.

علّق ليوناتوس فأسه في حملها، وتناول درعه البرونزية التي تزن نحو ستة عشر مينا، وقفز على صهوة جواده، لكن الإسكندر مدّ

ذراعاه كي يوقفه، وقال له: "لا يزال جرحك جديداً. ابق هنا ودعنا نتصرف".

دمدم صديقه: "لن أبقى حتى لو قمتَ بربطي. سأجعلهم يدفعون الثمن غالباً عن كل جندي قتلوه، وعن كل رجل ذبحوه تحت جناح الظلام من دون أن يمنحوه الفرصة كي يدافع عن نفسه".

قرر الملك ورفاقه وبقية الجنود الذين اختيروا للاشتراك في هذه العملية - وبلغ مجموعهم نحو مئتي رجل - وبقية الرجال الذين رافقوهم، ركوب جياد سوداء اللون، وارتدوا عباءات سوداء، وذلك كي تتلاءم الملابس والجياد مع ظلال الليل. أعطى الإسكندر الإشارة، فانطلقت الجياد عبر ذلك السهل المهجور بأقصى سرعتها كتفاً إلى جانب كتف، ورأساً إلى جانب رأس.

فات الأوان بالنسبة إلى الأوريتيين عندما اكتشفوا الهجوم، لكنهم فرّوا كي يدافعوا عن قراهم، وأولادهم، وزوجاتهم. لم يصمدوا مطلقاً أمام الموجة الأولى من الجنود المهاجمين، فذُبحوا كالخراف، بينما انصرف المقدونيون إلى النهب والسلب في حين كان ليوناتوس يلوّح بسيفه. تساقط الأعداء الهاربون على الأرض كما تتساقط حبيبات القمح في الحقل. قتلَ ليوناتوس عدداً كبيراً منهم حيث شعر في إحدى اللحظات بأن قلبه كاد ينفجر في صدره، وما لبث أن سمع صوت الإسكندر صارخاً به: "يكفي هذا يا ليوناتوس!".

عندها فقط توقف والعرق يتصبّب منه، وكذلك الدماء تساقطت من جسده اللاهث.

وبعد وقت قليل، وصلت سرية أخرى من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً حاملةً معها حيوانات الحمولة، وقوارير المياه، وعربات من أجل جمع المؤن، لكن كل ما وجدوه كان قطعاناً من الخراف والماعز

داخل حظائر حجرية. أظهرت الطبقة الكثيفة من الروث الجاف أنه نادراً ما كانت تؤخذ هذه القطعان إلى المراعي كي ترعى في الخارج.

قال إيومينيس الذي وصل مع قافلة المؤن: "إنني أتساءل عن المواد التي كانوا يطعمونها لهذه القطعان".

أجاب سلوقس مشيراً إلى أكياس صنعت من ألياف الأعشاب البحرية المجففة، وهي أكياس مليئة بنوع من المسحوق الأبيض: "يبدو أنهم كانوا يطعمونها هذه".

قال لايسيماخوس: "تفوح منها رائحة السمك".

قال إيومينيس مؤكداً بعد أن تناول حفنة من المسحوق وقربها من أنفه: "إنه سمك، ولكن بعد تحفيفه وطحنه".

عاد الجنود إلى المعسكر حاملين معهم المياه التي تمكنوا من جمعها، وقطعان الخراف التي صادروها، لكنهم عندما ذبحوا الخراف تبين أن طعمها مقزز، وكأنها أسماك فاسدة. لم يكن هناك شيء آخر يأكلوه، ولذلك اضطروا إلى الاكتفاء بما وجدوه من طعام.

سار الجنود لأيام عديدة تحت أشعة الشمس الحارقة التي ألهبتهم حرارتها، كما عذبهم العطش. وفجأة، تحوّل لون الصحراء إلى الأبيض الساطع الذي يُعمي العيون، واضطر الجيش إلى السير فوق طبقة من الملح التي ترسبت من مياه البحيرات القديمة، وهو الأمر الذي أدى إلى اهتراء حدوات الجياد وأحذية الجنود، كما احترق الملح جلود جنود المشاة فتشوقت بعمق في البداية، وما لبثت أن تحولت إلى قروح آلتهم بشدة. مات عدد كبير من حيوانات الحمولة والجياد نتيجة العطش والجوع، وما لبث الرجال أن بدأوا بالتساقط بدورهم.

لم يمتلك الجنود القوة أو الوقت لدفن الموتى، أو لإجراء مراسم الجنازات اللائقة بهم. ومرّت أوقات على الجنود نادراً ما كانوا

يلاحظون فيها سقوط رقيق لهم. وحتى عندما كانوا يلاحظون ذلك لم يكن بإمكانهم تقديم أي نوع من المساعدة إليهم، لذلك كانت الجثث تُترك لبنات آوى والعقبان التي كانت تحلق باستمرار بشكل مجموعات فوق صف الجنود الزاحف. اضطر الملك إلى تحمّل آلام أخرى غير الآلام التي شعر بها لدى مشاهدته هذه المناظر الكارثية، فلقد عانى كذلك من مشاهدة عروسه الشابة وهي تعاني الحرمان والصعوبات. وترافق كل هذا مع الحزن الناتج عن عدم معرفته مصير أسطوله. إذ لم يتصله أخبار من نيرخوس منذ ذلك اليوم الذي تركه فيه في باتالا.

كان كالانوس هو الشخص الوحيد، وسط هذه المحنة الرهيبة والمعاناة التي أحسّ بها الجميع، الذي بدا وكأنه لا يشعر بأي آلام أو صعوبات. كان يمشي حافي القدمين فوق الرمال الحارقة من دون أن يغطي قدميه إلاّ بقطعة قماش صغيرة. أما عندما يحل المساء ويحلب الليل معه هواءً بارداً، فقد كان يُشاهد جالساً قرب الملك كي يعلمه فلسفته وفن التحكم بأحاسيس الجسد واحتياجاته. تصرف روكسانا - بالرغم من كونها شابة - بطريقة نموذجية، ولقد فعلت ذلك بكبرياء، وقوة معنوية كبيرة. فقد شوهدت مراراً وهي على صهوة حصانها تسير إلى جانب زوجها، وكانت ترتدي سترةً يرتديها الفرسان السوغدانيون، كما شوهدت أكثر من مرة وهي تصطاد الطيور العابرة بقوسها وسهمها.

في أحد الأيام، وصل الجنود إلى آخر درجة من درجات تحملهم، لكن أحد الجنود من الحرس الملكي وجد فجوةً بدا بأنها رطوبةً بعض الشيء. بدأ الجندي بالحفر بطرف سيفه إلى أن بدأت المياه بالظهور ببطء، قطرةً قطرةً في البداية. تمكّن الجندي من جمع ما يكفي من الماء لتعبئة خوذته، ثم رطب شفّتيه، وقدمها إلى الإسكندر الذي كان يعاني

ظماً وألماً شديدين نتيجة الجرح الذي أصابه، والذي كان يسبب له قدراً كبيراً من الألم.

شكره الملك ثم تناول الخوذة ورفعها إلى فمه، لكنه أدرك في تلك اللحظة أن جميع جنوده يراقبونه. كانت عيونهم حمراء بسبب الملح، وبشراتهم جافة، وشفاههم متشققة، لذلك لم يتمكن من حمل نفسه على الشرب. سكب المياه على الأرض، وقال: "لا يستطيع الإسكندر أن يشرب بينما رجاله يموتون من العطش". لاحظ أن بعضاً منهم على وشك الانهيار بعد أن نحات قواهم، فقال لهم بصوت عالٍ: "اصبروا أيها الرجال! أعتقدون أن الأسياد سمحت لنا بتحقيق كل هذه الإنجازات كي نموت هنا في هذه الصحراء؟ كلا، صدقوني! إنني أؤكد لكم أننا سنخرج من هذا القرن عند حلول مساء غد، وعند ذلك ستحصلون على الطعام والماء قدر ما تشاءون! أتريدون أن تستسلموا الآن؟ أتريدون أن تموتوا وأنتم على بعد خطوات قليلة فقط من الخلاص؟".

تشجع الجنود لدى سماعهم هذه الكلمات، وبدأوا بالسير مجدداً حتى حلول الظلام. مضى وقت طويل منذ أن بدأوا بالابتعاد عن البحر، وها هم الآن يزحفون صعوداً نحو سلسلة من المرتفعات الصخرية، والتي كانت تتميز بالحد الأدنى من البرودة عند حلول الليل. وصلوا عند مغيب شمس اليوم التالي إلى ممر، وما لبثوا أن رأوا مدينة مسورة تبدو من بعيد.

قال أحد الضباط الفرس: "إنها بورا، وهذا يعني أننا أصبحنا الآن بأمان".

صاح الإسكندر: "أسمعت هذا أيها الرجال؟ أسمعتم؟ إننا بأمان! أترون؟ إن ملككم يفي بوعوده لكم على الدوام!".

وصل الجنود إلى القمة واحداً تلو الآخر فأروا المدينة من بعيد، وراحوا يصرخون من شدة الفرح، وأخذوا يقذفون أسلحتهم في الهواء ويعانقون بعضهم بعضاً، كما فاضت أعينهم بالدموع.

اقترب بطليموس من الإسكندر وأمارات الدهشة ظاهرة على وجهه. وسأل بتشكك: "كيف عرفت هذا؟".

"أتذكر البارحة عندما وصلنا إلى ذلك التقاطع في الطريق؟ ألم يتجه فرع منها غرباً بمحاذاة الشاطئ، بينما كان الفرع الآخر متجهاً نحو التلال؟".

"أجل، أتذكر ذلك".

"قال لي كالانوس حينها إن الطريق الأصعب هي الأفضل".

"إذاً، هكذا؟".

"وهذا ما حصل".

"الأجل هذا خاطرت؟".

"أجل، لكن لم تكن هذه هي المرة الأولى".

"بالضبط. لم تكن تلك المرة الأولى بالتأكيد".

وصلوا عند مغيب الشمس، واستخدموا آخر قدرٍ من طاقتهم.

خرج قائد الحصن في بورا، متشككاً، كي يلتقيهم.

سأل: "من أنتم؟".

التفت الإسكندر إلى بطليموس: "أما زال أو كسهاتري حياً؟".

جاء الرد سريعاً: "أعتقد ذلك. أظن أنني رأيته منذ أيام قليلة".

"أريدك أن تحضره إليّ".

تحرك بطليموس مبتعداً، وعاد بعد قليل مع أو كسهاتري الذي

شرح للحاكم الفارسي كل ما يجب أن يعرفه بالنسبة إلى الضيف الذي

وصل لتوّه.

سأل حاكم بورا بدهشة: "الإسكندر؟ لكن ألم يموت؟".  
"إنه حيٌّ كما ترى وفي حالة جيدة، لكن، دعنا ندخل أرجوك.  
إننا متعبون كثيراً".

أعطى الحاكم جنوده الأوامر فوراً من أجل فتح بوابات بورا كي  
يدخل الجيش الذي ظنّ الجميع أنه ضاع، والملك الذي اعتقد الجميع  
أنه مات.

\*

توقف الجيش في بورا لمدة أربعة أيام كي ينال الجنود قسطاً من  
الراحة، وكي يأكلوا بعد كل الصعوبات التي تحمّلوها. وسأل  
الإسكندر الحاكم عما إذا كان قد تلقى أيّ أخبار عن وصول  
الأسطول إلى هرمز، لكن الحاكم الفارسي أجاب بأنه لم يسمع شيئاً  
عنه، ووعد بأن يتقصّى الأخبار ويعلمه بما سيرفاه.

قال سلوقس: "أنا لن أراهن على أنهم تمكنوا من النجاة. سمعت أن  
تلك المياه خطيرة جداً في بعض الأماكن بسبب الشواطئ الرملية  
الضحلة، وبسبب القراصنة الذين يتخصصون في مهاجمة السفن  
المتضررة. لكن لو كان الأسطول قد رسا هناك لكانت وصلتنا بعض  
الأخبار عنهم بالتأكيد".

ردّ الإسكندر: "يحتمل أنك محقّ، لكن الناس ظنوا أننا ميتون  
بدورنا وها نحن هنا الآن. يتعيّن علينا ألاّ نفقد الأمل".

عاود الجيش زحفه باتجاه برسيس، وتحرك في أراضٍ قاحلة  
أحرقتها الشمس، لكن أمر حامية بورا كان قد زوّدهم ببعض المرشدين  
الماهرين الذين أرشدوهم إلى آبار المياه العذبة، كما أرشدوهم إلى قرى  
الرعاة، حيث وجدوا الحليب واللحم والبذور المحفوظة في جرارٍ  
طينية كبيرة.



كان منتصف فصل الشتاء قد حلّ عندما وصل الجيش إلى سالموس، وهي مدينة تقع على الحدود مع برسيس. أرسل الإسكندر مجموعةً من الكشافة جنوباً من أجل تقصي أخبار أسطوله. تألفت المجموعة من ضابطين مقدونيين، ودزينة من جنود الاحتياط، وكانوا برفقة دليلٍ فارسي، ومرافقة نصف دزينة من الجمال المحملة بقراب المياه.

تحرك الجنود قُدماً مسافة عشرة بارسانغ عبر أرضٍ مهجورة بالكامل، واستمروا في التحرك من دون أن يتوقفوا سوى مرة واحدة. رأوا شيئاً من بعيد عند منتصف النهار تقريباً، أي عندما كانت الشمس في أقصى ارتفاع لها.

سأل الإسكندر أحد جنود الاحتياط، وهو أحد المرتزة الفلسطينيين من آزوتوس: "هل تمكّنتَ من معرفة ما هو هذا الشيء؟". ردّ المرافق: "يبدو أنهم رجال".

سأل أحد الضباط: "رجال؟ أين؟".

أشار أحد الضباط الآخرين، وكان قد تمكّن من مشاهدتهم بوضوح: "إنهم هناك. انظر، إنهم يطلقون إشارات، ويصيحون... أعتقد أنهم رأونا. بسرعة، هيا بنا!".

انطلقوا بسرعة، ولم يتأخر بهم الأمر حتى وقفوا أمام رجلين كانا بالكاد يشبهان البشر. كانت ثيابهما ممزقة، وعيونهما غائرة، وبشرتهما مليئتين بالقروح الجلدية ومحترقتين بفعل أشعة الشمس، كما أن شفاههما كانت متشققة بسبب العطش.

سأل الرجلان باليونانية: "من أنتم؟".

ردّ الضباط بعصبية: "نحن من يجب أن يسأل هذا السؤال. ماذا تفعلان هنا؟".

"إننا ببحاران من الأسطول الملكي".

"أتريدان أن نقولا لنا إنَّ أسطول نيرخوس..."، ولم يجرؤ الضابط على إنهاء كلامه لأن الرجلين الواقفين أمامه ظهرا وكأهما ناجيان من بين حطام سفينة.

قال الرجل وكأنه يلتقط آخر أنفاسه: "إنه بأمان. لكن، بحق الأسياد أعطونا بعض الماء إذا كنتم تريدون أن نخبركم بقية القصة".

تحمّس الملك كثيراً عند سماعه الأخبار، فصاح بالجنود: "امتطوا جيادكم. نيرخوس موجود على الشاطئ وهو لم يفقد سفينة واحدة! حضّر العربات يا إيومينيس واملأها بالمياه، والمؤن، واللحوم، والعسل، والفاكهة، والشراب! خذ كل الشراب الذي تجده واتبعني إلى الأسفل بأسرع ما يمكنك!".

قال الأمين العام محاولاً إعادته إلى هدوئه: "لكن ذلك يستغرق وقتاً".

"إذا تمكنت من تجهيز العربات عند حلول الليل، فلا بأس في ذلك. أريد أن يستمتع هؤلاء الرجال. سنقيم مأدبةً كبيرة على الشاطئ! ينبغي لنا أن نحتفل، يتعيّن علينا أن نحتفل!".

لمعت عيناه، وبانت فيهما مشاعره، وبدا نافذ الصبر وكأنه فتى متحمس. "اعتنِ كذلك بهذين البحّارين، وعاملهما كأمرين، وكأنهما ضيفان مكرّمان. لا تنسَ الملكة. أريد أن تكون الملكة معي كذلك".

وانطلق بسرعة كبيرة مع كل رفاقه، وتبعتهم سريتان من فرسان الهيتايروي. تمكّنوا من مشاهدة معسكر نيرخوس البحري عند غياب شمس اليوم الثالث. وحين وصل الجميع، كانت طبقة من الغبار والعرق تغطيهم، لكن النور كان لا يزال يشع في عيني الإسكندر. لمعت أنوار الشمس بروعة على سطح المياه، كما ظهرت سفن نيرخوس بظلالها الداكنة فوق صفحة الأقيانوس اللامعة كالمرآة، وكانت كلها مزينة بالرايات المثلثة والأعلام.

جاء نيرخوس ليكون في استقبالهم عند مدخل المعسكر. ترجّل الإسكندر عن صهوة جواده ما إن رآه، وهكذا سار الرجلان المسافة التي تفصل بين صفوف البحارة المتهجين، والفرسان الذين لم يكن ابتهاجهم يقل عن ابتهاج البحّارة. بدأ الرجلان بالركض ما إن اقتربا من بعضهما، وكانا متشوّقين لمعانقة بعضهما. وفي النهاية، كان اللقاء أقرب إلى الاصطدام منه إلى معانقة أخوية. انعكست أمارات الارتياب على وجهيهما بعد أن ابتعدا كي ينظر كل واحد في وجه صاحبه. تغلبت العواطف على الموقف فعجز الرجلان عن الكلام. انفجر الإسكندر في النهاية بضحكة مدوية، وصاح: "نفوح رائحة السمك الفاسد منك يا نيرخوس!".

ردّ الأميرال بحماسة: "لكن رائحة عرق الجياد تفوح منك!". نظر الملك إلى وجه الأميرال الهزيل، وقال له: "لا أصدّق أنك لا تزال حياً".

ردّ نيرخوس: "لم يكن الأمر سهلاً. اعتقدت في إحدى المراحل أننا لن نتمكن من النجاة. أبحرنا وسط عاصفتين، لكن العطش والجوع كانا أكبر مشاكلنا".

بدأ الرجلان بالسير نحو المعسكر. ولم يلاحظا في غمرة حماستهما لسرد مغامرة كل واحد منهما أن بطليموس قد أمر الفرسان بالاصطفاف لتقديم التحية إليهما.

انتبها أخيراً إلى صوت قائد سلاح الفرسان وهو يقول: "تحية إلى الملك الإسكندر، والأميرال نيرخوس، آلالاي!".

"آلالاي!". صاح الفرسان بدورهم رافعين رماحهم، ومتوجهين بصرختهم نحو اللأهائية، بينما كانت أشعة الشمس الغاربة تنطفئ في أمواج الأقيانوس المتوهجة بضوئها.

قال الأميرال وهو يومئ إلى مساعده كي يتقدم: "اسمح لي أن أنوّه بأونيسقريط كذلك، لأنه برهن عن كونه بحاراً عظيماً".

حيّاه الإسكندر: "تحياي يا أونيسقريط. إنني مسرور جداً لرؤيتك".  
ردّ قائد الدفة: "تحياي يا مولاي. أنا مسرور جداً لرؤيتك أيضاً".  
تابع نيرخوس حديثه: "أنا آسف لأننا لا نملك الكثير كي نقدّمه إليك. رمينا شباكنا طوال اليوم، ولكن لم نصطد إلا كمية صغيرة من الأسماك. إن الأسماك التي اصطدناها هي من نوع الطون، وهي تُشوى الآن بينما نحن نتكلم".

ردّ الملك: "لا تقلق بهذا الشأن لأنني حضّرت مفاجأة لكم جميعاً. لكنني أخشى أنها لن تصل قبل يوم غد".

صاح نيرخوس: "لا أستطيع الانتظار، هذا إذا كانت المفاجأة هي ما أفكر فيه! أتعرف أننا جرّبنا ذات يوم شنّ غارةٍ على بعض القرى الساحلية؟ أتعلم ماذا غنمنا؟".

"كلا، لكنني أعتقد أنني أستطيع أن أحمّن".  
"غنمنا أسماكاً، وكانت موضوعة في أكياسٍ كثيرة. لم يمتلك أولئك البائسون أيّ شيءٍ آخر".  
"إننا نعرف كل شيء عن هذا".

توجّهوا إلى خيمة نيرخوس، وما لبث بطليموس، وهيفاستيون، وسلوقس، والآخرون أن وصلوا بعد وقتٍ قصير.

عرض نيرخوس أمام الملك لفافةً من ورق البردى، وفتحها على طاولة مؤقتة، ثم قال: "انظر. رسم أونيسقريط هذه الخريطة للطريق التي سلكنها من باتالا وحتى هنا".

مرّر الإسكندر إصبعه فوق موقع الساحل الصحراوي الطويل حيث كتب نائب الأميرال اسم إخذايوفاجس.

كرّر هيفاستيون: "أكلو الأسماك. يمكنك أن تقولها ثانية، لأن كل شيء هناك تفوح منه رائحة الأسماك حتى الماعز. إنني أتقزز قرفاً من مجرد التفكير فيها".

قال الإسكندر: "لا يمكنك أن تتصور مدى قلقنا بعد أن فقدنا الاتصال مع الأسطول".

ردّ نيرخوس: "وكذلك الحال بالنسبة إلينا. في الحقيقة، لم يكن من السهل علينا الإبطاء كي ننتظركم، وعندما توقعنا بالفعل لم نجد أي شيء يدل على وجودكم. تساءلنا عما إذا كنتم قد سبقتمونا، أو إن كنتم خلفنا. لم تكن لدينا أي وسيلة للتأكد من ذلك".

أعلن أحد البحارة: "الأسماك جاهزة".

قال سلوقس: "لكن رائحتها ليست سيئة جداً".

قال الأميرال: "أظن أنه ينبغي لنا الجلوس على الشاطئ كي نأكل. ليس هناك عددٌ كبير من أسرة الطعام والطاولات على متن سفني".  
قال بيرديكاس: "ستدبر الأمر، فالجوع هو الجوع، حيثما حلّ، وفي أي وقت كان".

انطلقت أبواق الإنذار في اللحظة ذاتها التي كان الجميع يتحركون فيها للجلوس من أجل تناول العشاء.

صاح الإسكندر: "بحق زيوس! من ذا الذي يجرؤ على مهاجمتنا الآن؟ يا فرسان الهيثايروي، اتبعوني! امتطوا جيادكم! امتطوا جيادكم!".

ترددت أصوات الأبواق بسرعة في أنحاء المعسكر، وكذلك صهيل الجياد. فُتحت الحواجز الدفاعية، وتجهزت السرايا للهجوم من أجل ردّ غارة الأعداء. ظهرت سحابة من الغبار وتقدمت نحوهم بشكلٍ مخيف. وتمكن الفرسان من رؤية أسلحة ودروع معدنية وسط هذه السحابة.

صاح أحد الحراس: "لكنهم مقدونيون!".  
سأل الإسكندر وهو مندهش: "إنهم مقدونيون؟". ثم أعطى  
الهيبيروي إشارة التوقف.

مرّت لحظات لم يُسمع فيها سوى ضحيج الجياد المسرعة في أثناء  
اقترابها من المعسكر. تردّد صوت الحارس مجدداً وسط هذا الصمت  
المليء بالتوتر، وقال صائحاً: "إنه الشراب! أرسل إيومينيس الشراب مع  
سرية من جنود الهجوم!".

تحوّل التوتر إلى عاصفة من الضحك المدوي، بينما راح جنود  
الهجوم يجولون في المعسكر وسط عاصفة من التصفيق من رفاقهم،  
وكان كل جندي منهم يحمل قربتين من الشراب على ظهر جواده.  
قال ليوناتوس وهو يترجل عن صهوة جواده ويفك درع صدره:  
"إذاً، هل هناك شيء للأكل هنا؟".

ردّ نيرخوس: "هناك الكثير من الطعام".  
قال الإسكندر ضاحكاً: "والشراب كذلك! وكل ذلك بفضل  
أميننا العام!".

جلسوا فوق الرمال الدافئة بينما بدأ البحارة بتقديم الأسماك.  
أعلن بچار من بافوس بكل فخر: "شرائح الأسماك هذه محضّرة  
على الطريقة القبرصية. إنه طبق مميّز في هذا المكان".  
بدأ الجميع بتناول الطعام، وراحوا يتبادلون الحديث الذي نشط  
سريعاً لأن كلّ واحد منهم كانت لديه قصة أراد أن يرويها. وكانت  
قصصهم تدور حول الصعوبات، والمخاطر، والعواصف التي واجهوها،  
وحول أوقات السكون التام، والهجمات الليلية والوحوش البحرية.  
بالإضافة إلى قصص عن أصدقاء طال غيابهم عنهم كثيراً، وقلقوا كثيراً  
بسبب احتمال عدم رؤيتهم مجدداً.

سأل الإسكندر في لحظةٍ ما: "أين كراتيروس الآن برأيكم؟". فنظر كل واحد من الرفاق إلى وجه رفيقه لفترةٍ طويلة، وبصمت.



بعد أسبوعين، وصل كراتيروس مع جيشه إلى سالموس. ولدى رؤيتهم، شعر الإسكندر ورفاقه بفرح لا يوصف. تنابعت الاحتفالات المطولة، حتى بعد أن انطلق الجيش مجدداً في مسيرته، وذلك لأن الملك أراد استمرارها. أمر الإسكندر بصنع عربات خاصة، ووضع أسرة طعام وطاولات فيها، حيث يستطيع الرفاق الاستلقاء لمتابعة الأكل والشرب والضحك فيها. وسُمح للجنود كذلك باحتساء الشراب بقدر ما يريدون مستفيدين من كميات الشراب التي كانوا مزودين بها.

ركب كالانوس في إحدى هذه العربات التي رافقه فيها الملك ورفاقه، وذلك من أجل الاستماع إلى تعاليمه.

تردّدت أصوات الغناء والتهافتات في أنحاء المنطقة حولهم. وحمل هذا الجيش شبيهاً ضئيلاً بالجيش الذي زحف سابقاً نحو قلب برسيس، لأنه تحول الآن إلى ما يشبه موكب ديونيسيوس، أي كما لو أنه موكب لتكريم السيّد الذي حرّر القلب الإنساني من كل الصراعات بفضل الشعور بالسرور الذي يرافق الشرب واللهو.

في هذا الوقت، كان نيرخوس قد غادر مع أسطوله بعد إجراء الإصلاحات الضرورية للسفن، وبعد أن ملأوا مستودعات الشحن فيها بكل ما يلزمهم لرحلة طويلة. عبّر الأسطول مضيق هرمز ودخل الخليج، ثم أبحر في اتجاه مصب نهر دجلة. تقرر أن يكون اللقاء في سوسا، وهي المدينة التي يُمكن الوصول إليها عن طريق قناة صالحة للملاحة. أخيراً، وبعد وقتٍ طويل أصبحت الصعوبات خلفهم، وراح

الملاحون يجذفون بحماسة متجددة، وراحوا يناورون بأشرعتهم بمهارة، وكانوا متحمسين جداً لإهاء مغامرهم كي يتمكنوا من رواية أخبارها على مسمع من محبوبهم.

مرّت فترة وجيزة شعر فيها البحارة بالتوتر. وذلك عندما ظهرت نوافير عظيمة من الرذاذ في مكان لا يعد كثيراً عن سفينة القيادة، وما لبث البحارة أن شاهدوا ظهور كائنات عملاقة رطبة ولامعة، لكنها سرعان ما غطست في المياه مجدداً، وهي تلوّح بذيلها الكبيرة خارج المياه.

سأل البحار القبرصي الذي حضّر طعام العشاء للملك ورفاقه على الشاطئ، وبقلق ظاهر: "لكن... ما هذه المخلوقات؟".  
ردّ البحار الفينيقي الذي يُصلح تجهيزات السفينة، والذي كان قد سبق له أن أبحر خلف أعمدة هرقل: "إنها حيتان. وهي لا تشكّل أي خطرٍ بالنسبة إلينا على الإطلاق طالما أننا لا نصدمها. إذ إن ضربة واحدة من ذيلها، و... وداعاً يا سفينة القيادة. يمكن لهذه الحيتان أن تتبعها مرة واحدة!".

تمّم البحار القبرصي: "إنني أفضل سمك الطون". ثم عاد ليسأل مجدداً بقلقٍ بالغ: "لكن، هل أنت متأكد من أنها لن تهاجمنا؟".  
ردّ نيرخوس: "لا يُمكن للمرء أن يتأكد من أي شيء في البحر. كان ينبغي لك أن تدرك هذه الحقيقة مسبقاً. عد الآن إلى مكانك".

\*

تابع جيش الإسكندر زحفه عبر الطريق التي تؤدي إلى باسارجاداي. واكتشف الملك هناك أن قبر سايروس قد تعرض للنهب. فقد فُتح التابوت، وأخرجت جثة الملك العظيم منه. حقق الملك مع الجوسي الذي كان قيماً على القبر، كما أخضعه للمحاكمة من أجل

محاولة الكشف عن المذنبين الذين عندما قبض عليهم لم يقدموا أي معلومات، حتى تحت وطأة التعذيب. عندها، أطلق الملك سراهم جميعاً، وأمر أن يعاد ترميم القبر حتى يعود إلى حالته الأصلية، وما لبث أن انطلق نحو بيرسيبوليس. سرت الشائعات في هذا الوقت بأن الملك قد عاد، لكن هذه الأخبار أحدثت اضطرابات لدى عدد من المرزبانات، وكذلك لدى بعض الحكام المقدونيين، وذلك لأنهم كانوا متأكدين من موت الملك، فاعتنموا كل الفرص السانحة للانغماس في كل أنواع السرقات والنهب.

لاحظ الإسكندر الحالة التي آل إليها القصر الإمبراطوري نتيجة ذلك الحريق المرعب الذي دمّره. وحدها الأعمدة الحجرية، وبوابات المدخل الضخمة هي التي بقيت صامدة فوق تلك المساحة الهائلة من الأرض المغطاة بالوحول، وكانت قد اسودّت بفعل الدخان. أما الأحجار الكريمة الثمينة، فقد انتزعت من النقوش البارزة، وكذلك كتل المعادن الثمينة التي انصهرت خلال الحريق. أما الشيء الوحيد الذي بقي ليذكر المرء بعظمة الأخمينيين، فقد كان اللهب أمام النصب التذكاري لقبر داريوس الثالث.

فكّر الملك في ستاتييرا التي لم يرها منذ مدة طويلة، وراح يتساءل ما إذا كانت قد استلمت الرسالة التي بعثها إليها من ضفاف السند. كتب إليها مجدداً، وأبلغها بأنه يحبها، ويود أن يلقاها في سوسا. ذات مساء، كان يرتاح مع روكسانا على شرفة في قصر المرزبان عندما أعلن عن قدوم زائر. كان رجلاً أصلع وممتلئ الجسم، وما لبث أن حيّاه بابتسامة عريضة.

قال الرجل وهو ينظر حوله بقلق: "يا مليكي، ويا ولدي. إنك لا تعرف مدى سروري لرؤيتك مجدداً. لكن... أين الكلب؟".

"يا إيمولبوس من سولوي... لا حاجة إلى القلق بعد الآن، لأن بيريتاس لم يعد معنا. مات في الهند عندما أنقذ حياتي".  
ردّ المخبر: "أنا آسف، بالرغم من أنه لم يجيني قطّ. ولكن، أعرف أنك أحببته كثيراً".

أحسنى الإسكندر رأسه: "مات بوسيفالاس كذلك، بالإضافة إلى مقاتلين كثيرين، وعدد كبير من أصدقائي. كانت رحلة شاقة. لكن، من أين أتيت؟ ظننت أنك متّ، لأنك اختفيتَ من دون كلمة وداع، كما أنني لم أستلم أي أخبار منك".

"إذا كان الأمر كذلك، فقد ظننتك ميتاً بدوري، ولستُ وحدي من ظنّ ذلك. أما بالنسبة إلى اختفائي، فقد كان الأمر طبيعياً. ما إن أدركت ما تريده مني حتى انطلقتُ في أول فرصة سانحة، ومن دون أي تردد، لأن المخبر الناجح لا يسرّب أي شيء يتعلق بتحركاته، حتى إنه لا يخبر الشخص الذي كلّفه بالعمل".

قال الإسكندر: "إذا كنتُ أعرفك جيداً، فأنت لست هنا لتعبر عن سرورك برؤيتي مجدداً".

ناوله إيمولبوس لفافةً من ورق البردي: "هذا صحيح بالفعل، لأنني في أثناء غيابك، وإذا كنتُ أتذكر جيداً، وبحسب رغباتك، كنتُ عينيك وأذنيك. إنني لا أنسى أولئك الذين عاملوني جيداً، وأنت وثقتَ بي، وأنقذت حياتي في حين أراد الجميع إعدامي. ستجد هنا أشياء مكتوبة من النوع الذي لن يعجبك. إنها لائحةٌ كاملة بكل الأعمال الشاذة، والسرقات، والفساد، وأعمال العنف التي ارتكبتها المرزبانات والحكام بمن فيهم المقدونيون، وذلك في أثناء غيابك. ولائحةٌ أخرى كذلك بكل الشهود الذين قد ترغب في استجوابهم في حال كنت ترغب في البدء بمحاكمة هؤلاء الأشخاص. إن ذلك الرجل المسؤول

عن الخزانة الملكية، على سبيل المثال، وهو اللص... صديق  
إيومينيس...".

"أتعني هاربالوس؟".

"نعم، هو بالذات. أخذ الرجل خمسمئة تالنت من الخزانات، ثم  
جند ستة آلاف من المرتزقة، وها هو الآن يزحف نحو كيليكيا، هذا إذا  
كانت آخر معلوماتي صحيحة. أعتقد أنه يتعامل في هذا الوقت مع  
بعض أصدقائه من الأثينيين، وهم رجال لا يشعرون بالود تجاه  
حضرتك".

"أتعني ديموستين؟".

أوما إيمولبوس.

"وإلى أين يتجه برأيك؟".

"يُحتمل بأنه يتجه إلى أثينا".

دخل إيومينيس في تلك اللحظة، وأمرات الحرج الشديد مرتسمة  
على وجهه. قال: "أيها الإسكندر، جلبت معي أخباراً رهيبة مع الأسف!  
لا أعرف من أين أبداً، وذلك بسبب... كان خطي أنا بطريقة ما".

"إنه هاربالوس؟ علمت ذلك منذ قليل". وأوما نحو إيمولبوس  
الذي كان جالساً بهدوء في إحدى الزوايا، وهو الذي لم يفعل أي شيء  
كي ينبه إيومينيس إلى وجوده. "أعلم كذلك أموراً أخرى، وكلها غير  
سارة أبداً. أريدك أن تقوم بهذه المهمة، وهي أن تتحقق من كل  
الالتامات الواردة في هذه الوثيقة ضد الأشخاص المذكورين، سواء  
أكانوا من العرق المقدوني، أو الفارسي، أو الميدي. أريدك بعد ذلك أن  
تباشر في كل المحاكمات الضرورية. أريد أن تحكم الجمعية العامة  
للجيش على المقدونيين إذا تبين أنهم مذنبون، كما أريد أن تنفذ  
الأحكام بحسب طقوسنا التقليدية".

"وماذا بشأن هاربالوس؟".

قال الإسكندر آمراً بعد أن شُحِبَ لونه نتيجة الاستياء الذي شعر به: "أريدك أن تعثر على ذلك اللعين المعتوه أينما كان، واقتله كالكلاب".

وقف إيمولبوس من سولوي: "يبدو لي أننا قلنا ما لدينا".

"هذا صحيح. سيدفع لك إيومينيس بسخاء".

أوماً إيومينيس بعد أن شعر بإحراج أكبر الآن.

قال له الإسكندر بعد أن هبّ واقفاً: "إنها ليست غلطتك، وأنت

لم تكن ثقتي بك مطلقاً، وأعرف أنك لن تفعل ذلك أبداً".

"أشكرك، لكن ذلك لا يمحو أبداً خيبة الأمل التي أشعر بها".

غادر الغرفة، والتقى أريستاندر بينما كان يسير مبتعداً عبر ممرات

القصر. شعّت عينا الضالع بنور غريب هو أقرب إلى الجنون، حيث لم

يلق عليه التحية. ويُحتمل ألا يكون قد رآه.

دخل الضالع غرفة الإسكندر الذي تأثر كثيراً بملامح وجهه المليئة

بالحزن والدهشة.

سأله الإسكندر بنبرة شخص يسأل وهو خائف من الإجابة التي

سيسمعها: "ما الذي حدث؟".

"إنه كابوسي. لقد عاودني".

"متى؟".

"الليلة الماضية، بالإضافة إلى أمرٍ آخر".

"أخبرني عنه".

"كالانوس ليس بصحة جيدة".

صاح الإسكندر: "يستحيل هذا! تحمل الرجل أقسى الصعوبات،

وأشدّ المحن، والمطر، والشمس، والجوع، والعطش...".

"ومع ذلك فهو مريضٌ جداً".

"منذ متى وهو مريض؟".

"مرض منذ أن وصلنا إلى بيرسيبوليس".

"وأين هو الآن؟".

"إنه في المنزل الذي خصّصته له".

"خذني إليه على الفور".

"كما تريد. اتبعني".

سألت روكسانا بقلق: "إلى أين أنت ذاهب؟".

"أريد زيارة صديق مريض يا حبيبي".

عبراً شوارع المدينة التي كانت خيالات المساء على وشك السيطرة عليها. ووصلاً إلى منزل جميل محاط برواق معمد، وكان سابقاً منزلاً لأحد النبلاء الفرس الذي سقط في معركة غواجميلا. أسكن الإسكندر كالانوس في هذا المنزل كي يتمتع ببعض الراحة بعد صعوبات المهمة التي مرّ بها.

دخل الملك مع أريستاندر، وسار الرجلان عبر الممرات الطويلة والهادئة حتى وصلا إلى غرفة شبه مضاءة بآخر أنوار النهار. كان كالانوس مستلقياً فوق حصيرة على الأرض، وكانت عيناه مغمضتين وجسده نحيلاً جداً.

قال الملك هامساً: "كالان...".

فتح الرجل عينيه السوداوين والعميقتين اللتين استولت عليهما الحمى: "أنا لست بخير".

"لا يمكنني أن أصدّق هذه الكلمات أيها المعلم. رأيتك وأنت تتحمل كل أنواع الصعوبات يومياً ومن دون أن تشعر بالألم أو المعاناة من أي نوعٍ كان".

"إنني أعاني الآن، ومعاناتي هي من النوع الذي لا يُحتمل".  
 التفت الإسكندر، فالتقت نظرتَه مع نظرة الضالع العابسة.  
 "مّمّ يعاني؟ أخبرني حتى تتمكن من التخفيف عنه".  
 "إنها معاناة الروح، وهي من أشد أنواع المعاناة، ولا علاج لها".  
 "لكن، ما الذي جعلك مريضاً هكذا؟ ألم تسر عبر الطريق التي  
 تؤدي إلى السكينة الأبدية؟".

نظر كالانوس إلى عيني أريستاندر مباشرة، وخيّمَت معرفة قائمة  
 على الحكيمين. جَهد كثيراً لتحريك شفّتيه، لكنه تمكّن من الكلام  
 مجدداً: "أجل، سرتُ على تلك الطريق إلى أن التقيتكَ، وإلى أن رأيت  
 فيك قوة الأفيانوس في أوج غضبه، وقوة النمر، والمرتفعات العالية لقمم  
 الجبال المكلّلة بالثلج التي تتطلع نحو السماء. أردتُ أن أعرفك وأعرف  
 عالمك، كما أردت أن أنقذك عندما يأخذك غضبك الأعمى إلى شفير  
 الدمار. عرفت عند ذلك ما يتعيّن عليّ عمله إذا ما فشلت. عقدتُ  
 ميثاقاً مع ذاتي. أحببتك يا إسكندر، مثلما فعل كل الذين عرفوك،  
 لذلك أردت أن أتبعك كي أحملك من غريزتك الطبيعية، وكي أعلمك  
 الحكمة التي تختلف عن حكمة الحكماء الذين تُقفوك، وعن حكمة  
 المحاربين الذين جعلوك أداة لا تُقهر للدمار. لكن معتقداتك (التانترا) لا  
 يُمكن تعديلها بأي طريقة من الطرائق. علمتُ ذلك الآن، ويمكنني أن  
 أرى ما هو قادم، وما هو على وشك الحدوث". ونظر إلى أريستاندر  
 الذي كان ينظر إليه نظرة مترددة مجدداً. "هذا هو ما يجعل معاناتي  
 كبيرة جداً. وإذا كنتُ سأعيش حتى أرى ما سيحدث، فإن ألمي  
 سيمنعني من التوصل إلى السكينة في يومٍ من الأيام، وسيمنعني من  
 تذويب روحي في اللامتناهي. أنت لا ترغب في ذلك. قل لي إنك لا  
 تريد ذلك".



أمسك الإسكندر بيده، وقال له بصوت مرتعش: "كلا. أنا لا أريد هذا يا كالان. لكن، قل لي، أرجوك، قل لي ما هو ذلك الأمر الرهيب الذي لا بد من أنه سيحدث".

"لا أعرفه، لكن يمكنني فقط أن أشعر به، ومن دون أن أتحمّله. دعني أموت بالطريقة التي أقسمت على أن أموت فيها".

قبّل الملك السيد النحيلة لذلك الحكيم العظيم، ثم نظر إلى أريستاندر، وقال: "أصغ جيداً إلى آخر رغباته وانقلها إلى بطليموس كي ينفذها. إنني... إنني... لا أستطيع".

وغادر الإسكندر مكان إقامة كالانوس، والدموع تفيض من عينيه.

\*

نَفَذَ بطليموس في الوقت المناسب كل ما طُلب منه، وهكذا بدأت آخر مرحلة من رحلة كالانوس نحو السكينة الأبدية.

أمر بإقامة محرقة ترتفع عشرة كيوييتات، ويبلغ عرضها ثلاثة عشر كيوييتاً. اصطفّ خمسة آلاف من البيزيتاروي مرتدين دروع الاستعراض على طول الطريق، فيما نظمت مسيرة للشبان الذين نثروا الورود في كل مكان. جاء بعد ذلك كالانوس الذي بدا ضعيفاً ومنهكاً جداً حيث لم يعد يتمكن من المشي، ولذلك حمله أربعة رجال على نقالة، كما وُضعت أكاليل الزهور حول عنقه بحسب العادات الهندية. وُضع فوق المحرقة، وكان عارياً كما كان في اليوم الذي أُطلّ فيه على هذا العالم، بينما راحت جوقة من الفتیان والفتيات تنشد ترانيم هي من أحلى ما سُمع على سطح هذه الأرض.

قرّر الإسكندر منذ البداية ألاّ يشاهد هذه المراسم، وهذا هو السبب الذي دفعه كي يطلب من بطليموس تنفيذ الرغبات الأخيرة

لذلك الحكيم الهندي. تذكّر، مع ذلك، في اللحظة الأخيرة كيف أن كالانوس قد بقي معه عندما كان قريباً جداً من الموت، ولذلك قرّر تقديم آخر آيات التقدير إلى الرجل. مشى في الطريق المخصصة للاحتفال إلى أن وصل إلى المحرقة، وهناك نظر إلى كالانوس الضعيف، والعمى، وما لبث أن تذكّر ديوجينيس الذي استلقى أمام مخضّته بعينه نصف المغمضتين تحت أشعة الشمس الغاربة. تذكّر في تلك اللحظة بالذات ما قاله له ديوجينيس عندما كانا بمفردهما. كان الأمر ذاته الذي أخبره إياه كالانوس، ومن دون أن يفتح فمه في عتمة الخيمة بينما كان يصارع الموت: "ليست هناك غزوة تحمل أي معنى، وما من حرب تستحق حوضها، لأنه في النهاية لا نحصل على أرض لنا سوى تلك التي تُدفن فيها".

وحين رفع رأسه، رأى جسد كالانوس مغلفاً بألسنة اللهب، وصعب عليه أن يصدق أنه يبتسم وسط تلك النيران التي لا ترحم. بدا للإسكندر أنه يحرك شفّتيه، وأنه يتمتم شيئاً. كان حسيب ألسنة اللهب عالياً جداً حيث لم يسمح له بسماع أي شيء، لكن صوت الحكيم تمكّن من النفاذ على كل حال:  
"سنلتقي مجدداً في بابل".

غادر الإسكندر برسيس على الفور تاركاً كل ذكرياتها الحزينة،  
وسار بجيشه نحو سوسا التي وصلها في منتصف فصل الشتاء.  
ما إن وصل حتى توجه لزيارة سيسياميس، والتي تأثرت كثيراً  
لرؤيته، وألقت تحياتها على الطريقة اليونانية، وبطريقة مألوفة جداً "Chair, pai!"

قال الإسكندر مجاملاً إياها: "لغتك اليونانية ممتازة يا أماه. أنا  
مسرورٌ جداً لأنك بصحة جيدة".  
"أنا مسرورة جداً لأنك بخير وبصحة جيدة. بكيتُ عندما وصلتني  
أخبار تفيد بأنك متّ. أتصور كم كان عذاب أمك كبيراً، وهي  
بمفردها هناك في مقدونيا".

"بعثتُ إليها رسالة عندما وصلت إلى سالموس. أعتقد أنها ستكون  
قد استلمتها في هذا الوقت، ولا بد من أنها خففت حزنها".  
"هل أستطيع أن أمل بأن تمكث عندي وتأكل معي؟".  
"أجل، بكل تأكيد. سأكون مسروراً جداً لذلك".  
"لم تعد لدي مسرات في عمري هذا تفوق متعة استقبال الزوار،  
وزيارتك أنت بالذات هي الأكثر أهمية. اجلس يا ولدي ولا تقف  
هكذا".

جلس الإسكندر وقال: "أماه. لم آتِ فقط كي ألقى عليك  
التحية".

"وما السبب الآخر من وراء مجيئك؟ تكلم بحرية".

"سمعت أن الملك داريوس لديه ابنة أخرى".

قالت سيسياغمبيس: "هذا صحيح".

"إذاً، أريد أن أتزوجها".

"لماذا؟".

"لأنني أرغب في وراثة داريوس، لذلك يجب أن تكون عائلته هي

عائلتي".

"إنني أفهمك".

"أيمكنني أن أفهم ما إذا كنت توافقين على منحي يدها للزواج؟".

"حتى لو بقي والدها حياً لكانت زوّجت بشخص يعزّز التحالف، أو

لضمان ولاء أحد المرزبانات. إنها ليست جميلة جداً، ومع ذلك، فإن اسمها

سيدذكرك بحب كبير سبق أن فقدته... أتعرف اسمها؟ إنه بارسين".

طأطأ الإسكندر رأسه، وقد غمرته ذكراها. وقفزت إلى مخيلته

فجأة صوراً مدهشة ومليئة بالحياة محامها الزمن.

تابعت الملكة الأم حديثها: "لن أنسى ذلك اليوم الفظيع في

غواجميلاً... ستسر ستاتييرا بالذهاب للعيش مع أختها الكبرى. لكن

روكسانا؟".

"روكسانا تحبني، وهي تعرف أنها ملكة، لكنها تدرك بالضبط ما

تتضمنه واجبات الملك. سبق لي أن تحدثت إليها".

"وماذا قالت؟". "لقد بكت، كما كانت أُمي تفعل عندما كان

والدي فيليب يُحضر عروساً جديدة إلى القصر. لكنني أحب روكسانا

أكثر من أي شيء أو أي شخصٍ آخر، وهي تعلم ذلك".

"إنني أمنيحك بارسين بكل سرور. ستوحّد الآن سلالاتي

الأرغاديين والآخمينيين، ولن يعود هناك من منتصر ولا مهزوم. لكن،

ما هو موقف رجالك من هذا؟".

"سأعمل على إقناعهم".

"أعتقد أنك ستقدر على ذلك؟".

"إنني متأكد من هذا، ولديّ أمرٌ آخر أريد أن أطلبه إليك. أريد منك يد بارسين وكذلك يد أخت ستاتيرا الصغرى".

"أتريد الزواج من درايبيتيس كذلك؟ أعتقد أن ذلك طبيعي جداً".

"لا أريدها لي، بل لصديقي هيفاستيون. كنا نقول في شبابنا إنه سيكون من الرائع لو نتزوج شقيقتين، فهذه الطريقة سيصبح أولادنا أقرباء".

"سأكون مسرورة لمنحها إلى صديقك. آمل فقط أن يكون هذا الزواج مقبولاً لدى نبلائكم وجنودكم".

ردّ الإسكندر: "سيكون مقبولاً بالطبع. إن عدداً كبيراً من جنودي يعيشون الآن مع فتيات فارسيات أو ميديات، وحتى إنهم رزقوا منهنّ أطفالاً. إن الوقت مناسب الآن لزواجهم، كما أنني أختار عرائس فارسيات للآخرين. أجريت حساباً لعدد احتفالات الزواج فبلغت نحو عشرة آلاف زوجة".

فتحت الملكة العجوز عينيها الواسعتين وقالت: "عشرة آلاف؟" آه، عظيم هو أهورا مازدا. إن ذلك شيء لم يشهده العالم من قبل قطاً!". وابتسمت ببراءة ساخرة، وأضافت: "بعد كل الذي قيل وحدث، أعتقد أنك على حق. يبقى السرير أفضل مكان لإقامة سلامٍ دائم".

\*

بدأ الإسكندر خلال إعداد مراسم الزواجين بالتخطيط لحملة جديدة إلى أراضٍ مجهولة. كان ذلك هو سبب انتظاره وصول أسطول

نيرخوس بفارغ الصبر. ظهر الأسطول عند مصب نهر دجلة عند انتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع.

رست سفينة القيادة التي تحمل العلم الأرغادي ذا النجمة الذهبية في القنال الذي كان يصل تقريباً إلى تحت أسوار المدينة مباشرة. فيما تابعت بقية سفن الأسطول رسوها وسط موجة من الهتاف والتصفيق، ووسط نفير الأبواق وقرع الطبول.

تلقى نيرخوس الذي كان مرتدياً دروعه كلّ مظاهر التكريم من سريتين من فرسان البيزيتاروي، وذلك قبل أن يستقبله الإسكندر الذي كان جالساً فوق عرشه وإلى جانبه روكسانا، التي بدت مذهلة بعباءتها الملكية المحبوكة كلها بالذهب، والمزينة بالأحجار الكريمة.

ما إن رأى الملك الأميرال حتى توجه نحوه وقبله على خديّه، ثم استقبل أونيسيقریط، نائب الأميرال وقادة كل السفن، وذلك لتهنئتهم، ولتقديم هدية إلى كل واحد منهم.

وفي ذلك المساء بالذات، استدعى الإسكندر كل أصدقائه لتناول طعام العشاء معه، وكان من بينهم نيرخوس وإيومينيس، وذلك كي يبلغهم بقراره. أقيمت المأدبة في غرفة العرش ذاتها، ورُتبت أسرة الطعام على جهات ثلاث، وذلك كي يتمكن جميع الحاضرين من سماع الملك ورؤيته. غابت النساء عن الحفل وكذلك غاب الموسيقيون، وهو الأمر الذي جعل المأدبة تبدو أقرب إلى مجلس حرب منها إلى مأدبة عشاء.

بدأ الإسكندر كلامه: "قررت أن الوقت قد حان بالنسبة إليكم جميعاً كي تتزوجوا". نظر الحاضرون إلى وجوه بعضهم بعضاً بدهشة فيما تابع الملك كلامه: "إنكم تتقدمون في السن، لذلك يجب عليكم أن تبدأوا بالتفكير في تأسيس أسر لكم. اخترت لكم عرائس جميلات يتحدرن من أرقى المجتمعات... وكلهن فارسيات".

مرت فترة من الصمت.

تابع الملك: "وليس هذا فقط. فلقد قررت أن أحتفل بالزيجات التي سبق أن تمت بين الأزواج المقدونيين والفرس، وبعض هؤلاء، كما تعلمون، رُزقوا أولاداً. وسأقدم كذلك أموالاً لمهور العرائس بالنسبة إلى الذين يختارون الزواج الآن، ولكن بشرط أن تكون العروس فارسية. إنها الطريقة الوحيدة التي ستمكن بواسطتها من صنع مستقبل لحملتنا، ومن استئصال الحقد والبغضاء، والرغبة في الانتقام. يتلخص كل ذلك في وجود وطن واحد، وملك واحد، وشعب واحد. هذه هي خطتي، وهذه هي إرادتي كذلك. وإذا كان بينكم أي شخص يعارض هذه الخطة، فليتكلم الآن".

لم يتفوه أي شخص ولو بكلمة واحدة. وحده إيومينيس رفع يده: "إنني لست مقدونيا، ولست بطلاً مثلكم أنتم، وليست لدي الرغبة في المشاركة في تأسيس أي إمبراطورية، لذلك أود أن أعفى من المشاركة في احتفال الزيجات الربيعي هذا، وسأكون مسروراً جداً لذلك. إن مجرد التفكير في الحصول على زوجة تحيط بي على الدوام هو أمر يصيبني بالقشعريرة و...".

قاطعه الإسكندر بابتسامة: "تدعى عروسك آرتونيس، وهي ابنة مرزبان آرتوازوس. إنها جميلة جداً وفي غاية الإخلاص. إنني متأكد من أنكما ستكونان سعيدين جداً معاً".

أقيم الاحتفال الكبير في فصل الربيع تحت خيمة كبيرة، وبحسب الطقوس الفارسية. صُفّت مقاعد ذات مساند ظهر عالية بكل ترتيب، ثم وصل العرسان لشرب نخب الجميع، وتبادلوا الأمنيات بالسعادة في ما بينهم. وصلت العرائس بعد ذلك على الفور بفساتين العرس، وجلست كل واحدةٍ منهن إلى جانب زوجها. وحذا كل رجلٍ حذو الملك

فتناول يد امرأته وقبلها. وتسلم كل ضيف من الضيوف كأساً ذهبية، وما لبثت المأدبة أن بدأت، وأكل الجميع من أصناف الطعام الفاخرة التي كانت معدة لنحو عشرين ألف شخص. كان الشراب يسيل من نافورة ليستطيع الجميع الشرب منها قدر ما يريدون. وانطلقت جوقة مؤلفة من فتيات وفتيان بإنشاد تراتيل خاصة باحتفالات الزفاف ومرافقة من القيثارات والنايات والطبول البابلية والهندية.

وصلت ستاتيرا من إيكباتانا قبل يومين من الاحتفالات، وشاركت في الاحتفال بصفته وصيفة لأختها بارسين التي ولدت لداريوس من زواجه الأول. رافقت ستاتيرا شقيقتها عند نهاية الاحتفال إلى عتبة غرفة نومها حيث كان يُفترض أن ينضم إليها زوجها. وصل الإسكندر قبل مغادرة ستاتيرا، فبادرت إلى تحيته بقلبة.

"أنا مسرور لأنك جئت يا ستاتيرا. مضى وقت طويل منذ أن رأينا بعضنا لآخر مرة".

"هذا صحيح يا سيدي. مضى وقت طويل".

"آمل أن تكوني بخير".

ردت ستاتيرا بابتسامة غامضة: "أنا بخير، لكنني أتساءل عن حالتك أنت".

رد الإسكندر: "يحتمل أنني تناولت الكثير من الشراب. ولكن، في ليلة كهذه يفيدني الشراب كثيراً".

"هذا صحيح تماماً. أعتقد أن عذراء في الثلاثين من عمرها تقريباً، وزوجة لم ترها منذ ما يقارب الأربعة أعوام، ترغبان في الحصول على خدماتك".

بدأ أن الإسكندر يتأمل في هذه الكلمات هنيهة، ثم راح يتمتم: "كم يمضي الزمن بسرعة".



اقترب منها، وحدّق إلى عينيها مباشرة، ثم سأها: "هل أتيتِ لتعرضي عليّ حبّك، أم كي تتحدّيني؟".

أجابت ستاتيرا ببسمة فيها قدرٌ كبير من الإغراء: "أتحدّاك؟ ولم أفعل ذلك؟ سأنتظر في الغرفة المجاورة بينما تنصرف أنت إلى جعل أختي سعيدة. فلقد تزوجت لتوها، ولذلك، فهي تستحق أن تكون قوياً". ثم قبّلتها وانسحبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب وراءها.

أمضى الملك تلك الليلة مع عروسه الفارسيّتين، وبدأ مع بارسين أولاً ثم انتقل إلى ستاتيرا. استسلمت ستاتيرا للنوم فغطّأها بعباءتها، وخرج عبر الممر. نظر حوله فلاحظ أن الهدوء يسيطر على كل شيء، وما لبث أن نزل الدرج، وسار عبر الباحة متوجّهاً نحو الجناح الملكي الذي تقيم فيه روكسانا. حاول ألاّ يُصدر أي ضجيج كان، لكنها استدارت فجأة عندما استلقى إلى جانبها وقد استولت عليها موجة من الغضب، وراحت تلکمه وتحدّشه بأظفارها، وهي تصيح: "ما زلتَ تعقب برائحة تلك المرأة، ومع ذلك تجرأت على الاقتراب مني!".

أمسك الإسكندر معصميهما، وثبّتها فوق السرير. راحت تتلوى وتتمايل لاهثة تحته، لكن الإسكندر لم يقل شيئاً. وسمح لها أن تصرخ وتبكي بحرقه كما تريد. وتركها في النهاية واستلقى إلى جانبها مجدداً منتظراً أن يتلاشى غضبها وألمها.

قال لها: "سأذهب إذا كان ذلك هو ما تريدينه مني".

لم تجب روكسانا.

"شرحت لك أنني سأزوج بارسين، وأن ستاتيرا ستعود. للملك واجباتٌ محددة...".

صاحت روكسانا: "لا أهمية لذلك! أعتقد أن واجباتك ستحسّن

مزاجي؟".

ردّ الإسكندر: "كلا، لا أعتقد ذلك، ولهذا أسألك إذا كنت تريد أن أنصرف".

سألته: "وهل ستنصرف بالفعل؟".

أجاب الملك: "سأنصرف فقط إذا كنت تريد ذلك، لكنني أمل ألا تطلبي مني هذا، لأنك المرأة الوحيدة التي سأظل أحبها إلى نهاية عمري".

جلست روكسانا صامته لوقتٍ طويل، ثم قالت: "إسكندر...".

"نعم".

"سأقتل نفسي إذا فعلت ذلك مرةً أخرى، وسيموت طفلك معي. إنني حامل".

أمسك الإسكندر يدها بحزم وسط الصمت والظلمة المخيمين على المكان.

\*

وفي اليوم التالي، أعلن الملك أنه سيسدّد شخصياً كل الديون التي يدين بها الجنود المقدونيون الذين اقترضوا مالاً. لم يجرؤ عدد كبير منهم في البداية على الإعلان عن ديونهم لأنهم اعتقدوا أن الإسكندر قد وضع خطة تمكنه من معرفة الذين بدّدوا مواردهم المالية، أو أولئك الذين لم يحسنوا التماشي مع المرتبات السخية التي حصلوا عليها جميعاً.

لاحظ الإسكندر قلة عدد الطلبات المقدمة، ولذلك نشر خبر عدم رغبته في معرفة هوية المدّين، وأنه يكتفي بمعرفة قيمة الدّين. تشجّع الجميع لهذا السبب، وقدموا إلى إيومينيس الطلبات والوثائق التي تثبت وجود الديون. وتسلم هؤلاء في المقابل الأموال الضرورية لسداد ديونهم بالكامل.

حسب الأمين العام الكلفة الإجمالية لهذه العملية فوصلت إلى عشرة آلاف تالنت.

وفي نهاية فصل الربيع، أمر الملك بإجراء مناورات في أوبيس الواقعة على إحدى ضفتي نهر دجلة حيث وصلت فرقة جديدة من الشبان الفرس الذين التحقوا بالجيش. بلغ عديد هذه الفرق ثلاثين ألفاً، وتدريبوا كلهم بحسب الطريقة المقدونية. أجرى المحاربون الآسيويون، والذين حملوا لقب القادمين الجدد استعراضاً كبيراً برهنوا فيه عن شجاعة ومهارة استثنائيتين. أقلق هذا الأمر الجنود المقدونيين مجدداً، فلقد خشوا من وضعهم على قدم المساواة مع أولئك الذين هزموهم وقهروهم في ميادين المعارك. وازداد إحباطهم أكثر عندما سمعوا أن الإسكندر يرغب في صرف الموقين والجرحى، وإعادتهم إلى الوطن مع كراتيروس الذي سيحل محل أنتيباتر العجوز بصفته الوصي على عرش مقدونيا.

قال له كراتيروس: "إنهم غاضبون جميعاً، كما طلبوا أن تقوم باستقبال وفدٍ منهم".

وحين انتهت المناورات، وعاد القادمون الجدد إلى خيمهم، أمر الإسكندر بنقل عرشه إلى الخارج، ثم قال لصديقه: "دعهم يأتون إلي". كان من الواضح أنه غاضبٌ جداً، وفي مزاج سيئ.

تحرك كراتيروس نحو معسكر المقدونيين، والذي كان منفصلاً بالكامل عن المعسكر الفارسي، ولم يطل به الأمر حتى ظهرت مجموعة صغيرة من الجنود الذين يمثلون فرق الجيش كافة: الفرسان، والمشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وجنود الهجوم، وحاملي الدروع، والرماة من راكبي الجياد.

سأل الإسكندر ببرودٍ ظاهر: "ماذا تريدون؟".

فأجابه قائد إحدى فرق المشاة، وهو الأكبر سناً في المجموعة: "هل صحيح أنك تنوي إرسال قدامى المحاربين، والمعوقين، والمشوهين إلى الوطن؟".

ردّ الملك: "أجل".

"وهل تشعر أن ما تقوم به أمر صائب؟".

"إنه أمر ضروري. فهؤلاء الرجال لن يشاركوا في الحملات المقبلة، لأنهم لم يعودوا مؤهلين للقتال".

صاح جندي آخر: "أي نوع من الرجال أنت؟ الآن لم تعد بحاجة إلى جنودك، وهم الجنود الذين قهروا نصف العالم من أجلك بعرقهم ودمائهم، وذلك بعد أن ألبست هؤلاء البرابرة الصغار ثياباً مثل الفتيات الصغيرات؛ بعد أن أهوا تدريباًهم ورقصهم".

صاح جندي ثالث: "هذا صحيح! إنك تخطط لإعادتهم إلى الوطن الآن. هل هم الرجال أنفسهم الذين فصلتهم عن عائلاتهم منذ عشر سنين؟ كلا! كانوا شباناً وأقوياء في ذلك الوقت، وفي أفضل هيئة! أما الآن فهم متعبون، ومحبطون، ومشوهون، ومعوقون، وجرحي. كيف ستكون حياتهم؟ وماذا بشأن الذين لن يعودوا إلى الوطن الآن؟ أولئك الذين ماتوا في الكمان، والذين تجمدوا حتى الموت في الشتاء، والذين تمزقوا إرباً إرباً فوق الصخور، والذين غرقوا في مياه السند الموحلة، والذين ابتلعتهم التماسيح أو عضتهم الأفاعي، والذين ماتوا من العطش والجوع في الصحراء. هل فكرت فيهم؟ وهل فكرت في الأرامل واليتامى؟ كلا يا مولاي، لأنه من الواضح أنك لم تفعل ذلك، وإلا ما كنت لتقدم على عملٍ من هذا النوع. أصغينا إليك على الدوام، وأطعناك على الدوام، لكن يجب عليك الآن أن تصغي إلينا! لقد اجتمعنا معاً، نحن جنودك، واتخذنا قرارنا. إما أن نبقي جميعاً، أو أن أحداً منا لن يبقى!".

سأل الإسكندر بوجه يوحى بالكدر: "ماذا تحاول أن تقول لي؟".  
رد قائد فرقة المشاة: "إن ما أعنيه هو أنك إذا أرجعت قدامى المحاربين  
المعوقين إلى الوطن، فسيتمنّ عليك أن تعيدنا جميعاً. أجل، إننا عائدون إلى  
الوطن، ويمكنك الاحتفاظ بمؤلاء البرابرة المزودين بدروع صدور جميلة  
مطلية بالذهب، وسنرى ما إذا كانوا قادرين على القيام بالأعمال التي قمنا  
بها، وما إذا كانوا سيبدلون دماءهم من أجلك مثلنا. وداعاً يا مولاي".  
أحنى القادة في تلك المجموعة الصغيرة رؤوسهم قليلاً، ثم استداروا  
وساروا ببطء عائدين إلى معسكرهم.

هَبَّ الإسكندر واقفاً وقد شحب وجهه من فرط الغضب  
والشعور بالإهانة، ثم التفت إلى الفرسان من حرسه الخاص، وقال لهم:  
"هل ترون الأمور بهذه الطريقة أيضاً؟".  
بقي القائد صامتاً.

صاح الملك مجدداً: "ألديكم الشعور ذاته؟".

جاء الرد: "إننا نوافق على ما قاله رفاقنا يا مولاي".

"إذاً، يمكنكم الانصراف، وأنا أعفيكم من واجباتكم. لم أعد  
بحاجة إليكم".

أوماً القائد إشارةً إلى فهمه، ثم جمع رجاله وأخذهم إلى المعسكر  
على عجل.

وبعد فترة قصيرة، حلّت مجموعة من فرقة القادمين الجدد الفرس  
مكان الحرس الملكي. وقف الفرس خارج الخيمة الملكية منذ ذلك  
الوقت متألقين بدروعهم الجديدة وعباءاتهم المطرزة، وأعلامهم ذات  
الألوان الأرجوانية والذهبية.

وفي اليومين التاليين، رفض الإسكندر مقابلة جنوده، كما أنه لم  
ينقل إليهم الأمور التي عزم عليها. وأثار موقفه هذا قلقاً كبيراً لدى كل

الجنود في المعسكر. عندها، شعر الجنود بأنهم قطع من الخراف من دون راع، أو مثل أولاد من دون والد، وشعروا أنهم وحيدون وسط هذه البلاد مترامية الأطراف التي قهروها، ولكنها الآن باتت تكرههم وتسخر منهم. وبرز شعور أقوى من كل تلك المشاعر، وتمثل بالألم الناتج عن إبعادهم عن ملكهم، ومن فكرة أنه يعدّ الآن خططاً أخرى، ويحلم أحلاماً أخرى، وأنه يتخيّل مغامرات استثنائية من دونهم، ومن فكرة عدم رؤيته ثانية، وعدم تواصلهم معه، أو عدم وجود أي علاقة بينهم وبينه من أي نوع كان.

مرّ يومان من دون أن يظهر الملك. وقال بعض الجنود في اليوم الثالث: "لقد ارتكبنا خطأ. إن ما فعلناه كان خطأ. ألم يجنبنا جميعاً على الدوام؟ ألم يعرّض نفسه للصعوبات ذاتها التي مررنا نحن بها؟ ألم يأكل ما أكلناه؟ ألم يُجرح أكثر من أي واحد منا؟ ألم يمنحنا الهدايا والعطايا. دعونا نذهب إلى خيمته، ونطلب منه السماح".

بدأ آخرون بالضحك: "أجل! هكذا! اذهبوا كي تُركل مؤخراتكم جزاء مسعاكم!".

أجاب الرجل الذي كان أول من تكلم: "يُحتمل أن يحصل ذلك، لكنني سأذهب على كل حال، أما أنتم، فيمكنكم أن تفعلوا ما شئتم". نزع الرجل كل أسلحته، ثم خرج من المعسكر حافي القدمين. وحذا آخرون حذوه، وراح عدد هؤلاء يزداد حتى خرج أكثر من نصف عدد الجنود، ووقفوا هناك أمام الخيمة الملكية، بينما وقف الحراس الفرس ينظرون إليهم.

مرّ كراتيروس في تلك اللحظة، ورأى الجنود واقفين هناك. أما بطليموس الذي كان قد رجع من مهمة بمحاذاة نهر دجلة فسأل: "ماذا يحدث هنا؟".

دخلا الخيمة، فقال كراتيروس: "الجنود يقفون في الخارج".  
وسمعا صوتاً يصرخ: "سامحنا يا مولاي!".  
ردّ الإسكندر بلا مبالاة ظاهرة: "لقد سمعتهم".  
صرخ صوت آخر: "أيها الإسكندر! أصغ إلينا!".  
لم يتمكن بطليموس من تجنّب عواطفه: "لماذا لا تخرج إليهم؟ إنهم  
جنودك".

"لن أخرج بعد الآن. لم أكن أنا الذي رفضتهم، بل هم الذين  
استبعدوني، وهم الذين خذلوني".  
لم يُضف بطليموس كلمةً أخرى، لأنه كان يعرف صديقه جيداً  
إلى درجة ألاّ يصرّ على موقفه في تلك اللحظة.  
مرّ يوم وليلة، ثم مرّ يوم آخر، وترافق ذلك مع تصاعد تفجّع  
الجنود، كما أصبحت الأصوات أكثر إلحاحاً.

صاح بطليموس في النهاية: "هذا يكفي الآن! يكفي! لم ينم هؤلاء  
الرجال، ولم يأكلوا شيئاً، منذ يومين وليتين؟ اذهب إليهم الآن إذا  
كنتَ رجلاً! هل يصعب عليك أن تفهمهم؟ أنت ملك وتعرف كل  
شيء عن عمل الإدارات والسياسات، لكنهم يعرفون شيئاً واحداً فقط،  
وهو أنهم تبعوك حتى أطراف الأرض. أعطوك دماً، وها أنت الآن  
تُبعدهم عنك كي تحيط نفسك بأشخاص سبق لك أن طلبتَ من  
جنودك القتال ضدهم بالأمس فقط. ألا تستطيع، حقيقةً، أن تفهم  
مشاعرهم؟ أتعتقد فعلاً أن الأموال التي أعطيتهم إياها تشكل تعويضاً  
عادلاً بالنسبة إليهم؟".

بدا أن شيئاً ما قد تحرك في داخل الإسكندر، فنظر إلى وجه  
بطليموس، وكأنه يسمع هذه الكلمات للمرة الأولى، ثم وقف بعد  
ذلك، وخرجَ بينما كان ضوء النهار يتلاشى تدريجياً.

كان الجيش بأكمله في الخارج، وكان الجنود غير المسلحين بالآلاف ويجلسون على الأرض الترابية، وبدا أن عيون كثيرين منهم تفيض بالدموع.

قال صائحاً: "سمعتكم أيها الرجال! أتعقدون أنني أصم؟ لم أنم لليلتين بسبيكم".

ردّ أحد الجنود مجهولي الاسم من بين مجموعة من الجنود المجتمعين: "ونحن أيضاً لم نتم لليلتين متواصلتين يا مولاي!".

بدأ الإسكندر بالصياح: "هذا لأنكم ناكرو الجميل، ولأنكم عجزتم عن فهمي، ولأنكم...".

تقدّم أحد قدامى الجنود المعوقين، وكان ذا شعرٍ أشعثٍ ولحيةٍ أصابها الشيب وفاقداً إحدى يديه، وحدّق إلى عيني الإسكندر مباشرة وقال: "لأننا نحبك يا ولدي".

عضّ الإسكندر شفته لأنه أدرك بأنه قد يبدأ بالبكاء في أي لحظة مثل طفل. إنه ملك مقدونيا، وملك الملوك، وفرعون مصر، وملك بابل، لكنه يوشك على البكاء مثل ولدٍ صغيرٍ وساذجٍ أمام جنوده. فعل ذلك، فانسكبت دموعه الحارة من دون حتى أن يغطي وجهه. وحين هدأ أخيراً أجابه: "وأنا أحبكم أيضاً أيها البلهاء!".



نظر الإسكندر الذي كان جالساً على عرشه إلى جنوده الذين استدعتهم الأبواق للحضور إليه. وأوماً إلى إيومينيس في إشارةٍ إليه كي يبدأ القراءة:

أنا الإسكندر، ملك مقدونيا، وقائد التحالف الهيليني، أقرر ما يلي:

سرجع قدامى الجنود الذين يثبت بعد إجراء الفحوصات الطبية أنهم غير مؤهلين للقتال إلى الوطن مع القائد كراتيروس. سيتلقى كل واحد منهم هدية شخصية من الملك كي يتذكروه ما داموا أحياء. سيتسلم كل واحد منهم تاجاً ذهبياً، وسيُسمح لهم بوضع التيجان على رؤوسهم في كل المناسبات العامة، وخلال حضورهم المسابقات الرياضية والعروض المسرحية. وسيمنحون في هذه المناسبات مقاعد في منصات الشرف.

يأمر الملك كذلك بأن يستمروا في استلام معاشاتهم لبقية حياتهم. كما أن الأولاد اليتامى سيستمرون في قبض معاشات آبائهم الذين ماتوا في سبيل شرف وطنهم، وذلك إلى أن يبلغوا العشرين من أعمارهم.

سيُعود الحرس الملكي المقدوني إلى لعب دوره. أما أولئك المرضى، أو الجرحى بجروح طفيفة، فسيعالجون ويُعادون إلى الخدمة. ولقد طلب الملك من فيليب، طبيبه الشخصي، العناية بهم.

يعبّر الملك لكم جميعاً عن تعاطفه العميق معكم، وعن امتنانه لكم، إلى الأبد!

دوّت عاصفة من التصفيق الحاد والتهافت بين الجنود الذين قرعوا السيوف على دروعهم، وراحوا يَغْتُون ويصرخون صرخات الفرح. وبعد أربعة أيام، انطلقت القافلة التي يقودها كراتيروس في زحفها نحو الفرات والبحر. وقف الإسكندر وهو يراقب المشهد حتى اختفى آخر رجلٍ عن نظره، ثم قال: "إنهم يأخذون معهم جزءاً مني". ردّ إيومينيس: "إنك على حق، لكن المرسوم الذي أصدرته كان ممتازاً. سيتمكن قدامى الجنود من الدخول إلى المسرح، وحتى أولئك الذين لم يسبق لهم أن دخلوه من قبل، وذلك كي لا تفوتكم فرصة الجلوس على المقاعد المخصّصة لهم، مرتدين علناً التيجان الذهبية التي منحتمهم إياها".

"كيف سيكون ردّ فعل أنتيباتر برأيك؟".

"أتعني عند استبداله بكراتيروس؟ لا أعرف، لكنه أظهر ولاءه على الدوام، وهو الذي خدمك بإخلاص. يُحتمل أنه سيشعر بالمرارة. هذا صحيح، لكن ذلك سيكون لفترة مؤقتة. إنه آخر رجل بقي من حرس والدك القدماء. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟".

"هل تتذكّر الأوكسيانيين؟".

"ومن ينسى أولئك المتوحشين؟".

"تتواجد إلى الشمال من مناطقهم قبيلة أكثر توحشاً. سبق لهذه القبيلة أن ساندت محاولات استرجاع الإمبراطورية الفارسية، وهي قبيلة الكوسانيين. يتعيّن عليّ الانتهاء من هذه المهمة قبل التوجه إلى إيكباتانا، آخر عاصمة للإمبراطورية، وذلك كي أعيد تثبيت سيطرتنا هناك، وكي نتحقق من الخزنة الملكية قبل أن تُخضع الحكام الفاسدين إلى المحاكمة. وبعد ذلك، سنسير بالجيش إلى بابل؛ التي ستكون العاصمة المستقبلية للإمبراطورية".

"وكم ستطول هذه المهمة برأيك؟".  
"ستستغرق شهرين، وربما ثلاثة أشهر".

\*

أخطأ الإسكندر في تقديره. فلقد استغرق إخضاع الأوكسيانيين فصل الربيع بكامله، ولذلك بقي في إيكباتانا معظم فترة فصل الصيف. وتمت محاكمة ثلاثة من كبار الضباط المقدونيين، وهم هيراقل، وميليجر، وأرستونيقوس بتهم الفساد والسرقة وتدنيس الهياكل الفارسية، ولذلك أعدموا على الفور. فأظهر الملك بهذه الطريقة أنه لا يميّز بين المقدونيين والفرس، والواقع هو أن عدداً ضئيلاً من الفرس قد أدينوا بسبب كونهم إداريين فاسدين. وتبين كذلك أن المعلومات التي قدّمها إيمبولوس من سولوي كانت صحيحة في كل هذه القضايا.

وما إن انتهت هذه المحاكمات حتى قرّر الملك تنظيم احتفالات تتضمن ألعاباً وعروضاً مسرحية، وذلك لأن نحو ثلاثة آلاف رياضي، وممثل، ومتعهد حفلات قد وصلوا من اليونان. استقر الملك بعد ذلك مع روكسانا في القصر الملكي. أما ستاتيرا فقد سكنت هي وشقيقتها التي تزوجها الإسكندر في قصر سوسا. وتمكنت الشقيقتان بهذه الطريقة من تجنب غيرة روكسانا التي ازداد نفوذها بعد أن تأكدت من أهميتها بالنسبة إلى زوجها، لأن الإسكندر لم يردّ لها طلباً على الإطلاق. استلقت إلى جانبه ذات مساء بعد علاقتها الحميمة، وأسندت رأسها إلى صدره، وقالت له: "أنا سعيدة الآن بالفعل".

عانقها الملك بحرارة: "إنها لحظة من السعادة العظيمة بالنسبة إليّ كذلك. عاد أسطولي سالماً وبأمان، وأنجزت كل عملياتي العسكرية، كما تصالحت مع جنودي، وتمكنت من توحيد شعبين عن طريق الزواج، وعمّا قريب سيكون لديّ ابن".

قالت روكسانا ضاحكة: "انتظر لحظة. يُحتمل أن تكون ابنة".  
ردّ الإسكندر: "آه! كلا. إنني متأكد من أن المولود سيكون  
صبيّاً، وسأعطيه لقب الإسكندر الرابع! ستكونين أمّاً لولي عهدي يا  
روكسانا. أريد أن أحتفل بهذه المناسبة، ولذلك سأنظّم احتفالات  
كبيرة، وسباقات، وعروضاً مسرحية على الطريقة اليونانية. هذه أمور  
لم تشاهديها من قبل، لكنني متأكد من أنك ستعتادين عليها على  
الفور. أتخيلين مئات العربات التي تجرّها أربعة جياد، وهي تتسابق  
حول طريق بسرعات كبيرة؟ أتخيلين كذلك قصصاً تمثّل على مسارح  
صناعية، يمثلها رجال حقيقيون يتظاهرون بأنهم شخصيات القصة؟  
أتخيلين كذلك رياضيين يتنافسون في سباقات ركض، ومصارعة،  
وقفز، ورمي الرمح؟ يمكنك كذلك أن تتخيلي الرقص، والموسيقى،  
والغناء..."

نظرت إليه روكسانا مغمورة بالإعجاب والدهشة لأنها رأته، منذ  
أن تركت موطنها الجبلي الذي يسكنه الرعاة، كل أنواع العجائب.  
ولذلك كانت حياتها مع الإسكندر التي بدت بالنسبة إليها عظيمة جداً،  
أشبه بحلم لا ينتهي.

بدأت بعد ذلك الاحتفالات والمآدب، لكن هيفاستيون مرض في  
تلك الفترة، فهرع الملك لرؤية صديقه ما إن أبلغه إيومينيس بهذه  
الأخبار المقلقة.

سأل الملك على الفور: "ما خطبه؟".

ردّ إيومينيس: "أصيب بحمى وغيثان".

"أحضر فيليب إلى هنا".

"هل نسيت أننا تركناه في سوسا؟ لكنني أرسلت في طلب

غلو كوس، وهو طبيب ممتاز".

تمكّن هيفاستيون من المزاح بالرغم من الحمى التي أصابته: "لا أريد أطباء. أحضروا إليّ قارورة من الشراب القبرصي، وأنا سأعالج نفسي".  
ردّ الإسكندر: "لا تكسّن سخيفاً. ستفعل ما يأمرك به الطبيب بالضبط".

وصل غلوكوس بسرعة. كشف عن صدر المريض وأصغى. صاح هيفاستيون: "لماذا تكون آذان الأطباء باردةً ومتجمدةً على الدوام؟".  
قال إيومينيس مماًزحاً: "إذا كنتَ تريد طبيباً ذا أذنين دافئتين، فعليك أن تطلب ذلك، فصديقك ملك هذا العالم، ولذلك يُمكنه أن يُحضر إليك مَنْ تريده وما تريده".

بدأ غلوكوس بفحص بطن هيفاستيون فوجده متورماً ومنقبضاً.  
"أعتقد أنه أكل شيئاً أضره كثيراً. سأصف له مسهلاً، ويجب عليه أن يصوم مدةً ثلاثة أيام على الأقل، وألاً يشرب سوى الماء".  
"هل أنت متأكد من أن هذا هو العلاج الصحيح؟".

"أعتقد أن فيليب كان سيقول لك الأمر ذاته. كنت سأرسل إليه مبعوثاً كي أطلب استشارته لو لم يكن بعيداً جداً، لكنني لا أعتقد أن هذا ضروري بالفعل. يتعيّن أن يشفى مرضٌ من هذا النوع في وقت أقل مما يستغرقه المبعوث كي يصل إلى سوسا".

"هذا جيد، لكن تأكد بأن تبقى ساهراً عليه، لأن هيفاستيون هو صديقي العزيز. بقينا على صداقتنا هذه منذ أن كنا صغيرين". حدّق الإسكندر خلال حديثه إلى القلادة الذهبية التي يعلّقها هيفاستيون حول عنقه، والتي تحمل سنّاً صغيرة؛ وهي سنّ الملك. وكانت سنّ هيفاستيون معلقة حول عنقه هو، كرمز إلى الصداقة الأبدية التي جمعتهما.

قال الطبيب: "لا تخف يا مولاي. سنعيد إلى هيفاستيون عافيته التامة في وقتٍ قصير".

غادر الإسكندر، وما لبث الطبيب أن أعطى هيفاستيون مسهلاً، وترك تعليماته بشأن الوجبات الغذائية التي يتعين عليه تناولها. "سيكون كل شيء على ما يرام في غضون ثلاثة أيام، وستتمكن من تناول القليل من مرق الدجاج".

تحسّن هيفاستيون بالفعل بعد مرور ثلاثة أيام، فتقلّص الورم في بطنه كثيراً، كما خفّت الحمى، بالرغم من أن حرارته قد ارتفعت قليلاً عند المساء. تضمّن برنامج الألعاب في ذلك اليوم سباقاً للعربات ذات العجلات الأربع، وكان غلوكوس هاوياً لسباقات الأحصنة، لكنه مرّ بمنزل هيفاستيون كي يفحص مريضه، وعندما لاحظ أن حالته قد تحسنت كثيراً سأله إذا كان يستطيع أن يغيب عنه لساعات عدة. وقال له: "أيها القائد، سيُقام سباق عربات مثير هذا اليوم. أودّ رؤيته إذا لم يكن عندك مانع".

ردّ هيفاستيون: "لا مانع عندي بالطبع. اذهب واستمتع".  
"هل أستطيع الذهاب من دون أن أقلق؟ هل ستنتبه إلى نفسك".  
"بالطبع يا طبيي. إنني لا أخشى الحمى بعد خدمة عشر سنين في الجيش وخوضي الكثير من الحملات العسكرية".  
"سأعود قبل حلول الليل على كل حال".

ترك غلوكوس هيفاستيون الذي كان يشعر بالتعب نتيجة الصيام عن الطعام، وبسبب تناول المسهلات. عندها، نادى هيفاستيون أحد الخدم، وأمره بأن يشوي له دجاجات عدة وأن يقدمها إليه مع بعض الشراب المثلج.

"بدأ الخادم بالاعتراض: "لكن، سيدي...".  
قال له هيفاستيون مؤثباً: "هل ستطيعني، أم تريدني أن أمر بجلدك؟".

لاحظ الخادم أنه ليس أمامه أي خيار، ففعل ما أمر به. شوى  
الدجاجات، وانصرف كي يحضر الشراب المحفوظ في إناءٍ من الثلج  
المضغوط والمحفوظ في أحد الأقبية.

\*

وحين أوشكت الشمس على المغيب، حضر غلوكوس الذي كان  
في حالة سرورٍ بالغ، ودخل غرفة نوم مريضه. سأله: "كيف حال  
محاربنا الشجاع؟". ولفتت انتباهه على الفور بقايا الدجاجتين، وقارورة  
الشراب الفارغة المرمية في إحدى الزوايا. شُحِب لون وجهه على  
الفور، والتفت ببطء نحو السرير الذي لم يتمكن هيفاستيون من  
الوصول إليه. كان صديق الإسكندر مستلقياً على الأرض منهاراً؛ لا  
بل ميتاً.

أعلم الإسكندر بالخبر على الفور، فهرع إلى منزل صديقه على أمل أن يكون الأمر مجرد سوء فهم. وعند وصوله وجد هناك إيومينيس، وبطليموس، وسلوقس، وبيرديكاس الذين كانوا قد سبقوه إلى المنزل، فأدرك من النظرات التي ارتسمت على وجوههم أنه ليس هناك أمل على الإطلاق.

في هذا الوقت، كان صديقه قد وُضع على السرير بعد أن مشطوا له شعره، وحلقوا له لحيته، وألبسوه ثياباً نظيفة. ألقى الإسكندر بنفسه فوق الجثة، وراح يصرخ ويكي يائساً. ثم جلس بعد أن نفّس عن أكثر أحزانه حدةً في إحدى الزوايا مسنداً وجهه إلى كفيّه، وراح يبكي بصمت. بقيَ على هذا الوضع كل الليل، وطيلة اليوم التالي. وسمع الأصدقاء الذين كانوا ينتظرون في الخارج أنه بين حين وآخر، كما سمعوا أنفاسه المتقطعة والخافتة، وسمعوه كذلك عندما كان ينفجر في نوبات نشيجٍ لا عزاء لها.

وعند مغيب شمس اليوم التالي، قرّر الأصدقاء دخول الغرفة. قال بطليموس: "تعال، وغادر هذا المكان. إن كل ما نستطيع فعله له الآن هو تحضير جنازته".

صاح الملك يائساً: "لا. اتركوني وشأني، لا يمكنني أن أترك صديقي البائس!". لكن أصدقاءه أجبروه على الوقوف، ثم جرّوه إلى الخارج كي يسمحوا لرجال التحنيط بالدخول، وهم الذين كانوا ينتظرون في الخارج من أجل تحنيط الجثة.



راح الإسكندر يثنّ ويقول: "إنها غلطي. إنها غلطي، فلو لم أترك فيليب في سوسا لكان أنقذه، ولكن الآن لا يزال على قيد الحياة". قال سلوقس: "انشغلنا عنه مؤقتاً للأسف. ولقد تركه الطبيب بمفرده، وذهب كي يشاهد السباقات و...".

سأل الإسكندر وملامح وجهه توحى بالرعب الشديد: "ماذا قلت؟".

"هذا ما حدث مع الأسف. يُحتمل أنه اعتقد أن الخطر قد زال. ويبدو أنه ما إن أصبح هيفاستيون بمفرده حتى أفرط في الطعام والشراب، وتناول اللحم والشراب المتلج و...".

صاح الإسكندر: "اعثروا عليه! اعثروا على ذلك الجرذ. أريده أمامي على الفور!".

عثر الحراس على الطبيب البائس مختبئاً في القبو. أحضروه إلى الملك وقد هرب اللون من وجهه، وكان جسده يرتعش بالكامل. حاول متمماً إيجاد عذر له، لكن الإسكندر صاح به: "اسكت أيها البائس!". ولكم الملك غلوكوس لكمةً شديدة على وجهه. وكانت اللكمة قوية حيث أرسلته متدحرجاً فوق التراب، كما شقّت شفته.

قال الملك: "أعدموه في الحال". أخذه الحراس إلى الخارج بينما أخذ في البكاء متوسلاً الرأفة. أنزلوه إلى الباحة، وأسندوه إلى أحد الجدران حيث تابع البكاء والتوسل. صاح الضابط: "الآن!". فأطلق الرماة أسهمهم في اللحظة ذاتها.

أصابت كل الأسهم هدفها، فأنهار غلوكوس متخبطاً في بركة من الدماء والبول من دون أن يصدر عنه أي صوت.

\*

بقي الإسكندر غارقاً في لجة من اليأس لأيام عدة. وسيطرت عليه بعد ذلك، وبشكل مفاجئ، نوبة غريبة وشديدة تدفعه لتكريم صديقه الأعز على قلبه. أراد تكريمه من خلال إقامة جنازة له تكون أكثر الجنازات مهابة شهدها العالم على الإطلاق. بعث الملك وفداً إلى ضالع آمون في سيوة كي يسأل ما إذا كان آمون يسمح له بتقديم أضحيات إلى هيفاستيون مثل تلك التي تليق ببطل. وأعطى الملك بعد ذلك جيشه الأوامر بالانطلاق إلى بابل، وأخذ جثة صديقه المحنطة معه من أجل إقامة طقوس الجنازة هناك.

لم يتفهم كل رفاقه هذا التعبير المفرط عن الحزن، بالرغم من أنهم يحبون هيفاستيون جميعاً. وعجز ليوناتوس عن فهم الغاية من إرسال الإسكندر طلباً للضالع في سيوة.

شرح بطليموس بالقول: "يؤسس الإسكندر دين عامله الجديد بأسياده وأبطاله. مات هيفاستيون، لكنه يريد أن يكون أحد أوائل أبطال ذلك العالم، وذلك كي يعيش كأسطورة. بدأ الإسكندر منذ زمن بأخذنا إلى عالم الأسطورة. أتفهمون ذلك؟".

هزّ ليوناتوس رأسه: "مات من سوء الهضم، وأنا لا أرى أي شيء بطولي في ذلك".

"ولهذا السبب يعدّ له مراسم جنازية متقنة. وفي النهاية لن يظل في أذهان الناس إلا هذا المغزى: يشبه حزن الإسكندر على هيفاستيون حزن آخيل على باتروكلوس. لا يهم كيف مات هيفاستيون، لأن ما يهم هو كيف عاش حياته. عاش مثل محاربٍ عظيم، وصديقٍ عظيم، وهو الشاب الذي أوقعته الأقدار قبل أوانه".

أوماً ليوناتوس، بالرغم من عدم تأكده من فهمه ما كان بطليموس يحاول أن يقوله، لكنه أدرك بالغريزة أن ثاناتوس قد تسلل إلى

أحد جنود الإسكندر، وحمل معه أول الأصدقاء السبعة، وراح يتساءل عن هوية الضحية التالية.

حضر بعض الضالعين الكلدانيين خلال الزحف نحو بابل كي يحذروا الإسكندر من دخول المدينة. وقالوا له إنه إذا عَبَّرَ بواباتها فهو لن يغادرها أبداً. فاستشار الإسكندر أريستاندر وسأله: "ما رأيك؟".  
"هل يمنعك أي شيء من القيام بالأمر التي تقرّر القيام بها؟".  
ردّ الملك: "لا".

"إذاً، اذهب، لأن أقدارنا هي، على كل حال، بأيدي الأسياد".  
دخل الجيش المدينة في بداية فصل الربيع. وأقام الإسكندر في القصر الملكي، وبدأ بإعطاء الأوامر بإقامة المحرقة التي كانت عبارة عن برج يبلغ ارتفاعه مئة وأربعين كيوبيتاً، ويستند إلى منصة صناعية يبلغ كل ضلعٍ من أضلاعها نصف ستاديوم.

أشرف دياديس من لاريسا، وهو كبير مهندسي الإسكندر، على التصميم وأعمال البناء التي نفذها جيشٌ من التجارين والرّسامين والنحاتين. ارتفع ذلك الهيكل الضخم بعلو خمسة طوابق، كما زُيّن بالتماثيل التي تمثّل الفيلة، والأسود، وكل أنواع الكائنات الأسطورية، بالإضافة إلى لوحاتٍ كبيرة منقوشة تمثّل مشاهد من الصراع بين حبارين، والصراع بين مخلوقات نصفها رجال ونصفها جياذ. برزت كذلك مشاعل ضخمة مغلقةً بصفائح من الذهب الخالص من الزوايا، كما وُضعت في أقصى البرج تماثيل بالأحجام الحقيقية لجنيات البحر محمولة على نعوش. نُقلت جثة هيفاستيون المحنّطة على أكتاف جنود الهيتايروي من سرّيته، وذلك بعد انتهاء أعمال تشييد تلك المحرقة الضخمة. سار الإسكندر ورفاقه وراءه إلى أن وصلوا إلى قاعدة البرج. وهناك، رُفعت الجثة المحنّطة باستخدام الآلات التي صُمّمت خصيصاً

لهذا الغرض، ثم وُضعت فوق النعش. ما إن توارت الشمس خلف الأفق حتى أشعل الكهّان النار في البرج. هبّت ألسنة اللهب على الفور، وغلّفت كل شيء في أثناء التهامها التماثيل، واللوحات المنقوشة، وبقية الرخارف، والندور الكثيرة.

شاهد الإسكندر هذا المنظر الرهيب والبربري من دون أن يذرف أي دمعَة، لكنه لاحظ الذهول الذي تركه المشهد في نفوس كل الحاضرين، الذين دُهبوا من عرض القوة هذا الذي لم يروا له مثيلاً من قبل، ومن هذه الأمور المبالغ فيها. نظر الإسكندر إلى أعلى البرج الذي كان على وشك الانهيار مصدراً صريراً مخيفاً قبل أن يصبح طعماً للنار. تصوّر نفسه فجأة طفلاً من جديد، يحب في باحة القصر في بيلا، وذلك كي يتبادل تذكارات الصداقة الأبدية مع صديقٍ صغير كان قد التقاه لتوه. سأله هيفاستيون في ذلك الوقت: "حتى الموت؟". فردّ عليه حينها: "حتى الموت".

تحركت يده نحو عنقه بصورة غريزية، وبحث عن التذكار الموجود في حاملته الذهبية، والذي كان عبارة عن سن الحليب الخاصّة بصديقه. نزع السلسلة من عنقه ورمّاها وسط اللهب. غمرته موجة لا متناهية من الكآبة عندما فعل ذلك، وغرق في لجّة لا قعر لها من الحزن. غاب إلى الأبد أول أصدقائه السبعة، وأعزّهم على قلبه، وهم الذين وحّدتهم الوعد ذاته والحلم ذاته. لقد أبعدته الموت وها هي الرياح تحمل الآن رماده.

\*

انتهى فصل الربيع فبدأ الإسكندر برسم خططه من جديد، وبالتفكير في أحلامه بالسيطرة على العالم، بينما بدأ بطن روكسانا يكبر مع تقدّم حملها. أمر الملك بحفر ميناءٍ ضخم على ضفتي نهر الفرات

حيث يستطيع استيعاب أكثر من خمسمئة سفينة، كما خطط بالاشتراك مع نيرخوس لبناء أسطول جديد يستطيع نقلهم بعيداً من أجل استكشاف بلاد العرب، وسواحل الخليج. نقل الفينيقيون أربعين سفينة مفكّكة إلى بعد يصل حتى تابساكوس الواقعة في سوريا العليا، ثم جمّعوها وأطلقوها في مياه النهر. سارت السفن نزولاً مع مجرى النهر إلى أن وصلت إلى العاصمة، وكانت مجهزةً بأفراد طاقمها الذين جاءوا من صيدون (صيدا)، وأرواد، وبيبلوس (جبيل). كان كل واحد منهم مستعداً للاشتراك في هذه المغامرة التي ستأخذهم إلى مناطق بعيدة من بلاد العرب المجهولة بالنسبة إليهم. تشكل أسطولٌ بكامله من السفن التي تحوي خمسة صفوفٍ من المجاذيف، أو أربعة، أو ثلاثة، وكذلك من ثلاثين سفينة أخرى *penteconters*، والتي نُقلت كلها في غضون شهرين من ساحل البحر المتوسط إلى الأقيانوس الجنوبي. لم يقبل الملك الشاب الذي لا يُقهر أن يستبعد أي شيء يقف في طريقه.

أتت إليه وفود من كل أنحاء العالم: من ليبيا، وإيطاليا، وإيبيريا، والنبونطوس، وأرمينيا، والهند، وذلك للإعراب عن ولائهم له، وكي يقدموا إليه الهدايا، وليطلبوا منه الإذن للدخول في تحالفات. رحّب بهم جميعاً في قصره الفخم، وبين عجائب بابل التي كانت تتحضّر كي تكون عاصمة العالم المعروف.

وفي أحد أيام أوائل فصل الصيف، قرّر الإسكندر أن يُبحر في السبالاكوباس، وهي قناة مخصصة لتصريف المياه كي لا تفيض على المزروعات، وذلك بينما كان نهر الفرات في أوج مدّه.

تسلّم الملك شخصياً قيادة الدفة إلى جانب نيرخوس، وراح ينظر مندهشاً إلى البرك الكبيرة التي تناثرت هنا وهناك على جانبي القناة، والتي ظهرت تحت سطوحها قبور قدامى ملوك الكلدانيين وهي نصف

مغمورة بالمياه. هبّت نسمة مفاجئة فأوقعت قبعته العريضة التي اعتاد استخدامها كي يحمي نفسه من الشمس، وكان شريطاً من الذهب يلتف حولها؛ وهو الإكليل الذي يمثل عظمة الملك.

غرقت القبعة، لكن الشريط الذهبي علق بين حزمة قصب. غطس أحد البحارة في الماء على الفور، وتمكّن من الإمساك بالإكليل، لكنه خاف من إفساده إذا أمسكه بيده في أثناء سباحته نحو السفينة، ولذلك وضعه على رأسه. ذهل الجميع من هذه الحادثة المشؤومة، وذلك بعد أن رُفِع الرجل إلى السفينة. اقترح الضالعون الكلدانيون الذين كانوا برفقة الملك أن يُكافأ الرجل لأنه أنقذ الإكليل الملكي، وأن يُقتل بعد ذلك مباشرةً بهدف إبعاد أي حظ سيئ عن الملك.

ردّ الملك بأن الجلد القاسي سيكون كافياً لمعاقبته على هذه البادرة المدنسة، وما لبث الملك بعد ذلك أن وضع الإكليل حول رأسه مجدداً. سعى نيرخوس إلى تسليّة الملك، فحدّثه عن تلك الحملة العظيمة على بلاد العرب، لكنه لاحظ وجود ظلال قائمة تغطى نظرة الإسكندر، وكانت شبيهة بتلك الظلال التي ظهرت على وجهه في أثناء حرق جثمان كالاانوس.

وبعد مرور أيام عدة، كان الإسكندر جالساً على عرشه، وكان يراقب مناورات فرسانه خارج أسوار المدينة. وقف الإسكندر في لحظة معينة كي يتحدّث إلى القادة، فاغتنم رجلٌ غريب فرصة انشغال الجميع بالفرسان وأنشطتهم، وتسلّل من بين أمناء الخزانة، وجلس على عرش الملك، وراح يضحك بجنون. قتل الحراس الفرس الرجل على الفور، لكنّ الضالعين الكلدانيين قرعوا صدورهم، وخذشوا وجوههم عندما رأوا أسوأ نذير شؤمٍ يُمكن أن يحدث.

طرد الإسكندر عنه أكثر الأفكار إثارةً للكآبة التي نتجت عن كل هذه الإشارات السيئة، وذلك بسبب حبه لروكسانا، وبسبب رغبته في رؤية ولده.

قال الملك: "أتساءل ما إذا سيثبتهك أنت، أم سيثبتهني أنا. يقول معلّمِي أرسطو إن المرأة هي مجرد وعاء لبذرة الذكّر، لكنني أعتقد أنه حتى هو نفسه لا يصدّق هذه النظرية، لأنّه من الواضح أن بعض الأفراد يشبهون أمهاتهم أكثر من آبائهم. خذيني أنا على سبيل المثال".

"ماذا؟ وكيف تشبه والدتك؟"

"ستعرفين عما قريب. سأستدعيها إلى هنا عندما يولد ابني. إنها جميلة، ولكن مرّت عشر سنين... وكانت عشر سنين صعبة بالنسبة إليها".

انتشرت الشائعات عن كل نذور الشؤم تلك بين أصدقائه، فتنافسوا جميعاً على دعوته إلى ولائهم كي يرفعوا معنوياته. قبل الإسكندر دعواتهم كلها، ولم يرفض دعوة واحد منهم، وأمضى فترات النهار والليالي وهو يأكل ويشرب من دون قيد. وعاد ذات مساء من إحدى هذه الدعوات وهو يشعر أنه ليس على ما يُرام. وقال إنه يشعر بالدوار، وإن أذنيه تطنّان، لكنه لم يعطِ الأمر أهميةً. أخذ حماماً، ثم توجّه للنوم إلى جانب روكسانا التي كانت قد استسلمت للنوم قبله، بينما كان أحد المشاعل يشتعل في الغرفة.

انتابته حمى في اليوم التالي، لكنه نهض بالرغم من ذلك، وبالرغم من إصرار الملكة على ضرورة بقائه في السرير. وتوجّه عند الظهر كي يتناول الطعام مع أحد أصدقائه من اليونانيين، والذي انضمّ إليه قبل وقت قصير في بابل، وكان يُدعى ميديوس. وعندما حلّ المساء، شعر الإسكندر بألم حادّ ومفاجئ في جهته اليمنى وكان لا يزال يتناول

طعامه. كان الألم شديداً إلى درجة أنه بدأ يصرخ. رفعه الخدم وجعلوه يستلقي على سرير، فبدأ الألم يخفّ تدريجياً.

استدعي أحد الأطباء بسرعة كي يفحصه، لكنه لم يجرؤ على لمس المنطقة التي كان الملك يحسّ فيها بالألم. ارتفعت حرارته كثيراً في هذا الوقت، وشعر بأنه متعب حتى الموت.

"أريد نقلك إلى القصر يا مولاي".

ردّ الإسكندر: "لا. سأبقى هنا هذه الليلة. أنا متأكد من أنني سأكون في حال أفضل في الغد".

مكث الملك في منزل ميدبوس تلك الليلة، لكن حرارته لم تنخفض عند الصباح بل ارتفعت أكثر.

استمرت حالته في التدهور عند حلول اليوم الثالث، ولكنه لم يظهر أنه قلقٌ بشكلٍ خاص. دعا رؤساء أركان جيشه إلى الاجتماع، وبالرغم من أن نيرخوس ورفاقه أدركوا أنه مريض، إلا أنهم استمروا في مناقشة تفاصيل الحملة وموعد مغادرتهم.

اقترح بطليموس: "لماذا لا نؤجل كل شيء إلى وقت لاحق. يتعيّن عليك أن تستريح قليلاً، وأن تنال قسطاً من العناية كي تستعيد نشاطك مجدداً. يُحتمل أنه يتعيّن عليك أن تتعد عن هذا المكان، فالحرارة هنا لا تطاق لذلك يصعب عليك النوم. ألم تتساءل عن السبب الذي كان يدفع الملك داريوس إلى تمضية فصول الصيف في إيكباتانا، أي في المناطق الجبلية العالية؟".

ردّ الإسكندر: "ليس أمامي ما يكفي من الوقت للصعود إلى الجبال، وليس أمامي وقتٌ كي أنتظر انخفاض حرارتي، فهي ستخفض عندما تقرر ذلك. أريد، ببساطة، المضي قُدماً في هذا الوقت. ماذا تعرف يا نيرخوس عن بلاد العرب وعن مدى اتساعها؟".



"يقول بعضهم إنها كبيرة مثل الهند، لكن يصعب عليّ تصديق هذا".

ردّ الإسكندر: "سنعرف ذلك عما قريب على كل حال. فكروا في الأمر يا أصدقائي. إنها بلاد التوابل والبخور والصبّار، وصمغ نبات المرّ".

تظاهر الرفاق بالحماسة، لكنهم أدركوا في أعماقهم أن كلماته هذه نذير شؤم، لأن الملك قد سمّى من دون أن ينتبه مجموعة من العطور التي تُستخدم في تحنيط الموتى.

أرسلت روكسانا في طلب فيليب الذي كان في ذلك الوقت يرافق فرقة من الجيش أرسلت إلى شمال المدينة، وذلك كي يعالج المرضى الذين أصيبوا بوباء الزحار. ولكن حينما وصل الجندي الذي أرسلته الملكة إلى المعسكر كان فيليب قد انطلق شمالاً من دون أن يترك إشارات محددة عن كيفية إيجاده.

استمر الإسكندر في الأيام الثلاثة التالية في القيام بواجباته وحضور اجتماعاته، كما ترأس مراسم تقديم الأضحيات إلى الأسياد، واجتمع برفاقه، وذلك لتنظيم الحملة في بلاد العرب. ولكن، اتضح للجميع أن حالته ما زالت تتدهور.

ظهر بعض التحسّن في حالة الملك عندما عُثر على فيليب أخيراً. فلقد انخفضت الحرارة، وتبادل الإسكندر كلمات قليلة مع طبيبه وقال له: "عرفت أنك ستأتي يا طيبيي. أعرف الآن أنني سأتحسّن".

ردّ فيليب: "ستتحسّن بالطبع. أتذكر ذلك الوقت عندما كنت شبه ميت بعد أن سبحت في ذلك النهر المتجمد؟".

"يبدو وكأن ذلك قد حدث بالأمس".

"أتذكر المذكرة التي بعثها إليك ذلك البائس بارمينيون؟".

"أجل. أذكر رسالته التي قال فيها إنك تقوم بتسميمي".  
راح فيليب يضحك وهو يقول: "كانت المعلومات صحيحة.  
كنت أدرس لك السمّ الذي كان من شأنه أن يقتل فيلاً، لكنه لم يؤثر  
فيك قط! اكتسبت لياقةً بدنية أفضل مما كنت عليه في السابق. إذًا، هل  
سيتمكن ارتفاع بسيط في درجة الحرارة من التأثير فيك برأيك؟".  
ابتسم الإسكندر: "أنا لا أصدّقك. ولكن، لطفٌ منك أن تقول  
ذلك".

وفي اليوم التالي، ساءت حال الإسكندر كثيراً.  
ناشدت روكسانا فيليب قائلة: "أنقذه أيها الطبيب. أنقذه  
أرجوك". هزّ فيليب رأسه دلالةً على عجزه عن إنقاذه، بينما راحت  
ليبتين تبكي وهي تغسل جبهة الإسكندر في محاولة يائسة منها كي  
ترجحه قليلاً.

عجز الإسكندر في اليوم التالي عن الوقوف بينما ازدادت الحمى  
كثيراً. ونُقل الملك بواسطة نقالة إلى القصر الصيفي حيث يكون الهواء  
عليلاً عند المساء، وأمر فيليب باستخدام الحمامات الباردة من أجل  
تخفيض الحرارة، لكن كل جهود الطبيب باءت بالفشل. في هذه الأثناء،  
غرقت روكسانا في يأس كامل، ورفضت أن تتركه ولو للحظة،  
وأمرت به بقبلاتها ومداعباتها. ولازمه رفاقه ليلاً ونهاراً من دون أن  
يستريحوا، أو حتى من دون أن يتناولوا طعاماً.

وهرع سلوقس إلى هيكل السيّد مردوك، وهو حامي المدينة،  
وسيّد الشفاء. وطلب من الضالعين نقل الإسكندر إلى الهيكل كي  
يشفى، لكنهم أجابوه: "لا يريد السيّد أن يُنقل الإسكندر إلى هنا".

فعاد إلى القصر وهو يشعر بالغمّ، واجتمع مع الرفاق ومع فيليب  
كي يُبلغهم بنتيجة مهمته.

صاح لايسيماخوس: "كان يجب عليك أن تقتل أولئك الضالعين.  
وإذا كانوا عاجزين عن شفاء الملك فما نفع وجودهم؟".

قال بيرديكاس: "أعتقد أنه سينجو هذه المرة. لا تقلقوا لأنه مرّ  
بجالات أسوأ من هذه".

حَدَّقَ إليه فيليب بعينين تحملان حزناً كبيراً، ثم دخل إلى غرفة  
الملك. طلب الإسكندر أن يشرب ماءً بصوتٍ كاد أن يكون غير  
مفهوم.

عجز الملك في اليوم التالي عن الكلام هائياً.

انتشرت الأخبار بين الجنود عن مرض الملك الشديد، وقال  
بعضهم إنه مات فعلاً، فتوافدت مجموعات عديدة منهم إلى القصر  
ووقفت قبالة المدخل، وهَدَّدت بخلع الأبواب إذا لم يسمح لها  
بالدخول.

قال بطليموس وهو ينزل إلى غرفة الحرس: "سأذهب وأستطلع  
الأمر".

صاح أحد قدامى الجنود: "نريد أن نعرف حالة الملك!".  
طأطأ بطليموس رأسه، وقال: "الملك يحتضر. تعالوا الآن  
وشاهدوه واحداً تلو الآخر ولكن بصمت. دعوه ينعم ببعض الهدوء في  
ساعاته الأخيرة".

صعد الجنود الدرج بصفٍّ واحد؛ الواحد تلو الآخر، وساروا عبر  
الممرات إلى سرير الملك المحتضر. مرّوا أمامه والدموع تفيض من  
أعينهم، وودَّعوه بإشارة صغيرة بأيديهم. نظر الإسكندر إلى كلِّ واحدٍ  
منهم وأوماً إليهم بحركة تكاد تكون غير ملحوظة.

تواجد جميع رجاله قربه، وهم الجنود الذين رافقوه عبر ألف  
مغامرة، وهم الرجال الفولاذيون الذين أخضعوا أنهر النيل، ودجلة،

والفرات، والسند. رأى الإسكندر وجوههم التي ترك الجليد والشمس آثارهما عليها، كما رأى وجناهم الخشنة وقد ترطبت بالدموع. وفجأةً، عجز عن رؤية أي شيء، لكنه سمع بكاء روكسانا اليائس، ونشيج ليستين، وأخيراً سمع صوت بطليموس وهو يقول: "لقد انتهى الأمر... مات الإسكندر".

\*

فكّر في والدته، وفكّر كيف أن انتظارها له كان عبثاً. فكّر في أنه قد يتمكن من رؤيتها في أعلى برج في القصر وهي تصرخ وتبكي وتناديه يائسةً: "أيها الإسكندر، لا تذهب... عدّ إليّ أتوسّل إليك!". بدا له أن تلك الصرخة قد أعادته للحظة فقط. شيئاً فشيئاً بدأت تلك الكلمات، وتلك الصرخات، وذلك الوجه بالتلاشي بعيداً، إلى أن ضاعت كلها وسط الرياح... فرأى نفسه أمام سهل لا حدود له، وأمام مرج مليء بالأزهار، ثم سمع نباح كلب، لكنه لم يكن ذلك النباح المحزن لسربيروس الحارس، بل كان صوت بيريتاس! كان يعدو نحوه مبهجاً إلى حدّ الجنون، أي تماماً كما كان في ذلك اليوم الذي عاد فيه من فترة النفي. سمع في ذلك السهل مترامي الأطراف عدواً مدوياً، وما لبث أن سمع بعد ذلك صوت صهيل ترددت أصداؤه في الأرجاء. كان ذلك بوسيفالاس وهو يعدو نحوه بعرفه الذي يتماوج مع الريح، وسرعان ما امتطى الإسكندر صهوة جواده مثل ما فعل أول مرة في ذلك اليوم في مييزا، وصاح به: "انطلق يا بوسيفالاس!". فانطلق الجواد مثل بيغاسوس (الحصان المجنح) متوجّهاً نحو الأفق الأخير، نحو النور.



## خاتمة

"كان جسدي لا يزال دافئاً عندما بدأنا بالجدال حول مَنْ سيخلفك، كما تحاربنا من أجل هذا الأمر لسنوات عديدة. لم تعد أنت بيننا بعد الآن، واختفى ذلك الحلم الذي جمعنا في ما مضى. اختارت لبيتين اللحاق بك، فوجدناها محتضرةً قرب سريرك بعد أن قطعت شرايين معصمها. أما الملكة سيسيجامبيس فقد غطت وجهها بنقاب أسود، وامتنعت عن تناول الطعام حتى ماتت جوعاً. لكن روكسانا اختارت أن تعيش كي يتمكن ابنك من العيش.

حقق بيرديكاس حلمه في النهاية فتزوج كليوباترا، لكنه كان أول من سقط في محاولة الحفاظ على وحدة إمبراطوريتك. سقط في معركة ضد جيوشي. يا لبيرديكاس المسكين!

أما الأمر المستغرب هنا فهو أنه بالرغم من أننا تحاربنا بمرارة، وعقدنا التحالفات في ما بيننا ونقضناها، إلا أننا لم نكره بعضنا بعضاً في الحقيقة، بل حافظنا جميعاً على صداقتنا بمعنى من المعاني. اجتمعنا في بابل ذات مرة بعد مرور سنوات عدة على موتك، وذلك في سعي منّا إلى التوصل إلى نوعٍ من أنواع الاتفاق. ولكن، سرعان ما تحوّل ذلك الاجتماع إلى مواجهة. عندها، ظهر إيومينيس فجأة من وراء أحد الأبواب، وألقى عباءتك ووصولاً فوق عرشك الفارغ، فتوقف الجدال على الفور، وكان ذلك حدث بقدره قادر. حينها هدأت أصواتنا، وكذلك هدأت فجأة نظراتنا وملامح وجوهنا. تمكّنت من الرجوع كي تجلس بيننا ولو للحظة واحدة. وقفنا أمام تلك العبادة، وأمام ذلك العرش الخالي وكأنك عاودت الظهور أمامنا فجأة وبمعجزة.

لم نكن أهلاً لك، ولكننا حاولنا مع ذلك أن نقلدك في كل شيء: أمرنا أن تُرسم بالأوضاع التي كنت تُرسم بها ورؤوسنا مائلة قليلاً نحو أكتافنا اليمنى، وشعر رؤوسنا ممشط حيث يرتفع أمام جبهاتنا؛ حتى من كانوا ذوي شعرٍ خفيف. كان كل ما نحاول فعله، ببساطة، هو استغلال صورتك. لم نمتلك الجرأة حتى لإنقاذ عائلتك التي دُمّرت وأبديت من دون رحمة عن طريق ملاحظة هامشية كتبت في أسفل اتفاقية: "إذا تعرّض الطفل للسوء، فإن مقدونيا ستستمر...". كان الأمر يشبه الحكم عليه بالموت. يا لهول ما حصل، لأن زوجتك، ووالدتك، وابنتك، ماتوا جميعاً. إن تعطينا إلى السلطة ترك أرواحنا عطشى هي الأخرى، فتحولنا إلى وحوش.

وسرعان ما تخلينا عن زوجاتنا الفارسيات اللواتي اخترهن لنا في ما عدا سلوقس، الذي أحبّ زوجته أباما، وأطلق اسمها على مدن جميلة عدة.

أما سلوقس... فقد كان الإسكندر الجديد لبعض الوقت، وكاد أن ينجح في إعادة الحياة إلى إمبراطوريتك. ولقد تقدّم الآن في السنّ مثلي تماماً، كما تلازمه الأوجاع والآلام. سبق لنا أن أعلنّا الحرب أكثر من مرة، أو بالأحرى اشتبك جيشانا عند الحدود في سيليسيريا، وهي منطقة حدودية بقيت من دون تحديد بشكل واضح حتى بعد عقد إحدى المعاهدات العديدة، لكننا بقينا على علاقة جيدة على الدوام وكأننا صديقان حميمان.

لا أعرف كيف أصبحت أحواله في هذا الوقت، لكنني أفترض أنه يقترب من نهايته هو الآخر. أما بالنسبة إليّ، فقد مرّ عامان على تركي صولجان الملك لصالح ابني، بطليموس الثاني. فعلت ذلك كي أتفرغ لكتابة هذه القصة. أما الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أفخر به، عدا

عن قراري ترك السلطة قبل أن يجبرني الموت على ذلك، فهو أنني  
أحضرتك إلى هنا، إلى إسكندريتك وهي المكان الوحيد الذي يليق  
بك. آه! كم أود لو تراها الآن! إنها جميلة بالفعل، بل إنها مدينة رائعة  
ومزدهرة، أي مثل ما حلمت تماماً. أتذكر؟

كنا شباناً في ذلك الوقت، وكانت أرواحنا تلتهب بأحلام رسمتها  
لنا. كنا مثل أسياد عندما كنا نسير حولك فوق صهوات جيانا  
متألقين بدروعنا.

أستعيد كل هذه الأشياء في ذهني الآن، بعد أن انتهيت من  
كتابة الفصل الأخير من تاريخي، وكأنها تحدث مجدداً. سمعت  
أحاديثنا، ودعاباتنا، وجدالاتنا، ورأيت ليوناتوس يسير بجواده  
حولنا. أتذكر كل ذلك؟ سُنسخ كل ذلك بطريقة صحيحة،  
وسيكون النصّ جيداً، وسيحرر بحسب القواعد التي علمنا إياها  
أساتذتنا في بيلا ومييزا. لكنني أفضل أن أتذكر كل ذلك بالطريقة  
التي كتبت بها، أي بهذه الطريقة؛ أي قصتنا كما عشتها مجدداً يوماً  
بיום، ولحظةً بلحظة.

أنهيت هذا اليوم كل ما يتعين عليّ القيام به. فعندما شعرت  
بأنفاس ثاناتوس الباردة حول عنقي، قررت أن آتي إلى هنا كي أتمكن  
من نسيان كل ما حدث بعد أن غادرتنا، وكي أموت بسلام إلى  
جانبك يا صديقي العزيز.

حان الوقت الآن ليجتمع جنود الإسكندر مجدداً، مثل ما فعلوا  
عندما أتينا كي نلتقيك في إيليريا فوق تلك البحيرة المتجمدة، وفوق  
الثلج الذي كان يتساقط بغزارة. حان الوقت الآن كي نغمض أعيننا،  
وأعين أولئك الذين عاشوا فترة طويلة جداً. سنكون معاً عندما نستيقظ  
مجدداً، وسنكون شباناً ووسماء كما كنا ذات يوم، وسنكون مستعدين



للسير معك، وإلى جانبك كي نقوم بمغامرتنا الأخيرة. لكنها، هذه المرة، ستكون مغامرةً إلى الأبد".

## ملاحظة المؤلف

كان قصدي من وراء كتابة قصة الإسكندر بأسلوب معاصر هو رواية إحدى أعظم المغامرات التي حدثت في كل الأزمان، وبأكثر الطرائق واقعية والتزاماً. ومع ذلك، سعيت دوماً إلى أن أبقى مخلصاً للمصادر قدر الإمكان؛ الأدبية أو المادية على حد سواء.

عمدت في عملي هذا إلى استخدام لغة هي - بالإجمال - عصرية نسبياً، وذلك لأن العالم الهيليني كان عصرياً بطرائق متعددة: في الفن، وفي الإبداع الهندسي، وفي التقدم التقني والعلمي، وترافق كل ذلك مع تذوق كل جديد ومدعش. وحاولت بالرغم من كل ذلك أن أجتنب الإكثار من استخدام العبارات غير المناسبة للسياق التاريخي. فلقد استخدمت، على سبيل المثال، في الحقل العسكري تعابير عسكرية مثل سرية أو قائد وذلك بدلاً من لوجوس وستراتيوجوس، وهما كلمتان يصعب فهمهما - ربما - بالنسبة إلى معظم القراء. أما في الحقل الطبي فقد أبقيت على استخدام كلمة مبضع للإشارة إلى الأداة الجراحية الموثقة جيداً في الدراسات الأثرية. أما بالنسبة إلى العبارات القديمة التي بقيت مفهومة بالنسبة إلى قارئ هذه الأيام فقد فضّلت الإبقاء عليها.

سعيت كذلك إلى الإبقاء على اللغة المستخدمة عند شخصيات متنوعة في دوائر محددة (رجال، نساء، جنود، ساقطات، أطباء، فنانون، ضالعون). ورجعت في هذا المجال إلى الشعراء الهزليين (وعلى الأخص أريستوفان وميناندر)، وإلى كتاب الأمثال قبل الآخرين، لأن فن هؤلاء كان يتطلب منهم استخدام لغة واقعية، حتى في المجالات الشعبية

والسوقية. كان هؤلاء الشعراء أنفسهم مصدرًا ثمينًا في ما يتعلق بمظاهر عديدة في الحياة اليومية، مثل الموضة، والمأكولات، والأمثال، والمأثورات.

\*

أما بالنسبة إلى الأحداث التاريخية، فقد استفدت على الأخص من بلوتارك، وديودوروس سيكيلوس، وآريان، وكورتيوس روفوس، مع إشارات قليلة إلى تروغوس وقصة الإسكندر. ورجعت في ما يتعلق بالخلفيات العرقية والسلوكية إلى أكثر الدلائل حيوية الموجودة في مقاطع من مؤلفات بليبي، وفاليريوس ماكسيموس، وثيوفراستوس، وبوزانياس، وديوجينيس لايرتيوس، لكنني استفدت كذلك من مصادر متعددة مثل زينوفون، وهيليان، وأبولودوروس، وسترابو، وبالطبع ديموستين وأرسطو، بالإضافة إلى مقاطع متفرقة من أعمال المؤرخين اليونانيين الضائعة. استفدت كذلك من المراجع الأثرية بشكل عام لتدعيم إعادة تصوير الأمكنة، وداخل الأبنية، والتجهيزات، والأسلحة، وأدوات الزينة، والأثاث، والآلات، والأدوات الأخرى، بالإضافة إلى القبر الملكي المكتشف حديثاً في فرجينيا، وهي كلها أمور سمحت لي بإعادة رسم جنازة فيليب الثاني بصورة واقعية.

أما عندما تقدّمت قصة القائد المقدوني لتأخذ سياقها التاريخي الحقيقي، فقد واجهت خيارات قصصية محددة، والتي تبين في ما بعد أنّها خيارات تاريخية، امتدت أحياناً إلى ما يتعدى التفسيرات التقليدية. وهنا، تصلح معركة غرانيكوس لتكون مثلاً في هذا السياق، وهي المعركة التي فضّلت فيها وضع ما أعتقد أنه إعادة تكوين أكثر واقعية مما أورده كاليستين في نصوصه التي كتبها.

وأقدمت كذلك على دمج شخصيتين مختلفتين، وهما إسكندر لينزيستيس وإمينتاس في شخصية واحدة هي إمينتاس، وذلك كي

أجنب الارتباك الذي كان سيُشعر به القارئ، والذي كان سيُضيق بين هذه الشخصية وشخصيتين أُخرين تحملان اسم الإسكندر. وحافظت بالرغم من ذلك على المشاكل المتعلقة بالظروف (السلالية، والسياسية، والنفسية) التي أحاطت بهذين الشخصين.

وبالرغم من كل ذلك، بذلت جهوداً في إعادة رسم طبيعة الحِصارات الطبوغرافية، والتكتيكية، والاستراتيجية التي فُرضت على ميليتوس، وهاليكارناسوس، وصور، وكذلك الأمر بالنسبة إلى معركة إيسوس، واشتمل الأمر على زيارة ميدانية قمت بها إلى ميدان المعركة. أما المصادر الأدبية التي استندت إليها في الجزء الثاني فكانت بالإضافة إلى تلك التي سبق الإشارة إليها، وبالإضافة إلى مصادر هيرودتس (مثل الإشارة إلى الأفاعي الطائرة) مقتطفات من أشعار هوميروس وهزود، بالإضافة إلى بعض المقتطفات من الصفحات التقنية من كتاب استراتيجيماتا لآيناس تاكتيكوس وفرونينوس. استخدمت كذلك مصادر مادية عدة، ولا شك في أن القارئ النبیه سيتعرف إلى بعضها في الأعمال الفنية، والنقود، والفسيفساء. يُضاف إلى ذلك صور الوجه التي كانت مصدر إلهام مستمر، بالإضافة إلى المعلومات الحديثة المستقاة من الحفريات في مواقع مسماة عدة. وأجريت كذلك دراسات ميدانية شاملة في كل هذه الأماكن وفي مناسبات عدة.

\*

يُحتمل أن يكون الجزء الأخير من قصة الإسكندر هو الأكثر تعقيداً، والأكثر تطلباً، من زاوية تفسير الوقائع. إذ إن بعض الأحداث الواردة في مصادر كثيرة تنسم بالغموض الكامل، مثل الحريق الذي شَنَّ في بيرسيبوليس، وكذلك موت كلايتوس الأسود، والمؤامرتين اللتين خطط فيهما لاغتيال الإسكندر، والتي اشتملت إحداهما على فيلوتاس،

فيما اشتملت الأخرى على التابعين. لا تتضمن مهمة هذه القصة كشف الغموض عن المشاكل التي كانت موضع جدال واسع في عالم الأدب التاريخي، وبالتحديد لأنه يجب على القصة أن تحافظ على نظرة أكثر شمولية، تفتقد إليها البحوث المتخصصة. ويمكننا إعطاء مثال على ذلك المشهد الذي يسأل فيه بارمينيون الإسكندر عن الهدف من وراء تدمير بيرسيبوليس.

صوّرت القصة، على كل حال، بصدق حياة ذلك الفاتح المقدوني، حتى في لحظاته الأقل جاذبية، والأقل تشریفاً. وأجريت مع ذلك تحسناً طفيفاً على بعض الحوادث التي أبرزتها المصادر بصورة سلبية، وذلك كي أقدم ما يُمكن أن يكون السيناريو الأكثر واقعية وأصالة.

يُحتمل أن يكون لدى القراء - الذكور والإناث - ولكن الإناث منهم تحديداً، الانطباع بأن بعض الشخصيات النسائية كان يُمكن أن تكون ذات مكانة أكثر أهمية عند الشخصية الرئيسة في هذه الرواية، لكنني أركز في هذا المجال أيضاً على رغبتني في تقديم الأمور بأكثر ما يُمكن من الصدقية بالنسبة إلى الظروف الحقيقية للمجتمع في ذلك الوقت، وذلك في ما يتعلق بشخصية الإسكندر. إذ تُغفل المصادر القديمة الشخصيات الأنثوية إغفالاً يكاد يكون تاماً، لكنني حاولت أن أعطي هذه الشخصيات وزناً أكبر، وأن أعيد تصوير حضورها وتأثيرها في الحوادث التي ترويها القصة، وذلك عن طريق اعتماد بعض العمليات المنطقية.

يُمكن اعتبار إعادة رسم التضاريس التي وقعت فيها الأحداث أمراً تقريبياً، ويعود ذلك، مع الأسف، إلى ضياع إيفيميريديس، وهو الكتاب الذي يُحتمل أن يكون إيومينيس من كارديا قد كتبه، وكذلك

تقارير ضباط الزحف الوارد ذكرهم في هذا الكتاب، والتي كانت ستقدم وصفاً أكثر دقةً لمخطط سير الحملة، وهو الأمر الذي منعنا من تكوين صورة أكثر واقعية.

**فالريو ماسيمو مانفريدي**



«الآن لا يمنعني من الوصول إلى الحد الأخير سوى القدر،

وأموج الأقيانوس الساكن.

كان من الأجدى السعي وراء

الحلم الذي يجعل الروح تتوهج

بينما الشمس تضيء الغابات عند مغيبها.

الحلم، ذلك الظل الأزلي للحقيقة».



تستمر رحلة الإسكندر الملحمية في قلب آسيا

حتى تصل به إلى متاهات الهند.

ويستمر الجيش المقدوني في زحفه، ساحقاً المقاومة التي يلقاها عند كل منعطف. وها

هي عجائب بابل تُنهَب بسرعة، ويتحول قصر بيرسيبوليس إلى رماد بفعل الحرائق،

وتدمر الإمبراطورية كي تبدأ حقبة جديدة دامية.

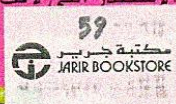
كانت هناك أمور أخرى تشغل بال الإسكندر، فبدأً يتملكه مشروعه الطموح الهادف

إلى توحيد شعوب الإمبراطورية في أمة واحدة يحكمها، إلى حين يلتقي الملكة روكسانا

ويغرم بها، منحه حبه لها القوة من أجل تحقيق قدره المحتوم...

هذا هو الجزء الأخير من قصة رائعة ومثيرة ورومنسية، وخاتمة مدهشة لثلاثية

الإسكندر التي لاقت رواجاً عالمياً.



نيلا وهرات كوم

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت  
في مكتبة نيل وهرات كوم

[www.nwf.com](http://www.nwf.com)

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.

[www.asp.com.lb](http://www.asp.com.lb) - [www.aspbooks.com](http://www.aspbooks.com)

ISBN 978-614-01-0135-7



9 786140 101357

تصميم الغلاف: سامح خلف